

أوزبكستان ومنابع الحضارة الإسلامية

أحمد عبده طرابيك

أسم الكتاب : أوزبكستان ومنابع الحضارة الإسلامية

أسم المؤلف : أحمد عبده طراييك

رقم الإيداع : 2017 \ 27527

الترقيم الدولي : 978-977-5304-81-0

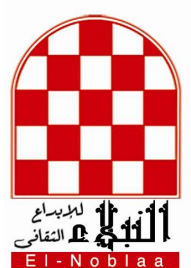
الناشر : النبلاء للأبداع الثقافي



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف و غير مسموح بإعادة نشر أو إقتباس الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه علي أجهزة إسترجاع أو إسترداد إلكترونية أو نقلة بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من المؤلف أو الناشر .

أوزبكستان ومنابع الحضارة الإسلامية

أحمد عبده طرابيك



إهداء

إلى أرواح العلماء والقادة الذين صنعوا مجد أمتنا
الإسلامية، وأسهموا في بناء حضارتها الخالدة .

أحمد عبده طرابيك

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي سيد المرسلين سيدنا محمد وعلي آله وأصحابه أجمعين ، وبعد .

فقد فتح المسلمون بلاد ما وراء النهر " آسيا الوسطي " في القرن السابع الميلادي وقد أسهم علماء ما وراء النهر إسهامات أنارت الطريق في كافة ميادين العلم والمعرفة وكان لها تأثير ديني وثقافي أثري الحضارة الإسلامية وامتد ليثري بلاد الغرب ، وكفي هذه البلاد فخراً وتيهاً أن أنجبت أهل العلم والفقه والتقي والنقي أمثال : الإمام البخاري والترمذي والشاشي والسمرقندي والنسفي والقفال الشاشي والجرجاني وغيرهم كثير في ميادين عديدة لا يسع هذا التقديم لحصرهم .

كما لم تحرم هذه البلاد من القادة والحكام الذين خدموا الإسلام كالغزنوي وتيمور وأرسلان ، وكل هؤلاء العلماء والقادة العظماء جمعهم فكر وانتماء واحد هو الإسلام الذي دعا لأمة واحدة ذات حضارة سامية لا تفرق بين بني البشر ، فلا فرق بين أبيض وأسود وأصفر وأحمر ، ولا فرق بين عربي وأعجمي ، فالكل سواء أمام التكليف والحقوق الإسلامية ، وهذا ما دعا سكان تلك البلاد إلي اعتناق الإسلام وكان منهم العلماء الأجلاء الذين خدموا الإسلام والمسلمين بنور علمهم ونقاء وصفاء قلوبهم وبصيرتهم وقدموا للإنسانية حضارة إسلامية شاملة كاملة فاقت كل الأوصاف ، ولا عجب فالإسلام دين عالمي جاء لهداية الناس أجمعين ، قال الله تعالى " وأرسلناك للناس كافة " ، وقال تعالى " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " .

ومؤلفنا العزيز وجب شكره لاهتمامه بهذه المنطقة ودراستها تاريخياً وثقافياً وعلمياً وسياسياً ودينياً ، وهي بلاد تستحق الاهتمام بها ، والقرب منها ، والقيام بالواجب نحوها والتعرف علي تاريخها المشرق وعلي العلماء الذين أسعدوا المسلمين بعلمهم وخدموا الإسلام بمصنفاتهم ومؤلفاتهم وبرعوا في ذلك حتي بلغوا شأناً كبيراً وقدراً عظيماً .

فلا غرو ولا عجب أن ينقب مؤلفنا علي معدن الرجال الذي غلا معدنهم وازدهر العلم والدين الإسلامي علي أيديهم ، ووجب أن نتعرف عليهم ونعلم أبناءنا سيرتهم وجهدهم ليتخذوه قدوة في القول والعمل وليخدموا مجتمعاتهم وأمتهم وهي خير أمة أخرجت

للناس بنص كتاب الله " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " .

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد؛

أ . د / أسامة العبد

عضو مجلس النواب

رئيس لجنة الشؤون الدينية والأوقاف

عضو مجمع البحوث الإسلامية

رئيس جامعة الأزهر الأسبق

مقدمة

نهضت الأمة الإسلامية وأقامت حضارتها التي أبهرت العالم بإنجازاتها العلمية والثقافية ، بفضل جهود أعلام عظام ، عزَّ تاريخ الإنسانية القديم والحديث أن يوجد بمثلهم ؛ ولا غروَ فهم رواد الحضارة وأعلامها ، وهم صور رائعة تعكس سمو هذه الحضارة الإسلامية الإنسانية ، حتى صاروا مرادفاً لها ؛ وغداً ذكراً لهم ذكراً لهذه الحضارة ، وغدت دراسة حياتهم دراسة لها أيضاً ، والاقتداء بهم شرف لكل من أراد السير علي دربهم .

بلغ البحث العلمي قمته في الحضارة الإسلامية ، مع بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ، وقد صاحب تلك الطفرة العلمية ، نهضة ثقافية وحضارية شملت العلوم الإنسانية والفنون والعمارة وعلوم اللغة ، حيث سادت اللغة العربية بعدما أصبحت لغة العلم والثقافة ، وقد أخذ هذا كله شكل حركة دائبة في داخل حضارة متكاملة نشطة ، وتعددت أسماء العلماء في مختلف مجالات وفروع العلم والمعرفة ورغم انتماء هؤلاء العلماء لأصول اجتماعية متغيرة في اللغة والقومية والجغرافيا ، إلا أنه قد صهرتهم الثقافة الجديدة التي نشأوا فيها وتحركوا في داخلها ، حركة عمادها الخبرة والثقة في الذات ، والرؤى النافذة التي لاح لهم من خلالها طرق لم يسلكها أحد من قبل في الثقافات التي خلت وأصبحت اللغة العربية لغة كل المعارف ، وأصبحت المدن الإسلامية حواضر يقصدها طلاب العلوم من مختلف أرجاء الأرض ، جمعتهم أهداف سامية ، هي الاجتهاد من أجل الرقي بأممتهم وبناء مجدها الخالد .

ارتبطت آسيا الوسطى بالحضارة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي حينما فتحها العرب المسلمون وأطلقوا عليها "بلاد ما وراء النهر" ، وقدمت منذ ذلك الحين الكثير من العلماء الذين كانت لهم إسهامات مشهودة في علوم الرياضيات والطب والفلسفة والحديث والفقه واللغة ، وقد ساهمت بلاد آسيا الوسطى المعروفة حالياً بهذا الاسم " أوزبكستان، طاجيكستان، قيرغيزستان ، تركمانستان كازاخستان " ، بقسط وافر في الموروث الحضاري الإسلامي ، حيث تعتبر من أكثر بقاع العالم الإسلامي ثراءً من

حيث مواطن العلماء الذين أثروا الحضارة الإسلامية بعلمهم الواسع في مختلف فروع العلوم والمعرفة ، ويرجع ذلك إلى أن سكان المنطقة عرفوا استقراراً حول نهري **سيحون وجيحون** الذي انتشرت حولهما التحضر وال عمران ، وقد أثرت ثنائية " **بدو حضر** " في منطقة ما وراء النهر وخراسان فظهرت في أوزبكستان أغلب الحواضر ذات التأثير الثقافي والديني **كسمرقند وبخارى وترمز ، وشاش وخوارزم ، وغيرها .** يعبر إنتاج علماء المسلمين الضخم في مجال العلوم والرياضيات عن المكانة العظيمة التي وصلت إليها الحضارة العربية والإسلامية ، ولا شك أن لعلماء العرب والمسلمين في هذا الحقل أثراً لا ينكر شأنه وقدره في قيام المدنية الحديثة التي ما كان لها أن تنشب وتزدهر في بلاد الغرب لو لم تعتمد على أساس قوي من هذا التراث الإسلامي ، فقد تمكن علماء الإسلام من صهر إسهامات الأمم السابقة مع إسهاماتهم في بوتقة واحدة ليقدموا للإنسانية حضارة إسلامية متكاملة .

إذا كان انتشار الإسلام في بخاري ، وبلاد ما وراء النهر في حملات العرب الأولى قد لقيت مقاومة وصعوبة ، إلا أنه بعد ذلك بفترة وجيزة أقبل سكان تلك البلاد لإعتناق الإسلام عن وعي وإدراك وإيمان وبدون إلزام أو إكراه ، فأخذت قبائل الترك تعتنق الإسلام أفواجا ، وبنسلكون في زمرة المجاهدين الفاتحين لنشر الدين الحنيف وإعلاء كلمة الله .

توطدت دعائم الإسلام في وسط آسيا، وازدهرت في عصر **أبي جعفر المنصور العباسي** ، وبدأت العلاقات تتوثق بين شعوب تركستان وبين المركز الإسلامي في بغداد في عهد الخليفة **عبد الملك بن مروان وابنه سليمان بن عبد الملك** ومن ثم ارتبطت آسيا الوسطى كلها " **تركستان ، أفغانستان ، إيران** " بالقيادة المركزية الإسلامية ومن هذه البلاد تدفق العلماء الأجلاء ، كما تدفقت الأموال الطائلة إلي المركز الإسلامي في بغداد ، وحتى أن المؤرخين وصفوا بلدان آسيا الوسطى بأنها الدرة الثمينة في تاج الخليفة العباسي .

بلغت الحضارة الإسلامية في عواصم **تركستان "بخاري، سمرقند ، شاش ، خيوه مرو"** في العصر العباسي مكانة رفيعة ، وأنشئت معاهد علمية ومدارس للتعليم في كل مدينة

فانتشرت اللغة العربية انتشاراً سريعاً واسعاً بين السكان حتّى كادت تصبح هي اللغة السائدة .

وقد بلغت المعاهد والمدارس في آسيا الوسطي، سيما في بخاري وسمرقند وطشقند ومرو آنذاك درجةً ساميةً تضاهي بغداد والأندلس ومصر، فكان يفد إليها الطلاب من الشرق والغرب، وهكذا خرّجت تلك المعاهد والمدارس كثيراً من كبار العلماء الذين تركوا لمن بعدهم مؤلفاتهم الزاخرة ، وثمرات أفكارهم التي يستضيء بها العلماء والباحثون إلى يوم الناس هذا .

اقترن العديد من أسماء العلماء في أغلب الأحوال بمسقط رأسهم ، أو نسبوا إلي المدن والقرى التي عاشوا فيها، أمثال " البخاري، الترمذي ، الشاشي ، السمرقندي الفراغاني " ، وغيرهم " وهي مدنٌ وقرى معروفة إلى اليوم بأسمائها القديمة أو تم تعديل بعضها مثل شاش التي أصبحت طشقند عاصمة أوزبكستان حالياً .

ولقد واجهت صعوبات كثيرة في تحديد هويّة وموطن بعض العلماء والقادة الذين لم تقتنر أسماءهم بمدن أو قرى بشكل مباشر، هذا فضلاً عن تشابك أصول بعض تلك الشخصيات وتعدد مواطنها ، علي سبيل المثال العالم الكبير " ابن سينا " الذي ينتمي لأصوله الفارسية من أهل " بلخ " ولكنه ولد ونشأ في إحدى قرى " بخاري " ، ولذلك فإنه من عظيم الشرف أن نقول أكثر من دولة أنه ينتمي إليها وقد اجتهدت قدر الطاقة في ذلك الأمر، فإن أصبتُ بفضلٍ من الله ونعمتٍ ، وإن أخطأتُ فألتمس المعذرة .

وقد وضعت ترتيب الشخصيات في الكتاب وفق الترتيب الزمني لشخصيات كل فصل علي حدة ، دون تقضيل في الترتيب لأي شخصية علي الأخرى .

لم يكن الهدف من سرد سير هؤلاء العلماء والقادة هو التحيز لدولة أو منطقة جغرافية بعينها دون غيرها، خاصة أن تلك المناطق كانت لفترات تاريخية طويلة دولة واحدة ، ولم تكن تعرف الحدود والفواصل المعروفة بين الدول حالياً ، فمما يزيدنا فخرًا واعتزازًا هو أن هؤلاء العلماء ينتمون إلي أمة واحدة هي الأمة الإسلامية وأرض الإسلام التي أسهموا بجهودهم في بناء حضارتها، في وقت كان فيه العالم يعيش في جهل ويتخبط في أحوال العصور الوسطي المظلمة .

إنَّ الهدفَ الأسمى من هذا الكتاب هو التعريف بهؤلاء العلماء الأفاضل ، وذكر ما قدَّموه للحضارة الإسلامية والإنسانية جميعًا ، للاقتداء بهم ، واستلهام روح العزيمة والإرادة والمثابرة التي عاشوا بها ؛ أملًا في تجاوز تلك الفترة الحالكة التي تمر بها الأمة الإسلامية ، والوصول بعالمنا الإسلامي إلى المكانة التي تليق بأمة جاءت رسالتها النبيلة للمساواة بين البشر، ونشر مبادئ السَّلام والمحبة والعدالة، لتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والفوز برضا الله تعالى وجناته في الآخرة .

والله من وراء القصد وهو يهدي السَّبِيل.....،،،

أحمد عبده طرلييك

12 أغسطس 2017

الباب الأول



أوزبكستان مهد الحضارة الإسلامية

الفصل الأول

التاريخ والجغرافيا

الموقع :-

يتميز موقع أوزبكستان كغيرها من الدول ذات الحضارات العريقة بالحماية الجغرافية الطبيعية ، فقد تعاقب علي أرض أوزبكستان العديد من الحضارات التي نشأت معتمدة علي مياه نهري **أموداريا وسرداريا** ، وقد جعلها الموقع الجغرافي كمحمية طبيعية حيث تحيط بتلك الأرض الخصبة الصحاري الشاسعة والجبال الشاهقة من جميع الجهات .

تقع جمهورية أوزبكستان في وسط قارة آسيا ، ضمن إقليم ما يعرف باسم "آسيا الوسطي" الذي يضم خمس دول كانت ضمن الاتحاد السوفيتي السابق هي " **أوزبكستان كازاخستان ، تاجيكستان ، قرغيزستان ، تركمانستان** " ، حيث تقع أوزبكستان بين خطي طول 60 ، 80 شرقاً ، وخطي عرض 40 ، 50 شمالاً ، ويحدها من الشمال والغرب كازاخستان ، ومن الجنوب أفغانستان وتركمانستان ، ومن الشرق قرغيزستان وطاجيكستان وتبلغ المساحة الإجمالية لأوزبكستان 447400 كيلو متر مربع ، بحدود برية مع الدول المجاورة تصل إلي 6221 كيلو متراً ، أطولها مع كازاخستان بطول 2203 كيلو متراً ، ومع تركمانستان بطول 1621 كيلو متراً ، ومع طاجيكستان بطول 1161 كيلو متراً ، ومع قرغيزستان بطول 1099 كيلو متراً ، ومع أفغانستان بطول 137 كيلو متراً . وتعد أوزبكستان دولة حبيسة ، أي ليس لها سواحل علي أي من البحار أو المحيطات المفتوحة ولكنها تطل علي بحر آرال الذي يقع داخل أراضيها بالمشاركة مع كازاخستان بساحل يبلغ 240 كيلو متراً .

وتضم **جمهورية أوزبكستان** إدارياً جمهورية " **قره قلباقستان** " ذاتية الحكم ، واثنا عشرة ولاية تضم مائة وثلاث وستون منطقة ريفية ، ومائة وتسعة عشر مدينة .

موقع **أوزبكستان** الجغرافي الفريد ، حيث تحيط بها الصحراء من جميع الجهات جعلها واحة طبيعية بحدود طبيعية ، الأمر الذي جعل أرضها منبعاً خصباً للحضارة العريقة التي نشأت فيها ، شأنها في ذلك شأن الدول أصحاب الحضارات العريقة مثل الحضارة الصينية والمصرية والهندية ، وبلاد الرافدين في العراق ، وغيرها ، التي نشأت حول الأنهار الكبرى فقد كانت الأنهار بمثابة شريان الحياة لتلك الحضارات ، حيث استوطن

الإنسان القديم في تلك المناطق الخصبة ، وكانت الصحراء حدودًا طبيعية لصد هجمات الأعداء الذين يحاولون الوصول إليها .

ومع تطور الحياة البشرية حول نهري سرداريا وأموداريا ، نشأت في أوزبكستان حضارة عريقة استطاعت التواصل مع غيرها من الحضارات الأخرى ، ومن ثم فقد خضعت أوزبكستان لقوانين الحضارات ، بالإزدهار فترة ، والإنكسار والضعف فترة أخرى ، حتَّى وصلت إلي ما هي عليه في تلك الأيام كغيرها من الدول ذات الحضارات المشابهة .

مظاهر السطح :-

اشتهرت أوزبكستان منذ القدم بخصوبة أراضيها ، وجمال مناظرها الطبيعية ، خاصة في أيام الربيع والصيف ، وبالتلوج في موسم الشتاء ، إلا أن هناك قمماً من الجبال متوجة بالتلوج الدائمة ، ولذلك يكون الجو بصفة عامة في أوزبكستان جو قاري حار في الصيف شديد البرودة في الشتاء .

ويتميز سطح الأرض في أوزبكستان بالتنوع الجغرافي ، ففي الشمال توجد سهول " طوران " والتي تحيط ببحر آرال ، وفي وسط أوزبكستان حيث إقليم " قراقل باك " توجد سهول " قيزيل " أي الرمال الحمراء ، وهي سهول فسيحة تغطيها الكثبان الرملية تظهر بها بعض التلال الصخرية ، وفي الجنوب توجد المناطق الجبلية في أوزبكستان ، والذي يتكون من سفوح جبال " تيان شان وبامير " ، حيث تتساقط إلى القسم السهلي روافد نهريّة تتجه إلى نهر " سيحون " (سيرداريا) ، أو نهر " جيحون " (أموداريا) اللذان ينبعان من جبال " تيان شان " ، " بامير " ، ويصبان في بحر " آرال " ، وعلي روافد هذين النهرين توجد المدن الهامة والرئيسية في أوزبكستان مثل " طشقند " ، " بخاري " سمرقند " .

تغطي الصحراء نحو 80 % من مساحة أوزبكستان ، ويوجد بها الكثير من المرتفعات الجبلية ، والتي يصل ارتفاع بعضها إلى 4500 متراً ، ويعد وادي " فرغانه " الواقع في الشمال الشرقي مركز التكديس السكاني ، حيث تنتشر الزراعة ، وتزدهر الصناعة ويحيط بهذا الوادي سلسلة من الجبال يقطعها نهر " سيحون " (سيرداريا) .

ويمكن تقسيم التضاريس في أوزبكستان إلى ثلاثة نماذج أساسية :

● **الصحارى وأشباه الصحارى :** حيث يشكل القسم الأكبر من أوزبكستان أراضي صحراوية مليئة بالرمال المتحركة في بعض الجهات ، أهمها صحراء " قره قوم " التي تمتد من سواحل آرال إلى إمارة خيوة ، وصحراء " قزىل قوم " التي تقع شرقي بحر آرال ، وبين نهر سيحون " سرداريا " ، و" جيحون " أموداريا " ، وتمتد إلى الجانب الشمالي لجبال " كوههاي مهاجر " (الجبال المهاجرة) ، وصحراء " مويون قوم "

التي تقع جنوب غرب بحيرة " بالقاش " ، وصحراء " تاو قوم " التي تقع علي ساحل نهر " إيلي " .

وهذه الصحاري يكون فيها الشتاء بارد جداً ، ويكثر بها الثلوج ، وفي فصل الربيع ومع ذوبان الثلوج تتبث فيها أنواع من النباتات والزهور التي تكون مراعي غنية للأغنام والماشية ، ومع حلول الصيف تجف تلك النباتات ، ويعيش في تلك الصحاري في الغالب قبائل بدوية من القرغيز والقازاق والتركمان ويتنقلون حيث المراعي .

● **مناطق قليلة الارتفاع :** تتألف من تلال ذوات تربة خصبة من أصلها الغابي وتغطي نحو 15% من المساحة العامة .

● **المناطق الجبلية :** في الجزأين الشرقي والجنوب الشرقي من البلاد ، وتتخللها منخفضات فيها بحيرات داخلية ، وأودية تفصل بين سلاسل جبلية مرتفعة تنفرع نحو الغرب .

نشأت تضاريس أوزبكستان من نهوض سلاسل جبلية في حقب الحياة القديمة "الباليوزوي" قبل ما يزيد على 300 مليون عام ، في الزمن الذي تكونت فيه الصفائح الطورانية القارية التي نهضت في أعقاب تكون سلسلة جبال " تيان شان - بامير " شرقي أوزبكستان ، حتى بلغت نهايتها في عهد الحركات الألبية ، التي رفعت الرسوبات البحرية مكونة سطحاً تضاريسياً مكشوفاً ، وقد أدى نهوض السلاسل الجبلية في شرقي أوزبكستان إلى فصل أراضيها عن البحار، ونشوء مناخ ساعد على تكون الصحارى في القسم الغربي منها ، وقد غير تحرك رمال صحراء " قره قوم " مجرى نهر " جيحون " (أموداري " ، الذي كان يصب أصلاً في بحر " قزوين " (الخزر) والذي يصب اليوم في بحر " آرال " ، وبتأثير العوامل الطبيعية المختلفة اتخذت أراضي أوزبكستان أشكالاً مستوية ، إلا مناطق تضاريس " الباليوزوي " ، فقد برزت فيها جبال منفردة في صحراء " قيزيل قوم " أهمها جبال " سلطان " ، و " يزداغ " ، و " تامديتاو " و " كولجوكتا " ، و " بوكانتاو " التي يزيد ارتفاعاتها على 500 متراً فوق مستوى سطح البحر ، في حين ترتفع جبال " تيان شان " و " بامير " و " آلاي " ، ذات البنية الالوتائية إلى أكثر من 2000 متراً .

يعتبر وادي فرغانة من أهم الأقاليم الجغرافية في أوزبكستان ، فالوادي الذي يقع بين ثلاث دول في آسيا الوسطي ، وتقتسمه كل من أوزبكستان وقيرغيزستان وتاجيكستان ويرتفع عن مستوي سطح البحر ما بين 1200 إلى 1500 قدم " 460 متراً " ، محاط بالجبال من ثلاث جهات ، حيث تحده من الشمال الغربي جبال كُرمَين ، و جبال شاتقال من جهة الشمال ، وجبال فرغانة من الشرق ، وجبال آلاي وتركستان من الجنوب ، ويبلغ طوله حوالي مئة وخمسين كيلو متراً ، وعرضه حوالي ثلاثمائة كيلومتراً ، ومفتوح من الجهة الجنوب الغربي بما يعرف ببوابة " چودشاند " ، والتي يبلغ عرضها 9 كيلومترات .

ويعتبر الوادي من أخصب المناطق في آسيا الوسطي ، ويستمد خصوبته من نهري نارين وقارا داريا ، و اللذان يلتقيان قرب مدينة نمگان ليشكلا نهر " سير داريا " أو ما يعرف تاريخياً بنهر " سيحون " .

ويعتبر الوادي مصدراً غنياً للمحصولات الزراعية المتنوعة ، و أرضاً مثالية للرعي .

● **المياه :** تُدرُّ ثروة أوزبكستان من المياه بنحو 60 مليون متر مكعب سنوياً أغلبها يأتي من المرتفعات والجبال خارج حدودها ولايزيد ما يأتي من أراضيها على 12.5 مليون متراً مكعباً ، وتخضع أشكال الجريان لنظام الأحواض المغلقة وهي معرضة للتبخر . وفي البلاد نحو 600 نهر ونهير أبرزها :

نهر أموداريا : وطوله مع نهر بانجة يبلغ 2540 كيلو متراً ، ومساحة حوضه 309 آلاف كيلو متراً مربعاً ، ويقع مجرياه الأوسط والأدنى في أوزبكستان ، ومجراه الأعلى خارجها ، ومن روافده في أوزبكستان : سُرخان دارية ، وشيراباد ، وقشقداريا ، ونهر زرافشان الذي تستغل مياهه للري فلا تصل إلى أموداريا .

نهر سيرداريا : ثاني أنهار أوزبكستان غزارة بعد أموداريا ، ويقدر طوله مع رافده نارين بنحو 3019 كيلو متراً . ويقع مجراه الأوسط فقط في شرقي أوزبكستان ومساحة حوضه 462 ألف كيلو متراً مربعاً ، ويعتبر نهر " تَشَر تشك " أهم رافد يرفده في الأراضي الأوزبكية .

وتجلب مياه الأنهار طمياً سنوياً قدره 400 إلى 500 جرام / متر مكعب ، في حين تنقل مياه نهر سُرخان داريا ، ونهر شيراباد طمياً يزيد على 3 كيلو جرام / متراً مكعباً سنوياً، مما كان سبباً في نشوء دلتات ومخاريط انصباب عند مخرجها من الجبال وعند مصباتها في بحر آرال .

وقد أثر استغلال مياه الأنهار للري في خفض مستوى مياه بحر آرال منذ عام 1961 إذ نقصت كمية المياه التي تصل إليه من روافد الأنهار إلى 210 كيلو متراً مكعباً، وأدّت إلى حدوث كارثة بيئية من تقلص حجم مياه بحر آرال سنوياً .

أمّا المياه الجوفية المستخرجة فتزيد على 120 متراً مكعباً / ثانية ، وتستخدم في الأعمال الزراعية إلى جانب توفير المياه في المناطق الرعوية الصالحة لتربية الماشية . كما تكثر الينابيع في المناطق الجبلية ، مما يسهم في نشوء البحيرات .

وقد أقيم في أوزبكستان ، مايزيد على 20 بحيرة صناعية ، جُرّت مياهها بقنوات يزيد طولها على 150 ألف كيلو متراً ، وتؤلف في مجموعها العام أكثر من 900 منظومة للري ، ونحو 100 ألف منشأة مائية هندسية مختلفة .

ويعد السدّ الذي أقيم على مجرى نهر زرافشان أول مشروع للري في أوزبكستان . وفي عام 1939 حفرّت قناة فرغانة الكبرى بطول 270 كيلو متراً ، إضافة إلى قناة فرغانة الشماليّة ، وتجري هاتان القناتان بموازة مجرى سيرداريا .

وبفضلهما تم سحب قسم من مياه المجرى الأعلى لنهر سيرداريا لري مزارع القطن إلى جانب إعادة توزيع مياه روافده الجبلية .

المناخ :-

مناخ أوزبكستان قاري شديد الجفاف ، ومرتفع الحرارة . يراوح المعدل السنوي للفروق الحرارية فيها بين 9 درجات مئوية و16 درجة مئوية في الجنوب وتزيد الفروق شتاء من الشمال إلى الجنوب على 10 درجات مئوية .

وتتخفض درجة الحرارة شتاءً إلى - 25 ، — 38 درجة مئوية ، في حين ترتفع صيفاً في معظم الأنحاء إلى أكثر من + 44 درجة مئوية .

أما درجة الحرارة في المناطق الجبلية التي يزيد ارتفاعها على 3000 م فتراوح صيفاً بين 23 ، 25 درجة مئوية .

ومعدل الحرارة في شهر يوليو 32 درجة مئوية ، ينخفض في يناير إلى - 10 درجات مئوية.

وتصل حرارة سطح التربة إلى 60 درجة مئوية صيفاً ، وإلى 80 درجة مئوية في رمال الصحراء .

وتتخفض الرطوبة في الربيع إلى 30% - 50% ، وتراوح شتاءً بين 25% ، 40% أما الرطوبة صيفاً فتراوح بين 1% ، 6% .

وفي الخريف ترتفع من 10% إلى 20% وتكثر العواصف الترابية والرملية مما يؤدي إلى جفاف النباتات في الصيف عدا التي تتكيف مع المناخ الصحراوي .

والأحوال المناخية بأوزبكستان تتدرج في نظامين :-

الأول : الجهات المرتفعة تتمتع بمناخ سهول الاستبس وأمطارها متوسطة ، وتعتدل حرارتها في الصيف ، بينما تتدني في الشتاء فيشتد بردها ، وتهطل الثلوج .

الثاني : القسم الأوسط والشمال حيث النطاق السهلي فمناخه شبه صحراوي قليل الأمطار

وبصفة عامة ، فإن الصيف في أوزبكستان طويل ، جاف وحار ، والشتاء بارد ، شبه جاف في مناطق الرعي الشرقية ، ويبلغ متوسط درجة الحرارة في أوزبكستان خلال شهر يوليو من 36 درجة فوق الصفر في الشمال ، تنخفض إلى 32 درجة في الجنوب وخلال شهر يناير تتراوح درجات الحرارة ما بين 10 درجات تحت الصفر في الشمال

الغربي إلى 3 درجات فوق الصفر في الجنوب الشرقي ، ويبلغ معدل هطول الأمطار ما بين 80 ملليمتر في السهول إلى 1000 ملليمتر في الجبال في العام .
الأحوال الجوية في وادي فرغانة قارية ، ففي شهر مارس يكون متوسط درجات الحرارة حوالي 20 درجة مئوية لترتفع إلى حوالي 35 درجة مئوية في شهر يونيو ويظل الجو جافاً حتى شهر أكتوبر حيث يبدأ سقوط الأمطار ، وتتنخفض درجات الحرارة إلى عشرين درجة مئوية تحت الصفر في شهري ديسمبر ويناير ، وتتساقط الثلوج .

البيئة الطبيعية :-

يعتبر من أثقل التركات الاستعمارية التي خلفها الإتحاد السوفيتي السابق لجمهورية أوزبكستان بعد استقلالها ، تلك المشكلات البيئية الكثيرة المستعصية علي الحل والمتمثلة في مشكلة بحر آرال التي تشترك به مع كازاخستان ، وتمتد الشواطئ الأوزبكية عليه مسافة 420 كيلو متراً ، وتمثلت الكارثة البيئية التي خلفتها السياسة الزراعية الرعناء التي اتبعتها الحكومة المركزية للاتحاد السوفيتي السابق بانخفاض منسوب المياه فيه بشكل كبير بسبب قلة مصادر المياه التي كانت تصب فيه وابتعاد شواطئه لعشرات الكيلو مترات ، وارتفاع ملوحة الأراضي في حوض الآرال وتلوث الثروة السمكية نتيجة لانخفاض منسوب مياهه واستخدام بعض جزره في تجارب الأسلحة الكيميائية والجرثومية كما ظهر ذلك جلياً بعد الاستقلال ، وأدت إلى تعرض صحة سكان حوض بحر الأورال لآثار كارثية من انتشار الأمراض الفتاكة بين البالغين وارتفاع نسبة وفيات وأمراض الأطفال ، وما هذا إلا نتيجة لسياسة " الاحتلال الزراعي " التي جعلت أوزبكستان مزرعة للقطن ، واعتماد الزراعة على إنتاج المحصول الواحد واستخدام الأسمدة الكيميائية والمبيدات الحشرية لزيادة المحاصيل الذي أدى بدوره إلى اختلال تركيب التربة وتلوث المياه والبيئة والإضرار بصحة المواطنين لم تقتصر الآثار البيئية السلبية لجفاف بحر آرال علي الكائنات البحرية التي كانت تعيش فيه وحسب كما لم تقتصر تلك الآثار السلبية لعي الدولتين التلتان تحتضنان بحر آرال وحدهما — أوزبكستان ، كازاخستان — ولكن الآثار السلبية للكارثة البيئية التي خلفها جفاف الجزء الأكبر من الآرال امتدت إلي كافة دول اقليم آسيا الوسطي الخمس — أوزبكستان كازاخستان ، تاجيكستان ، قرغيزستان ، تركمانستان — ولذلك تسعى الدول الخمس إلي إيجاد حلول لتلك المشكلة البيئية الخطيرة علي شعوب الإقليم ، وكونت مع بعضها صندوقاً خاصاً بتلك القضية يعرف باسم "الصندوق الدولي لبحر آرال " .

عدا مشكلة جفاف بحر آرال تعدُّ البيئة الطبيعية في أوزبكستان من المواطن الملائمة حيث يعتبر وادي فرغانة متحفاً طبيعياً مفتوحاً للحياة الطبيعية ، فالوادي تسكنه عدة أنواع من الطيور الجارحة والدببة ، والثعالب والذئاب وابن آوى .

وبعض الحيوانات التي تعتبر وادي فرغانة مسكناً طبيعياً لها موجودة في "الكتاب الأحمر" وهو قائمة عالمية بالحيوانات المهددة بالانقراض ، و تبعاً لذلك فالصيد هناك غير قانوني.

النباتات والحيوانات:-

ينبت في أراضي أوزبكستان ما يزيد على 3600 نوع من النبات ، وتنتمي جميعها إلى نباتات البحر المتوسط ، وإلى نباتات منطقة جنوب غربي آسيا . وأكثر من 20% منها نباتات مستوطنة محلية . وكانت الغابات والأحراج تغطي نحو 12% من مساحة البلاد لاسيما جبالها .

أما قمم الجبال فمغطاة بنباتات شبه صحراوية ، وقد قطعت أجزاء كبيرة من الغابات وحلت محلها مزارع مدرجة للقطن والعنب والبطيخ ، إلى جانب بناء المراكز العمرانية أما حيوانات أوزبكستان فقد تكيفت مع البيئات المناخية القاسية .

ففي المناطق الصحراوية تكثر الحيوانات العشبية ، والقوارض ، والحيوانات السريعة العدو ويعيش كثير منها في أوكار اتقاء الحر الشديد نهاراً .

وقد تكيفت الحيوانات الصحراوية مع ندرة المياه كالجربوع والسولق ، وأنصاف القرنيات ، والأفاعي ولاسيما الكوبرا والسلاحف ، ومستديرات الرأس .

ويعيش في المناطق الأكثر رطوبة ابن آوى والثعلب والخنزير البري ، والقط البري والضفادع والعظايا لاسيما في مناطق الواحات .

كما كانت تعيش في المناطق الجبلية حيوانات أخرى منها : الخروف البري ، والماعز الجبلي ، والنمر الثلجي الأرقط ، والمرموط ، وقد انقرض معظمها بفعل الإنسان .

وتعيش في البلاد أنواع من الطيور منها : الحسون ، والشحور ، والطيور آكلة الذباب وغيرها .

ومياه الأنهار وبحر آرال غنية بأنواع كثيرة من السمك أبرزها السلور .

الفصل الثاني
النشاط البشري

السكان :-

يبلغ عدد سكان أوزبكستان 31 مليون نسمة ، حيث يتزايد الشعب الأوزبكي بوتيرة سريعة ، ففي عام 1970 كان عدد السكان نحو 11.8 مليون نسمة ، وصار عددهم عام 1984 أكثر من 16.6 مليون نسمة ، وقد بلغ معدل الزيادة السنوي 2.4% و 2.8% وفي عام 1997 بلغ عدد سكان أوزبكستان 23.667.000 مليون نسمة ، تضم حوالي 130 قومية ، تصل نسبة الأوزبك بينهم إلى أكثر من 75 % ، معظمهم عدا القره قالباق ويهود بخارى ، جاؤا إلى أوزبكستان نتيجة لسياسة تهجير السكان وتغيير البنية الديموغرافية للمناطق المحتلة التي اتبعتها السلطات الإمبراطورية الروسية ومن ثم السلطات السوفييتية الشيوعية طيلة فترة الحكم السوفيتي¹.

كما تضم التركيبة الديموغرافية في أوزبكستان قوميات ، القازاق والتي تصل نسبتهم إلى حوالي 4 % ، والطاجيك 5 % ، والتتار 7 % ، والقراقل بال 2.5 % ، وكل هذه العناصر تدين بالدين الإسلامي ، ولذلك يشكل المسلمون الأغلبية الكبرى بين سكان أوزبكستان ويشكل الروس 10 % من سكان البلاد .

ينتمي معظم الأوزبك إلى العنصر التركي الذي تغلب عليه الصفات المغولية وإلى تفرعاته العرقية الثلاثة المختلفة ، " السارت " ، و " الكورما " ، و " الكارلوك " ويشترك الأوزبك مع الطاجيك والكازاخ بصفات أنثروبولوجية كثيرة ، واللغة الأوزبكية ذات لهجات كثيرة وهي من الأسرة اللغوية التركية " الفرع الغربي " ، وتؤكد التنوع السلالي وعدم التجانس الأنثروبولوجي لأوزبكستان .

ومن الشعوب التي تعيش في أوزبكستان ، وتتصل بالأوزبك بسلالتها اللغوية ، التركمان والقازاق ، والقراقل بال ، والقرغيز ، وإلى جانب تلك الشعوب الطورانية الأصل تعيش جماعات من الروس في المدن ، وهناك أقليات قومية تعيش في أوزبكستان كالأوكرانيين ، والكوريين ، والأذريين ، والعرب ، والغجر ، والأوغوريين ، والتتار .

¹ - موسوعة جمهورية أوزبكستان - مراد جان أمينوف - دار قاموسلار باش محررياتي 1997 - طشقند .

ويؤلف الأوزبك الغالبية العظمى من سكان كل من خوارزم، وسرخان داريا وقشقداريا ، وفي تاجيكستان ، وتركمانيستان وقيرغيزستان ، وأفغانستان ، وفي الصين ، وتقدر الكثافة السكانية العامة بنحو 53 نسمة / كيلو متراً مربعاً ، وترتفع في خوارزم وفرغانة ، وسمرقند ، وطشقند ، إذ تتراوح في الجزء الشرقي من منطقة فرغانة بين 400 و500 شخص/ كيلو متراً مربعاً ، في حين لا تزيد في الجزء الغربي على شخص واحد/ كيلو متراً مربعاً ، ويعيش 58% من السكان في الريف ، و42% منهم في المدن ، ويعيش نحو 2.5 مليون من الأوزبك خارج مواطنهم .

يتميز التوزيع السكاني في أوزبكستان بتركز السكان في الريف حيث تصل نسبتهم إلى 61,6 % من عدد السكان ، بينما يعيش في المناطق الحضرية 38,4 % فقط.

مما يخفف من أعباء خطط التنمية القومية التي تتطلبها الحياة في المدن الكبيرة . تعيش أوزبكستان منذ القرن السادس عشر الميلادي مرحلة ممتدة ضمن عالم واسع استطاعت أن ترسخ فيه مفهوم الدولة القومية ، واستمر الأوزبك منذ ذلك الحين في البحث عن هوية خاصة متميزة تجمع شملهم مع أبناء القوميات الأخرى الذين يعيشون على أرض أوزبكستان المعاصرة ، دون أن يفقدوا هويتهم القومية وانتمائهم الشامل الذي يؤكد الانتماء للوطن الواحد ، وهو ما نجحت به جمهورية أوزبكستان بعد استقلالها عن الاتحاد السوفيتي¹.

وقد تراكمت في أوزبكستان القوميات وتداخلت بشكل عجيب ، مما فرض على الشعب الأوزبكستاني واجب التخلي عن هوية قومية محددة ، والتمسك بالولاء للدولة كأساس للوحدة ، والهوية الإنسانية اليوم تجمع كل الشعوب التي تعيش على أرضها التاريخية وهو ما سمح لشعبها الشعور بالانتماء لأمة يمتد تواجدها الجغرافي على مساحات شاسعة تتجاوز وتفوق الحدود السياسية لدولة واحدة في المنطقة التي عرفت في أحقاب تاريخية متلاحقة بأسماء عدة ، منها ما وراء النهر ، وتركمستان ، وأخيراً آسيا الوسطى التي تضم اليوم خمس جمهوريات مستقلة هي: أوزبكستان، وكازاخستان، وتركمانيستان وقيرغيزستان وتاجيكستان .

¹ - موسوعة جمهورية أوزبكستان - مرجع سابق .

يعتبر وادي فرغانة المنطقة الأكثر كثافة سكانية في أوزبكستان ، وتعد لهجة أهله هي اللغة الرسمية في جمهورية أوزبكستان.

وتعد مدن "نمنجان"، "أندجان"، "خوقند"، "مرغيل"، "أوش"، "فرغانة"، من أكثر المدن كثافة في الوادي ، حيث يعتبر وادي فرغانة من أخصب المناطق الزراعية في آسيا الوسطي ، الأمر الذي جعل الوادي من أقدم المناطق المأهولة في العالم ، وهذا ما جعله من أكثر المناطق كثافة سكانية .

اللغة :-

مع بداية القرن الثاني قبل الميلاد ، دخلت قبائل الهون التركية إلى آسيا الوسطى وبدأت عملية اندماجهم وانصهارهم مع السكان المحليين ، واستمرت عملية نزوح القبائل التركية التي كانت تعيش في " آطاي ، يتي ساي " علي ضفاف نهر سرداريا إلي أوزبكستان عدة قرون ، ونتيجة لذلك دخلت بلاد ما وراء النهر في عداد الخانية "الفارسية - التاجيكية " ، ومع أن عملية استخدام اللغة التركية استمرت في المراحل الأولى في بلاد ما وراء النهر ، إلا أن السكان بدأوا بالتخاطب باللغات التركية ، وأخيراً تشكلت اللغة الأوزبكية من مزيج لغات القبائل التركية ، التي سكنت بلاد ما وراء النهر وكانت تتكلم بلهجات " قارلون " ، و " الأوغوز " ، و " القبجاق " ، وبفضل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة في تلك المرحلة تشكلت الثقافة الاقطاعية في مراحلها المبكر¹.

تشكلت اللغة الجغتائية الأويغورية على أساس اللغة الأويغورية القديمة " تشمل اللغة الأويغورية الأورخونية ولغة إديقوت الأويغورية " واللغة الأويغورية القراخانية ، وهي لغة أدبية استخدمت من القرن الرابع عشر حتى الثلاثينيات من القرن العشرين ، وبعد القرن الثالث عشر تشكلت لغة جديدة على أساس اللغة الأويغورية القديمة واللغة القراخانية الأويغورية مع تأثير اللغة العربية والفارسية بين الشعوب التركية التي تتحدث التركية في جنوب وشمال جبل تنرى طاغ ، وفي آسيا الغربية ، وسميت هذه اللغة " لغة جغتاي " على أساس أن هذه اللغة تشكلت بداية في المناطق التي حكم فيها جغتاي ابن جنكيزخان وأولاده "أي في البلاد التي يحكمها جغتاي" ، فكانت تمتد هذه البلاد من حدود بلاد الأويغور إلى سمرقند وبخارى ، وكانت هذه الأراضي تابعة للدولة القراخانية الأويغورية والإديقوتية الأويغورية .

¹ - الأديب الأوزبكي الإسلامي - د. شاه رستم غياث شاه موساروف - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1425 هـ - الرياض .

بعد القرن الخامس عشر والسادس عشر استخدمت اللغة الجغتائية في الشمال الغربي لآسيا في المناطق التي حكم فيها " جوجي " الابن الأكبر للقائد " جنكيزخان " ، وفي مراعى روسيا الجنوبية ، وفي المناطق التي حكم فيها أولاد " تيمور " ، خلال الفترة من عام 1370 حتي عام 1405 ، مثل أفغانستان وشرق إيران وشمال شرقي إيران والقبائل التركية في الهند .

أدّى المغول وظيفة تاريخية في توحيد الثقافة واللغة التي عجزت عنها الدول والإمارات في آسيا الوسطى، ولولا الغزو المغولي لتلك الأراضي ما كان ممكناً ظهور لغة "جغتاي" ، فعندما تشكلت حاكمية جغتاي كانت القبائل والشعوب التي تتحدث بالتركية ولهجاتها المختلفة ، وكذلك القبائل والشعوب التي تتحدث بالفارسية والعربية تعيش في المناطق التي تحت حكمه ، وقد حكمت اللغة الجغتائية الأويغورية من بداية نهر سرداريا " سيحون " حتى نهر دوناي في أوروبا الشرقية فترة من الزمن ، وكان الخوارزميون الذين يتحدثون باللغة التاجيكية الفارسية شرعوا أن " يتترکوا " سريعاً واللغة العربية كان يستخدمها أساساً المهاجرون العرب والعلماء .

وبعد استيلاء المغول استوطن هذه المناطق قبائل تتحدث بالمغولية ، ولكن هؤلاء توجهوا أيضاً أن يتترکوا سريعاً. لذا اضطر الطوائف الحكماء أن يستعملوا لغة واحدة مشتركة للشعوب التركية ، وسميت هذه اللغة باللغة " الجغتائية " التي تشكلت على أساس اللغة التركية المحلية " الأويغورية " وبقبول عوامل من العربية والفارسية والمغولية ، وتعتبر اللغة الجغتائية هي اللغة الأويغورية ، كما تعتبر اللغة الأويغورية المعاصرة هي الوارث الشرعي المباشر للغة الجغتائية الأويغورية .

كانت اللغة الجغتائية تكتب بالحرف العربي، وبالخط الفارسي تحديداً، وهذا ما يفسر دخول الكثير من الكلمات العربية والفارسية عليها، إلي جانب التداخل الكبير بين اللغات الثلاث خلال فترات زمنية متعددة ، عندما تداخلت أنظمة الحكم وخضع أصحاب اللغات الثلاث " العربية والجغتائية والفارسية " إلي حكم نظام واحد .

ويقسم العلماء اللغة الجغتائية إلي ثلاث عصور ، كان لكل منها نصيبه من التطور والتأثير والتأثر بالعوامل السياسية والثقافية لتلك العصور :—

الأول : عصر ما قبل الكلاسيكية ، خلال الفترة ما بين عام 1400 إلى عام 1465 م .

الثاني : العصر الكلاسيكي خلال الفترة ما بين عام 1465 إلى عام 1600 م .

الثالث : العصر ما بعد الكلاسيكي خلال الفترة ما بين عام 1600 إلى عام 1921 م .

ويرجع هذا التقسيم إلى تطور اللغة ونضوجها في عصرها الكلاسيكي على يد الشاعر " مير علي شير نوائي " ، حيث تأتي أهمية اللغة التركية الجغتائية كونها لآسيا الوسطى أو بعبارة أخرى اللغة التركية الفصحى ، ولغة التخاطب الرسمي ، واستمر هذا الوضع حتى عام 1921، حيث تفرعت إلى لهجتين تعتبران الوريثتين للغة الجغتائية ، هما **اللهجتان الأوزبكية والأويغورية .**

ولذلك تعدُّ **اللُّغةُ الأوزبكيَّةُ** فرع من شجرة اللغات التركيَّة ، حيث إنّ اللُّغات التركيَّة كلها ترجع في أصولها إلى شجرة اللُّغات الأَلطائيَّة ، وفي عام 1929 تمّ تغيير نظام كتابتها من الحروف العربيَّة إلى الحروف اللاتينيَّة ثمَّ غيَّرها **جوزيف ستالين** في العهد السوفييتيَّ عام 1940 إلى **السيريليَّة** حتّى قررت الحكومة عودة نظام الحروف اللاتينيَّة مرة أخرى في أوائل الألفيَّة الميلاديَّة الجديدة .

الثقافة :-

ارتبطت شعوب آسيا الوسطى الناطقة بالتركية " الأوزبك " ، " القازاق " ، " القارا قبال " " القرغيز " ، " التركمان " ، بوحدة اللغة ، والاتصال الواسع ، والتداول الثقافي والعربي والتطور التاريخي المتشابه ، فالبدو ذوو الأصل التركي ، أو اللغة الترككية انتشروا فوق منطقة واسعة من سهول آسيا الوسطى ، وكانوا يمتزجون بشكل مستمر من داخل اندماج القبائل المنفصلة بمجموعات وطنية أكبر ، مشكلين اتحادات سياسية غير مستقرة وقصيرة الحياة ، وفقاً للأنظمة القبلية والاقطاعية المبكرة ، وهم غالباً ما كانوا يمتصون المجموعات المنفرقة من القبائل الكبرى التي وصلت أسماؤها على أنها أسماء انتشرت في المنطقة .

التدخل الواسع بين الشعوب الترككية في مجال الفن الملحمي سببه العملية المستمرة لتفكك القبائل البدوية في آسيا الوسطى ، واتحادها حول مركز ما معاصر ومستقر وفعال مدعم بتطور علاقات إقطاعية ، وروابط ثقافية واقتصادية أقرب للدول الصاعدة في وقت لاحق .

بدأت الكتابة الأولى التي تعتمد الرسوم والرموز بالظهور في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وكان أول المتعاملين بهذه الكتابة أهل خوارزم ، ومرغيانه ، وشاش ، وصغديانه الذين كانوا يعيشون على الزراعة والحرف ، وقد شاركت هذه المجموعات الإثنية التي تمتلك قواسم مشتركة في اللغة والعادات ونمط المعيشة والدين ، بفاعلية في تكوين التقاليد والثقافة الأوزبككية القديمة .

وكان لطريق الحرير العظيم الذي يمر عبر آسيا الوسطى دور مهم في حياة شعب أوزبكستان الاجتماعية والثقافية ، حيث شكلت العلاقات الثقافية والاقتصادية التي قامت بين بلاد الشرق والغرب حقبة مهمة في التطور والازدهار للثقافة الأوزبككية القديمة واستعملت في أودية أوزبكستان وواحاتها علي نطاق واسع الكتابة الخوارزمية والصفدية ، إضافة إلى الكتابة الهيروغليفيّة¹ .

¹ - الأدب الأوزبكي الإسلامي - د. شاه رستم غياث شاه موساروف - مرجع سابق .

وينعكس التراث الثقافي والحضاري للأوزبكين في اللباس والعادات والتقاليد والطعام والأسلوب المعماري القومي المحلي وفنونه في الأبنية الدينية ولاسيما في المساجد والمدارس والأضرحة والمقامات في بخارى وسمرقند ومدن أوزبكستان العريقة الأخرى ، وفي غيرها من المنشآت والمساكن التي شيدت بين القرن التاسع والعاشر حتى القرن الخامس عشر ، وكذلك في التصوير والنقش والتزيينات والقصص والحكايات ، والأغاني والأشعار وغيرها .

وقد أنجبت أوزبكستان علماء وشعراء حيث برز في القرنين التاسع عشر والعشرين أدباء وكتاب أوزبكيون أمثال " مقيمي " (1815 - 1903) ، و " ذاكرجان فدقت ، و " حمزة حكيم زادة نيازي " (1889 - 1929) ، واستمر التطور الأدبي المحلي في شتى المجالات حيث أعمال " غفور غلام " رائد الشعر الأوزبكي الحديث ، و " كامل ياشن " المسرحي الروائي المعاصر ، و " شرف رشيد " (رشيدوف) الكاتب السياسي ، ثم الشاعر والروائي " أسعد مختار " ، ويتصف الشعب الأوزبكي بحبه للموسيقى والغناء ممّا أدّى في العهد الجمهوري إلى تطور هذا الفن ، كذلك ازدهر فن التصوير ، والنحت والعمارة الحديثة ، والنقش ، وإبداع صناعة السجاد .

جلب الفتح الإسلامي في آسيا الوسطى بقيادة العرب ، والذي اكتمل في القرن الثامن الميلادي ، ديانة وثقافة جديدة إلى المنطقة لا تزال هي السائدة حتى الآن ، وقد غزا العرب بلاد ما وراء النهر لأول مرة في منتصف القرن السابع الميلادي من خلال غارات متفرقة أثناء غزوهم لبلاد فارس ، المصادر المتاحة عن الفتح العربي تشير إلى أنّ الصّعد والشّعوب الإيرانية الأخرى في آسيا الوسطى كانوا غير قادرين على الدّفاع عن أراضيهم ضد العرب بسبب الانقسامات الداخليّة وغياب القيادة القويّة . في المقابل قاد المسلمون قائداً حكيماً هو قتيبة بن مسلم ، إلى جانب الرغبة الكبيرة في نشر دينهم الجديد (البداية الرسمية لنشر الدين الإسلامي كانت في عام 622) .

بسبب هذه العوامل السابقة فتحت بلاد ما وراء النهر بسهولة وانتشر الدين الجديد تدريجياً في المنطقة . وبدأت الثقافة الأصلية لشعوب المنطقة تنحصر أمام الثقافة والدين

الجديدين وأصبحت آسيا الوسطى منطقة إسلامية وزادت ترسخا بانتصار الجيوش العربية على الصينية عام 750 في معركة نهر طلاس¹.

تحت الحكم العربي احتفظت آسيا الوسطى بالكثير من طابعها الإيراني وبقيت مركزا مهما للثقافة والتجارة لعدة قرون بعد الفتح العربي ، ومع ذلك كانت اللغة العربية حتى القرن العاشر الميلادي لغة الحكومة والتجارة والأدب وواصلت بلاد ما وراء النهر كلاعب سياسي هام في الشؤون الإقليمية.

في الواقع تم تأسيس الخلافة العباسية التي حكمت الوطن العربي لخمس قرون ابتداء من عام 750 بفضل يعود جزء كبير منه إلى المساعدة من أنصار تلك الخلافة في آسيا الوسطى الذين ناضلوا ضد الخلافة الأموية الحاكمة آنذاك².

في أوج الخلافة العباسية في القرنين الثامن والتاسع ، شهدت آسيا الوسطى وبلاد ما وراء النهر عصرا ذهبيا بحق . وأصبحت بخاري واحدة من المراكز الرائدة في مجال التعليم والثقافة والفن في العالم الإسلامي ، وكانت عظمتها تتنافس مراكز ثقافية معاصرة مثل بغداد والقاهرة وقرطبة . وكان كثير من أعظم المؤرخين والعلماء والجغرافيين في تاريخ الثقافة الإسلامية من تلك المنطقة وفي مقدمتهم الإمام البخاري صاحب صحيح البخاري .

بدأت الخلافة العباسية تضعف وبدأت المناطق الإسلامية الإيرانية تبرز كحكام لإيران وآسيا الوسطى ، كما أن اللغة الفارسية بدأت تستعيد دورها البارز في المنطقة باعتبارها لغة الأدب والسلطة . وكان الإيرانيون حكام القسم الشرقي من إيران وبلاد ما وراء النهر . وتحت ظل السامانيون والبويهيين استمرت ثقافة غنية من ثقافة بلاد ما وراء النهر بالازدهار .

¹ - أكاديمية المأمون في دولة الإمارات العربية المتحدة - ظفار أمان قولوف - صحيفة حريات - العدد 103 - طشقند 1999 .

² - المشرق العربي وأوزبكستان : شراكه على طريق التقدم والمصلحة المتبادلة - سرفار جان غفوروف - مجلة الدبلوماسية الدولية الأسبوعية المتخصصة - العدد 19 - السنة الثانية - يناير 2001 - القاهرة

وقعت أوزبكستان تحت حكم الاستعمار الروسي في 27 أكتوبر 1924 ، وصارت جمهورية اشتراكية سوفيتية تحت اسم أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية ، وظلت تحت الحكم الشيوعي السوفيتي حتى استقلالها عن الاتحاد السوفيتي في الأول من سبتمبر عام 1991 وخلال العهد السوفيتي ، حاولت القيادة الشيوعية طمس الهوية الثقافية الإسلامية والقومية لشعب أوزبكستان ، حيث تم منع ممارسة الشعائر الدينية الإسلامية ، ومعها تم منع كل المظاهر الإسلامية من قراءة القرآن ، والاحتفال بالمناسبات الدينية ، وحتى منع الأسماء الإسلامية ، أو حتى الأسماء التي تعبر عن القومية الأوزبكية ، لتسود الأسماء والألقاب الشيوعية ، والعادات والتقاليد الشيوعية .

لا يمكن تجاهل السجل الحافل للشعب الأوزبكي في مقاومة الاستيطان والسيطرة وفرض الثقافة الروسية طيلة فترة الاحتلال الروسي ، بدأً بعهد الإمبراطورية الروسية وانتهاءً بالعهد السوفيتي الشيوعي . ذلك النضال الذي تمثل بالدفاع عن الذات الثقافية والتمسك بالتقاليد القومية الأوزبكية ، والعادات والتقاليد والقيم المستمدة من الدين الإسلامي الحنيف

يمكن التأكيد على أن فترة الاستعمار الروسي خلال العهد الإمبراطوري أقل وطأة على الذات الثقافية للشعب الأوزبكي، مما كان عليه أثناء الحكم السوفيتي البلشفي ، فقد وعد القادة البلاشفة عام 1917م شعوب المنطقة باحترام حقوقهم الثقافية ، وحماية حقهم بممارسة عقائدهم الدينية ، وتقاليدهم وعاداتهم القومية وعدم المساس بها ، الوعد الذي قامت الصحف الأوزبكية الصادرة في 7 نوفمبر 1969 م ، بالتذكير به أثناء الاحتفال بالذكرى السنوية للثورة البلشفية ، عندما نشرت نص الرسالة التي بعث بها زعيم البلاشفة فلاديمير إيليتش لينين منذ خمسين عاماً ، إلى لجنة شؤون تركستان ، يطالبهم فيها بالقضاء على السياسة الشوفينية الروسية في تركستان ، ولكن الذي حدث بالفعل كان عكس ذلك ، فقد كان ذلك تخطيط للقضاء على الثقافة القومية في المنطقة وإحلال الثقافة الروسية مكانها .

أقدم البلاشفة أولاً على تجزئة تركستان ، تحت حجة حماية حقوق القوميات والأقليات رغم ممارستها وتشجيعها لسياسة الاستيطان الروسي فيها ، وسياسة التخريب

الديموغرافي الذي اتبعته السلطة السوفيتية في التهجير القسري لشعوب بأكملها إلى آسيا الوسطى ، ولعل تثار القرم والشيشان والكوريين وغيرهم خير مثال على ذلك ، فقد ذهب البلاشفة أبعد من ذلك في سياسة طمس المعالم الثقافية لشعب كان حتى الاحتلال منارة علمية وثقافية في المنطقة وفي العالم الإسلامي ، فأغلقت المساجد ومؤسسات التعليم الإسلامية بكل مستوياتها وألغت تعليم اللغة العربية في كل أنحاء المنطقة واستبدلت الحرف العربي المستخدم آنذاك في الكتابة بالحرف اللاتيني أولاً في عام 1927م كفترة انتقالية لتخفي أهدافها الحقيقية التي نصبت في عام 1940 فاستبدلته مرة أخرى بالحرف الروسي ، وبعد أن نجحت في تحويل اللهجات المحلية غير المكتوبة إلى لغات، الأمر الذي أدى إلى خلق الحواجز القومية بين الأشقاء من أبناء تركستان ، ومن ثم تم تحويل شعب بأكمله إلى شعب أمي لا يعرف القراءة والكتابة مرتين خلال فترة تجاوزت قليلاً العشر سنوات ، وبني سد منيع يحول بينه وبين التراث المكتوب لأجداده العظام أمثال :-

الخوارزمي، والبيروني وابن سينا، والبخاري ، والترمذي، وبهاء الدين نقشبندي ونوائبي ، وغيرهم ، الذين أبدعوا نتاجهم الفكري الشهير في العالم أجمع وكتبوه باللغة العربية وبالحرف العربي، ليتحول هذا التراث مادة فقط للمستشرقين الروس يأخذون منه أسباب السيطرة الثقافية على الشعوب الإسلامية الراضحة تحت حكمهم¹.

وفي إطار سياسة مدروسة لطمس المعالم الثقافية لشعب بأكمله ، لم تكتف بإغلاق المساجد والمدارس وهدمها وحسب ، بل حوّلت ما بقي منها إلى دُور سينما ، وأماكن للتسلية وتعاطي ما يحرمه الدين الإسلامي الحنيف ، في حملة القصد منها التّماذي في الإذلال وغسل الأدمغة ، ومع كل ذلك صمد الشعب الأوزبكي أمام كل الحملات التي حاولت من خلالها طمس ملامحه الثقافية ، وتمسك بتقاليده الأصيلة رغم حملات الترويع والتخويف والضغط التي كانت تمارسها السلطات السوفيتية في المنطقة.

وحافظ على عاداته في الزواج والختان ودفن الموتى والأعياد والمناسبات القومية والدينية بفضل روح الجماعة والترابط الاجتماعي الذي تمتع به الشعب الأوزبكي

¹ - لقاء مع المواطنين - نازيرا شاباتوفا - برافدا فاستوكا 12 سبتمبر 2007 - طشقند .

وهو ما يفتقر إليه المستوطنون السلافيون الذين استوطنوا المنطقة في مراحل مختلفة منذ بداية الاحتلال¹.

ومما يثبت قوة الروح القومية ومتانة العلاقات الاجتماعية للشعب الأوزبكي خلال الحكم السوفيتي أن الأجيال الصاعدة التي ولدت وترعرعت وتربّت وتعلّمت في ظل نظام تعليمي وثقافي سوفيتي متكامل من جميع النواحي ، لم يتأثروا به إلا شكلاً ، ولم ينقطعوا عن جذورهم القومية والثقافية ، والأكثر من ذلك ما حدث في ستينيات القرن العشرين ، عندما بدأ الشباب الأوزبكي يتطلع ويبحث عن جذوره القومية والثقافية والدينية ، وقد جاء تأسيس الإدارة الدينية لآسيا الوسطى وقزاقستان السوفيتية في الأربعينات من القرن العشرين ، بقرار من قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي ، كمحاولة للسيطرة على الشؤون الدينية من خلال تلك الإدارة التي اتخذت من العاصمة الثقافية لآسيا الوسطى طشقند مقراً لها، وعلى العكس من الآمال الرسمية التي عولت عليها فقد لعبت تلك الإدارة دوراً ملحوظاً في بعث الروح الدينية بين الشباب وعززت من الشعور الديني لدى المواطنين، وجذبهم أكثر إلى جذورهم الثقافية والاجتماعية، وهو ما اعترفت به القيادة السوفيتية، عندما أعلن أحد المسؤولين في الحزب الشيوعي السوفيتي بأن " الحملات الدعائية المضادة للدين أو التعويل على الإدارة الرسمية للدين قد فشلت في القضاء على حماسة الشباب الأوزبكي للعودة إلى جذورهم من جديد " .

لم تخف القيادة السوفيتية يوماً من الأيام تخوفها من البعث الثقافي في أوزبكستان؛ لهذا كانت تتصدى لها دائماً بالعنف والقسوة؛ لأنها علمت أهمية أوزبكستان في آسيا الوسطى وأنّ الصّحوة القومية أو الصّحوة الدينية فيها ستمتد حتماً إلى الجمهوريات الأربع الأخرى في المنطقة، إن لم تمتد أبعد من ذلك إلى المناطق الإسلامية الأخرى داخل الإتحاد السوفيتي السابق ، وفي محاولة لتطويق هذا الخطر أعاد " ليونيد بريجنيف " الأمين العام للحزب الشيوعي السوفيتي تقييمه لجدوى الاستمرار المكثف لحملات مكافحة الدين في أوزبكستان وغيرها من جمهوريات آسيا الوسطى ، وأعلن أمام المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي " أن اندماج شعوب الإتحاد

¹ - أوزبكستان الطريق الطويل نحو الاستقلال - د . محمد البخاري - طشقند 2000

السوفيتي في بوتقة واحدة يقتضي أيضاً تفهم ما لكل شعب من الشعوب السوفيتية من عادات وتقاليد مميزة " ، وهذا لم يعكس تماماً القنوات السياسية للقيادة السوفيتية آنذاك والتي كانت تسير في اتجاه الحفاظ على استقرار الإتحاد السوفيتي بكل الوسائل المتاحة¹.

لقد استفادت موسكو من الزلزال المدمر الذي تعرضت له مدينة طشقند في 22 أبريل 1966 لتهدئة المشاعر في أوزبكستان حيال الحملات الإلحادية وفرض الثقافة واللغة الروسية ، وسارعت إلى إعلان خطة حكومية لإعادة إعمار المساجد التي دمرها الزلزال، والأكثر من ذلك عبرت عن استعدادها للمضي في بناء مساجد جديدة وكخطوة عملية وافقت على إصدار مجلة "المسلمون في الإتحاد السوفيتي" من طشقند باللغات الروسية والأوزبكية والعربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية، في محاولة لإظهار مرونتها حيال مطالب الأوزبك الثقافية وتهدئة لمشاعرهم الثقافية واستغلال الوزن الحضاري للشعب الأوزبكي لتحسين صورة الإتحاد السوفيتي أمام العالمين الإسلامي والعربي اللذان كانت موسكو تبذل جهودها آنذاك للتقرب منهما .

• أسطورة ألباميش :-

هي أسطورة أوزبكية أصيلة تشتهر في جميع دول آسيا الوسطى والدول الناطقة بالتركية " أوزبكستان ، قيرغيزستان ، كازاخستان ، تاتارستان ، تركمانستان أذربيجان ، منغوليا " ، وهي معروفة لدى الترك الأوغوز في كتاب " دادا كوركوت" وقد سجلها الشاعر الأوزبكي " فاضل يولداش أوغلو" في أربعة عشر ألف بيت ، وهي أطول نسخة مسجلة في العالم التركي ، وهي مقسمة إلى جزئين ، ويقسمها البعض إلى أربعة أجزاء .

تتلخص الأسطورة في أن ألباميش قد خطب إلى بارتشين ، وفي الروايات السيبيرية والمغولية تدعى " جولي بايرسن " منذ صغرها بعد أن حرم الصديقان والد ألباميش " باي بوري " ، ووالد بارتشين " بايسري" من الأطفال لمدة طويلة ، ولكن والد بارتشين

¹ - مهرجان للصدافة في المركز الثقافي الأممي بأوزبكستان - نازكات عثمانوفا - وكالة أنباء UZA - 9 فبراير 2007 - طشقند .

اختلف مع والد ألباميش فهاجر إلى كالميك ، وهناك طمع حاكمها في الزواج من بارتشين ، التي لا تزال تكن كل الحب لألباميش ، ولكنها لجأت إلى خطة ذكية لترد الحاكم تاييتشا خان من زواجها ، فرفضت الزواج إلا بمن ينجح في المنافسات التي وضعتها من سباق الخيل ورمي السهام والتصويب عن بعد والمصارعة ، فأرسلت الرسل لإخبار ألباميش ، ورغم أنه تعرض لبعض العوائق من تاييتشا خان إلا أنه نجح في جميع المنافسات وتزوج من بارتشين .

في الجزء الثاني يتعرض والد بارتشين إلى مضايقات من تاييتشا خان فيذهب ألباميش لإنقاذه ، ولكنه يتعرض لحيلة تدخله في السجن بعد سبع سنين حيث يتولى إطعامه "تشوبان" ، أو راعي يدعى كايكوبات والذي اكتشف مكانه بالصدفة ، ثم تكتشف مكانه ابنة تاييتشا خان والتي تسقط معه في براثن الحب والتي تنقذه ليخرج ويقتل والدها وينصب كايكوبات مكانه حاكماً ، ثم يعود إلى وطنه "كونجرات" ليكتشف أن أخاه الأصغر ألتانتاز قد استولى على الحكم وظلم شعبه واضطهد أباه ويجهز لعرسه على بارتشين زوجة ألباميش ، وبعد أن يتخفى في زي راعي غنم يتسلل إلى حفل زواج ألتانتاز من بارتشين ، وينقذها ويقتل أخاه المغتصب للحكم ، وتنتهي القصة بعودة بايسري والد بارتشين وإعادة توحيد كونجرات على يد ألباميش .

البنية الاجتماعية:-

تعرضت البنية السياسية والاجتماعية في جمهورية أوزبكستان خلال العهد السوفيتي للضغوط والتبعية لموسكو ، وبدأت تلك الضغوط واضحة منذ ترسيم الحدود السياسية والديموقراطية لأوزبكستان بعد احتلال القوات البلشفية لإمارة خيوة وإمارة بخارى في سبتمبر 1920، والطريقة التي تعامل بها لينين مع التقرير الذي رفعته له لجنة شئون تركستان، فقد كان رأي لينين تقسيم تركستان إلى ثلاث كيانات ، هي :-

أوزبكستان، وقرغيزستان، وتركمانيستان ، إلا أن مؤتمر السوفييتات الذي انعقد في موسكو في ديسمبر 1922م، تبنى معاهدة الاتحاد التي تعتبر تركستان إحدى جمهوريات الإتحاد السوفيتي ، ولكن المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي عاد مرة أخرى في 12 يونيو 1924 م وأصدر مرسوماً قسم بموجبه المنطقة على أساس قومي ، وفي 27 أكتوبر 1924 أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي مرسوماً آخر قسم المنطقة وفق مبدأ تقرير المصير ، والذي أحدث جمهورية أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية ، وضمت حينها جمهورية طاجيكستان السوفيتية الاشتراكية المتمتعة بالحكم الذاتي، ومن ثم فصلت عن أوزبكستان وأصبحت جمهورية اتحادية في عام 1929، وقد صدق مجلس السوفيت الأعلى لجمهورية أوزبكستان في فبراير 1925 على المرسوم وأعلن قيام جمهورية أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية تبعه اختيار أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأوزبكي ، وأعضاء مجلس قوميساري الشعب " مجلس الوزراء " ، ونجحت روسيا بذلك ولأول مرة في إضفاء الشرعية على تقسيم تركستان الروسية إلى دول قومية غير واضحة المعالم لأن الكثير من الأوزبك كانوا يعيشون في الجمهوريات الأخرى ، وأبناء القوميات الأخرى يعيشون داخل أوزبكستان ، وهو الوضع غير المتجانس الذي خلقتة موسكو في المنطقة ، ويخدم مصالحها ومخططاتها الاستعمارية الضيقة فقط ، وهو ما تعاني منه الجمهوريات المستقلة في آسيا الوسطى حتى اليوم¹.

¹ - أوزبكستان متعددة القوميات : النواحي التاريخية والديموقراطية - عطا ميرزايف ، جينتشكه ف ، مرتزايفار - دار أبو علي بن سينا - طشقند 1998 .

كانت السلطات السوفيتية في موسكو غير مقتنعة تماماً بما تفعله ، والدليل على ذلك تخلصها من الكوادر القيادية الأوزبكية في السلطتين الحزبية المسيطرة ، والتنفيذية وقامت باستبعاد " فيض الله خوجاييف " رئيس مجلس الوزراء عن السلطة بقرار من المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الأوزبكي في يونيو 1937 ، بتهمة دفن أخيه وفق التقاليد الإسلامية وتبعه إقصاء " أكمل إكراموف " السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأوزبكي بتهمة ميوله القومية وسعيه للمحافظة على التقاليد القومية الأوزبكية أكثر من الالتزام بالخط الرسمي للحزب ، ومن ثم إعدامهما عام 1938 م بعد تجريدهما من عضوية الحزب الشيوعي ، ولم تهدأ سياسة الإقصاء والإبعاد عن السلطة في أوزبكستان التي اتبعتها السلطة المركزية في موسكو ضد القيادات من أبناء القومية الأوزبكية طيلة الحكم السوفيتي ، بل ذهبت أكثر من ذلك عندما طاردت الزعيم الأوزبكي " شرف رشيدوف " الذي قضى في السلطة زهاء ربع قرن ، حتى بعد وفاته عام 1983 ، في قضية الفساد التي قادها المركز للنيل من القيادات الوطنية الأوزبكية وإضعاف الروح القومية لدى الأوزبك ، وتسليم السلطة لعناصر غير أوزبكية كما حدث فعلاً أثناء ما كان يعرف آنذاك بقضية " القطن " ، التي استغلتها موسكو للتخلص من القيادات الأوزبكية وإضعاف ثقة الأوزبك برموزهم القيادية داخل الحزب الشيوعي فتخلصت من 143 عضواً من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأوزبكي من أصل 177 عضواً ، تبعها إلقاء القبض على نحو 2600 شخصية قيادية أوزبكية في أوزبكستان وموسكو بتهمة المشاركة بالتلاعب بحسابات القطن .

وقد أدت الحملة الشعواء التي شنتها موسكو السوفيتية ضد القيادات الأوزبكية إلى عكس النتائج المرجوة تماماً ، فبدلاً من إضعاف الثقة بالقيادات الوطنية الأوزبكية ضعفت ثقة الأوزبك بالنظام السوفيتي برمته ، وخاصة بقياداته القابعة في موسكو مما مهد السبيل للنهضة القومية والصحو الديني اللتان كانتا كرد فعل على تصرفات موسكو السوفيتية غير المسؤولة .

كانت قضية المشاعر القومية والدينية في أوزبكستان الشغل الشاغل لموسكو ، سواء خلال الحقبة الإمبراطورية ، أو خلال الحقبة السوفيتية على السواء ، فالمنطقة التي

أقيمت عليها جمهورية أوزبكستان بقرار من موسكو كانت قلعة الإسلام دائماً ، بسبب عدد سكانها وتاريخها الإسلامي العريق ، وامتلاكها لثلاثي العدد الإجمالي للمساجد العاملة في الإتحاد السوفيتي السابق ، والتي كان يقدر عددها بنحو 230 مسجداً¹ وكان عودة الروح القومية والصحة الدينية في أوزبكستان نذير بعودتها لآسيا الوسطى وكازاخستان السوفيتية برمتها ، لأن القيادة الإسلامية الرسمية في المنطقة كانت في طشقند ، مما دعى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى مناقشة الموضوع في الاجتماع الكامل الذي عقدته في سبتمبر 1986 ، حيث أشار البعض إلى الوضع الديني المتأزم في أوزبكستان ، تبعته حملة شنتها صحيفة الحزب المركزية " برفادا - الحقيقة " وجهت من خلالها اللوم إلى الحزب الشيوعي الأوزبكي لتقصيره في محاربة المد القومي والصحة الدينية الآخذة بالانتشار داخل أوزبكستان².

فشلت كل المساعي التي بذلها زعيم الحزب الشيوعي السوفيتي آنذاك ميخائيل جورباتشوف في هذا المجال ، وخاصة في مطالبته للحزب الشيوعي الأوزبكي بالعمل الجدي لمحاربة كافة مظاهر الصحة الدينية ، وزيادة جهود العاملين على نشر الدعوة " الإلحادية " داخل الجمهورية ، وذلك في كلمته التي ألقاها في طشقند أثناء توقيفه فيها في طريقه إلى الهند عام 1986 ، تبعته حملة إعلامية شنتها صحيفة " ليتيراتورنايا جازيتا " الأدبية الصادرة في موسكو ، والتي كانت تهدف إلى النيل من القيادات الأوزبكية وتحت الضغوط التي مارسها موسكو ، اضطرت قيادة الحزب الشيوعي الأوزبكي إلى اتخاذ بعض الإجراءات ضد صور التعبير الديني في الجمهورية ، وتم استبعاد كل من ثبت عدم التزامه بالخط الإيديولوجي ، وخاصة الموقف الديني من صفوف الحزب .

خلال الأشهر الستة الأولى من عام 1987 تم فصل 53 عضواً من الحزب بتهمة تنظيم أو المشاركة في النشاطات الدينية ، التي لم تتعدى كونها الالتزام بالتقاليد الإسلامية في ختان الأولاد والزواج والدفن ، ووجه اللوم إلى أعضاء الحزب في محافظة "جيزاخ"

¹ - تحقيق المخطوطات الإسلامية في أوزبكستان . جهود متواصلة لحماية التراث - د . تيمور مختاروف صحيفة الاتحاد

- 11 مارس 2001 - ابو ظبي .

² - الاحتفال بالأعياد الدينية في أوزبكستان - إدار مدريسوف - نارودنويه صولفا - طشقند

مسقط رأس " شرف رشيدوف " ، لتبرعهم بمبلغ نصف مليون روبل لترميم دور العبادة، ووجهت الإتهام لأمين سر الحزب في مدينة بخارى لتشجيعه على بناء مسجد ومقبرة للمسلمين فيها ، ولكن سرعان ما تبدل تشدد " جورباتشوف " تحت تأثير سياسة إعادة البناء " البريسترويكا " ، والعلنية " جلاسنوست " التي اتبعتها ، وتغاضت موسكو بموجبها عن حرية التعبير في الجمهوريات الاتحادية¹ .

وهو ما استفادت منه روسيا الاتحادية للاحتفال بالذكرى الألفية الأولى لدخول المسيحية إلى روسيا عام 1989 ، الأمر الذي أدى إلى إزكاء المشاعر الدينية والقومية للأوزبك وخاصة عندما لجأت الصحف السوفيتية إلى الربط الوثيق بين الثقافة الروسية وتقاليد الدين المسيحي ، والدور التاريخي للكنيسة الأرثوذكسية في ذلك ، بينما كانت الأوساط الصحفية والفكرية الروسية تهاجم الدين الإسلامي وتعتبره مسؤولاً عن الجمود والتخلف في المناطق الإسلامية من الإتحاد السوفيتي السابق ، مما دعى بعض المثقفين الأوزبك للرد على هذا التحيز الموجه ضد الإسلام ، مطالبين بوقف تلك الحملات الإعلامية المتحيزة وغير المبررة ضد الإسلام ، داعين إلى تبني موقف متوازن وعادل حيال كل الأديان يقيم من خلالها السلبيات والإيجابيات لكل الأديان بغض النظر عن تسمياتها وتحت ضغط من النهضة القومية والدينية في أوزبكستان، والإصرار على أن يكون للتقاليد والثقافة الإسلامية مكانها الطبيعي في الثقافة الأوزبكية ، وتحت تأثير تبدل المواقف الدولية ، بعد توقيع الإتحاد السوفيتي السابق في فبراير 1989 م، على اتفاقية انسحاب قوات الاحتلال السوفيتية من أفغانستان ، تراجع " جورباتشوف " عن موقفه الذي أعلنه في طشقند عام 1987 تحسباً من الهجوم المتوقع للمجاهدين الأفغان على نظام الحكم الذي خلفته قوات الاحتلال السوفيتية وراءها في كابول ، وهو ما سيزيد من أخطار تهديد الضغوط المتوقعة في جمهوريات آسيا الوسطى وكازاخستان السوفيتية بعد ذلك الانسحاب ، وتبنى " جورباتشوف " سياسة أقل تشدداً ضد الصوحة الدينية والقومية

¹ - طريق شعوب أوزبكستان : السلام والاستقرار والوحدة الوطنية - رحيموف ب . - نوفوستي أوزبكستانا - 6 أبريل 2007 .

في آسيا الوسطى وكازاخستان السوفيتية ، وتحدث أثناء زيارته لطشقند عام 1988 م عن الوجه الإيجابي للدين الإسلامي مناقضاً لموقفه المعلن السابق¹.

مع حالة عدم الاستقرار التي شهدتها القيادة في أوزبكستان ونتيجة لحملات التطهير المتوالية التي أعقبت فضيحة "القطن" ، والتي مثلت قمة مظاهر العصبية التي انتابت القيادة السوفيتية في السنوات الأخيرة من عمر الإتحاد السوفيتي السابق ، وكانت من الأسباب الرئيسية لإضعاف مصداقية الحزب الشيوعي في المجتمع الأوزبكي ، وتراجع شرعيته في الحكم، بحثت موسكو عن قيادات جديدة للحزب تكون قادرة على تحقيق الاستقرار ومواجهة أحداث العنف التي أخذت بالظهور ليس في أوزبكستان وحدها بل وفي المنطقة بأسرها ، ولكن أخطأت حسابات موسكو السوفيتية مرة أخرى، لأن القيادة الجديدة التي وصلت لسدة الحكم في طشقند لم يكن همها الأول الحفاظ على الحزب الشيوعي كواجهة تاريخية لقيادة متداعية ، بل قيادة أوزبكستان لمرحلة جديدة من تاريخها ، والسير بها نحو الاستقلال ، تلك المرحلة التي قادها وبجدارة الأمين الأول الجديد للحزب الشيوعي الأوزبكي " إسلام كريموف " ².

وجد الأوزبك بشخصية إسلام كريموف الذي أُنخب أميناً أولاً للجنة المركزية للحزب الشيوعي في جمهورية أوزبكستان ، الشخصية التي تستطيع تحقيق الاستقرار ، وتلتف حولها القوى السياسية والاجتماعية الأوزبكية ، وهكذا جاء انتخابه تلبية لرغبة الرئيس السوفييتي السابق ميخائيل جورباتشوف؛ لأن القائد الشاب كريموف كان ملتبساً لتطلعات القيادات والقوى السياسية والفكرية والاجتماعية الأوزبكية، لخلفيته العلمية والمهنية وميوله الإصلاحية وحرصه على احترام التقاليد القومية الأوزبكية .

استفادت أوزبكستان من الظروف التي كانت تعصف بالاتحاد السوفيتي السابق خلال عام 1990 م ، واستغلت فرصة إعلان البرلمان الروسي في يونيو 1990 م أولوية القوانين الروسية على القوانين السوفيتية ، فقام مجلس السوفيت الأعلى في جمهورية

¹ - هذا وطننا المشترك - موبيل ماميدوف - برافدا فاستوكا - طشقند - 2007 .

² - إحياء تراث أوزبكستان بين الأمس واليوم - د . محمد البخاري - مجلة الفيصل - العدد 318 - ذو الحجة / فبراير

أوزبكستان بإعلان السيادة وألوية القوانين الأوزبكية عن القوانين السوفيتية وانتخب إسلام كريموف رئيساً للجمهورية، وتم تصفية القواعد السياسية لتبعية أوزبكستان لموسكو السوفيتية . وتحقيق الاستقلال والسيادة وهو ما أعلنه البرلمان الأوزبكي في 31 أغسطس 1991 ، وتبعه إعلان الحزب الشيوعي الأوزبكي في 4 سبتمبر 1991 عن حل نفسه طوعية لتدشن مرحلة جديدة من حياة الشعب الأوزبكي ، وهي مرحلة بناء الدولة المستقلة المتمتعة بكامل السيادة على ترابها الوطني¹.

¹ - أوزبكستان الطريق الطويل نحو الاستقلال - د . محمد البخاري - طشقند 2000
<http://bukharimailru.blogspot.com/2009/09/1-3.htm>

الاقتصاد:ـ

يبتنوع النشاط الاقتصادي في أوزبكستان ، فهي تُصنّف علي أنها بلد زراعي ، حيث تنتج القمح والأرز والذرة ، وتنتج نحو خمسة ملايين طن من القطن الخام ، كما تنتج الجوت ، وإلى جانب هذا توجد ثروة رعوية تقدر بنحو عشرة ملايين رأس من الأغنام والماشية ، وبذلك تنتج أوزبكستان أكثر من نصف انتاج دول الإتحاد السوفيتي السابق من القطن ، وأكثر من ثلاثة أرباع الجوت ، وثلاث الحرير ، وأكثر من ثلث فرو الاستراخان ، إلي جانب القطاع الزراعي فإن اقتصاد أوزبكستان يركز في جانب كبير منه علي قطاعي الصناعة والتعدين .

تكوّن أوزبكستان مع بقية جمهوريات آسيا الوسطى " قرغيزيا، تركمنستان وطاجكستان كازاخستان " ، منطقة اقتصادية تتشابه فيها كل من العوامل الطبيعية وعوامل التنمية في إطارها العام ، ومع ذلك فإن أوزبكستان تقع في أكثر أجزائها جفافاً وحرارة كما أنها تضم مساحات شاسعة من الصحارى ، كما قلل موقعها الجغرافي المنعزل عن البحار المفتوحة من فرص حركتها التجارية مع باقي دول العالم .

لم تشكل أوزبكستان كغيرها من شعوب آسيا الوسطى، عبئاً اقتصادياً على الحكومة المركزية السوفيتية في موسكو ، بل كانت مخزناً ضخماً من الموارد والثروات الطبيعية الهائلة التي استنزفها الاتحاد السوفيتي السابق بطريقة وحشية لفترة امتدت لأكثر من قرن من الزمان .

وما نتج عن نهب ثروات أوزبكستان من آثار بيئية خطيرة تعاني منها اليوم ، وتعد مشكلة حوض بحر الأورال هي خير مثال حي عليها .

هذا بالإضافة إلي الآثار السلبية لتحويل الأراضي الزراعية في أوزبكستان إلى مصدر للقطن الخام للآلة الصناعية الروسية، وما نتج عنه من آثار مدمرة للدورة الزراعية فيها فقد تمتعت أوزبكستان علي مر العصور بموارد طبيعية، وثروات غنية، وموارد بشرية هائلة تكفيها للاعتماد على الذات، والاستغناء عن معونة الآخرين.

وقد كانت تلك الموارد والثروات سبباً للأطماع الإمبراطورية الروسية ومن ثم البلاشفة الماركسيون للاستيلاء عليها واغتصابها بالقوة المسلحة.

وجاء الاستقلال ليمنحها حقها الطبيعي في استغلال ثرواتها وتطوير مواردها الوطنية دون وصاية من الخارج .

الزراعة :-

تُعَدُّ أوزبكستان من البلدان الزراعية المهمة ، فقد عرفت الزراعة من القدم وتطور إنتاجها واكتسب مزارعوها خبرات كبيرة في مجال الزراعة علي مدي العصور وتعتبر أوزبكستان ثاني أكبر منتج للقطن في العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية كما تنتج الأرز والقمح وأنواع الحبوب ، وتنتشر في أوزبكستان زراعة الفاكهة خاصة في الأودية والمناطق الشرقية المرتفعة على ضفاف نهر جيحون، وهي غنية بزراعة الحبوب التي تتركز زراعتها في سهل طوران .

وتمتلك أوزبكستان إمكانيات زراعية ضخمة ، فهي منتج ومورد لمنتجات إستراتيجية هامة تتمتع بإمكانات تصديرية كبيرة، حيث تنتج 1,5 مليون طن من ألياف القطن كما تشغل المركز الخامس في العالم بإنتاج ألياف القطن والمركز الثاني في تصديره وتعتبر أوزبكستان منتج رئيسي للخضار، والفواكه والعنب، والكثير من المحاصيل الزراعية المتميزة بجودتها، حيث تنتج أوزبكستان نحو 5 ملايين طن من الخضار والفواكه، وذلك يزيد بكثير عن حاجة السوق المحلي ، لذلك يزيد الطلب الخارجي عليها .

كما تتكاثر دودة القز وشرانق الحرير في مزارع التوت الواسعة الانتشار ، مما جعل أوزبكستان تنتج ثلث انتاج الحرير الذي كان ينتجه الاتحاد السوفيتي السابق ، إلى جانب ثروة حيوانية تقدر بعشرة ملايين رأس من الأغنام ، مكنتها من إنتاج ثلث الصوف الذي تنتجه روسيا وجميع الجمهوريات المجاورة ، وأكثر من ثلاثة أرباع الجوت ، وثلث فرو الاستراكان، بالإضافة إلى 85% من جملة ألياف القنب، وفرو " قره قول" ومنتجاته ، والتي تساهم بشكل كبير في الناتج القومي للبلاد ، فضلاً عن الثروة السمكية الضخمة من الأنهار وبحر آرال .

تنشط الزراعة المروية في أوزبكستان ، ويعد القطن المحصول الأساسي فيها ، وكانت تقدم أكثر من 65% من القطن المنتج في الاتحاد السوفيتي السابق ، وتتركز زراعة القطن في غالبيتها في مناطق الواحات ، وتنتج أوزبكستان سنوياً حوالي 1,3 مليون طن من القطن ، كما يزرع الأرز بأصناف متعددة ، وكذلك الشمندر السكري والعنب والرمان وكثير من أشجار الفواكه، إلى جانب الخضراوات والبطيخ بنوعيه الأحمر

والأصفر، وخاصة في مناطق الأودية وسفوح الجبال ، وحول المدن ، ويقدر انتاج الخضار والفاكهة بنحو 5 مليون طن سنوياً ، ويزرع التبغ ، والذرة الصفراء ، والتين والإجاص ، والدراق ، والخوخ ، والمشمش، كما يزرع البصل والملفوف ، وتزرع الحبوب مثل القمح ، والشعير في مناطق الرطوبة المرتفعة ، وقد استدعى التوسع في زراعة القطن تنفيذ مشروعات ضخمة للري ، فقد شقت قناة " أموداريا " ، التي يبلغ طولها 1100 كيلو متراً ، والتي توصل المياه إلى الصحراء ، ومُدت أيضاً قنوات للري بلغ طولها أكثر من 500 كيلو متراً في المناطق الصحراوية التي يطلق عليها اسم " سهب الجوع " ، ويصل طول القنوات في أوزبكستان كلها إلى مايزيد على 150 ألف كيلو متراً .

وقد كان هناك مخطط لمشروع مائي تُنقل به المياه من " سيبيريا " . في قنوات طولها عدة آلاف من الكيلومترات، تصل ما بين نهر " أوب " في شمال " سيبيريا " ونهري " سيردريا " ، و " أموداريا " ، بطاقة قدرها 25 مليار متر 3 .

تشتهر أوزبكستان بتربية المواشي وفي مقدمتها الضأن والمعز والخيول والإبل ، وتتبع في تربيتها طرق حديثة لتعطي كميات كبيرة من اللحوم والألبان والجلود والصوف الذي يصنع منه ما اشتهرت به أوزبكستان من أنواع البسط والسجاد والأغطية الصوفية وتشتهر منطقة " قره قول " الصحراوية بصناعة قبعات الرأس " قلاباق " والمعاطف " الفروات " من جلود الحملان الصغيرة ذوات الصوف المتين المجدد " الأستراخان " وهي جلود لها شهرة كبيرة في الأسواق التجارية وبأسعار مرتفعة ، وتتألف الثروة الحيوانية في أوزبكستان في مجملها من أنواع وأصناف حيوانية تكيفت مع الأحوال المناخية الصحراوية القاسية مع الاكتفاء بكميات قليلة من النباتات الفقيرة ، وتزداد باستمرار كميات المنتجات الحيوانية كلها كما تتحسن المواشي كمأ ونوعاً ، وتربى في أوزبكستان أعداد من الخيول والجمال " ولاسيما البختيارية ذات السنامين " ، التي ما تزال تستعمل في النقل في المناطق الصحراوية ، وتعد أوزبكستان من أهم الدول التي تشتهر بإنتاج الحرير الطبيعي بفضل تربية دودة القز على أشجار التوت التي تزرع خصيصاً لهذا الغرض .

يشارك جميع أفراد الأسرة في عملية التنمية كل حسب قدرته ، ووقته ، والدور الذي يمكن أن يقوم به ، حيث تحقق تلك المشاركة نتائج هامة للاقتصاد القومي في البلاد وتعتبر تربية الأغنام من نوعية " قره قول " التي تتميز بصوف كثيف وذيل سمين تؤخذ منه الجلود العريضة الذيل ، حيث يتم الحصول من حملان " القره كول " علي أجود أنواع الصوف والجلود في العالم ، والتي تستخدم في صناعة الفراء النفيس التي تدخل في صناعة السترات، والمعاطف ، والقبعات .

وأغنام " القره قول " نحيلة ، وظهرها رفيع ، وتستطيع اختزان مقدار كاف من الدهون في ذيلها وأرجلها الخلفية ، لتتغذى بها عندما يقل الطعام ، وتمتاز ذكور " القره قول " بقرونها الحلزونية الممتدة ، أما الإناث فليس لها قرون ، ويكون لون الصوف الخشن للخراف الكبيرة أبيض أو مصفرأ أو رمادياً أو بنياً أو أسود ، أمّا أصوف الحملان الصغيرة ، فتكون ناعمة كالحرير أو أسود في الغالب ، وقد يكون بنياً يميل إلي اللون الأسمر ضارباً إلى الصفرة ، أو رمادياً ، وعادة يكون الصوف لامعاً برقاً ، ويظل متجدداً حتى اليوم الخامس بعد ولادة الحمل ، ويُعد الجلد عريض الذيل أغلى أنواع جلود " القره كول " ، ومظهره حريري متموج ، ويتم الحصول عليه من الحملان المولودة حديثاً جداً .

أمّا جلد الحمل المعروف بالأستراخان ، فهو جلد شديد التجعيد ، لحملان تبلغ من العمر من 3 إلى 10 أيام، أما " القره قول " فهو الجلد المتموّج لحملان لايزيد عمرها عن شهرين وتنتج أغلب الجلود في أوزبكستان، وتُسمّى جلود صغار الماعز أحياناً " القره قول " . وما يميز تجربة تربية أغنام الاستراخان أو " القره قول " هو تخصص منطقة واسعة من الريف في أوزبكستان ، تعتمد علي التربية المنزلية لجميع المزارعين لعدد محدود من الأغنام ، ومع امتداد المساحة التي يتم فيها تربية تلك الأغنام ، واتساع نطاقها رغم العدد المحدود الذي تمتلكه كل أسرة ، تتزايد أعداد تلك الأغنام ويتزايد معها الإنتاج الأمر الذي ساهم بشكل كبير في زيادة دخل الأسر والمشاركة بشكل واسع في التنمية الشاملة للبلاد .

أدت السياسات السوفيتية إلى تدهور الإنتاج الزراعي في وادي فرغانة ، فقبل ذلك العهد كانت الأراضي التي تحت رعاية دائمة للزراعة تبلغ مساحتها ثمانية آلاف كيلومتر مربع من أصل اثني عشر ألفاً صالحة للزراعة .

وقد كانت من أخصب الأراضي الزراعية بشكل جاذب¹ ، وكانت تنتج المحاصيل الغذائية وأهمها القمح ، والأرز والشعير ، والذرة والدخن ، والخضروات والفواكه إلى جانب المحاصيل التي تدخل في الصناعات الأساسية مثل القطن والتبغ .

و كان السكان يتمتعون بدرجة عالية من الحرفية والمهارة في الزراعة ، بالإضافة إلى تربية أعداد كبيرة من الخيول والماشية والإبل .

وبلغت مساحة مزارع العنب في وادي فرغانة حوالي سبعين كيلو متراً مربعاً، وألفاً وأربعمائة كيلو متراً خصصت لزراعة القطن ، كما غطت الغابات في ذلك الوقت مساحة أربعة آلاف كيلو متراً مربعاً ، واستحدثت الحكومة في ذلك الوقت برنامجاً لتشجير الغابات في مرغيلان، حيث كان يزرع ما بين مائة وعشرين إلى مائتي ألف شجرة كل عام .

كما كان يتم تربية دودة القز المنتجة للحرير في مدينة مرغيلان .

أمّا تحت الحكم السوفيتي فقد تم تدمير الغابات لصالح بناء قنوات الري المستخدمة في ري القطن، والذي تم إحلاله محل المنتجات الزراعية ذات القيمة الغذائية ، حيث أصبح الغذاء يستورد لواءى فرغانة من سيبيريا باستخدام السكك الحديدية التي تربط بين المنطقتين .

وتحولت جميع الأراضي الصالحة للزراعة تقريباً لزراعة هذا المنتج المدرللمال ولكن بعد الاستقلال حاول أهالي الوادي إعادة الموازين إلى نصابها باسترجاع بعض المحاصيل القديمة ، والاستغناء تدريجياً عن القطن الذي أنهك الأراضي، عدا عن تسممها بكثرة استعمال الأسمدة الكيماوية .

تأثرت الزراعة في وادي فرغانة بفقدان الكثير من المزارعين عندما أجبرتهم السلطات السوفيتية علي العمل بالسُّخرة في حفر قناة وادي فرغانة التي شرعت السلطات

¹ - موسوعة بريتانيكا - نسخة 1911

السوفيتية في حفرها لري محاصيل القطن ، حيث ظل ذلك العمل من الأحداث التي لا تمحى من ذاكرة أهل هذا الوادي ، ففي بداية الثلاثينات من القرن الماضي حشد الحزب الشيوعي السوفيتي أكثر من مائة وستون ألفاً من أهالي المنطقة ، وجلهم من المزارعين لحفر القناة والتي يبلغ طولها مائتين وسبعين كيلو متراً ، وذلك لجلب المياه من نهر سرداريا " سيحون " إلى مزارع القطن ، وذلك لإنجاز " الاستقلال في مجال زراعة القطن " للاتحاد السوفيتي، وتم إنجازه في وقت قياسي خلال خمسة وأربعين يوماً.

وفي نفس الفترة التي انتهى فيها حفر القناة ، اندلعت الحرب العالمية الثانية . فكان تسخير المزارعين في حفر القناة بمثابة عملاً دعائياً للحزب الشيوعي السوفيتي تحت شعار "مشروع البناء القومي" ولم يتم الاعتماد فيه على أي آلات سوى قلة من الدراجات النارية والسيارات ، وتم الاعتماد في حفر تلك القناة على العمل اليدوي للمزارعين ، الأمر الذي أدى إلي مقتل العديد منهم بسبب سوء التغذية ، والظروف القاسية للعمل .

الصناعة :-

يشكل قطاع الصناعة أحد أهم أعمدة اقتصاد أوزبكستان ، وذلك لما تملكه أوزبكستان من قدرة وبنية صناعية قوية ، حيث تشهد نهضة كبيرة في قطاع الصناعات الثقيلة وصناعة الآلات ، والطائرات والسيارات ، وكذلك الصناعات الخفيفة والصناعات الغذائية والأجهزة العلمية ، حيث تنتج أوزبكستان ثلثي الإنتاج الصناعي في آسيا الوسطى ، كما تعتبر الجمهورية الوحيدة في آسيا الوسطى في إنتاج الحديد والصفائح المعدنية ، والطائرات ، والمحركات ، وآلات جني القطن وغيرها من المعدات الزراعية والكابلات ، والحفارات ، والروافع والمصاعد ، وصناعة معدات النسيج وحلج الأقطان وآلات الغزل وغيرها .

تنشط في أوزبكستان الصناعات التحويلية الغذائية كصناعة المعلبات ، وصناعة الزيوت والمشروبات الروحية المستخرجة من العنب ، التي تصدر في غالبيتها إلى الخارج إضافة إلى تجفيف الفواكه ، كالشمش والتين ، وتعد أوزبكستان البلد الأول في آسيا الوسطى في إنتاج الملابس القطنية .

وتقوم فيها صناعة آلات الحلج ، والغزل والنسيج .

وهناك مصانع للألبان في فرغانة ، ومجمع صناعي للمطاط في أنجرين .

أمّا المجمع الصناعي للخيوط الحريرية فيقوم في نمنجان ، حيث تنتج أوزبكستان أكثر من 20 ألف طن من الحرير الطبيعي الخام سنوياً .

كما تقوم في أوزبكستان صناعة الأسمدة الكيماوية ولاسيما في منطقة ألماليك وصناعة الورق في بخارى .

وهناك ما يزيد على 15 فرعاً للصناعات المعدنية ومنها صناعة الآلات الزراعية كالجرارات وآلات الحصاد، إلى جانب الصناعات الإلكترونية والصناعات الجوي وصناعة حديد البناء المبروم والمضلع، وصناعة الزجاج .

وتحتل أوزبكستان مكانة مرموقة في صناعة استخراج الغاز الطبيعي من مناطق : بخارى وقشقداريا .

ويقدر احتياطيها منه بنحو 70.6 مليار متر مكعب ، وتصل كميات كبيرة من هذا الغاز المستخرج إلى روسيا الاتحادية ، وأوكرانيا وروسيا البيضاء، ودول البلطيق ، وإلى جمهوريات آسيا الوسطى وغيرها.

ويبلغ طول أنابيب الغاز نحو 8000 كيلو متراً من خط بخارى - الأورال ، وخطوط في آسيا الوسطى¹.

ويستعمل الغاز في محطات توليد الطاقة الكهربائية ، وفي الحياة اليومية ، ومادة أولية في الصناعات الكيماوية وفي مقدمتها صناعة الخيوط النسيجية.

ويقدر إنتاج أوزبكستان من الطاقة الكهربائية من المحطات الحرارية والمائية بنحو 45 مليار كيلو واط / ساعة سنوياً.

ويستخدم ثلاثة أرباع الكمية المنتجة من الكهرباء في الصناعة، ويستخدم الباقي في مجالات الإنتاج الزراعي.

وصناعة الوقود متطورة بفضل الاحتياطيات الكبيرة من الغاز والفحم الحجري، والنفط المصنع والمستورد من تركمانستان.

ويستخرج الفحم الحجري القريب من سطح الأرض بكميات كبيرة من مناجم أنجربين، وتقوم في أنجربين أيضاً محطة تحت الأرض لتحويل الفحم إلى غاز، كما يستخرج الفحم في منطقة سُرْخانداریا.

والرصاص والزنك في منطقة ألماليك، حيث أقيمت بالقرب من مناطق الاستخراج مجمعات التصفية في معمل " بك آباد " وهناك معامل للجرارات في طشقند ومجمعات لصناعة الورق في منطقتي: أنديجان ونوكوس عاصمة جمهورية قره قلوب ذات الحكم الذاتي.

وبلغ وسطي إنتاجها (أوزبكستان) من الزيوت النباتية كمية تراوح ما بين 480 و485 طن.

ومن معليات الخضراوات والفواكه ما بين 1 و1.1 مليار عبوة من مختلف الأحجام . كما تنتشط في أوزبكستان صناعة آلات التريكو بأنواعها .

¹ - أوزبكستان على طريق تعميق الإصلاحات الاقتصادية - الرئيس إسلام كريموف طشقند - 1995

دخلت أوزبكستان في عداد الدول المنتجة للسيارات بعد خمس سنوات من استقلالها وتم إنتاج أول سيارة أوزبكية من مصنع " أساكا " للسيارات في التاسع عشر من يناير عام 1996 ، وأصبحت أوزبكستان عضو في المنظمة الدولية لمصنعي السيارات " OICA " عام 1998 ، حيث ترجع بداية صناعة السيارات عندما تم تأسيس جامعة " تورين البوليتيكنيكية " بطشقند في 27 أبريل 2009 حيث يدرس الطلبة في كليات تكنولوجيا صناعة المعدات، وصناعة السيارات، والإنشاء الصناعي والمدني والهندسة المعمارية والتصميمات، وتقنية المعلومات والاتصالات في الصناعة ونظام الإدارة الآلي، والطاقة.

تنتج أوزبكستان السيارات المعاصرة في مصنع جنرال موتورز أوزبكستان ، في مدينة أساكا، كما تنتج حافلات ايسوزو ، وسيارات الشحن ووسائل النقل الخاصة في مصنع " SamAvto " بمدينة سمرقند ، وتقوم شركة مشتركة " JV MAN Auto – Uzbekistan " بإنتاج الشاحنات ، ويتم تجديد موديلات السيارات وتحسين مواصفاتها بصورة دائمة لتواكب متطلبات العصر ، ومنافسة الصناعات العالمية في مجال صناعة السيارات .

أقامت صناعة السيارات في أوزبكستان في عام 2008 علاقات تعاون مع شركة جنرال موتورز ، وعلي إثر هذا التعاون بدأ مصنع أساكا إنتاج سيارات " Lacetti " ، و " Captiva " ، و " Epica " التي تحمل ماركة شيفروليه ، وفي أغسطس عام 2010 قدّمت شركة جنرال موتورز أوزبكستان طرازها الجديد شيفروليه سبارك ، وفي عام 2009 بالتعاون مع شركة جنرال موتورز تم تأسيس الشركة المشتركة لإنتاج المحركات حيث يتم انتاج محركات السيارات في 18 دولة في العالم فقط ، وبعد تشغيل مصنع جنرال موتورز باور ترين أوزبكستان في محافظة طشقند ، ودخلت أوزبكستان منذ نوفمبر 2009 في عداد الدول المنتجة لمحركات السيارات ، وقد أخذت صناعة السيارات في أوزبكستان مكانتها ليس فقط في الأسواق المحلية فحسب ، بل في الأسواق الخارجية أيضاً ، وتصدر أوزبكستان سياراتها إلى كثير من الدول في مقدمتها روسيا أوكرانيا، بيلاروس، كازاخستان، قيرغيزستان، أذربيجان، تركمانستان، أرمينيا جورجيا، مولدوفا، أفغانستان.

ويعمل أكثر من 18 ألف شخص في مجال صناعة السيارات في أوزبكستان التي تنتج أكثر المكونات للسيارات في الوقت الحاضر، ويرتبط مستقبل صناعة السيارات في أوزبكستان بإعداد الكوادر المتأهلة والمتدربة، ويولي مصنع "أساكا" للسيارات اهتماماً كبيراً بإعداد العمال والفنيين، وتأهيلهم، حيث تم تدريب عدد كبير من العاملين في هذا المصنع في عدد من الدول الأجنبية المتقدمة في صناعة السيارات، كما جري تدريب طلبة جامعة "تورين البوليتيكنيكية" في طشقند، ومعهد "أنديجان العالي للآليات" ومعهد "فرغانة العالي البوليتيكنيكي"، وطلاب معهدي "أساكا"، و "سمرقند" المهنيين للسيارات في هذا المصنع، وتحولت جامعة "تورين البوليتيكنيكية" في طشقند إلى مؤسسة التعليم الرئيسية في إعداد الكوادر لصناعة السيارات.

• الحرير الأوزبكي "الأطلس" :-

تزدهر صناعة الحرير في أوزبكستان بشكل كبير، حيث يتم زراعة أشجار التوت بشكل واسع حول الأراضي الزراعية لتربية دودة القز عليها ويسهم ذلك النشاط بشكل كبير في انتشار صناعة الحرير بين سكان تلك المناطق حيث تعتمد تلك الصناعة الكبيرة علي وحدات صغيرة في المنازل تقوم بها ربوات البيوت والرجال والأطفال ويشارك جميع أفراد الأسرة كل حسب وقت فراغه وجهده والدور الذي يمكن أن يقوم به، ومن ثم يتم تجميع تلك المنتجات من الوحدات المنزلية الصغيرة وتحويلها إلي المصانع الكبيرة المتخصصة في صناعة الحرير.

يعتبر الحرير المعروف باسم "الأطلس"، من المعالم المميزة لزي المرأة في أوزبكستان، وهذا التميز للحرير الأوزبكي لا يمكن أن تخطئه العين لحظة وقوعه عليه فهو معروف بألوانه المتداخلة، والمستوحاة من الطبيعة.

فالنساء الكبار يقتصرن على ارتداء "الأطلس" ذي الألوان الهادئة كي يناسب وقارهن وسنهن، أما الشابات اليافعات فيرتدين "الأطلس" المتميز بالألوان النابضة بالحياة والمتداخلة في بعضها.

وقد اعتادت النساء التي يحكن هذا القماش على تربية دودة القز في بيوتهن ، ومن ثم استخراج الحرير وصبغه ونسجه وكل ذلك يتم بعملية يدوية شاقة ، أما اليوم فيتم معظم ذلك آلياً .

لهذا القماش قصة أسطورية تقول إن أحد حكام مدينة مرغيلان أراد أن يتزوج فوقعت عيناه على صبية جميلة ، لها أبٌ فنان ، وقد طلب الحاكم يد الفتاة من أبيها إلا أنه رفض تزويجه إيّاها ، فلم يغضب الحاكم لرفض والد الفتاة أن يزوجه لها ، ووافق على رفض أبيها بشرط واحد وهو أن يأتي بعمل يكون أجمل من ابنته ، وأن يأتي به في اليوم التالي فوافق الرجل على مضمض .

ومضى الرجل إلى بيته مهموماً وقضى الليل كله في التفكير والبحث عن الشيء الذي سيقدمه للحاكم في يوم واحد، وظل طوال الليل على تلك الحال حتى قاده المسير صباحاً إلى النهر فرأى فيه انعكاس الشمس وألوان قوس قزح فهداه عقله لنسخ ما رآه على قطعة من الحرير ، وقدمها للخان — الحاكم — الذي انبهر بما رآه واعترف بأن عينيه لم تقعا على شيء أجمل منه ، فوفى للرجل بوعده وتخلّى عن طلبه الزواج من ابنته.

تلك القصة الأسطورية التي يتم تداولها في قصص التراث ، إنما تعبر عن أهمية وقيمة الحرير الأوزبكي الذي أصبحت صناعته لها شهرة كبيرة لما يتميز به كأهم صناعة يدوية تقليدية ، مازالت صناعة الحرير الأوزبكي تحتفظ بطابعها التقليدي ، حيث أن معظم مراحل صناعته تعتمد على الطرق اليدوية التقليدية ، ولا تتدخل الآلة في أي مرحلة من مراحل صناعته ، وأصبح الجميع وخاصة في القرى الأوزبكية يساهم في إنتاج الحرير الذي تحول إلي مصدر كبير للثراء ، وزيادة الدخل لدي الأفراد والأسر وبدوره أصبح الحرير الأوزبكي له قيمة كبيرة في اقتصاد أوزبكستان .

التعدين :-

تمتلك أوزبكستان ثروات طبيعية هائلة ، ظلت مخفية عن العالم الخارجي ، ووراء الستار الحديدي الذي فرضه الاتحاد السوفيتي عليها ، وتمتلك أوزبكستان رابع أكبر احتياطي عالمي من الذهب (يقدر الإنتاج بنحو 70 طن سنوياً) ، وعاشر أكبر احتياطي من النحاس¹.

ففي باطن الأرض تجمعت احتياطات هائلة وفريدة من موارد الخامات المعدنية ، لم تدخل الإنتاج الاقتصادي بعد، وحتى الوقت الحاضر اكتشف في أوزبكستان 95 نوعاً من الخامات المعدنية ، متواجدة في 700 موقع للاستخراج ، وتمثل عملياً كل جدول مندلييف ويعمل 370 موقعاً جبلياً بحجم استخراج يفوق 200 مليون طن من الخامات المعدنية سنوياً ويتمتع بأهمية خاصة في تطور اقتصاد أوزبكستان.

إن الجمهورية تملك موارد كبيرة للطاقة الطبيعية واحتياطي من الغاز ، والنفط وموارد الطاقة الأخرى ، والفحم ، حيث تبلغ حصة أوزبكستان حوالي 74% من احتياطي الغاز المضغوط ، و 31% من النفط ، و 40% من الغاز الطبيعي و 55% من الفحم في كل منطقة آسيا الوسطى .

وتعتبر أوزبكستان من بين الدول العشر من أكبر منتجي الغاز في العالم ، حيث يعتبر الغاز الطبيعي ليس مورداً رئيساً للطاقة فحسب، بل وبخاماته القيمة المنتجة للأسمدة المعدنية، والألياف والخیوط الصناعية والبوليبيروبيلين، والبوليستيرال وغيرها من المنتجات وتتميز أوزبكستان باحتياطي وباستخراج المعادن الثمينة والنادرة في الأرض مثل الذهب عالي العیار ، والفضة ، واليورانيوم وغيرها ، واكتشف في الجمهورية 30 منجماً للذهب ، يبلغ مجموع احتياطيتهم أكثر من أربعة آلاف طن.

وتشغل أوزبكستان المركز الثامن لإنتاج الذهب في العالم ، والمركز الخامس في إنتاجه بالنسبة لحصة الفرد من السكان ، وتعتبر نوعية الذهب الأوزبكستاني أفضل المعايير العالمية ، وحصل ثلاث مرات على جوائز عالمية .

¹ - تطور صناعات البترول والغاز - عالم نوربيكوف - برافدا فاستوكا 17 يناير 2002 - طشقند

وتتمتع بالأهمية أيضاً احتياطات المعادن الملونة وغيرها من المعادن ، التي تتميز بأهمية إستراتيجية كالححاس ، والموليبدن ، والرصاص ، والزنك ، والتنجستين وغيرها من المعادن المهمة ، إلي جانب المواد الخام غير المعدنية والأكثر قيمة مثل الكاولين ، والحجر الفلوري ، والكوارتز الزجاجي والكوارتز الفلوري الرملي وبينتونيت الطيني ، والفوسفوريت ، وغيرها من الثروات الباطنية أيضاً ، التي تعتبر مواد هامة لبدء الإنتاج ، كما تتمتع الأسمدة المعدنية ، ومنتجات وأواني الخزف الصيني وغيرها من المنتجات القادرة على المنافسة في السوق المحلية والدولية بطلب كبير حيث تعتبر الكثير من المناجم مواقع طبيعية فريدة ، وهي الأضخم في الإقليم الآسيوي الأوروبي ويمكن أن يؤمن احتياطي البوكسيت ، والفوسفوريت ، ومختلف أنواع الأملاح الاستهلاك المتوقع لأوزبكستان لسنوات طويلة ، كما يدخل في الأهمية الاقتصادية موارد المعادن للاستخدام الثاني ، ومخلفات المناجم ، وإنتاج المعادن المركزة .

كما تتميز أوزبكستان بإنتاج كميات كبيرة من النفط والغاز الطبيعي ؛ ففي منطقة " غازلي " تقي حقول الغاز بحاجة البلاد ، وتزود مدن قرغيزستان وكازاخستان بحاجتهما من الغاز المنزلي والصناعي ، كما توجد فيها خامات الفحم والححاس والذهب والموليبدنم (المعدن النادر والهام) والحديد والفضة ، واليورانيوم والرصاص والزنك إلى جانب مناجم جديدة من المعادن تم اكتشافها في العقدين الأخيرين وسط صحراء " قيزل قوم " قرب مدينة زرافشان ، أما الصناعة فتركز معظمها في مدن طشقند وانجرن ولينسيك ومجالها الإلكترونية والطائرات والكيمياء والجرارات حيث توجد في أوزبكستان مصانع إلكترونية هامة ، وتحفظ بصواريخ عابرة للقارات ومحطة فضائية لإطلاق الأقمار الصناعية ، وفي مدينة طشقند وحدها توجد أكثر من 2000 مؤسسة صناعية ، من بينها مصنع للطائرات ، وتعد صادرات الغاز الطبيعي المحرك الحيوي لاقتصاد أوزبكستان ، إذ أنها تمثل جزءاً كبيراً من الناتج المحلي الإجمالي .

التجارة :-

تنشط حركة التجارة الداخلية بين المدن الأوزبكية ، وكذلك حركة التجارة مع باقي دول آسيا الوسطي ، حيث ترتبط أوزبكستان مع دول الإقليم بشبكة جيدة من الطرق البرية المعبدة والحديدية علي حد سواء ، ولكن تقل فرص التجارة الخارجية مع باقي دول العالم نظراً للموقع الجغرافي لأوزبكستان الذي يحرمها من وجود موانئ بحرية ، حيث تقل تكلفة النقل البحري عن غيره من سائر أنواع النقل الأخرى ، ومن ثم فإن حركة التجارة الدولية لأوزبكستان يظل محدوداً في سوق تشمل دول آسيا الوسطي وعدد من الدول المجاورة الأخرى أهمها إيران وروسيا والصين .

وترتبط أوزبكستان بروابط تجارية كبيرة مع جمهوريات آسيا الوسطى ، وروسيا والعديد من دول العالم ، وإن كانت تتطلع بشكل كبير كسائر دول آسيا الوسطي إلي إقامة شراكة تجارية واقتصادية مع العالم العربي ، وإقامة مراكز تجارية لها في بعض الموانئ العربية لتكون مركزاً للتجارة الإقليمية سواء في أفريقيا أو الشرق الأوسط¹.

عدم وجود سواحل لأوزبكستان علي البحار المفتوحة ، جعلها تهتم بالطرق البرية باعتبارها أفضل وسائل النقل وأقلها تكلفة بعد النقل البحري ، لذلك تمتلك أوزبكستان شبكة مواصلات عصرية تمتد ما بين أبعد نقطة شرق الجمهورية وأبعد نقطة غربها والبالغ البعد بينهما 1425 كيلو متراً ، وما بين أبعد نقطة شمالاً وأبعد نقطة جنوباً والبالغ البعد بينهما 930 كيلو متراً ، ممثلة بشبكة حديثة من السكك الحديدية يبلغ مجموع طولها 6700 كيلو متراً ، إضافة إلى 80 ألف كيلو متراً من الطرق البرية المعبدة ، و261 ميناءً جويًا ، ثلاثون منها مزودة بمدارج للإقلاع والهبوط يتراوح طولها ما بين 1524 إلى 3047 متراً ، مما يجعلها قادرة على تلبية حاجات الانفتاح على العالم الخارجي وهبوط وإقلاع كل أنواع الطائرات².

¹ - من أجل تعاون سياسي واقتصادي أعمق بين أوزبكستان والدول العربية - د . سرور جان غفوروف صحيفة الاتحاد -

29 يناير 2001 - أبو ظبي

² - أوزبكستان الطريق الطويل نحو الاستقلال - د . محمد البخاري - مرجع سابق .

طريق الحرير :-

طريق الحرير ، هو سلسلة من طرق التجارة ونقل الثقافة التي كانت محور التفاعل الاقتصادي والثقافي في جميع أنحاء مناطق القارة الآسيوية ، حيث يربط بين الغرب والشرق من خلال ربط التجار والحجاج والرهبان والجنود من الصين إلى البحر المتوسط خلال فترات مختلفة من الزمن ، في طريق يمتد سبعة آلاف كيلو متر وحمل اسم "طريق الحرير" نسبة إلى التجارة الرابحة للحرير الصيني التي كانت رائجة على امتداد ذلك الطريق ، منذ عهد أسرة "هان" خلال الفترة ما بين عام 206 ق م ، وعام 220 م .

قبل أكثر من ألفي ومائة عام ، عمل " تشانغ تشيان " (164 - 114 ق . م) خلال حكم أسرة "هان" على توسعة طرق التجارة إلى آسيا الوسطى ، حيث تم منذ ذلك الحين تسهيل قوافل التجارة التي حملت معها الحرير والشاي وغيرها من السلع من تشانغان " شيآن اليوم ، عاصمة مقاطعة شنشي " إلى آسيا الوسطى وغرب آسيا وحتى أوروبا عبر طريق التجارة ، وعادت تلك القوافل مرة أخرى بسلع ومنتجات تلك البلاد إلى الصين .

كانت التجارة على طريق الحرير عاملاً مهماً في تطور حضارات الصين وشبه القارة الهندية وبلاد فارس وأوروبا والممالك العربية ، فقد عملت القوافل التجارية عبر تلك المسافات الطويلة على تطوير التفاعلات السياسية والاقتصادية بين الحضارات ، وإن كان الحرير بالتأكيد قد شكل البند التجاري الرئيسي من الصين إلى تلك البلاد ، ثم راجت إلى جواره العديد من السلع الأخرى ، وجرى تقاسم مختلف التقنيات والأدیان والفلسفات والثقافات ، فبالإضافة إلى التجارة كقطاع اقتصادي ، كان طريق الحرير وسيلة للتبادل الثقافي بين الحضارات السائدة خلال تلك الحقبة التاريخية ، وبعد عهد أسرة تانغ " 618 - 907 م ق ، تحول المركز السياسي للصين إلى الجزء الشمالي وتحول المركز الاقتصادي إلى الساحل الشرقي والمناطق الجنوبية ، وقد أصبح الشحن عبر البحار الخيار الأفضل لنقل السلع ، ومن ثم تولى طريق الحرير تدريجياً عن دوره كشريان اقتصادي وثقافي يربط بين الحضارات .

شكلت منطقة آسيا الوسطى أهمية كبرى علي طريق الحرير القديم ، باعتبارها مركزاً مهماً للمنتجات الزراعية كما أسهمت بنصيب كبير إلي جانب الصين في إنتاج الحرير تلك التجارة الرائجة علي امتداد ذلك الطريق التجاري الهام ، إضافة إلي ذلك فقد كانت منطقة آسيا الوسطى مركزاً مهماً من مراكز الفكر والثقافة والمعرفة التي جذبت إليها الكثير من العلماء والرحالة، ومن ثم اهتمت منطقة آسيا الوسطى بإقامة المراكز التجارية " كروان سراي " التي كانت تستخدم كأسواق لتبادل السلع والبضائع ، وكذلك أماكن لإقامة واستراحة القوافل التجارية أثناء ذهابها وإيابها من رحلاتها التجارية .

كانت أوزبكستان بحدنها التاريخية المهمة مثل سمرقند وبخاري وطشقند وخوارزم من المراكز التجارية الهامة التي لها شهرة كبيرة علي طريق الحرير القديم ، ومن ثم فقد نالت المنتجات الأوزبكية شهرة كبيرة في الدول والمناطق المختلفة علي امتداد الطريق التجاري ، فقد نال الحرير الأوزبكي ، بمنتجاته المختلفة من بسط ومنسوجات شهرة كبيرة ، كما حظيت المنتجات الزراعية الأوزبكية وبشكل خاص النباتات الزيتية بطلب كبير في أسواق الدول الأخرى .

يهدف الحزام الاقتصادي المقترح علي طول طريق الحرير "الجديد" إلي تنمية اقتصاديات الدول الواقعة علي طول ذلك الطريق ، وبالرغم من الاعتراف بوجود العديد من العقبات في طريقها ، لكن تم إعداد خطط عديدة لإعادة أيام المجد علي طريق الحرير مرة أخرى ، فقد أخذت مبادرة إحياء طريق الحرير اهتماماً كبيراً ، حيث تسعى الدول علي طريق الحرير الجديد إلي تغيير المفاهيم التقليدية في العلاقات الدولية وهي مفهوم الصراع ، ومفهوم المصلحة الوطنية ، ومفهوم الأمن الوطني .

وتحويل ذلك لمفاهيم جديدة ، حيث يحل التناغم والتعاون محل الصراع ، وتطوير مفهوم الأمن الوطني ليشمل السلام الإقليمي ، وربما في مرحلة لاحقة السلام الدولي وتركيزه علي مفهوم القوة الناعمة بدلا من القوة الخشنة ، حيث يستمد مشروع طريق الحرير الجديد قوته من رغبة الدول في إعادة إحياء مفاهيم عريقة من الحضارة التي شهدت تلك الدول كما في أوزبكستان والصين ، وكذلك الرغبة في التعاون مع الصين والتطلع للاستفادة من تجربتها الاقتصادية الناجحة .

لقد شكلت تجارة الطاقة الجزء الأكبر من حجم التجارة بين الصين ودول آسيا الوسطى خاصة أن دول آسيا الوسطى لديها احتياطي كبير من الغاز الطبيعي والنفط ، وفي نفس الوقت الذي يتزايد فيه حجم الطلب الصيني على موارد الطاقة ، ومن ثم فإن فرص التعاون بين الصين وآسيا الوسطى تكون كبيرة ، مع وجود امكانات كبيرة للتعاون في مجالات أخرى ، ومن ثم يعتبر الحزام الاقتصادي لطريق الحرير شريان هام للتعاون بين آسيا الوسطى وباقي الدول علي امتداد طريق الحرير، إضافة إلي كل ذلك سوف يتيح طريق الحرير الجديد فرصاً مهمة لدول آسيا الوسطى للتعاون مع المنطقة العربية والوصول إلي أسواق دول بعيدة جغرافيا لا تستطيع الوصول إليها حالياً بحكم ابتعادها عن سواحل المحيطات والبحار المفتوحة .

أهمية طريق الحرير لمنطقة آسيا الوسطى أنه يمر عبر آسيا الوسطى وإيران والعراق وفرع منه إلى دمشق ثم الإسكندرية ، وفرع آخر عبر آسيا الوسطى والأناضول إلى أوروبا وهذا يجعل آسيا الوسطى بوجه عام جزءاً لا يتجزأ من مبادرة طريق الحرير؛ لأنه سوف يفيدها ليس لتعزيز التجارة فحسب ، بل وأيضاً لجذب التقنيات والاستثمارات من الدول المختلفة .

الفصل الثالث

منابع الحضارة

التاريخ :-

يرجع تاريخ استيطان الإنسان في أوزبكستان إلي حوالي 5 آلاف عام ، ويتضح ذلك من الآثار التاريخية والصناعات التقليدية الموجودة ، والتي تؤرخ إلي تلك الفترة الزمنية فمنذ القرن الثاني قبل الميلاد كانت أوزبكستان من أهم نقاط التوقف في طريق الحرير الواصل بين الصين والبحر الأبيض المتوسط .

وبين القرنين السابع والثامن الميلاديين قام العرب بفتح أوزبكستان عام 715 م على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي .

ويرجع تاريخ أوزبكستان إلي عهود موعلة في القدم ، حيث تعد أوزبكستان من أقدم المناطق التي سكنها الإنسان، وخاصة في فرغانة وخوارزم ، فقد ساعد وجود نهري "أموداريا" ، و "سرداريا" علي استقرار الإنسان واحترافه الزراعة منذ أكثر من ستة آلاف عام ، حيث بدأت عملية بناء المدن ، مثل سمرقند ، وبخاري ، وخيوه ، التي اعتمدت علي قوالب الطين في بناء المساكن ، وعرفوا زراعة القمح ، ورعوا الأغنام وصنعوا أدواتهم من البرونز¹ ، وقد عثر في أوزبكستان علي آثار إعمار بشري يعود إلى العصر الحجري ، ولكن التاريخ المسجل لأوزبكستان أو لتركستان الغربية (بلاد ماوراء النهر عند الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين) يبدأ حينما دخلت هذه المنطقة ضمن نطاق الامبراطورية الأخمينية في عهد داريوس (542 - 486 ق . م) وتعرضت المنطقة في القرن الرابع ق .

م لجيوش الاسكندر المقدوني وأسس ديودوتس حاكم باكتريا (بلخ) السلوقي مملكة مستقلة فيها سنة 250 ق . م .

وفي موجات متعاقبة كان آخرها موجة الهياطلة الذين هددوا حدود الامبراطورية الساسانية مايقارب المائتي عام حتى سحقهم كسرى أنوشروان (531 - 579) بواسطة غزاة جدد قادمين من وراء نهر سيحون يعرفون بالأتراك الغربيين ، وبقيت تحت حكمهم مايقارب القرن من الزمان .

¹ - الألب الأوزبكي الإسلامي - د. شاه رستم غياث شاه موساروف - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1425 هـ -

ويعتبر تاريخ الشعب الأوزبكي جزءاً لا يتجزأ من تاريخ شعوب آسيا الوسطى ، حيث يمتد في جذوره إلى الألف الأولى قبل الميلاد .

عندما بدأت بالظهور مجتمعات مستقرة ذات تنظيم إداري وسياسي واضح المعالم وهو ما يعتبر أحد الأشكال المبكرة لتكون الدولة بمفهومها الحديث ، حيث تكونت تلك المجتمعات على ضفاف الأنهار وفي الواحات الخصبة المنتشرة في المنطقة التي تشغلها اليوم أوزبكستان المعاصرة ، وشكلت أولى دولها كالدولة البكتيرية ، والدولة الخوارزمية ، والدولة البرثية ، والدولية الصغدية ، ومنذ ذلك الوقت بدأت أطماع الجوار تتجه نحو تلك الدول الغنية ، طمعاً بخيراتها وثرواتها، ثم تتالت موجات الغزو على المنطقة تارة تحت راية الدين ، وتارة تحت راية البحث عن الثروة ، وتارة لبناء مجد إمبراطوري على حساب الشعوب المهقورة والمغلوبة على أمرها .

ففي القرن السادس قبل الميلاد ضمت الإمبراطورية الفارسية مناطق واسعة من آسيا الوسطى إلى دولتها المترامية الأطراف ، واستمرت تلك الحال حتى هزيمة الفرس على يد الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد .

وفي الفترة الممتدة ما بين عامي 312 - 64 قبل الميلاد فرض السلوقيين سيطرتهم على المنطقة إلى أن بدأ النفوذ الصيني خلال الفترة الممتدة ما بين عامي 138 - 52 قبل الميلاد ينتشر فيها ، حيث كان هدف الصينيين آنذاك السيطرة على آسيا الوسطى الذي يعني السيطرة على طريق الحرير العظيم الذي يمرُّ عبر المنطقة ، فقد كان طريق الحرير يمثل للصين آنذاك الشريان التجاري المهم والضروري لرخائها وازدهار تجارتها .

وصل العرب إلى آسيا الوسطى التي عرفت في المراجع الإسلامية باسم بلاد ما وراء النهر " نهر جيحون (أموداريا) حاملين معهم الدين الإسلامي الحنيف عام 651 م ورغم قصر المدة التي حكم بها الخلفاء العرب بلاد ما وراء النهر ، إلا أن الديانة الإسلامية بقيت وضربت بجذورها عميقاً في وجدان شعوب المنطقة ، وبقيت ماثلة للعيان حتى يومنا هذا¹.

¹ - عرب أضعهم الوقت - أحمد الزبيدي - ملاديوج أوزبكستانا - طشقند 2000 .

وكان الدين الإسلامي الحافز القوي ومصدر الإلهام الروحي لشعب أوزبكستان وشعوب آسيا الوسطى الأخرى للدفاع عن هويتهم القومية أمام حملات فرض الثقافة واللغة الروسية والاستيطان السلافي خلال العهدين الإمبراطوري الروسي ، والسوفيتي في المنطقة .

وقد تعاقبت الدول الإسلامية في المنطقة بعد زوال الحكم العربي فيها ، فجاءت الدولة السامانية خلال الفترة مابين عامي 700 - 999 م التي عملت على تجديد روابط المنطقة ببلاد فارس ، ونجح السامانيون في تأسيس سلالة حاكمة في ماوراء النهر خلال الفترة ما بين 261 - 389 هـ إلى 874 - 999 م ، واتخذوا بخاري عاصمة لهم¹.

وقد أدت هجرات القبائل التركية من المناطق المتاخمة لمنغوليا ، واستقرارها في الواحات وعلى ضفاف الأنهار في آسيا الوسطى خلال القرن العاشر ، واختلاطها بالسكان المحليين واندماجها بهم ، وأدى اعتناق تلك القبائل للدين الإسلامي الحنيف ، إلى إضفاء الطابع التركي على المنطقة والتي أطلق عليها آنذاك تسمية تركستان "بلاد الترك" ، وهو الطابع المستمر في معظم أنحاء آسيا الوسطى حتى اليوم².

وفي نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، وفي عام 999 م تمكنت قبيلة القره خان "الملك الأسود" التركية من انتزاع السلطة من أيدي السامانيين بعد أن استولوا على عاصمتهم بخارى وغيرها من المدن الأخرى في آسيا الوسطى ، واستولى الأتراك القره خانيون على ماوراء النهر ، فاتخذوا من سمرقند عاصمة لحكمهم وعملوا على إبعاد المنطقة عن النفوذ الفارسي، وتمكنوا أثناء فترة حكمهم من حمل لواء الإسلام بعيداً عن المنطقة نحو الشرق حتى مشارف الصين آنذاك ، إلا أن الصراع بين القبائل التركية حال دون بسط نفوذهم على أراضي المنطقة كافة.

ولم يستمر حكم القره خانيين طويلاً لوقوع هذه المنطقة تحت سيطرة السلاجقة من منتصف القرن الخامس الهجري ، حيث نجح السلاجقة الأتراك من انتزاع السلطة منهم

¹ - أوزبكستان والعرب : آفاق التعاون - د . زاهد الله إنعام خواجة - مجلة السياسة الدولية - العدد 128 - أبريل

1997 - القاهرة

² - أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس - الزهراء للإعلام العربي - الطبعة الأولى 1987 - القاهرة

في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي . وتمكنوا من بسط نفوذهم على مناطق شاسعة من العالم الإسلامي ، شملت بلاد الأناضول ، وبلاد فارس ، والعراق ، وبلاد الشام . وسرعان ما تعرضت سلطة السلاجقة لتحدي قبائل القره كيتاي " الصينيون السود القادمين من منغوليا خلال الفترة الممتدة ما بين عامي 1125 - 1210 م ، وحاول القره كيتاي فرض نمط الحكم الصيني في المنطقة ، إلا أن الذي حدث كان عكس ذلك ، فقد تأثر القادمون الجدد بنمط الحياة التركية داخل الدولة الخوارزمية آنذاك .

• الخوارزميون :-

نشأت الدولة الخوارزمية في العصور الوسطى، ودخلت الإسلام في القرن السادس الهجري تحت حكم السلاجقة، وتوسعت حدود الدولة الخوارزمية حتى وصلت إلى حدود بلاد الترك الغزية من جهة الغرب ، ومن الجنوب بلاد خراسان ، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضًا .

وكان يطبق عليهم حسب كل منطقة من أقاليمهم الواسعة التي حكموها "شاهات خوارزم" ففي بلاد فارس التي كانت تحت حكمهم كان يطبق عليهم "خوارزم شاهيان" حيث ينحدرون من سلالة سلجوقية تركية مسلمة سنية حكمت أجزاء كبيرة من آسيا الوسطى وغرب إيران خلال الفترة ما بين عام 1077 ، وعام 1220 ، وقد استقلوا عن السلاجقة وأصبحوا حكام مستقلين في القرن الحادي عشر الميلادي ¹ .

وقد تأسست الدولة الخوارزمية علي يد " أنوشطغين " الذي حكم من عام 1077 حتي عام 1097م، من ممالك السلاطين الغزنويين، واتخذت الدولة الخوارزمية من أورجنتش عاصمة لها خلال الفترة منعاه 1077 إلي عام 1212م ، ثم انتقلت العاصمة إلي سمرقند من عام 1212م، وحتى سقوط الدولة علي يد المغول، وقد علا شأن " أنوشطغين " أثناء خدمته مع السلاجقة، حيث تم تعيينه واليًا علي خوارزم ، في عهد " قطب الدين محمد " الذي حكم من عام 1097 إلي عام 1128 م ، ثم " علاء الدين أتمش " الذي حكم من عام 1128 إلي عام 1156 م²، وقد تمتعت الدولة الخوارزمية باستقلالية كبيرة ، فقد بدأت

¹ - سيرة جلال الدين المنكبرتي - تحقيق : حافظ أحمد حمدي - دار الفكر العربي 1953 - القاهرة .

² - الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار صادر 1979 - بيروت .

بالتوسع في خراسان ، ثم دخلوا في صراع منذ عام 1157 مع السلاجقة ، وضم " آل أرسلان " الذي حكم من عام 1156 إلي عام 1172 م إليه كل المناطق الشرقية من دولة السلاجقة ، واستطاع " علاء الدين تكش " الذي حكم من عام 1172 إلي عام 1200م أن يَخْلِفَ السلاجقة في بلاد فارس بعد استيلائه علي خراسان عام 1187م ، ثم توسعه حتَّى إقليم الرِّي عام 1192م وأصبح بعدها حامي الخلافة العباسية الجديد .

ثم تعاقب على حكم خوارزم عدَّةُ أسر أهمها أسرة أنوشتكين ، ثم خَلَفَه في الحكم ابنه قطب الدين محمد عام 490 هـ ، الذي نال منزلة كبيرة لدى سلاطين السلاجقة ولاسيما سنجر الذي حكم خلال الفترة من عام 513 إلي عام 552 هـ ، فشمله برعايته وسانده ضد منافسيه ، وظل محمد بن أنوشتكين تابعاً للسلطة السلجوقية حتى وفاته نحو 521 هـ وبعد وفاته عيَّن سنجر السلجوقي علاء الدين اتسز بن محمد بن أنوشتكين خلفاً لوالده ، وانصرف علاء الدين اتسز إلى توطيد دعائم حكمه فمدَّ ظلال الأمن وفاض العدل واشتهر بالعلم والفضل وحُسن السيرة والرفق بالرعِيَّة فحظي بتأييد واسع، ولما ظهرت كفاءة اتسز للسلطان سنجر قرَّبَه السلطان منه واعتمد عليه واصطحبه معه في أسفاره وحروبه وزاده تقدماً وظلاً على وفاق دائم مدة ثماني سنوات .

وظل خوارزم شاه على وفاق دائم مع السلطان سنجر دون أن يفكر في محاربته وكان منصرفاً في هذه المدة إلى تثبيت مركزه وتنمية قوة مملكته ، حتَّى صار له من القوة ما يضاهي قوة السلاجقة ، ولما اطمئن اتسز على قوته سعى أن يستقل استقلالاً تاماً عن السلاجقة متخذاً سبيل التَّمرد والعصيان وسيلةً للوصول إلى هدفه ، فثارَ على السلطان سنجر عام 529هـ ، وشرعَ بمهاجمة ممتلكات السلاجقة الواقعة أسفل نهر جيحون وضمَّها إلى منطقة نفوذه ، فبدأ بذلك أول صدام عسكري بين السلاجقة والخوارزميين .

وتوجه السلطان سنجر لقتال اتسز ، فجمع الجيوش ودارت بينهما معركة عنيفة في شهر محرم 533 هـ ، وكان النصرُ فيها حليف السلاجقة الذين تمكنوا من القضاء على عدد كبير من الخوارزميين، وكان من بين القتلى ابن خوارزم شاه اتسز، وجيء

به إلى السلطان سنجر ، فحزن عليه أبوه حزناً عظيماً ، واستولي سنجر علي خوارزم وأقطعها إلى غياث الدين سليمان شاه ، ابن أخيه ورتب له وزيراً وقرّر قواعده فلما فارق سنجر خوارزم عائداً ، انتهز خوارزم شاه الفرصة، فرجع إليها وكان أهالي خوارزم يكرهون العسكر السنجري ويؤثرون عودة خوارزم شاه ، فلما عاد أعانوه على ملك الإقليم ففارق سليمان شاه .

وخشي اتسز من عودة السلطان سنجر إلى خوارزم مرة ثانية فوجد من مصلحته الحصول على عطفه بإظهار الطاعة له ، وقد عمل على ذلك فعلاً، فحاز رضاه وصالحه وتدل مصالحة خوارزم شاه للسلطان سنجر على سياسة حكيمة وبُعد نظر لكي يحصل على الراحة والاستقرار فترةً من الزمن ليعيد بها تنظيم قواه ، ولم يمض سوى وقت قليل حتى نقض الصلح المعقود وشرع بمهاجمة ممتلكات السلاجقة من جديد، فقاد قواته وهاجم بخاري عام 534 هـ ، وقتل حاكمها زنكي بن علي .

ولم يكتفِ اتسز باستيلائه على بخارى بل سعى لكسب حليف إلى جانبه لمقاومة سلطان سنجر ، فتحالف مع قبائل الخطا التركية التي كانت قد استقرت في بلاد ما وراء النهر في القرن السادس الهجري، ونجحت في تأسيس دولة متخذة مدينة بلاساجون عاصمة لها ، وحثّها على مهاجمة ممتلكات السلاجقة في بلاد ما وراء النهر، ونتيجة ذلك أخذت قبائل الخطا تشنّ غاراتها على البلاد الإسلامية وتُمنع فيها سلباً ونهباً وتدميراً وبعدها لم يجد السلطان سنجر بُداً، فبدأ للتحرك لقتالها بعد أن زادت غاراتها، فसार سنجر بجيشه لمحاربة قبائل الخطا فالتقى الطرفان في معركة بالقرب من سمرقند تسمى معركة قطوان عام 536 هـ ، خسر فيها سنجر خسارة كبيرة، وأسرت زوجته وابنه ونجا بنفسه، فهرب إلى ترمذ وبلخ، وبعد ذلك قام بقدية زوجته وبقية الأسرى بخمسمائة ألف دينار .

كانت هزيمة السلطان سنجر أمام الخطا ضربة عنيفة ، وفرصة مناسبة لخوارزم شاه اتسز في توسيع ممتلكاته، فأغار اتسز على ممتلكات السلاجقة في خراسان واستولى على خزائن السلطان سنجر في مرو، إلا إن خوارزم شاه لم يتمكن من ضم أي مدينة في خراسان إلى ممتلكاته، فاضطر إلى تركها حين عاد السلطان سنجر إلى

خراسان بعد هزيمته أمام الخطاء، إلا أن سلوك الخوارزميين تجاه السلطان سنجر كان خطراً على الكيان السلجوقي فالأعمال التي ارتكبوها في خراسان مهدت السبيل لكورخان ملك الخطا أن يحقق أهدافه ، فاستولى على كل بلاد ما وراء النهر بعد ان هزم السلطان سنجر في معركة قطوان ثم ولى كورخان على بخارى لتمكين ابن الأمير بيباني بن أخو اتسز حاكما من قبله.

ولم يحرك سنجر ساكناً أمام تجاوزات شاه اتسز واعتدائه على ملكه خوفاً من تحالفه مع الخطاء، غير أنه صمم على الانتقام في الوقت المناسب، وفي عام 538 هـ ، جمع السلطان سنجر جنوده فصار إلى خوارزم ، فجمع خوارزم شاه جنوده وتحصن بالمدينة؛ لأنه كان يدرك أن سنجر عازم على إزالة ملكه ، ولما وصل سنجر إلى خوارزم وجد أن اتسز قد تحصن بالمدينة ولم يخرج لقتاله ، وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء السور وحاصر السلطان سنجر المدينة عشرة أيام ، حاول خلالها أن يستميل بعض الخوارزميين إلا انه فشل في ذلك ، وظل سنجر مشدداً الحصار على خوارزم حتى كاد أن يملكها لولا أنه وقع خلاف بين أمرائه ، ولما وجد خوارزم شاه اتسز أن الحصار حوله محكماً وشديداً خشي على ضياع ملكه فأظهر ندمه لما بدر منه وأرسل رسلاً إلى السلطان سنجر يبذل المال والطاعة ليعود إلى ما كان عليه .

وقد رفع سنجر الحصار بعدما كان محكماً على خوارزم ، بعدما تخلى اتسز على كل ما ملكه من البلاد في خراسان أثناء انشغال السلطان سنجر بحرب الخطا عام 536 هـ كما تعهد اتسز برد ما استولى عليه من الأموال والمجوهرات التي أخذها من خزانة السلطان في مرو عام 536 هـ .

وأعلن خوارزم شاه اتسز استقلاله نهائياً عن السلاجقة في عام 538 هـ ، بعد أن أخفق السلطان سنجر في القضاء عليه ، وصار الخوارزميون بعد هذا التاريخ كياناً سياسياً مستقلاً ، فرتبوا أمورهم ووحّدوا أهدافهم، فنالوا الاستقلال، ولم يبق أمامهم إلا أن يعطوا دولتهم الصفة الرسمية ويصبغوها بالصبغة الشرعية بأن يحصلوا على موافقة الخليفة العباسي على قيامها واعترافه بسيطرتها على المناطق التي تحت يدها والمناطق التي قد تسيطر عليها في المستقبل؛ لذلك كان على خوارزم شاه اتسز

بعد أن نال استقلاله أن يحصل على موافقة الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله " 532 هـ - 555 هـ " فأرسل إليه رسالة أظهر فيها موالاته للخلافة ، وأشار إلى جهاد والده محمد بن أنوشكين وفضله على السلاجقة ، وطلب من الخليفة أن يصدر باسمه منشورًا بولايته على إمارة خوارزم ، وما يضاف إليها وينعطف من بلادها وديارها وقد أرسل إليه الخليفة بالخلع والتشريفات ، الأمر الذي يدل على أن الخليفة قد اعترف به حاكمًا شرعيًا .

وكي يحقق خوارزم شاه استقلال بلاده كليًا عن السلاجقة ، أخذ يثير المشاكل أمام السلطان سنجر بعد عودة الأخير من غزو خوارزم عام 538 هـ ، وبعد ما سئم السلطان سنجر من الحملات المتعاقبة على خوارزم، والتي كانت تكلفه الكثير من المتاعب اضطر سنجر إلى الاعتراف باتسز حاكمًا مستقلًا على الدولة الخوارزمية، وبذلك ترسخت الدولة الخوارزمية وصارت تظهر في صورة دولة قوية .

وبعد وفاة خوارزم شاه اتسز عام 551 هـ بمرض عضال ألم به، خلفه ابنه ايل أرسلان في الحكم، وأرسل إلى السلطان سنجر، وبذل له الطاعة، فأصدر له منشورًا بولاية خوارزم وسيّر إليه الخلع في شهر رمضان عام 551 هـ ، وذلك بعد هروب سنجر من أسر الغزو وعودته إلى مرو واستقرار ملكه في ايل أرسلان بهذه الولاية واستمر إلى عام 568 هـ .

• توسع رقعة الدولة الخوارزمية:-

بعدما أن تغلبت قبائل الغز على خراسان وهزيمة السلطان سنجر، كانت تلك أولي مراحل انهيار الدولة السلجوقية، فقد كان الغز من قبائل الترك التي تحت الحكم السلجوقي وعاشوا في بلاد ما وراء النهر، وبعدما سيطر قبائل الخطا على ملك الصين وعلى بلاد ما وراء النهر، هاجر هؤلاء إلى خراسان وأقاموا بنواحي بلخ عام 536 هـ وطلب أمير بلخ منهم الرحيل خارجها، فامتنعوا، فاضطر لمحاربتهم ، وحاولوا إرضاءه بالمال إلا أنه رفض الصلح معهم، فحاربوه وقتلوه ، وهرب أمير بلخ إلى مرو، ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى سنجر، عزم علي محاربتهم، إلا أنه هُزم ووقع أسيرًا في أيديهم ، وظل سنجر في الأسر لمدة ثلاث سنوات ثم تمكن من الهرب في شهر رمضان

عام 551 هـ ، ولما رأى **سنجر** ما حدث في بلاده من خراب على أيدي الغزاة مرضَ وماتَ ، الأمر الذي كان له أثر كبير في زيادة قوة ونفوذ الدولة الخوارزمية .

وبعد وفاة **سنجر** لم يجد الخوارزميون منافساً قوياً يقف أمامهم ويعرقل توسعاتهم؛ لأن الصراع الذي كان بينهم كان من الصعب أن يجد حلاً سلمياً، وقد أدرك السلاطين الخوارزميون أن قوة دولتهم تأتي عن طريق اهتمامهم بتعزيز قوتهم العسكرية وبناء دولتهم وذلك لتحقيق طموحهم في توسيع رقعة ممتلكاتهم، فعملوا على إتباع سياسة التحالف لكسب الحلفاء للوقوف معهم في الحروب ضد أعدائهم .

وقد استفادت الدولة الخوارزمية من ضعف دولة السلاجقة ، بسبب المنازعات، حيث لعب الأتابكـه ومربو أولاد الأمراء والسلاطين دوراً فعالاً في التحكم بأمور السلطنة، وقد اشتدَّ هذا النزاع بعد وفاة السلطان **ملك شاه بن أرسلان** عام 485 هـ ، وظلت حتى سقوط الدولة السلجوقية عام 590 هـ ، كما أسهم في ضعف دولة السلاجقة ظهور جماعات وعناصر مناوئة لهم ، كالإسماعيلية وقبائل الخطا التركية التي ألحقت الهزائم بجيوشهم .

وحرص **ايل أرسلان** على أن لا يقتصر حكمه على إقليم خوارزم فقط ، بل رغب أن يمدّه الى الأقاليم الأخرى المجاورة سيما خراسان، فنجح في الاستيلاء على بعض مناطقها وأقيمت له الخطبة في جرجان، وكان لاستيلاء الخوارزميين على هذه المناطق ودخولهم إلى خراسان بداية مرحلة جديدة؛ لأنهم أخذوا يدعمون قواتهم وينتشرون في البلاد والمناطق المجاورة لهم، وأخذوا يتحينون الفرص للانقضاض على الممتلكات المجاورة، وحاول **أرسلان** أن يستغل النزاع بين الأمراء السلاجقة للاستيلاء على العراق العجمي " منطقة جبلية بين خراسان وفارس " ، وأبدى **ايل أرسلان** رغبته في محاربة الخطا عام 568 هـ ، الذين أكثروا من اعتداءاتهم ، ولكنه مرض ومات في العام نفسه.

وبعد وفاته حدثت فتنة بسبب إعطاء **أرسلان** الملك إلى الأخ الأصغر **الشاه محمود** أما ابنه الأكبر **علاء الدين تكش** فكان يقيم في جندة ببلاد تركستان ، فاستاء من تولي أخيه الأصغر وتقديمه عليه ، فقصد ملك الخطا في بلاد ما وراء النهر ليكون حليفه ضد

أخيه¹، فجهز جيشاً وتوجّه إلي خوارزم ، وعندما علم السلطان شاه محمود بقدومه خرج مع أمّه وسار إلى المؤيد أمير نيسابور، ودخل علاء الدين تكش إلى خوارزم بغير قتال ، وأقنع شاه محمود أمير نيسابور بالتحالف معه ، وتوجّهوا إلي خوارزم فالتقي الجيشان ، وانتصر علاء الدين تكش ، وأسير المؤيد وهرب شاه محمود إلى دهستان بالقرب من خوارزم ، فقصده تكش وافتتح المدينة عنوة وهرب السلطان شاه منها .

عاد علاء الدين تكش إلى خوارزم ، وتوجه شاه محمود إلى غياث الدين ملك الغز فأكرمه وعظمه ، وبعدما استقر علاء الدين في الملك ، وفض تحالفه مع ملك الخطا ، وعندما علم شاه محمود بذلك ، سار إلى الخطا وطلب نجدتهم ضد أخيه، فجهز جيشه وسار بهم وحاصروا خوارزم ، فأمر تكش بإجراء ماء جيحون عليهم وكادوا يغرقون ، فرحلوا عن خوارزم ، وظل شاه محمود طريداً في البلاد تارة عند الخطا وتارة عند غياث الدين إلى أن مات عام 589هـ .

استغل علاء الدين تكش انقسام الأمراء السلاجقة على أنفسهم واستولى على الري عام 588هـ، بعد أن قتل السلطان طرغل بن أرسلان السلجوقي آخر سلاطين السلاجقة ،ومن ثم أخذت الدولة الخوارزمية تتوسع شيئاً فشيئاً حتى تمكنت من ضم جميع الممتلكات السلجوقية في خراسان والعراق العجمي، ثم واصل تكش زحفه نحو همدان وضم الأقاليم كلها وعاد إلى خوارزم .

وبدأ العداء بين الخوارزميين والعباسيين حول اقتسام ممتلكات الدولة السلجوقية ، وتطور الخلاف عندما بعث خوارزم شاه علاء الدين تكش إلى الخليفة العباسي يطلب السلطنة وإعادة دار السلطنة إلى ما كانت عليه في زمن السلاجقة ، وطالب الخليفة العباسي بالخطبة لهم في بغداد ، إلا إن الخليفة رفض طلباتهم ، فقابلوا رفضه بقطع الخطبة باسمه في بعض الأقاليم التابعة لهم .

¹ - تاريخ الدويلات العربية والإسلامية - خاشع المعاضدي ، رشيد عبد الله الجميلي - جامعة بغداد 1980 بغداد .

واصل خوارزم شاه تكش سياسته التوسعية ، فتمكن أن ينتزع بخاري من الخطا عام 594هـ ، ومن ثم استطاع علاء الدين تكش أن يوطد دعائم الدولة الخوارزمية ، وأن يجعل لها كيان، وتمكن من المحافظة على وحدة دولته الشاسعة حتى وفاته في شهر رمضان عام 596هـ ، في شهر ستانة بين نيسابور وخوارزم ، وتولي ابنه قطب الدين الذي لقب نفسه بلقب أبيه علاء الدين محمد خوارزم شاه .

كان يعاصر علاء الدين محمد من حكام الدولة الغورية الإخوان غياث الدين وشهاب الدين ، ويتوقعان بأن علاء الدين الضعيف لا يقوى على مقاومتهم ، فأغاروا على مرو وسرخس وطوس ونيسابور وغيرها من الممتلكات الخوارزمية ، وأرسلوا حكاماً ساموا رعية الخوارزميين سوءَ العذاب ونهبوا أموالهم ، فاستاء خوارزم شاه من تصرفاتهم، وعزمَ على إخراج الغوريين من المناطق التي استولوا عليها وساعدته الظروف المحيطة بالغوريين على تسهيل مهمته ، إذ توفي أحد الأخوين وهو غياث الدين عام 599 هـ ، ولم يقوَ أخوه شهاب الدين بمفرده على الاحتفاظ بما في يده من ممتلكات الخوارزميين، فاستعاد خوارزم شاه علاء الدين أملاكه الخراسانية عام 600 هـ فاشتد شهاب الدين نفسه في مقاومة علاء الدين محمد ، وقاد حملة إلى خوارزم في نفس العام منتهزاً وجود علاء الدين محمد في خراسان، ولكن حملته باءت بالفشل؛ وذلك لاستغاثة علاء الدين محمد بقبائل الخطا فأطبقت على قوات شهاب الدين وكادت أن تسحقها .

وطلب عثمان خان أمير سمرقند مساعدة علاء الدين محمد له على قتال الخطا الذين كانوا يغيرون على تركستان وبلاد ما وراء النهر، وقد أجابه خوارزم شاه إلى ذلك ، فأولى أخاه شاه طبرستان فضلا عن جرجان ، وتوجّه الى قتال قبائل الخطا فالتقى الطرفان ودارت المعركة فيما بينهم، فقتلت قبائل الخطا الكثير من الجيش الخوارزمي ، ووقع خوارزم شاه علاء الدين محمد أسيراً قي أيديهم ، إلا أنه خلّص نفسه من الأسر ، وعاد بعد ذلك بحملة كبيرة لمحاربتهم من جديد حتى تمكن من إزالة دولتهم¹ .

¹ - صورة الأرض - أبو القاسم بن حوقل النصيبي - دار مكتبة الحياة - بيروت .

لم يقف خوارزم شاه علاء الدين محمد عند هذا الحد في توسعته ، بل ظل يواصل سياسته في التوسع وضم ما يمكن الاستيلاء عليه من الأقاليم المجاورة، فتمكن من الاستيلاء على كرمان ومكران وساحل المحيط الهندي والأقاليم الواقعة غرب نهر السند، وبعد استيلائه على هذه الأقاليم صار الطريق مفتوحاً أمامه للاستيلاء على مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية، فحاصرها حتى سقطت بيده عام 612هـ ووصلت الدولة الخوارزمية إلى ذروة اتساعها في عهد خوارزم شاه علاء الدين محمد، إذ أصبحت حدودها تمتد من العراق غرباً، إلى حدود الهند شرقاً، وبحر أرال وقزوين شمالاً ، والخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً¹ .

قام علاء الدين محمد بتنظيم دولته الواسعة المترامية الأطراف، وقسمها إلى أربعة أقاليم، وعين كل واحد من أولاده الأربعة والياً على إقليم من تلك الأقاليم الأربعة علي النحو التالي:-

القسم الشرقي : ويضم باميان والغزة والغور ، وكان ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي والياً عليه .

القسم الشمالي : ويضم خوارزم وخراسان ومازندران ، وكان ابنه وولي عهده قطب الدين أزلغ شاه ، والياً عليه .

القسم الغربي : ويشمل العراق العجمي ، وكان ابنه غوشايجي ، والياً عليه .

القسم الجنوبي : ويشمل كمران ومكران وكيش ، وكان ابنه غياث الدين بيرشاه ، والياً عليه.

¹ - الدولة الإسلامية المستقلة في الشرق - عبد الرؤف صيام - دار الفكر العربي - القاهرة .

• غزو المغول:-

ولي " جلال الدين " السلطنة في ظروف قاسية تحتاج إلى رجال أقوياء تزيدهم المحن صلابة، ولا ينطرق اليأس إلى قلوبهم، وبظل الأمل حيا في قلوبهم، وكان السلطان من هؤلاء، لكن الظروف التاريخية كانت أقوى منه فاعتلى الحكم والمغول يسيطرون على بلاد ما وراء النهر- أهم أجزاء دولته المتداعية - فامتلكوا إقليم مازندران علي حصانته ومناعته، وسيطروا علي الري وقزوين وتبريز عاصمة أذربيجان وبلاد الكرج¹ وبعد أن أجهز " جنكيز خان " على بلاد ما وراء النهر وبلاد العراق وأذربيجان وشرع في السيطرة علي خراسان وخوارزم حتي تتم له السيطرة على بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة فأعدّ لهذه المهمة جيشين عام 618 هـ / 1220 م عبر أحدهما نهر جيحون، وقصد مدينة بلخ فاستسلمت صلحاً، ولم يتعرض لها المغول بالسلب والنهب على غير عادتهم وواصل المغول تقدمهم في بلاد خراسان فسقطت مدنها واحدة بعد أخرى ، ثم حاصروا مدينة مرو حاضرة الدولة الخوارزمية حتى استسلمت، ثم ساروا إلي نيسابور فاستولوا عليها، وواصلوا زحفهم نحو طوس فأخذوها دون عناء ثم بسطوا سيطرتهم على هراة² أما الجيش الآخر فقد اتجه إلي خوارزم ، لكنه لقي مقاومة عنيدة من أهلها بعد أن لبسوا ثياب الصبر والثبات فلم تؤثر في عزمهم ضراوة الهجوم وشدة الحصار، وصمد أهل خوارزم لهذا البلاء خمسة أشهر دارت خلالها معارك عنيفة قتلت خلالها أعداداً كبيرة من الفريقين.

ولم يجد المغول بداً من طلب العون والمدد فأمدهم " جنكيز خان " بما يطلبون ؛ فمكّنهم ذلك من الاستيلاء على المدينة بعد جهد وعناء ، وكان جزاء المدينة على هذا الصمود فظائع مهلكة حيث قام المغول بقتل أهلها جميعاً، وفتحوا ماء جيحون على المدينة فأغرقها ، فمن سلم من السيف غرق بالماء³ .

¹ - تاريخ الدولة المغولية في إيران - عبد السلام عبد العزيز فهمي - دار المعارف 1981 - القاهرة .

² - المغول في التاريخ - فؤاد عبد المعطي الصياد - دار النهضة العربية 1970 - بيروت .

³ - تاريخ الدولة المغولية في إيران - مرجع سابق .

وبدأ جلال الدين عهده بأن اتخذ من غزنة قاعدة للجهاد الإسلامي ضد المغول، وكان هو واليها من قبل في عهد أبيه السلطان " محمد خوارزم شاه " ، وكان أهلها يجلبونه ويقدرونه، واستطاع أن يكون بها جيشاً كبيراً بلغ سبعين ألف مقاتل من الفلول الهاربة من المغول، وممن أخذتهم الغيرة على الإسلام وحب الجهاد من المتطوعين ، ونجح في أن يؤلف بين قلوبهم ويوحد صفوفهم ، وجاءته الأموال من وجهاء المسلمين وفقرائهم لإعداد تلك الجموع وتسليحها والإنفاق عليها .

وكان المغول يتعقبون "جلال الدين" ؛ لكونه أقدر الخوارزميين على جمع الناس ضدهم وأكثرهم جرأة على الحرب والقتال ، حتى إذا بدأت طلائع الجيش المغولي ترحف نحو غزنة للاستيلاء عليها والقضاء على السلطان الجديد قبل أن تشتد شوكته ، إلا أن "جلال الدين" فاجأها بهجوم خاطف في ربيع الأول 618 هـ / 1221 م ، لم تصمد له، فلحقته هزيمة كبيرة قُتل فيها ألف رجل منهم ؛ فكان لذلك أثر عظيم في نفسه استرد به ثقته وثبت قدمه ، فلما التقى بقوات المغول الرئيسة التي أعقبت طلائعها صمد لها في القتال وألحق بها هزيمة مدوية وولوا الأدبار ، وجنود السلطان يتعقبونهم بالقتل والأسر .

وما كادت أنباء هذا النصر تصل إلى بعض المدن التي في أيدي المغول حتى عمها الفرح والبشر ، وظنت أن ساعة الخلاص قد اقتربت، فثارت في وجه المغول ، وكانت هراة واحدة من تلك المدن ، غير أن فرحها تحول إلى مأساة محزنة ؛ إذ قدم عليها جنكيز خان واستعاد سيطرته عليها وقتل أهلها .

وبدلاً من أن يزيد النصر الذي حققه المسلمون وحدة إلى وحدتهم ويوثق عراهم أمام الخطر الذي لا يزال محدقاً بهم ، تنازعوا فيما بينهم على الغنائم التي حصلوا عليها وعجز السلطان عن تدارك الانقسام الذي حدث ، وترتب على ذلك أن انسحب أحد القادة بقسم كبير من الجيش الخوارزمي دون تقدير للمسئولية، وغادر غزنة دون أن يستجيب لتوسلات السلطان الذي بكى بين يديه ووجد نفسه في قوات لا تقدر على مقاومة إعصار المغول؛ فانسحب بها إلى سهل يقع غربي نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة جنكيزخان إلى إقليم غزنة للانتقام من جلال منكبرتي والثأر لهزيمة جيشه على يديه .

وجمع جلال الدين السفن ليعبر بها إلى نهر السند هو وجنوده إلى الهند لعله يجد فيها مأمناً، ولكن بحارة السفن لاذوا بالفرار حين علموا بقوم " جنكيز خان " تاركين السلطان وجنوده على الشاطئ ، فاضطروا إلى خوض معركة لم يستعدوا لها، ودارت معركة غير متكافئة ثبت فيها "جلال الدين" لهجوم المغول وحملَ بنفسه حملةً صادقةً على قلب الجيش المغولي كادت تزلزله، ولكن ميسرة جيش "جلال الدين" لم تتحمل ضربات المغول فانكشفت وتبددت، ووقف السلطان على رأس سبعمائة من رجاله يقاتلون في بسالة وثبات جحافل المغول، ولكن دون جدوى ، واضطر أن يولي وجهه شطر النهر وقذف بنفسه في النهر وتبعه ما بقي من رجاله وعبروا النهر إلى الضفة الأخرى ، ووقع في الأسر ابن للسلطان وكان طفلاً في الثامنة ، ولكن " جنكيز خان " لم يرحم طفولته فقتله بيده ، ولما عبر السلطان إلى الجهة الأخرى رأى والدته وأم ولده وحريمه يصحن بأعلى صوتهن : " بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر " ، فأمر بهن فأغرقن ، وهمَّ كثيرٌ من المغول بعبور النهر والحق بجلال الدين ، إلا أن " جنكيز خان " منعهم واكتفى بهذا النصر الذي أعاد للمغول هيبتهم ، وحقق لهم الاستيلاء على غزنة التي كانت خالية من الجند .

اتجه جلال الدين إلى الهند مع الناجين من رجاله وكانوا أربعة آلاف على هيئة مزرية فهاموا على وجوههم يبحثون عن مأوى لهم ، غير أنهم في أثناء بحثهم لم يراعوا فيهم إلّا ولا ذمّةً، فأغاروا على بعض البلاد وأحدثوا بها خراباً وتدميراً وفرضوا إتاوات على أهله!.

وقضى السلطان في الهند ثلاث سنوات جمع فيها قوةً كبيرةً من الجند الفارين من وجه المغول في الهند ، وانضمَّ إليه كثير من القادة الخوارزميين الذين قدموا إليه، وآلاف من المتطوعين الراغبين في الدفاع عن الإسلام ، ونجح في مهاجمة بعض الأقاليم الهندية الواقعة في حوض نهر السند وغنم منها غنائم كثيرة وأخضعها لسلطانه .

غير أن ازدياد قوته واستفحال خطره جعل حكام السند يقفون في وجهه صفّاً واحداً ويطلبون منه مغادرة بلادهم ، ولم يكن يستطيع أن يحاربهم جميعاً فأثر السلامة وقرّر

العودة إلى أراضي دولته ؛ لأنه لم يكن طامعاً في الهند ، وكانت إقامته بها مؤقتة حتى يستعيد قوته وتواتيه الفرصة للانقضاض على المغول .

وبعد رجوع جنكيز خان عام 621 هـ / 1224 م إلى منغوليا انسحبت جيوشه من أقاليم الدولة الخوارزمية التي كانت تحتلها ؛ فانتهاز غياث الدين بن محمد خوارزم شاه أخو السلطان جلال الدين هذه الفرصة ، ونجح في استرداد أقاليم الدولة الخوارزمية ما عدا إقليم ما وراء النهر، غير أنه لسوء سياسته كانت تلك الأقاليم يسودها الفوضى والاضطرابات ، فلما عزم السلطان جلال الدين على مغادرة الهند زين له قادته انتزاع السلطة من يد أخيه غياث الدين ؛ لأنه الخليفة الشرعي لأبيه فاستجاب لرغبتهم وعبر نهر السند عام 622 هـ / 1225 م ، وأسرع إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية الواقعة تحت سيطرة أخيه فاستولى على غزنة وكرمان ، ثم نجح بالحيلة في هزيمة أخيه واسترداد ما كان تحت يديه من المدن والأقاليم ، وتوافد عليه قواد الدولة الخوارزمية الذين كانوا تحت إمرة أخيه وأعلنوا تبعيتهم له ومبايعته سلطاناً على الدولة الخوارزمية ، وبعد أن استقر جلال الدين عمل جاهداً على إعادة الأمن وإصلاح ما خربه المغول وتجهيز جيش للوقوف على أهبة الاستعداد ، وامتد سلطانه على أقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران .

وانتهز جلال الدين فرصة انشغال المغول باختيار خليفة لقائدهم جنكيز خان بعد وفاته عام 624 هـ / 1227 م ، واشتبك مع قوة من المغول قصدت الدولة الخوارزمية وتوغلت في أراضيها حتى أصبحت على مقربة من مدينة الري ، ونجح السلطان في القضاء عليها تماماً ، ثم نشبت معركة أخرى قرب أصفهان عام 625 هـ / 1228م، بين المغول وقوات جلال الدين كان النصر حليفه فيها.

وعلى الرغم من تحسن الأوضاع نسبياً بالنسبة إلى جلال الدين فإنها لم تكن كافية للصمود أمام المغول؛ فالدولة كانت منهكة من آثار التخريب والدمار الذي ألحقه المغول بالبلاد ، والأحوال فيها مضطربة ، والصلات والروابط التي تعين على مواجهة المحن قد تقطعت بين شعوب تلك المنطقة ، وغلب على الناس إيثار السلامة بعد الأهوال التي شاهدوها ، ولكل هذا لم ينجح جلال الدين في وقف الهجمة المغولية التي بعثها " أوكتاي

" خاقان المغول الجديد ، وكان قد أرسل جيشا من 30 ألف مقاتل ليشن حرباً شاملة على جلال الدين ، فعبر نهر جيحون ووصل بسرعة إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية واستولى على الري وهمذان وما بينهما ، عام 628 هـ / 1231 م ، ولم يقو جلال الدين على لقاءهم ، ففرّ من أمامهم وهم في إثره يطاردون .

وعندما رحل جلال الدين إلى تبريز كانوا وراءه ، وأرغموه على التقهقر إلى سهل موقان المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين قبل أن يتمكن من جمع جيوشه وحاول أن يستجد بالخليفة العباسي وأمراء ديار بكر ولكنهم تقاعسوا عن نصرته ، وتركوه يلقى نهايته وحيداً دون معاون أو نصير ، فلما وصل إلى آمد في أعالي نهر دجلة لحق به المغول وهزموه شر هزيمة وقتلوا كثيراً من جنده واستولوا على ما بيده من سلاح .

وكان السلطان جلال الدين ممن ولوا الأدبار في هذه المعركة ، ولجأ إلى جبال كردستان بعد أن يؤس المغول من تتبعه للقضاء عليه ، وظل بها حتى عثر عليه رجل كردي وأخبره أنه هو السلطان جلال الدين ، فأخذه الكردي إلى منزله ، وخرج ليدبر له بعض خيوله ليستعين بها السلطان في رجوعه إلى بلاده ، وبينما كان الكردي غائبا عن منزله أتى كردي آخر لزيارته فلما دخل المنزل رأى السلطان فعرفه ، وكان قد قتل أخاً له في إحدى غزواته ، فضربه بحربته التي كانت في يده فنشبت بين أضلعه وسقط السلطان قتيلاً ، وذلك في 15 شوال 628 هـ ، الموافق 9 أكتوبر 1231 م ، وبمقتله انتهى عهد الدولة الخوارزمية أمام المغول الذين سيطروا على أراضيها ، وبدأت بعد ذلك مرحلة جديدة للغزو المغولي قادها هولاكو حفيد جنكيز خان ، فقضي علي الخلافة العباسية في بغداد وسقطت في يديه مدن الشام الهامة مثل حلب ودمشق .

تعاقب علي حكم الدولة الخوارزمية أسرتين حكموا البلاد ما يزيد عن ثلاث مائة عام وهما الأسرة الغزنوية ، والأسرة الخوارزمية ، وذلك علي النحو :-

• الأسرة الغزنوية :-

أبو علي مأمون الأول ، حكم خلال الفترة من عام 992 إلي عام 997

أبو الحسن علي ، حكم خلال الفترة من عام 997 إلي عام 1009

أبو العباس مأمون الثاني ، حكم خلال الفترة من عام 1009 إلي عام 1017

محمد ، حكم خلال عام 1017

ألطون ياش ، حكم خلال الفترة من عام 1017 إلي عام 1032

هارون ، حكم خلال الفترة من عام 1032 إلي عام 1034

إسماعيل خاندان ، حكم خلال الفترة من عام 1034 إلي عام 1041

• الأسرة الخوارزمية :-

أنوش تكين جارتشاي ، حكم خلال الفترة من عام 1077 إلي عام 1097

إكينجي ، حكم خلال عام 1097

قطب الدين محمد ، حكم خلال الفترة من عام 1097 إلي عام 1127

علاء الدين أتمسز ، حكم خلال الفترة من عام 1127 إلي عام 1156

آل أرسلان ، خلال الفترة من عام 1156 إلي عام 1172

سلطان شاه ، حكم خلال الفترة من عام 1172 إلي عام 1193

علاء الدين تكش ، حكم خلال الفترة من عام 1193 إلي عام 1200

علاء الدين محمد ، حكم خلال الفترة من عام 1200 إلي عام 1220

جلال الدين منكبرتي ، حكم خلال الفترة من عام 1220 إلي عام 1231

اتبعت الدولة الخوارزمية تقليداً بأن اتخذ الحكام لأنفسهم لقب " خوارزم شاه " ، أي ملك خوارزم ، وكان أول من حصل علي هذا اللقب هو قطب الدين محمد بن أنوشكين عام 490 هـ ، ولكن بعد أن توسعت الدولة الخوارزمية ، واستطاعت أن تحتل مكانة بين الدول الكبرى ، واستيلائها على ممتلكات الدولة السلجوقية ، وجد علاء الدين تكش أن لقب خوارم شاه لم يعد يتناسب مع مكانة الدولة الكبرى ، فاتخذ لنفسه لقب السلطان بعد ان زال ملك السلاجقة عام 590 هـ ، وضرب اسم السلطان على العملة.

وبعد أن صارت الدولة الخوارزمية في أوج عظمتها في عصر خوارزم شاه علاء الدين محمد أطلق على نفسه لقب الإسكندر، أما سلطتهم على الدولة فكانت غير محدودة حيث كانوا يعينون ويعزلون الوزراء وحكام الولايات والقضاة وأصحاب المناصب العسكرية العالية، وكانوا يعلنون الحرب ويقودون الجيوش ويأمرون بإقطاع الأراضي ووضع الضرائب وإزالتها .

اتبع الخوارزميون نظام الحكم الوراثي، حيث جرت العادة أن يعين السلطان ولي العهد في حياته، وقد حرص السلاطين على توريث السلطنة للأكبر من أبنائهم، إلا أن بعضهم كان يرشح ابنه الأصغر بسبب تدخل النساء، وقد تكررت مثل هذه الحالة في عهد خوارزم شاه علاء الدين محمد الذي عهد لابنه ازلاغ شاه متخطيا ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي مدفوعا بتأثيرات أمه ترکان خاتون ونفوذها .

وكان كل سلطان من سلاطين الدولة الخوارزمية يعين نواب عنه في المدن والأقاليم التابعة له يقوم بإدارتها، وكان هؤلاء يقدمون المال المناسب لخزينة السلطان والقوات العسكرية، ولم تكن السلطة الممنوحة لهم كاملة بل كان السلطان يتدخل في شئونهم إذا اقتضى الأمر ويعاقبهم إذا ظهر منهم عملا لا يرضاه، وربما بلغت عقوبته لهم حد القتل إذا ما استغلوا مناصبهم لأغراضهم الشخصية .

وقد ظهر منصب الوزارة لأول مرة لدى الخوارزميين في عصر خوارزم شاه اتسز بن محمد بن أنوشتكين ، حيث كان من وزرائه الفلكي أبو مظفر سعيد بن محمد بن عبد الله النيسابوري ، وشمس الدين أبي الفتح محمد بن علي بن موسى وكان تعيين الوزير وتفويض السلطة اليه من صلاحية السلطان باعتباره المشرف الفعلي على شئون دولته، وتعد سلطة الوزير محددة وبقائه في السلطة يتحدد على قبول السلطان عنه، وكان عدد الوزراء يختلف من سلطان إلى آخر¹، فقد اتخذ بعضهم وزير والبعض الآخر أكثر من وزير ، فكان للسلطان علاء الدين محمد ثلاثة وزراء في كل من نسا ونيسابور وبلاد الترك وكان الوزراء يعيشون في اقطاعات مقرررة يمنحها لهم السلطان .

وقد تلقب الوزراء بعدة ألقاب جديدة مضافة الى أسمائهم ، فقد تلقب الوزير ناصر الدين وزير خوارزم شاه علاء الدين محمد بلقب العالي ، كما كانت هناك ألقاب مثل المعظمي، الصدري ، الأعظمي العادلي، العالمي، المرابطي، القوامي ، العمدي الكهفي .

¹ - نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري - تحقيق : عبد المجيد ترحيني وآخرون - دار الكتب العلمية 2004 - بيروت .

وتأثر الخوارزميون بتنظيم دولة الخلافة في بغداد ، فأدخوا نظام الدواوين ، حيث أنشأوا ديوان الجيش وكان يطلق عليه أحياناً ديوان العرض ، وكان هذا الديوان يضم أسماء عدد من القواد ، والجند وطوائفهم ورواتبهم وأعطياتهم ، واقطاعاتهم ، وكان هناك ديوان آخر يسمى بديوان الإنشاء وهو ديوان الرسائل السياسية ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية، لذلك تعتبر وظيفة كاتب الإنشاء من الوظائف الرئيسية لدى الخوارزميين وكان من أشهر كتاب الإنشاء **محمد العمري الكاتب البلخي المعروف برشيد الدين الوطواط كاتب لعهد خوارزم شاه أتسر** ، وكان يعتبر من أكبر الكتاب في الدولة ، وكذلك نظام الدين كاتب الإنشاء **لخوارزم شاه علاء الدين محمد ، ومحمد بن أحمد النسوي الذي عهد إليه السلطان جلال الدين منكبرتي بوظيفة كاتب الإنشاء** ، فتقلدها كارها في بادئ الأمر ثم تعلق بها بعد أن عم عليه نفعها ، وصار من يزاحمه عليها .

وكانت وظيفة القاضي من أرفع الوظائف الدينية في الدولة الخوارزمية ، وأعلاها قدرًا وأجلها رتبة ، وكانت القضايا التي يتناولها القاضي للفصل فيها كثيرة ومتنوعة منها قضايا السرقات ، وشرب الخمر، والزنا، والمواريث ، والمعاملات...، وكان القاضي يقوم بوظيفة المُحتسب؛ لأن هذه الوظيفة كانت شديدة القرب من وظيفته ، وكان القضاة يُعيّنون عادةً من قبل السلطان الخوارزمي ، كما تبين ذلك من تعيين **خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش للقاضي صدر الدين الجندي قاضياً في نيسابور وتوابعها** ¹ .

وتعدّ مدينة خوارزم من أكبر المدن وأعظمها وأجملها ، ولها أسواق وشوارع فسيحة وعمارة كثيرة ، وتموج بالسكان ، ويتوسط المدينة الأسواق والمدارس ، وكانت تلك الأسواق يخف زحامها يوم الجمعة . أمّا طبيعة المجتمع الخوارزمي فيذكر **ابن بطوطة** لم أر في بلد الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوساً ولا أحب في الغرب منهم ، ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرها ، وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيرانه مُعلماً لهم بحضوره الصلاة، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمامُ أمام الجماعة ، وفي كل جامع درة ، أي كيس من

¹ - الدولة الخوارزمية - نافع توفيق العبود - مطبعة الجامعة 1978 - بغداد .

النقود معلق برسم ذلك، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح الجامع أو تطعم للفقراء، وأن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان¹.

كانت التجارة مزدهرة في الدولة الخوارزمية، فقد ازدهرت حركة التجارة بين المدن المختلفة وبينها وبين الدول المجاورة، وقد نشطت تجارة القمح والشعير التي اشتهرت بهما ترمذ، وكذلك الفواكه التي اشتهرت بها مدينة خوارزم، وكان يتم استخدام نهر جيحون في الصيف كطريق بحري للتجارة، أما في الصيف فقد كانت الحركة تتوقف خلاله لتجمد مياهه².

• الدولة التيمورية :-

يُطلق اسم الدولة التيمورية على الأسرة التيمورية خلفاء " الأمير تيمور " من أبنائه وحفدته الذين حكموا امبراطوريته بعد وفاته. خسر التيموريون العراق وأذربيجان بعد أربع سنوات فقط من وفاة الأمير " تيمور "، وتولى بعض أبنائه وحفدته من بعده حكم ناحية كبيرة أو صغيرة من هذه الامبراطورية، ولمدد قصيرة أحياناً وقد حكمت الدولة التيمورية بلاد ماوراء النهرين " آسيا الوسطى "، وأفغانستان حتي عام 1405 م وشمال الهند، وإيران والعراق، والشام، وشرق الأناضول، وأجزاء من منطقة القوقاز خلال الفترة ما بين عام 1363 وعام 1506 م، واتخذت من سمرقند عاصمة لها حتي عام 1405 م، ثم انتقلت إلي هراة.

ينحدر مؤسس السلالة التيمورية " الأمير تيمور " من قبائل البرلاس الأوزبكية، ذات الأصول التركية، والتي استوطنت مناطق بلاد ما وراء النهر، وأصبح تيمور منذ عام 1360 م أميراً على إقليم كش جنوبي سمرقند، واستولى منذ عام 1363 م على مناطق واسعة في بلاد ماوراء النهرين " سمرقند 1366 م، بلخ 1369 م، وتم الاعتراف به عام 1370 حاكماً للمناطق التي استولى عليها، بعدما أصبح زعيماً لتجمع قبائل " ألوس

¹ - تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - ابن بطوطة - تحقيق : درويش الجويدي - المكتبة العصرية - بيروت .

² - العبر وديوان المبتدأ والخبر - عبد الرحمن ابن خلدون - دار الكتاب اللبناني - بيروت .

تامغطاي" وأخضع في السنتين التاليتين منغوليا وخوارزم ، ثم بدأ منذ عام 1380 م في شن حملاته على الغرب حتى عام 1389 م .

دفع بقواته عام 1382 م إلى إيران والعراق، فاستولى على أصفهان عام 1387 م وأزاح المظفرين عن شیراز، ثم طرد الجلائريين من بغداد عام 1394 م ، وانتصر على القبيلة الذهبية ، واستولى على بلاد الكرخ "القوفقاز" عام 1398 م ، قام بغزو الهند عام 1400 م، واستولي على حلب ، ودمشق ، وشرق الأناضول ، وبغداد عام 1401 م ثم انتصر على العثمانيين في معركة أنقرة ، وقام الأمير تيمور ببناء سمرقند ، وحولها إلى أكبر حواضر العالم .

ولد الأمير تيمور بالقرب من سمرقند في 734هـ / 1333م ، وهو ابن حفيد رئيس قبيلة برلاس التركية فلما أصبح أميراً علي إقليم ما وراء النهر ، وجه قوته الجديدة نحو الغرب ، ففتح خراسان وماننداران وسجستان في عام 1380 م / 782 هـ واستولي على آذربيجان وجورجيا وغربي إيران في عام 1384م / 786 هـ ، وغزا إقليم فارس جميعه في عام 1392 م / 795 هـ ، وقام بهذه الحملات بقوات قليلة نسبياً ، مما جعله يواجه بعض المصاعب أحياناً ، وجعل تقدمه غرباً بطيئاً ، ثم سار إلي بغداد ، وتوجّه بعد ذلك إلي سورية حيث استولي على حلب ودمشق .

لقد كان السلاطين المغوليون والتيموريون محبين للعلوم والفنون في أول أمرهم ، فقد اهتموا بعلم الرياضيات لضبط شئون مملكتهم ، وعلم الطب لحفظ الأبدان ، وعلم الفلك لرصد الأوقات وتحديد مواعيد الغزوات، كما كانوا يصطحبون خيرة العلماء معهم إلي مقر حكمهم ، ثم مالبتوا أن اعتنقوا الإسلام ، ونتيجة لعدم تعصبهم لوثنييتهم صاروا دعاة للإسلام ، وسعوا إلي نشره ، وبنوا الكثير من المساجد والمدارس الدينية والعلمية .

لقد انصرف المغول التيموريون بعد اعتناقهم الإسلام إلي تعمير ما خرّبه أجدادهم وآباؤهم، حيث شهد ملكهم نهضة عمرانية وعلمية وثقافية عظيمة ، وصارت عواصم ملكهم كتبريز ومشهد وهراة والسلطانية وسمرقند مراكز العلوم والآداب والفنون لعقود طويلة ، وقبله للعلماء والفقهاء والأدباء والفنانين ، فأوقفوا أملاكهم وبذلوا المال الوفير من أجل العلماء ورجال الدين والأدباء وأرباب الفنون ، لتشجيعهم علي إنجاز أعمالهم

وأيضاً للإِنفاق علي المؤسسات العلمية والدينية ، وصرف رواتب القائمين علي العمل بها ، بل كان من هؤلاء السلاطين من شارك أهل المعرفة نشاطهم ، ولقد ازدهرت العلوم العقلية والدينية في هذه الفترة ، فراج التأليف في مختلف العلوم وخاصة الرياضيات والفلك والطب والهيئة والتاريخ والتفسير والحديث والسيرة وعلم الكلام والفلسفة والمنطق واللغة والتصوف.

قسم أبناء الأمير **تيمور** ، كل من **شاه رخ** ، و**ميران شاه** ، امبراطوريته شطرين: — شرقاً وغرباً ، يفصل بينهما خطٌ ممتدٌ علي محاذاة نجد إيران ، واضطر **ميران شاه** وقد آل إليه أمر العراق وأذربيجان وأجزاء من بلاد القبق " القوقاز " إلي أن يخضع لسلطان أخيه ليقتل عام 1408 م ، في معركة خاضها زعيم قره قيونلو (**الخروف الأسود**) وتنازع هؤلاء خصومهم أق قيونلو (**الخروف الأبيض**) علي امتلاك الولايات الشمالية الغربية التابعة للأمير **شاه رخ** الذي وحدَّ الامبراطورية تحت لوائه ، بعد وفاة أخيه، وكان **شاه رخ** وأعقابَه وبخاصة أولوغ بك الذي كان معنيًا بعلم الفلك " 1447 - 1452 م " يشملون الشعر والعلوم برعايتهم ، فأدوا بذلك خدمة جليلة إلي الأدب بصفة عامة .

وفي عهد الأمير **تيمور** وخلفائه بقيت سمرقند مركزاً تجارياً مهماً تردُّ عليه كثيرٌ من السلع الصينية، رغم عدم توفر معلومات علمية بتركستان في العهد المغولي عن الصين كتلك التي وجدت في نفس العهد ، وخاصة في كتب **رشيد الدين** ، الذي وصف سفارة **شاه رخ** إلي الصين خلال الفترة من عام 1419 إلي عام 1422 م ، وهي السفارة التي اشترك فيها وفدٌ من سمرقند.

كما يعد العصر التيموري أزهى العصور الإسلامية إنتاجاً للمعابد ، والتي امتازت أشكال الأواني فيه بالأناقة والتهذيب، الأمر الذي كان له الأثر الكبير ولاسيما سوريا ومصر وآسيا الصغري .

تنازع أحفاد الأمير **تيمور** علي مملكته ، وتمكَّن ابنه **شاه رخ** من أن يفرض نفسه بعد نزاع مع أخوته **ميران شاه** ، و**محمد جهانكير** ، وعمر شيخ علي عرش المملكة الذين خافوا علي حياتهم من الموت فلجأوا إلي السلطان العثماني **محمد الأول**، الذي رحَّب

بهم لغرض في نفسه، وهو أن يجعلهم ورقة ضغط على شقيقهم " شاه رخ " العدو الأول له ولكي يأمن السلطان من أى خديعة، فقد جعل كل شقيق منهم يقيم في أحد أقاليم الأمبراطورية العثمانية بعيداً عن الآخر ، فجعل " ميرنشاه " في سوريا ، ومحمد جهانكير في مصر ، وعمر شيخ في المغرب ، كما تزوج السلطان من شقيقاتهم الجميلة طغي شاه ، وكان السلطان يشملهم برعايته الشخصية فخصّص لهم رواتب شهرية ومنحهم أراضٍ وأملاكاً في الأقاليم التي يقيمون بها ، كما أبقي على ألقابهم الملكية وكان لهم وضع خاص ومكانة كبيرة، وأطلق عليهم أيضاً أمراء السلطان دلالة على مكانتهم الرفيعة عنده وجرياً على عادة عثمانية كانوا يقدمون اسم العائلة على الاسم الشخصي فأصبح تيمور ميران شاه ، وتيمور محمد جهانكير ، وتيمور عمر شيخ وفي عهد السلطان محمد الأول ومن بعده ابنه مراد الثاني " عاشت هذه العائلات الملكية في ثراء فاحش ونعيم ليس له حدود لدرجة أن أصبحوا أغنى من حكام الأقاليم أنفسهم واستمر الحال هكذا فترة طويلة إلى أن دخل الاستعمار الأوروبي إلى الدول التي يعيشون فيها فانقطعت الرواتب والعطايا ومن ثم صودرت القصور والأراضي الخاصة بهم، وما أفلت من المصادرة تم وقفه لذريتهم كما تم إلغاء الألقاب الملكية التي كانوا يتخذونها ومع مرور الزمن أصبحت هذه الفروع الملكية المنحدرة من " الأمير تيمور " العظيم في طي النسيان .

ثم سقطت بعد ذلك الأناضول ومعها إيران والعراق في أيدي الآق قويونلو " الخراف البيض " ، وخلال السنوات التالية نشطت الحياة الثقافية في العديد من الحواضر في المملكة ، وكانت سمرقند أكبر تلك الحواضر جميعاً ، حيث اشتهرت بمرصدها الفلكي الذي قام شيدده الفلكي السلطان ميرزا ألوغ بك (الأمير الأكبر) الذي حكم خلال الفترة من عام 1409 إلى عام 1449 م ، وبعد عام 1447 بدأت الحروب الداخلية ، وكانت إمارة سمرقند والتي حكمها أبو سعيد خلال الفترة من عام 1451 إلى عام 1469 م الاستثناء الوحيد لحالة الفوضى التي عمت المملكة ، وأزاح الشيبانيون ابنه أحمد الذي حكم خلال الفترة من عام 1469 إلى عام 1494 م ، عندما دخلوا سمرقند علي مرتين الأولى عام 1497 والثانية عام 1500 م .

• العلاقات الخارجية في عهد التيموريين :-

لم يُتَح الصراع على السلطة للحكام التيموريين اتباع سياسة خارجية ثابتة، مع أنَّ " شاه رخ " الذي حكم لمدة طويلة ، عدل عن سياسة التشدد مع الصين التي انتهجها والده وأقلع عن فكرة غزو تلك البلاد ، وأوفد إلى الصين سفارتين عامي 811 هـ / 1408 م و 812 هـ / 1409 م ، واستقبل عام 815 هـ / 1412 م بعثة صينية ، حملت معها قبول الامبراطور الصيني ، من أسرة " مينغ " ، إقرار " شاه رخ " له بالتبعية باعتبار أنَّ أسرة " مينغ " الحاكمة هي وارثة أسرة " يوان " التي كان قد أسسها الخان " قوبيلاي بن تولوي ابن جنكيز خان " ، والتي كانت تدَّعي الزعامة على باقي الدول المغولية وما انبثق عنها من ممالك ، وكان من نتائج هذه السياسة عودة العلاقات التجارية مع الصين إلى نشاطها السابق .

كما حاول " شاه رخ " أيضاً تجديد النفوذ التيموري في الدولة العثمانية الذي انبثق من معركة أنقرة .

ولذلك فقد تلقى من السلطان العثماني " مراد الثاني " رداً بالإقرار بالتبعية له على رسالة وجهها له " شاه رخ " عام 839 هـ / 1435 م يطلب منه فيها ذلك .

وامتدت علاقات " شاه رخ " مع دولة المماليك حقبة طويلة من الزمن بين عام " 833 هـ / 1430 م ، وعام 848 هـ / 1444 م ، تبادل فيها الرسائل مع سلاطين المماليك .

وبعث بوفوده إلى القاهرة ، وطمح إلى أن يرسل كسوة للكعبة ، ولما رفض السلطان " برسباي " طلبه أرسل إليه " شاه رخ " يطالبه بالإقرار بالتبعية له ، على نحو ما كان أقرَّ به السلطان " فرج " لوالده " تيمور " ، ولكن " برسباي " رفض ورد المبعوث التيموري خائباً .

وأخيراً انتهى الأمر بسماح السلطان " جقمق " عام 848 هـ / 1444 م لـ " شاه رخ " بإرسال كسوة للكعبة ، واستمر منذ ذلك الوقت قدوم الحجاج من المشرق إلى الحجاز وكان بعضهم يمرُّ بالمدن الواقعة تحت النفوذ التركي .

• الحياة الفكرية :-

تركزت الحياة الفكرية في هرات في عهد " شاه رخ " ، وفي سمرقند في ظل ولده " ألوغ بك " ، وساعد على هذا النشاط أن كلا الحاكمين كان مثقفًا، فكان " شاه رخ " شاعرًا ، ومارس ابنه البحث العلمي بنفسه ، فضلاً عن أن كلا منهما حكم مدة طويلة والتفت حولهما حاشية مثقفة نشيطة .

وبفضل أعمال " شاه رخ " تحولت المدينة إلى مركز نهضة فكرية للحضارة الفارسية الإسلامية في موقع متقدم في قلب آسيا .

فأسس فيها مكتبة ، وأرسل يجمع لها الكتب وعاش في كنفه عددٌ من الشعراء والعلماء منهم الشاعر " سيدي أحمد بن ميرانشاه ، حفيد الأمير تيمور " الذي نظم له مصنفًا شعريًا بالفارسية دعاه " تعشق نامة " عام 829 هـ / 1426 م .

ومنهم المؤرخ " حافظ أبرد " الذي توفي عام 822 هـ / 1419 م ، والذي كتب بتشجيع من " شاه رخ " نفسه كتابه التاريخي الموسوعي " مجمع التواريخ " وكان من ندمائه " شرف الدين علي يزدي " الذي توفي عام 858 هـ / 1454 م مؤلف كتاب " ظفر نامة " الذي يعد أوسع مؤلف عن تاريخ الأمير تيمور .

أما في سمرقند فقد شغل المفكرون بالموازنة بين الثقافتين الفارسية القديمة والتركية الناشئة ، وعلى الرغم من أن " ألوغ بك " كان يعتز بتركيتيه ، فقد أخذ من الثقافة الفارسية أكثر مما أخذ جده الأمير " تيمور " .

وكانت مناقشاته مع العلماء باللغة الفارسية، وصرف " ألوغ بك " جهده للاهتمام بالعلوم ذات الصلة العالمية التي تؤدي إلى رقي الإنسانية وإغناء الفكر البشري .

فقد أسس " ألوغ بك " مدرستين في بخارى وسمرقند .

وكتب على باب مدرسة بخارى " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " ، ودُرست في هاتين المدرستين علوم الدين والهيئة " الفلك " ووفد إليها من إيران العلماء والطلاب للتدريس والدراسة .

ودفع " ألوغ بك " ولعهُ بعلم الفلك إلى بناء مرصد شمال سمرقند عام 825 هـ / 1422 م ظلت آثاره ماثلة للعيان حتى وقت قريب ، وشارك بنفسه العلماء والطلاب في البحث

في هذا العلم، ووضعت في عهده جداول الأزياج ، وفهارس الكواكب؛ وحصيلة ما توصل إليه علم الفلك في عصره ، قبل اختراع المنظار الفلكي .

وقد طبعت جداول " ألوغ بك " الفلكية في بريطانيا عام 1076هـ / 1665 م ، وتداولها الناس في أوروبا حتى آخر القرن السابع عشر الميلادي .

وقد توقف النشاط الحضاري في سمرقند لاضطراب الحالة السياسية فيها بعد وفاة " ألوغ بك " وبحدّة النزاع بين أولاد " أبي سعيد " .

عاد النشاط العلمي والثقافي ثانية إلى هرات في زمن السلطان " حسين بايقرا " ، حيث أسس مكتبة ، وبنى مدرسة كبيرة ، وتميّز النشاط الفكري في عصره بازدهار قرض الشعر بالتركية الجغتائية، على الرغم من قلة العنصر التركي في التركيب الشعبي المحلي .

وكان من طلائع شعراء التركية الجغتائية " مير علي شيرنوائي " الذي استندعاه من سمرقند السلطان " حسين " ، إذ كانا زميلي دراسة ، وكلفه مهمة حامل الأختام(مهردار) وكان يُنادى بالوزير .

نظم " شيرنوائي " أشعاره وفق نظام " المثنوي " المعروف ، في الأدب الفارسي . ووضع مؤلفات بالتركية في التاريخ والأدب ، وترجم لغيره من الشعراء الأتراك . وتعدّ كتاباته اليوم من الأدب التراثي في التركية الجغتائية .

وكان من أصدقاء شيرنوائي الشاعر الفارسي " عبد الرحمن جامي " الذي توفي عام 898 هـ / 1493 م ، وقد وضع كتبًا كثيرة في الفارسية والعربية ، تناولت النحو العربي والتفسير والتصوف والشعر ، وعاش في بلاط السلطان " حسين بايقرا " المؤرخان الفارسيان ميرخوند الذي توفي عام 903 هـ / 1497 م ، وحفيده " خوندмир " الذي توفي عام 924 هـ / 1518 م .

• النهضة الفنية :-

أسهم الأمير " تيمور " في النهضة الفنية التي تابعت ازدهارها في عهود أبنائه، فكان قد استقدم معه إلى بلاده ، في الحروب التي خاضها ، أعدادًا كبيرة من أرباب الحرف

والفنون والهندسة والعمارة ، من دمشق وبغداد وخوارزم ، وحملت جيوشه الحجارة والأعمدة والرخام من بقايا الأبنية التي هُدمت .

وتوضحت منذ ذلك الوقت خصائص المدرسة التيمورية في البناء ، التي تظهر في ضخامة الأبنية وارتفاعها، لإظهار عظمة الدولة وتقليد الأساليب الفارسية واقتباس الزخارف الصينية وأخيراً في تقليد مخيمات الأتراك في بناء القصور واستخدام الألوان المتعددة الصارخة التي تستهوي ، عادة الشعوب البدوية في تزيين الأبنية من الداخل والخارج .

واستمر نشاط حركة البناء في عهد " شاه رخ " بإشراف زوجته " جوهر شاد " التي أمرت بإشراف المهندس " قوام الدين الشيرازي " ، ببناء مسجد على قبر الإمام " علي الرضا " في مدينة مشهد .

وزُيّنت جدران المسجد بزخارف الفسيفساء والقاشاني البرّاقة .

وشيّدت " جوهر شاد " مدرسة كبيرة وجامعاً ، بُني في كل زاوية من زواياه الأربع مئذنة وأخيراً أقامت " جوهر شاد " مدفنًا لها في هرات ، وأما " ألوغ بك " ، فكان ما شيّده من أبنية تحاكي أبنية جده ، إلا أنها تتميز عنها في المتانة ، ودقة الأبعاد وروعة المنظر ، ويرجع إلى عهده بناء عدد كبير من المساجد والربط . وأهم مبانيه مدرسته في بخارى وسمرقند .

وارتقى في عهد التيموريين فن الرسم و فن التخطيط . فقد احتاج " شاه رخ " إلى عدد من النُسخ لمكتبته في هرات ، فأسس ابنه " باي سنقر " في العاصمة معهدًا لفنون الكتاب كان يعمل فيه أربعون فنانًا بين ناسخ ومصور ومجلد ومذهب ، وغدا فن المنمنمات وما يلحق به من الميزات الفنية في عصر التيموريين .

وأضحى فن التخطيط أيضًا من سمات المدرسة الفنية التيمورية في هرات . واشتهر من الخطاطين " جعفر التبريزي " الذي عمل في معهد " باي سنقر " الفني .

وابتكر الخطاط " مير علي التبريزي " ، الذي عاش في عصر السلطان " حسين بايقرا " أسلوبًا جديدًا في الخط العربي هو أسلوب " النسْتعليق " الذي جمع بين أسلوب

النسخ " و " التعليق " وبلغ خط " النس تعليق " غاية الإتقان على يد الخطاط " سلطان علي المشهدي " الذي توفي عام 919 هـ / 1513 م .
أما فن التصوير فقد حقق رقيًا أكبر في هرات في أيام السلطان " حسين بايقرا " ووزيره " مير علي شرنوائي " .

وازدهر التصوير في الوقت نفسه في شيراز ، حيث وضع فيها صور لمخطوطات دواوين الشعر العاطفي للشعراء الفرس ، ويلاحظ في صور المدرسة التيمورية اندماج الأساليب الفنية للمدرسة العباسية ، والمدرستين الفارسية والصينية في رسم الأشخاص والاعتناء بدقة التفاصيل مع خلفية طبيعية ملوّنة وتمتاز هذه الصور بالواقعية والحيوية

• الاحتلال الروسي :-

بعد سلسلة طويلة من التوسعات الروسية داخل المناطق الإسلامية في حوض نهر الفولجا وكازاخستان ، بدأت الحملات العسكرية الروسية على تركستان بين كر وفرٍ إلى أن تمكّنت الجيوش الروسية بقيادة الجنرال " شيرنياييف " من الاستيلاء على مدينة طشقند التابعة لخانية خوقند في 15 يونيو عام 1865م .

وبعد معارك شرسة وغير متكافئة بين جيوش الأمراء المنقسمين على أنفسهم والجيوش الروسي المجهّز بأحدث الأسلحة والعتاد العسكري ، تمكن الروس من فرض حمايتهم على بخارى عام 1868 م ، وخيوة عام 1873 م ، ومن القضاء نهائيًا على خانية خوقند عام 1876 م ، بعد تدمير العديد من مدنها وقراها وقتل سكانها .

وقد كان الهدف من الاحتلال الروسي لآسيا الوسطى واضحًا ، وتمثل في :

إخضاع العشائر الأوزبكية كثيرة العدد والتي كانت تمثل حجر عثرة أمام التوسع الروسي جنوبًا في تركستان والقضاء على حركات التحرر في المناطق الإسلامية الخاضعة للاحتلال الروسي والحيلولة دون حصولها على مساعدة من الأوزبك والسيطرة على المناطق الإستراتيجية الحيوية والهامة لخطط التوسع الروسي في تركستان ، والتمركز في المدن الرئيسية للانطلاق منها لاحتلال المزيد من الأراضي في المنطقة ؛ والسيطرة على الأراضي الزراعية الخصبة التي بحوزة الأوزبك

والسيطرة على محاصيل القطن المهمة للصناعة الروسية والتي تأثرت واردة إليها إلى أوروبا خلال الثورة الأمريكية التي امتدت مابين عامي 1862 - 1865 م .
وقد قاوم الأوزبك الاحتلال بشتى الصور منذ اللحظة الأولى للتواجد الروسي على الأراضي الأوزبكية بالمقاومة المسلحة تارة، وبتشكيل الجمعيات السرية المناهضة للاحتلال الروسي وإصدار الصحف والمنشورات التي تندد بالاحتلال والاستيطان وفرض اللغة والثقافة الروسية، وتدعوا الأوزبك للحفاظ على لغتهم وثقافتهم وتقاليدهم القومية تارة أخرى

لم يكن استيلاء البلاشفة على السلطة في روسيا ليشكل عامل تغيير قد يشير إلي تخلص آسيا الوسطى من نير الاحتلال .

بقيت جمهورية أوزبكستان ولمدة تزيد عن السبعين عاماً مرتبطة بعلاقة "استعمار هيكلي" مع موسكو التي احتكرت كل نواحي التطور والتنمية في أوزبكستان لصالحها ولصالح المجموعة السلافية ، ولم يتجاوز إسهام موسكو في تطوير الاقتصاد والعلوم والثقافة في أوزبكستان وعلى مدار نحو سبعة عقود من الزمن ، كونه مثابة إسهام في تحويل أوزبكستان إلى مزرعة ضخمة منتجة للقطن الذي تحتاجه مصانع الغزل والنسيج في المجموعة السلافية ، رغم الآثار الضارة المتوقعة على الاقتصاد الأوزبكي ، وعلى القوة البشرية والثروة الحيوانية والتربة من جراء استخدام المواد الكيماوية الضارة لزيادة المحاصيل ، والتي حدثت فعلاً مع نهاية العهد السوفييتي¹.

كما تم تحويل أوزبكستان إلى مصدر رخيص للمواد الخام والمعادن الثمينة ، التي كانت تستخرج بطرق لم يراعى فيها أية قواعد لحماية الطبيعة والبيئة المحيطة بمناطق الاستخراج ، وإلى تابع سياسي وإيديولوجي احتاجته موسكو لأغراض الدعاية للسياسة الخارجية السوفييتية ، كل تلك العوامل وغيرها ساعدت على نضوج فكرة الاستقلال التام للحفاظ على الهوية القومية وعلى الموارد الاقتصادية ، والتخلص من سياسة الابتلاع الثقافي والاقتصادي الذي سار عليه الاتحاد السوفييتي طيلة فترة احتلالها لأوزبكستان ، وبرز واضحاً خلال السنوات الأخيرة من الحكم السوفييتي ، وخاصة فيما

¹ - شيرزاد قدرت حجابيف - صحيفة نارودنويه صلوافا - 13 أكتوبر 2004

عرف بلجنة " جبدلان وإيفاتوف " سيئة الصيت التي شكلتها موسكو للإساءة لبعض الشخصيات الوطنية الأوزبكية التي لا ترتاح لها .

كما لم تكن الحالة بأفضل منها لا في عهد المتشددين أمثال ستالين وبريجنيف ، ولا الإصلاحيين أمثال خروتشوف وجورباتشوف من القادة السوفيت ، فالهدف غير المعلن كان واحداً وهو الاستغلال الثقافي والاقتصادي ، وقمع أي تطلع قومي أو إسلامي في المدن الهامة من أوزبكستان ، والتي تتمتع بتأثير كبير في المنطقة والعالم الإسلامي كبخارى ، وسمرقند ، ومدينة طشقند التي تحولت إبان الحكم السوفييتي إلى العاصمة الثقافية والعلمية لآسيا الوسطى وكازاخستان السوفييتية ، أدارت من خلالها موسكو عملية السيطرة الثقافية والاقتصادية في المنطقة بأسرها منذ العشرينيات من القرن العشرين ، إضافة لكونها مقراً لقيادة قوات الاحتلال الروسية " تركستانسكي فاييني أوكروك " (قطاع تركستان الحربي) ، والاسم لم يتغير من أيام الإمبراطورية الروسية وحتى انسحاب هذه القيادة والقوات السوفييتية بعد إعلان استقلال أوزبكستان .

• صور من بطولات المقاومة الأوزبكية :-

من الأمثلة الساطعة التي يحملها تاريخ الشعب الأوزبكي في مقاومة الاحتلال والوجود الروسي، الحركة التي قادها " محمد علي " الملقب باسم " دهشة إيشان " عام 1898 وانطلقت من مدينة أنديجان وزحفت إلى مدن أوش ومرغيلان في وادي فرعانة وقامت الجيوش الروسية بقمعها بوحشية بالغة مدمرة كل شيء في طريقها .

كما لعبت المدارس الدينية الكثيرة في المنطقة ، دوراً كبيراً في إثارة الوعي القومي والإحساس الوطني ضد الاحتلال والاستيطان الروسي .

وبرزت بينها المدارس الدينية في إمارة بخارى التي كانت آنذاك مستقلة تحت الحماية الروسية ، وكانت قمة في إثارة الوعي والإحساس الديني والوطني والثقافي ضد الاحتلال والسيطرة الروسية في المنطقة .

وقامت الصحف الوطنية الصادرة آنذاك بدور بارز في مقاومة السيطرة الروسية . فأصدر " محمود خوجه بيه بودي " صحيفتي " سمرقند " و " آوينه " (النافذة) ، من سمرقند .

وأصدر "عاشور علي زهيري" صحيفة "صدى فرغانة" التي صدر منها 123 عدداً من مدينة خوقند .

كما أصدر "عبد الرشيد قاري خان أوغلو" ، و "عثمان خوجه أوغلو" صحيفة "صدى تركستان" في طشقند ما بين عامي 1914 - 1915 ، وقد سارت حركة المقاومة الوطنية للاحتلال الروسي في أوزبكستان مع مطلع القرن العشرين ضمن إطار فكري شامل عرفت بحركة "مجددي" (التجديد) ، التي عاصرت حركة التجديد في مصر وبلاد الشام ، وأخذت على عاتقها مهمة تجديد المفاهيم الدينية ، بعيداً عن التصلب والجمود والأخذ بأسباب التطور الحديث في أوروبا .

وكان من أبرز دعائها "عبد الرشيد قاري" ، وحملت صحف حركة مجددي كصحف "خورشيد ، شهرت ، مجددي" على صفحاتها المفاهيم التنويرية والإصلاحية عن الدين الإسلامي ، وحثت على مكافحة التعصب والجمود الديني للحاق بركب الحضارة الإنسانية المتقدمة ، وتحت ستار التعليم والتجارة شكل المتقنون الأوزبك جمعيات سرية لمقاومة الاحتلال منذ مطلع القرن العشرين، منها : "جمعية تعليم الصبية" ، و "جمعية بركة" التجارية وغيرها من الجمعيات ، وكانت تلك الجمعيات تلقى الدعم والتأييد من الجميع وخاصة من الطبقة الميسورة الحال من الأوزبك .

• الاستقلال :-

نالت أوزبكستان استقلالها عقب انهيار الاتحاد السوفيتي ، وقد شكل استقلال البلاد في الأول من سبتمبر 1991 مرحلة جديدة في تاريخ البلاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي حيث استطاعت البلاد التواصل مع العالم الخارجي، والتعبير عن شخصيتها وهويتها الوطنية دون قيود أووصاية، وأن تقيم علاقات سياسية واقتصادية مع مختلف المنظمات الدولية والإقليمية، ومع دول العالم بما يحقق مصالحها الوطنية ومصالح شعب أوزبكستان الذي قد اسهامات كبيرة في مختلف مجالات الحياة لحضارة الإنسانية .

حينما استعادت أوزبكستان استقلالها عن الاتحاد السوفيتي عام 1991 ، لم يكن لها أي رصيد من العلاقات أو الروابط الدولية الخارجية، فكانت موسكو تحتكر كل تلك العلاقات وعندما نالت استقلالها بدأت في نسج علاقاتها الخارجية وخاصة في المجال الاقتصادي

وكانت تلك العلاقات تتطلب من الدولة الوليدة تقديم مسوغات وشهادات قدرتها علي نسج علاقات قائمة علي تحقيق المصالح المتبادلة ، فقد كانت البلاد لا تمتلك رصيذاً من الثقة لدي العالم الخارجي، كما أن اقتصادها في ظل الاتحاد السوفيتي السابق يتميز بالاقتصاد الأحادي المتطور، الذي سيطر عليه احتكار زراعة القطن، وتسليمه إلي الحكومة المركزية في صورة مواد خام .

وللتغلب علي الميراث الصعب الذي ورثته أوزبكستان عن الحقبة السوفيتية ، اتخذت عدة اجراءات عملية وخطوات كبيرة للإصلاح الاقتصادي الشامل لتحقيق الاستقلال الاقتصادي، مع الأخذ في الاعتبار الخصوصية الوطنية والتاريخية ، ففي عام 1992 أعلن الرئيس إسلام كريموف عن الأسس الخمسة للإستراتيجية طويلة الأمد لتطور البلاد في كافة المجالات ، والتي عرفت باسم " النموذج الأوزبكي للتنمية " ، الأمر الذي جعلها تحقق نجاحات كبيرة في القطاع الاقتصادي القائم علي الانفتاح مع العالم الخارجي ، وتطبيق سياسة اجتماعية قوية وفعالة .

ارتبطت أوزبكستان خلال سنوات الاستقلال باسم الرئيس إسلام كريموف ، فقد شكل الشخصية المحورية في قيادة البلاد خلال الفترة الانتقالية من استقلال أوزبكستان والتي كانت من أصعب الفترات الزمنية في تاريخ البلاد، شأنها في ذلك شأن جميع الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتي، حيث نالت أوزبكستان استقلالها وكانت مرتبطة بالعملية الروسية " الروبل " ، والاقتصاد الأحادي المتخصص الذي كانت تتبعه السياسية السوفيتية ، وعدم وجود علاقات سياسية واقتصادية مع العالم الخارجي ، مع الافتقار للكواد الدبلوماسية ، بالإضافة إلي الصراع بين الأجيال القديمة المرتبطة بالفكر الشيوعي، وبين جيل الاستقلال الجديد ، وغيرها الكثير من المشكلات التي استطاعت أوزبكستان تجاوزها خلال سنوات قليلة ، لتبدأ بعدها مرحلة بناء الدولة الجديدة بعد الاستقلال .

• إسلام كريموف:—

ولد الرئيس إسلام عبدالغني فيتش كريموف في 30 يناير 1938 بمدينة سمرقند ، ودرس الهندسة والاقتصاد ، وعمل مهندساً في الطيران من عام 1961 إلى عام 1966 ، ثم انضم للحزب الشيوعي السوفيتي، وتولى بعدها عدداً من المناصب الحكومية ، وفي عام 1989 انتخب أميناً عاماً للحزب الشيوعي خلفاً للزعيم رفيق نيشونوف ، وفي 24 مارس 1990 تولى رئاسة جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوفيتية ، وفي 31 أغسطس 1991 أعلن استقلال جمهورية أوزبكستان عن الاتحاد السوفيتي ، ودعا لانتخابات رئاسية في 29 ديسمبر 1991 ، فاز فيها بنسبة 86 % . وفي عام 1995 حصل كريموف من خلال استفتاء عام على فترة رئاسة ثانية ، وفي 9 يناير 2000 أعيد انتخابه مرة ثالثة ، وحصل على نسبة 91.9 % ، وفي استفتاء عام 2002 ، تم تمديد فترة ولاية الرئيس من 5 إلى 7 سنوات .

في نوفمبر 2007 قبل كريموف ترشيح الحزب الديمقراطي الليبرالي له لفترة رئاسية ثالثة، وجرت الانتخابات في 23 ديسمبر، وأظهرت النتائج الرسمية الأولية فوز كريموف بنسبة 88.1 % من الأصوات بنسبة مشاركة وصلت إلى 90.6 ، وراقبت تلك الانتخابات عدد من المراقبين الدوليين المستقلين ، والمنظمات الدولية مثل منظمة شنغهاي للتعاون ورابطة الدول المستقلة، وأعطت تقييماً إيجابياً لها ، وفاز الرئيس إسلام كريموف بفتري ولاية أخريين عقب انتخابات أجريت في عام 2007 ، وفار الرئيس كريموف في انتخابات مارس 2015 ، قبل أن يتوفي نحو تسعة أشهر في 2 سبتمبر 2016 .

في 28 أغسطس 2016 أصيب الرئيس إسلام كريموف بجلطة دماغية نقل علي أثرها إلي المستشفى، ولكنه فارق الحياة في 2 سبتمبر 2016 ، وبحسب الدستور في أوزبكستان فقد كان مقررًا أن يتولي الرئاسة لفترة انتقالية لمدة ثلاثة شهور رئيس البرلمان ، ولكنه اعتذر عن تولي المنصب ، فتم الاتفاق بين مؤسسات الدولة علي أن يتولي الرئاسة خلال الفترة الانتقالية رئيس الوزراء شوكت ميرأمانوفيتش ميرضيايف .

بحسب الدستور الأوزبكي ، دعا الرئيس الانتقالي إلي انتخابات رئاسية في 4 ديسمبر 2016 ، التي تنافس فيها أربعة مرشحين ممثلين للأحزاب السياسية الكبرى في البلاد

من بينهم الرئيس المؤقت للبلاد، الذي فاز في تلك الانتخابات بنسبة 88.61 % ، ويؤدي اليمين الدستورية في 14 ديسمبر كرئيس لأوزبكستان .

• شوكت ميرضيايف :-

ولد شوكت ميرأمانوفيتش ميرضيايف في 24 يوليو 1957، في مقاطعة جيزك بجمهورية أوزبكستان السوفيتية، والعالم 1981، تخرج من معهد طشقند للري واستصلاح الأراضي عام 1981، وخلال الفترة من عام 1981 إلى عام 1992، عمل في نفي الجامعة التي تخرج فيها ونال درجة الدكتوراه .

بدأ مسيرته السياسية في عام 1990 بفوزه بمقعد في المجلس الأعلى لأوزبكستان ، وفي نفس العام انتخب عضواً في أول برلمان تشكل في البلاد بعد الاستقلال ، ومن ثم فاز بمقعد في المجلس مجدداً في 1999 ، وبالتزامن مع عمله البرلماني ، شغل ميرضيايف منصب رئيس الإدارة المحلية في إحدى مناطق العاصمة طشقند ، ومن ثم تم تعيينه في منصب حاكم مقاطعة جيزك ، ثم حاكماً لمقاطعة سمرقند، وفي عام 2003 ، تولى منصب رئيس الوزراء ، وفي السنوات اللاحقة تم تجديد تكليفه بالمهام نفسها 3 مرات وظل بهذا المنصب إلى أن اختاره مجلس النواب رئيساً مؤقتاً للبلاد إثر وفاة الرئيس إسلام كريموف ، ثم رئيساً منتخباً بعد فوزه في انتخابات ديسمبر 2016 .

• العرب في أوزبكستان :—

سكن العرب أثناء حملاتهم الأولى لفتح ما وراء النهر ، مايمورج جنوب شرق سمرقند عام 654 م ، و شاهنيان في حوض نهر سورخاندريا عام 667 م ، وراميتان وغيرها من المناطق القريبة من بخارى خلال عامي 673 - 674 م ، وفي بعض مناطق بخارى وسمرقند في عام 676 م ، ومناطق بخارى وسمرقند وحجند خلال أعوام 680 - 683 م وترمز في عام 689 م¹ ، وقد قاتل القائد العربي قتيبة بن مسلم خلال عامي 705 - 706 م في بلخ ، وشومان ، وشاهنيان ، وبايقند وبخارى .

وفي عام 710 م في نسف " بالقرب من مدينة قارشي جنوب أوزبكستان اليوم حيث تتركز أكبر نسبة من السكان المنحدرين من أصول عربية في جمهورية أوزبكستان " وكيش " مدينة شهرسبز جنوب أوزبكستان اليوم ، وهي مسقط رأس الأمير تيمور " . وخلال أعوام 710 - 712 م في خوارزم ، وخلال عامي 713 - 714 م في وادي فرغانة ومدينة شاش " طشقند عاصمة أوزبكستان اليوم "².

ظهر تواجد بعض القبائل العربية في القرن العاشر أهمها ، مضر ، وربيعه ، واليمانية في بخارى ، حيث أسكنهم قتيبة بن مسلم ، الذي حمل لقب " بخارخودات قتيبة " وهو ما يثبت أن القبائل العربية سكنت بخارى خلال خمسينات القرن الثامن الميلادي ، وذلك ما يؤيده برتولد في كتابه " آسيا الوسطى في عصر الاجتياح المغولي " ، وأن حملات الغزاة العرب كما يسميهم برتولد امتدت إلى الشمال والجنوب ، وشملت بشكل أساسي مجموعات من بني قيس وبني كليب ، ومن عرب الشمال بني نزار ، وبني معد ومضر ، وربيعه ، ووائل ، وبكر ، وتغلب³.

¹ - علوم اللغة العربية ومخطوطاتها في أوزبكستان - مليكة أنور ناصيروف - مجلة المعرفة - العدد 468 - سبتمبر 2002 -

دمشق

² - العرب والأوزبك علاقات من الأخوة والصداقة تمتد بجنورها عبر التاريخ - مولان تورسونوف - النشرة الإستراتيجية

- العدد الأول - يوليو 2004 - القاهرة .

³ - عرب آسيا المركزية : آثار وملامح - محمد البخاري - مجلة المعرفة - العدد 445 أكتوبر 2000 - دمشق .

وكان الأمير تيمور يعمل علي إذابة العداء والاحتقان بين المذهبيين السني والشيوعي في المناطق التي استولى عليها ، فتارة كان يفرض المذهب السني ، وتارة يفرض المذهب الشيوعي .

وقد أقام بناءً مهمًا خارج عاصمته سمرقند ومسقط رأسه شهرسبز ، لضريح الشيخ أحمد يسوي ، المقدس عند الشيعة ، بما فيهم أتباع الطريقة الحيدرية¹ ، كما أعطى سعيد بركة ، شارات السلطة " الطبل والراية " ، في أندوهوي ؛ لأنها كانت محاطة بالعرب الرحل حيث كانت أندوهوي وقفًا للمدن المقدسة " مكة المكرمة والمدينة المنورة " ، وكان سعيد بركة قد طلب إعطائه ضرائب مدينة أندوهوي لتلك الأسباب المنطقية والقانونية ، خاصة وأن سعيد بركة كان من أشرف مكة ، جاء إلى خراسان للإشراف على أوقاف المدن الإسلامية المقدسة فيها ، وبعد أن رفض الأمير حسين وضع الأوقاف تحت تصرفه توجه بطلبه للأمير تيمور ، كما أن عرب " جيناو " ² أكدوا أن الأمير تيمور أسكنهم المنطقة ، التي وصلوا إليها من أندوهوي ، أي المنطقة التي كان الشيخ سعيد بركة يقيم فيها ، وهو ما يفسر أن علاقة الأمير تيمور بالعرب ورجال الدين قد بدأت من سمرقند وقارشي وشهرسبز ، ومن هناك امتدت إلى بلخ وأندوهوي ومن ثم إلى شرق خراسان ³ .

ومن المجموعات العربية الكبيرة التي تحركت من أندوهوي في الجنوب إلى أراضي آسيا الوسطي ، والتي يمكن أن تكون قبيلة شيبانية ، قدمت لزيارة ضريح " بهاء الدين نقشبند " بالقرب من بخارى واستقرت هناك وتمت دراستهم في الثلث الأول من القرن العشرين في قرية " جوكري " بمنطقة " غجدوان " بولاية بخارى ، واكتشف أنهم قد فقدوا

¹ - مازال الضريح قائماً حتي اليوم بمدينة تركستان جنوب جمهورية كازاخستان .

² - عرب جيناو هم من القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية ، ومازالت تعيش في أوزبكستان إلى اليوم .

³ - إلى تاريخ عرب آسيا الوسطى - أعمال معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم السوفييتية - الإصدار 36 - موسكو ،

اللغة العربية ، حيث كانت آخر موجة كبيرة من القادمين العرب جاءت في نهاية القرن السابع عشر¹.

كان القرن السابع عشر ، يمثل المرحلة التي شهدت تغيير الأسر الحاكمة القديمة في آسيا الوسطى ، وانهيار التقسيم الإداري والسياسي القديم للمنطقة ، الذي بني على أساس التقسيم الجغرافي . ويسجل التاريخ السياسي لتلك المرحلة التاريخية ، غياب أي نوع من أنواع السلطة المركزية في آسيا الوسطى ، وكثرة تبدل الأسر الحاكمة فيها نتيجة للحروب الداخلية والغزوات الخارجية الكثيرة ، وخاصة في خراسان ، وبلخ وما وراء النهر وظهرت في الحركة الكبيرة للعرب الكتاكورجانيين ، والسمرقنديين والطاجيك ، التي كانت نتيجة للحروب الداخلية في بخارى وبدهشان خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر² ، أثناء حكم صوبخان قولي خان (1680 - 1702 م) لبلخ ، كانت هناك قبيلة كبيرة من الأوزبك الكاتاغانيين المتدمرين من هذا الخان ، وقد انتقلت من ضواحي سمرقند للسكن في حصار ، وبعد ذلك في قندوز . ومن هناك استولى الأوزبك على حصار ، وكولاب ومقاطعات شمال أفغانستان وشرق خراسان وهو ما أدى إلى تحديد حركة بعض القبائل وأدى بالتالي إلى تحرك قسم من عرب أفغانستان إلى مناطق مشتركة بين طاجيكستان وأوزبكستان ، بما فيها تلك التي عاشت في السابق في كاتاغاني .

وهو ما أكدته روايات عرب قارشي التي أشارت بدقة إلى تلك المرحلة التاريخية وقد شهدت تلك المرحلة تنقلات كبيرة للعرب من ما وراء نهر أموداريا ليس أكثر ، وبدأ عرب خانبة بخارى بالتدريج بشغل مناطق محددة من أراضي الخانية، وتأقلموا ضمن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في الوسط متعدد القوميات لخانية بخارى³.

¹ - صور عربية من تاريخ العرب في ما وراء النهر - د . محمد البخاري، د. تيمور مختاروف-مركز زايد للتراث والتاريخ - العين 2002 .

² - كاتاغان وبدهشان - برهان الدين خاني كوشكيي - طشقند 1926 .

³ - بعض نتائج الدراسات الإثنوغرافية في محافظة سمرقند عام 1921-أخبار قسم تركستان للجمعية الجغرافية الروسية طشقند

وترجع أسباب استقرار العرب في تلك المناطق ، إلي أنهم كانوا من الرُّحْل ، وفضّلوا الإقامة فيها حيث إن الظروف الطبيعية والأحوال الجوية بها تسمح لهم بالتمسك باقتصادهم التقليدي ، على الحدود الفاصلة بين الأراضي الزراعية والواحات والبادية . واختاروا العيش في الشتاء بالوديان المعزولة قليلة الثلوج ، وخرجوا للبادية في الربيع وإلى الجبال في الصيف .

وفي نفس الوقت احتفظوا بقربهم الدائم من المراعي والمدن المركزية الكبيرة ، مما سهّل عليهم عملية تبادل المنتجاء ، والمحافظة على استقرار اقتصادهم الخاص ، داخل النظام الاقتصادي والاجتماعي في إمارة بخارى¹ ، وشغلوا فيها موقعاً سمح لهم بتحقيق بعض المكاسب السياسية، والحفاظ على حدٍّ أدنى معين من التبعية لحكام بخارى وبسهولة التحرك إلى أطراف الإمارة في حال حدوث أي صدام بين الحكام المحليين .

وقد شكل العرب في بخاري وحدة إدارية خاصة في العلاقات الاقتصادية في مناطق ما وراء نهر أموداريا حتى أواسط القرن التاسع عشر ، تحت رئاسة مير خازورامي حيث كان ذلك المنصب ينتقل بالوراثة ، وكان شاغل هذا المنصب مسؤولاً أيضاً عن جباية الضرائب والهبات² ، مع الزيادة الكبيرة في عدد سكان إمارة بخاري ، وحضور مجموعات كبيرة العدد من الشمال ، شغلت الأراضي المحيطة بأراضيهم التقليدية أضطر بعضهم إلى ترك الترحال ، والانتقال إلى حياة الاستقرار ، وهو ما يعني مرة أخرى أن العرب في المنطقة اتجهوا نحو الإقامة والاستقرار ، وهذا أمر طبيعي ولم يتجهوا أبداً نحو التخلي طوعية عن هويتهم الثقافية المميزة داخل المجتمع الإسلامي المحلي ، الأمر الذي يؤكد علي أن عدم قيام عرب أوزبكستان بإنشاء رابطة ثقافية لهم أسوة بالروابط الأخرى القائمة في أوزبكستان بسبب تجاهل الدول العربية لهم رغم تواجد سفارات عربية معتمدة في أوزبكستان ، وعدم إقامة استثمارات اقتصادية كبيرة

¹ - المخطوطات العربية في جمهورية أوزبكستان - د . محمد البخاري - مجلة المعرفة - العدد 457 أكتوبر 2001 -

دمشق

² - جمهورية أوزبكستان بين الأمس وآفاق المستقبل - د . نعمة الله إبراهيموف ، د . محمد البخاري - طشقند 2004 .

تسهم في تعزيز دورهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ضمن الإصلاحات الكبيرة
الجارية في أوزبكستان¹.

¹ - دراسات حول مخطوطات علوم اللغة العربية في أوزبكستان - مليكه أنور ناصيروف - مجلة الفيصل - العدد 303 -
نوفمبر / ديسمبر 2001 - الرياض .

الفصل الرابع

مدن تاريخية

تُعدُّ أوزبكستان ضمن الدول العشر الأولى عالمياً من حيث الثراء التاريخي ، وكثرة المعالم والآثار التاريخية التي لا مثيل لها في التراث الإنساني ، خاصة أن أوزبكستان التي تقع على طريق الحرير العظيم يزيد عدد الآثار التاريخية والثقافية الموجودة في أراضيها عن أربعة آلاف أثر، وكثير من هذه الآثار دخل ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي ، فمدنها التاريخية العريقة لها شهرتها الكبيرة في تراثها التاريخي مثل شهرتها في علمائها الذين ملأوا الدنيا بنور علمهم الواسع ، وقد تحولت مدن **سمرقند** ، و**بخارى** و**خيوه** ، و**طشقند** ، و**شهرسبز** ، و**قارشي** ، و**ترمذ** و**مرغيلان** ، و**خوقند** ، تحولت إلى مراكز تاريخية كبرى باعتبارها ثروة نادرة للبشرية بأسرها ، حيث تحكي الآثار التي تحتويها تلك المدن تاريخ عصر الفتوحات الإسلامية .

• طشقند : .

تقع مدينة **طشقند** في الشمال الشرقي من جمهورية أوزبكستان ، غرب إقليم فرغانة وعلى وادي نهر تشرشق إحدى روافد نهر سرداريا " **سيحون** " ، وقد عرفت طشقند قديماً باسم " **شاش** " ، التسمية التي أطلقها العرب عند الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر ، كما جاءت باللغة الفارسية " **تشاتش** " ، وعرفت في المصادر العربية خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين باسم " **بنكات** " أو " **بينكينت** " ، وفي نهاية القرن العاشر الميلادي وللمرة الأولى وردت التسمية التركية " **طشقند** " في كتاب المؤرخ أبو ریحان البيروني ، وقد انعكست الترجمة الصينية للتسمية " **شاش** " مثل " **جي شي** " و " **شي** " بمعنى " **حجر** " في التسمية التركية لمدينة " **طشقند** " أو " **طاشكنت** " كما يطلق عليها الأوزبك ومعناها " **المدينة الحجرية** " ، والتسمية ليس لها معنى مباشر؛ لأن المدينة لم تكن حجرية ، وربما تكون صفة لسكانها لما يبدوه من شجاعة وصمود في حروبهم مع الأعداء وهناك احتمال للتسمية " **طشقند** " إشارة إلى ثراء جبالها بالأحجار الكريمة مثل الفيروز ، وقد ذكر ياقوت الحموي في **معجم البلدان** " **شاش** " خرج منها العلماء ونسب إليها خلق من الرواة والفصحاء .

ظلت **طشقند** لسنوات طويلة مركزاً حيوياً للتجارة العالمية في القدم ، وملتقى طريق التجارة إلى الصين " **طريق الحرير القديم** " ؛ ولذلك كانت بمثابة حلقة وصل بين الشرق

والغرب ، حيث تحقق فيها تبادل الثقافات العالمية فقد امتزجت فيها الحضارات الصينية والفارسية والعربية والأوروبية؛ ولذا تعد طشقند إحدى مراكز الحضارات العالمية العريقة التي أسهمت إسهاماً كبيراً في تطوير الحضارة الإنسانية عبر آلاف السنين .

ويرجع تاريخ المدينة إلى 2200 عام ، وأهم معالمها هي مدرسة " شيخ أبي القاسم " وساحة " حضرة إمام " ، ومدرسة " كوكالداش " ، وسوق " شارسو " ، وقصر " أمير رومانوف " ، ومسرح " عليشير نوائي " ، وميدان " استقلال " ، ومتحف " تاريخ تيموريين " ، وميدان " أمير تيمور " ، وبرج " طشقند التلفزيوني " ¹. وقد اختيرت طشقند لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية في عام 2007 م، من قبل المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم " إيسيسكو " ، لما كان لها من مكانة هامة في تاريخ الإسلام فهي زاخرة بالآثار الإسلامية وغنية بالمخطوطات النادرة ، حيث تشعر وأنت في ساحة " حضرة إمام " بروح الحضارة الإسلامية ، فبعض مباني هذه الساحة يعود إلى القرن السادس عشر ، وتضم مدرسة " براق خان " ، و " المعهد الإسلامي للإمام البخاري " ومكتبته الثرية بالمخطوطات النادرة ، والتي من أهمها " مصحف الخليفة عثمان بن عفان " من القرن السابع الميلادي ، أقدم نسخة مكتوبة للقرآن تتكون من 353 رقعة من جلد الغزال .

دخلت طشقند الإسلام على يد قتيبة بن مسلم حوالي عام 94 هـ / 712 م ، وأطلق العرب عليها اسم " الشاش " ، وذكرت طشقند في المصادر العربية باسم الشاش حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، أما اسم طشقند فقد بدأ استخدامه في المصادر العربية في القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد شاع استخدام اسم طشقند اعتباراً من القرن السادس عشر الميلادي وتكتب في العربية طشقند، أما في التركية العثمانية فتكتب " طاشكند " ².

¹ - أوزبكستان . . مركز طريق الحرير ومتحف العالم الحيوي - عبد المجيد عبد الرؤوف - صحيفة الشرق الأوسط -

العدد : 12530 - الثلاثاء 19 مارس 2013

² - أوزبكستان في التراث العربي . طشقند أتمودجاً - د . حازم سعيد منتصر - ندوة : أوزبكستان 23 عاماً على

الاستقلال - 4 سبتمبر 2014 - سفارة جمهورية أوزبكستان بالقاهرة

وصفت **طشقند** في القرن العاشر الميلادي بأنها كبيرة وعامرة ، أهلها غزاة ومقاتلون وأغنياء ذوو نعمة. ترتفع منها الأقواس والسهام المصنوعة من الخدنك ، ويرتفع منها خشب الخلنج الكثير، وكان ملوكها قديما من ملوك الأطراف . وكانت الشاش من أنزه بلاد الله وأكثرها خيراً ، وكانت عامة دورهم يجري فيها الماء ، وكلها مستنيرة بالخضرة عمارتهما متصلة متكاثفة لا تتقطع¹.

ويعتبر القرار الصادر عن الدورة الثالثة والأربعين للمؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم " **اليونيسكو** " في شهر نوفمبر 2007 م حول الاحتفال بالذكرى السنوية بمرور ألفي ومائتي عام علي تأسيس مدينة طشقند ومشاركة المنظمة الدولية في هذا الاحتفال دليلاً واضحاً يشهد على الاعتراف الدولي لتلك المدينة وما تحتويه من معالم تاريخية وحضارية وثقافية²، كما يعتبر إقراراً عالمياً بالدور التاريخي لمدينة طشقند في إثراء الحضارة الإسلامية والعالمية بثقافتها الفريدة وعلومها الواسعة التي نهل منها مختلف الأمم والشعوب .

لقد أهدت شاش ، المعروفة حالياً باسم **طشقند** العالم الاسلامي كوكبة من العلماء خلدت أسماؤهم في التاريخ الاسلامي منهم :

الإمام **أبوبكر محمد بن علي بن اسماعيل القفال الشاشي** ، والذي كان يلقب باسم " **حضرة الإمام** " ، والذي ولد في شاش عام 291 هـ / 976 م ، كان عالماً في العلوم الإسلامية ، تفقه على المذهب الشافعي ونشره في وطنه . من مؤلفاته " **دلائل النبوة** " " **محاسن الشريعة** " ، " **جوامع الكلم** " ، " **الفتاوي** " ، " **شرح الرسالة** " .

والإمام " **أبو سعيد الحافظ الهيثم بن كليب الشاشي** " ، والذي ولد في بنكاس قرب شاش وتوفي عام 335 هـ / 946 م . وكان من أشهر العلماء في رواية الأحاديث النبوية الشريفة ، ولقب باسم " **الإمام الشاشي** " ، ومن مؤلفاته " **المسند** " ، " **المسند الكبير** " في الحديث .

¹ - أوزبكستان في التراث العربي . طشقند أنموذجاً - مرجع سابق .

² - طاشقند تحتفل بالذكرى السنوية بمرور 2200 سنة لتأسيسها - عابد قاري محمد جان - مجلة إقرأ

والإمام أبو يعقوب اسحق بن إبراهيم الخرساني الشاشي فقيه حنفي انتقل من شاش إلى مصر وتوفي بها عام 325 هـ / 937 م ، ومن مؤلفاته " أصول الفقه " ويعرف بأصول الشاشي .

وأبو الحسن علي بن الحاجب بن جنيد الشاشي أحد الرّحالة في طلب العلم إلى خراسان والعراق والحجاز والجزيرة والشام ، روى عن يونس بن عبد الأعلى وعلي بن خشرم ، روى عنه أبو بكر بن الجعابي ، ومحمد بن المظفر وغيرهم ، وتوفي بالشاش سنة 314 هـ¹.

ويدل وجود العديد من الآثار والمعالم التاريخية والمعمارية ، والكميات الهائلة من المخطوطات القديمة المحفوظة في خزائن المكتبات والمتاحف ، كلها تدل على مدى عمق الحضارة التي شهدتها طشقند والتي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، الأمر الذي جعل منظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم " اليونسكو " تدرج طشقند في قائمة التراث العالمي .

وتشير الحفريات الأثرية ودراسات علماء الآثار إلى ظهور المستوطنات الزراعية والمدن القديمة التي نشأت في الألفية الأولى قبل الميلاد ، مثل مستوطنة " شاشتيا " التي ظهرت قبل 2500 عام بالقرب من نهر " جون " بطشقند وأطلال مدينة " مينغ أوريك " على نهر " سالار " والتي شيدت الحصون للمدينة في الفترة ما بين نهاية القرن الأول قبل الميلاد ومطلع القرن الأول للميلاد ، وكانت واحة طشقند نواة دولة " كانغوي " التي كانت عاصمتها " كاتكا " وتوجد أطلالها في وادي آخنجران على بعد 70 كيلو متر من طشقند ، وورد ذكرها في السجلات التاريخية الصينية تحت اسم " يوني " ، " شي " ، وفي القرن الثالث الميلادي أصبحت شاش عاصمة لدولة " شاتشاناب " أي شعب أو بلاد شاش .

¹ - أوزبكستان في التراث العربي . طشقند أنموذجاً - د . حازم سعيد منتصر - مرجع سابق .

وفي القرن الخامس للميلاد سقطت " تشاتشانايب " في أيدي " الأفتاليتيين " الذين أقاموا دولة عظيمة في آسيا الوسطى . وفي القرن السادس حلت محلها الخاقانية التركية¹. خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين ، بلغت شاش أوجها في الازدهار وتطورت المدينة كثيرا وبني حولها سور حصين وشيدت بالقرب منه قلعة عالية للحكام . وتؤكد الدراسات بأن شاش كانت ضمن الأراضي التي شملتها الثقافة الصغدية التي كانت تعتبر الأكثر تطورا للإنجازات الثقافية في آسيا الوسطى قبل قدوم العرب إليها وخلال الفترة من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر شهدت شاش نهضة عربية إسلامية واسعة ضمن النهضة الكبيرة التي أقامها العرب في مناطق آسيا الوسطى ، وقد ساعدت التقاليد الإسلامية مع التراث الثقافي الغني لشعوب تلك المنطقة على تكوين ثقافة إسلامية متميزة انعكست آثارها في الحياة الاجتماعية والثقافية وتركت بصماتها على تطور العلوم والتعليم والثقافة وفي مطلع القرن الرابع عشر الميلادي خلال عهد الأمير تيمور والتيموريين ، كان عهد ازدهار للثقافة والعمارة الإسلامية بكافة أشكالها ومظاهرها شملت معظم مناطق آسيا الوسطى ومن ضمنها شاش التي استعادت شهرتها كمركز للثقافة والعلوم².

¹ - طاشقند تحتفل بالذكرى السنوية بمرور 2200 سنة لتأسيسها - مرجع سابق .

² - أوزبكستان . . مركز طريق الحرير ومتحف العالم الحيوي - مرجع سابق .

• بخاري :-

تقع بخارى على طريق الحرير القديم ، واتسمت بأنها مركز تجارى هام بالإضافة لكونها مركز للدراسة والثقافة وعلوم الدين ، وطبقا للملحمة الشعرية الفارسية الطاجيكية " شاه نامه " ، تأسست مدينة بخارى على يد الملك سياوش بن الشاه كيكائوس ، أحد الملوك الأسطورية من أسرة بيشداديان ، اختار سياوش هذا الموقع نظراً لتعدد أنهاره ومناخه الدافئ ولوقوعه على طريق الحرير .

وَرَدَ أول ذكر لبخاري في المصادر الصينية في القرن السابع الميلادي ، غير أن دراسة النقوش القديمة تكشف أن الاسم المحلي للمدينة وهو " وبهارة " أي الدبر أو الصومعة قد ضُرب على مسكوكاتها قبل القرن السابع الميلادي بقرون ، ولا يستبعد أن تكون كلمة بخارى محرقة عن الكلمة السنسكريتية " فيهارا " ، وهي البلدة التي اندمجت في بخارى وورد ذكرها عند جغرافي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي .

أطلقت المصادر العربية اسم بخارى خداة على سكان بخارى الأصليين . الكثير من المصادر تشير إلي أن مدينة بخارى تأسست بشكل رسمي في عام 500 قبل الميلاد في المنطقة التي تعرف باسم " قلعة آرك " .

وعلى الرغم من ذلك فقد سكنت واحة بخارى منذ زمن أقدم من ذلك بكثير ، حيث يربط الأثرى الروسى كوزمينا حضارة " زمان- بابا " التي وجدت في واحة بخارى منذ الألف الثالثة قبل الميلاد بانتشار الهنود الإيرانيين عبر آسيا الوسطى ، ومنذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد ازدهرت حضارة العصر البرونزى المتقدم التي عرفت باسم حضارة ساباللي في مواقع مثل فاراخشا وفاردان وبايكند وراميتان ، وفي عام 1500 قبل الميلاد أدت العديد من العوامل كالجفاف واستخدام الحديد ووصول بدو آريان ، إلى تحرك عمرانى من المناطق النائية إلى واحة بخارى ، وبحلول عام 1000 قبل الميلاد اندمج شعبي ساباللي وآريان في حضارة مميزة . وفي حوالى 700 قبل الميلاد ازدهرت هذه الحضارة الجديدة التي عرفت باسم حضارة سوقديانا في المدن علي امتداد وادى زرافشان ، التي كانت جزءا من الإمبراطورية الأخمينية الفارسية وبحلول عام 500 قبل الميلاد توسعت تلك التجمعات العمرانية لتندمج في كيان واحد

بنى حوله سور ، وبذلك ولدت مدينة بخارى لكن تاريخ تأسيس بخارى غير معروف علي وجه التحديد ، فأقدم قطع الفخار التي عثر عليها في المدينة تعود إلى عصر المملكة الإغريقية البخترية¹.

وتتفق أغلب الروايات على أن أول من اجتازَ النهر من المسلمين إلى جبال بخارى هو عبيد الله بن زياد والي خراسان عام 54 هـ / 674 م ، وكان على عرش بخارى في ذلك الوقت أرملة أميرها التي تجمع أغلب المصادر على تسميتها " خاتون " وهو لفظ تركي معناه " السيدة " .

وقد أرسلت خاتون إلى الترك تستمدهم، فلقبهم المسلمون وهزموهم فطلبت خاتون الصلح والأمان فصالحها عبيد الله بن زياد على ألف ألف درهم .

ثم ولّى الخليفة معاوية بن أبي سفيان " 41 هـ / 687 م 60 هـ / 706 م " سعيد بن عثمان بن عفان خراسان سنة 56 هـ ، فقطع النهر وغزا سمرقند وحملت خاتون إليه الأتاوى وأعانتة بأهل بخارى ، ويذكر النرشخي " 286 هـ / 899 م 348 هـ / 959 م " أن " خاتون " حكمت 15 سنة بوصفها وصية على ابنها القاصر طغشاده .

ولم يتوطد الحكم العربي في المنطقة إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك الذي حكم خلال الفترة من عام 86 هـ إلى عام 96 هـ ، حينما ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقيين خلال الفترة من عام 75 هـ إلى عام 95 هـ ، قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان خلال الفترة من عام 86 هـ إلى عام 96 هـ، وأمره بفتح بلاد ما وراء النهر .

وفتح قتيبة بخارى عام 90 هـ ، وكان حاكمها آنذاك وردان خداه ، الذي استنجد بالصغد والترك فأنجدوه ، لكن قتيبة انتصر عليهم بعد قتال عنيف ، وأمر أهل بخارى أن يعطوا نصف بيوتهم للعرب ليقيموا معهم ويطلّعوا على أحوالهم فيظلوا على إسلامهم وبنى قتيبة المسجد الجامع داخل حصن بخارى عام 94 هـ / 712 م ، وكان ذلك الموضع بيت أصنام ، فلما ازداد انتشار الإسلام لم يعد ذلك المسجد يتسع لهم فبني مسجد آخر بين السور والمدينة في عهد هارون الرشيد " 170 193 هـ " .

¹ - تاريخ بخاري 286 348 هـ / 899 959 م - أبي بكر محمد بن جعفر النرشخي - ترجمة : د . أمين عبد المجيد بدوي ، نصر الله مبشر الطرازي - دار المعارف - القاهرة

ودرج ولاية خراسان في مرو منذ عهد قتيبة على تولية عامل أو أمير إلى جانب الأمير المحلي، وفي القرن الثالث حينما نقل أمراء خراسان مركزهم إلى نيسابور بقيت بخارى تابعة إدارياً للطاهريين ولاية خراسان ، حتى عام 259 هـ / 873 م .

ثم ولّى نصر بن أحمد الساماني أمير سمرقند أخاه إسماعيل أميراً علي بخارى بناء على طلب أهلها وعلمائها ، ولما توفي نصر عام 279 هـ / 892 م، صار إسماعيل حاكماً لبلاد ما وراء النهر، واعترف به الخليفة أميراً على خراسان وبلاد ما وراء النهر .

وصارت بخارى عاصمة للدولة السامانية ومركز إشعاع للعلوم والصناعة .
وصف الجغرافيون العرب بخارى في العصر الساماني، كما جاء في كتاب النرشخي " تاريخ بخارى " الذي يذكر أن المدينة أُعيد بناؤها أكثر من مرة لكثرة الخراب الذي ألم بها عبر العصور .

ويفرق الجغرافيون العرب في بخارى بين أقسام ثلاثة ، القلعة والمدينة ، والضاحية " الرَبَض " الذي يقع بين المدينة والصور الذي بُني حول المدينة في العصور الإسلامية . ضمت القلعة التي كانت خارج المدينة قصر " بخارا خداه " وقد اتخذ السامانيون قصرًا لهم فيها .

ومع أن القلعة خربت مراراً إبان القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، فقد أُعيد بناؤها في موقعها نفسه الذي شُيّدت فيه أول مرة . وإضافة إلى قصر القلعة ، بنى نصر الثاني الساماني الذي حكم خلال الفترة من عام 301 هـ / 914 م إلي عام 331 هـ / 943 م ، قصرًا في ريجستان ضم دواوين الدولة العشرة ، وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري بنى شمس الملك نصر بن إبراهيم من الفرع الغربي لخانات إيلك الذي توفي عام 472 هـ ، قصرًا في جنوبي المدينة أطلقَ عليه اسم شمس آباد ، وأقام مكاناً للصيد والقنص بقربه ، ولكن هذا القصر اندثر في عهد خلفه خضر خان .

وظلت بخاري معقلًا للإسلام ومركزًا للعلوم الدينية في عهد انحطاطها السياسي، حيث شهد القرن السادس ظهور أسرة مرموقة من العلماء فيها هي أسرة آل برهان التي اعتمد عليها القره خطاي في حكم بخارى، وكان يُطلق على زعيم هذه الأسرة اسم الصدر .

وفي عام 604 هـ / 1207 م ، انتقل حكم بخارى إلى علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه الذي جدّد بناء القلعة وشيّد بعض المباني .

وفي الرابع من ذي الحجة عام 616 هـ / 10 شباط 1220 م ، استسلمت بخارى لجيش جنكيز خان ، ونُهبت المدينة وأُحرقت إلا المسجد الجامع وبعض القصور ، ولكنها لم تلبث أن استعادت عافيتها بعد ذلك ، إذ يرد ذكرها مدينةً مأهولةً ومركزاً للعلوم في عهد خلفاء جنكيز خان

في نهاية عام 905 هـ / 1500 م ، استولى الأوزبك بقيادة محمد شيباني على بخارى وبقيت تحت سيطرتهم حتى الثورة الروسية ، وقد انقسمت دولة الأوزبك إلى عدد من الإمارات والولايات الصغيرة ، وقد اتخذ أميران من آل شيبان وهما عبيد الله بن محمود الذي حكم خلال الفترة من عام 918 هـ / 1512 م إلى عام 946 هـ / 1539 م وعبد الله بن اسكندر الذي حكم خلال الفترة من عام 964 هـ / 1557 م إلى عام 1006 هـ / 1598 م ، بخارى عاصمةً لهما، وفي عهديهما استعادت بخارى مكانتها مركزاً للحياة السياسية والثقافية، واتخذ أمراء السلالة الاستراخانية بعدهما من بخارى مركزاً لهم أيضاً. خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، نشطت العلاقات التجارية بين روسيا والإمارات الأوزبكية ، وأخذ الروس يطلقون في القرنين السابع عشر والثامن عشر اسم البخاريين على كل التجار والمهاجرين من آسيا الوسطى ، كما أطلقوا الاسم نفسه على سكان تركستان الصينية التي سمّوها بخارى الصغيرة ، وبوفاة الخان عبد العزيز الذي حكم خلال الفترة من عام 1055 هـ / 1645 م إلى عام 1091 هـ / 1680 م انتهت آخر حقبة عظيمة من تاريخ الأوزبك ، فقد استقل عدد من الأمراء في ولاياتهم واقتصر حكم الخان المقيم في بخارى على نطاق ضيق من مملكته .

في عام 1740 استولى نادر شاه الصفوي على بخارى ، ولكنها استعادت استقلالها بعد وفاته ، وتولى الحكم فيها سلالة جديدة ، وفي عهد الأمير مظفر الدين شاه ، الذي حكم خلال الفترة من عام 1860 إلى عام 1885 ، ازداد نفوذ الروس وتغلغلهم في بلاد ما وراء النهر، واضطر الأمير مظفر إلى التخلي عن أجزاء واسعة من أراضيهم لهم ، ولم يتعرض الروس للعاصمة بخارى التي اتسع نفوذها غرباً عام 1873 على حساب خانات

خيوه " خوارزم " ، وفي عهد الأمير عبد الأحد خان الذي حكم خلال الفترة من عام 1885 إلى عام 1910 ، اتفقت كل من روسيا وبريطانيا ، التي كانت صاحبة النفوذ في أفغانستان ، على رسم الحدود السياسية بين بخارى وأفغانستان ، على أن يكون نهر بانج هو الحد الفاصل بينهما ، ونُظمت العلاقات بين بخارى وروسيا ، وأُعلن قيام إمارة بخارى عام 1887 ، وفي عام 1918 م بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا ، استولى الثوار على بخارى وقاموا بتخريب المدينة بشكل كبير ، واستمرت إمارة بخارى حتى سنة 1920 م حين سيطر الروس عليها سيطرة نهائية ، وفي عام 1924 م أعلن قيام جمهورية بخارى ، ولكنها ما لبثت أن قُسمت بين جمهوريات طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانيستان ، وصارت بخارى إحدى المدن المهمة في جمهورية أوزبكستان .

وتعد مدينة بخارى من أعظم مدن ما وراء النهر ، وأعرق بلاد الإسلام في قلب القارة الآسيوية ، وأم العلوم والفنون ، وموطن كثير من علماء الإسلام ، ومحط رحال طلبة العلم والمحدثين من كل مكان ¹.

ويقدر العلماء أن الإنسان سكن بخاري منذ خمسة آلاف عام ، وقد أثمرت تلك الفترة التاريخية الطويلة الكثير من الآثار التاريخية التي تحتويها المدينة العريقة ، فقد بنيت مدينة بخارى داخل سور يحميها من الأعداء خارج المدينة ، ولها سور داخلي يحوي أهم المنشآت الدينية والإدارية للمدينة ، ويسمى هذا الجزء بالشهرستان ، وهو مرتفع قليلاً عن السور الخارجي ، وله سبعة أبواب أشهرها باب القلعة ، الباب الجديد ، باب السوق ، وباب العطارين ، أما السور الجديد ، والذي بني في العهد الإسلامي فله اثنا عشر باباً هي ، قرا قول ، شيخ جلال ، نمازجاه ، سلاح خانة ، قواله ، سمرقند أوغلان ، حضرت إمام ، مزار ، تل باج ، خواجه عصمت ، سه فلان وقرشي .

امتازت بخاري بجانب حضارتها العربية الإسلامية بجمال بنائي منقطع النظير ، فهي أشبه بمتحف كبير يجمع بين تاريخ وتراث متعدد ومختلف على مدار عصور مختلفة لذلك فقد تم إعلان الجزء القديم من قبل اليونسكو ضمن مواقع التراث العالمي ؛ ومن أهم المميزات التي تمتاز بها المدينة المعالم المعمارية والفنية الموجودة بها وأهمها :

¹ - أطلس تاريخ الإسلام - د . حسين مؤنس - الزهراء للإعلام العربي - الطبعة الأولى 1987 - القاهرة

• **ضريح السامانيين** ، وقد شيد خارج القلعة ، بناه **الشاه إسماعيل الساماني** خلال الفترة ما بين عام 892 م ، وعام 907 م ، وذلك إحياءاً لذكرى والده **أحمد بن أسد** والذي دفن فيها إلى جوار ابنه **إسماعيل** .

• **"جشمه أيوب"** أي بئر أيوب ، وهو بئر يُقال بأنه هو البئر الذي شرب منه النبي **أيوب عليه السلام** وشفى على إثره من مرضه ، وإن كان لا يوجد دليل على صحة هذا القول وقد شيد بناء حول هذا البئر ، وأعيد بناؤه أكثر من مرة ما بين القرن الرابع عشر والتاسع عشر الميلادي .

• **مدرستا "قوش مدرسة"** ، وتعني المدرستان المقرونتان ، وذلك لتقابل البنائين وجهاً لوجه بناهما الحاكم **الشيباني عبدالله خان الثاني** ، الذي حكم خلال الفترة من عام 1561 م إلي عام 1598 م ، وقد بنيت المدرسة الأولى عام 974 هـ / 1566 م ، وأسمائها **"مادري خان"** تخليداً لذكرى أمه ، وسجل تاريخ بنائها على مدخل المدرسة ، وتتكون من عدة حجرات لسكن الطلاب ، وقاعة كبيرة للصلاة ، وقاعة للدروس **"درس خانة"** أمّا المدرسة الثانية وتُسمى **مدرسة عبدالله خان** ، فقد بُنيت بين عامي 1588 ، 1590م ولها واجهة بألوان بهيجة، وهي ثالث أكبر مدرسة في بخارى بعد **مدرستي كوكلداش ومير عرب** .

• **مجمع خوجة زين الدين** ، وقد بني على أقدم البرك المائية الموجودة في بخارى وقد شيد هذا المجمع في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي ، وهو على النظام المعروف **بخانقاه** ، وهي عادة ما تتكون من مدرسة ومصلّى ومقبرة أو مزار ، وفي هذا المجمع توجد **مقبرة خوجة ترك** ، أو **خوجة زين الدين** ، وهو قبر عادي لأحد الصالحين ، ولا يوجد عليه ما يوجد عادة على المزارات من قبب أو أضرحة أو بنيان بل هو قبر مسوى على الأرض حسب السنة النبوية الشريفة ، وهذا المجمع يقع حالياً في وسط الأحياء السكنية لمدينة بخارى .

• **مسجد بلند** ، ويعني العالي ، لعلو سقفه ، ويقع في الجهة الغربية من بخارى القديمة الذي كان أحد أغنى الأحياء في آسيا الوسطى ، وللمسجد قاعتان صيفية وشتوية ، وقد بني في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وما يميزه هو المنظر الداخلي المميز لهذا

المسجد ، حيث أنه مزين من الداخل بألواح من السيراميك سداسية الشكل مطلية بالذهب وقد صنف هذا المسجد كغيره من الآثار في بخارى في قائمة التراث العالمي من قبل اليونسكو .

• **مجمع خوجة جوكوشان** ، وهو من أكبر الآثار التاريخية في بخاري ، وقد بنيت المدرسة بأمر الأمير عبدالله خان الثاني عام 1570 م ، والذي أتى للسلطة بمساعدة خوجة إسلام جوييري ، وكان الأمير عبدالله خان من مريدي خوجة إسلام ، فبنى هذا المسجد إكراماً له.

• **فيض آباد خانقاه** ، في القسم الشمالي الشرقي من بخارى القديمة ، وهو من أجمل المباني في بخارى ، بني بين عامي 1598 ، 1599 م ، وقد استخدم هذا البناء كمسجد جامع ، كما كان مركزاً للتجمعات الصوفية من الذكر والمديح والانشاد الديني ، وقد شيد هذا الجامع الشيخ بايندا محمد أخسي الفيض أبادي ، ويوجد في وسط الجامع ساحة فسيحة يحدها ممران سقفاهما مقوس .

• **مدرسة عبدالعزيز خان** ، ومدرسة أولوغ بك المقابلة لها ، تشكلان نموذجاً معمارياً مميزاً في بخارى ، وقد زينت مدرسة عبد العزيز خان بأفخم أنواع الفسيفساء والرخام والجبس الملون ، وقد شُيّدت المدرسة على قبر مولانا شريف ، وخاصة أن الخان السادس للمملكة الأستراخانية عبدالعزيز خان كان من أتباع القائد الصوفي خدائي داد وكان أيضاً تابعاً للشيخ مولانا شريف ، وقد ألم المرض عبدالعزيز خان في آخر حياته ، ممّا أوهن قواه وجعله غير قادر على الحراك ، فبنى المدرسة على قبر الشيخ مولانا شريف رغبة في التبرك به ، عله يشفى من مرضه .

• **مجمع " باي كلان "** ، ومعناه قدم العظيم ، وهو المجمع التاريخي الذي يقع بجوار منارة " كاليان " العظيمة ، وهو من الآثار المميزة في بخارى ، حيث يتفرد بتصميمه المعماري ، وقد شيد هذا المجمع في مكان بيت النار قبل الإسلام ، ففي عام 1127م شيد القائد التركي للدولة القراخانية المسجد والمنارة ، وقد جعلت هبة هذا البناء وعظمته جنكيز خان يظن أن هذا المسجد هو قصر حاكم بخارى ، ولكن المسجد لم

يسلم من التدمير والخراب في أيام الحروب والغزوات على بخارى ، وكل ما بقي من البناء الأصلي هو منارة كلان .

تتسجد المنارة المشهد العام في بخارى القديمة ، وتتعدى أبعادها حدود مهمتها الأساسية وهي النداء للصلاة ، حيث يمكن القيام بهذه المهمة من على سطح المسجد ، وقد بنى تلك المئذنة المعماري " باكو " حيث يمتزج اسمه مع اسم القائد أرسلان خان على النقوش التي على المنارة ، ويعتقد السكان المحليون أنه دُفن في أحد البيوت في المنطقة السكنية المجاورة للبناء ، وشكل البناء اسطواني يضيق قطره كلما اتجهنا للأعلى ، وقطر البناء عند القاعدة تسعة أمتار ، أمّا قطرها في القمة فهو ستة أمتار ، ويرتفع شاهقاً في السماء بعلو 48.6 مترًا ، ويوجد بداخل المنارة سلم لولبي يصعد بك إلى أعلى المنارة حيث توجد غرفة دائرية ذات ستة عشر نافذة مقوسة تعطي مشهداً بانورامياً لمدينة بخارى ، وقد عُرفت المنارة أيضاً باسم برج الموت ، حيث كانت تستعمل لإعدام المجرمين برميهم من أعلى البرج .

وبعد أن تم تدمير مسجد كاليان على يد جنود جنكيز خان ، أعيدت محاولة بناء المسجد مرات عديدة ، ولكن أنجحها وأدومها هو المسجد الذي بناه السلطان معز الدين أبو الغازي عبيد الله ، ابن أخ السلطان شيباني خان ، حيث تولى حكم بخارى عام 1512م أي بعد عامين من وفاة عمه عام 1510 م ، وظل حاكماً ناجحاً لبخارى حتى عام 1533 م حيث أصبح الخان على الدولة الشيبانية ، وخان بلاد ما وراء النهر ، وبعد توليه الحكم رفض الانتقال إلى العاصمة سمرقند ، وجعل بخارى عاصمة لدولته ، ونالت بذلك اسم " خانية بخارى " ، وبذلت كل جهدها لتصبح مساوية في جمالها لمدينة سمرقند .

● مدرسة مير عرب ، شيدها الشيخ عبد الله اليماني ، الذي كان القائد الروحي لعبيد الله خان ، وابنه عبدالعزيز خان ، وقد حارب عبيد الله خان الصفويين مرات عديدة وحاصر مدينة هرات ثلاث مرات ، وكانت حصيلة تلك الحروب ضد الصفويين أسر عبيد الله خان عدداً لا بأس به من جنود الشاه إسماعيل ، ففاداهم قادتهم بأموال استخدمها عبيد الله خان لبناء هذه المدرسة ، وهي أحد أكبر مدارس بخارى حيث تحوي مائة وستين غرفة درس .

• **مجمع لبي حوض** ، من أكبر التجمعات الباقية للأحواض المائية في بخارى ، وهي الأحواض التي كانت من المصادر الرئيسية للمياه في بخارى ، تم ردم معظمها في العهد السوفيتي خلال الفترة ما بين عام 1920 إلى عام 1930 م ، لانتشار الأمراض من مياهها وتأتي أهميتها كونها تقع وسط عدة شواهد ومباني تاريخية لم يتغير فيها الشيء الكثير منذ القرن السادس عشر والسابع عشر ، ويتكون المجمع من ثلاثة مبان رئيسية هي مدرسة كوكلداش شمالاً ، وخانقاه في الغرب ، ومدرسة نادر ديوان بيجي شرقاً .

تعني كلمة كوكلداش ، الأخ بالتبني ، وهي تشير إلى النظام الموروث عن سلالة جنكيز خان ، حيث كان الأخ بالتبني أحد أهم المناصب في مجلس الخان ، وباني هذه المدرسة هو أحد الرجال الذين تبؤوا هذا المنصب في فترات حكم لعدة خانات في العهد الشيباني هو " قل بابا " ، وقد ساعد الأمير " قل بابا " الخان عبد الله خان الثاني ، الذي حكم خلال الفترة من عام 1561 م إلى عام 1598 م ، وهو من أقوى الخانات في الدولة الشيبانية ، وكان من التراث الموروث عن السلالات المغولية في تنصيب الحاكم أو الخان الجديد ، أن يتم بسطه على فراش أبيض من الصوف ويرفعه من الأطراف الأربعة أقوى أربعة رجال في الدولة ، كان أحدهم " قل بابا " ، وكان لقب الخان لا يعطى إلا للرجال المنحدرين من سلالة جنكيز خان .

يبلغ طول مدرسة كوكلداش ثمانين متراً ، وعرضها ستين متراً ، وتحوي على أكثر من مائة وثلاثين حجرة درس ، وقد أصبحت مدرسة كوكلداش رمزاً للدولة القوية المستقرة في عهد عبد الله خان الثاني ، وتشتهر المدرسة بزخارفها الداخلية البيضاء وبوابتها المميزة والتي تحتوي على تركيبات وزيادات لم يتم تثبيتها بمسامير أو غراء وتم تزيين الواجهة بنقوش هندسية .

مدرسة نادر ديوان بيجي ، تم تشييدها في عهد إمام قلي خان ، وكان لقب ديوان بيجي يعطي لولي العهد في الدولة الأستراخانية ، التي تأسست عام 1599 ، وقد بنى نادر ديوان بيجي مدرسته بعد أن بنى حاكم سمرقند " يلنطش بي " مدرسة شير دار في سمرقند عام 1619 م ، والتي بنيت بنظام جديد حيث زينت الواجهة برسومات للشمس ونمور ، والتي لم تكن معتادة في المدارس الإسلامية ، وشيد نادر ديوان بيجي مدرسته

على نفس النمط ، وقد بناها أساساً لتكون بيتاً للقوافل " كروان سراي " ، و لكن إمام قلي خان في حفل الافتتاح أعلن بأن هذا المبنى هو مدرسة ، فاضطر نادر ديوان بيجي لتعديل المبنى و إضافة دور إضافي لعدد من الحجرات لتكون مدرسة . كما تحتوي مدينة بخاري علي مائتي مدرسة وسبعة مساجد جامعة، وأربعين حماماً عاماً ومائة وخمسين سوقاً تجارية كبيرة¹ ، بالإضافة إلى المكتبات التي كان أغلبها مكتبات خاصة مثل : خزانة نوح بن منصور الساماني ، وكانت عبارة عن دار كبيرة تضم فيها صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض ، منها كتب في اللغة العربية والشعر والفقه . وينتسب إلى بخاري كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين الذين ملأوا الدنيا علما وتقوى ويأتي في مقدمتهم :-

— محمد بن إسماعيل البخاري ، والذي توفي بالقرب منها عام 256هـ - 869 م ، وقد ألف أشهر كتب الحديث النبوي المعروف بصحيح البخاري .

— أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا ، الفيلسوف والطبيب ، والمعروف بابن سينا والذي توفي عام 428هـ - 1036 م ، ومن مؤلفاته الإشارات والتنبيهات في الفلسفة والقانون في الطب .

— أبو حفص عمر بن منصور البخاري المعروف باسم " البزار " ، الإمام الحافظ محدث بخاري .

— أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر البخاري الحافظ .

— أبو العباس أحمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي الملقب بالبخاري .

— بهاء الدين نقشبند شيخ الطريقة الصوفية المعروفة .

نظرا لأهميتها الثقافية فقد تجلّى اسم بخاري في العديد من الأعمال الأدبية ، فقد قال عنها " علي أكبر دهخدا " بخاري بحر ملئ بالمعرفة ، وأكد " جلال الدين الرومي " هذا المعني مادحا المدينة بقوله : بخاري منجم المعرفة ، وفي الملحمة الرومانسية " أورلاندو العاشق " التي كتبها الإيطالي " ماتيو مارييا بوياردو : يطلق على بخاري اسم أبوراكا التي وصفت بأنها مدينة كبيرة .

¹ - آثار البلاد وأخبار العباد - زكريا بن محمد القزويني - دار صادر - بيروت .

كما قال " ياقوت الحموي " في الجزء الأول من معجم البلدان : بخاري هي أعظم مُدُن ما وراء النهر وأجلها ، يُعبر إليها من آمل الشَّطِّ ، وبينها وبين نهر جيحون يومان من هذا الوجه ، وكانت قاعدة ملك الإمارة السامانية ، وقال " بطليموس " في كتاب "الملحمة" : طول بخارى سبع وثمانون درجة ، وعرضها إحدى وأربعون درجة ، وهي في الإقليم الخامس ، وطالعتها الأسد تحت عشر درجات منه لها قلب الأسد كامل تحت إحدى وعشرين درجة من السرطان ، ويقابلها مثلها من الجدي ، وبيت ملكها مثلها من الحمل ، وبيت العقبة مثلها من الميزان ، ولها شركة في العيوق ثلاث درجات ، ولها في الدُّب الأكبر سبع درجات .

وقال عنها " أبو عون " في كتابه " زيجه " : عرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهي في الإقليم الرابع ، وأمّا اشتقاقها وسبب تسمية بخارى بهذا الاسم فإنني تطلبتُه فلم أظفر به ، ولا شك أنها مدينة قديمة نزهة كثيرة البساتين واسعة الفواكه جيّدتها ، عهدي بفواكهها تُحمل إلى مَرَوَ ، وبينهما اثنتا عشرة مرحلة ، وإلى خوارزم وبينهما أكثر من خمس عشرة يوماً ، وبينها وبين سمرقند سبعة أيام أو سبعة وثلاثون فرسخاً ، وبينهما بلاد الصَّغْد .

• سمرقند :-

تعتبر سمرقند واحدة من أقدم مدن العالم ، وهي ثاني أكبر مدن أوزبكستان ومعني الاسم " قلعة الأرض " ، وقد وصفها ابن بطوطة بقوله : "إنها من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا ، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادي القصارين ، وكانت تضم قصورا عظيمة، وعمارة تنبئ عن همم أهلها". هي عاصمة ما وراء النهر التاريخية ووصفها بعض الرحالة العرب بالياقوتة الراقدة على الضفة الجنوبية لنهر زرافشان فتحها سعيد بن عثمان ابن عفان صلحا عام 55 هـ - 675 م ، ثم فتحها سالم بن زياد عام 61هـ - 681 م بعد مقاومة عنيفة ، إلى أن دخلت الإسلام على يد قتيبة بن مسلم عام 92هـ - 710 م¹.

كانت سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر في عهد التيموريين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وقد أطلق عليها الرحالة العرب اسم " الياقوتة " الراقدة على ضفاف نهر زرافشان ، فقد أعدها تيمورلنك لتحتل الصدارة في عهده ، ولقد كانت سمرقند أهم حاضرة فيما وراء النهر " الصغد وما وراء النهر " ، حيث تقوم المدينة على الضفة الجنوبية لنهر الصغد " وادي الصغد ، زرافشان " .

تعرضت سمرقند عبر تاريخها لويلات وكوارث كان أهمها ثلاث :-

الأولى : تدمير الإسكندر لها عام 329 قبل الميلاد .

والثانية : في عهد جنكيزخان عام 617هـ / 1220 م .

والثالثة : على أيدي الشيبانيين حوالي منتصف القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر الميلادي .

احتل الإسكندر مدينة سمرقند عدة مرات إبان قتاله مع السبتميين ، وكانت في عهد القواد الذين تنازعوا ملك الإسكندر بعد تقسيم عام 323 قبل الميلاد تابعة لولاية بلخ بصفتها قسبة الصغد ، وقد وقعت في أيدي السلوقيين هي وبلخ عندما أعلن ديودوتس

¹ - المسالك والممالك - عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة - دار إحياء التراث العربي - الطبعة الأولى 1988 - القاهرة .

استقلاله وتأسست المملكة الإغريقية البلخية في عهد أنطيوخس الثاني ثيوس ، ومن ثم أصبحت معرضة لهجمات برابرة الشمال .

غدت **سمرقند** من ذلك الوقت حتى الفتح الإسلامي منفصلة عن الدولة الفارسية من ناحيتين التاريخيتين والاقتصادية وإن ظل التبادل الثقافي بينها وبين البلاد الغربية متصلاً وكانت فتوحات المسلمين لمناطق ما وراء **نهر جيحون** قد بدأت منذ عام 46هـ / 667 م ولم يبدأ المسلمون توغلهم فيما وراء النهر توغلاً منتظماً إلا بعد أن عين **قتيبة بن مسلم** والياً على خراسان حيث وجد طرخون حاكماً على مدينة سمرقند ، وفي عام 91هـ / 709 م تصالح **طرخون** مع **قتيبة** على أن يؤدي الجزية للمسلمين ويقدم لهم الرهائن غير أن ذلك أغضب رعاياه فخلعوه ، وحل محله **إخشيد غورك** ، لكن **قتيبة** أجبره على التسليم في عام 93هـ / 712 م ، بعد أن حاصر المدينة وقتاً طويلاً ، وقد سمح له بالبقاء على العرش ، ولكن أقيم في المدينة **وال مسلم** ومعه حامية قوية¹.

أصبحت **سمرقند** إلى جانب بخارى قاعدتين للفتوح الإسلامية الأخرى ونشر الإسلام في البلاد ، الأمر الذي كانت تزعزعه في كثير من الأحيان الفتن التي تثيرها مباحكات الولاة التي أشاعت القلاقل فيما وراء النهر في العقود الأخيرة من عهد الأمويين ، وفي عام 204هـ / 819 م ، أعطى الخليفة العباسي المأمون ، ولاية ما وراء النهر وخاصة **سمرقند** لأبناء **أسد بن سامان** ، وظلت منذ ذلك الحين دون أن تتأثر بفتن الطاهرية والصفارية في أيدي بيت سامان إلى أن قضى **إسماعيل بن أحمد** على سلطان الصفارية عام 287هـ / 900 م ، وأسس الدولة السامانية ، فأتاح بذلك لما وراء النهر قرناً من الرخاء والازدهار لم تر له مثيلاً إلا بعد ذلك بخمسائة سنة في عهد الأمير **تيمور** وخلفائه المباشرين .

فمن القصص المأثورة عن **سمرقند** عند دخول المسلمين إليها ، أن أهل سمرقند بعد دخول جيوش المسلمين إلى أراضي **سمرقند** ، أرسلوا إلى الخليفة **عمر بن عبد العزيز**

¹ - معجم البلدان - شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي الحموي - دار صادر أوفست ليدن 1995 - بيروت

يشتكون إليه بأن جيشه دخل بلادهم دون إنذار لهم أو دعوتهم للإسلام ، فكتب الخليفة مع رسولهم للقاضي أن احكم بينهم فكانت هذه القصة التي تعتبر من الأساطير¹.
نادى الغلام : ياقتيبة " بدون ألقاب " ، فجاء قتيبة وجلس هو وكبير الكهنة أمام القاضي جُمِيع .

ثم قال القاضي : ما دعوأك يا سمرقندي ؟
قال : اجتاحتنا قتيبةٌ بجيشه ولم يدعنا إلى الإسلام ويمهلنا حتى ننظر في أمرنا ، التفت القاضي إلى قتيبة.

وقال : وما تقول في هذا يا قتيبة ؟
قال قتيبة : الحرب خدعة وهذا بلد عظيم وكل البلدان من حوله كانوا يقاومون ولم يدخلوا الإسلام ولم يقبلوا بالجزية .

قال القاضي : يا قتيبة هل دعوتهم للإسلام أو الجزية أو الحرب ؟
قال قتيبة : لا إنما باغتناهم لما ذكرت لك .
قال القاضي : أراك قد أقررت ، وإذا أقر المدعي عليه انتهت المحاكمة ، يا قتيبة ما نصر الله هذه الأمة إلا بالدين واجتناب الغدر وإقامة العدل .

ثم قال : قضينا بإخراج جميع المسلمين من أرض سمرقند من حكام وجيوش ورجال وأطفال ونساء ، وأن تترك الدكاكين والدور ، وأن لا يبق في سمرقند أحد ، على أن ينذرهم المسلمون بعد ذلك ، لم يصدق الكهنة ما شاهده وسمعوه ، فلا شهود ولا أدلة ولم تدم المحاكمة إلا دقائق معدودة ، ولم يشعروا إلا والقاضي والغلام وقتيبة ينصرفون أمامهم ، وبعد ساعات قليلة سمع أهل سمرقند بجلبة تعلو وأصوات ترتفع وغبار يعم الجنبات ، ورايات تلوح خلال الغبار ، فسألوا ف قيل لهم إنَّ الحكم قد نُفِذَ وأنَّ الجيش قد انسحب ، في مشهدٍ تقشعر منه جلود الذين شاهده أو سمعوا به .

وما إنْ غرُبَت شمس ذلك اليوم ، إلا والكلاب تتجول بطرق سمرقند الخالية ، وصوت بكاءٍ يُسمع في كل بيتٍ على خروج تلك الأمة العادلة الرحيمة من بلدهم ، ولم يتمالك

¹ - فتوح البلدان - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - مطبعة الموسوعات - الطبعة الأولى 1901 - القاهرة

الكهنة وأهل سمرقند أنفسهم لساعات أكثر ، حتى خرجوا أفواجاً وكبير الكهنة أمامهم باتجاه معسكر المسلمين وهم يرددون شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله¹.

ظلت سمرقند محتفظة لنفسها بالمكانة الأولى بصفقتها مركز التجارة والثقافة وخاصة في أنظار العالم الإسلامي حتى بعد أن انتقلت العاصمة إلى بخارى ، وقد حكم القراخانية سمرقند بعد سقوط الدولة السامانية "الإلكخانية" ، ففي عام 495هـ / 1102 م ، كان أرسلان خان محمد القراخاني صاحب السلطة على سلجوق سنجر ، وظلت سلالته قابضة على السلطة إلى أن أصبح القرّة خطاي أصحاب الكلمة فيما وراء النهر بعد أربعين عاماً ، عندما انتصر القرّة خطاي انتصاراً كبيراً على سنجر في قطوان عام 536هـ / 1141 م ، وفي عام 606هـ / 1209 م ، هزم خوارزم شاه محمد بن تكش الكورخانية وحاصر جنكيزخان خصم خوارزم شاه ، سمرقند بضعة أشهر بعد أن عبر نهر سيحون في طريقه من بخارى ، ومن حسن حظ هذه المدينة أنها سلمت في ربيع الأول عام 617هـ / مايو 1220 م ، وسمح لعدد من أهلها بالبقاء فيها تحت حكم وال مغولي وإن كانت قد نهبت وطرد الكثير من سكانها .

كانت سمرقند في المائة والخمسين عاماً التالية صورة باهتة لما كانت عليه من عز ومكانة وبدأت المدينة تنتعش عندما أصبح الأمير تيمور عام 771هـ / 1369 م صاحب الكلمة العليا فيما وراء النهر ، واختار سمرقند عاصمة لدولته الآخذة في النمو باستمرار واهتم بتزيينها بكل آيات الروعة والفخامة ، فنقل إليها الصنائع وأرباب الحرف لينهضوا بها فنياً وعمرانياً ، فكان عصر تيمورلنك بحق عصر التشييد والعمران ، وقد جُمِّل أولوغ بك حفيد الأمير تيمور هذه المدينة بقصره المسمى "جهل ستون" ، كما شيد بها مرصده المشهور وفي عام 909هـ / 1500 م استولى عليها منافسه تيمور أوزبك خان شيبباني ، وبعد وفاة أوزبك تحالف بابر مع إسماعيل شاه الصفوي فأفلح في الظفر مرة أخرى بفتح بلاد ما وراء النهر واحتلال سمرقند ، ولكنه اضطر في العام التالي إلى الانسحاب انسحاباً تاماً إلى مملكته الهندية تاركاً الميدان للأوزبكيين .

¹ - تاريخ الرسل والملوك - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الثانية - دار المعارف - القاهرة .

انطلقت الفنوحات الإسلامية وتقدّمت من بلاد ما وراء النهر إلى الصين والهند وروسيا ذاتها، حتى إن الأراضي الروسية ظلت خاضعة للسيطرة التنرية الإسلامية لمدة ثلاثة قرون، بل كان دوق موسكو يدفع الجزية سنوياً للأمير بخارى ، وفي منتصف القرن السادس عشر وبينما كانت الدولة العثمانية تهدد وسط أوروبا وتزحف إلى إفريقيا وآسيا كانت روسيا القيصيرية تهاجم المناطق الإسلامية حتى سقطت قازان في منطقة الفولجا وبعدها دولة خانات استراخان ثم مملكة سيبير خان في سيبيريا ، ثم اتجهت الجيوش الروسية إلى الجنوب حيث تركستان في القرن التاسع عشر .

تساقطت الخانات في بلاد ما وراء النهر الواحدة تلو الأخرى ، حتى زحف ثمانية آلاف من جيوش الروس نحو سمرقند وعبروا نهر زرافشان في 13 مايو عام 1868م / 1285 هـ وسيطروا عليها في اليوم التالي ، ودخل القائد كاوفمان العاصمة التيمورية القديمة وكانت في ذلك الوقت في أيدي مظفر الدين أمير بخارى ، وحين قام النظام الشيوعي عام 1342هـ / 1923 م ، في روسيا صارت سمرقند ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق حتى انهياره عام 1412هـ / 1991 م ، فصارت أهم مدن جمهورية أوزبكستان .

اشتهرت سمرقند بكثرة معالمها وقصورها التي شيدت فيها خلال فترة ازدهارها وخاصة في عهد الأمير تيمور وخلفائه ، ومنها :-

● **قصر دلكشا " القصر الصيفي "** : وقد تميز بمدخله المرتفع المزدان بالآجر الأزرق والمذهب ، وكان يشتمل على ثلاث ساحات بكل ساحة فسقية .

● **قصر باغ بهشت " روضة الجنة "** : شُيد بأكمله من الرخام الأبيض الذي تم جلبه من تبريز ، فوق ربوة عالية ، وكان يحيط به خندق عميق ملئ بالماء ، وعليه قناطر تصل بينه وبين المتنزه .

● **قصر باغ جناران " روضة الحور "** : عرف هذا القصر بهذا الاسم؛ لأنه كانت تحيط به طرق جميلة يقوم شجر الحور على جوانبها ، وكان ذا تخطيط متقاطع متعامد .

● **مدرسة بيبي خانيم** : وقد تميز تخطيط هذا الأثر بأن اعتمد على صحن أوسط مكشوف وأربعة إيوانات .

• **مدرسة وخانقاه وضريح الأمير تيمور** : شيد هذا المجمع الديني قبل عام 807 هـ —
1405 م المهندس الأصفهاني محمد بن محمود البنا .

• **ميدان داغستان** : بدأ تكوين هذا الميدان في عهد تيمورلنك ، وكان يقوم بعرض فتوحاته في هذا الميدان¹.

وصفت **سمرقند** بالجنة الخضراء ، لكثرة حدائقها الواسعة ، والتي أطلق علي كل منها اسماً غاية في الروعة تعبيراً عن جمالها ، ومن هذه الأسماء " الجنة " ، " **مفخرة العالم** " " **الحديقة السامية** " ، ولكل حديقة قصر ، ومروج ، وجدول رقراقة ، وبحيرات وبساتين ، وعرائش وورود ، ومن هذه الحدائق :—

— **حديقة باغ ديل كوشا** ، وتعني حديقة بهجة القلب والتي بناها بين عامي 1396
1398 ، وبنيت بمناسبة زواج الأمير تيمور من الأميرة توكال خاتم ابنة سلطان المغول
خضر خوجة ، واستخدم في تعميرها أفضل المواد ، وأحسن الحرفيين من أنحاء مملكته
فقد جاء بالرخام من تبريز ، وجلب الفنانين والرسامين من بلاد فارس .
— **حديقة الميدان** ، والتي تحوي قصري الأربعين عاموداً ذي الطابقين .
— **حديقة " باغ جنار "** .

— **حديقة " باغ نو "** ، أي الحديقة الجديدة ، المحددة أسوارها بين أربعة أبراج ، يصل
بين كل برجين سور شاهق الارتفاع ، طول كل جهة منه ميل واحد ، وفي وسط
الحديقة بستان ، وفي وسط البستان قصر ، وهو مزين بقطع من الذهب والبلاط الأزرق
وزين القصر من الداخل بمنحوتات من الرخام ، وغطيت الأرضيات بفسيفساء من
خشب الأبنوس والعاج .

خرج من **سمرقند** العديد من العلماء والأعلام العظام في مختلف مجالات العلوم ، وقد
حمل العديد منهم لقب " **سمرقندي** " ، وذلك علي غرار ما انتسب العديد من العلماء في
ذلك الزمان إلى المدن والبلاد التي ولدوا أو عاشوا فيها ، وينتسب إلي مدينة **سمرقند**
العديد من العلماء العظام منهم :—

¹ — آثار البلاد وأخبار العباد — زكريا بن محمد القزويني — دار صادر — بيروت .

محمد بن محمود الماتريدي ، ويعرف بأبي منصور الماتريدي ، وهو فقيه ومتكلم مشهور ولد في ماتريد إحدى مدن سمرقند وتوفي عام 333هـ - 944 م ، وله الكثير من التصنيفات من أهمها كتابه الأحكام السلطانية ، كما ينسب إليه شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان¹.

ومن علمائها أيضاً نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي المفسر ، والمعروف بأبي الليث السمرقندي، صاحب كتاب تنبيه الغافلين وكتاب الفتاوى، وتوفي عام 375هـ - 985 م علاء الدين السمرقندي الفقيه مؤلف كتاب تحفة الفقهاء، وتوفي عام 539 هـ - 1144 م محمد بن عدي بن الفضل أبو صالح السمرقندي توفي سنة 444 هـ . أحمد بن عمر الأشعث أبو بكر السمرقندي، كان يكتب المصاحف من حفظه، وتوفي سنة 489 هـ .

أبو منصور محمد ابن أحمد السمرقندي ، فقيه حنفي له كتاب " تحفة الفقهاء " . كما حمل لقب " سمرقندي " أيضاً :-

سوزني السمرقندي : الشاعر الكبير ، والمتوفي سنة 562 هـ .
النظامي العروضي السمرقندي : الشاعر المعروف ، والمتوفي سنة 560 هـ .
شمس الدين السمرقندي : عالم الفلك والرياضيات .
النجيب السمرقندي : الطبيب المسلم الذي ترك مؤلفات عديدة في الطب .
دولت شاه السمرقندي : الشاعر المعروف ، والمتوفي سنة 913 هـ / 1508 م .
عبد الرازق السمرقندي : الجغرافي والمؤرخ .
الدارمي السمرقندي : العالم والحافظ والفقيه ، ومن رواة الحديث النبوي الشريف .
محمد بن أحمد بن أبي أحمد، أبو بكر علاء الدين السمرقندي، المتوفي سنة 450 هـ / 1145 م .

محمد بن عبد الحميد بن الحسين بن الحسن بن حمزة الأسمندي السمرقندي ، أبو الفتح ، علاء الدين ، الذي عاش خلال الفترة ما بين عام 488 هـ / 1095 م ، حتي عام 522 هـ / 1157 م .

¹ - المسلمون في الاتحاد السوفياتي عبر التاريخ - محمد علي البار - دار الشروق 1983 - الجزء الأول - القاهرة .

علي بن يحيى ، علاء الدين السمرقندي القرماني ، المتوفي عام 880 هـ / 1475 م .
مكانة سمرقند عند العرب : ياقوت الحموي في كتابه " معجم البلدان " : ليس في
الأرض مدينة أنزه ولا أطيب مستشرقاً من سمرقند .
قال عنها أمين أمين معلوف في روايته " سمرقند " : سمرقند ، أجمل وجه أدارته
الأرض يوماً نحو الشمس .
عطاء الملك الجويني : وهو حاكم بغداد من قبل المغول فيقول ، سمرقند أعظم بقاع
مملكة السلطان مساحة وأطيبها ربوعاً .

• ترمذ :-

تعتبر ترمذ من أمهات المدن التي تقع على الضفة الشرقية لنهر أموداريا " جيحون " الذي يفصلها عن أفغانستان، ويعبره جسر الصداقة، وكانت المدينة مقصدًا مهمًا على طريق الحرير العظيم ، ويعود اسمها إلى عهد الإغريق الذين أتوا مع الإسكندر الأكبر والذي يعني " الآجر الأحمر، أو المكان الحار "، دخلها المسلمون عام 56 هـ — 676 م عندما فتحها سعيد بن عثمان بن عفان صلحًا، ثم أعاد فتحها موسى بن عبد الله بن خازم عام 69 هـ — 689 م، وانتفض أهلها ففتحها قتيبة بن مسلم حوالي عام 23 هـ — 710¹. ينتسب إلى مدينة ترمذ ، محمد بن عيسى الترمذي ، تلميذ البخاري صاحب الصحيح وتوفي فيها عام 279 هـ — 892 م ، وكتاب السنن المعروف بسنن الترمذي أشهر مصنفاته وله مصنف الجامع وكتاب العلل وغيرها ، كما ينتسب إليها شيخ الشافعية في العراق محمد بن أحمد بن نصر الترمذي الشافعي ، أبو جعفر ، والمعروف باسم أبي جعفر الترمذي والذي ولد عام 201 هـ — 816 م ، وتوفي عام 295 هـ — 907 م صاحب كتاب مجموع شرح المذهب ، ومن شخصيات ترمذ الصوفي محمد بن علي بن الحسن بن بشر الترمذي² ، والمعروف باسم الحكيم الترمذي ، المتوفى عام 320 هـ — 932 م ومن مصنفاته ختم الولاية ، وحقائق التفسير ، كما ينتسب إلى ترمذ أيضًا ، سعيد بن بركة ، معلم الأمير تيمور وفيلسوفه .

زار ترمذ الرحالة العربي ابن بطوطة ، وقال عنها : ثم وصلنا إلى مدينة ترمذ ، والتي ينسب إليها الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، مؤلف الجامع الكبير في السنن ، وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق تخرقها الأنهار ، وبها البساتين الكبيرة والعنب والسفرجل بها متاهي الطيب ، واللحوم بها كثيرة وكذلك الألبان .

ويضيف ابن بطوطة : كانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون ، فلما خربها جنكيز بُنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر ، وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان ، من كبار المشايخ وكرمائمهم ، كثير المال والرباع والبساتين ، ينفق

¹ - معجم البلدان - مرجع سابق .

² - المسلمون في الاتحاد السوفياتي عبر التاريخ - مرجع سابق .

على الوارد والصادر من ماله ، واجتمعتُ قبل وصولي إلى هذه المدينة بصاحبها **علاء الملك خداوند زاده** ، وكتب لي إليها بالضيافة ، فكانت تُحمل إلينا أيام مقامنا بها في كل يوم ، ولقيتُ أيضاً قاضيها **قوام الدين** وهو متوجّه لرؤية السلطان **طرمشيرين** ، وطالب للإذن له في السفر إلى بلاد الهند ، وسيأتي ذكر لقائي له بعد ذلك ولأخويه **ضياء الدين وبرهان الدين بملتان** ، ثم جزنا نهر جيحون إلى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ وإجازة الوادي يوماً ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها إلى مدينة **بلخ**. ويقول المؤرخ **عبدالرحمن الفريح** : وينبع نهر جيحون المعروف حالياً باسم **أموداريا** من جبال **البامير** التي تسمى سقف العالم في شمال شرق أفغانستان بالقرب من حدودها مع الصين وجمهورية آسيا الوسطى ، ويتلقّى تغذيته من ذوبان الثلوج في جبال **الهندوكوش** ومن روافده التي تلتقي به في منطقة الخطل كنهر جرياب ووخش وأنهار منطقتي **نخشاب والبيتم** .

يسير نهر جيحون باتجاه الغرب إلى أن يصل إلى مدينة **ترمذ** فاصلاً بين خراسان وبين بلاد ما وراء النهر، ويعرف الأهالي هناك نهر جيحون باسم **ماله** ، ومنها يتجه شمالاً بحيث تصبح ترمذ في جانبه الشرقي في أرض ما وراء النهر ، ويُقابلها بلخ في الجانب الخراساني ، ويستبحر النهر ماؤه في أرض ترمذ وبلخ بعد أن تتجلب إليه مياه عظيمة أمّا بعد ترمذ فإنّ مجراه يضيق ثمّ ينبسط عند زم الواقعة على جانبه الغربي .

تضم ترمذ عدداً كبيراً من المعالم الأثرية والتاريخية منها :—

— **ضريح الحكيم الترمذي** ، في مجمع السلطان .

— **قلعة الفتيات الأربعون** : يقع على بعد ثلاثة كيلو مترات من مدينة ترمذ القديمة .

— **مئذنة جسر قرغان** ، والتي يرجع تاريخها إلى عام 1109 م .

• خوارزم :-

يقع إقليم خوارزم في أقصى غرب أوزبكستان عند المجرى الأدنى لنهر جيحون ، وقد اكتُشِفَتْ في المنطقة بقايا حضارة يرجع تاريخها إلى ما بين 5000 – 4000 ق . م ، ومنذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد يظهر في المنطقة أثر اللغات الهندية الأوربية وخضعت خوارزم بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد لحكم الإمبراطورية الأخمينية الفارسية .

وكانت تقوم فيها مملكة مستقلة في عصر الإسكندر المقدوني أطلق عليها اليونانيون تسمية تشوراسمي ، والغالب أن هذه التسمية هي أصل تسمية خوارزم التي شاعت فيما بعد الفتح العربي الإسلامي لها .

وصل الإسلام إلى خوارزم منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، فقد فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي عام 88هـ / 706 م ، من ضمن ما فتحه من أقاليم بلاد ما وراء النهر مع بيكند وبخارى وسمرقند ونسف والشاش وفرغانة والصغد وأسروشنه . وظل قتيبة بن مسلم يرسل إليها الولاة العرب من مركز عمله في مرو في خراسان . وظلت خوارزم تحت إشراف ولاة خراسان الذين كان يعينهم والي العراق ما تبقى من العصر الأموي .

ظلت خوارزم تحكم من قبل الولاة الذين كان معظمهم من العرب في مطلع العصر العباسي .

ثم خضعت لحكم الطاهريين مدة نصف قرن ودخل الخوارزميون جنداً في جيوشها . ولما أفل نجم الطاهريين لم يتمكن الصفاريون الذين خلفوهم في السيطرة على خراسان من مد سلطتهم إلى خوارزم وبلاد ما وراء النهر .

ولما ورث السامانيون حكم بلاد ما وراء النهر شهدت خوارزم عهد ازدهار في ظلهم وقد ظهرت آثاره في الزراعة والصناعة والتجارة ، كما كانت أرض خوارزم منطلق جيوش السامانيين للتوغل في بلاد الترك ، لمد سلطة الدولة إليها ونشر الإسلام بين سكانها .

مع تطور تاريخ المنطقة مع حركة التاريخ الإسلامي ، بدأت بعض المدن الصغيرة في الإقليم تتطور إلى مدن ذات هيكل إسلامي .

وتعاقب على حكم خوارزم ملوك كثيرون منهم حكام إمارة كاث وحملوا لقب " **خوارزم شاه** " ، وكان لهم في كاث قصر يقوم إلى جواره مسجد .

ومنهم حكام إمارة " **كركانج** " **المأمون بن محمد** والي وأولاده، منذ عام 386هـ / 997 م إلى عام 389هـ / 999 م .

كما نجح **محمود بن سبكتكين الغزنوي** في بسط نفوذه إليها ، وعين **محمود** حاجبه التركي " **التونتاش** " شاهًا جديدًا على خوارزم ، وأقام **التونتاش** في الجرجانية تابعًا ل**محمود الغزنوي** ، وانضم مع قواته إلى قوات **محمود الغزنوي** عام 416هـ / 1025 م عندما قدم إلى بلاد ما وراء النهر لقتال الإيلخانية ، ولم يبخل بنصح **مسعود ابن محمود الغزنوي** ، بأن يسير على سياسة أبيه مع هؤلاء ، ولكنه قضى نحبه إثر إصابته بجراح عند غارته على بخارى لانتزاعها من الإيلخانية عام 423هـ / 1032 م لحساب **مسعود** ، وكان قد نجح في صد غارات القبائل الرحل المجاورة لخوارزم وعمل في الوقت نفسه على إغراء جماعات من هذه القبائل على الخدمة في جيوشه .

بعد أن حكم السلاجقة خراسان بعد الغزنويين عام 433هـ / 1040م ، وجهوا قوة طردت حاكم مدينة جند من خوارزم عام 436هـ / 1043 م ، وحكمها باسم السلاطين السلاجقة حكام حملوا لقب خوارزم شاه أيضًا، وكان يضطلع فيها بوظيفة قائد الشرطة عام 490هـ / 1097م ، أخذ أتباعهم هو محمد بن أنوشتكين، لمس فيه السلطان **بركيارق** الذي حكم خلال الفترة من عام 487 هـ / 1094 إلى عام 498هـ / 1104 م، علائم النجابة والإخلاص فأرسله إلى حكم خوارزم بلقب خوارزم شاه عام 491هـ / 1098 م وكان ذلك بداية حكم الخوارزميين في تلك البلاد .

حكمت الدولة الخوارزمية فترة طويلة ، وتعاقب على الحكم فيها ستة حكام كان من أشهرهم ، **تكش علاء الدين** الذي حكم خلال الفترة من عام 589 هـ / 1193 م ، إلى عام 596هـ / 1199 م ، الذي زاد من أملاك دولة شاهات خوارزم ، وسار شوطاً في مضمار عظمة الدولة تاركاً بقية الشوط لابنه **علاء الدين محمد** ، وتبعه ابنه **جلال الدين**

منكوبردي الذي حكم من عام 618 هـ / 1221 م ، إلي عام 628 هـ / 1239 م ، الذي مات بعد أن داهمه المغول ، وبموته انتهت دولة شاهات خوارزم .

اكتسحت جيوش المغول خوارزم وهدمت الجرجانية عام 618 هـ / 1221 م ، ولما قسم جنكيزخان أملاكه بين أولاده ، كانت خوارزم من حصة جوجي الابن الأكبر ، مؤسس دولة مغول القبيلة الذهبية ، ولما كانت الحدود بين أملاك أبناء جنكيزخان لم تكن واضحة تمامًا فقد كانت خوارزم التي تقع بين أراضي دولتي القبيلة الذهبية ومغول جغتاي مجال تتنافس للسيطرة عليها فيما بينهما ، ولكنها غالبًا كانت تحت حكم خانات القبيلة الذهبية ، وقد أعيد بناء الجرجانية ، وصارت تعرف باسم أورجنتش .

زار الرحالة العربي ابن بطوطة أورجنتش عام 735 هـ / 1333 م ، ووصفها بأنها من كُبريات مدن الترك وأجملها وأفخمها ، ولعلها كانت أهم مدينة على طريق الحرير بين آسيا وأوروبا ، وقد وصلت إلى الحكم فيها منذ عام 762 هـ / 1360 م ، أسرة آل صدي التي تعود في أصولها إلى قبيلة فنغرات المغولية ، وقد نجح الأمير تيمور بالاستيلاء علي خوارزم بعد أربع حملات متتالية بين عام 773 هـ / 1372 م ، وعام 780 هـ / 1378 م ، حتي استطاع بسط نفوذه .

خضعت خوارزم لأبناء وحفدة الأمير تيمور إلى أن انتزعها منهم الخان الأوزبكي شيبان الذي حكم خلال الفترة من عام 905 هـ / 1500 م إلي عام 916 هـ / 1510 م الذي قتله إسماعيل الصفوي في معركة مرو عند غارة شيبان على خراسان ، وأرسل الصفوي ولاته لحكم خوارزم ، ولكن أحد أفراد أسرة صوفي لم يلبث أن طردهم منها لتلحق بخانية بخارى الأوزبكية التي تكونت حديثًا ، ولما كان أغلب سكان خوارزم قد أضحوا يختلفون عن الأوزبك ، فقد أدَّى ذلك إلى انفصالها عن الخانية الأوزبكية بعد مدة وجيزة وبرزت خيوه مدينة رئيسية في خوارزم ، جنوب أورجنتش على الضفة اليسرى لنهر جيحون .

ساعد تركز السلطة في خيوه على تضائل شأن أورجنتش بسبب تحول فرع جيحون الذي يرويها عنها.

واختفى منذ ذلك الوقت اسم خوارزم ليحل محله اسم **خيوه** التي صارت **عاصمة خانية** تحمل اسمها منذ عام 921هـ / 1515 م ، وكانت تلحق بين وقت وآخر بخانية بخارى خلال القرن السادس عشر .

تحسنت أحوال خانية خيوه " **خوارزم** " ، بعد أن ساءت أحوالها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، وذلك عندما وصلت سلالة جديدة إلى الحكم فيها عام 1177هـ / 1763 م ، عرفت باسم **سلالة فنغرات** ، التي اتبعت سياسة إصلاحية في المجالين السياسي والاقتصادي ، وعملت على التوسع على حساب جيرانها ، وبلغت الخانية أقصى اتساع لها في عهد **الخان عبد الله قُلي** الذي حكم خلال الفترة من عام 1241 هـ / 1825 م إلى عام 1258هـ / 1842 م ؛ إذ امتدت سلطته من مصب نهر **سيحون** شمالاً إلى نهر **المرغاب** في خراسان جنوباً، إلا أن الحروب التي نشبت بينها وبين جيرانها أضعفت الجميع أمام التوسع الاستعماري الروسي .

وعلى الرغم من أن **خانية خيوه** صدت هجوماً روسيين في عامي 1717 م ، 1839 م إلا أن الروس تمكنوا من إقامة قلاع عند مصب **سيحون** للمراقبة ، وعملوا على مد نفوذهم بالتدريج على **خوارزم** ، وإلحاق أجزاء منها بالسلطة الروسية ، وانتهى الأمر إلى احتلال **خيوه** التي صارت محمية روسية منذ 1873 م .

ألغى الروس نظام الخانية عام 1980 م ، وقامت في البلاد جمهورية **خوارزم** وتحولت إلى جمهورية شعبية في العام التالي على يد **البلاشفة** ، ثم ألحقت عام 1924م بأراضي الاتحاد السوفيتي، وقُسمت أراضيها بين جمهوريتي **أوزبكستان** و**تركمانستان**.

● أهم معالم **خوارزم** :-

تاريخ **خوارزم** الحافل جعل منها متحفاً عامراً بالآثار والمعالم التي تركتها الدول التي حكمت ذلك الإقليم، وأهم تلك المعالم :

مئذنة كونلج تيمور : وهي أعلى مئذنة في منطقة وسط آسيا ، وتمثل أقدم الآثار التي تعود إلى أيام المغول .

جامع خيوه الرئيس : ويرجع تاريخ تأسيس هذا الجامع إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي .

مدرسة إسلام خوجة : ويعود تاريخها إلى ما بين عامي 1908 م ، 1910 م ، وتشتهر المدرسة بمندنتها ذات الزخرفة الدقيقة .

• خوارزم في كتابات الرحالة :-

قال عنها ياقوت الحموي: وما ظننت أن في الدنيا بقعةً سعتها سعة خوارزم وأكثر من أهلها مع أنهم قد مرّوا على ضيق العيش والقناعة بالشّيء اليسير ، وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين ، وفي النادر أن لا يكون في قرية سوق مع أمن شامل وطمأنينة تامة .

وقال عنها ابن بطوطة : هي من أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها ، لها أسواق مليحة ، وشوارع فسيحة ، والعمارة الكثيرة ، والمحاسن الأثيرة ، وهي تترج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ، ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوساً ، ولا أحب في الغرباء ، ينتشر في أنحائها الزوايا والمساجد والمدارس والمدرسون الذين يعملون فيها ، وكذلك المؤذنون والوعاظ والمذكرو ، وكذلك الفقهاء والقضاة الذين يحكمون في القضايا الشرعية ، وما كان من سواها حكم فيها الأمراء ، وأحكامهم مضبوطة عادلة ؛ لأنهم لا يهتمون بميل ، ولا يقبلون رشوة .

• علماء خوارزم :-

ينسب إلي خوارزم العديد من الأعلام والعلماء ، منهم :-

داود بن رشيد أبو الفضل الخوارزمي، روى عنه مسلم بن الحجاج وأبو زرعة والبخاري، ومحمد ابن أحمد البيروني، المعروف بأبي الريحان البيروني، الذي توفي عام 440هـ - 1048 م ، وهو عالم مقارنة أديان وفلكي ورياضي وطبيب كتب أكثر من 146 كتاباً ، منها كتاب الصيدلة وكتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة.

محمد بن موسى الخوارزمي، عالم الرياضيات ، توفي عام 236هـ - 850 م ، وهو واضع علم الجبر واللوغاريتم ، وله كتاب الجبر والمقابلة.

محمود بن عمر الخوارزمي المعروف بأبي القاسم الزمخشري ، توفي عام 538 هـ - 1143 م ، وله تفسير الكشف، وأساس البلاغة .

● نَسَف:

مدينة في جنوب أوزبكستان ، عاصمة ولاية قشقادريا ، تبعد نحو 335 كيلو متر عن حدود أفغانستان، وتشتهر حالياً بإنتاج الغاز الطبيعي، وصناعة السجاد، عُرِفَت قديماً باسم " نخشب "، وقد دخلها الإسلام صلحاً على يد قتيبة بن مسلم عام 92هـ / 710 م¹. ظهر في مدينة نسف الفقيه الحنفي عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، أبو البركات المتوفى عام 710 هـ - 1310م ، والملقب بحافظ الدين ، صاحب اعتماد الاعتقاد وتفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، وكتاب كشف الأسرار ، وكنز الدقائق وغيرها ، ومن علماء نسف الفقيه الحنفي عمر بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن علي بن لقمان ، أبو حفص ، ويلقب بنجم الدين ، وُلِدَ بنسف عام 461 هـ - 1069 م وتوفي بسمرقند عام 537هـ - 1142 م ، ومن مؤلفاته طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية ، وتاريخ سمرقند ، والعقائد النسفية ، ومنهم الإمام الحنفي في الفروع والأشعري في الأصول جعفر ابن محمد بن المعتز المستغفري النخشي ، أبو العباس والمعروف باسم المستغفري ، ولد عام 350 هـ - 961 م ، وتوفي عام 432 هـ - 1040 م ، وله كتاب معرفة الصحابة ، وكتاب الدعوات ، وكتاب دلائل النبوة وكتاب فضائل القرآن ، وكتاب الشمائل ، وكتاب الطب ، وتاريخ نسف وغيرها ، وينسب إليها الفقيه الحنفي إبراهيم بن معقل بن الحجاج بن خدّاش النسفي ، أبو إسحاق وكان قاضي نسف ، وكان من رواة الحديث ، ومن تصانيفه تفسير القرآن ، والمسند في الحديث ، وغيرها ، وتوفي عام 294 هـ - 906 م .

● ومن أهم معالم نسف :-

مدرسة خوجة عبد العزيز ، مدرسة ربيعة ، مسجد كوك كمباز ، النصب التذكاري للحرب العالمية الثانية .

زارها العديد من الرحالة العرب، وسجلوا عنها الكثير ، منها :

¹ - آثار البلاد وأخبار العباد - زكريا بن محمد القزويني - دار صادر - بيروت .

قال ابن حوقل : ونسف مدينه لها قهندز خراب وربض له أربعة أبواب فباب منها يدعى باب النجاريّه وباب يسمّى باب سمرقند ، وباب يسمّى باب كش ، وباب غوبذين وهى مدينه علي مدرج بخاري إلي بلخ في مستواره ، والجبال منها على مرحلتين فيما يلي كش والذي بينها وبين جبحون مفازه لا جبل فيها ، ولها نهر واحد يجرى في وسط المدينه وهو مجمع مياه كش ، فيسرع إلى العراء ودار الإمارة على شطّ هذا النهر بمكان يعرف برأس القنطر ، حبسها عند دار الإمارة ومسجد الجامع بناحيه باب غوبذين والمصلي بناحيه باب النجاريّه داخل الباب وأسواقها في الربض مجتمعة ما بين دار الإمارة ومسجد الجامع ، وليست لها قرى كثيرة ولا نواح على قدرها ومحّلها ولها منبران سوى المدينة أحدهما يزده والآخر كسبه ، ولها قرى ولا منابر فيها ويزده أكبر من نَسف، والغالب على قراهم المباخس وإن كانت لهم أسقاء فقليله، وليس بنسف ماء جار إلّا هذا النهر وينقطع في بعض السنة، وسقيهم بالنواضح لا بالسيح لمباقلهم وأجنّتهم، والغالب على نسف ونواحيها المضافة إليها الخصب والسعة.

قال المهلبى : نخشب كثيرة الماء والثمار وهى وبية ، وهى من أطراف بلاد ما وراء النهر وأمت بنخشب قريب من شهرين ، وخرج منها في كل فن جماعة لا يحصون.

قال المقدسى : يسمّونها نخشب ، نفيسة لها قهندز خراب وربض عامر في مستواه والنهر يشقّها ودار الإمارة على ضفّته عند رأس القنطرة ، ولها ربض الجامع فيه عند الأسواق وهى كثيرة الأعناب الجيّده والمزارع العذية الطيّبة كبيرة ، إلّا أن ماءها ضيّق ونهرها ينقطع .

قال الإدريسي : ومدينة نسف كبيرة في مستو من الأرض لها سور وربض كبير عامر يحيط به السور ، ولها أربعة أبواب ، وفي المدينة قهندز ليس بالحصين ولها بالربض مسجد جامع ، وأسواقها في الربض مجتمعة متصلة بين دار الإمارة والمسجد الجامع وليس لها كثير قرى ونواح والجبال منها على نحو مرحلتين شرقاً مما يلي كش ، ومنها في الجانب الغربي مفازة متصلة بنهر جبحون ، لا جبل فيها ولها نهر واحد يجري في وسط المدينة ودار الإمارة عليه ويتصل هذا النهر بها من كش ، فإذا خرج عن المدينة سقى الزارع منها وليس بنسف ورساتيقيها ماء جار إلّا هذا النهر وينقطع جريه في

السنين المحيلة ولهم مياه نابعة جارية تسقي الكثير من بساتينهم ومباقلهم ، والغالب على مدينة نسف الخصب والسعة والخفض والدعة وبها يجتمع طريق سمرقند بهذه الطريق ولها منبران سوى المدينة ويسمى أحدهما بزدة والثاني كسبة ، ومن مدينة نسف إلى ما يمرغ مرحلة ومنه إلى ميانكال مرحلة ومنه إلى فراجون وهي قرية عامرة ومنها إلى بخارا مرحلة

قال ياقوت الحموي : نخشب بالفتح ثم السكون ، وشين معجمه مفتوحه ، وباء موحدة : من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند ، وليست علي طريق بخاري ، فإن القاصد من بخاري إلى سمرقند ثلاث مراحل ، ينسب إليها الحافظ عبد العزيز بن محمد بن محمد ابن عاصم بن رمضان بن علي بن أفلح أبو محمد بن أبي جعفر بن أبي بكر النسفي النخشي العاصمي أحد الأئمة ، مات سنة 456 هـ ، قاله هبة الله الأصفهاني سمع أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عمر وأبا القاسم علي بن محمد الصحاف وأبا طاهر محمد بن أحمد بن عبد الرحيم الكاتب الأصبهاني ، وأبا طالب بن غيلان وأبا محمد الجوهري ، وأبا علي المذهب وأبا عبد الله الصوري وأبا العباس جعفر بن محمد المستغفري النخشي بها وقدم دمشق وحدث بها ، روى عنه عبد العزيز الكناني وأبو بكر الخطيب وغيرهما ، قال : ولم يبلغ الأربعين ومات بنخشب عام 452 هـ .

قال القزويني : مدينة مشهورة بأرض خراسان ، منها الأولياء والحكماء ، ينسب إليها الحكيم ابن المقفع الذي أنشأ بنخشب بئراً ، يصعد منها قمرٌ يراه الناس مثل القمر واشتهر ذلك في الآفاق ، والناس يقصدون نخشب لرؤيته ويتعجبون منه ، وعوام الناس يحسبونه سحراً ، وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر ؛ لأنهم وجدوا في قعر البئر طاساً كبيراً مملوءاً زئبقاً ، وفي الجملة قد اهتموا إلى أمر عجيب سار في الآفاق واشتهر حتى ذكره الناس في الأشعار والأمثال ، وبقي ذكره بين الناس .

وينسب إليها أبو تراب عسكر بن الحصين النخشي ، صاحب حاتم الأصم ، كان يقول : بيني وبين الله عهدٌ أن لا أمد يدي إلى حرام إلا وقد قصرت عنه ؛ حكي أنه دخل بادية البصرة يريد مكة ، فسئل عن أكله بمكة ، فقال : خرجت من البصرة فأكلت بالنباج ثم

بذات عرق ومن ذات عرق إليك ، وحكي عنه أنه قال : كنت في بعض أسفاري فاشتريت الخبز السميد مع بيض الدجاج ، فعدلت عن طريقي وقصدت قرية لتحصيل ذاك ، فإذا أنا في الطريق إذ تعلق بي شخص .

وقال : هذا لصّ قاطع الطريق ، أخذ مني متاعي في الطريق ، فحملوني إلى رئيس القرية فضربني سبعين خشبة ، فإذا رجل منهم عرفني .

وقال : هذا أبو تراب النخشي ، ليس من شأنه ما تدعون عليه ، فنزعني من يدهم وأدخلني بيته ، وجعل بين يدي الخبز السميد وبيض الدجاج .

فقلت لنفسي : خذ شهوتك مع سبعين خشبة ، وتبت أن أشتري بعد ذلك ، توفي عام خمس وأربعين ومائتين من الهجرة .

قال الإصطخري : وأما نسف فإنها مدينةٌ ولها قهندز وربض ولها أبواب أربعة وهي على مدرج بخارى وبلخ ، وهي في مستواه والجال منها على مرحلتين فيما يلي كش وأما ما بينها وبين جيحون فمأزة لا جبل فيها ، ولها نهر واحد يجري في وسط المدينة وهي مجمع مياه كش فيصير منها هذا النهر فيشرع إلى القرى ، ودار الإمارة على شط هذا النهر بمكان يعرف برأس القنطرة ، ولنسف قرى كثيرة ونواح ، ولها منبران سوى المدينة ، والغالب على قراها المباحس ، وليس بنسف ورساتيقها نهر جار غير هذا النهر ، وينقطع في بعض السنة ، ولها آبار تسقي بساتينهم ومباقلهم ، والغالب على نسف الخصب ، وقد خرج منها خلق كثير من العلماء ، منهم : أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج بن خدّاش النسفي ، كان من جلة العلماء وأصحاب الحديث الثقات كتب الكثير وجمع السنّة والتفسير ، وحدث عن قتية بن سعيد وهشام بن عامر الدمشقي وحرمله بن يحيى المصري ، روى عنه كثير من العلماء ، ومات عام 294 هـ .

قال عبد المومن البغدادي : نخشب بالفتح ، ثم السكون ، و شين معجمة مفتوحة ، و باء موحدة : من مدن بلاد ما وراء النهر ، بين جيحون وسمرقند ، وليست علي طريق بخاري فإن القاصد من بخاري إلي سمرقند يجعل نخشب على يساره ، وهي نسف نفسها التي تأتي ، بينها وبين سمرقند ثلاث مراحل .

قال عبد المومن البغدادي : نسف بالتحريك ، وآخره فاء : مدينة كبيرة كثيرة الأهل و الرستاق ، بين جيحون و سمرقند ، لها قهندز و ربض و أبواب أربعة ، وهي في مستواه و الجبال منها على فرسخين فيما يلي كش ، ولها قرى كثيرة ، وليس بها نهر جار سوى نهر يجري في وسط المدينة ، وينقطع في بعض السنة ، وزروعهم ، وبساتينهم على الآبار .

قال ابن بطوطة : وهي صغيرة تحفُّ بها البساتين والمياه ، فنزلنا بخارجها بدار لأميرها وعندي جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها إلى سمرقند لتلد بها فاتفق أنها كانت في المحمل فوضع الحمل وسافر أصحابنا من الليل وهي معهم والزاد وغيره من أسبابي وأقمت أنا حتى أرتحل نهاراً مع بعض من معي فسلكوا طريقاً وسلكت طريقاً سواها ، فوصلنا عشية النهار إلى محلة السلطان المذكور وقد جعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى بعض أصحابنا ما سدَّ جوعنا وأعارنا بعض التجار خباءً يتتا به تلك الليلة ، ومضى أصحابنا من الغد في البحث عن الجمال وباقي الأصحاب فوجدوهم عشياً وجأوا بهم ، وكان السلطان غائباً عن المحلة في الصيد فاجتمعتُ بنائبة الأمير تقبغا فأنزلني بقرب مسجده وأعطاني خرقة " خركاه " وهي شبه الخباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية في تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولوداً ، وأخبروني أنه وُلد ذكرٌ ولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرني بعض الأصحاب أن المولود بنت فاستحضرت الجواري فسألتهن فأخبروني بذلك وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد فرأيت كل ما يسرني ويرضي من ذل ولدت وتوفيت بعد وصولي إلى الهند بشهرين وسنذكر ذلك ، واجتمعت بهذا المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي " بالياء آخر الحروف والغين المعجمة " ، ومعناه بالتركية الثائر ، وهو من أهل أطرار وبالشيوخ صهر السلطان .

• خوقند :-

تقع مدينة خوقند ، في وادي فرغانة شرقي أوزبكستان ، وتبعد حوالي 228 كيلومتراً جنوب شرق طشقند ، ويرجع أصل اسمها إلي الكلمتين " خوا قند " ، أي مدينة الهواء أو الرياح ، ويتميز موقعها عند مفترق طرق للقوافل المارة بطريق الحرير القديم فالقادم من الشرق يمكنه التوجه منها إما إلى طشقند في الشمال الغربي ، أو إلى خوجند غرباً ، ويعود تاريخ قوقند إلى القرن العاشر الميلادي بحسب الرويات التي ذكرها من مر بطريق الحرير بين الهند والصين باسم خواقند .

بدأت المدينة الحديثة كقلعة عام 1709م عندما بناها الأمير شاه روخ من قبيلة منج الأوزبكية ، وذلك بعد إعلانه استقلاله عن خانية بخارى وإعلان خانية خوقند ، وعمل ابنه عبدالكريم ، وحفيده ناربوتا بك ، على توسيع القلعة لتصبح مدينة ، حيث تعاقب الحكام بعدهما عليها ، ولكن قبل سقوط طشقند في يدالروس خرج ابن من أبناء خوقند من طشقند بأمر حاكم خوقند " عالم قل " إلى كاشغر لمساعدة إخوانه في الثورة على الصينيين ، و في أثناء تواجد يعقوب بك هناك سقطت طشقند في يد الروس و قتل " عالم قل " ، وخرج كثير من أهل خوقند لمساعدة يعقوب بك في كاشغر حيث أنشأ دولة استمرت حتى عام 1877م .

ومن الأساطير الشائعة في خانية خوقند أسطورة " ألتن بيشيك " ، أو " المهدي الذهبي " والتي تقول إنَّ حاكم خانية قوقند الذي ينتمي إلى لعائلة التيمورية عن طريق بابر شاه عندما خرج من وادي فرغانة تركت عائلته مهدياً فيه طفلٌ رضيعٌ ، فأخذَ وربِّي وسمي ألتن بيشيك ، وعاش ما بين عام 918هـ / 1512 م ، وبين 952 هـ / 1545م ، وتظهر هذه الشخصية في عدة كتب تاريخية ، و خصوصاً في كتب القرن التاسع عشر ويدعون أن هذا الشخص هو مؤسس خانية خوقند ، وليس من المعروف صحة هذه الرواية التاريخية .

خلال الفترة من فبراير 1917 ، وديسمبر 1918 ، كانت خوقند عاصمة لتركستان ذات الحكم الذاتي " تركستان مللي مختار حكومتي " ، حيث تأسست هذه الدولة بعد اجتماع المجلس المركزي لتركستان في خوقند ومناقشة وضع المنطقة ، وخرج بهذا البيان

المجلس الإسلامي غير الاعتيادي الرابع ، يعبر عن رغبة شعب تركستان بحق تقرير المصير ، تماشياً مع المبادئ المعلنة للثورة الروسية العظيمة ، يعلن تركستان منطقة حكم ذاتي ، تحت الجمهورية الديمقراطية الفدرالية الروسية ، ويعهد بتشكيل الحكومة إلى التجمع التأسيسي لتركستان ، ويجب إنجاز هذه المهمة في أسرع وقت ، كما يعلن المجلس لجميع الأقليات في تركستان ضمان حقوقها بكل شكل تام .

تمّ تشكيل الحكومة ، وعُيّن محمد جان تانيشباييف رئيساً للوزراء ، وإسلام شاه أحمدوف نائباً له ، ومصطفى جوقاي وزيراً للخارجية ، وطالبت الحكومة الشعب بالخروج إلى الشوارع تأييداً لها ، حيث تمت المظاهرات في أندجان بنجاح ، ولكنها أدت إلى مصادمات في طشقند حين بلغت الأحياء الروسية ، وفي ما تبقى من عام 1918 واجهت الحكومة صعوبات مالية أعاققتها عن إكمال مسيرتها ، بالإضافة إلى المواجهات التي حدثت في خوقند نفسها بين أهالي خوقند القديمة ، والأحياء الروسية فيها ، مما أدى بالتالي إلى سقوط هذه الحكومة .

ومن أهم الآثار الباقية في خوقند هو قصر خدايار خان " خدايار ساراي " ، والذي بُني بين عام 1863 ، وعام 1870 ، حيث استُفدَ له فنانون ومعماريون من بخارى وخوارزم وبنى جزءاً آخر معماريون من رشتان ، ويتكون الجزء الأول من سبعة أفنية و 119 غرفة هُدم أكثرها خلال الغزو الروسي ولم يبق منه غير فناءان و 19 غرفة ، وزُيّنت البوابة الرئيسية باسم الحاكم العظيم خدايار خان ، وبعض آيات القرآن ، ويحتل القصر مساحة أربعة هكتارات ، وترتفع به أساساته 3 أمتار .

• نمنجان :-

مدينة **نمنجان** هي عاصمة الولاية التي تأخذ نفس الاسم ، وتعتبر نمنجان ثالث أكبر مدينة في أوزبكستان من حيث عدد السكان ، وتقع مدينة نمنجان على بعد 300 كيلومتراً شرق العاصمة طشقند ، وعلى ارتفاع حوالي 176 متراً فوق سطح البحر ، ويلتقي في طرفها الجنوبي نهرا **قاراداريا** ، و**نارين** ، ليشكلا معاً نهر **سيرداريا** " **سيحون** .

نشأت مدينة **نمنجان** بعد أن استوطنها الترك قادمين من مدينة أخسيكنت قسبة وادي فرغانة ، والتي دُمرت بعد زلزال عنيف ، يقال إن اسمها مأخوذاً من مناجم الملح المجاورة لها، وظلت نمنجان خلال فترة الاحتلال الروسي مركزاً دينياً، فأبقي فيها حوالي 20 مدرسة دينية ، 600 مسجد ، وقد ضربها زلزال عام 1926 دمر كثيراً من مبانيها .

وتعد **نمنجان** كسائر أراضي وادي فرغانة منطقة زراعية خصبة ، حيث تشتهر بإنتاج القطن والخضروات والفواكه ، وتشتهر بنوع من الأغنام تسمى أغنام " **أنقرة** " تربي لجزء صوفها ، ومن الحرف التقليدية في المنطقة غزل الحرير والقطن ودباغة الجلود وصناعة الأحذية الجلدية منها ، وصناعة السكاكين ، كما أن نمنجان غنية بالموارد الطبيعية أهمها النفط والغاز والذهب والرصاص والنحاس .

• أندجان :-

هي رابع أكبر مدينة في أوزبكستان ، وتقع في أقصى شرق البلاد ، علي بعد حوالي 175 كيلومتراً عن طشقند ، يمر بها نهر أندجان ساي ، وكانت أندجان نقطة توقف هامة على طريق الحرير القديم ، وقد تم تدميرها علي يد جنكيز خان ، وأعاد بناءها كايبدو خان في القرن الثالث عشر الميلادي ، وأصبحت بذلك عاصمة وادي فرغانة .

جميع سكان أندجان من العنصر التركي ، فالجميع يتكلم التركية الأوزبكية ، ولغتهم فصيحة ، وهي التي كتب بها الشاعر مير علي شير نوائي شعره على الرغم من أنه ولد ونشأ في هرات ، وقد قاومت أندجان الاحتلال القيصري الروسي بشدة ، حيث تزعم المقاومة عام 1898 ، الزعيم المتصوف مادالي محمد علي ، إلي أن تم اعتقاله وإعدامه مع عدد من الوطنيين الأوزبك الآخرين الذين طالبوا بحرية واستقلال بلادهم .

وتعتبر أندجان كغيرها من مدن وقرى وادي فرغانة مدينة زراعية مهمة ، حيث تُزرع فيها الحبوب ، وتُوجد فيها الفواكه بكثرة ، حيث تتميز بإنتاج الأعناب والبطيخ والحبوب والفواكه والخضروات ، كما تعد أدجان من أهم مناطق استخراج الطاقة والمعادن أهمها النفط والغاز الطبيعي والحديد ، ولذلك يوجد بها مصافي النفط ومصانع البتروكيماويات ، ومصانع المواد الغذائية ، كما تصنع في منطقة أسكا سيارات دايو في شراكة بين المصنع الكوري وأوزبكستان .

وتعتبر قلعة أندجان هي الأكبر في بلاد ما وراء النهر ، ولها ثلاثة أبواب ، ويقع حصنها في الطرف الجنوبي ، حيث يدخل الماء إليها من تسع قنوات ، ولكن لا يخرج منها أي شيء ، ومن أشهر من ولد في أندجان **ظهير الدين محمد بابر** ، مؤسس وباني الإمبراطورية المغولية في ما يعرف اليوم بالهند وباكستان و بنجلاديش ، و قد ذكرها في كتابه " بابر نامه " ، وكذلك من أعلامها الموسيقي **حسن خواجة** .

● شهرسبز :-

معناها " المدينة الخضراء " ، وتقع في محافظة قشقاداريا ، جنوب أوزبكستان ، وتبعد 80 كيلو متراً جنوبي مدينة سمرقند ، وهي علي ارتفاع 622 متراً عن مستوى سطح البحر ولها تاريخ عريق ، ترك بصماته الواضحة علي المدينة من خلال المعالم والآثار الموجودة فيها .

وُلد بها الأمير تيمور في 9 أبريل 1336 م ، والذي يعتبر أهم الشخصيات التي ولدت ونشأت في تلك المدينة ، وبعد أن اتخذ من سمرقند عاصمة لملكه ، ضمَّ إليه مدينة شهر سبز مسقط رأسه ، حيث شهدت فترة ازدهار وعمران كبيرة خلال حكم الأسرة التيمورية ، ثم دخلت المدينة تحت حكم الروس عام 1870 م .

يعود تاريخ مدينة شهرسبز إلى 2500 عام ، وكانت تعرف بالماضي باسم " كيش " ومعناها " محبوبة القلب " ، خضعت المدينة منذ القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد لحكم الأخمينيين ، ثم اجتاحتها الإسكندر المقدوني ، وأمضي فصل الشتاء فيها وقابل زوجته روكسانا عام 328 - 327 قبل الميلاد ، وأصبحت المدينة جزءاً من دولة سوقيديانا بين القرنين الرابع والثامن ، وخلال الفترة من عام 567 م ، إلى عام 658 م وكان حكام المدينة يدفعون الجزية إلى حكام الترك في تركستان الغربية ، وصل إليها العرب خلال حكم الدولة الأموية عام 710 م .

تضم مدينة شهرسبز العديد من الآثار المهمة ، والتي يعود معظمها إلي العصر التيموري حيث عاشت المدينة فترة مزدهرة من تاريخها ، انعكست بشكل كبير علي تاريخها الثقافي والحضاري ، وقد تم إدراج عدد من تلك الآثار إلي لائحة اليونسكو للتراث العالمي ، ومن هذه الآثار :

— قصر آق سراي : وهو قصر الأمير تيمور الصيفي ، ويسمى أيضاً بالقصر الأبيض وخطط له ليكون أكثر مباني الأمير تيمور فخامة ، وقد وُشِع في بنائه عام 1380 م علي يد فنانين وحرفيين تم جلبهم من خوارزم ، ولم يبق منه إلا بعض أجزاء من البوابة العملاقة التي يبلغ إرتفاعها خمسة وستون متراً ، وهي مزينة بالفسيفساء الأبيض

والأزرق والذهبي ، ويعلو البوابة كتابات بحروف كبيرة " إذا أنت تحديث قوتنا ، أنظر إلى بنايتنا "

— مسجد كوك قوباز " دار تيلي فات " : يعني " القبة الزرقاء " ، وهو مسجد جامع بناه ميرزا أولوغ بك عام 1437 م ، تكريمًا لأبيه شاه رخ التيموري ، ويقع خلف المسجد مباشرة بناية دار تيلي فات أي " دار الإصلاح " ، وهي مدرسة تخرج فيها العديد من العلماء العظام في العهد التيموري ، إضافة إلى وجود ضريح بناه أولوغ بك عام 1438 م ، ولكن الضريح لم يدفن فيه أحدٌ .

— مجمع حضرة إمام : يوجد إلى الشرق من كوك قوباز ، ويسمي مجمع " دار سعودات " ، ويتضمن المجمع ضريح " جهان شير " الابن الأكبر للأمير تيمور والذي كان يحظى بمكانة كبيرة لدي والده .

— قبر الأمير تيمور : اكتشف علماء الآثار سردابًا مغلقًا بأحد الأبواب خلف ضريح حضرة إمام ، يحتوي السرداب علي تابوت حجري منقوش عليه كتابات تشير إلى أنه مُعدّ للأمير تيمور ، ولكن الأمير تيمور دفن في سمرقند ، وقد وجد في التابوت الحجري علي جثمانين لم يتم التعرف علي هويتهما ، قد يكونا لاثنتين من القادة في عهد الأسرة التيمورية .

كما تضم مدينة شهرسبز بازارًا كبيرًا يعود إلى القرن الثامن عشر ، وحمامات أثرية يعود بعضها للأسرة التيمورية .

الباب الثاني



اسهامات علماء أوزبكستان في الحضارة الإسلامية

الفصل الأول

علماء الشريعة الإسلامية

● داود بن رشيد أبو الفضل الخوارزمي:—

هو داود بن رشيد أبو الفضل الخوارزمي ، المحدث والفقيه ، رحال جوال ، صاحب حديث¹.

● مولده ونشأته :

لم تذكر المصادر تاريخ مولده ، ولا الكثير عن نشأته ، سوى أن أباه " رشيد أبو الفضل " كان يعمل في بلاط الخليفة العباسي المنصور² ، وهذا ما جعل داود بن رشيد يرحل إلى بغداد ويتفقه علي علمائها ، بعدما نشأ في خوارزم ، حيث كانت بغداد في ذلك الوقت تمثل قلعة الثقافة الإسلامية باعتبارها عاصمة الخلافة ، وقد ساعدت الحياة التي نشأ فيها داود بن رشيد علي أن ينتقل ويرحل إلي كثير من مدن الخلافة الأخرى التي كانت زاخرة بالعلم والعلماء .

● شيوخه :—

سمع بِدِمَشْقَ : الوليد بن مسلم ، وأبا الزرقاء عَبْدُ الملك بْن مُحَمَّدَ الصنعاني ، وشعيب بن إسحاق ، وسويد بن عَبْدَ العزيز ، وعمر بن عَبْدَ الواحد ، والهيثم بن عمران ومروان بن معاوية ، رَوَى عنهم ، وعن عباد بْن العوام ، وأبي المليح الحسن بْن عمر الرقي ، وبقية ابن الوليد وصالح بن عمر الواسطي ، وحسان بن إبراهيم الكرمانى ، وأبي حفص عمر ابن عَبْدَ الرحمن الأبار ، وأبي غسان مُحَمَّد بن مطرف المديني ، وإسماعيل بن جعفر المديني ، إسماعيل ابن عليّة إسماعيل بن عياش ، حفص بن غياث ، خلف بن خليفة ، الربيع بن بدر ، زكريا بن عبد الله بن يزيد الصهباني ، زكريا بن منظور ، شعيب بن إسحاق ، صالح بن عمر الواسطي ، عبد الله بن جعفر بن نجيح المديني ، عبد الله بن كثير الدمشقي القارئ ، عبد الرحمن بن محمد الحاربي ، أبي الزرقاء عبد الملك بن محمد الصنعاني الدمشقي ، علي بن هاشم بن البريد ، عمر بن أيوب الموصلى ، عمر ابن عبد الرحمن أبي حفص الأبار ، عمر بن عبد الواحد الدمشقي ، محمد بن حمير الحمصى ، محمد بن ربيعة الكلابي ، محمد بن معاوية النيسابورى ، مروان بن معاوية الفزارى مطرف بن مازن ، معمر بن سليمان الرقي ، هشيم بن بشير ، الهيثم بن عمران العنسى ، يحيى بن

¹ - سير أعلام النبلاء - محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - مؤسسة الرسالة 2001 - القاهرة .

² - معجم البلدان - مرجع سابق .

زكريا بن أبي زائدة ، يحيى بن سعيد الأموي . وسمع داوود ابنه بحلب أبا سعيد عمر بن حفص وروى عنه وعن مجاعه بن الزبير وأبيه رشيد ، ومعمّر بن سليمان ، الوليد بن صالح ، ويزيد بن هارون ، ومحمد بن ربيعة ، ومروان بن معاوية ، عمر بن أيوب ، ووكيع بن الجراح ، وجماعة سوى هؤلاء¹.

• تلاميذه والرواة عنه :-

رَوَى عنه : أبو يحيى مُحَمَّد بن عَبْد الرحيم صاعقة ، وزهير بن مُحَمَّد بن فهر ، ومسلم ابن الحجاج في صحيحه ، أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي ، وأبو حاتم الرازيان ، وأبو العباس أَحْمَد بن خالد الدماغي ، وأحمد بن سهل بن بحر النيسابوري ، ومحمد بن نعيم وإبراهيم بن إسحاق الحربي ، ويعقوب بن شيبه بن الصلت السدوسي ، ونصر بن قتيبة ، وزكريا بن يحيى السجزي ، وعلي بن إبراهيم بن مطر السكري ، وأبو الأزهر صدقة ابن منصور بن مُحَمَّد الكندي الحاراني ، وأحمد بن الْحُسَيْن بن عَبْد الجبار الصوفي ، وإسحاق بن إبراهيم بن مُحَمَّد بن عرعرة ، وأبو مُوسَى عمران بن مُوسَى المؤدب ، وأبو القاسم البغوي ، وصالح بن مُحَمَّد جزرة وإبراهيم بن عَبْد الله بن الجنيد الختلي ، وعبد العزيز بن مُحَمَّد بن دينار الفارسي ، وأبو جعفر أَحْمَد بن مهدي بن رستم الأصبهاني².

وروى عنه أيضًا ، أبو بكر محمد بن خلف المعروف بوكيع ، وأبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا ، وعمر بن أيوب السقطي ، وأبو جعفر محمد بن عبيد الله بن المنادي ، وعبد العزيز بن محمد بن ناجية ، وإبراهيم بن عبد الله بن الجنيد ، وإبراهيم بن هانيء النيسابوري ، وعياش بن محمد بن عيسى الجوهرري ، وأبو عيسى موسى بن علي بن موسى الختلي ، وأبو القاسم عبد الله بن محمد عبد الله البغوي ، وأبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم المنجنيقي ، وأبو محمد بنان بن أحمد الدقاق ، وأبو عبد الله الحسين بن عبيد الله بن الخصيب الأبرازي ، وأحمد ابن سعيد المرندي وأبو علي حسن بن الهيثم الدويري ، وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن مطر السكري ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وأبو العباس أحمد بن خالد الدماغي ، وأبو بكر أحمد بن علي بن سعيد المروزي القاضي ، وأحمد بن علي بن الفضيل الخزاز ، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثني الموصلي

¹ - بغية الطلب في تاريخ حلب - عمر بن أحمد كمال الدين ابن العديم - تحقيق : د . سهيل زكار - دار الفكر - بيروت

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

وأحمد بن يعقوب المقرئ البغدادي ، و يقي بن مخلد الأندلسي ، وبنان بن أحمد القطان ، والحسن ابن سفيان ، والحسن بن علي المعمرى ، والحسن بن هارون بن سليمان الأصبهاني ، والحسين بن الفرّج ، وزهير بن محمد بن قمير المروزي ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وعبد الله بن أحمد بن أبي دارّة ، وعبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا ، وعبد الله بن محمد ابن ناجية ، والفضل بن العباس الرازي الحافظ ، المعروف بفضلك ، وأبو حاتم محمد بن إدريس الرازي ، ومحمد بن إسحاق الثقفي السراج ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، في غير " الجامع " ، ومحمد بن حاتم الإستراباذي ، وأبو بكر محمد بن الحسن بن الجنيد الفقيه ، وأبو يحيى محمد بن عبد الرحيم البزاز ، ومحمد بن هارون بن حميد بن الجدر ، والمهيشم بن خلف الدورى .

● من رواياته :-

روي أبو اليمان زيد بن الحسن الكندي قراءة عليه ، قال : أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن علي المقرئ قال : أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن النقر قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن الحسين بن عبد الله بن هارون الدقاق قال : أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد ابن عبد العزيز قراءة قال : حدثنا داوود بن رشيد أبو الفضل الخوارزمي قال : حدثنا وكيع بن الجراح عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : " تسموا باسمي ولا تكونوا بكيتي فإني أبو القاسم أقسم بينكم "

وروي أبو اليمان زيد بن الحسن وعمر بن محمد بن طبرزد إجازة منهما وأخبرنا عنهما سماعاً أبو الحجاج يوسف بن خليل بن عبد الله قال : أخبرنا علي بن هبة الله بن عبد السلام قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد البزاز قال : أخبرنا عمر بن إبراهيم بن أحمد قال : حدثنا عبد الله هو ابن محمد قال : حدثنا داوود هو ابن رشيد قال : حدثنا أبو سعيد عمر بن حفص لقيته بحلب عن أبي محمد الأنصاري الساعدي عن يزيد بن زيد عن أبي حميد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : " أبد المودة لمن واددت فإنها أثبت " .

أخبرنا أبو القاسم عبد الغني بن سليمان بن بنين الشافعي بالقاهرة قال : أنبأنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السبيي قال : أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الله بن الحسن التنيسي إجازة قال : أخبرنا أبو الحسن أحمد بن عبد الواحد بن أبي الحديد قال : أخبرنا جدي أبو بكر بن أبي الحديد قال : حدثنا أبو عبد الله يعني محمد بن يوسف بن بشر بن النضر ابن النضر بن

مرداس الهروي بدمشق قال : سمعت أحمد بن سعيد المروزي ببغداد يقول سمعت داوود بن رشيد يقول : كنت أستملي لإسماعيل بن إبراهيم بن عليّة فأكثر الناس الردّ فغضب وتكلمتُ، فقال لي إسماعيل : احتملهم فإن أولى الناس بالاحتمال أنا وأنت ، الرئاسة لها مؤونة .

أخبرنا أبو بكر عتيق بن أبي الفضل قال : أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن قال : أخبرنا أبو القاسم النسيب علي بن إبراهيم قال : أخبرنا رشاء بن نظيف ، وأخبرنا أبو القاسم عبد الغني بن سلمان بن بنين الشافعي بالقاهرة قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن حمد قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن الحسين الفراء إجازة قال : أخبرنا عبد العزيز بن الحسن بن إسماعيل قال : حدثنا أبو محمد الحسن بن إسماعيل قال : حدثنا أحمد بن مروان قال إسماعيل بن إسحاق السراج قال : حدثنا داود بن رشيد قال : كانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله .

روي أبو المعالي أحمد بن إسحاق ، أخبرك المبارك بن أبي الجود ، حدثنا أحمد بن أبي غالب الزاهد ، حدثنا عبد العزيز بن علي ، حدثنا أبو طاهر المخلص ، حدثنا عبد الله البغوي ، حدثنا داود بن رشيد ، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قلت : يا رسول الله ، علمني ما أدخل به الجنة ، ولا تكثر علي قال : " لا تغضب " .

روي أحمد بن محمد الحافظ ، وجماعة ، قالوا : أخبرنا أبو المنجي بن الليث ، وقرأت علي الأبرقوهي ، أخبرنا زكريا العلبي ، قال : حدثنا أبو الوقت السجزي ، أخبرتنا بيبى الهرثية ، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح ، أخبرنا عبد الله بن محمد ، أخبرنا داود بن رشيد أخبرنا عمر بن أيوب ، أخبرنا إبراهيم بن نافع ، عن سليمان الأحول ، عن طاوس ، عن عبد الله بن عمرو قال : رأي علي النبي ﷺ : ثوبين معصفرين ، فقال : أملك أنترك بهذا ؟ قلت : أغسلهما ؟ قال : أحرقهما "أخرجه مسلم عن داود . والإحراق هنا تعزير ولعل صبغهما كان لا يزول بالغسل كما ينبغي .

● مكانته عند العلماء :-

قال صالح بن محمد البغدادي : كان يحيى بن معين يوثقه.

قال محمد بن سعد : ثقة كثير الحديث.

قال أبو حاتم : صدوق.

قال الدارقطني : ثقة نبيل.

قال أحمد بن مروان الدينوري ، عن إبراهيم الحربي : حدثنا داود بن رشيد ، قال : قلت ليلة أصلي فأخذني البرد لما أنا فيه من العرى فأخذني النوم فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول لي : يا داود ، أئمناهم وأقمناك فتبكي علينا قال إبراهيم : فأرى داود ما نام بعدها . قال : سمعت إبراهيم يقول : سمعت داود ابن رشيد يقول : قالت حكماء الهند : لا ظفر مع بغي ، ولا صحة مع فهم ، ولا ثناء مع كبر ، ولا صداقة مع خب ، ولا شرف مع سوء أدب ، ولا بر مع شح ، ولا اجتناب محرم مع حرص ، ولا محبة مع هزؤ ، ولا ولاية حكم مع عدم فقه ، ولا عذر مع إصرار ، ولا سلم قلب مع الغيبة ، ولا راحة مع حسد ولا سؤدد مع انتقام ، ولا رياسة مع عزازة نفس وعجب ، ولا صواب مع ترك المشاورة ، ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة وزراء¹ .

روى له البخاري حديثاً ، كما روي له النسائي حديثاً آخر ، وقد وقع حديث البخاري عالياً جداً ، أخبر به أبو الحسن بن البخاري ، وأحمد بن شيبان ، وإسماعيل بن العسقلاني وزينب بنت مكي ، وفاطمة بنت علي بن عساكر قالوا : أخبرنا أبو حفص بن طبرزد ، قال : أخبرنا أبو القاسم بن الحصين ، قال : أخبرنا أبو طالب بن غيلان ، قال : أخبرنا أبو بكر الشافعي ، قال : حدثنا أحمد بن يعقوب المقرئ ، وعبد الله بن ناجية ، قالوا : حدثنا داود بن رشيد ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، عن أبي غسان محمد بن مطرف ، عن زيد بن أسلم ، عن علي بن حسين ، عن سعيد بن مرجانة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، قال : " مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ إِرْبٍ مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى بِالْيَدِ الْيَدِ ، وَبِالرَّجْلِ الرَّجْلُ ، وَبِالْفَرْجِ الْفَرْجُ " ، فقال له علي بن حسين : يا سعيد ، سمعت هذا من أبي هريرة ؟ قال : نعم . فقال لـ غلام له أقرب غلماناً ادع لي قبطياً . فلما قام بين يديه ، قال : اذهب فأنت حر لوجه الله رواه البخاري ، عن محمد ابن عبد الرحيم ، عن داود ، ورواه مسلم ، عن داود نفسه فوافقناه فيه بعلو ، وهو حديث عزيز² .

¹ - بغية الطلب في تاريخ حلب - مرجع سابق .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

● وفاته:—

توفي داود بن رشيد أبو الفضل الخوارزمي في السابع من شعبان عام تسع وثلاثين ومائتين ، وهو من أبناء الثمانين عامًا¹.

¹ - معجم البلدان - مرجع سابق .

• الدارمي السمرقندي :-

هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي التميمي السمرقندي . الحافظ ، الإمام العالم المفسر المحدث أحد الأعلام ، كان أحد المرتحلين في طلب الحديث ، وأحد الموصوفين بالحفظ والإتقان ، من أهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع ، وتفقه ، وصنف وحديث ، وأظهر السنة ببلده ، ودعا إليها . كان ثقة ، صادقاً ، ورعاً ، زاهداً ، استقضى على سمرقند فأبى ، فألح السلطان عليه حتى يقلده ، وقضى قضية واحدة ، ثم استعفى فأعفى ، وكان عاملاً فاضلاً فقيهاً¹ .

• مولده ونشأته :-

ولد الدارمي السمرقندي عام مائة وواحد وثمانين من الهجرة ، الموافق سبعمائة وسبع وتسعين من الميلاد في مدينة سمرقند ، من بني دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم² ، وهذه القبيلة التي أنجبت الفرزدق وغيره من أمراء البيان ، فالدارمي من سلالة عربية درجت على بناء أولادها بناءً إسلامياً .

قال إسحاق بن إبراهيم الوراق : سمعت عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي يقول : ولدت في السنة التي مات فيها ابن المبارك ، سنة إحدى وثمانين ومائة .

نشأ الدارمي في سمرقند ، فورث من الجو الطبيعي الهدوء والاتزان والروية والحلم وصفاء الفكر ، وبعد النظر ، فأصبح مفكراً كأحسن ما يكون المفكرون ، وفقياً عالمياً أحاط بأسرار الشريعة وألم بأصولها وأحكامها ، ونفذ بנفاذ بصيرته إلى بواطن الأمور فأدرك خوافيها .

سما الدارمي على شهوات البطن ، وجافى شهوات الغريزة ، وازدري الميل إلى المجد والغنى والجاه ، هانت عليه الدنيا ، فكان واحداً ممن جمع الله شملهم ، وجعل غناهم في قلوبهم فأنتمهم الدنيا وهي راغمة ، كان ركناً من أركان الدين وواحداً من أعظم حفظته أظهر السنة ببلده ، ودعا إليها ، وذب عن حريمها ، وقمع من خالفها ، تعلم في خراسان وزار الشام والعراق ومصر والحجاز .

¹ - تهذيب التهذيب - الحافظ أبي الفضل بن حجر العسقلاني - إعداد : إبراهيم الزيني ، عادل مرشد - دار الفكر - بيروت

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

جاء الدارمي عواصم العالم الإسلامي في عصره بعد أن أحاط بكل التيارات الفكرية في مسقط رأسه ، فقد زار خراسان وسمع فيها من عثمان بن بجلة ، ومحمد بن سلام وزار العراق وسمع من عبيد الله بن موسى ، وأبي نعيم ، وروح بن عبادة ، وعبدان وذهب إلى مصر وفيها سمع سعيد بن أبي مريم ، وأبا صالح ، وغيرهما ، ورحل إلى الحجاز فسمع من المقرئ ، والحميدي ، وابن أبي أويس ، وطبقتهم ، وعرج على الشام ، فسمع من محمد بن يوسف الفريابي ، وأبي اليمان ، وأبي مسهر ، وطبقتهم فكان رحمه الله كالنحلة لا يحط رحاله إلا على الزهرة الفواحة يمتص رحيقها ، ولذا فقد اتصل بكل ذي باع في ميدان سامق من ميادين المعرفة ، فذكر له المزي رحمه الله تعالى مائة وأربعة عشر شيخاً ، اختلفت مشاربهم وتنوعت معارفهم فتزود بعلومهم وخبراتهم في الحياة¹.

ويكفيه فخراً أن مسلماً روى عنه في صحيحه ، وأن البخاري شيخ الدنيا روى عنه في غير الصحيح².

● شيوخه :-

طاف الإمام الدارمي الأقاليم وجاب كثيراً من الأقطار طلباً للعلم ، واتصل بكل ذي باع في ميدان سامق من ميادين المعرفة ، فذكر له المزي رحمه الله تعالى مائة وأربعة عشر شيخاً ، اختلفت مشاربهم وتنوعت معارفهم فتزود بعلومهم وخبراتهم في الحياة وجمع معارف العصر وتمثلها فأصبح بالورع والتقوى آية ، وفي الفقه والعلم بحراً زاخراً ، وأصبح للزهد منارة ، فزار خراسان وسمع فيها من عثمان بن بجلة ومحمد بن سلام ، وزار العراق فسمع من عبيد الله بن موسى وأبي نعيم وروح بن عبادة وعبدان وذهب إلى مصر وفيها سمع سعيد بن أبي مريم وأبا صالح وغيرهما ، ورحل إلى الحجاز فسمع من المقرئ والحميدي وابن أبي أويس وطبقتهم ، وعرج على الشام فسمع من محمد بن يوسف الفريابي وأبي اليمان وأبي مسهر وطبقتهم .

¹ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال - الإمام الحافظ أبي الحجاج جمال الدين يوسف المزي - تحقيق : عمرو سيد شوقي

- دار الكتب العلمية - بيروت .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

كما روي " الدارمي " عن يزيد بن هارون ، ويعلى بن عبيد ، وجعفر بن عون وبشر ابن عمر الزهراني ، وأبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي ، وأخيه أبي بكر عبد الكبير ، ومحمد بن بكر البرساني ، ووهب بن جرير ، والنضر بن شميل ، وهو أقدمهم موتاً ، وأبي النضر هاشم بن القاسم ، وعثمان بن عمر بن فارس ، وسعيد بن عامر الضبيعي ، والأسود بن عامر ، وأحمد بن إسحاق الحضرمي ، وأبي عاصم ، وأبي المغيرة الخولاني ، وأبي مسهر الغساني ، ومحمد بن يوسف الفريابي ، وعبد الصمد بن عبد الوارث ، وأبي الوليد ، ومسلم ، وزكريا بن عدي ، ويحيى بن حسان ، ويثزل إلى دُحيم ، وخليفة ابن خياط وغيرهم .

● تلاميذه :-

مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وعبد بن حميد ، وهو أقدم منه ، ورجاء بن مرجي ، والحسن بن الصباح البزار ، ومحمد بن بشار بنادر ، ومحمد بن يحيى ، وهم أكبر منه ، وبقي بن مخلد وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، وصالح بن محمد جزرة ، وإبراهيم بن أبي طالب ، وجعفر بن أحمد بن فارس ، وجعفر الفريابي ، وعبد الله بن أحمد ، وعمر بن محمد بن بجر ، ومحمد ابن النضر الجارودي ، وعيسى بن عمر السمرقندي راوي " مسنده " عنه ، وغيرهم¹.

● مكانته عند العلماء :-

اتصف الدارمي السمرقندي بسعة حفظه وشدة ضبطه ، فكان حافظاً متقناً ضابطاً ، قال عنه محمد بن بشار : حَفَظَ الدُّنْيَا أَرْبَعَةَ ، أَبُو زُرْعَةَ فِي الرَّيِّ ، مُسْلِمٌ فِي نَيْسَابُورَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي سَمَرْقَنْدَ ، مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْمَاعِيلَ فِي بُخَارَى ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ : غَلَبَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِالْحِفْظِ وَالْوَرَعِ .

كما كان شغوفاً محباً لجمع الأحاديث في كتابه " السنن " ، فقد صَنَّفَ كتاب " السنن " الذي اشتهر عند المحدثين باسم " المسند " على خلاف اصطلاحهم ، رغم أنه مرتب على الأبواب الفقهية ، قال " الحافظ ابن حجر " وأما كتاب السنن ، المسمى باسم " مسند الدارمي " ، فإنه ليس دون " السنن " في المرتبة ، بل لو ضُمَّ إلى الخمسة ، لكان أولى من " ابن ماجه " ، فإنه أمثل منه بكثير .

¹ - تهذيب التهذيب - مرجع سابق .

قال محمد بن إبراهيم بن منصور الشيرازي : كان عبد الله بن عبد الرحمن على غاية من العقل والديانة، يضرب به المثل في الحلم والدراية والحفظ والعبادة والزهادة أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند ، وذبَّ عنها الكذب ، وكان مفسراً كاملاً ، وفقياً عالماً . وقال أبو حاتم بن حبان : كان الدارمي من الحفاظ المتقنين ، وأهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع ، وتفقه ، وصنف وحدث ، وأظهر السنة ببلده ، ودعا إليها ، وذبَّ عن حريمها ، وقمع من خالفها¹.

وقال أبو بكر الخطيب : كان أحد الرحالين في الحديث ، والموصوفين بحفظه وجمعه والإتقان له ، مع الثقة والصدق ، والورع والزهد ، واستقضي على سمرقند ، فأبى فألح السلطان عليه حتى يقلده ، وقضى قضية واحدة ، ثم استعفى ، فأعفى ، وكان على غاية العقل، ونهاية الفضل، يضرب به المثل في الديانة والحلم والرزانة ، والاجتهاد والعبادة ، والزهادة والتقل . وصنف " المسند " و " التفسير " ، و " الجامع " .

وقال محمد بن إبراهيم الفقيه السمرقندي : كنت عند أحمد بن حنبل فذكر الدارمي فقال: ذاك السيد.

وقال أحمد بن حامد السمرقندي : سمعت رجاء بن مرجا يقول: رأيت أحمد ، وإسحاق والشاذكوني ، وعلي بن المديني ، فما رأيت أحفظ من عبد الله الدارمي . قال الذهبي : قد كان الدارمي ركناً من أركان الدين².

قال الإمام أحمد : عرضت عليه الدنيا فلم يقبل . وقال : كان ثقة وزيادة . وقال : إنه إمام

قال محمد بن عبد الله بن نمير : غلبنا عبد الله بن عبد الرحمن بالحفظ والورع . وقال رجاء بن جابر المرجي : ما رأيت أحدا أعلم بحديث رسول الله ﷺ من عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي³.

¹ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال - مرجع سابق .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

³ - تهذيب التهذيب - مرجع سابق .

قال عبد الصمد بن سليمان البلخي ، سألت أحمد بن حنبل عن يحيى الحماني ، فقال : تركناه لقول عبد الله بن عبد الرحمن ، لأنه إمام¹

وقال إسحاق بن داود السمرقندي : قدم قريباً لي من الشاش ، فقال : أتيت أحمد بن حنبل فجعلت أصف له أبا المنذر ، وجعلت أمدحه ، فقال : لا أعرف هذا ، فقد طالبت غيبة إخواننا عنا ، لكن أين أنت من عبد الله بن عبد الرحمن ؟ عليك بذاك السيّد ، عليك بذاك السيّد .

روى نعيم بن ناعم ، قال : سمعت محمد بن عبد الله بن نمير يقول : غلبنا عبد الله بن عبد الرحمن بالحفظ والورع .

قال إسحاق بن إبراهيم الوراق : سمعت محمد بن عبد الله المخرمي يقول : يا أهل خراسان ما دام عبد الله بن عبد الرحمن بين أظهركم فلا تشتغلوا بغيره ، وقال : وسمعت أبا سعيد الأشج يقول : عبد الله بن عبد الرحمن إمامنا .

وقال محمد بن بشار : حَفَظَ الدُّنْيَا أَرْبَعَةً : أَبُو زُرْعَةَ بِالرَّيِّ ، وَمُسْلِمٌ بَنِيْسَابُور ، وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِسَمَرْقَنْدَ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بِخَارَى .

وروى إسحاق بن أحمد بن زبرك ، عن أبي حاتم الرازي ، قال : محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق ، ومحمد بن يحيى أعلم من بخراسان اليوم ، ومحمد بن أسلم أورعهم ، وعبد الله بن عبد الرحمن أثبتهم .

وروى عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبيه ، قال : عبد الله بن عبد الرحمن إمام أهل زمانه

وقال أبو حامد بن الشرقي : إنما أخرجت خراسان من أئمة الحديث خمسة : محمد بن يحيى ، ومحمد بن إسماعيل ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم ابن أبي طالب .

قال إسحاق بن إبراهيم الوراق : سمعت عبد الله بن عبد الرحمن يقول : ولدت في سنة مات ابن المبارك ، سنة إحدى وثمانين ومائة .

¹ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مصطفى بن عبد الله المشهور باسم حاجي خليفة - دار إحياء التراث العربي 1941 - بيروت .

وقال أحمد بن سيّار المروزي الحافظ : كان الدارمي حسن المعرفة، قد دوّن " المسند " و " التفسير " ¹.

● آثاره ومؤلفاته العلمية :-

من تدبر ما وصل إلينا من آثار الدّارمي ، يجده علماً شامخاً في معرفة الحديث روايةً ودرايةً ، ومرجعاً للأدلة ، وترجيحاً للأقوى .

عالماً بالناسخ والمنسوخ من الحديث ، فقيهاً دقيق النظر ، نافذ البصيرة ، وقّاد الذّهن يدرك أغوار النص وما يحمله في طياته وبين حنايا كلماته ، ذا شخصية قوية في القبول والرد والتعليل ، لذلك كان عالماً في اللغة غريبها وتراكيبها ، قادراً على تحديد معنى اللفظ في الإطار الذي ورد فيه هذا اللفظ ، مجتهداً ضليعاً ، وهو قبل ذلك علم سامق من أعلام الجرح والتعديل ومعرفة الرجال ، واسع الإطلاع على مذاهب المتقدمين ، وكان يتجنب القطع والجزم بالتحليل والتحريم ، فالدارمي موسوعي المعرفة ، وقد فقد الكثير من مؤلفاته ، ولم يصل لنا إلا القليل منها إذا ما قورن بغيره من أهل العلم أصحاب المصنفات ²، ومن هذه المصنفات التي ذكرها العلماء :-

تفسير القرآن الكريم

سنن الدارمي

المسند

الجامع الصحيح

● ومن حديثه :-

أخبرنا عمر بن محمد الفارسي، والحسن بن علي، وهديّة بنت علي بن عسكر ، وجماعة وابن الحُبوبي ، قالوا : أخبرنا عبد الله بن عمر الحريمي ، أخبرنا عبد الأول بن عيسى أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، أخبرنا عبد الله بن حمويه ، أخبرنا عيسى بن عمر بن العباس ، حدثنا عبد الله الدارمي ، حدثنا يحيى بن حسان ، حدثنا سليمان بن بلال، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : "نَعَمْ الْإِدَامُ الْخَلُّ" هذا

¹ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مرجع سابق .

² - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مرجع سابق .

حديث صحيح غريب، فرد على شرط الشيخين ، وانفرد مسلم به . ورواه أيضاً أبو عيسى في " جامعہ " ، كلاهما عن أبي محمد الدارمي ، فوق موافقة بعلو . وقد كان الدارمي يقصد في رواية هذا الحديث لتفرده به . قال : فكان يدق علي الباب وأنا ببغداد ، فأقول : مَنْ ذا ؟ فيقال : يحيى بن حسان : " نِعَمُ الْإِدَامُ الْخُلُ " وبهذا الإسناد عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال : " لَا يَجُوعُ أَهْلُ بَيْتِ عِنْدَهُمُ التَّمَرُ " أخرجه مسلم ، والترمذي ، جميعاً عن الدارمي .

أخبرنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن أيوب ، وإسماعيل بن أمية ، وعبيد الله ، وموسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : " قَطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَجَنِّ قِيمَتُهُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ " ، رواه مسلم عن الدارمي . وبه : أخبرنا أبو علي الحنفي ، حدثنا مالك ، عن أبي الزبير ، أن أبا الطفيل ، أخبره ، أن معاذ بن جبل أخبره ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك ، فكان يَجْمَعُ الصَّلَاةَ ، يُصَلِّي الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا . ثم دخل ثم خرج بعد ذلك ، فَصَلَّى الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا مسلم عن الدارمي .

أخبرنا عمر بن محمد ، وسليمان بن قدامة ، وأحمد بن مكثوم ، ومحمد بن عبد الغني الذهبي ، ومحمد بن حمزة ، وسنقر الزيني ، وعبد العالي بن عبد الملك ، ومحمود بن يوسف ، وعبد الحميد بن أحمد ، وإسماعيل بن يوسف ، وعبد الأحد التيمي ، وإبراهيم بن صدقة ، وأحمد بن محمد الحافظ ، وأحمد بن نعمة ، وحسن بن علي ، وهدي بنت علي ، وعيسى بن أبي محمد ، وعبد الرحمن بن عقيل الخطيب ، قالوا : أخبرنا أبو المنجي عبد الله بن عمر ، أخبرنا أبو الوقت السَّجَزِيُّ ، أخبرنا أبو الحسن الداودي أخبرنا أبو محمد ابن حمويه ، أخبرنا عيسى بن عمر ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حميد ، عن أنس : أن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن عوف ، ورأى عليه أثرًا من صُفْرَةٍ : مَهْمَ ؟

قال : تَزَوَّجْتُ . قال : أُولِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ أخرجه البخاري وغيره¹ .

¹ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال - مرجع سابق .

أخبرنا عمر بن محمد ، وسليمان بن أبي عمر ، وهديّة بنت علي ، قالوا : أخبرنا أبو المنجى ، أخبرنا أبو الوقت ، أخبرنا الداودي ، أخبرنا ابن حمويه ، أخبرنا عيسى بن عمر حدثنا أبو محمد الدارمي ، أخبرنا عبيد الله بن عبد المجيد ، حدثني عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب ، أخبرني نافع بن جبیر ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : **الْأَيُّمُ أَمْلَكُ بِأَمْرِهَا مِنْ وَلِيِّهَا ، وَالْبَكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا ، وَصَمْتُهَا إِقْرَارُهَا .**

● وفاته :-

توفي الدارمي السمرقندي في مسقط ، يوم التروية بعد العصر ، ودفن يوم عرفة يوم الجمعة ، سنة خمس وخمسين ومائتين ، عن عمر خمس وسبعين سنة ، ولما وصل كتاب نعيه إلى البخاري نكس رأسه ، ثم رفع واسترجع ، وجعلت تسيل دموعه على خديه¹.

قال إسحاق بن أحمد بن خلف : كنا عند محمد بن إسماعيل البخاري ، فورد عليه كتاب فيه نعيُّ عبد الله بن عبد الرحمن ، فنكس رأسه ، ثم رفع واسترجع ، وجعل تسيل دموعه على خديه ، ثم أنشأ يقول :

إِنْ تَبَقَّ تَفَجَّعَ بِالْأَحَبَّةِ كُلِّهِمْ وَفَنَاءَ نَفْسِكَ لَا أَبَا لَكَ أَفْجَعُ

ثم قال إسحاق : ما سمعناه ينشد إلا يجيء في الحديث ، وإنه بالفعل لجدير بأن يبكيه علم الأعلام ، تلميذه البخاري عليهما رحمة الله تعالى .

¹ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال - مرجع سابق .

• الإمام البخاري: -

هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بردزبة¹ الجعفي ، البخاري من أهم علماء الحديث وعلوم الرجال والجرح والتعديل والعلل ، وأحد كبار الحفاظ عند أهل السنة والجماعة ، فهو صاحب كتاب " الجامع الصَّحِيح " المعروف باسم " صحيح البخاري " الذي يعتبر أوثق الكتب الستة الصَّحاح والذي أجمع عليه علماء أهل السنة والجماعة بأنه أصح كتب الحديث النبوي الشريف².

• مولده ونشأته :-

وُلِدَ الإمام البخاري يوم الجمعة الثالث عشر من شوال سنة أربعة وتسعين ومائة من الهجرة ، الموافق 20 يوليو 810 م ، في مدينة بخاري ، مات أبوه وهو صغير، فنشأ يتيمًا في حجر أمه³ ، وكان والده إسماعيل عالماً مصلاً تقيًا عاملاً ورعاً. تقابل مع إمام المدينة مالك ابن أنس سنة 179 هـ حينما خرج إسماعيل حاجًا . كذلك رأي حماد بن زيد .

وصافح عبد الله بن المبارك .

وحَدَّث عن أبي معاوية بن صالح .

وروي عنه أحمد بن حفص وجماعة من أهل العراق .

أسلم جدُّه المغيرة علي يد اليمان الجعفي والي بخاري ، فانتمي إليه .

وبارك الله هذه الصلة بين الأُسرتين ، فكان عبد الله المسندي بن محمد بن جعفر بن

اليمان — حفيد اليمان شيخاً للإمام البخاري ، كما كان أحميد بن أبي جعفر الجعفي والي

بخاري — راويًا للبخاري⁴.

وكان إسماعيل — والد الإمام البخاري راويًا للحديث، ثقةً ، ترجم له ابن حبان في كتاب

" الثقات " .

¹ - بردزبة كلمة فارسية تعني الفلاح أو البستاني .

² - الترغيب والترهيب - المنذري - ضبطه : مصطفى محمد عمارة - دار الحديث - الطبعة الأولى 1987 - القاهرة

³ - فتوح البلدان - مرجع سابق .

⁴ - تاريخ اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي - تحقيق : عبد الرضا مهنا - منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - الطبعة الأولى 1993 - بيروت .

فكان ورعاً، يبتعد عن الشبهات ، وكان ذو ثروة طاهرة من كل شبهة ، لذا كان قرير العين حتي مات ، وقد روي أحمد بن حفص قال : " دخلت عليه عند موته فقال : لا أعلم في جميع مالي درهماً من شبهة ، فتصاغت إلي نفسي " . لقد غُذي محمد بن إسماعيل بالحلال . فبارك الله له في عمله . أصيب محمد بن إسماعيل في بصره وهو صغير ، فرأت أمه في منامها إبراهيم الخليل يقول : يا هذه ، قد ردّ الله على ولدك بصره بكثرة دعائك (أو قال : بكائك) فأصبح بصيراً.

عاش البخاري في عصر الإمارة الطاهرية ، وهي أولى الإمارات شبه المستقلة ، التي نشأت في المشرق الإسلامي عام 205هـ حتى سقوطها عام 259هـ ، ولم يكن نشوءها نتيجة تمرد سياسي ، أو ثورة دينية أو عصيان اجتماعي ، بل نشأت بمحض اختيار الخليفة المأمون " 198 - 218هـ " عن طريق التعيين¹ ، حيث تزامنت سني عمر البخاري مع حكم خمسة من الأمراء الطاهريين ، طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق " 205 - 207هـ " ، طلحة بن طاهر بن الحسين " 207 - 213هـ " ، عبد الله بن طاهر بن الحسين " 213 - 230هـ " ، طاهر بن عبد الله بن طاهر " 230 - 248هـ " ، محمد بن طاهر بن عبد الله " 248 - 259هـ "².

شهد البخاري مدة تاريخية من العصر العباسي الأول مليئة بالأحداث السياسية منها سيطرة الأتراك على زمام السلطة في زمن المعتصم³ ، وتوزع العلماء في مساجد بغداد ومدارسها يعلمون الناس العلم ويتدارسون بينهم مختلف العلوم : التفسير ، والقراءات والحديث ، والفقه ، والمنطق ، واللغة ، والأدب ، والنحو ، والبيان ، والتاريخ والجغرافية ، والفلسفة ، والموسيقى ، والطب ، والهندسة ، والكيمياء⁴

كما عاصر الإمام البخاري من خلفاء بني العباس كلا من ، الأمين " 193 — 198هـ — والمأمون " 198 — 218هـ " ، والمعتصم " 218 — 227هـ " ، والواثق " 227 — 232هـ "

¹ - دراسات في العصور العباسية المتأخرة - عبد العزيز الدوري - مطبعة السريان 1945 - بغداد .

² - تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي - خليل إبراهيم السامرائي ، وآخرون - مديرية دار الكتب والطباعة والنشر - الطبعة الثانية 1988 - الموصل .

³ - الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة - فاروق عمر فوزي - مطابع دار الخليج 1983 - الشارقة

⁴ - العصر العباسي الأول - عبد العزيز الدوري - دار الطليعة - الطبعة الثالثة 1997 - بيروت

والمتموكل " 232 - 247 هـ " ، والمنتصر " 247 - 248 هـ " ، والمستعين " 248 - 252 هـ " والمعتز " 252 - 255 هـ " ، والمهتدي " 255 - 256 هـ " ¹

● نبوغه المبكر :-

ظهرت علامات النجابة ، وآيات الذكاء ، ودلائل العبقرية واضحةً جليلاً علي الإمام في وقت مبكر ، وكان من آيات ذلك حفظه الحديث بإتقان ، فتفوق على أقرانه ، وصاروا يتتلمذون على يديه ، ويحتفون به في البلدان .

فقد رُويَ أن أهل المعرفة من البصريين يعدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يُغلبوه على نفسه ويُجلسوه في بعض الطريق ، فيجتمع عليه ألوف ، أكثرهم ممن يكتب عنه ، وكان شاباً لم يخرج وجهه ² .

حدث محمد ابن أبي حاتم الوراق النحوي قال : قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث ؟

قال : ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب .

قال : كم أتى عليك إذ ذاك ؟

قال : عشر سنين أو أقل .

وحين بلغ سنَ الحادية عشرة ، كبرت همتهُ وسمت ، فبعد أن قرأ الكتب طلب أفاقاً أرحب لتغني نفسه ، وتشبع نهمة الجارف للعلم ، فبدأ يتردد علي أئمة الحديث من مواردهم ، ويقف هؤلاء الأئمة مواقف تدل علي ثقته بنفسه ، فيصحح لأستاذ له ما يخطئ فيه ، مما يجعل أستاذه يسلم له ، ويصحح ما عنده ، معترفاً بالدقة والإتقان ويحدث البخاري عن هذه المرحلة من حياته فيقول : ثم خرجت من الكتاب بعد العشر أختلفُ إلي الداخلي وغيره .

فقال يوماً كان يقرأ علي الناس : سفيان عن أبي الزبير المكي عن إبراهيم النخعي .

فقلت له : يا أبا فلان : إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم . فأنتهرني . **فقلت له :** ارجع

إلي الأصل إن كان عندك ، فدخل ، ونظر فيه ثم خرج فقال : كيف هو يا غلام ؟

¹ - العالم الإسلامي في العصر العباسي - أحمد حسن محمود - دار الفكر العربي 1966 - القاهرة .

² - المسالك والممالك - عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة - دار إحياء التراث العربي - الطبعة الأولى 1988 - القاهرة .

فقلت : هو الزبير بن عدي عن إبراهيم .

فأخذ القلم مني وأحكم كتابه .

وقال صدقت : فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت إذ رددت عليه ؟

فقال : ابن إحدى عشرة

رُويَ عن يوسف بن موسى المروزي قال: كنت بالبصرة في جامعها، إذ سمعت منادياً ينادي : يا أهل العلم ، قد قدم محمد بن إسماعيل البخاري، فقاموا في طلبه، وكنت معهم ، فرأينا رجلاً شاباً يصلّي خلف الأسطوانة ، فلما فرغ من الصلاة أحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلس الإملاء .

فأجابهم . فلما كان الغد اجتمع قريبٌ من كذا كذا ألف ، فجلس للإملاء ، **وقال :** يا أهل البصرة ، أنا شاب ، وقد سألتُموني أن أحدثكم وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدون منها .

ويقول أبو بكر بن منير : سمعت محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم بن المغيرة الجعفي **يقول :** كنت عند أبي حفص أحمد بن حفص ، أسمع كتاب الجامع — جامع سفيان — في كتاب والدي فمر أبو حفص علي حرف لم يكن عندي فراجعته . **فقال** الثانية كذلك فراجعته الثانية ، **فقال** كذلك فراجعته الثالثة ، فسكت سوية ثم **قال :** من هذا ؟

قالوا : هذا محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة ، فقال أبو حفص : هو كما قال .
احفظوا عنه فإن هذا يوماً يصير رجلاً .

وقد ظن البعض — **لشدة حفظه وإتقانه** — أنه شرب دواء للحفظ فقد أذهل العلماء بحفظه للحديث وقوة ذاكرته ونبوغه، حتي قال له **روّاه محمد بن أبي حاتم :** هل من دواء للحفظ؟

فقال : لا أعلم، ثم أقبل عليّ **فقال :** لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر .

ومما يدل علي شدة حفظه ، وتيقظ ذاكرته ، وما آتاه الله من قدرة علي الاستيعاب والحفظ والإدراك أن عشرة رجال دفع إليه رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك علي البخاري ، وأخذوا العدة للمجلس . فحضر المجلس جماعة

من أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها من البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله ، انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث .
فقال البخاري : لا أعرفه .

فسأله عن آخر فقال : لا أعرفه .

فمال زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتي فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : لا أعرفه فكان الفهماء ممن حضروا المجلس يلتفت بعضهم إلي بعض ويقولون : الرجل فهم . ومن كان منهم غير ذلك يقضي علي البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم . ثم انتدب آخر من العشرة فسأله والبخاري يقول : لا أعرفه .

ثم انتدب ثالث ورابع إلي تمام العشرة حتي فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة والبخاري يجيبهم : لا أعرفه .

فلما علم البخاري أنهم فرغوا التفت إلي الأول منهم فقال : أما حديثك الأول فهو كذا والثاني فهو كذا والثالث والرابع علي الولاء حتي أتني علي تمام العشرة فردّ كلّ متن إلي إسناده ، وكلّ إسناده إلي منته ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، ورد متون الأحاديث كلها إلي أسانيدها ، وأسانيدها إلي متونها ، فأقرّ الناس بالحفظ ، وأدعوا له بالفضل¹ .

● رحلاته في طلب العلم :-

كان من الممكن ، بعد أن حصل البخاري من كتب والده ، وما سمعه من شيوخ بلده وأئمة الحديث فيه ، أن يقتصر علي ذلك ويصبح من أئمة عصره ، غير أن استعداده الفطري ، وفهمه العلمي الذي لا يشبع حبه للعلم ، كل ذلك دفعه إلي أن يشد الرمال في الطلب ، وأن يطوّف الدنيا طالباً للحديث ورجاله .

فبدأ رحلته إلي مكة المكرمة في موسم الحج ، وكان يصحب فيها أمّه ، وأخاه أحمد الذي يكبره سنّاً ، وكان ذلك في سنة 216 هـ . وبعد أن أتمّ حجّه رجّع أخوه بأمّه وتخلّف هو في طلب الحديث ، فسمع من أئمة مكة ، ثم شدّ رحاله إلي مدينة رسول الله وزار قبر النبي ﷺ ، وكانت زيارة خير وبركة ظهرت آثارها علي الإمام البخاري إذ

¹ - طبقات الشافعية - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي - تحقيق : د . محمود محمد الطناحي ، د . عبد الفتاح محمد الحلو - دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع 1413 هـ - الرياض .

دخل بعدها في طور جديد ، هو التأليف والإبداع ويقول في ذلك : فلما طعنت في ثمانى عشرة سنة صنفت " قضايا الصحابة والتابعين " ثم صنفت " التاريخ " في المدينة عند قبر النبي ﷺ ، وكتبته في الليالي المقمرة ، وقل اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة ، إلا أنني كرهت أن يطول الكتاب ¹.

مكث الإمام البخاري بالمدينة سنة ، ثم أخذ بعد ذلك يطوَّف الدنيا ، وينتقل من بلد إلى بلد باحثاً عن الحديث ورجاله أينما كانوا ، ويقول : وأقمت بالبصرة خمس سنين مع كتبي أصنف وأحج ، وأرجع من مكة إلى البصرة ، ودخلت الشام ومصر والجزيرة مرتين و البصرة أربع مرات ، وأقمت بالحجاز أعواماً ، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين .

وأراد أن يرحل إلى اليمن لمقابلة عبد الرازق — صاحب المسند — ولكنه علم أنه قد مات، فتأخر عن التوجه إلى اليمن .

● شيوخه :-

وضع الإمام البخاري لنفسه منهجاً في الاختلاف ، فلم يكن يقبل إلا علي من يده ثقة وقد كتبت عن ألف وثمانين نفساً ، ليس فيهم إلا صاحب حديث ² ؛ ولذلك كان اهتمامه الشديد بمعرفة حال الرواة ، وكيفية تلقيهم للحديث ، وذلك حتي يطمئن إلي الأخذ عنهم ولذلك كان شيوخه أفذاذ ثقات .

وأهمية الشيخ عند الإمام البخاري تختلف بحسب الاعتبار: فقد تكون الأهمية بسبب مكانة الشيخ العلمية الرفيعة ، وقد تكون بسبب إكثار البخاري عن ، وقد تكون بسبب علو سنده وقد تكون بسبب تأثر البخاري به كثيراً، وقد يجتمع في الشيخ أكثر من اعتبار واحد ³.
أمّا شيوخه الذين أكثر عنهم جداً في الصحيح ، ولهم عنده أكثر من مائة رواية فهم : عبد الله بن يوسف التنيسي ، وقد فاقت رواياته عنه الثلاثمائة رواية ، علي بن عبد

¹ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - حسن إبراهيم حسن - دار إحياء التراث العربي - الطبعة السابعة 1966 - القاهرة .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

³ - الكامل في التاريخ - أبو الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير - تحقيق : محمود يوسف الدقاق - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى 1987 - بيروت .

الله المديني فاقت مروياته المائتين ، أبو اليمان الحكم بن نافع ، موسى بن إسماعيل التبوذكي ، عبد الله بن محمد المسندي ، أبو نعيم الفضل بن دكين ، محمد بن بشار المعروف ببندار ، قتيبة بن سعيد سلمان بن حرب ، أبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي ، محمد بن المثنى .

أما المتوسطون : وهم من لهم دون المائة رواية وأكثر من خمسين ، فهم : عبد العزيز بن عبد الله الأويسى ، عبد الله بن الزبير الحميدي ، إبراهيم بن موسى ، إبراهيم بن المنذر ، محمد ابن يوسف الفريابي ، محمد بن كثير ، حفص بن عمر .

ومن أهم شيوخه الذين بلغوا رتبة الإمامة في العلم والدين : الإمام أحمد بن حنبل وإن لم يرو عنه في الصحيح وإسحاق بن راهويه روى عنه نحو الثلاثين رواية ، وأحمد بن صالح المصري ، وأبو نعيم الفضل بن دكين وغيرهم . ولعل أعظمهم تأثيراً في نفس الإمام البخاري وشخصيته ، وأجلهم مرتبة عنده هو الإمام علي بن المديني ، حيث قال البخاري فيه : " ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني ¹ .

وقد تنقل الإمام البخاري بين الأقطار والمدن حيثما تواجد العلماء والشيوخ للأخذ عنهم ففي مكة ، لقي أبا الوليد بن محمد الأزرق ، وعبد الله بن يزيد المقرئ ، وإسماعيل بن سالم الصائغ ، كما سمع بمكة أيضاً من أبي بكر الحميدي عبد الله بن الزبير القرشي الأسدي ، أجل أصحاب الشافعي .

وفي المدينة النقي ، إبراهيم بن المنذر الحزامي ، ومطرف بن عبد الله بن حمزة وأبي بن ثابت محمد بن عبد الله ، وعبد العزيز بن عبد الله الأويسى ، ويحيى بن قزاعة . وفي الشام لقي محمد بن يوسف الغريابي ، وهو من أوائل مصنفى المسانيد وأبا نصر اسحاق بن إبراهيم ، وآدم بن أبي إياس ، وأبا اليمان بن نافع ، وحيوة بن شريح ، وخطاب بن عثمان ، وسليمان بن عبد الرحمن ، وأبا المغيرة عبد القدوس . وفي بخاري ، محمد بن سلام البيكندي ، ومحمد بن يوسف ، وعبد الله بن محمد المسندي ، وهارون بن الأشعث ، وغيرهم ، وفي " مرو " ، علي بن الحسن بن شقيق

¹ - التذكرة - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي - تحقيق : د . الصادق بن محمد بن إبراهيم - مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى 1425 هـ - الرياض

وعبد الله بن عبد الله بن عثمان ، ومحمد بن مقاتل ، وعبد بن حكيم ، ومحمد بن يحيى الصائغ ، وحبان بن موسى . وفي " بلخ " مكي بن إبراهيم ، ويحيى بن بشر ومحمد بن أبان ، والحسن بن شجاع ويحيى بن يحيى التميمي ، وبشر بن الحكم واسحاق بن إبراهيم الحنظلي - ابن راهوية - ، ومحمد بن رافع ، وأحمد بن حفص ومحمد بن يحيى الذهلي . وفي الري " ، إبراهيم بن موسى .

وفي بغداد ، محمد بن عيسى الطباع ، ومحمد بن سابق ، وشريح ، وأحمد بن حنبل الإمام ، وأبا بكر بن الأسود ، وإسماعيل بن الخليل ، وأبا مسلم عبد الرحمن بن أبي يونس ، والمستملي وغيرهم . وفي " واسط " ، حسان بن عبد الله ، وسعيد بن عبد الله بن سليمان ، . وفي " البصرة " ، أبا عاصم النبيل ، وحسان بن حسان ، وصفوان بن عيسى ، وبدل بن المحبر ، وحرمي بن حفص ، وعفان بن مسلم ، ومحمد بن عرعة ، وسليمان بن حرب ، وأبا حذيفة النهري ، وأبا الوليد الطالسي ، وعارم " محمد بن الفضل " ، ومحمد بن سنان .

وفي " الكوفة " عبيد الله بن موسى ، وأبا نعيم ، وأحمد بن يعقوب ، وإسماعيل بن أبان ، والحسن بن الربيع ، وخالد بن مخلد ، وسعد بن حفص ، وطلق بن غنام وعمرو بن حفص ، وعروة بن أبي مريم ، وعبد الله بن صالح ، وأحمد بن صالح وأحمد بن شبيب ، واصبغ بن الفرغ ، وسعيد بن عيسى ، وعيسى بن كثير بن عفير ، ويحيى بن عبد الله بن بكير . وفي " الجزيرة " أحمد بن عبد الملك الحراني ، وأحمد بن يزيد الحراني ، وعمرو بن خلف ، وإسماعيل بن عبد الله الرقي .

ويتبين من خلال هؤلاء الشيوخ أنهم كان يُشار إليهم بالبنان ، وقد اعترفوا بفضله ومكانته ودقة حفظه واتقانه ، وأثنوا عليه ، وقدموه ، وصححو عنه ، لكن هناك بعضاً من شيوخ الإمام البخاري الذين كان يقرُّ لهم البخاري بالفضل ويثني عليهم . ومنهم :

— علي بن المديني : قال السراج ، قلت للبخاري : ما تشتهي ؟

قال : أن أقدم العراق ، وعلي بن عبد الله المديني حيٌّ فأجالسه .

وقال البخاري : ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني .

وكان ابن المديني يقدّر تلميذه البخاري ، وشهد له شهادة ممتازة حين قال فيه : هو ما رأي مثل نفسه .

— الإمام أحمد بن حنبل : قال محمد بن أبي حاتم ورّاق البخاري : سمعت البخاري يقول : دخلت بغداد ثماني مرات ، كل ذلك أجالس أحمد بن حنبل . فقال لي آخر ما ودعته : يا أبا عبد الله : تترك العلم والناس وتصير إلي خراسان ؟ فأنا الآن أذكر قول أحمد .

وقد تأثر البخاري بابن حنبل في صحيحه .
كما التزم البخاري منهج الإمام أحمد وورعه في الإنكار علي من يتكلم في القرآن وإن كان اتهمه البعض فإنما لم يعوا قوله .

— الإمام إسحاق بن راهويه : كان إسحاق ابن راهوية ، سبباً من أسباب تصنيف البخاري للجامع الصحيح .

فقد روي إبراهيم بن معقل النسفي قال : قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : كنت عند إسحاق بن راهويه فقال : لو جمعت كتاباً في مختصر الصحيح سنة رسول الله ﷺ . قال : فوقع ذلك في قلبي ، فأخذت في جمع الجامع الصحيح .

وكان التشابه بين الشيخ ابن راهويه والتلميذ البخاري واضحاً في منهج كل منهما المتمثل في تقنية الحديث ونفده متناً وإسناداً، وكذا استنباط فقه الحديث . مما يدل علي تأثر البخاري بابن راهويه .

— يحيى بن معين : تأثر به البخاري في العلل والجرح والتعديل . كما كان مثلاً رائعاً في الورع والتقوي وتأسي به تلميذه البخاري وأخذ عنه .

هؤلاء بعض شيوخه الذين تأثر بهم ، وشهد لهم بالفضل ، وشهدوا له بالعلم ، وأنشوا عليه ووضعوه في منزلة عالية رفيعة .

أخلاق الإمام البخاري :

كان الإمام البخاري غيوراً علي دين الإسلام ، محباً لسنة رسول الله ﷺ مقتدياً به فأقبل علي حديثه ، وتطبيق تعاليمه ، وظهر أثر هذا الحب والغيرة علي البخاري في أخلاق نادرة كريمة ، وصفات عالية حميدة ، تتأني به عن الصغائر وتعلو به فوق

الهامات ، فلا يضع نفسه إلا حيث الرفعة وعلو القدر ، ولا يخشي في الله لومة لائم ولا يفرط في التحري عن صحة الحديث وسلامة سنده ومتمته¹ ، هذا مع تقوي الله واكثار للعبادة ، وخضوع وخشوع لرب العالمين .

وأعطاه الله البركة في الوقت، فكان يقرأ القرآن في كل ثلاث ليالٍ ، ويختم بالنهار في كل يوم ختمة ، وكان لا يغتاب أحداً . وقد سمعه ورآقه يقول : لا يكون لي خصم في الآخرة .

فقال له : إن بعض الناس ينقمون عليك التاريخ، ويقولون : اغتاب فيه الناس . **فقال :** إنما روينا ذلك ولم نقله من عند أنفسنا .

وقد قال النبي ﷺ : **بئس أخو العشيرة.**

كان الإمام البخاري كريماً زاهداً ، رغم أنه ورث عن أبيه ثروة ضخمة مطهرة ، ولكنه لم يستغلها في التمتع والتلذذ بالحياة ، فكان ينفق المال في أوجه البر لوجه الله .

ويقول: كنت أستغل في كل شهر خمسمائة درهم ، فأنفقها في الطلب، وعند الله خير وأبقي

قال محمد بن أبي حاتم الرازي عن الإمام البخاري : كان للإمام البخاري قطعة أرض

يؤجرها كل سنة بسبع مائة درهم ، فكان ذلك المؤجر ربما حمل منها إلى أبي عبد الله

قنّاة أو قنّاتين ؛ لأن أبا عبد الله كان معجباً بالقتاء النضيج ، فكان يهب للرجل مائة

درهم كل سنة لحمله القنّاء إليه أحياناً . كما كان يتصدق بالكثير ، يأخذ بيد صاحب

الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين ، أو أقل، وأكثر من غير

أن يشعر بذلك أحدٌ، وكان لا يفارقه كيسه² ، ولمعرفته بقيمة الجهاد في سبيل الله

وشجاعة رسول الله ﷺ ، تعلّم استعمال آلات الحرب ، وبرع في الرمي .

كما تمتع الإمام البخاري بصفات عذبة وشمائل كريمة ، فكان شديد الاعتزاز بعلمه ، لا

يحابي أحداً ، ولا يدهن حاكماً وكان كلُّ همّه أن يكون نفع بعلمه للناس جميعاً .

¹ - ضحى الإسلام - أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة العاشرة 2000 - القاهرة

² - هدي الساري مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - ترجمة وتحقيق :

مأمون خليل شيجا - دار المعرفة للطباعة والنشر 2004 - القاهرة

فقد قام البخاري بأداء فريضة الحج وعمره ثماني عشرة سنة ، فأقام بمكة يطلب بها الحديث ثم رحل بعد ذلك إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنه الترحال إليها وكتب عن أزيد من ألف شيخ¹.

وكان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمرُّ بخاطره ثم يطفئ سراجَه ، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى حتى كان يتعدد منه ذلك قريباً من عشرين مرة ، لذلك كانت سعادته كاملة في تأدية رسالة العلم ، ولذلك احتل في النفوس مكانة عالية ، والتفَّ حوله الناس في مجالسه ، وفي المسجد ، وفي بيته ينهلون من مواد علمه الفيض².

وكان الحسين بن محمد السمرقندي يقول : كان محمد بن إسماعيل مخصوصاً بثلاث خصالٍ مع ما كان فيه من الخصال المحمودة ، كان قليل الكلام ، وكان لا يطمع فيما عند الناس ، وكان لا يشتغل بأمور الناس ، كل شغله كان في العلم .

● مكانة البخاري :-

تطلعت الدنيا إلي الإمام البخاري كنموذج للكمال الانساني ، المتمثل في سعة علمه ورجاحة عقله ، وحسن خلقه ، وورعه وتدينه ، فارتقي بذلك درجات عالية من المكانة يصعب علي أقرانه الصعود إليها ، أو التطلع إلي نيلها . وقد شهد له الجميع بالفضل وفي مقدمتهم أئمة المسلمين ، وأولو الورع والدين ، والحفاظ والنقاد المتقنون الذين لا يجازفون بالعبارات ، بل يحارونها ويحافظون علي صيانتها .

فقد ورد عن حاشد بن إسماعيل أنه قال : كنت بالبصرة ، فسمعتُ بقُدوم محمد بن إسماعيل ، فلما قدم قال محمد بن يسار : دخل اليوم سيّدُ الفقهاء .

وعن محمود بن النضر أبي سهل الشافعي : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة وجالست علماءها ، فكلما جري ذكر محمد بن إسماعيل فضّلوه علي أنفسهم .

¹ - الوزراء والكتاب - محمد بن عديس الجهشيري - تحقيق : مصطفى السقا ، وآخرون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى 1938 - القاهرة .

² - هدي الساري مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري - مرجع سابق .

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه الإمام أحمد أنه قال : ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل .

وعن يحيى ابن جعفر : لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت فإن موتي يكون موت رجل واحد ، وموت محمد ابن إسماعيل ذهاب العلم .

وعن الإمام مسلم بن الحجاج : لا يبغضك إلا حاسد ، وأشهد الله أن ليس لي في الدنيا مثلك .

وعن الترمذي — صاحب السنن — : لم أرَ أحدًا بالعراق ولا بخراسان في معني العلل والتاريخ والأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل .

وقال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري : البخاري هو إمام أهل الحديث بلا خلاف بين أئمة النقل .

وقال الحافظ ابن حجر في حق البخاري : ولو فتحت باب ثناء الأمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القراطس ، ونفدت الأنفاس ، فذاك بحرٌ لا ساحل له .

● مؤلفاته ومآثره :—

تهيأت أسباب كثيرة لأن يُكثر البخاري من التأليف ؛ فقد منحه الله ذكاءً حاداً ، وذاكرةً قويةً ، وصبراً على العلم ومثابرةً في تحصيله ، ومعرفةً واسعةً بالحديث النبوي وأحوال رجاله من عدل وتجريح ، وخبرةً تامةً بالأسانيد ؛ صحيحها وفاسدها .

أضف إلى ذلك أنه بدأ التأليف مبكراً ؛ فيذكر البخاري أنه بدأ التأليف وهو لا يزال يافع السن في الثامنة عشرة من عمره ، وقد صنّف البخاري ما يزيد عن عشرين مصنفاً¹ وللإمام البخاري غير الجامع الصحيح مؤلفات أخرى عديدة ، لها قيمتها العلمية ، سواء في تواريخ الرجال ، من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وتابع التابعين ، أو غير ذلك من فروع العلم . نذكر منها :

— التاريخ الكبير : وهو كتاب كبير في التراجم رتّب فيه أسماء رواة الحديث على حروف المعجم ، وجمع فيه الرواة من الصحابة فمن بعدهم إلى طبقة شيوخه .

¹ - أصول التاريخ والأدب - مصطفى جواد - المجمع العلمي العراقي .

- التاريخ الصغير : وهو تاريخ مختصر للنبي ﷺ وأصحابه ومن جاء بعدهم من الرواة وطبقات التابعين ووفاتهم ، ونسبهم وكناهم إلى سنة (256هـ - 870 م)
- كتاب الضعفاء الصغير .
- كتاب الكُنى : فيمن غلبت كنيته علي اسمه .
- كتاب الأدب المفرد : ذكر فيه جملة من الأحاديث الداعية إلي مكارم الأخلاق .
- رفع اليدين في الصلاة .
- التاريخ الأوسط .
- خير الكلام في القراءة خلف الإمام .
- كتاب الأشربة .
- أسامي الصحابة .
- برُّ الوالدين .
- خلق أفعال العباد .
- قضايا الصحابة والتابعين .
- كتاب المسند الكبير .
- كتاب الوجدان : وهو من ليس له إلا حديث واحد .
- كتاب المبسوط .
- كتاب الهبة .
- الجامع الصحيح .
- صحيح البخاري :-

صحيح البخارى هو أصح كتب الحديث النبوي عند أهل السنة والجماعة ، جمعه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وأسماه " الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه " ، وهو أول مصنف في الحديث الصحيح المجرد المنسوب إلى رسول الله ﷺ وجاء مبوباً على الموضوعات الفقهية¹، وبلغت جملة

¹ - ما تمس إليه حاجة القارئ لصحيح البخاري - محيي الدين شرف النووي - تحقيق : علي حسن علي عبد المجيد - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - بيروت .

أحاديث كتابه : سبعة آلاف ومئتان وخمسة وسبعون حديثاً بالمكرر ، ومن غير المكرر أربعة آلاف حديث .

نقل الإمام يحيى بن شرف النووي إجماع الأمة على صحة هذا الكتاب ووجوب العمل بأحاديثه حيث قال : " أجمعت الأمة على صحة هذين الكتابين ووجوب العمل بأحاديثهما أي صحيح البخاري¹ ، وصحيح مسلم ، قام البخاري بجمعه والتحقق من صحة الأحاديث حسب علم الحديث الذي أسسه ، واشترط شروطاً خاصة في رواية راوي الحديث وهي أن يكون معاصراً لمن يروي عنه ، وأن يسمع الحديث منه ، أي أنه اشترط الرؤية والسماع معاً ، هذا إلى جانب الثقة والعدالة والضبط والإتقان والعلم والورع .

ابتدأ البخاري تأليف كتابه في المسجد الحرام والمسجد النبوي ، ولم يتعجل إخراجه للناس بعد أن فرغ منه ، ولكن عاود النظر فيه مرة بعد أخرى ، وتعاهده بالمراجعة والتقيق ولذلك صنفه ثلاث مرات حتى خرج على الصورة التي عليها الآن².

كانت الكتب المصنفة قبل صحيح البخاري تجمع الحديث النبوي ، وأقوال الصحابة وكذلك فتوي التابعين ، ومنها ما هو صحيح ومنها غير صحيح ، مصحح ، مستبعد منه كل منكر أو ضعيف . ولما تميز به البخاري من مقدرة علمية ، وكمال في معرفة الحديث ، وشهادة العلماء له ، بالفضل والتقدم وجهوا إليه الدعوة للقيام بهذا العمل الضخم ، وكانت الدعوة الموجهة إليه في منزل أستاذه إسحاق بن راهويه بمحضر من العلماء³ ، وشرح الله صدر البخاري ، ومُليء قلبه همة وإقداماً برؤية النبي ﷺ مناماً وهو يذُبُّ عنه بمروحة في يده ، وفسرت له الرؤيا بأنه يذب الكذب عن النبي ﷺ

¹ - البخاري مجدداً - فلاح حسين جليل القيسي - رسالة ماجستير - كلية التربية - الجامعة المستنصرية 1988 - بغداد

² - طبقات الحنابلة - محمد بن الحسين بن خلف بن أبو يعلى - تحقيق : محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية 1952 - القاهرة .

³ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - محمد فؤاد بن عبد الباقي بن صالح بن محمد - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .

ولذلك أقبل علي تصنيفه ، ويقول : فأخذت في جمع الجامع الصحيح . وصنفته لست عشرة سنة ، وخرجته من ستمائة ألف حديث ، وجعلته حجة بيني وبين الله عز وجل¹ لقد استحسن شيوخ البخاري وأقرانه من المحدثين كتابه ، بعد أن عرضه عليهم ، وكان منهم جهازة الحديث ، مثل : أحمد بن حنبل ، وعلي بن المديني ، ويحيى بن معين فشهدوا له بصحة ما فيه من الحديث ، ثم تلقته الأمة بعدهم بالقبول باعتباره أصح كتاب بعد كتاب الله .

أقبل العلماء على كتاب الجامع الصحيح بالشرح والتعليق والدراسة ، بل امتدت العناية به إلى العلماء من غير المسلمين ؛ حيث دُرس وترجم ، وكُتبت حوله عشرات الكتب .

الإسناد في صحيح البخاري

روى عن عائشة 242 حديث

روى عن فاطمة الزهراء حديث واحد

روى عن أبو هريرة 446 حديث

روى عن علي بن أبي طالب 29 حديث

روى عن عبد الله بن عمر 270 حديث

روى عن عمار بن ياسر أربع أحاديث

روى عن سلمان الفارسي أربع أحاديث²

رواة الجامع الصحيح عن البخاري

الفربري محمد بن يوسف بن مطر ، وهي أهم الروايات .

أبو طلحة منصور البزدوي .

إبراهيم بن معقل النسفي .

حماد بن شاكر .

أبو ذر عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الهروي الحافظ .

أبو علي سعيد بن عثمان الحافظ ابن السكن .

¹ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - دار الغد العربي - الطبعة الأولى 1992 - القاهرة

² - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - مرجع سابق .

أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي¹.

• شروح صحيح البخاري :-

نظراً للأهمية الكبيرة التي حازها صحيح البخاري ، فقد اعتنى العلماء بشرحه وكثرت الكتب المتعلقة به مثل الشروح ، والحواشي ، وشرح الغريب ، أو أسماء الرواة وتصل هذه المؤلفات إلى مائة وثلاث وأربعون كتاباً، ومن هذه المؤلفات :

أعلام السنن ، تأليف : أبو سليمان الخطابي ، المتوفى سنة 388 هـ .

شرح صحيح البخاري ، تأليف : ابن بطلال القرطبي المالكي ، المتوفى سنة 449 هـ .

شرح مشكل البخاري ، تأليف : محمد بن سعيد بن يحيى بن الدبيثي الواسطي المتوفى سنة 637 هـ .

شرح البخاري ، تأليف : يحيى بن شرف النووي ، المتوفى سنة 676 هـ ، شرح فيه كتابي " بدء الوحي ، والإيمان " ، ولم يكمله .

البدر المنير السّاري في الكلام على البخاري ، تأليف : عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبي ، المتوفى سنة 735 هـ .

شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ، لمحمد بن عبد الله بن مالك المتوفى سنة 672 هـ .

العقد الجلي في حل إشكال الجامع الصحيح للبخاري ، تأليف : أحمد بن أحمد الكردي المتوفى سنة 763 هـ .

التنقيح في شرح الجامع الصحيح ، تأليف: محمد بن بهادر الزركشي، المتوفى سنة 794 هـ

الراموز على صحيح البخاري، تأليف : علي بن محمد اليونيني ، المتوفى سنة 701 هـ

التوضيح شرح الجامع الصحيح، تأليف: عمر بن علي بن الملقن، المتوفى سنة 805 هـ

الإفهام شرح صحيح البخاري ، تأليف : جلال الدين البلقيني ، المتوفى سنة 824 هـ .

¹ - عمدة السامع والقاري في فوائد صحيح البخاري - أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي - تحقيق : ضوان

جامع رضوان - دار أولاد الشيخ 1425 هـ - القاهرة

الكوكب الساري في شرح صحيح البخاري ، تأليف : محمد بن أحمد بن موسى الكفيري المتوفى سنة 846 هـ .

مصاييح الجامع الصحيح ، تأليف : محمد بن أبي بكر الدماميني، المتوفى سنة 827 هـ
تيسير منهل القاري في تفسير مشكل البخاري ، تأليف : محمد بن محمد بن محمد بن موسى الشافعي الحنبلي ، المتوفى سنة 846 هـ .

اللامع الصبيح على الجامع الصحيح ، تأليف : محمد بن عبد الدائم بن موسى البرماوي المتوفى سنة 831 هـ .

الكوكب الساري ، تأليف : علي بن الحسين بن عروة المشرفي الموصلي الحنبلي المتوفى سنة 837 هـ .

التلقيح لفهم قاريء الصحيح ، تأليف : برهان الدين بن محمد بن خليل الحلبي سبط ابن العجمي ، المتوفى سنة 841 هـ .

المتجر الربيع على الجامع الصحيح ، تأليف : محمد بن أحمد بن محمد مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842 هـ .

فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تأليف : ابن حجر العسقلاني ، المتوفى سنة 852 هـ وهو أشهر تلك الشروح .

عمدة القارئ ، تأليف : محمود أحمد بن موسي العيني ، المتوفى سنة 855 هـ .

تعليق على البخاري، تأليف : محمد بن محمد بن علي النويري ، المتوفى سنة 857 هـ
شرح القاضي أبو بكر بن العربي ، المتوفى سنة 543 هـ .

الكوثر الجاري إلى رياض البخاري ، تأليف : أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني ، المتوفى سنة 857 هـ .

النجاح في شرح كتاب أخبار الصحاح ، تأليف : نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي الحنفي ، المتوفى سنة 537 هـ .

شرح الحافظ مغلطي بن فليح التركي المصري الحنفي ، المتوفى سنة 792 هـ .

شرح الإمام ناصر الدين علي بن محمد بن المنير الإسكندراني ، وهو شرح كبير في نحو عشر مجلدات .

شرح القاضي مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم البلبيسي ، المتوفى سنة 810 هـ .
شرح الشيخ شهاب الدين أحمد بن رسلان المقدسي الرملي الشافعي ، المتوفى سنة 844 هـ .

شرح الشيخ أبي البقاء محمد بن علي بن خلف الأحمدي المصري الشافعي ، وهو
شرح كبير كان ابتداء تأليفه سنة 909 هـ .
التوشيح شرح الجامع الصحيح ، تأليف : جلال الدين السيوطي ، المتوفى سنة 911 هـ
شرح الشيخ زين الدين عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي ، المتوفى سنة 963 هـ .

ترجمان التراجم ، تأليف : أبي عبد الله عمر بن رشيد الفهري ، المتوفى سنة 721 هـ
إرشاد الساري شرح صحيح البخاري ، تأليف : شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب
القسطلاني ، المتوفى سنة 923 هـ .

شرح غريبه ، تأليف : أبي الحسن محمد بن أحمد الجبائي النحوي ، المتوفى سنة 540 هـ
شرح قوام السنة ، تأليف : أبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني ، المتوفى سنة 535 هـ

الفيض الجاري لشرح صحيح البخاري ، تأليف : إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي
المتوفى سنة 1162 هـ .

النور الساري من فيض البخاري ، تأليف : حسن العدوي الحمزاوي المالكي ، المتوفى
سنة 1303 هـ .

فيض الباري على صحيح البخاري ، تأليف : محمد أنور شاه الكشميري .
الكواكب الدراري ، تأليف : شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن سعيد الكرمانلي .
منح الباري بالسيح الفسيح المجاري في شرح البخاري ، تأليف : المجد الشيرازي
اللغوي مؤلف " القاموس " ¹.

¹ - سيرة الإمام البخاري " سيد الفقهاء وإمام المحدثين " - عبد السلام المباركفوري - نقله إلى العربية د . عبد العليم بن عبد العظيم البيستوي - دار عالم الفوائد 1422 هـ - مكة المكرمة .

● منهج الإمام البخاري :-

التزم الإمام البخاري بأن يورد في صحيحه الأحكام والفضائل ، والأخبار المحضة علي الأمور الماضية والآتية وغير ذلك من الآداب والرفاق .

والتزم أيضاً بالأ يورد إلا الحديث الصحيح ، وقد صرَّح بذلك فقال : ما أدخلتُ في الجامع إلا ما صح .

وكذلك تخريج الأحاديث التي اتصل اسنادها ببعض الصحابة عن النبي ﷺ سواء كان فعلاً أو قولاً ، أو تقريراً .

ومن شرطه أن يكون الإسناد متصلاً ، وأن يكون الرواة عدولاً وأن يتصفوا بالضبط وفي الرواة يشترط أن يكون الراوي كثير الصحبة لشيخه عازماً بحديثه ، وقد قال : ما وضعت في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين¹.

وقال الحافظ أبو عبد الله الحازمي : إن شرط الصحيح أن يكون إسناده متصلاً ، وأن يكون روايه مسلماً صادقاً غير مدلس ولا مختلط ، متصفاً بصفات العدالة ، ضابطاً متحفظاً سليم الذهن قليل الوهم سليم الاعتقاد .

وقال ابن حزم : إن البخاري إذ أنكر لسماح لا يقول إنه لم يسمع من فلان ، بل يقول : لم يثبت سماع فلان من فلان والناس لا يميزون بينهما ، فيحكمون عن أنه قائل بعدم سماعه منه ، مع أنه ينكر الثبوت عنه دون السماع في نفس الأمر .

وكان دقيقاً في رواية الحديث ، حتي إنه كان يترك الرواية عن كل راوٍ فيه نظر من المحدثين ، مهما كان عنده من حديث ، ولا يطمئن إلي توثيق الثقات لراوٍ ، بل لابد أن يستوثق منه بنفسه .

● من كلمات الإمام البخاري :-

— لا أعلم شيئاً يُحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة .

— ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم وحتى نظرت في عامة كتب الرأي وحتى دخلت البصرة خمس مرات أو نحوها فما تركت بها حديثاً صحيحاً إلا كتبتّه إلا ما لم يظهر لي .

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

- أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح .
- ما أردت أن أتكلم بكلامٍ فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله والثناء عليه¹.
- كتبت عن ألفٍ وثمانين رجلاً ، ليس فيهم إلا صاحب حديث ، كانوا يقولون : الإيمان قولٌ وعمل ، يزيد وينقص .

● وفاته :-

خرج في سن الثانية والستين من حياة هذا الإمام العظيم إلي " خرتك " وهي إحدى قري سمرقند ، ونزل ضيفاً علي غالب بن جبريل ، وهو قريب له .

قال غالب : فسمعت ليلةً ، وقد خرج من صلاة الليل يدعو فيقول : اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت ، فاقبضني إليك .

وأقام أياماً في " خرتك " ، مريضاً .

ثم جاءه رسولٌ من أهل سمرقند يحمل دعوةً أهلها إليه ليذهب إليهم ، فأجاب وتهيأ للركوب ولبس خفيه وتعمم ، ولكنه بعد عشرين خطوة أو قريباً من العشرين توجه إلي الدابة ليركبها ، ولكنه قال : أرسلوني فقد ضعفت .

فأرسلوه فدعا بدعوات ثم اضطجع .

رحمة الله عليه ، وكانت وفاته في ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة الفطر ، ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر غرة شوال سنة 256 هـ ، بعد عمر دام اثنين وستين عاماً وثلاثة عشر يوماً .

ملأ فيها الدنيا نوراً بأحاديثه عن النبي ﷺ².

¹ - البخاري مؤرخا - أحمد صالح مهدي الدليمي - أطروحة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة بغداد 1998 - بغداد .

² - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - مرجع سابق .

● محمد بن عيسى الترمذي:—

هو محمد بن عيسى بن يزيد بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك ، السلمي البوغي الترمذي ، أبو عيسى ، من أئمة علماء الحديث وحفاظه ، وُلِدَ في ترمذ جنوب أوزبكستان وكانت سابقاً موصولة مع مدينة هرات الأفغانية¹ ، وقد اختلف فيه .
فَقِيلَ : ولد أعمى ، والصحيح أنه أضر في كِبَره بعد رحلته وكتابه العلم ، طاف البلاد وسمعَ خلقاً كثيراً من الخراسانيين، والعراقيين، والحجازيين، وغيرهم، وكان يُضرب به المثل في الحفظ، هذا مع ورعه وزهده .

صنّف الكثير، تصنيف رجل عالم متقن .

ومن تصانيفه : كتابه الشهير الجامع المعروف بسنن الترمذي .

● مولده ونشأته:—

وُلِدَ أبو عيسى الترمذي مطلع القرن الثالث الهجري في ذي الحجة سنة تسع ومائتين من الهجرة ، في قرية من قرى مدينة ترمذ تسمى "بُوغ" ، والتي يفصل بينها وبين ترمذ ستة فراسخ²، وتتلمذ علي يد البخاري، وتأثر به أشد التأثر ، ولا سيما في فقه الحديث وناظره، وناقشه ، وشاركه في بعض شيوخه، وقام برحلات لطلب العلم إلى خراسان والعراق والحجاز، وأصيب بالعمى في آخر عمره ، وكان يضرب به المثل في الحفظ.
كان جدّه سورة مروزياً "نسبة إلى مرو" ، ثم انتقل هذا الجد أيام "الليث بن سيار" إلى بوغ ، أما "السلمي" فهو نسبه إلى بني سليم ، قبيلة من غيلان³ .

كان الإمام الترمذي محباً للعلم والارتحال إليه ومجالسة العلماء ، فجاب البلاد يجلس إلى العلماء ، وينهل من علومهم المتنوعة ، كما تميز بقوة الحفظ ، وقد عاش للحديث.

● شيوخ الإمام الترمذي:—

عاش أبو عيسى لتحصيل الحديث ، وشد الرحال إليه أينما كان ، تتلمذ علي إمام المحدثين الإمام البخاري ، وتأثر به أشد التأثر، ولا سيما في فقه الحديث ، وناظره

¹ - المسلمون في الاتحاد السوفياتي عبر التاريخ - محمد علي البار - دار الشروق 1983 - الجزء الأول - القاهرة .

² - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد - دار بن كثير 1986 - بيروت .

³ - البداية والنهاية - اسماعيل بن عمر بن كثير - هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان 1997 - بيروت

وناقشه ، كما اشترك الترمذي مع أقرانه الخمسة أصحاب الكتب المعتمدة ، وهم الإمام البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه في تلقي العلم على يد تسعة شيوخ وهم محمد بن بشار بن بدار ، ومحمد بن المثنى ، وزباد بن يحيى الحساني وعباس بن عبد العظيم العنبري ، وأبو سعيد الأشج عبد الله بن سعيد الكندي وعمرو بن علي القلانسي ، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي ، ومحمد بن معمر القيسي ، ونصر بن علي الجهضمي¹.

لقي الإمام مسلم بن الحجاج ، وأخذ عنه ، لكنه لم يخرج عنه إلا حديثاً واحداً ، وهو حديث أبي هريرة " احصوا هلال شعبان لرمضان " ، ولقي أيضاً الإمام أبا داود سليمان ابن الأشعث السجستاني وروى له في جامعه ، وأفاد في علل الحديث والرجال وفنون الحديث ، من الإمام عبدالله بن عبدالرحمن ، وأفاد في علل الحديث ، والرجال وفنون الحديث ، من الإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي ، وأبي زرعة الرازي ، كما ذكر في آخر جامعه ، ولكن التأثير الكبير ، والإفادة العظيمة تمت للترمذي على الإمام أمير المؤمنين في الحديث ؛ محمد بن إسماعيل البخاري ؛ فقد لازمه الترمذي طويلاً ، وأخذ عنه العلم الكثير ، حتى تخرج علي يديه ، واعترف به ، ولم تقتصر إفادته على الحديث وعلومه ، بل أفاد منه فقه الحديث كما قال الذهبي : " وتفقه في الحديث على يد البخاري " وحسبك بالبخاري فقيهاً في الحديث ، غوّاصاً على خفايا فقهه ، والاستنباط منه ومن شيوخه أيضاً الذين أخذ عنهم العلم : الهيثم بن كليب الشاشي صاحب المسند ومحمد بن محبوب المحبوبي راوي الجامع عنه ، ومحمد بن المنذر بن شكر .

● مكانته عند العلماء :-

قال أبو يعلى الخليل بن عبد الله في كتابه " علوم الحديث " : محمد بن عيسى بن سورة بن شداد الحافظ متفق عليه ، له كتاب في السنن ، وكتاب في الجرح والتعديل روى عنه أبو محبوب والأجلاء ، وهو مشهور بالأمانة والإمامة والعلم .
قال الحاكم : سمعت عمر بن علك يقول : مات البخاري ، فلم يخلف بخرسان مثل أبي عيسى في العلم ، والحفظ ، والورع ، والزهد ، بكى حتى عمي ، وبقي ضريباً سنين .

¹ - شرح كتاب الشمائل المحمدية للإمام الترمذي - الشيخ محمد بن خدة الجزائري .

قال ابن حبان في " الثقات " : كان ممن جمع ، وصنّف ، وحفظ ، وذاكر .
قال الذهبي : جامعه قاضٍ له بإمامته ، وحفظه ، وفقهه ؛ ولكن يترخص في قبول الأحاديث ، ولا يشدد .

قال الحافظ العالم أبو سعيد الإدريسي : أحد الأئمة الذين يقتدي بهم ، في علم الحديث صنف " الجامع " ، و " التواريخ " ، و " العلل " ، تصنيف رجل عالم متقن ، وكان يضرب به المثل في الحفظ .

قال المزي : أبو عيسى الترمذي الضرير الحافظ ، صاحب " الجامع " وغيره من المصنفات ، أحد الأئمة الحفاظ المبرزين ، ومن نفع الله به المسلمين¹.

قال الذهبي في " الميزان " : الحافظ العلم صاحب " الجامع " ، ثقة ، مجمع عليه ، ولا التقات إلى قول أبي محمد بن حزم فيه ، في الفرائض ، من كتاب " الإيصال " : إنه مجهول ؛ فإنه ما عرفه ، ولا دري بوجود " الجامع " ، ولا " العلل " له .

قال الحافظ ابن حجر في " تهذيب التهذيب " : وأما أبو محمد بن حزم ؛ فإنه نادى على نفسه بعدم الاطلاع ؛ فقال في كتاب الفرائض من الإيصال : محمد بن عيسى بن سورة مجهول ، ولا يقولن قائل : " لعله ما عرف الترمذي ، ولا اطلع على حفظه ، ولا تصانيفه فإن هذا الرجل قد أطلق هذه العبارة في خلق من المشهورين ، من الثقات الحفاظ ؛ كأبي القاسم البغوي ، وإسماعيل بن محمد الصفار ، وأبي العباس الأصم وغيرهم ، والعجب أن الحافظ بن الفرضي ذكره في كتابه " المؤتلف والمختلف " ونبه على قدره ، فكيف فات ابن حزم الوقوف عليه .

قال العلامة أحمد شاكر : وأنا أظن أن هذا تحامل من الحافظ ابن حجر على ابن حزم ولعله لم يعرف الترمذي ، ولا كتابه ، بل لعل الحافظ الذهبي أخطأ نظره ، حين نقل ما نقل من كتاب " الإيصال " ، وما أظن ابن حجر رأى كتاب " الإيصال " ، ونقل منه وإنما أرجح أنه نقل من الذهبي .

¹ - عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي - محمد بن عبد الله بن العربي - دار الكتب العلمية - بيروت .

قال أبو الفضل البيهقي : سمعت نصر بن محمد الشيركوهي ، يقول : سمعت محمد بن عيسى الترمذي ، يقول : قال لي محمد بن إسماعيل " يعني البخاري " ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي .

قال العلامة أحمد شاكر : وهذه شهادة عظيمة من شيخه إمام المسلمين وأمير المؤمنين في الحديث في عصره¹.

قال ابن الأثير في تاريخه : كان الترمذي إماماً حافظاً له تصانيف حسنة منها الجامع الكبير وهو أفضل الكتب .

قال ابن العماد الحنبلي في " شذرات الذهب " : كان مبرزاً على الأقران آية في الحفظ والإتقان .

قال المزي في التهذيب بأنه : الحافظ صاحب الجامع وغيره من المصنفات ، أحد الأئمة الحفاظ المبرزين ومن نفع الله به المسلمين .

وصفه السمعاني بأنه : إمام عصره بلا مدافعة .

قال الذهبي في " الميزان " : الحافظ العالم صاحب الجامع ثقة مجمع عليه ولا التفات إلى قول أبي محمد بن حزم في الفرائض من كتاب الإيصال أنه مجهول فإنه ما عرف ولا درى بوجود الجامع ولا العلل له².

ذكره ابن حبان في الثقات وقال فيه : كان محمد ممن جمع وصنف وحفظ والإمام الترمذي صاحب لجامع من الأئمة الستة الذين حرسوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبحت كتبهم في عالم السنة هي الأصول المعتمدة في الحديث ومن الذين نضر الله وجوهمهم؛ لأنه سمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدّاه كما سمعه .

قال الحاكم : سمعت عمر بن تملك يقول : مات البخاري ، فلم خلف بخراسان مثل أبي عيسى ، في العلم والحفظ والورع والزهد ، بكي حتي عمي ، وبقي ضريراً سنين³ .

¹ - تحفة الأحوزي بجامع صحيح الترمذي - أبو العلاء محمد بن عبد الرحيم المباركفوري - دار الكتب العلمية - بيروت .

² - أطلس تاريخ الإسلام - مرجع سابق .

³ - المسالك والممالك - مرجع سابق .

ونقل أبو سعيد الإدريسي بإسناد له ، أنَّ أبا عيسى قال : كنت في طريق مكة ، فكتبت جزأين من حديث شيخ فوجدته فسألته ، وأنا أظن أن الجزأين معي ، فسألته فأجابني فإذا معي جزءان بياض ، فبقي يقرأ علي من لفظه، فنظر، فرأى في يدي أوراقاً بيضاء فقال: أما تستحي مني ؟

فأعلمته بأمرى ، وقلت : أحفظه كله .

فقال : اقرأ ، فقرأته عليه ، فلم يصدقني .

وقال : استظهرت قبل أن تجئ ؟

فقلت : حدثني بغيره .

قال : فحدثني بأربعين حديثاً، ثم قال : هات ، فأعدتها عليه ، ما أخطأت في حرف.

قال شيخنا أبو الفتح القشيري الحافظ : ترمذ وهو المستفيض علي الألسنة حتي يكون كالمتواتر .

قال محدث خراسان : الحاكم أبو أحمد : سمعت عمران بن علان يقول ، مات البخاري ولم يخلف بخراسان ، مثل أبي عيسى في العلم والورع فبكى حتى عمي المسكين¹

● مؤلفاته :-

ترك أبو عيسى الترمذي العديد من المؤلفات منها ما هو موجود، ومنها ما هو مفقود ولم يعرف به إلا من خلال ما ذكره العلماء الذين عاصروه، ويأتي في مقدمة تلك المؤلفات.

سنن الترمذي أو الجامع للسنن ، وهو المؤلف الذي اشتهر به ومكنه من لقب الإمام وقد نهل العلماء والفقهاء من جامعه هذا وذاعت شهرته به ، وقد قال الترمذي عن صحيحه : صَنَّفْتُ هَذَا الْمَسْنَدَ الصَّحِيحَ وَعَرَضْتُهُ عَلَى عُلَمَاءِ الْحِجَازِ فَرَضُوا بِهِ وَعَرَضْتُهُ عَلَى عُلَمَاءِ الْعِرَاقِ فَرَضُوا بِهِ ، وَعَرَضْتُهُ عَلَى عُلَمَاءِ خِرَاسَانَ فَرَضُوا بِهِ وَمَنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ هَذَا الْكِتَابُ فَكَأَنَّمَا فِي بَيْتِهِ نَبِيٌّ يَنْطِقُ².

¹ - المسالك والممالك - مرجع سابق .

² - معجم البلدان - مرجع سابق .

كتاب العلل الصغري : ضمن كتاب الجامع السنن ، فهو مدخل له وجزء منه ، وبيان لمنهجه .

الشمائل المحمدية أو شمائل النبي صلى الله عليه وسلم.

الجرح والتعديل .

علل الترمذي الكبير ، وقد تم تنقيحه في ترتيب علل الترمذي الكبير¹.

ومنها ما هو مفقود مثل :

كتاب العلل الكبرى .

كتاب التفسير .

كتاب التاريخ .

كتاب الأسماء والكنى .

كتاب الزهد .

نوادير الأصول في معرفة أخبار الرسول .

مختصر نداء القرآن .

المسائل المكنونة .

الرد علي المعطلة .

المرايا .

كتاب الأعضاء والنفس ويفسر آيات عظيمة².

• جامع الإمام الترمذي :-

قال أبو عيسى : صنف هذا الكتاب وعرضته علي علماء الحجاز ، والعراق وخراسان فرضوا به ، ومن كان هذا الكتاب — يعني " الجامع " في بيته ، فكأنما في بيته نبي يتكلم³ وقد وضع الإمام الترمذي في مصنفه الجامع قواعد التحديث وعلله والتي كانت ضمن أبواب الجامع تحت عنوان " كتاب العلل "⁴.

¹ - فتوح البلدان - مرجع سابق .

² - أطلس تاريخ الإسلام - مرجع سابق .

³ - سنن الإمام الترمذي - أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة - دار الكتب العلمية 2012 - بيروت .

⁴ - تحفة الأحوزي شرح جامع الترمذي - مرجع سابق .

يبلغ عدد أحاديث جامع الترمذي 3956 حديثاً¹ ، وله من الخائص المتميزة عن غيره من كتب الحديث أنه من خلال ما تضمنه يمكن الحكم علي درجة الحديث وحالته من ناحية كون الحديث صحيح أو حسن أو غريب أو ضعيف ، حيث يتم التعليق علي الحديث علي النحو التالي : حسن صحيح ، أو حسن صحيح غريب ، أو حديث حسن غريب من حديث فلان .

وهذا يعني أن الغرابة في الإسناد ، وإن كان للحديث روايات أخرى ليست غريبة ، فإذا لم ترد طرق أخرى يكون الحديث غريب لا معرفة له من غير هذا الوجه ، وإذا كان في الحديث علة يكون حديث مرسل ؛ لأن أحد الرواة تابعي ، ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أن راو الحديث لم يرو عن أحد الرواة المعروفين².

ويطلق علي سنن الترمذي " الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل " ، وقد عني الترمذي بجمع أحاديث الأحكام كما فعل أبو داود ، ولكنه يبين الحديث الصحيح من الضعيف ، وذكر مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار³.

وقد ذكر الشيخ أحمد محمد شاكر ، في مقدمة تحقيقه لسنن الترمذي أن كتاب الترمذي هذا يمتاز بثلاثة أمور لا تجدها في شيء من كتب السنة ، الأصول الستة أو غيرها : أولاً : أنه يختصر طرق الحديث اختصاراً لطيفاً ، فيذكر واحداً ويؤمئ إلى ما عداه فبعد أن يروي الترمذي حديث الباب يذكر أسماء الصحابة الذين رويت عنهم الأحاديث في هذا الباب ، سواءً أكانت بمعنى الحديث الذي رواه ، أم بمعنى آخر ، أم بما يخالفه أم بإشارة إليه ولو من بعيد ، وهذا يدل على إطلاع واسع وحفظ عظيم وإمام بكل ما جاء حوال الحديث .

ثانياً : أنه في أغلب أحيانه يذكر اختلاف الفقهاء وأقوالهم في المسائل الفقهية ، وكثيراً ما يشير إلى دلائلهم ، ويذكر الأحاديث المتعارضة في المسألة ، وهذا المقصد من أعلى

¹ - سنن الإمام الترمذي - مرجع سابق .

² - آثار البلاد وأخبار العباد - مرجع سابق .

³ - الوافي في الوفيات - صلاح الدين خليل بن عبد الله الصفدي - دار إحياء التراث العربي 2000 - بيروت .

المقاصد وأهمها ، فإن الغاية من علوم الحديث ، تمييز الصحيح من الضعيف للاستدلال والاحتجاج ، ثم الاتباع والعمل .

ثالثاً : أنه يُعْنَى كل العناية في كتابه بتعليل الحديث ، فيذكر درجته من الصحة أو الضعف ، ويفصل القول في التعليل والرجال تفصيلاً جيداً ، وبذلك صار كتابه هذا كأنه تطبيق عملي لقواعد علوم الحديث ، خصوصاً علم العلل ، وصار أنفع كتاب للعالم والمتعلم ، وللمستفيد والباحث في علوم الحديث .

ويعتبر **سنن الترمذي** من أهم مصادر الحديث الحسن ، ولذلك نال الكثير من استحسان العلماء ، وتحدثوا عنه في مواضع عديدة منها :

قال **الشوكاني** : **كتاب الترمذي** أحسن الكتب وأكثرها فائدة ، وأحكمها ترتيباً ، وأقلها تكراراً وفيه ما ليس في غيره من المذاهب ووجوه الاستدلال ، والإشارة إلى ما في الباب من الأحاديث ، وتبيين أنواع الحديث : من الصحة والحسن والغرابة والضعف وفيه جرح وتعديل .

ويقول **ابن رُشيد** : **إن كتاب الترمذي** تضمن الحديث مصنفاً على الأبواب وهو علم برأسه والفقه وهو علم ثان ، وعلل الحديث ويشتمل على بيان الصحيح من السقيم وما بينهما من المراتب وهو علم ثالث ، والأسماء والكنى وهو علم رابع ، والتعديل والتجريح وهو علم خامس ، ومن أدرك النبي ﷺ ، ومن لم يدركه ممن أسند عنه في كتابه وهو علم سادس ، وتعدد من روى ذلك وهو علم سابع ، هذه علومه المجملية ، وأما التفصيلية فمتعددة ، وبالجملية فمنفعته كثيرة ، وفوائده غزيرة¹.

وقال **ابن الصلاح** : **كتاب أبي عيسى الترمذي** رحمه الله أصل في معرفة الحديث الحسن وهو الذي نوه باسمه وأكثر من ذكره في جامعه .

وجاء في " **المنثور** " **لابن طاهر** : سمعت **أبا إسماعيل** شيخ الإسلام يقول : " **جامع** " **الترمذي** أنفع من **كتاب البخاري** ومسلم ؛ لأنه لا يقف علي الفائدة منهما إلا المتبحر العالم و " **الجامع** " يصل إلي فائدته كلُّ أحدٍ . قلت : في " **الجامع** " علم نافع ، وفوائد غزيرة ، ورؤوس المسائل ، وهو أحد أصول الإسلام لولا ما كدره بأحاديث واهية

¹ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - أبو عبد الله بن أحمد المقدسي - مكتبة مدبولي 1991 - القاهرة .

بعضها موضوع ، وكثير منها في الفضائل كما أن " جامعہ " قاضٍ له فإمامته وحفظه وفقهه ، ولكن يترخص في قبول الأحاديث ولا يشدد ، ونفسه في التضعيف رخو¹. وللقاضي أبو بكر بن العربي ، في أول شرحه على الترمذي ، الذي سماه " عارضة الأحوزي " ، فصل نفيس في مدح كتاب الترمذي ، قال : اعلّموا أن كتاب الجعفي " يقصد البخاري " ، هو الأصل الثاني في هذا الباب ، والموطأ هو الأول ، واللباب وعليهما بناء الجميع ، كالقشيري ، والترمذي ، فمن دونهما ، وليس فيهم مثل كتاب أبي عيسى حلاوة مقطع ، ونفاضة منزع ، وعذوبة مشرع ، وفيه أربعة عشر علماً ، وذلك أقرب إلى العمل ، وأسلم ؛ أسند ، وصح ، وضعف ، وعدد الطرق ، وجرح ، وعدل وأسمى وأكنى ، ووصل وقطع ، وأوضح المعمول به ، والمتروك ، وبين اختلاف العلماء في الرد والقبول لآثاره ، وذكر اختلافهم في تأويلهم و وكل علم من هذه العلوم أصل في بابه وفرد في نصابه ، فالقارئ له لا يزال في رياض موقنة ، وعلوم متفقة ومتسقة ، وهذا شيء لا يعمه إلا العلم الغزير ، والتوفيق الكثير ، والفراغ ، والتدبير²

● شرط الترمذي في جامعہ :-

لم يصرح أحدٌ من أصحاب الكتب الستة بشرط في كتابه ، وقد توجد لبعضهم عبارات يفهم منها شيء من شروطهم في كتبهم ؛ فالأصل في معرفة شرط الكتاب دراسته ومطالعة أصوله ، واستقرائها ، وقد كان للترمذي شرط في جمع الحديث وكتابته تحدث الترمذي عن أحاديث في جامعہ ، بما يستأنس به ، لمعرفة شرطه ، قال في " علل الجامع " : جميع ما في هذا الكتاب من الحديث ، فهو معمول به ، وقد أخذ به بعض أهل العلم ، وما خلا حديثين .

وقد بنى اختيار حديث الكتاب ، على عمل العلماء به في الجملة ؛ فكل حديث استدل به مستدل ، أو احتج به عالمٌ ، فهو من شرطه ، وهو شرط فسيح جداً ، لكن الترمذي لا يزل إلى الواهي أو الموضوع ؛ لأن الأئمة لا يحتجون بالواهي ولا بالموضوع ، وقد

¹ - نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - مؤسسة أم القرى

للترجمة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - المنصورة 2008

² - عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي - مرجع سابق .

دل الاستقراء على أنه شرطه هو أن يخرج أحاديث الطبقة الرابعة ، من الرواة فمن فوقهم ، ورجال الطبقة الرابعة قوم لم تكثر ممارستهم لحديث شيوخهم ، ولم يسلموا أيضاً من غائلة الجرح .

فقد كان لأئمة مذهباً في كيفية استنباط مخارج الحديث ؛ وذلك أن مذهب من يخرج الصحيح أن يعتبر حال الراوي العدل في مشايخه ، وفيمن روى عنهم ، وهم ثقات أيضاً وحديثه عن بعضهم صحيح ثابت ، يلزمه إخراجهم ، وعن بعضهم مدخول ، لا يصلح إخراجهم إلا في الشواهد ، والمتابعات ، وهذا باب فيه غموض ، وطريقة معرفة الرواة عن راوي الأصل ، ومراتب مداركهم .

والطبقات التي يعتمد عليها أئمة الحديث يمكن التعرف عليها من المثال : " أن أصحاب الزهري علي سبيل المثال على طبقات خمس ، لكل طبقة منها مزية على التي تليها : الطبقة الأولى : قوم جمعوا بين العدالة التامة ، والإتقان ، والحفظ ، وطول الملازمة لشيخهم الزهري ، حتى كان فيهم من يزايله في السفر ، ويلزمه في الحضر ، وهم الغاية في الصحة ، وهم غاية مقصد البخاري .

الطبقة الثانية : شاركت الأولى في العدالة ، غير أنها لم تلازم الزهري إلا مدة يسيرة فلم تمارس حديثه ، وكانوا في الإتقان ، دون الطبقة الأولى ؛ وهم شرط مسلم .
الطبقة الثالثة : جماعة لزموا الزهري ؛ مثل أهل الطبقة الأولى ، غير أنهم لم يسلموا من غوائل الجرح ، فهم بين الرد والقبول ، وهم شرط أبي داود والنسائي .

الطبقة الرابعة : قوم شاركوا أهل الطبقة الثالثة في الجرح والتعديل ، وتفرّدوا بقلّة ممارستهم لحديث الزهري ؛ لأنهم لم يصحبوا الزهري كثيراً ، وهم شرط أبي عيسى وفي الحقيقة شرط الترمذي ، أبلغ من شرط أبي داود ؛ لأن الحديث إذا كان ضعيفاً فإنه يبين ضعفه ونبّه عليه ، ويصير الحديث عنده ، من باب الشواهد والمتابعات ، ويكون اعتماده على ما صح عند الجماعة ، وعلى الجملة ؛ فكتابه مشتمل على هذا الفن ؛ فلهذا جعلنا شرطه دون شرط أبي داود .

الطبقة الخامسة : نفر من الضعفاء ، والمجهولين ، لا يجوز أن يخرج حديثهم إلا على سبيل الاعتبار والاستشهاد عند أبي داود ، فأما عند الشيخين فلا .

● رتبة جامع الترمذي :-

وبمعرفة شروط الأئمة الثلاثة ، نجد الترمذي يشترك في شرطه مع الشيخين ، فيخرج في كتابه حديث الطبقة الأولى ، والثانية ، وهما شرط البخاري، ومن شرط مسلم أيضا ومن حديث الطبقة الثالثة التي يخرج مسلم عن بعض رجالها ، ويفترق كتاب الترمذي عن كتابي البخاري ، ومسلم ؛ حيث ينزل فيكثر من حديث الطبقة الثالثة ، ويروي لرجالها على اختلاف أحوالهم ، ويروي أيضا حديث الطبقة الرابعة ، وينزل عنهما درجة أخرى¹، فكتاب الترمذي دون الصحيحين ، وفوقه كتاب مسلم ، وفوقهما كتاب البخاري؛ ولذلك يعتبر كتاب أبي عيسى الترمذي ثالث الكتب الستة ، تالي الصحيحين في الرتبة ، من حيث الصحة ، وذلك لأن شرطه أقوى من شرط أبي داود .

● وفاته:-

توفي أبو عيسى الترمذي الحافظ ، في ترمذ ، ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة مضت من رجب ، سنة تسع وسبعين ومائتين من الهجرة²، وقد قال الحاكم أبو أحمد ، سمعت عمران بن علان يقول : مات البخاري ولم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى في العلم والورع ، فبكي حتي عمي .

¹ - تحفة الأحوزي بجامع صحيح الترمذي - مرجع سابق .

² - عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي - مرجع سابق .

● الحكيم الترمذي :-

هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر ، أبو عبد الله ، الحكيم ، الترمذي ، الإمام الحافظ العارف ، الزاهد ، الصوفي ، الواعظ ، الشافعي ، كان ذا رحلة ومعرفة ، له مصنفات وفضائل ، له حكم ومواعظ وجلالة ، أحد علماء الحديث وأصول الدين ، من أهل السنة والجماعة ، ومن أعلام التصوف السني في القرن الرابع الهجري ، من كبار مشايخ خراسان ، وقد جاء في بعض المراجع المترجمة تسمية : " الحسن " بدلاً من " الحسين " وتسمية : " بشر " بدلاً من " بشير " .

أما لقب " الحكيم " فقد نسبته بعض المحققين إليه لما كان يتصف به من حكمة وعلم وفطنة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾¹.

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾² .

والحكيم في الأصل الثالث والسبعين : إذا نطق الحكيم ، نشر عن الله منته وإحسانه وبصر الخلق ، فردهم إلى الله ، وفي الأصل السابع والثمانين والمائة : فالحكيم قد كُشِفَ له الغطاء ، فبرى عواقب الأمور ، فبرى شئنها وقبحها .

وجاء في الأصل السادس والثمانين والمائتين : فالحكمة من نور الجلال ، فإذا أعطي العبد انفجرت ينابيع الحكمة على قلبه ، فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه ، فهي جاثمة متراكمة ، وما لم تأخذ التجارب ، لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة ؛ لأن النفس بلهاء غتمية ، مشغولة بالشهوات ، فكيف تدرك الحكمة ، والحكمة باطن الأمور وأسرار العلم فهي تعالين الظاهر ولا تدركه ، فكيف تدرك الباطن ؟ لذا قال من ترجم الحكيم : له حكم ومواعظ وجلالة .

¹ - سورة البقرة ، آية : 269

² - سورة لقمان ، آية : 12

ولم ينفرد الحكيم الترمذي بهذا اللقب ، وإن اشتهر به ، وصار علماً عليه ، والمتتبع لكتب التراجم يجد أن بعض الأعلام قد أطلق عليهم هذا اللقب ، وامتنح به ، منهم : أبو بكر الوراق محمد بن عمر الحكيم¹ ، إبراهيم بن علي بن محمد السلمي المغربي الحكيم ، الإمام في العقلية².

● مولده ونشأته :-

ولد محمد بن علي بن الحسن ، الملقب بالحكيم الترمذي في ترمذ ، إحدى أهم مدن أوزبكستان ، وأغلب من ترجم له لم يذكر تاريخ ميلاده ، بل اكتفى بعضهم بأنه ولد في أوائل القرن الثالث الهجري ، وإن كان البعض يقول إنه ولد في عام 228 هـ ، ولا يُعرف الكثير عن نشأته وحياته ، ولعل من أسباب عدم الاهتمام الكبير بحياة الإمام الحكيم الترمذي ، أنه عاش في عصر العلماء الكبار الذين كانوا سمع الدنيا وبصرها فخبى وهجبه أمام نور هؤلاء العظام ، كالأئمة الستة وغيرهم³ ، ويلاحظ أن بعضاً من حياة الحكيم الترمذي كانت محفوظة بعناية من الله تعالى ، حيث إنه ولد في ترمذ وهي معقل من معاقل العلم ، ومركز من مراكز الثقافة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ، نشأ فيها عدد كبير من العلماء والمحدثين ، وقد ولد لأبوين صالحين ، ونشأ في بيت علم وفضل ، فوالده علي بن الحسن كان رجلاً صالحاً من علماء الفقه ، ورواة الحديث ، فتلقاهما ولده عنه حفظاً ودراسة .

هجره أهل ترمذ في أواخر عمره بسبب تصنيفه كتاباً خالف فيه ما عليه أهلها ، هو كتاب " ختم الولاية وعلل الشريعة " ، وقيل : اتهم باتباع طريقة الصوفية في الإشارات ودعوى الكشف ، وقيل فضل الولاية على النبوة ، لكن بعض العلماء ردّ عنه تلك

¹ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني - دار الكتاب العربي - بيروت .

² - طبقات الشافعية الكبرى - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي - تحقيق : د . محمود محمد الطناحي ، د . عبد الفتاح محمد الحلو - دار هجر للطباعة النشر والتوزيع - القاهرة .

³ - طبقات الصوفية - أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي - تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - القاهرة .

الانتهاكات ، وقد قدم إلي بلخ بعد خروجه من ترمذ ، فرحب به أهلها لموافقته إياهم على المذهب ، فأكرمه أهلها وكان عمره نحو تسعين سنة¹.

خرج الحكيم الترمذي للحج إلى بيت الله الحرام وهو في ريعان الشباب ، وفيه ألهم الدعاء والتوبة النصوح ، ثم توجه لحفظ كتاب الله تعالى ، وسماع الحديث ، ثم عكف على العبادة والذكر والخلوة عن الخلق ، وقد تحلى بالعديد من الصفات والأخلاق العالية منذ صباه ، فقد ، التزام بمنهج التصوف الحق الذي لا يشوبه باطل ، ولم تدخله البدع إنما هو التحلي بصفات الله ، والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ ، وبنى حياته على الورع والزهد ، وطول النجوى ، ومقاومة النفس ، وتجنب الشهوات .

تكلم الحكيم الترمذي في أحوال الحب والمحبين ، ومقامات السائرين ، وطار صيته وارتفعت منزلته ، فامتحن بأناس سلبوا الفهم السليم ، والرأي السديد ، فقد ورد أن أهل ترمذ نفوه منها ، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تأليفه كتاب " ختم الولاية " ، وكتاب " علل الشريعة " .

وقالوا : زعم أن للأولياء خاتماً ، وأنه يفضل الولاية على النبوة ، فجاء إلى بلخ فأكرموه ؛ لموافقته إياهم في المذهب ، وبعد انجلاء الفتنة ، عاد الحكيم إلى مسقط رأسه ترمذ ، وقيل إنه مات في بلخ . ويلوح صدق ما يقول الحكيم الترمذي ، لا سيما في كتاب " نواذر الأصول " .

قلنا إنه حُمل إلى بلخ ، فأكرموه ، لموافقتهم مذهبه ورأيه ، ويدل ذلك الكرم على أنه من أهل الرأي ، وهو المذهب السائد في تلك الديار ، فقد كان والده علي بن الحسن أحد تلامذة محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة² لم يكن من منهج أهل التصوف الإكثار من الأسفار لأجل السماع ولقاء الشيوخ ، إنما كان لهم شأن آخر ، ومنهج مختلف وكذلك كان الحكيم في بدو أمره ؛ اعتماداً منه على والده ، الذي كان شيخاً وموجهاً له وبعض شيوخ القوم ، يتعلم منهم أحوالهم ، وطريقة سلوكهم إلى الله تعالى ، إلا أنه مع

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

² - لسان الميزان - أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - تحقيق : دائرة المعارف النظامية بالهند - مؤسسة الأعلمي للطبوعات - الطبعة الثانية 1971 - بيروت

تقدم العمر، وارتقاء الهمة ، حرص على التوجه إلى بيت الله الحرام ، وفي رحلته هذه ذهاباً وإياباً عني بشأن الحديث والسماح ، فتنقل ، وسمع الكثير بخراسان والعراق والبصرة وصار في شيوخه كثرة .

● شيوخه :-

للحكيم الترمذي شيوخ في الصحبة لم ينقل عنهم في " النوار " حديثاً واحداً ، منهم : أبو تراب النخشي المتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين ، وأحمد بن خضرويه المتوفى سنة أربعين ومائتين ، ويحيى بن الجلاء ، كما أن له شيوخ في الرواية ، أخذ عنهم في رحلته إلى نيسابور والعراق وغيرهما ، فقد التقى بالعديد من المحدثين الكبار ، والعلماء الأفاضل ، سمع منهم فأكثر ، والتقى بطبقة دونهم في العلم والرواية ، أخذ عنهم الشيء اليسير ، ومن هؤلاء المشايخ : علي بن الحسن " والده " ، قتيبة بن سعيد ، الجارود بن معاذ ، حفص بن عمرو ، سفيان بن وكيع ، صالح بن عبدالله الترمذي ، صالح بن محمد الترمذي ، عمر بن أبي عمر ، عبدالله بن أبي زياد القطواني ، علي بن حجر السعدي ، إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى ، إبراهيم بن المستمير الهذلي ، إبراهيم بن عبد الحميد التمار ، أبو بكر بن سابق الأموي ، عمر بن يحيى بن نافع ، إبراهيم بن زيد الجرجاني ، إبراهيم بن سعيد الجوهري ، إبراهيم بن هارون البلخي ، إسماعيل بن الهيثم ، والحسن بن حامد .

● تلاميذه :-

قال الحكيم في رسالته : حتى اجتمع الناس ببابي من مشايخ البلد من غير أن أشعر بهم وقرعوا الباب ، فخرجت إليهم ، فكلمني في القعود لهم ، وقد كان هؤلاء الأشكال قد قبّحوا أمري عند العامة؛ لما كانوا يذيعون عليّ من الكلام القبيح ، ويشنعون أمري ويرمونني بالبدعة من غير أن يكون ذلك من شأني ، أو توهمته قط ، فما زالوا يكلمونني في ذلك حتى أجبتهم إلى القعود ، فذكرت لهم من الكلام شيئاً كأنني أعترف من البحر ، فأخذت من القلوب مأخذاً ، واجتمع الناس ، فلم تتحمل داري ذلك ، وامتألت السكة والمسجد ، فلم يزلوا بي حتى مدوني إلى المسجد ، وذهبت تلك الأكاذيب والأقاويل

الباطلة ، ووقع الناس في التوبة ، وظهرت التلامذة ، وأقبلت الرياسة ، والفتن بلوى من الله لعبده .

كان الحكيم الترمذي إمام مدرسة سامية وفكر راق ، ولذلك كان له الكثير من التلامذة وطلاب العلم ، حيث نهلوا منه ، وساروا على طريقته ، وانتهجوا نهجه ، وتذوقوا ذوقه ولكن كما أن الكثير من حياته مجهول ، فإن القليل أيضاً ما ذكر عن أتباعه ومريديه وخاصة أن الحكيم الترمذي لم يفرد مجالس خاصة برواية الحديث كما هي طريقة المحدثين ؛ لذا قلّت تلامذته من حيث الرواية ، وكثرت من حيث التربية ، وخاصة أنه عاش في العصر الذهبي لعلم الحديث ، إذ كان من أقرانه سادة الدنيا في علم الحديث رواية ودراية ، شدّت الرّحال إليهم وجلس الطلبة بين يديهم ، ومن تلامذة الحكيم الترمذي : أبو محمد يحيى بن منصور القاضي ، منصور بن عبدالله الذهلي الهروي ، الحسن بن علي الجرجاني ، أبو الحسن محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي الحافظ النيسابوري ، أحمد بن عيسى الجوزجاني ، أبو علي النيسابوري ، وجماعة من علماء نيسابور ، أبو الحسن علي بن محمد بن ينال العكبري ، وأبو نصر أحمد بن أحميد الشيشقي " ينسب إلى قرية " شيشق " من قرى ترمذ ، وقد روى كتاب " النوادر " عن أبي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي¹.

● مآثوراته :-

لم يكن لقب " الحكيم " ، الذي حازه الحكيم الترمذي من فراغ ، ولكن لحكمته وعلمه ، فقد ورد عنه الكثير من الحكم ، والأقوال المأثورة ، حيث نقل عنه العلماء مجموعة من جواهر كلامه ، ودُرر عباراته ، فيها نماء للفكر ، ونور للقلب منها :

" ليس الفوز هناك بكثرة الأعمال ، إنما الفوز هناك بإخلاص الأعمال وتحسينها "

" من شرائط الخدام : التواضع والاستسلام " .

" الناس في استماع الحكمة رجالان : عاقل ، وعامل ، فالعاقل : يتعجب ، وهو لما يسمعه يشتهي ، والعامل يتقلب ؛ كأن قلبه منه حية تلتوي " .

¹ - نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم - محمد بن علي بن الحسن بن بشر ، الحكيم الترمذي - تحقيق : عبد الرحمن عميرة - دار الجبل - بيروت .

" ليس في الدنيا حمل أثقل من البر ؛ لأن من بَرَكَ فقد أوثقك ، ومن جفاك فقد أطلقك " .
 " كفى بالمرء عيباً أن يسره ما يضره " .
 " دعا الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمةً منه عليهم ، فهيأ لهم فيها ألوان الضيافات ؛ لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطايه ، فالأفعال كالأطعمة ، والأقوال كالأشربة ، وهي عرس الموحدين " .
 " العاقل من اتقى ربه ، وحاسب نفسه " .
 " من جهل أوصاف العبودية ، فهو بنعوت الربانية أجهل " .
 " صلاح خمسة أصناف في خمسة : مواطن صلاح الصبيان في الكتاب ، وصلاح القُطّاع في السجن ، وصلاح النساء في البيوت ، وصلاح الفتيان في العلم ، وصلاح الكهول في المساجد " .
 " ضَمَنَ الله تعالى للعباد الرزق ، وفرض عليهم التوكل " .
 " حقيقة محبة الله دوام الأُنس بذكره " .
 " المؤمن بِشْرُهُ في وجهه ، وحُزْنُهُ في قلبه ، والمنافق حُزْنُهُ في وجهه ، وبشْرُهُ في قلبه " .
 " الدنيا عروس الملوك ، ومراة الزهاد ، أما الملوك ، فتجملوا بها ، وأما الزهاد ، فنظروا إلى آفتها ، فتركوها " .
 " وقد سُئِلَ عن الخلق ، فقال : ضعف ظاهر ، ودعوى عريضة " .
 " اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه " .
 " ملاك القلوب بكمال الخشية ، وملاك النفوس بكمال التقوى " .
 " المكَلَّم والحدِّث إذا تحققا في درجتهما ، لم يخافا من حديث النفس ، وكما أن النبوة محفوظة بالنسخ لإلقاء الشيطان ، كذلك محل المكاملة والحادثة مصونة من إلقاء النفس وفتنتها ، محروسة بالحق والسكينة ؛ لأن السكينة حجاب المكَلَّم والحدِّث عن نفسه " .
 " وقد سُئِلَ : هل يخاف المحدثون سوء العاقبة " .
 " فقال : خوف هول ، وقلق يكون كالخبرات ، ثم يمضي ؛ فإن الله تعالى لا يحب أن يكدر عليهم مننه " ¹ .

¹ - نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

● مكانته عند العلماء :-

قُلَّ أن تجد رجلاً من الرجال ، أو عالماً من العلماء ، إلا وقد اختلف الناس فيه بين مباح وقادح ، بين محب ومبغض ، والذي يجب على المحب أو المخالف الإنصاف والإنصاف عزيز في هذا الزمان ، فمن قال من العلماء قولاً ، عُرِضَ قوله على الكتاب والسنة فإن خالف ، قلنا : أخطأ ، وتبقى مكانته محترمة ، وإن أصاب ، قبلنا منه ، وأخذنا عنه ، وأقررنا له ، وقد اختلف كثيرًا حول الحكيم الترمذي¹ ، ولكن يمكن اقتطاف بعض ما قيل في حق الشيخ الحكيم الترمذي ، حتى تتضح مكانته بين العلماء :

قال الحافظ أبو نعيم : له التصانيف الكثيرة في الحديث ، وهو مستقيم الطريقة ، تابع للأثر يرد على المرجئة وغيرهم .

قال ابن النجار في " ذيل تاريخ بغداد " : كان إماماً من أئمة المسلمين ، له المصنفات الكبار في أصول الدين ، ومعاني الحديث ، وقد لقي الأئمة الكبار ، وأخذ عنهم ، وفي شيوخه كثرة ، وله كتاب " نوارد الأصول " مشهور ، رواه عنه جماعة بخراسان .

قال ابن تيمية في " الصفدية " : والترمذي مع فضله وعلمه لما صنف كتاب " خاتم الأولياء " أنكر المسلمون عليه ذلك ، وأخرجوه كما ذكر ذلك السلمي².

قال الذهبي في " تاريخ الإسلام " : المحدث أبو عبد الله ، الحكيم الترمذي المؤذن ، صاحب التصانيف في التصوف والطريق ، سمع الحديث الكثير بخراسان والعراق وقال في " السير " : الإمام الحافظ العارف الزاهد .

وكان ذا رحلة ومعرفة ، وله مصنفات وفضائل .

وله حكم ، ومواعظ ، وجلالة ، لولا هفوة بدت منه .

قال الداودي في " طبقات المفسرين " : كان من المشايخ الكبار ، وله كرامات ظاهرة ، وتصنيفات باهرة ، ومن مصنفاته كتاب " النهج " ، و " نوارد الأصول " في الحديث ، و " التفسير " ولم يكمله .

قال السبكي : ومن تصانيف الترمذي كتاب " الفروق " لا بأس به ، بل ليس في بابيه مثله

¹ - نوارد الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم - مرجع سابق .

² - الحكيم الترمذي ومنهجه الحديثي في نوارد الأصول - د . رجاء مصطفى حزين - دار الآفاق العربية - القاهرة .

قال القشيري في " الرسالة " : هو من كبار الشيوخ ، وله تصنيف في علوم القوم .
وأطال في الثناء عليه .

قال السلمي : له الشأن العالي ، والنعت المشهور .

قال ابن عطاء الله : كان العارفان الشاذلي والمرسي يعظمانه جدًا ، ولكلامه عندهما
الخطوة التامة ، ويقولان : هو أحد الأوتاد الأربعة .

قال الكلاباذي في " التعرف " : هو من أئمة الصوفية .

قال الكتاني في " المستطرف " : أحد الأوتاد الأربعة ، وصاحب التصانيف

● مؤلفاته وآثاره :-

ترك الحكيم الترمذي ميراثاً علمياً غزيراً ، منها الكتب المطبوعة ، ومنها الكتب
المخطوطة ، ومنها الكتب المفقودة التي لم يتم الوصول إليها ، ولكن عُرِفَت من خلال
الإشارة إليها في التراجم والسير ، وهذه الكتب :

● الكتب المطبوعة :-

أدب النفس ، الأمثال من الكتاب والسنة ، بدو شأن أبي عبدالله " ترجمة بقلمه " ، بيان
الفرق بين الصدر والفؤاد واللب ، تحصيل نظائر القرآن ، الحج وأسراره ، ختم
الأولياء ، الرياضة ، شرح الصلاة ومقاصدها ، الكلام على معنى لا إله إلا الله ، معرفة
الأسرار ، منازل العباد من العبادة ، نواذر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ﷺ
آداب المريدين ، بيان الكسب ، المسائل المكنونة ، رسالة مكر النفس ، علم الأولياء¹ .

● المخطوطات :-

أبواب مختلفة ، إثبات العلل في الأمر والنهي ، الأدعية ، كتاب الأكياس والمغترين
أنواع المعارف ، بيان العلم ، بيان الفرق بين الآيات والكرامات ، الجمل اللازم معرفتها
جواب كتاب الري ، الحقوق ، الحكمة أو الخدمة من علم الباطن ، الرد على الرافضة
الرد على المعطلة ، رسائل في الفتوة ، سبب التكبير في الصلاة ، شرح سؤالات في
التعبيرات الإلهية ، شرح قول ما الإيمان والإسلام والإحسان ، صفة القلوب ، عرس
الموحدين ، العقل والهوى ، العلل أو كيفية الصلاة والوضوء والسواك ، غرس

¹ - الحكيم الترمذي ومنهجه الحديثي في نواذر الأصول - مرجع سابق .

الموحدين " وسماه البعض : غرس العارفين " ، غور الأمور ويسمى الأعضاء والنفس) **طبع حديثاً** الفروق ومنع الترادف (**طبع حديثاً**)¹ ، مسائل أهل سرخس ، مسائل التعبير ، مسائل رقم واحد ، مسائل رقم اثنان ، المسائل العفنة ، المسائل المكنونة منتخبات من كتاب الصفاء ، المناجاة ، نواذر أصول العرفان وزواهر فروع الإيقان الهداية إلى معرفة آداب الولاية .

● الكتب المفقودة :-

كتاب الإرادات ، بيان المعرفة والصفاء ، تاريخ المشايخ ، تفسيره " تفسير القرآن الكريم للحكيم الترمذي " ، التوحيد ، ختم الأنبياء ، سيرة الأولياء ، طبقات الصوفية عذاب القبر ، العلوم ، المنهج في العبادة ، **المنهج** " وسماه بعضهم : **المنهج** ، فعله السابق"².

● وفاته :-

لم يعرف علي وجه التحديد العام الذي توفي فيه الحكيم الترمذي ، وقد اختلفت الروايات حول ذلك ، فقد قال البعض ومنهم ابن الأنباري أنه توفي عام 320 هـ ، ومنهم من قال إنه توفي عام 318 هـ ، بعد عمر ناهز التسعين عاماً ، ومنهم ابن حجر العسقلاني وقال الذهبي إنه عاش نحواً من ثمانين عاماً . وإذا صدقت رواية أنه ولد في صدر القرن الثالث ، فعلى هذا يكون القول إنه مات في حدود سنة 285 أقرب للصواب ، مع النظر إلي تاريخ وفاة بعض شيوخه³.

¹ - نواذر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم - مرجع سابق .

² - نواذر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم - مرجع سابق .

³ - مقدمة محقق كتاب " نواذر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم " - محمد بن علي بن الحسن بن بشر ، الحكيم الترمذي - تحقيق : عبد الرحمن عميرة - دار الجبل - بيروت .

● إسحاق بن إبراهيم أبو يعقوب الشاشي:—

إسحاق بن إبراهيم أبو يعقوب الخرساني الشاشي ، شيخ أصحاب أبي حنيفة ، وعالمهم في زمانه¹، من الذين قدموا مصر ، إذ كان يتفقه على مذهب أبي حنيفة ، وكان يتصرف مع قضاة مصر ويولي قضاء بعض أعمالها .

● مولده ونشأته:—

لم تشر المصادر إلي تاريخ ميلاده ، أو العام الذي ولد فيه ، شأنه في ذلك شأن كثير من الأعلام ، وقد يكون السبب في ذلك أن الأسرة في ذلك الوقت لم تكن تهتم بإثبات المواليد ، ولكنه انتقل من مدينة شاش وراء نهر سيحون إلى مصر، وكان يتصرف مع قضاة مصر ، ويولي قضاء بعض أعمال مصر² .

● شيوخه:—

كان إسحاق الشاشي يروي الجامع الكبير عن زيد بن أسامة عن أبي سليمان الجوزجاني عن محمد بن الحسن .

● مكاته عند العلماء:—

قال المراغي في الفتح المبين : وقد برع في أصول الفقه³.

● مؤلفاته:—

ألف إسحاق بن إبراهيم أبو يعقوب الشاشي ، كتابه " أصول الشاشي " ، ونسب له هذا الكتاب الزركلي في الأعلام ، خلافاً لما جاء في الجواهر المضيئة ، والفوائد البهية والطبقات السنية ، إذ ذكروا ترجمته ، ولم ينسبوا له أي كتاب في أصول الفقه . رغم أنه توجد نسخة خطية لأصول الشاشي منسوبة إلى إسحاق بن إبراهيم الشاشي في كثير من مكتبات العالم ، وطبع منسوباً إليه في الهند وباكستان أكثر من مرة⁴.

¹ - الأعلام - خير الدين الزكلي - دار العلم للملايين 1980 - بيروت .

² - الغريباء الذين قدموا مصر - ابن يونس

³ - الإمام إسحاق الشاشي - شيماء عبد المجيد زهران - كلية العلوم الإسلامية - جامعة المدينة العالمية - شاه علم - ماليزيا .

⁴ - أصول الشاشي وبهامشه عمدة الحواشي - أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي ، محمد فيض الحسن الكنكوهي - تحقيق : عبد الله محمد الخليلي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى 2003 - بيروت .

وممن ذكر أيضاً أن هذا الكتاب مطبوع في مجلد بالهند ومنسوب إلى إسحاق الشاشي البغدادي في كتابه هدية العارفين ، أما عن وجوده في غالب مكتبات العالم فقد هذا الخلط في الآراء المتعلق بنسبة كتاب أصول الشاشي إلي أي من علماء شاش ، وكذلك ما ورد في فهرس مخطوطات خزانة التراث ، الذي ذكر عدد من المكتبات حول العالم بها كتاب أصول الشاشي منسوباً إلي الإمام اسحاق بن إبراهيم الشاشي ، منها : المكتبة المركزية بمكة المكرمة ، ومعهد الدراسات الشرقية في روسيا ، ومكتبة قوله في القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ومكتبة رامبور بالهند ، ومكتبة خدابخش ، وبمكتبة جامعه كلكتا ، وأيضاً مكتبة المصغرات الفيلمية بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ومكتبة كلية الآداب والمخطوطات بالكويت ، والمكتبة الأزهرية وفي فهرس آل البيت¹.

الروايات التي أوردت وجود كتاب باسم " أصول الشاشي " منسوباً إلى اسحاق بن إبراهيم الشاشي ، يدل علي أن ذلك كتاب آخر ، غير أصول الشاشي المتداول ، حيث توجد نسخة خطية من أصول الشاشي ، لإسحاق بن إبراهيم ، أبي يعقوب الخرساني برقم 533 ، في مكتبة ديال سنكة الموقوفة في لاهور في باكستان " ، ولما كان هناك اختلاف في بداية ونهاية أصول الشاشي المنسوب إلى اسحاق الشاشي ، من بداية ونهاية أصول الشاشي المتداول ، علم أن هناك كتابين بعنوان أصول الشاشي ، أحدهما لإسحاق بن إبراهيم الشاشي والآخر لنظام الدين الشاشي .

● وفاته :-

توفي اسحاق بن إبراهيم أبو يعقوب الشاشي عام خمس وعشرين وثلاث مائة من الهجرة / سبع وثلاثون وتسع مائة من الميلاد ، ودفن في مصر².

¹ - أصول الشاشي وبهامشه عمدة الحواشي - مرجع سابق .

² - الإمام اسحاق الشاشي - مرجع سابق .

● أبو منصور الماتريدي:—

هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي ، والماتريدي نسبة إلى ماتريد (بضم التاء) ، من بلاد سمرقند ، من علماء أهل السنة والجماعة ، إمام المدرسة الماتريدية التي يتبعها غالبية أتباع المذهب الحنفي في العقيدة ، صنف التصانيف الجليلة وردّ على أكاذيب أقوال أصحاب العقائد الباطلة ، والملقب باسم "إمام الهدى" ، و " إمام المتكلمين¹ وكان الإمام الماتريدي والإمام أبو الحسن الأشعري ، لهما دوؤ ارز في تحرير عقيدة الأشاعرة والماتريدية بالأدلة النقلية والعقلية .

وتظهر مكانته في نفوس مسلمي عصره ومؤرخيه ، ورغم ذبوع اسمه واشتهاره واشتهار فرقة الماتريدية المنسوبة إليه فقد كان المؤرخون الذين كتبوا عنه قلة .

● مولده ونشأته :—

لم تذكر المراجع سنة ميلاده بالتحديد ولكن يمكن القول إنه ولد في عهد المتوكل الخليفة العباسي ، وإنه يتقدم على الإمام الحسن الأشعري ببضع وعشرين سنة² ، وقد ولد في بيت من البيوت التي شغفت بالعلوم الدينية ، فنشأ وتعلم علوم الدين منذ صغره ، ولم يتقاعس لحظة في الدعوة إلى مذهب أهل السنة والدفاع عنه والتمسك به ، ولم يفتر عزمه عن الاشتغال بعلم الكلام والتأليف فيه ونصب الأدلة والحجج والبراهين .

ينتهي نسبه إلى أبي أيوب خالد بن زيد بن كليب الأنصاري ، مضيّف النبي ﷺ في دار الهجرة³ وقد اشتهر الإمام ، بالماتريدي من قرى سمرقند في بلاد ما وراء النهر " جيحون " ، ويوصف بالماتريدي تارة ، والسمرقندي تارة أخرى .

اهتم أبو منصور الماتريدي بعلوم القرآن ، فقد دارت علومه حول تأويل القرآن الكريم وأصول الفقه وعلم الكلام وما يتعلق به ، وقد درس العلوم العقلية ، كما درس العلوم النقلية درساً متقناً عميقاً ، ووقف على دقائقها حتى صار إماماً مبرزاً في الفقه والتأويل

¹ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية - عبد القادر بن محمد بن أبي الوفاء القرشي - دار هجر 1993 - القاهرة

² - الفوائد البهية في تراجم الحنفية - أبو الحسنات محمد عبد الحي بن الحافظ اللكنوي - دار الأرقم 1998 - القاهرة .

³ - كتاب التوحيد - أبو منصور الماتريدي - تحقيق : د . فتح الله خليف - دار الجامعات المصرية - الإسكندرية .

وعلم الكلام ، وبعد أن نال القسط الوفير من الثقافة والعلم انصرف إلى التدريس والتتقيف ، فصنّف وألّف وكرّس حياته لحماية الإسلام ونصرة عقيدة أهل السنة والجماعة حتى وصفه العلماء بأنه كان إماماً جليلاً ، مناضلاً عن الدين ، موطداً لعقائد أهل السنة ، قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم ، وخصمهم في محاوراتهم إلى أن أسكتهم ، فكان ناصر السنة وقامع البدعة ومحبي الشريعة كما أن كنيته تدلّ على ذلك أيضاً ووجدت في كلام بعض الأجلاء من شيوخ الطريقة له كان مهدي هذه الأمة في وقته .

● مذهبه العلمي :-

أبو منصور الماتريدي من علماء أهل السنة والجماعة ، وهو إمام المدرسة الماتريدية التي يتبعها غالبية أتباع المذهب الحنفي في العقيدة ، وكان الإمام الماتريدي والإمام أبو الحسن الأشعري الإمامين الجليلين الذين حررا عقيدة الأشاعرة والماتريدية بالأدلة النقلية والعقلية ، وقد لقب الماتريدي باسم " إمام الهدى " و " إمام المتكلمين " وغيره من الألقاب ، وهي ألقاب تظهر مكانته في نفوس مسلمي عصره ومؤرخيه ، ورغم ذبوع اسمه واشتهاره واشتهار فرقة الماتريدية المنسوبة إليه فقد كان المؤرخون الذين كتبوا عنه قلة .

وجاء في " مفتاح السعادة " إنّ رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان : أحدهما حنفيّ ، والآخر شافعي ، أمّا الحنفيّ : فهو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي ، وأمّا الآخر الشافعي : فهو شيخ السنة أبو الحسن الأشعري¹ .

● شيوخه :-

لم تذكر المراجع إلا القليل من مشايخه الذين تلقى علومه عنهم إلا أنهم جميعاً يصل سندهم في العلم إلى الإمام الجليل أبي حنيفة النعمان ، وقد تخرج الماتريدي بمحمد بن مقاتل الرازي المتوفى سنة 248 هـ ، نصير بن يحيى ، ويقال نصر بن يحيى البلخي المتوفى سنة 268 هـ ، أبو بكر أحمد بن إسحاق بن صبيح الجوزجاني ثم البغدادي

¹ - كتاب التوحيد - مرجع سابق .

الحنفي ، أحمد بن العباس بن الحسين بن جبلة السمرقندي أبو نصر العياضي المتوفى في الثلث الأول من القرن الرابع¹.

أمّا أبو نصر العياضي وأبو بكر الجوزجاني فقد تفقّها على الإمام أبي سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني ، وهذا الأخير تفقّه على صاحبي أبي حنيفة : أبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني اللذين تفقّها على أبي حنيفة ، وأمّا نصير البلخي ومحمد بن مقاتل الرازي فقد تفقّها على الإمامين أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي ، وأبي مقاتل حفص بن سلم السمرقندي الذين تفقّها على الإمام أبي حنيفة كذلك².

وأمّا شيخه المذكور أبو نصر العياضي الذي تخرّج به فهو أحمد بن العباس بن الحسين ابن جبلة بن غالب بن جابر بن نوفل بن عياض بن يحيى بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الفقيه السمرقندي ، وهو من أهل العلم والجهاد ولم يكن أحدّ يضاياه لعلمه وورعه وجلادته وشهامته إلى أن استشهد ، خلف أربعين رجلاً من أصحابه كانوا من أقران أبي منصور الماتريدي وله ولدان فقيهان فاضلان أبو بكر محمد وأبو أحمد .

ومن مشايخ الماتريدي نصير بن يحيى البلخي ، ومحمد بن مقاتل الرازي قاضي الريّ حدّث عن وكيع وطبقته ، فأما أبو بكر الجوزجاني وأبو نصر العياضي ونصير بن يحيى فكلهم تفقّها على الإمام أبي سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني وهو على الإمامين أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، وتفقّ محمد بن مقاتل ونصير بن يحيى أيضاً على الإمامين أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي وأبي مقاتل حفص بن مسلم السمرقندي وأخذ محمد ابن مقاتل أيضاً عن محمد بن الحسن أربعتهم عن الإمام أبي حنيفة .

وأما علومه فقد دارت حول تأويل القرآن الكريم وأصول الفقه وعلم الكلام وما يتعلق به ، وقد درس العلوم العقلية ، كما درس العلوم النقلية درساً متقناً عميقاً ، ووقف على دقائقها حتى صار إماماً مبرزاً في الفقه والتأويل وعلم الكلام .

¹ - الجواهر المضبية في طبقات الحنفية - مرجع سابق .

² - تاج التراجم في من صنف من الحنفية - زين الدين أبي العدل قاسم بن قطلوبغا - دار المأمون للتراث 1992 - القاهرة .

وبعد أن نال القسط الوفير من الثقافة والعلم انصرف إلى التدريس والتنقيف، فصنّف وألّف وكرّس حياته لحماية الإسلام ونصرة عقيدة أهل السنة والجماعة حتى وصفه العلماء بأنه كان إماماً جليلاً، مناضلاً عن الدين، موطداً لعقائد أهل السنة، قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم، وخصمهم في محاوراتهم إلى أن أسكتهم.

● تلاميذه :-

أبو القاسم إسحاق بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحكيم السمرقندي ، المتوفى سنة 342 هـ ، وأبو محمد عبد الكريم بن موسى بن عيسى البزدوي ، المتوفى سنة 390 هـ — أبو الحسن علي بن سعيد الرستغفني ، أبو عصمة بن أبي الليث البخاري¹.

● المدرسة الماتريديّة :-

الماتريديّة فرقة كلامية تنسب إلى محمد بن محمد بن محمود بن محمد الماتريدي ، أبي منصور الحنفي السمرقندي ، والماتريديّة نسبة إلى " ماتريد " بفتح الميم وسكون الألف وضم التاء فوقانية المثناة وكسر الراء المهملة وسكون الياء ودال مهملة ، وهي محلة من سمرقند².

كان للمدرسة الماتريديّة العديد من التابعين الذين تأثروا بفكر الماتريدي ، وساروا على نهجه ، منهم : القاضي الإمام أبو اليسر محمد بن محمد بن الحسين عبد الكريم البزدوي المولود عام 421 هـ ، والمتوفى عام 478 هـ ، وقد ألّف كتاب " أصول الدين " أبوالمعين النسفي المولود عام 502 هـ ، وهو من أعظم أنصار ذلك المذهب ، مؤلف كتاب " تبصرة الأدلة " ، والذي يعدّ الينبوع الثاني بعد كتاب " التوحيد " للماتريديّة الذين جاءوا بعده ، الشيخ نجم الدّين أبو حفص عمر بن محمد المولود عام 537 هـ ، مؤلف كتاب " عقائد النسفي " ، الذي يعد بمثابة الفهرس لكتاب " تبصرة الأدلة " والذي مازال محور الدراسة في الأزهر الشريف وغيره ، الشيخ مسعود بن عمر النقتازاني أحد المتضلّعين في العلوم العربيّة ، والمنطق والكلام ، وهو شارح " عقائد النسفي " الشيخ

¹ - تاج العروس شرح القاموس - محمد بن محمد عبد الرازق المرتضي الزبيدي - دار المأمون للتراث 1991 - القاهرة

² - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للإمام الغزالي - محمد بن محمد الحسيني الزبيدي - دار الكتب العلمية 2009 - القاهرة .

كمال الدين محمد بن همام الدين الشهير بابن " الهمام " المتوفي عام 861 هـ — صاحب كتاب " علم الكلام " الذي شرحه محمد محيي الدين عبد الحميد ، العلامة كمال الدين أحمد البياضي الحنفي مؤلف كتاب " إشارات المرام من عبارات الإمام " وهو أحد العلماء في القرن الحادي والعشرين ، وكتابه هذا أحد المصادر للماتريديّة ، الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري المصري ، وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية ، أحد الخبراء في الحديث الشريف ، والتاريخ ، والملل ، والنحل¹.

● مؤلفاته :-

كان للإمام أبي منصور الماتريدي العديد من المؤلفات ، منها ما كان في علم الكلام والعقيدة ، ومنها ما كان في أصول الفقه ، ومنها ما كان في تأويل القرآن . أما في علم الكلام فله عدة مصنفات منها كتاب " التوحيد " ، وكتاب " المقالات " وكتاب " الرد على القرامطة " ، و " بيان وهم المعتزلة " ، و " رد الأصول الخمسة لأبي محمد الباهلي " و " أوائل الأدلة للكعبى " و " رد كتاب وعيد الفساق للكعبى " و " رد تهذيب الجدل للكعبى " وغيرها .

كتاب " تأويلات أهل السنة " ، وقد ذكره بهذا العنوان صاحب " كشف الظنون " ، لكن نسخة " كوبرلي " عنونت باسم " تأويلات الماتريدي في التفسير " ، وأما أصحاب الطبقات فقد ذكره باسم " تأويلات القرآن " وهذا الاسم تحمله النسخ الأخرى الموجودة في تركيا والهند وألمانيا والمدينة المنورة ودمشق والمتحف البريطاني وطشقند² ، ولعل الكتاب كان يحمل الاسمين في مبتدأ الأمر فاختصره

المؤرخون وأصحاب الطبقات على ذلك ، وقد وصف الإمام عبد القادر القرشي المتوفى سنة سبعمائة وخمس وسبعين للهجرة هذا الكتاب بقوله : " هو كتاب لا يوازيه فيه كتاب بل لا يدانيه شيء من تصانيف من سبقه في ذلك الفن " ، وجاء في نسخة مكتبة " خدابخش " في الصحيفة الأولى إسناد كتاب " تأويلات القرآن " إلى الماتريدي ، وجاء فيما يليه مقدمة من مؤلف هذا الكتاب وعن تعريف التفسير والتأويل ، وجاء في مقدمة

¹ - كتاب التوحيد - مرجع سابق .

² - مجلة البحوث الإسلامية - العدد الخامس والخمسون - رجب : شوال 1419 هـ .

الكتاب أيضاً ما نصه : " قال الشيخ الإمام الزاهد علم الدين شمس العصر ، رئيس أهل السنة والجماعة أبو بكر محمد بن أحمد السمرقندي " : إن كتاب التأويلات المنسوب إلى الشيخ الإمام أبي منصور الماتريدي كتابٌ جليل القدر ، عظيم الفائدة في بيان مذهب أهل السنة والجماعة في أصول التوحيد ، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله في أصول الفقه وفروعه على موافقة القراءن " .

وذكر صاحب " كشف الظنون " كتاب " تأويلات القراءن " تحت عنوان " تأويلات الماتريديّة في بيان أصول أهل السنة وأصول التوحيد " ، وصرح بأنه ثمانية مجلدات وأن الشيخ علاء الدين محمد بن أحمد هو الذي جمعه ، وجاء في " تأويلات القراءن " في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنُتَرِّنِي وَلَٰكِنِ أَنْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا كَلَّمَهُ لَرَّبُّهُ الْجَبَلُ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ١﴾

قوله : " والقول بها " (يعني رؤية الرب) لازم عندنا في الآخرة ، وحق من غير إدراك ولا تفسير " ، أي من غير تشبيه ولا كيفية .

كتاب " شرح الفقه الأكبر " وهو كتاب يُعرف محتواه من عنوانه ، فقد تناول كتاب " الفقه الأكبر " لأبي حنيفة بالشرح والإيضاح والتفسير .

كتاب " التوحيد " ويعتبر المصدر الأول لطلاب المدرسة الماتريديّة وشيوخها الذين جاءوا بعد الماتريدي ، واعتنقوا مذهبه ، وهو يستمدّ في دعم آرائه من الكتاب ، والسنة والعقل ، وقد قام بتحقيق نصوصه ونشره الدكتور فتح الله خليف عام 1970 .

كتاب " تأويلات أهل السنة " في تفسير القرآن الكريم ، وهو تفسير في نطاق العقيدة السنيّة وقد مزجه بآرائه الفقهية والأصولية وآراء أستاذه الإمام أبي حنيفة ، فصار بذلك تفسيراً عقدياً فقهياً ، وهو تفسير عام لجميع السور .

¹ - سورة الأعراف آية : 143

حقّقه الدكتور إبراهيم ، والسيد عوضين¹ ، وقد أطلق عليه صاحب " كشف الظنون هذا الاسم ، لكن نسخة " كوبريلي " عنونت باسم " تأويلات الماتريدي في التفسير " ، وأما أصحاب الطبقات فقد ذكروه باسم " تأويلات القرءان " وهذا الاسم تحمله النسخ الأخرى الموجودة في تركيا والهند وألمانيا والمدينة المنورة ودمشق والمتحف البريطاني وطشقند . ولعل الكتاب كان يحمل الاسمين في مبتدأ الأمر فاختصره المؤرخون وأصحاب الطبقات على ذلك ، وقد وصف الإمام عبد القادر القرشي المتوفى سنة سبعمائة وخمس وسبعين للهجرة هذا الكتاب بقوله : " هو كتاب لا يوازيه فيه كتاب بل لا يدانيه شيء من تصانيف من سبقه في ذلك الفن " .

● وفاته :-

توفي الإمام الماتريدي سنة ثلاثمائة واثنين وثلاثين للهجرة ، غير أن هناك المؤرخين يرون أن وفاته كانت سنة ثلاثمائة وثلاث وثلاثين للهجرة² ، ويرون آخرون أنه ، وأن قبره بسمرقند³ ، وكانت وفاته قبل وفاة أبي الحسن الأشعري بقليل .

¹ - كتاب التوحيد - مرجع سابق .

² - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مرجع سابق .

³ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية - مرجع سابق .

● الهيثم بن كليب أبو سعيد الشاشي:—

هو الإمام الحافظ ، الهيثم بن كليب بن سريج بن معقل أبو سعيد الشاشي البنكثي¹ صاحب "المسند الكبير" ، الثقة الرجال ، ألف مسندًا كبيرًا جمع فيه الأحاديث النبوية ورتبها علي مسانيد الصحابة ، كما أنه برع في الأدب واللغة حتي صار يوصف بالأديب.

● مولده ونشأته :—

لم تشر المصادر إلي تاريخ ميلاده ، شأنه في ذلك شأن كثير من الأعلام ، كان قد بلغ الرشد في عقد السبعينيات من المائة الثالثة من الهجرة ، لأن كثيرًا من أساتذته الذين استفاد منهم سماعًا ورواية كانوا في هذه الفترة ، وهذا ما يشير إلي أنه قد ولد في عقد الخمسينيات من المائة الثالثة من الهجرة .

بدأ الهيثم بن كليب الشاشي حياته وترعرع في عقد ذهبي لتدوين الحديث وعلومه وتلقيهما، وهو عقد أصحاب الأمهات الستة وأبي حاتم الرازي ، وعباس بن محمد الدوري وصالح جزرة ، وأبي يعلي الموصلي ، وابن الجارود ، وغيرهم من المحدثين الذين بذلوا جهودهم في خدمة السنة النبوية المطهرة ، ولم يَدْخروا جهدًا في سبيل نشر الأحاديث النبوية والدفاع عنها .

نشأ الحافظ بن كليب الشاشي في مركز هام من مراكز العلم ، وهي بلاد سمرقند وبخاري وترمز ، التي كانت زاخرة بالعلم والعلماء في ذلك الوقت ، وبدأ يطلب العلم منذ نعومة أظافره ، وجعل يتردد علي مجالس العلماء ليستقي من مناهلهم الصافية واستمر في طلب الحديث وعلومه واعتني بهما عناية كبيرة وتحمل المشاق في سبيل نشرهما².

قام الإمام الهيثم بتدريس الحديث وعلومه ، وسمع منه علي بن أحمد بن محمد البخلي كتاب الشمائل للترمذي والجامع لع وغريب الحديث لابن قتيبة ، وقام برحلة طويلة في

¹ - نسبة إلي " بنكث " بكسر الباء ثم السكون وفتح الكاف ، وهي قصبة إقليم الشاش

² - المسند - ابي سعيد الهيثم بن كليب الشاشي - تحقيق : د . محفوظ عبد الرحمن زين الله - مكتبة العلوم والحكم - الطبعة الأولى 1014 هـ - المدينة المنورة .

طلب العلم إلي المراكز العلمية الشهيرة في عصرها ، فذهب إلي عسقلان بلخ ، وسمع بها عيسي بن أحمد العسقلاني ، وزكريا بن يحيي المروزي وغيرهما .
ورحل إلي بخاري ، وحدث بها ، وبغداد وسمع بها من عباس الدوري ، ويحيي بن جعفر بن الزبرقان ، وعبد الله بن أحمد بن زياد وغيرهم .
وقد قرأ الأدب علي أبي محمد بن عبد الله بن قتيبة ، وغيرها من البلدان حتي وصف بالرحال .

● شيوخه :-

سمع الهيثم بن كليب ابو سعيد الشاشي من مشايخ كثيرين لا يمكن حصرهم منهم :
إبراهيم بن عبد الله بن مسلم بن ماعز أبو مسلم الكجي البصري ، أحمد بن إبراهيم بن مطر أحمد بن حازم بن أبي غرزه أبو عمرو الكوفي ، أحمد بن زهير أبي خيشمة بن حرب أبو بكر النسائي ، أحمد بن شداد الزبيدي ، أحمد بن علي بن الفضل أبو جعفر الخزاز المقرئ ، أحمد بن ملاعب بن حيان أبو الفضل البغدادي ، إسحاق بن إبراهيم بن جبلة أبو يعقوب الترمذي الحارث بن محمد بن أبي أسامة داهر أبو محمد التميمي البغدادي ، الحسن بن إسماعيل أبو علي الترمذي ، الحسن بن علي بن عفان العامري أبو محمد الكوفي ، همدون بن عباد أبو جعفر الفرغاني ، حنبل بن اسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد أبو علي الشيباني ، زكريا بن يحيي بن أسد المروزي ، السري بن يحيي السري أبو عبيدة التميمي بن أبي هناد بن السري ، صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو علي الأسدي البغدادي الملقب بجزره ، عباس بن محمد بن حاتم الدوري أبو الفضل البغدادي ، عبد الرحمن بن محمد بن منصور الحارثي ، عبد الكريم بن الهيثم بم زياد بن عمران أبو يحيي ، عبد الله بن أحمد بن زياد الشكري البغدادي ، عبد الله بن محمد بن شاکر ابو البختری الكوفي ، عبيد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري ، عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك أبو قلابه الرقاشي ، علي بن داود بن يزيد القنطري الأدمي ، علي بن سهل بن المغيرة البزار البغدادي ، علي بن عبد العزيز بن مرزبان أبو الحسن البغوي ، عمر بن حفص بن بسطام بن عمرو الباهلي أبو حفص المسرقندي ، عيسي بن أحمد بن عيسي بن وردان العسقلاني البلخي ، محمد بن أحمد بن أبي العوام الرباحي ، محمد بن إدريس بن المنذر أبو حاتم الرازي الحنظلي ، محمد بن إسحاق أبو بكر الصاغاني ، محمد بن الحسين بن

موسي بن أبي الحنين أبو جعفر الخزاز الحنيني ، محمد بن سعد بن محمد بن الحسن بن عطية بن سعد أبو جعفر العوفي محمد بن شاذان بن يزيد أبو بكر الجوهري البغدادي ، محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي أبو جعفر مطين الكوفي ، محمد بن عبيد الله بن يزيد أبو جعفر البغدادي بن المنادي ، محمد بن علي بن عبد الله بن مهران أبو جعفر الوراق بعرق بجمدان ، محمد ابن عيسى بن حيان المادني ، محمد بن عيسى بن سورة أبو عيسى الترمذي ، محمد بن محمد بن العلاء محمد بن نعاذ بن يوسف أبو بكر المروزي ، محمد بن يونس بن موسى بن سليمان الكديمي البصري ، يحيى بن أبي طالب جعفر بن الزبرقان .

● تلاميذه :-

سمع الهيثم بن كليب أبو سعيد الشاشي الكثيرين من طلاب العلم في عصره منهم : الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده الأصفهاني ، أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخراعي ، أحمد بن محمد بن الحسين بن علي بن رستم ، أبو نصر البخاري الكلاباذي منصور بن نصر بن عبد الرحيم السمرقندي الكاغدي .

● مكانته عند العلماء :-

كان الإمام أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي علماً من أعلام الحديث الشريف ، وكان ثقة ، حافظاً كما قال عنه الأئمة الكبار والنقاد الأطهار في عصره ، منهم : ياقوت الحموي : كان إماماً حافظاً رحالاً أديباً . الإمام الذهبي : الإمام الحافظ المحدث الثقة الرّحال ، محدّث بلاد ما وراء النهر . ابن العماد : محدّث بلاد ما وراء النهر ، وهو ثقة .

● المسند :-

ترك الإمام الحافظ الهيثم بن كليب الشاشي كتاباً في الحديث هو " المسند " كما وصفته المصادر بأنه كبير ، يقع في مجلدين ، ولم يتم العثور له علي مؤلف آخر ، وقد روي " المسند " اثنان من الرواة الثقات .

الأول : أبو القاسم علي بن أحمد الخراعي ، المتوفي عام 411 هـ .

والثاني : أبو القاسم أحمد بن أبي منصور الخليلي ، المتوفي عام 492 هـ .

النسخة الأصلية من مخطوط " المسند " محفوظة في دار الكتب الظاهرية في دمشق برقم 277 حديث ، وهي عبارة عن جزء من مسنده تبدأ من سند طلحة بين عبيد الله وهو الجزء السابع من الكتاب ، وتنتهي ببعض مسند أبي اليسر ، وهو آخر الجزء الخامس عشر منه كما توجد ورقة واحدة من آخر الجزء الخامس ، وورقة واحدة أخرى من آخر الجزء السادس ، وهما تحتويان علي بعض أحاديث علي بن أبي طالب وعليهما صور للسماعات التي تتكرر في آخر كل جزء .

رتب الهيثم بن كليب أبو سعيد الشاشي " المسند " علي مسانيد الصحابة ، فذكر أحاديث لكل صحابي علي حدة ، وكان منهجه علي النحو التالي :

قدّم مسانيد الخلفاء الأربعة الراشدين المهديين ، ثم أرفها بمسانيد العشرة المبشرين بالجنة ثم بقية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ولم يراع فيهم ترتيب حروف المعجم ولا وفياتهم ، وكان أحياناً يذكر ترجمة موجزة للصحابي ، وأحياناً يكتفي بذكر الاسم والكنية والنسبة فقط . ورتب مسانيد الصحابة علي الرواة عنهم ، واكتفي بسرد الأحاديث فقد ولم يتكلم في الأسناد ولا في المتون إلا نادراً ، ولم يلتزم بذكر الأحاديث الصحيحة او الحسنة بل ذكر من كل نوع .

يذكر متن الحديث مقصلاً ، ولا يكتفي بالإشارة أو بذكر الأطراف . وأحياناً بعدما يسرد المتن بسند يتبعه بسند آخر ن فيقول " مثله " أو " نحوه " . والمؤلف دقيق في استعمال ألفاظ الأداء بما يدل علي طريقة التحمل ، فمثلاً يقول : " قرأت علي فلان " أو " حدثنا فلان إملاء " أحياناً يذكر المكان الذي سمع فيه من الشيخ فمثلاً بقول " حدثنا فلان بسامرة " أو " ببلخ " ¹.

● وهذا الجزء يحتوي علي مسانيد الصحابة :-

طلحة بن عبيد الله ، الزبير بن العوام ، سعد بن أبي وقاص ، سعيد بن زيد بن عبد الرحمن بن عوف ، أبو عبيدة بن الجراح ، عبد الله بن مسعود ، بلال بن رباح ، صهيب ابن سنان ، خباب بن الأرت ، عمار بن ياسر ، ابو طلحة الأنصاري ، عبد الله بن زيد ابن الحارث ، ابو أيوب الأنصاري ، عباد بن الصامت ، معاذ بن جبل ، أبي بن كعب أبو أسيد ، أبو اليسر .

¹ - المسند - مرجع سابق .

نُسخ المخطوط ، ودون بالخط النسخ ، وفيه يلتزم الناسخ بكتابة الكلمة الأولى من العنوان بخط جلي ، كما يكبر كلمة " حَدَّثَنَا " في بداية كل حديث ، ويضع علامة الانتهاء في آخر كل حديث .

وينتهي كل جزء من المخطوط بجملة : آخر هذا الجزء ، والحمد لله رب العالمين ويتلوه في الذي يليه إن شاء الله عباد بن الوليد بن أبي اليسر ، وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وسلم .

● وفاته :-

توفي الهيثم بن كليب أبو سعيد الشاشي في شاش عام خمس وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة النبوية ، فقد انصرف من بخاري إلي شاش وتوفي بها .

● نظام الدين الشاشي:—

هو أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي¹ أبو علي نظام الدين الحنفي ، فقيه حنفي ، ينسب إليه كتاب " الخمسين في أصول الفقه " ، والذي يعرف عادة باسم " أصول الشاشي .
أطلق لقب الشاشي علي العديد من العلماء والفقهاء الأجلاء ، اثنان منهم من علماء المذهب الشافعي ، .

الأول : محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الإمام الكبير فخر الإسلام أبو بكر الشاشي المتوفى سنة 507 هـ ، وهو إمام شافعي جليل ، حافظ لمعاقد المذهب الشافعي وشوارده ، صاحب **المستظهر** وهو مصنف صنفه لأمير المؤمنين المستظهر بالله وسماه " حلية العلماء " ، و " المعتمد " وهو كالشرح له ، والترغيب في المذهب ، و " الشافي " في شرح مختصر المزني ، و " العدة " المختصر المشهور ، وصنف أيضاً الشافي في شرح الشامل .

الثاني : أبو بكر محمد بن علي بن اسماعيل ، المعروف باسم " القفال الشاشي " المتوفى سنة 366 هـ ، له كتاب في أصول الفقه ، وشرح الرسالة .

أمّا الشاشي من الحنفية فيطلق على كثير من بينهم : إسحاق بن إبراهيم ابو يعقوب الخرساني الشاشي ، شيخ أصحاب أبي حنيفة ، وعالمهم في زمانه ، من الذين قَدِمُوا مصر ، إذ كان يتفقه على مذهب أبي حنيفة ، وكان يتصرف مع قضاة مصر ويلي قضاء بعض أعمالها ، وكان يروي الجامع الكبير عن زيد بن أسامة عن أبي سليمان الجوزجاني ، عن محمد بن الحسن وكان ثقة ، توفي بمصر سنة 325 هـ ، وأحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي أبو علي نظام الدين الحنفي، صاحب كتاب " اصول الشاشي "

¹ - الشَّاشِي ، بالألف الساكن بين الشينين المعجمتين ، هذه النسبة إلى مدينة " شاش " ، والتي خرج منها جماعة كثيرة من أئمة المسلمين ، ونسب إليها خلق من الرواة والفصحاء ، وأهلها شافعية المذهب ، وإنما أشاع بها هذا المذهب مع غلبة مذهب أبي حنيفة في تلك البلاد أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي فَبَتِه فارقتها وتفقه ثم عاد إليها فصار أهل تلك البلاد على مذهبه ، وتعرف حالياً باسم " طشقند " عاصمة جمهورية أوزبكستان .

● مولده ونشأته :-

لم تذكر كتب السير والتراجم التاريخ الذي ولد فيه نظام الدين الشاشي ، ولكن جاء في بعض منها أنه من علماء المائة الرابعة للهجرة .

ثم رحل إلي بغداد ، حيث سكن ودرس بها ، وتفقّه على أبي الحسن الكرخي ، الذي جعل التدريس له بعد أن صار عالمًا وله مريدين وتلاميذ ، وكان يقول عنه : ما جاء أحدٌ أحفظ من أبي علي نظام الدين ، كما كان من تلاميذ الفتوى للعالم أبي بكر الدامغاني ، وكان يقول ما جاءنا أحفظ من أبي علي .

● مؤلفاته:-

علي اختلاف انتساب كتاب " أصول الشاشي " لأي من علماء شاش ، فإن البغدادي نسب له في هدية العارفين كتاب الخمسين، وقال : الشاشي أحمد بن محمد بن اسحق الشاشي أبو علي نظام الدين، الحنفي، له كتاب الخمسين في أصول الدين ، أعني أصول الفقه ، وكتاب الخمسين هو نفس كتاب أصول الشاشي ، كما ورد في الفوائد البهية وكانت آخر طبعة منسوبة لأبي علي الشاشي، بتحقيق الشيخ خليل الميس مدير أزرار لبنان عام 1982هـ .

● كتاب أصول الشاشي :-

أصول الشاشي من المتون المعتمدة في أصول الفقه الحنفي ، بل من أهم المختصرات فيه، تلقاه العلماء بالقبول ، وتناولوه بالدراسة والشرح ، لا سيما في بلاد الهند وباكستان وأفغانستان ، وآسيا الوسطى ، وما جاورها من البلدان ، فما من معهد إسلامي هناك إلا والكتاب مقرر فيه تدريسه¹.

لم ينسب أحد من العلماء كتاب " أصول الشاشي " للعلامة محمد بن أحمد بن الحسين ابن عمر الإمام الكبير فخر الإسلام أبو بكر الشاشي المتوفى عام 507 هـ ؛ لأنه إمام شافعي جليل ، حافظ لمعاقد المذهب الشافعي ، وشوارده ، صاحب المستظهري، وهو مصنف كتاب "حلية العلماء" للعالم المستظهر بالله ، و"المعتمد" وهو كالشرح له والترغيب في المذهب ، والشافي في شرح مختصر المزني ، والعمدة المختصر

¹ - طبقات الحنابلة - مرجع سابق .

المشهور، وصنف أيضًا الشافعي في شرح الشامل، ومن ثم فلم ينسب إليه أحد كتاب " أصول الشاشي"، ولكن نظرًا؛ لأنَّ الكثير من علماء وشيوخ الفقه الحنفي خرج من مدينة شاش " طشقند"، وقد حملوا لقب " الشاشي" فقد اختلف بعض العلماء في نسبة كتاب " اصول الشاشي" إلى مصنفه¹.

بدأ نظام الدين الشاشي كتابه بقوله: بحث كون أصول الفقه أربعة، إذ ذكر مقدمة قصيرة جدًا، ثم قال: " وبعد فإن أصول الفقه أربعة، كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، وإجماع الأمة، والقياس، فلا بد من البحث في كل واحد من هذه الأقسام؛ ليعلم بذلك طريق تخرج الأحكام²، ثم شرع في التفصيل فيما ذكر، فجعل البحث الأول في كتاب الله تعالى تناول فيه عدة فصول: الخاص والعام، المطلق والمقيد، المشترك والمؤول، الحقيقة والجاز، التعريف بطريق الاستعارة، الصريح والكنية، المتقابلات يعنى بها الظاهر والنص والمفسر والحكم مع ما يقابلها من الخفي والمشكل والمجمل والمتشابه، وفصل فيما يترك به حقائق الألفاظ، ثم فصل في متعلقات النصوص، فصل في الأمر، وآخر في النهي، ثم تعريف طريق المراد بالنصوص، وختم في الفصلين الآخرين بتقرير عن حروف المعاني، والآخر في بيان التقرير وبيان التفسير³.

وتناول في البحث الثاني في سنة رسول الله ﷺ، وقال عنها: " وهي أكثر من عدد الرمل والحصى"، ضمنها بالحديث عن أقسام الخبر، وبحث في تقسيم الراوي، حجية خبر الواحد، وتناول في البحث الثالث الإجماع، وأقسامه، إذ بحث نوع من الإجماع وهو عدم القائل بالفصل، وذكر فيه بحث بيان الواجب على المجتهد، أما البحث الرابع والأخير فقد كان في القياس، الأخبار التي توجب حجية، وشروط صحته، ثم فصل في القياس الشرعي، وذكر العلل، وفرق بينها وبين الأسباب، وختم بذكر الموانع، والعزيمة والرخصة⁴ فكان البحث الأول أطول بحث بالنسبة إلى بقية الأبحاث التي ذكرها.

¹ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مرجع سابق.

² - طبقات الفقهاء - أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي - تحقيق: إحسان عباس - دار الرائد 1997 - القاهرة.

³ - أصول الفقه تاريخه ورجاله - إسماعيل شعبان - دار السلام 1419هـ - القاهرة

⁴ - الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية - مرجع سابق.

وتوجد بعضاً من النصوص في كتاب " أصول الشاشي " تثبت نقله من أبي زيد ، وابن الصباغ ، ومن تلك النصوص قوله في بحث كون المقتضى زيادة على النص فقد جاء : وعلى اعتبار هذا المعنى قليل يدار الحكم على تلك العلة ، قال الإمام القاضي أبو زيد : لو أن قوماً يعدون التأفيف كرامة لا يحرم عليهم تأفيف الأبوين ، وفي بحث كون الموانع أربعة جاء : قال القاضي الإمام أبو زيد الموانع أربعة أقسام ، مانع يمنع انعقاد العلة ، ومانع يمنع تمامها ، ومانع يمنع ابتداء الحكم ، ومانع يمنع دوامه .

وذكر ابن الصباغ في بحث الأخبار التي توجب حجية القياس ، إذ قال : وروى ابن الصباغ وهو من سادات أصحاب الشافعي في كتابه المسمى بالشامل عن قيس بن طلق ابن علي أنه قال جاء رجل الى رسول الله ﷺ كأنه بدوي فقال يا نبي الله ما ترى في مس الرجل ذكره بعدما توضأ ، فقال هل هو إلا بضعة منه وهذا هو القياس¹.

• الشروح والحواشي على أصول الشاشي :-

نال كتاب أصول الشاشي الكثير من الاهتمام من العلماء ، ما بين الشروح والحواشي ومن هذه الشروح :

شرح صفي الله بن نصير الهندي المسمى باسم " المعدن " .

شرح المولى محمد بن الحسن الفراهي .

شرح محمد بن الحسن الخوارزمي ، المتوفى عام 781هـ ، إلا أن د . هيثم خزنة ، علق على ذلك بقوله : كتاب الخمسين في أصول الدين للإمام فخر الدين الرازي ، المتوفى عام 606هـ ، أدرج فيه قواعد أصولية ، وشرح كتاب الرازي محمد بن الحسن الخوارزمي الشاشي الحنفي ، وربما هذا التشابه في اسم الشاشي كان سبب الخلط حتى ظن بعضهم أن شرح محمد الخوارزمي الشاشي لكتاب الخمسين للرازي هو شرح لأصول الشاشي .

• أما الحواشي التي كتبت حول كتاب أصول الشاشي فمنها :-

حصول الحواشي على أصول الشاشي ، لمؤلفه محمد حسن ، المكنى بأبي الحسن بن محمد السنبلهلي الهندي ، طبع في نمبشي نولكشور عام 1302 هـ .

¹ - أصول الشاشي " مختصر في أصول الفقه الإسلامي " - نظام الدين الشاشي - تحقيق : محمد أكرم الندوي - دار الغرب الإسلامي - الطبعة الأولى 2000 - القاهرة

عمدة الحواشي ، للمولى محمد فيض الحسن الكنكوهي ، طبع مع أصول الشاشي .
تسهيل أصول الشاشي ، للشيخ محمد أنور البدخشاني ، طبع بإدارة القرآن والعلوم
الإسلامية ، كراتشي ، الطبعة الأولى عام 1412 هـ ، كما صور هذا التسهيل في
إسطنبول بتركيا .

فصول الحواشي ، للشيخ أله داد الجونبوري .
فصول الحواشي لأصول الشاشي ، للشيخ مولوي عين الله .
أحسن الحواشي على أصول الشاشي ، للشيخ بركت الله اللكنوي .
وقد طبع كتاب الشاشي طبقات متعددة منها :
طبعة بكانبور في الهند ، مطبعة مجيدي ، سنة 1388 هـ "
طبعة دار الكتاب العربي في بيروت عام 1402 هـ ، وبهامشه : "عمدة الحواشي شرح
أصول الشاشي .
طبعة دار الكتب العلمية في بيروت عام 1423 هـ ، ترجمة وتحقيق : عبد الله محمد
الخليلي .
طبعة دار الغرب الإسلامي عام 1422 هـ ، وحققه محمد أكرم الندوي .

● وفاته :-

توفي نظام الدين الشاشي عام أربع وأربعين وثلاث مائة من الهجرة¹.

¹ - طبقات الحنابلة - مرجع سابق .

• القفال الشاشي:—

هو الإمام المفسر المحدث الفقيه الأصولي اللغوي الشاعر المجاهد ، أبو بكر محمد ابن علي بن إسماعيل الشاشي المعروف باسم " القفال الكبير " أحد أعلام مذهب الإمام الشافعي ، وأعلم أهل ما وراء النهر في زمانه ، ومن أشهر أئمة المسلمين عبر التاريخ ويلقب باسم " القفال الكبير " تمييزاً له عن الإمام " القفال الصغير " أبو بكر عبد الله بن أحمد المروزي ، الذي عاش في مدينة مرو العريقة الواقعة حالياً في تركمانستان بعد المائة الرابعة ، والذي كان هو أيضاً من شيوخ الشافعية في بلده¹ ، وعمل القفال الشاشي علي نشر المذهب الشافعي فيما وراء نهر سيحون ، ولم يكن للشافعية بما وراء النهر مثله في وقته ، حتى وصف بأنه علم رفيع من أعلام المذهب الشافعي . واشتهر باسم حضرت إمام².

• مولده ونشأته :—

وُلد الإمام أبو بكر القفال الشاشي في عام 291 هـ / 904 م ، بمدينة شاش ، والمعروفة حالياً باسم طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان³.

قام بالعديد من الرحلات لطلب العلم وإدراك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بأعلى الأسانيد الممكنة من أفواه الأئمة المحدثين حملة الآثار السنية والبركات النبوية، أمّا رحلاته فكثيرة جداً، رحلاً إلى خراسان ثم العراق ثم الحجاز— بلاد الحرمين — ثم الشام وغيرها من البلاد الإسلامية الشاسعة ، وكان القفال الشاشي شديد التواضع والأدب وحسن الظن في التعامل مع العلماء . وهذا الأدب هو ما ميز هؤلاء العلماء ورفع من شأنهم ، وهو أثر من آثار العلم على صاحبه ، وهاهو الإمام القفال عندما سئل عن مسألة في العلم ، عند حلوله بأحد الثغور ، وكان فيها أحد العلماء الكبار ، أمسك عن الجواب ، وأحال عليه في الحال .

¹ - الأعلام - مرجع سابق .

² - الإمام الكبير قفال الشاشي - د . محمد البخاري

http://bukharimailru.blogspot.com/2013/11/blog-post_10.html

³ - تهذيب الأسماء واللغات - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي - دار الكتب العلمية 2010 - بيروت .

● شيوخه :-

رحل الإمام القفال الشاشي في طلب العلم ، وسمعَ من أشهر علماء عصره ، وتلقَى عنهم الحديث والتفسير والفقه ، فسمعَ بخراسان من : الإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة وأقرانه ، وبالعراق من : عبد الله بن إسحاق المدائني ، ومحمد بن جرير الطبري وأبي بكر الباغندي ، ومن آخرين من طبقة تقع قبل طبقة البغوي وأقرانه وبالجزيرة من أبي عروبة وأقرانه ، وبالشام من أبي الجهم وأقرانه ، وبالكوفة من عبد الله بن ريدان وأقرانه .

● تلاميذه :-

تتلمذ علي الإمام القفال الشاشي ، وأخذ عنه العلم كثير من علماء عصره المشهورين منهم : أبو عبد الله الحاكم — صاحب المستدرک على الصحيحين — ، وأبو عبد الرحمن الحلي وأبو عبد الله ابن منده — صاحب كتاب التوحيد وكتاب الإيمان — والخطابي الذي نقل عن شيخه أبي بكر القفال في غريب الحديث بعض روايات الطبري وتفسيره ويظهر بهذا تأثر القفال بتفسير شيخه الإمام محمد بن جرير الطبري ، والإمام أبو عبد الله السلمي وغيرهم¹

● مكانته بين العلماء :-

أثنى الأئمة الأعلام علماء الإسلام على الإمام أبي بكر القفال الشاشي إجلالاً له وتقديرًا لعلومه وجهوده في خدمة الإسلام والمسلمين " ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهله " وذكره الإمام المحدث أبو عبد الله الحاكم — صاحب المستدرک — فقال عنه: " كان أعلم أهل ما وراء النهر — يعني في عصره — بالأصول وأكثرهم رحلة في طلب الحديث " . وقال الإمام أبو إسحق الشيرازي : " كان إماماً وله مصنفات كثيرة ليس لأحد مثلاًها وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء وله كتاب حسن في أصول الفقه وله شرح الرسالة ، وعنه انتشر فقه الشافعي في ما وراء النهر "² . وقال الإمام ابن الصلاح : " القفال الكبير علم من أعلام المذهب رفيع ومجمع علوم هو بها عليم ولها جموع " .

¹ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مرجع سابق .

² - طبقات الشافعية الكبرى - مرجع سابق .

وقال الإمام النووي في تهذيبه : " إذا ذكر القفال الشاشي فالمراد هذا وإذا ورد القفال المروزي فهو الصغير ثم إن الشاشي يتكرر ذكره في التفسير والحديث والأصول والكلام والمروزي يتكرر ذكره في الفقيهات " .

وقال عنه الإمام الذهبي : " الامام العلامة ، الفقيه الاصولي اللغوي ، عالم خراسان إمام وقته ، بما وراء النهر ، وصاحب التصانيف ¹ .

وقال عنه السبكي : " الإمام الجليل أحد أئمة الدهر ذو الباع الواسع في العلوم واليد الباسطة والجلالة التامة والعظمة الوفرة ، كان إماماً في التفسير إماماً في الحديث إماماً في الكلام إماماً في الأصول إماماً في الفروع إماماً في الزهد والورع إماماً في اللغة والشعر ذاكرة للعلوم محققاً لما يورده حسن التصرف فيما عنده فرداً من أفراد الزمان قال فيه أبو عاصم العبادي : " هو أفصح الأصحاب قلماً وأثبتهم في دقائق العلوم قدماً وأسرعهم بياناً وأثبتهم جناً وأعلاهم إسناداً وأرفعهم عماداً " .

وقال الحلبي : " كان شيخنا القفال أعلم من لقيته من علماء عصره ، وقال في كتابه " شعب الإيمان " في الشعبة السادسة والعشرين في الجهاد : إمامنا الذي هو أعلى من لقينا من علماء عصرنا صاحب الأصول والجدل وحافظ الفروع والعلل وناصر الدين بالسيف والقلم والموفى بالفضل في العلم على كل علم أبو بكر محمد بن علي الشاشي ² ما قيل عن عقيدته :

قال الإمام الذهبي في السير ، : " قال أبو الحسن الصفار : سمعت أبا سهل الصعلوكي وسئل عن تفسير أبي بكر القفال ، فقال : قدسَه من وجه ، ودنسه من وجه أي : دنسه من جهة نصره للاعتزال . قلت : قد مر موته ، والكمال عزيز ، وإنما يمدح العالم بكثرة ماله من الفضائل ، فلا تدفن المحاسن لورطة ، ولعله رجع عنها وقد يغفر له باستقراغه الوسع في طلب الحق ولا قوة إلا بالله " .

¹ - العبر في خبر من غير - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي - دار الكتب العلمية 2010 - بيروت .

² - طبقات الفقهاء - مرجع سابق .

وقال الفقيه ناصر العمري : لم يكن في زمان أبي بكر القفال أفقه منه ، ولا يكون بعده مثله وكنا نقول : إنه ملك في صورة إنسان . حدث وأملي وأملي ، وكان رأساً في الفقه قدوة في الزهد .

وذكر ناصر الموزي ، أن بعض الفقهاء المختلفين إلي القفال احتسب علي بعض أتباع متولي مرو ، فرفع ذلك إلي السلطان محمود فقال : يأخذ القفال شيئاً من ديواننا ؟ قال : لا .

قال : فهل يتلبس بشئ من الأوقاف ؟

قال : لا .

قال : فإن الاحتساب لهم سائغ ودعهم

حكي القاضي حسين عن القفال أستاذه : أنه كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء حالة الدرس ، ثم يرفع رأسه ويقول : ما أغفلنا عما يراد بنا ، مات في سنة سبع عشرة وأربع مئة ، وله من العمر تسعون عاماً¹ .

● منهجه في التفسير :-

اعتنى كثير من المفسرين بنقل أقوال الإمام " القفال الشاشي " في تفاسيرهم ، ومن ذلك الإمام السمعاني حيث نقل بعض اختياراته في التفسير ، واستحسن بعض أقواله ، ونقل الرازي في تفسيره كثيراً من أقواله مما يوافق مذهب المعتزلة ، ونقل عنه كذلك الإمام القرطبي وأبو حيان ، وغيرهم ، وذكر السيوطي بعض مناسبات في كتابه أسرار التنزيل واهتم كثير من المفسرين بنقل أقواله وترجيحاته ، سواء في التفسير أو ما يتعلق بعلوم القرآن ، ومن أمثلة ذلك :

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾²

¹ - نزهة الفضلاء - تهذيب سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

² - سورة البقرة ، آية : 222

قال ابن العربي في " أحكامه " : سمعتُ أبا بكرٍ الشَّاشِيَّ يَقُولُ : إِذَا قِيلَ : لَا تَقْرَبْ ؛ بفتح الراء ، كان معناه : لَا تَلْتَبَسْ بِالْفِعْلِ ، وَإِذَا كَانَ بضم الراء ، كان معناه لَا تَدْنُ مِنْهُ وَمِمَّنْ تَوْسَعُ فِي النِّقْلِ عَنْهُ : الإِمَامُ السَّمْعَانِي ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾¹ قَالَ السَّمْعَانِي فِي تَفْسِيرِهِ : فَإِنْ قِيلَ : قَدْ قَالَ " يَخْرُجُ مِنْهُمَا " ، وَأَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهَذَا الشَّأْنِ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْحِ دُونَ الْعَذْبِ . فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ ذَكَرَهُمَا وَالْمُرَادُ أَحَدُهُمَا ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : أَكَلْتُ خَبْزًا وَلَبَنًا ، وَإِنَّمَا الْأَكْلُ فِي أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : لَمَّا ذَكَرَ الْبَحْرَيْنِ ثُمَّ ذَكَرَ اللَّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ، وَهُوَ يَخْرُجُ مِنْ أَحَدِهِمَا ، صَحَبَ الْإِضَافَةَ إِلَيْهِمَا عَلَى لِسَانِ الْعَرَبِ . وَذَكَرَ الْقِفَالُ الشَّاشِيَّ فِي تَفْسِيرِهِ : أَنَّ اللَّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي مِلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ فِي أَوَّلِ مَا يَخْلُقُ ، ثُمَّ حِينَئِذٍ مَوْضِعُ الْأَصْدَافِ هُوَ الْبَحْرُ الْمِلْحُ دُونَ الْعَذْبِ ، فَصَحَّ قَوْلُ : " يَخْرُجُ مِنْهُمَا " لِأَنَّهُمَا فِي ابْتِدَاءِ عِنْدَ مِلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ إِنْ كَانَ كَذَلِكَ².

ولما ذكر الرازي الروايات التفسيرية في قوله ﴿قِيلَ اصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾³ أتبعه بقول القفال فقال : وقال القفال : ذكروا في قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة وليس في شيء منها ما يصح إلا أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم أو ملكاً كافراً كان حاكماً عليهم فألقاهم في أخدود وحفر لهم ، ثم قال : وأظن أن تلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تنبيهاً لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم واحتمال المكاره فيه فقد كان مشركوا قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما اشتهرت به الأخبار من مبالغتهم في إزاء عمار وبلال⁴.

وكذلك في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾⁵ قال أبو حيان : فسر لفظ الخاسرون

¹ - سورة الرحمن ، آية : 22

² - تفسير القرآن - أبو المظفر السمعاني - تحقيق : ياسر بن إبراهيم ، غنيم بن عباس بن غنيم - دار الوطن - الرياض

³ - سورة البروج ، آية : 4

⁴ - مفاتيح الغيب " تفسير الرازي " - فخر الدين الرازي - دار الفكر .

⁵ - سورة البقرة ، آية : 27

بالناقصين حظوظهم وشرفهم ، وبالهالكين ، وسبب خسرانهم استبدالهم النقص بالوفاء والقطع بالوصل ، والإفساد بالإصلاح ، وعقابها بالثواب ، وقيل : الخاسرون المغبونون بفوت المثوبة ولزوم العقوبة وقيل : خسروا نعيم الآخرة ، وقيل : خسروا حسناتهم التي عملوها ، أحبطوها بكفرهم . والآية في اليهود ، ولهم أعمال في شريعتهم وفي المنافقين وهم يعملون في الظاهر عمل المخلصين . قال القفال : الخاسر اسم عام يقع على كل من عمل عملاً يجزى عليه .

وكذلك ممن نقل عنه ، وأكثر من ذلك الإمام فخر الدين الرازي ، ومن الأمثلة في ذلك : عند قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾¹ قال الرازي : والفساد خروج الشيء عن كونه منتفعاً به ونقيضه الصلاح فأما كونه فساداً في الأرض فإنه يفيد أمراً زائداً ، وفيه ثلاثة أقوال : أحدها : قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي : أن المراد بالفساد في الأرض إظهار معصية الله تعالى ، وتقديره ما ذكره القفال ، وهو أن إظهار معصية الله تعالى إنما كان إفساداً في الأرض ، لأن الشرائع سنن موضوعة بين العباد ، فإذا تمسك الخلق بها زال العدوان ولزم كل أحد شأنه ، فحقنت الدماء وسكنت الفتن ، وكان فيه صلاح الأرض وصلاح أهلها ، أما إذا تركوا التمسك بالشرائع وأقدم كل أحد على ما يهواه لزم الهرج والمرج والاضطراب ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾² نبههم على أنهم إذا عرضوا عن الطاعة لم يحصلوا إلا على الإفساد في الأرض به³.

● مؤلفاته :-

كان الإمام " القفال الشاشي " ذا قلم سيال ، له من المصنفات الشيء الكثير ، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء .

¹ - سورة البقرة ، الآيتان 11 ، 12

² - سورة محمد ، آية : 22

³ - مفاتيح الغيب " تفسير الرازي " - مرجع سابق .

وله كتاب في أصول الفقه ، كما قام بشرح كتاب الرسالة " للإمام الشافعي " ومن مؤلفاته :

دلائل النبوة

محاسن الشريعة

أدب القضاء

تفسير القرآن الكريم¹

• ابداعه في الشعر :-

وكان الإمام أبو بكر القفال الكبير من أعظم الشعراء المجاهدين ، أنشد في الذَّبِّ عن دين الإسلام القصائد الطوال ، ومن ذلك ما أورده السبكي عن الإمام الحلبي عن عبد الملك بن محمد الشاعر أنه كان فيمن غزا الروم ، من أهل خراسان وما وراء النهر عام النفير وفيهم يومئذ أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال إمام المسلمين فوردت من نقفور قيصر الروم على المسلمين قصيدة ساءت لهم وشقت عليهم لما كان اللعين أجرى إليهم فيها من التثريب والتعيير وضروب الوعيد والتهديد ، بعد خلع خليفة المسلمين " مطيع الله " عام 334 هـ ، ومما جاء فيها :

من الملك الطهر المسيحي رسالة	إلى قائم بالملك من آل هاشم
أما سمعت أذنك ما أنا صانع	بلى فعداك العجز عن فعل حازم
فإن تك عما قد تقلدت نائماً	فإنني عما هممتي غير نائم
تغوركم لم يبق فيها لوهنكم	وضعفكم إلا رسوم المعالم

إلى آخر ما جاء فيها .

وكان في ذلك الجمع غير واحد من الأدباء والفصحاء والشعراء من خراسان وبلاد الشام ومدائن العراق فلم يكمل لجوابها من بينهم إلا الشيخ أبو بكر القفال ، الذي أجاب قائلاً :

أتاني مقال لامرئ غير عالم	بطرق مجارى القول عند التخاصم
تخرص ألقاباً له جد كاذب	وعدد أثاراً له جد واهم

¹ - طبقات الشافعية الكبرى - مرجع سابق .

وأفرط إرعادًا بما لا يطيقه وأدلى ببرهان له غير لازم
تسمى بطهر وهو أنجس مشرك مدنسة أثوابه بالمداسم

وبعد وصول جواب الشيخ إليهم فلما بلغ القسطنطينية اجتمع أبحارهم عليه يسألونه عن الشيخ مَنْ هو وَمَنْ أي بلد هو ويتعجبون من قصيدته ويقولون : " ما علمنا أن في الإسلام رجلا مثله " ¹.

وقصيدة الإمام هذه التي رد فيها على عبّاد الصليب بقيادة جنرالهم " نقفور " كلب الروم رائعة ومطولة ، يرجع إليها في مظانها .

ومن جميل قصائده التي تدل على مدى كرمه وتواضعه للناس وعدم تكلفه بالبحث عما ليس عنده ما أنشده قائلاً :

أَوْسَعُ رَحْلِي عَلَى مَنْ نَزَلَ وَرَادِي مَبَاحٍ عَلَى مَنْ أَكَلَ
نُقَدِّمُ حَاضِرًا مَا عِنْدَنَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ بَقْلٍ وَخَلٍ
فَأَمَّا الْكَرِيمُ فَيَرْضَى بِهِ وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَمَنْ لَمْ أَبْلُ

● وفاته :-

توفي الإمام " القفال الشاشي " في شهر ذي الحجة من عام 365 هـ / 976 م ، وقيل أنه توفي في عام 366 هـ ، بموطنه مدينة " شاش " ، ودفن في أرض مجمع " حضرت إمام " ، وتهدّم قبره الذي بُني آنذاك بفعل تأثير عوامل الوقت والرياح ، وأعاد التيموريون بناءه في القرن السادس عشر ، عام 1542 م ، وصمّم البناء المهندس المعماري غلام حسين ، ويعتبر الضريح ، من المنشآت المعمارية المعروفة في القرن السادس عشر الميلادي ، وهو مستطيل الشكل ، وتعلوه قبة زرقاء كبيرة ، شُيِّدَ من الحجر المحروق ، وزين بنقوش تحتوي على أسماء المعماريين وتاريخ تشييد البناء وزينت نوافذه بنقوش الجانثش الجصي التقليدية في طشقند ² ، وقد تم تجديد ضريح الإمام القفال الشاشي بعد استقلال جمهورية أوزبكستان عام 1991 م .

¹ - طبقات الشافعية الكبرى - مرجع سابق .

² - الإمام الكبير قفال الشاشي - مرجع سابق .

وضريح " القفال الشاشي " عبارة عن نوع من الأضرحة متعددة الغرف " خانقة " غير المتناظرة ، ومرافق شاملة تشكل كلها مجتمعة المجمع المشيد، ويضم خلايا ، ومسجد وقبر، ومطعم ، وغيرها من المرافق . والخلايا عبارة عن حجرات سكنية خصصت لإيواء الزوار ، وعلى جانبي قبر " القفال الشاشي " ممرات تؤدي إلى محراب الضريح وفي أسفلها قبور لأبناء " الإمام العظيم " : " محمد شاشي " ، " نظام الدين شاشي " . كما دفن في الضريح أبيضغ " محمد نومي " ، الذي جاء من بغداد وعاش في طشقند ووالد " محمد نومي " ، وابن " خوجة كلان " ، وإلى جنوب المبنى الرئيسي وفي فناء صغير توجد قبور تمّ الدفن فيها في الآونة الأخيرة ، وأطلق عليها تسمية " ساغانا " وإلى جانب مدخل الضريح دُفن " حافظ كوخاقي " ، " علي كوشجي " ، حفيد " ألوغ بيك " ، الذي كان تلميذاً ومن أتباع العالم العظيم، وإلى يسار المدخل قبر الشاعر " زين الدين واصفي " من هيرات ، وهو معلم " براك خان " ، وإلى جانب الضريح يقع البيت الذي عاش فيه " خوجه أحرار ولي " ، الذي سار على الدرب الذي سار عليه القفال الشاشي ، وبهاء الدين نقشبند ، والتزم برأيهم الذي يقول : لا يجب على المؤمنين طلب الحسنة ، بل عليهم العيش من عمل أيديهم . وكان " خوجه أحرار ولي " أستاذًا في التصوف وشخصية دولة ودفن في سمرقند .

ويحظى ضريح الإمام الأعظم بشهرة واسعة واحترامًا كبيراً صار في أوساط المسلمين في كل أنحاء العالم .

ومكاناً يزوره المؤمنون ، وتكريماً للعالم الإسلامي الشهير أطلق على كل منطقة سبيلار في المدينة القديمة اسم " حضرت إمام " ¹.

¹ - الإمام الكبير قفال الشاشي - مرجع سابق .

● أبو الليث السمرقندي:—

هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم المكنى بأبي الليث ، وهي كنية كان يعتزُّ بها كثيراً لرؤية منامية رأى فيها النبي ﷺ يناديه بها .

كما كان يعرف باسم الفقيه السمرقندي ، إمام الهدى ، صاحب الأقوال المفيدة والتصانيف الكثيرة ، كان مشهوراً بالمناظرة معروفاً بالجدل ، وهو الفقيه ، المفسر المحدث ، الحافظ ، الصوفي¹ أما كونه فقيها فهذا صحيح ، ويدل على فقهه وسعة علمه كتابيه "المقدمة في الفقه" ، " وشرح الجامع الصغير"² ، وهو مفسر أيضاً ، حيث كتب تفسير القرآن العظيم ، والذي يعرف باسم " بحر العلوم"³ ، وهو حنفي المذهب⁴ وصوفي له باع في علومهم ، فقد فاض في كتاباته عنهما ، منها كتابه " بستان العارفين

● مولده ونشأته:—

لم تشر المصادر إلى التاريخ الذي وُلد فيه أبو الليث السمرقندي ، ولا إلى عدد السنين التي عاشها ، ولكنه وُلد في سمرقند ، ونشأ بها ، وعاش فيها ، وإليها انتسب ، واشتغل بالتدريس في مدارس سمرقند وبلخ ، ويدل على ذلك أن كتابيه "عيون المسائل" " خزنة الفقه" ، هما من الكتب المبسطة التي تصلح أن تكون متوناً مدرسية⁵.

كان أبو الليث السمرقندي مدرساً وفقيهاً مجتهداً ، له فتاواه وترجيحاته ، وفضلاً عن ذلك كان واعظاً ، كما يُستدل على ذلك من كتابيه "تنبيه الغافلين"، "بستان العارفين" فإنهما من الكتب الأخلاقية العظيمة⁶.

● شيوخه:—

تفقه أبو الليث السمرقندي على العديد من علماء عصره ، منهم : أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر الهندواني ، وروى عن محمد بن الفضل بن أشرف

¹ - معجم المؤلفين - عمر بن رضا بن محمد كحالة الدمشقي - مكتبة المثنى - دار إحياء التراث العربي 2010 - بيروت

² - الجواهر المضية في طبقات الحنفية - مرجع سابق .

³ - طبقات المفسرين - محمد بن علي ، شمس الدين الداوودي - دار الكتب العلمية 2012 - بيروت .

⁴ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية - مرجع سابق .

⁵ - معجم المطبوعات العربية والمعربة - يوسف بن إتيان بن موسى سركيس - مطبعة سركيس 1928 - القاهرة .

⁶ - دائرة المعارف الإسلامية - جوزيف شاخت وآخرون - مركز الشارقة للإبداع الفكري 1998 - الشارقة

البخاري وأقرانه ، وعن أبي إبراهيم الترمذي¹ ، وعن أبي القاسم الصفار البلخي الذي كان أستاذاً لأبي جعفر الهنداوي وعن نصير بن يحيى ، وعن أبي يوسف ، كما روي عن أبي عبد الله محمد بن سماعة بن عبد الله ابن هلال بن وكيع بن بشر التميمي .

● تلاميذه :-

روى عنه محمد بن محمد بن سعيد السمرقندي النوائي ، أبو بكر محمد بن عبد الرحمن الترمذي وغيرهم².

● مؤلفاته:-

ترك أبو الليث السمرقندي عدة مؤلفات ، منها ما طبع وهو قليل ، ومنها ما لم يطبع وهو الأكثر ، ومنها ما لا يعرف له مخطوط حتي الآن ، ومن أبرز ما تركه من تراث علمي تفسيره للقرآن الكريم ، وهو متوسط الحجم ، جمع فيه الأقوال المأثورة في التفسير ، وقد تُرجم إلى التركية ، وقد اشتهر هذا الكتاب باسم "بحر العلوم" ، وسار على ذلك عدد من طلاب العلم ، ولعل من أشهر المراجع التي اعتمدت هذا الاسم كتاب " التفسير والمفسرون"³ حيث ذكر كتاب أبي الليث بهذا الاسم ، ولأنه كتاب منهجي يدرس في عدد من الجامعات ، وربما كان ذلك سبباً في شيوع هذا الاسم بين طلاب العلم ، وقد طبع تفسير أبي الليث السمرقندي ، بتحقيق وتعليق : الشيخ علي محمد معوض ، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ، والدكتور . زكريا عبدالمجيد النوتي ونشرته دار الكتب العلمية ، في بيروت ، بعنوان "تفسير السمرقندي،المسمى بحر العلوم" حيث إن " بحر العلوم " ليس اسماً لكتاب أبي الليث ، فهو لم يسمّ تفسير باسم خاص بل هو تفسير القرآن ، فيصح أن يطلق عليه تفسير القرآن العظيم أو تفسير القرآن الكريم أو تفسير القرآن .

كتاب " الفتاوى "

¹ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية - مرجع سابق .

² - تاج التراجم - مرجع سابق .

³ - التفسير والمفسرون - د . محمد السيد حسين الذهبي - مكتبة وهبة 2000 - القاهرة .

تنبيه الغافلين

خزانة الفقه ، على مذهب أبي حنيفة

بستان العارفين في الآداب الشرعية

عمدة العقائد

فضائل رمضان

المقدمة ، في الفقه

شرح الجامع الصغير ، في الفقه

عيون المسائل

دقائق الأخبار في بيان أهل الجنة وأهوال النار

مختلف الرواية ، في الخلافات بين أبي حنيفة ومالك والشافعي

شرعة الإسلام ، فقه

النوازل من الفتاوى

تفسير جزء عم ينسألون ، موجز

رسالة في أصول الدين¹

● تفسير القرآن للسمرقندي " بحر العلوم " :-

يتميز تفسير " بحر العلوم " للسمرقندي ، بأنه من كتب التفسير بالمأثور كالطبري والسيوطي ، ولكنه لا يلغي الاجتهاد ، ويشير في كثير من المواضع إلى علم القراءات ولكنه نادراً ما يسند القراءة إلى صاحبها ، كما يتميز التفسير بأنه يرد على الكثير من الشبهات التي يثيرها أعداء الدين مثل الآيات التي في ظاهرها تعارض بينها وبين بعضها ، أو بينها وبين الأحاديث .

أما ما يؤخذ علي ذلك التفسير فإنه لا يذكر سند الروايات التي يعرضها ويستند إليها ولا يعلّق عليها من حيث الصحة والضعف ، كما أنه لا يرجح بين الآراء التي يذكرها وعلى الرغم من عدم شهرة هذا الكتاب فإنه لا غنى لمفسر عنه².

¹ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مرجع سابق .

² - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مرجع سابق .

ومن أمثلة ما جاء على عرضه للقراءات ، مثال على ذكر القراءة دون نسبتها إلى صاحبها : في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ بَيْعَتَهُمْ قَالَتْ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالِ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾¹ يقول السمرقندي : " قرعت " يقصد كلمة عهدي " بسكون الياء و قرأها الباقون بنصب الياء "

ومن أمثلة إسناده أحياناً القراءة لمن قرأ بها ، كما جاء في تفسير قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ إِنَّ نَظِيرَ عَنَّا طَعَامٍ وَاجِدْ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْآرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالِ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَذَىٰ بِالْأَذَىٰ هُوَ خَيْرٌ أَمْ هِطْلُوا وَضَرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا أَنْتُمْ وَضَرَيْتُمْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾²

قال : معنى كلمة فوم عند البعض أي الحبوب كلها ، ويقال هي الحنطة خاصة .
و قال مجاهد الفوم الخبز " أي ما يصنع منه الخبز " ، و قال الفراء : قولهم فومي لنا يا جارية أي اخبزي لنا . ويقال الفوم هو الثوم والعرب تبدل الثاء بالفاء لقرب مخرجهما وفي قراءة عبد الله بن مسعود " و ثومها أما الأمثلة التي يوردها السمرقندي في تناوله للروايات فيذكر السمرقندي الروايات دون إسناد ودون الترجيح بين الآراء المختلفة فمثلا في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾³

يقول : " روي عن قتادة أنه قال تفسير حطة أي حط عنا خطايانا ، وقال بعضهم معناه لا إله إلا الله ، وقال بعضهم بسم الله الرحمن الرحيم ، وقال بعضهم أمروا بأن يقولوا هذا اللفظ ولا ندري ما معناه "

¹ - سورة البقرة ، آية : 124

² - سورة البقرة ، آية : 61

³ - سورة البقرة ، آية : 58

لا يعلق السمرقندي على الروايات التي يوردها من حيث الصحة أو الضعف ، فمثلا في تفسير قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾¹ يقول في تفسير " كلمات " : " روي عن النبي ﷺ أنها خمس في الرأس ، و خمس في الجسد ، وهي عشر خصال . وعن الحجاج بن أرطاة عن عطاء قال : قال رسول الله ﷺ : " عشر علمهن وعمل بهن أبوكم إبراهيم (عليه السلام) ، خمس في الرأس وخمس في الجسد ، فأما التي في الرأس فالسواك والمضمضة والاستنشاق وقص الشارب وإعفاء اللحية ، وأما التي في الجسد فالختان والاستحداد والاستنزاه ونتف الإبط وقص الأظافر " .

وقد ذكر السمرقندي هذه الرواية ، وهي ضعيفة ؛ لأنَّ فيها الحجاج بن أرطاة وهو مدلس وضعفه علماء الحديث ، كما أن الرواية مرسله ؛ لأنَّ عطاء وهو تابعي لم يذكر من نقل عنه من الصحابة ، والغريب أنه توجد روايات صحيحة بهذا المعنى لم يوردها وعلى العكس قد يذكر السمرقندي الحديث الصحيح دون أن يشير إلى ذلك ، فمثلا في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِّن مَّاءٍ مَّارِقَتَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾²

يذكر السمرقندي حديثاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : لولا بنو اسرائيل لم يخنز الطعام ولم ينتن اللحم ولولا حواء لم تكن امرأة زوجها . فهنا أورد الحديث دون أن يشير إلى صحته مع أن هذا الحديث متفق عليه³.

يذكر السمرقندي الإسرائيليات دون أن ينبه عليها ، فمثلا في تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكُمْ أَنَّىٰ لَٰهُ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِّنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

¹ - سورة البقرة ، آية : 124

² - سورة البقرة ، آية : 57

³ - تفسير بحر العلوم - مرجع سابق .

﴿¹ يقول : " ثم إن حنا " أم مريم" لفتها في خرقة ثم وضعتها في بيت المقدس عند المحراب فاجتمع القراء أي الزهاد ، فقال زكريا : أنا أحق بها؛ لأن خالتها عندي ، فقال القراء : إن هذه محررة " أي موهوبة للبيت " فلو تركت لخالتها كانت أمها أحق بها ولكن نتساهم " أي نقترع " فخرجوا إلى عين سلوان ، فألقوا أقلامهم فغابت في الماء وبقي قلم زكريا على سطح الماء " .

هذا الكلام منقول من التوراة ولكنه لم يذكر ذلك .

تناول السمرقندي في " بحر العلوم " بعض المسائل الفقهية ، ولكنه لم يفصل القول فيها ولم يتناولها بشئ من الشرح ، فمثلا في قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُحِبَّنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْسَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّنَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيَتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ

وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾² فإن المقصود بأجلهن أي انقضت عدتهن يقول السمرقندي : " أي مضى عليهن ثلاث حيضات قبل أن يغتسلن " . نلاحظ هنا أنه ذكر رأي أبي حنيفة فقط بأن عدة المرأة تنقضي بمجرد حيضها الحيضة الثالثة بعد الطلاق فلم يذكر باقي الآراء ولم يذكر أية تفاصيل .

● منهج السمرقندي من خلال كتاب " عيون المسائل " :-

عندما وضع أبو الليث السمرقندي كتاب " عيون المسائل " ، لم يكن يهدف إلي تجميع للنوادر والفتاوي ، وما ورد في صدد ذلك من أقوال أبي حنيفة وأصحابه بل يوضح الكتاب منهج الإمام أبو الليث السمرقندي الفقهي ، حيث برز في هذا الكتاب كغيره من الكتب التي كتبها شخصيته الفقهية ، بما أبداه من ترجيحات وتعليقات ووجهات نظر جديدة في حدود الأقوال المروية عن مؤسس المذهب الحنفي وأصحابه ، ولقد كان أبو الليث صريحا في تحديد موقفه ، إذ يقول أحيانا قال الفقيه . . . ، أو قال أبو الليث وأسلوب أبو الليث السمرقندي في كتابه " عيون المسائل " متميز بالمقارنة مع كتبه الأخرى

¹ - سورة آل عمران ، آية : 37

² - سورة البقرة ، آية : 231

لأنه يروي فيه أمثلةً من فتاوي الطبقتين الأولى والثانية ، ولم يعالج فيه المسائل المتنوعة من موضوعات أدب الشريعة في المواعظ والأخلاق والفقه ، ولكن لا يمكن الوقوف علي آراء أبو الليث بصفة عامة إلا بالرجوع إلي باقي كتبه ومصنفاته الأخرى ويمهد السمرقندي في مقدمة كتاب " عيون المسائل " لأهمية علم الفقه ، فيقول : الفقه علمٌ حسنٌ ، وهو أجل من سائر العلوم ، وهو علم الشريعة والدين ، وقوام الشرائع به فلا بد لكل عاقل ، من عالم أو جاهل أن يسرع فيه ، ويستفيد منه ما يغنيه ، ويتقوي به علي فرائض الله تعالى .

وقد قصد السمرقندي من كتابه أن يكون مختصراً؛ ليسهل حفظه وتداوله بين طلبة العلم فالكتاب يحتوي علي مختارات من أقوال رجال المذهب الحنفي الأوائل في الوقائع مبوبة حسب موضوعات الفقه تيسر علي طالب العلم وغيره الوصول إلي الأقوال الدقيقة لأئمة المذهب في مختلف المسائل الفقهية .

● وفاته :-

توفى أبو الليث السمرقندي ، في جمادي الآخرة عام 375 هـ / 985 م ، كما جاء في رواية القاضي شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الحق¹. وقال البغدادي أن أبو الليث السمرقندي توفي عام ثلاث وسبعين وثلاث مائة ، والأرجح قول الحافظ الذهبي² .

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

² - ملامح من منهج أبي الليث السمرقندي في كتابه " عيون المسائل " - باسم محمد حسين - كلية التربية - جامعة الأنبار - العراق .

● أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر البخاري:—

هو عبد الرحيم ابن أحمد ابن نصر بن إسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غِيَاث التميمي البخاري أبو زكريا ، الإمام الحافظ الجوال¹.
من الحفاظ الاثبات ، يحدّث عن مائتين من أهل الحديث ، وله رسالة الرحلة وأسبابها وقول لا إله إلا الله وثوابها .

● مولده ونشأته:—

ولد أبو زكريا عبد الرحيم بن نصر البخاري في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلاث مائة للهجرة².

● شيوخه:—

سمع ببخارى " بلده وموطنه " من إبراهيم بن محمد بن يزداد ، وأخيه أحمد ، وكانا يرويان معاً عن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، وأبي الفضل السليماني ببيكند ، وأبي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بغنجار ، وأبي يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلي وأقرانه باليمن ، وأبي القاسم تمام بن محمد الرازي بدمشق ، وابن أبي كامل بطرابلس الشام وأبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ بمصر ، وله رواية عن أبي نصر الكلاباذي ، وأبي عبد الله الحاكم ، وأبي بكر بن فورك المتكلم وأبي العباس بن الحاج الاشيلي ، وأبي القاسم علي بن أحمد الخزاعي صاحب الهيثم بن كليب وأبي الفضل العباس بن محمد الحداد التنيسي ، وأبي الفتح محمد بن إبراهيم الجحدري ، وأبي بكر محمد بن داود العسقلاني ، وهلال الخفار ، وصدقة بن محمد بن مروان الدمشقي³

ولقي بافريقية العابد محمد بن خلف التميمي مولاهم وصحبهم ، الذي كان يحدث عن مائتين من أهل الحديث ، وأبو عبد الله الحميدي ، وأبو بكر جهاهر بن عبد الرحمن الطليطي ، وأبو عبد الله بن منصور الحضرمي ، وأبو سعد أحمد بن علي الرهاوي ، وأبو محمد جعفر بن السراج ، وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي ، وأبو الحسن بن المشرف الأنماطي ، وأبو الفتح نصر بن

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

² - التكملة لكتاب الصلة - محمد بن عبد الله بن الأبار - تحقيق : عبد السلام الهراس - دار الفكر للطباعة 1995 - بيروت .

³ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

إبراهيم المقدسي ، وأبو محمد شعيب بن سبعون الطرطوشي ، وأبو بكر بن نعمة العابد ، وأبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الفراء ، وأبو عثمان سعد بن عبد الله الحيدري من شيوخ السلفي ، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة ابن الخضر السلمي ، وأبو إسحاق الكلاعي من شيوخ أبي بحر الأسدي ، وأبو محمد بن عتاب ، كتب إليه بجميع ما رواه ولم يعرف ذلك في حياته وسماه أبو الوليد بن الدبّاغ في الطبقة العاشرة من طبقة أئمة المحدثين من تأليفه مع أبي عمر بن عبد البر ، وأبي بكر بن ثابت الخطيب ، وأبي محمد بن حزم ونظرانهم ، وذكره أبو القاسم بن عساكر في تاريخه وقال سمع بما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان ، ثم سكن مصر بعد أن زار دمشق وحدث بها وسمع جماعة كبيرة من الرواة عنه ، وحكى عنه أنه قال لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضي وأجيء بها¹.

● تلاميذه :-

حدث عنه العديد من الأئمة والمحدثين الذين سمعوا له ، ونقلوا عنه ، منهم : أبو عبد الله الرازي ، وذكره في مشيخته ومنها نقلت اسمه وتعرفت دخوله الأندلس ، وحدث عنه هو وجماعة منهم أبو مروان الطبري ، وقال هو من الرحالين في الآفاق وأخبرني أنه يحدث عن مائتين من أهل الحديث ، وأبو عبد الله الحميدي ، وأبو بكر جهم بن عبد الرحمن الطليطلي ، وأبو عبد الله بن منصور الحضرمي ، وأبو سعد أحمد بن علي الرهاوي ، وأبو محمد جعفر بن السراج وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي ، وأبو الحسن بن المشرف الانماطي ، وأبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي ، وأبو محمد شعيب ابن سبعون الطرطوشي ، وأبو بكر بن نعمة العابد ، وأبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الفراء ، وأبو عثمان سعد بن عبد الله الحيدري من شيوخ السلفي ، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمي ، وأبو إسحاق الكلاعي من شيوخ أبي بحر الأسدي ، وأبو محمد بن عتاب كتب إليه بجميع ما رواه ولم يعرف ذلك في حياته وسماه أبو الوليد بن الدبّاغ في الطبقة العاشرة من طبقة أئمة المحدثين من تأليفه مع أبي عمر ابن عبد البر ، وأبي بكر بن ثابت الخطيب ، وأبي محمد بن حزم ونظرانهم².

¹ - الكامل في التاريخ - أبو الحسن علي ابن الأثير - تحقيق : محمود يوسف الدقاق - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى

1987 - بيروت .

² - فتوح البلدان - مرجع سابق .

● مكانته عند العلماء :-

ذكره أبو القاسم بن عساكر في تاريخه وقال : سمع ببلاد ما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان ثم سكن مصر وقدم دمشق قديماً ، وحدّث بها وسمى جماعة كبيرة من الرواة عنه ، وحكى عنه أنه قال لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديثٍ أريد أن أمضي وأجيء بها .

قال الرازي في " مشيخته " : دخل أبو زكريا بلاد المغرب وبلاد الأندلس ، وكتب بها وفي شيوخه كثرة ، وكان من الحفاظ الأثبات¹.

قال ابن طاهر : حدثنا سعد الزنجاني ، قال : لم يرو كتاب " مشتبّه النسبة " عن مؤلفه عبد الغني سوى ابن بنته علي بن بقاء ، وابن عبد الرحيم البخاري حدث به . ويقال أن رشاً بن نظيف قد رواه أيضاً ، وهو وعبد الرحيم ثقتان .

● مؤلفاته :-

رسالة الرحلة وأسبابها .

قول لا إله إلا الله وثوابها .

● رواياته :-

قال ابن طاهر : حدثنا سعد الزنجاني ، قال : أنبأنا المسلم بن محمد ، عن القاسم بن علي ، أخبرنا أبي . أخبرنا أبو الحسن علي بن المسلم ، حدثنا عبد العزيز الكتاني أخبرنا أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الله المري ، حدثني عبد الرحيم بن أحمد البخاري قدم علينا ، أخبرنا أحمد بن نصر الكاتب ببخارى ، أخبرنا أبو نصر أحمد بن سهل حدثنا قيس بن أنيف ، حدثنا محمد بن صالح ، حدثنا محمد بن سليمان المكي ، حدثنا عبد الله بن ميمون القداح ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي عليه السلام : أن رسول الله ﷺ قال : " اغسلوا ثيابكم ، وخذوا من شعوركم ، واستاكوا ، وتزينوا وتنظفوا فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم " . وروى بسنده عن النعمان بن بشير ، عن رسول الله ﷺ قال : " مثل الواقع في حدود الله ... كمثل قوم ركبوا في

¹ - تهذيب التهذيب - مرجع سابق .

سفينة ، فاستهموا عليهما ، فركب قوم علوها ، وقوم سفلها ، فكانوا إذا استقوا آذوهم وأصابوهم بالماء ، فقالوا : قد آذيتونا بما قمرون علينا .

فأعطوا رجلاً فأساً ينقب عندهم نقباً ، قالوا : ما هذا الذي تصنعون ؟

قالوا : تأذيتم بنا ، فننقب عندنا نقباً لنستقي منه .

فإن تركوهم هلكوا وهلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا قال أبو زكريا البخاري : رأى أبو إسحاق الهجيمي أنه تعمم ، فدور على رأسه مائة وثلاث دورات ، فعبر له أن يعيش مائة سنة وثلاث سنين ، فلم يحدث حتى بلغ المائة ، ثم حدث ، فقرأ القارىء عليه ، وأراد أن يخبر عقله : رجز آل الجبان حنقه من فوقه كالكلب يحمي جلده بروقه ، فقال الهجيمي : قل : كالثور ياثور . فإن الكلب لاروق له . ففرح الناس بصحة عقله¹ .

أخبرنا الحسن بن علي ، أخبرنا جعفر بن علي ، أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن الديباجي حدثنا أحمد بن يحيى بن الجارود ، حدثنا عبد الرحيم بن أحمد الحافظ إملاء أخبرنا محمد بن إبراهيم البصري ببيت القدس ، حدثنا أحمد بن سلام الطرسوسي أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الطرسوسي ، حدثنا يعلى ومحمد ابنا عبيد قالوا : حدثنا الأعمش ، عن خيثمة ، عن سويد بن غفلة : سمعت علياً يقول : " إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ بشيء ، فإني والله لأن آخر من السماء فتخطفني الطير أحب إلي من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيننا ، فإن الحرب خدعة " أخرجه مسلم

● وفاته :-

توفي أبو زكريا بن نصر البخاري في سنة إحدى وسبعين وأربع مائة من الهجرة ، في الحوراء² .

وتوفي مع أبو زكريا البخاري في نفس العام نحو اثنا عشر من العلماء والرواة هم : أبو معمر أحمد بن عبد الواحد البالكي الهروي ؛ راوي " الجعديات " عن ابن أبي شريح وأبو عمر أحمد بن محمد بن مسعود الجذامي البزلياني القاضي ، صاحب ابن زرب

¹ - تاريخ دمشق - أبو القاسم علي بن الحسين المعروف بابن عساكر - تحقيق : عمرو بن غرامة المعروي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1985 - القاهرة .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

وأبي عبد الله بن مفرج عن مائة سنة ، وأبو الحسين محمد بن مكي بن عثمان الأزدي المصري ، ومقرئ مصر أبو الحسين نصر بن عبد العزيز الفارسي ، ومحدث بخارى عمر بن منصور البزاز ، وأبو الحسن أحمد بن الحسن بن علي بن الفضل الكاتب وقد شاخ ، والمظفر بن الحسن سبط ابن لال الهمذاني ، أبو طاهر عبد الباقي بن محمد الأنصاري صهر هبة ، أبو طاهر أحمد بن الحسين بن أبي حنيفة ؛ روى عن أحمد السوسنجردي ، مختار بن محمد بن محمد النجار ؛ أحد الشعراء ، القدوة أبو محمد عبد الله بن البرداني زاهد بغداد¹.

¹ - التكملة لكتاب الصلة - مرجع سابق .

• القاضي أبو اليسر البزدوي:—

أبو اليسر محمد بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم بن موسى النسفي البزدوي والبزدوي نسبة إلى بزوة ويقال بزدة ، القاضي الصدر العلامة ، شيخ الحنفية¹ ، وكان أحد من يُضرب به المثل في حفظ المذهب ، الشيخ الإمام المعظم ، والحبر المكرم العالم العامل الرباني ، مؤيد المذهب النعماني ، قدرة المحققين ، أسوة المدققين صاحب المقامات العلية ، والكرامات السنية ، مفجر الأنام فخر الإسلام.

• مولده ونشأته:—

ولد القاضي أبو اليسر البزدوي عام إحدى وعشرين وأربع مائة هـ² ، جده عبد الكريم من تلاميذ أبي منصور الماتريدي ، ولذا فقد نشأ في بيت علم وورع ، فقد ورث أبوه العلم عن جده .

قرأ أبو اليسر البزدوي أكثر الكتب المؤلفة في ذلك العصر في الفلسفة والكلام ، لا سيما للمعتزلة والأشاعرة ، وقال : نظرت في الكتب التي صنفها المتقدمون في علم التوحيد فوجدت بعضها للفلاسفة مثل إسحاق الكندي ، والاسفراري ، أمثالهما ، ووجدت أيضاً تصانيف كثيرة في هذا الفن من العلم للمعتزلة مثل عبد الجبار الرازي ، والجبائي والكعبي ، والنظام ، وغيرهم ، وكذلك المجسمة ، صنفوا كتباً في هذا الفن مثل محمد بن هيثم ، وأمثاله ولا يحل النظر في تلك الكتب ، وقد وجدت لأبي الحسن الأشعري كتباً وغيره في هذا الفن من العلم ، وهي قريبٌ من مائتي كتاب ، والموجز الكبير يأتي على عامة ما في جميع كتبه ، وقد صنف الأشعري كتباً كثيرة لتصحيح مذهب المعتزلة فإنه كان يعتقد مذهب الاعتزال في الابتداء ، ثم إنَّ الله تعالى بيّن له ضلالة المعتزلة فتأبَّ عما اعتقد من مذاهبهم ، وصنف كتاباً ناقضاً لما صنف للمعتزلة .

وقد أخذ علمه أصحاب الشافعي بما استقرَّ عليه أبو الحسن الشعري ، وقد صنف أصحاب الشافعي كتباً كثيرة على وفق ما ذهب إليه الأشعري ، إلا أنَّ أصحابنا من أهل السنة والجماعة خطَّأوا أبا الحسن في بعض المسائل مثل قوله " التَّكْوِينُ والمَكُونُ واحد

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

ونحوه ، فمن وقف على المسائل التي أخطأ فيها أبو الحسن الأشعري ، وعرف خطأه فلا بأس بالنظر في كتبه وإمساكها ، وقد أمسك كتبه كثير من أصحابنا ونظروا فيها الذين هم رؤساء أهل السنة والجماعة¹.

وقد صنّف أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان ، كُتُبًا كثيرة في هذا النوع من العلم وهو أقدم من أبي الحسن الأشعري ، فلم يقع في يدي شيء من كتبه ، وعمامة أقاويله توافق أقاويل أهل السنة والجماعة إلا مسائل قلائل لا تبلغ عشرة مسائل ، فإنه خالف فيها أهل السنة والجماعة ، وقد أخطأ فيها ، فلا بأس من إمساك كتبه ، والنظر فيها لمن وقف على ما أخطأ من المسائل . وقد وجدت للشيخ الإمام الزاهد أبي منصور الماتريدي السمرقندي ، كتابًا في علم التوحيد على مذهب أهل السنة والجماعة ، وكان من رؤساء أهل السنة والجماعة ، وهذا يعرب عن عكوفه على دراسة الكتب للفرق الكلامية وعرضها على الأصول التي تلقاها أنها أصول السنة والجماعة .

● ثقافته :-

ينتسب البزدوي إلى مدرسة الإمام أبي حنيفة ، وهو يعترف بالصراحة بانتمائه إلى المذهب الحنفي ، كما ينتسب في العقيدة إلى مدرسة الماتريدي ، وهو أستاذ جدّ أبيه " عبد الكريم " الذي تلقى العلوم بدوره عن الماتريدي .

ويعتبر أبو الحسن محمد بن الحسين عبد الكريم " والد أبو اليسر البزدوي " المعلم الأول لابنه أبو اليسر ، حيث يبدو في أكثر من موضع من كتابه " أصول الدين " أنه تلقى العلم علي يد أبيه ، فيقول البزدوي في مسألة " هل الإيمان مخلوق أو غير مخلوق ولا يجوز الإطلاق بأن الإيمان مخلوق " ، فيقول " هذا هو مذهب الإمام أبي حنيفة " وهو ما رواه نوح بن أبي مريم الجامع ، عن أبي حنيفة ، روى لنا والدنا الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن الحسين بن عبد الكريم ، هذا الحديث عن نوح بن أبي مريم ، وقال

¹ - أصول الدين - القاضي أبو اليسر البزدوي - تحقيق : د . هانز بيتر لنس - دار إحياء الكتب العربية 1383 هـ - القاهرة .

في مسألة أخرى " أن البعث حق " ، وقد روى لنا الشيخ الإمام محمد بن الحسين بن عبد الكريم حديثاً متصلاً إلى رسول الله ﷺ¹ .
ورغم ذلك لم يكتف في تلقي العلم بوالده ، فقد أخذ العلم عن العديد من مشايخ وعلماء عصره الكبار .

● شيوخه :-

تلقى البزدوي العلم على يد أبيه ، الذي أخذه عن جده عبد الكريم ، تلميذ أبي منصور الماتريدي ، وكذلك إسماعيل بن عبد الصادق ، وأبو يعقوب يوسف بن منصور السيارى ويعقوب بن يوسف بن محمد النيسابوري ، والشيخ أبو الخطاب .

● تلاميذه :-

أخذ عن الشيخ أبي اليسر البزدوي جم غفير من التلاميذ ؛ ومن أشهرهم : ولده القاضي أبو المعاني أحمد ، ونجم الدين عمر بن محمد النسفي صاحب العقائد النسفية ، وركن الأئمة عبد الكريم محمد ، مصنف طلبة الطلبة ، وأبو بكر محمد بن أحمد السمرقندي صاحب التحفة شيخ صاحب البدائع .

● مؤلفاته :-

ترك أبو اليسر البزدوي العديد من المؤلفات منها :

المربط : وهو حاشية على كتاب الجامع الصغير للشيباني .

الواقعات ، وهو كتاب في الفقه .

المبسوط ، وهو كتاب في الفروع .

أصول الدين ، وهو كتاب طبع ونشر في القاهرة عام 1383 هـ .

● مكانته عند العلماء :-

قال عمر بن محمد : كان أبو اليسر إمام الأئمة على الإطلاق ، والموفود إليه من الآفاق ملأ الكون بتصانيفه في الأصول والفروع وولي قضاء سمرقند ، أملى الحديث مدة .

¹ - أصول الدين - مرجع سابق .

• رأي البزدوي في الصوفية :-

كلام القاضي البزدوي له أهمية كبيرة نظراً لمكانته العلمية ، وكونه من المتقدمين الذين تكلموا في انحراف الصوفية ببسط وتفصيل ، فقال في كتابه " أصول الدين " عند التعريف بالتصوف : وأما الصوفية فأكثرهم من أهل السنة والجماعة ، وفيهم من يكون صاحب الكرامة ، إلا أنه قد ظهر فيهم مذاهب رديئة أكثرها ضلال وبدعة .

منهم " الحبية " يقولون : إن الله تعالى إذا أحب عبداً رفع عنه الخطاب فيحل له كل النعم ويسقط عنه العبادات ولا يبقى في حقه حظر فلا يصلون ولا يصومون ولا يسترون العورة ، ولا يمنعون عن الزنا وشرب الخمر ، ولا عن اللواط ولا عن محظور ما .

ومنهم " الأوليائية " يقولون : إن الولي أفضل من النبي والرسول من الآميين والملائكة جميعاً ، ويقولون : إن الرسول دون المرسل إليه ودون المرسل ، على هذا رأينا عادات الأكابر .

وهؤلاء يقولون أيضاً : إذا بلغ الإنسان في العبادة الدرجة القصوى وفي الولاية الرتبة العليا لا يبقى في حقه خطاب الإيجاب ولا خطاب الحظر ويحل له كل شيء .

ومنهم " الإباحتية " يقولون : الأموال كلها على الإباحة ، وكذا الفروج وليس للملاك إلا مجرد الاكتساب ، ويستبيحون أموال الناس وفروج نسائهم .

ومنهم " الحلولية " وهم قوم يستبيحون الرقص والغناء والنظر إلى الشاب الأمر المليح الصبيح ، ويقولون قد حلت بهذا الأمر الصبيح صفة من صفات البارئ ، فنحن نحبه ونعانقه لأجل تلك الصفة .

ومنهم " الحورية " يقولون باستباحة الرقص والغناء والمبالغة في الرقص حتى يسقطون على الأرض من كثرة الإتيان في الرقص ، ثم يقومون ويغتسلون ويقولون إن الحور العين يحضرن ونجامعهن وكأن إبليس جامعهم لشر صنيعتهم .

وفي الصوفية قومٌ يدعون الإلهام يقولون : حدثني قلبي عن ربي ، ثم يذكرون بعض ما وضعه القرامطة من الإشارات الفاسدة بالألفاظ الهائلة يغرون بهم العامة ، وجعلوا ذلك مكسبة لأنفسهم وأنكروا الشرائع أجمع ، شر خليفة الله تعالى ، وواحد من هؤلاء

الصوفية حضر بلدة بخارى سنة ثمان وسبعين وأربع مائة ، وجمع الصوفية وبعض أصحاب الشافعي على نفسه .

وقد أخبرني واحد من فقهاءنا أنه سأل هذا المبتدع لم تركت مذهب أبي حنيفة وترفع اليدين عند الركوع وعند رفع الرأس من الركوع ، فقال : إني رأيت رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه ﷺ وغيرهم ويرفعون أيديهم عند الركوع وعند رفع الرأس من الركوع فقال : قلت له رأيت في المنام قال : بل في اليقظة .

● وفاته:—

توفي القاضي أبو اليسر البزدوي في التاسع من شهر رجب عام ثلاث وتسعين وأربع مائة ودفن في بخاري¹.

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

● محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي:—

هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر أبو بكر الشاشي ، الإمام الكبير فخر الإسلام شيخ الشافعية فقيه العصر ، حافظ لمعاقد المذهب الشافعي ، وشوارده ، صاحب المستظهري وهو مصنف صنفه لأمر المؤمنين المستظهر بالله وسماه " حلية العلماء " ¹ من الأئمة الأعلام وفقهاء الإسلام ، مرجوعاً إليه في الفتاوى والأحكام ومعرفة الحلال والحرام .

● مولده ونشأته :—

ولد محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي يوم الأحد السابع من المحرم عام سبع وعشرين وأربعمائة ، رحل إلى بغداد واستمع فيها إلى أبا إسحاق الشيرازي ، وقرأ على أبي نصر بن الصباغ كتاب الشامل ، وسمع الحديث من أبي جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة ، وأبي الغنائم عبد الصمد بن علي بن المأمون ، والقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن الفراء وغيرهم ، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد بعد الغزالي وصرف ، ثم وليها بعد إلكيا الهراسي عام 504 ، ودرس أيضاً بمدرسة تاج الملك وزير السلطان ملك شاه ، انتهت إليه رئاسة المذهب ، وتخرج به الأصحاب ببغداد ،

● شيوخه :—

تفقه محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي علي العديد من العلماء والشيوخ منهم : أبو عبد الله محمد بن بيان الكازروني ، وعلى القاضي أبي منصور الطوسي صاحب أبي محمد الجويني ، أبو إسحاق الشيرازي ، وقرأ على أبي نصر بن الصباغ صاحب كتاب الشامل ، وسمع الحديث من أبي جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة ، وأبي الغنائم عبد الصمد بن علي بن المأمون ² ، والقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن الفراء ، وثابت بن أبي القاسم الخياط ، وأبي بكر الخطيب ، وهياج بن عبيد المجاور .

¹ - الأعلام - مرجع سابق .

² - طبقات الشافعية الكبرى - مرجع سابق .

● تلاميذه :-

حدّث عنه : أبو المعمر الأزجي ، وعلي بن أحمد اليزدي ، وأبو بكر ابن النقور ، وأبو طاهر السلفي ، وفخر النساء شهدة .

● مكانته عند العلماء :-

قال أبو القاسم يوسف الزنجاني : كان أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي يتفقه معنا ، وكان يسمى الجنيد؛ لدينه وورعه وزهده ، رحمه الله تعالى¹.

● مؤلفاته :-

المستظهري ، وهو مصنف صنفه لأمر المؤمنين المستظهر بالله وسماه " حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء " .

المعتمد ، وهو عبارة عن شرح لمصنف حلية العلماء ، والترغيب في المذهب الشافعي الشافعي في شرح مختصر المزني .

العمدة في فروع الشافعية .

الشافعي في شرح الشامل .

الفتاوي ، ويعرف باسم فتاوي الشاشي .

تلخيص القول ، وهو مصنف يتعلق بالصلاة .

● كتاب حلية العلماء:-

يعتبر كتاب حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء ، والمشهور باسم " المستظهري " من الكتب المهمة في الفقه الشافعي ، حيث جاء بآراء الفقهاء المختلفة في المسائل الفقهية، فكما جاء في كتاب الصلاة يقول محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر أبو بكر الشاشي : لا تجب " والوجوب عند الشافعية يسمى الفرض " الصلاة إلا علي مسلم بالغ عاقل ، طاهر ، وأما المرتد فتجب عليه الصلاة ، ويؤمر بقضائها إذا أسلم ، وقال أبو حنيفة : الردة تسقط عنه فرض القضاء في الصلاة التي وجبت عليه في حال الإسلام ولا يؤمر بقضاء ما فاتته في حال الردة بعد العود إلي الإسلام ، وبه قال مالك .

¹ - طبقات الشافعية الكبرى - مرجع سابق .

وفي باب مواقيت الصلاة يقول : أول وقت الظهر ، إذا زالت الشمس ، وحكي القاضي أبو الطيب رحمه الله : أن من الناس من قال : لا تجوز الصلاة حتي يصير الفئ مثل الشراك بعد الزوال ، وقال مالك : أحب أن يؤخر الظهر بعد الزوال ، بقدر ما يصير الظل ذراعاً.

وآخر وقتها إذا صار ظل كل شيء مثله ، ويعتبر المثل من حد الزيادة علي الظل الذي كان عند الزوال ، وبه قال الثوري ، وأحمد ، وأبو يوسف ، ومحمد ، وهو رواية الحسن بن زياد عن أبي حنيفة .

روي ابو يوسف عن أبي حنيفة وهو المشهور عنه : أن وقت الظهر إلي أن يصير ظل كل شيء مثليه¹.

●وفاته :-

توفي محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي ليلة السبت خامس عشري شوال سنة سبع وخمسمائة ، ودفن يوم السبت في بغداد إلى جنب شيخه أبي إسحاق الشيرازي ، وقيل : دفن معه².

وحدث محمد بن عبد الله القرطبي الفقيه قال : حضرت عند الإمام أبي بكر الشاشي وقد أغمي عليه في مرضه ، فلما أفاق أحضروا له ماء ليشربه ، قال : لا أحتاج من سقاني الآن ملك شربة ، أغنتني عن الطعام والشراب ثم مات .

¹ - حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء - سيف الدين أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي الففال - تحقيق : د . ياسين أحمد إبراهيم درادكه - مكتبة الرسالة الحديثة - الطبعة الأولى 1988 - عمان .

² - طبقات الشافعية الكبرى - مرجع سابق .

• عمر بن محمد النسفي:—

هو عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ لُقْمَانَ ، أَبُو حَفْصٍ النَّسْفِيُّ الحَنْفِيُّ ، ولقبه نجم الدين ، وشيخ الإسلام ، ومفتي الثقلين ، لعلمه في أصول العقيدة¹، فقيه ، عالم في أصول العقيدة ، وهو صاحب العقيدة النسفية .

• مولده ونشأته:—

وُلِدَ عمر بن محمد النسفي ، سنة 461هـ الموافق سنة 1069م في نسف بين جيحون وسمرقند ، ونشأ فيها ، ويطلق عليها أيضاً نَخْشَبَ بالقرب من سمرقند ، في أوزبكستان².

رحل عمر بن محمد النسفي في طلب العلم ، فزار بغداد ، ومنها إلى مكة المكرمة والتقى فيها جار الله الزمخشري ، المتوفي سنة 538هـ ، صاحب التفسير المشهور " الكشاف " .

• مكانته العلمية:—

بلغ النسفي منزلة عالية في العلوم والفنون المتنوعة ، ويدل على ذلك ما سطره المترجمون له من الثناء عليه والإشادة بعلمه وفضله وزهده³ ، فقد ذكروا أنه كان فاضلاً زاهداً فقيهاً مفسراً عارفاً بالمذهب والأدب ، وإماماً مبرزاً متفنناً كثير التصنيف والتأليف في مختلف أنواع العلوم والفنون ، وكان له شعر على طريقة الفقهاء والحكماء ومن أشهر ما قدّمه النسفي " العقيدة النسفية " ⁴ التي شرحها سعد الدين التفتازاني في مؤلف مستقل تنبيهاً على أهمية هذا المؤلف الذي يقدم أصولاً عقديّة وفصولاً تسهم في رسوخ الدين ووقايته من الشبه والفتن التي تعصف بالمؤمنين ، إذ قدم التفتازاني شرحاً

¹ - لسان الميزان - مرجع سابق .

² - شرح العقائد النسفية - سعد الدين التفتازاني - تحقيق : أحمد حجازي السقا - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

³ - التحرير في المعجم الكبير - عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي - تحقيق : منيرة ناجي سالم - رئاسة ديوان الأوقاف - الطبعة الأولى 1975 - بغداد .

⁴ - التيسير في علم التفسير للإمام عمر بن محمد النسفي - د . فائزة محمود عبد العال - كلية الدراسات الإسلامية فرع البنات - جامعة الأزهر 1994 - القاهرة .

يفصل مجملات العقيدة النسفية ويبين معضلاتها مع توضيح للمكونات والمقاصد العقيدة وتحقيق للمسائل وتدقيق للدلائل وتحريرها ، وشرح الفوائد من دون إطالة وإسهاب ممل أو إخلال¹.

ومع هذه المنزلة الرفيعة في العلم فقد اتهم بأن له بعض الأوهام في مصنفاته الحديثية فقد قال السمعاني عنه بعد أن أشاد بعلمه وفضله على ما ذكره الداودي في طبقاته وغيره : وأما مجموعاته في الحديث فطالعت منها الكثير وتصفحتها ، فرأيت فيها من الخطأ وتغيير الأسماء وإسقاط بعضها شيئاً كثيراً ، وكان ممن أحب الحديث وطلبه ولم يرزق فهمه²

● شيوخه :-

تلقى " عمر بن محمد النسفي " علومه على كثير من مشايخ عصره ، فنقل عنه أنه قال : شيوخي خمس مئة وخمسون رجلاً³ ، ويذكر المترجمون أن له كتاباً أسماه " تعداد شيوخ عمر " جمع فيه أسماء شيوخه ، وقد سافر كثيراً وارتحل في طلب العلم واستفاد من شيوخ كثيرين ، حيث جمع أسماءهم في كتاب ، فبلغوا خمسمائة وخمسة وخمسين شيخاً ، ولم يذكر أصحاب التراجم والسير إلا النزر اليسير منهم ، وهم :

أبو القاسم بن بيان ، حيث سمع منه ببغداد في آواخر عمره ، وهو كهلاً .

إسماعيل بن محمد النوحى النسفي .

الحسن بن عبد الملك القاضي .

مهدي بن محمد العلوي .

عبد الله بن علي بن عيسى النسفي⁴ .

أبو اليُسْرِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ النَّسْفِيِّ .

حُسَيْنُ الْكَاشْغَرِيِّ .

أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ السَّمَرْقَنْدِيِّ .

1 - شرح العقائد النسفية - مرجع سابق .

2 - طبقات المفسرين - مرجع سابق .

3 - نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

4 - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - إسماعيل باشا البغدادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

عَلِيُّ بْنِ الْحَسَنِ الْمَأْثُرِيِّ .

أبو علي الحسن بن عبد الملك القاضي النسفي¹ .

● تلاميذه:—

سمع منه ورَوَى عَنْهُ وتتلذذ على يديه عدد كبير من العلماء وطلبة العلم منهم :—

محمد بن إبراهيم التوربشتي .

وولده أبو الليث أحمد بن عمر بن محمد ، النسفي .

عمر بن محمد بن عمر العقيلي .

وأبو سعد عبد الكريم السمعاني صاحب التحبير في المعجم الكبير² .

الميرغاني علي بن أبي بكر بن عبد الجليل ، شيخ الإسلام صاحب كتاب " الهداية " في الفقه

الحنفي ، وغيرهم .

● العقيدة النسفية:—

الفلسفة التي تقوم على الاعتقاد واليقين الراسخ في العقل بوجود الله تعالى ، وتفرد بهذاته

وقدرته في ملكوته ، ومن ثم وجب علي الخلق عبادته وحده ، كذلك فإن الإيمان واليقين

بما جاء به الرسل هو من تمام العقيدة ونزاهة العبادة ، وفي ذلك يقول " عمر بن محمد

النسفي " في العقيدة النسفية :

قال أهل الحق : حقائقُ الأشياء ثابتةٌ ، والعلمُ بما مُتَحَقَّقٌ خلافًا للسوفسطائية . وأسبابُ العلمِ

للخلق ثلاثةٌ : الحواسُّ السليمةُ ، والخبرُ الصادقُ ، والعقلُ . فالحواسُّ خمسٌ : السمعُ والبصرُ

والشمُّ ، والذوقُ ، واللمسُ . وبكل حاسةٍ منها يُوقف على ما وُضِعَتْ هي له : كالسمعِ

والذوقِ ، والشمِّ . والخبرُ الصادقُ على نوعين : " أحدهما " الخبرُ المتواترُ ، وهو الخبرُ الثابتُ

على ألسنة قومٍ لا يُتصورُ تواطؤُهُم على الكذبِ ، وهو مُوجبٌ للعلمِ الضروريِّ ، كالعلمِ

بالملوكِ الخالية في الأزمنة الماضية والبُلدانِ النائية ، " والثاني " خبرُ الرسولِ المؤيدِ بالمعجزة ، وهو

يُوجبُ العلمَ الاستدلاليَّ ، والعلمُ الثابتُ به يُضاهي العلمَ الثابتَ بالضرورة في اليقين والثبات .

¹ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - مرجع سابق .

² - مقدمة كتاب طلبه الطلبة في الاصطلاحات الفقهية للنسفي - د . عصمت الله غنيت الله - الجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد .

وأما العقل : فهو سبب للعلم أيضاً ، وما ثبت منه بالبدئية فهو ضروري كالعلم بأن كل شيء أعظم من جزئه ، وما ثبت منه بالاستدلال فهو اكتسابي .

والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق ، والعالم بجميع أجزائه مُحَدَّث ، إذ هو أعيان وأعراض .

فالأعيان ما له قيام بذاته ، وهو إما مركب وهو الجسم أو غير مركب كالجوهر وهو الجزء الذي لا يتجزأ .

والعرض ما لا يقوم بذاته ويحدث في الأجسام والجواهر كالألوان ، والأكوان والطُوم والروائح .

والمحدث للعالم هو الله تعالى الواحد القديم الحي القادر العليم السميع البصير الشائي المريد ليس بعرض ، ولا جسم ، ولا جوهر ، ولا مُصَوَّر ، ولا محدود ، ولا معدود ولا متبعض ، ولا متجز ، ولا مُتَرَكَّب ، ولا متناه ، ولا يُوصَف بالماهية ، ولا بالكيفية ولا يتمكن في مكان ، ولا يجري عليه زمان ، ولا يُشَبَّه شيء ، ولا يُخْرَج عن علمه وقدرته شيء .

والكبيرة لا تُخْرَج العبد المؤمن من الإيمان ولا تُدْخِلُهُ في الكفر ، والله تعالى لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ ، ويجوز العقاب على الصغيرة والعفو عن الكبيرة إذا لم يكن عن استحلال ، والاستحلال كفر .

والشفاعة ثابتة للرسل والأخيار في حق أهل الكبائر بالمستفيض من الأخبار ، وأهل الكبائر من المؤمنين لا يُخْلَدُونَ فِي النَّارِ وَإِنْ مَاتُوا مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ .

والإيمان في الشرع : هُوَ التَّصْدِيقُ بِمَا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، والإقرار به ، وأما الأعمال فهي تَتَرَايِدُ فِي نَفْسِهَا ، والإيمان لا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ ، والإيمان والإسلام واحد ، فإذا وَجَدَ مِنَ الْعَبْدِ التَّصْدِيقَ وَالْإِقْرَارَ صَحَّ لَهُ أَنْ يَقُولَ : أَنَا مُؤْمِنٌ حَقًّا وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ : أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالسَّعِيدُ قَدْ يَشْقَى ، وَالشَّقِيُّ قَدْ يَسْعُدُ وَالتَّغْيِيرُ يَكُونُ عَلَى السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ دُونَ الْإِسْعَادِ وَالْإِشْقَاءِ ، وهما من صفات الله تعالى ولا تَغْيِيرٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَا عَلَى صِفَاتِهِ .

وفي إرسال الرُّسلِ حكمةٌ ، وقد أرسلَ الله تعالى رُسُلًا مِنَ البَشَرِ إلى البَشَرِ مبشرينَ ومُنذرينَ ومُبينينَ للناسِ ما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا والدينِ ، وأَيَّدَهُمْ بِالْمَعْجَزَاتِ النافِضَاتِ لِلْعَادَاتِ .

وأولُ الأنبياءِ ءَادَمُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وءَاخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وكراماتُ الأولياءِ حَقٌّ ، فَيُظْهِرُ الكرامةَ على طريقِ نقضِ العادةِ للولي ، وأفضلُ البَشَرِ بَعْدَ نَبِينَا أَبُو بَكْرٍ الصديقُ ، ثم عمرُ الفاروقُ ، ثم عثمانُ ذو النورينِ ، ثم عليُّ المرتضى .

والخلافةُ ثابِتَةٌ على هذا الترتيبِ أيضًا . والخلافةُ ثلاثونَ سنةً ، ثم بَعْدَهَا مُلْكٌ وإِمَارَةٌ والمسلمونَ لا بدَّ لَهُمْ مِنْ إِمَامٍ ليقومَ بتنفيذِ أحكامِهِمْ ، وإقامةِ حُدُودِهِمْ ، وسَدِّ ثُغُورِهِمْ وتجهيزِ جيوشِهِمْ ، وأخذِ صدقاتِهِمْ ، وقهرِ المُتَغَلِّبَةِ والمُتَلَصِّصَةِ ، وقطاعِ الطريقِ وإقامةِ الجُمُعِ والأعيادِ ، وقطعِ المنازعاتِ الواقعةِ بينَ العبادِ ، وقبولِ الشهاداتِ القائمةِ على الحقوقِ ، وتزويجِ الصِّغارِ والصِّغَارِ الَّذِينَ لَا أَوْلِيَاءَ لَهُمْ ، وقِسْمَةِ الغنائمِ ونحوِ ذلك ونَشْهُدُ بِالْجَنَّةِ لِلْعَشْرَةِ الَّذِينَ بَشَّرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ ، ونرى المَسْحَ على الخُفَيْنِ فِي الحَضَرِ والسَّقَرِ ، وَلَا نَحَرْمُ نَبِيذَ التمرِ .

وَلَا يَبْلُغُ وَلِيُّ دَرَجَةِ الأنبياءِ أَصْلًا ، وَلَا يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَى حَيْثُ يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ . وفي دُعَاءِ الْأَحْيَاءِ لِلْأَمْوَاتِ وَصَدَقَتِهِمْ عَنْهُمْ نَفْعٌ لَهُمْ ، وَاللهُ تَعَالَى يُجِيبُ الدَّعَوَاتِ وَيَقْضِي الْحَاجَاتِ .

وَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ مِنْ خُرُوجِ الدَّجَالِ ، وَدَابَّةِ الْأَرْضِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَنَزُولِ عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مِنَ السَّمَاءِ ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا فَهُوَ حَقٌّ . وَالْمَجْتَهِدُ قَدْ يُخْطِئُ وَقَدْ يُصِيبُ ، وَرُسُلُ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنْ رُسُلِ الْمَلَائِكَةِ ، وَرُسُلُ الْمَلَائِكَةِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الْبَشَرِ ، وَعَامَّةُ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الْمَلَائِكَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

● مؤلفاته:—

خَلَّفَ الْإِمَامُ النَّسْفِيُّ مَصْنُفَاتٍ كَثِيرَةً حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا بَلَغَتْ الْمِئَةَ ، مِنْهَا :—

الْأَكْمَلُ الْأَطْوَلُ : فِي التفسيرِ فِي أَرْبَعَةِ أَجْزَاءِ .

التيسير فِي التفسيرِ .

مِلَّةُ الطَّلَبَةِ : فِي الاصطلاحاتِ الفقهيةِ عَلَى مَذْهَبِ أَلْفَاظِ كُتُبِ الْحَنْفِيَةِ .

الجامع الصغير : في فقه الحنفية وغيرها ، وقد طُبِعَ بعضها ، ولا يزال بعضها الآخر مخطوطاً .

القَدِّ فِي تَارِيخِ سَمَرْقَنْدَ : والذي يعتبر مرجعاً ومصدرًا لما كتبه أكابر أهل التراجم والسير ، مثل الذهبي وابن حجر وغيرهما¹.

أجناس الفقه :

تطوير الأسفار لتحصيل الأخبار : جمع فيه ما سمعه من الأحاديث من شيوخه وتعداد الشيوخ الذين روى عنهم .

الجمال المأثورة :

الخصائص في الفروع : وهو كتاب كبير في فروع مختلفة من العقيدة والفقه والحديث والتفسير .

دعوات المستغفرين .

الفتاوى النسفية .

مشارع الشارع في فروع الحنفية .

المعتقد .

منظومة النسفي في الخلاف .

كتابه في العقيدة² .

العقائد النسفية أو عقائد النسفي : وهو متن متين ، اعتنى به جمٌّ من الفضلاء فشرحه العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة 791هـ ، وفرغ منه في شعبان سنة 768هـ ؛ وقال : " إن المختصر المسمى بالعقائد يشتمل على غرر الفوائد في ضمن فصول هي للدين قواعد ، وأصول مع غاية من التنقيح والتهذيب وغيره ، وقد ولع به العلماء فقاموا بشرحه والتعليق عليه ، أو تلخيصه ، أو التحشية

¹ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - مرجع سابق .

² - شرح العقائد النسفية - مرجع سابق .

عليه ، وقد ذكر حاجي خليفة بعضاً من شروحه¹ ، مع تخريج أحاديثه للمحدث جلال الدين السيوطي المتوفي سنة 911هـ .

● كتاب " طلبية الطلبة " :-

يعتبر كتاب " طلبية الطلبة " أول كتاب لغوي فقهي ، جمع فيه مؤلفه - رحمه الله تعالى - معاني الألفاظ والكلمات التي استعملها الفقهاء الأحناف ، فكان بهذا شأن كبير لدى العامة والخاصة ، وهذا الكتاب يشبه إلي حد كبير كتب " غريب الحديث " ، بل هو رديف لها ، فهو كثيراً ما يتعرض لشرح الألفاظ الواردة في الأحاديث التي يستدل بها الفقهاء ، أو يستشهد بها على الأحكام ، فهو يتتبع مفهوم الغريب عند اللغويين ومفهومه عند الفقهاء وهذه ميزة فريدة وهامة في فقه اللغة خصوصاً ، حيث أن الجانب التطبيقي في استعمال الألفاظ والكلمات ذات الدلالات كان بارزاً لدى الفقهاء ، ولهذا لا يمكن الاستغناء عن كتب الشروح التي حفلت بشرح الألفاظ الفقهية وإيضاح دلالاتها الاصطلاحية .

وقد سلك " الإمام النسفي " في كتابه هذا مسلك المقيدا بأبواب الفقه ، فهو يبدأ بأبواب الطهارة ثم بأبواب الصلاة ، ثم بأبواب الصيام ، ثم بأبواب مناسك الحج ، ثم بأبواب النكاح ثم الرضاة ، ثم أبواب الطلاق ، ثم العتاق ، إلى آخر الأبواب الفقهية التي اعتمدها في ترتيب الفقه الحنفي ، ويورد " النسفي " المصطلحات الفقهية الواردة في الفقه الحنفي ، ولا يعرج على باقي المذاهب فيما ذهبت إليه في اصطلاحاتها ، فهو بهذا يخص الفقهاء الأحناف أكثر من غيرهم ، وإن كان لا يستغني عنه كل طالب علم وفقه . وقد التزم " الإمام النسفي " بإيراد الشواهد القرآنية والنبوية في معرض استشهاده على دلالات المصطلحات الفقهية لدى علماء مذهبه مكتفياً بذلك عن سائر فقهاء المذاهب الفقهية الأخرى . وعلى الرغم من ذلك فقد كان الكتاب كثير المادة ، واسع المفردات التي يوردها في معرض الشرح والبيان .

ويرجع سبب جمع " الإمام النسفي " لكتاب " طلبية الطلبة " هو اللحن في الألفاظ الغريبة في لغة الفقه ، وقلة الدراية بمعانيها ودلالاتها ، حيث يقول في مقدمته : سألني جماعة

¹ - كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون - مرجع سابق .

من أهل العلم شرح ما يشكل على الأحداث الذين قل اختلافهم في اقتباس العلم والأدب ولم يمهروا في معرفة كلام العرب من الألفاظ العربية المذكورة في كتب أصحابنا الأخيار وما أورده مشايخنا في نكتها من الأخبار إعانة لهم على الإحاطة بكلها وإغناء عن الرجوع إلى أهل الفضل لحلها ، فأجبتهم إلى ذلك اغتناماً لمسألتهم ورغبة في صالح أدعيتهم ، والله موفق والمثيب، عليه توكلت وإليه أنيب .

وحرص " النسفي " في تأليفه لهذا الكتاب على إفادة طلبة العلم وإعانتهم على معرفة ما يصعب عليهم معرفته بالرجوع إلى أهل هذا الشأن ، فوضع لهم هذا الكتاب حيث انطلق أصلاً من منهج واضح مرسوم ، ضمن إطار محدود لا يتعداه هو " لغة الفقه الحنفي " فهو يقتصر على مادة لغوية معينة من المفردات الفقهية ، مكتفياً بتعريفات موجزة هادفة متبعا لمنهج أهل الفقه في التوضيح والإيجاز ، بعيداً عن الإفاضة والتعميق والتوسع الشائع بين اللغويين .

ودأب " النسفي " في مهجه العلمي عند إعداد كتاب " طلبه الطلبة " ، على إيراد المعاني اللغوية أولاً ، ثم يورد المعاني الاصطلاحية الفقهية ، ويذكر لها الشواهد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويورد الأدلة على ما يثبت أو ينقله من المصطلحات أحياناً وفي الأغلب يذكر المعاني الاصطلاحية بدون استدلال عليها ، ويبدأ بمصطلح كتب الفقه وأبوابه ، ثم يأخذ بعد ذلك بإيراد الألفاظ الفقهية الاصطلاحية المهمة والألفاظ الغريبة في كل كتاب وباب ، من غير تحديد للأبواب الفقهية ، مكتفياً بذكر الكتب فحسب .

وقد اصطفى " الإمام النسفي " مادة كتابه من الفقه الحنفي ، ثم أرفدها من المادة البيانية اللغوية والتفسيرية من الكتب الفقهية واللغوية ، وكتب التفسير وكتب الحديث وغريبه فهو يعتمد في كتابه هذا على جميع ذلك ، وقلماً يذكر مصادره منها ، ويستشهد بالأحاديث النبوية ، ولا يلتزم بالصحيح والحسن فحسب ، وإنما يذكر ما وصل إليه من الروايات ، فمنها الصحيح والعليل ، حيث يعتبر الكتاب من الكتب النادرة المفيدة التي تمد طالب العلم بمادة علمية وفيرة¹.

¹ - تحقيق كتاب " طلبه الطلبة " - خالد عبد الرحمن العك - دار النفائس - الطبعة الأولى 1995 - بيروت .

● مكانته عند العلماء :-

قال عنه الإمام الذهبي : العَلَمَةُ ، المُحَدَّثُ .
وقال العلامة قاسم بن قطلوبغا : " كان فقيهاً عارفاً بالمذهب والأدب " .
وقال السمعاني : إمام فقيه فاضل ، عارف بالمذهب والأدب ، صَنَّفَ التصانيف في
الفقه والحديث ، ونظم الجامع الصغير ، وجعله شعراً ، وصنف قريباً من مائة مصنف¹
وذكره ابن النجار فأطال ، وقال : كان فقيهاً فاضلاً ، مفسراً محدثاً ، أديباً مفتياً .
ووصفه القرشي فقال : الإمام الزاهد نجم الدين أبو حفص .

● وفاته:-

بعد حياة حافلة بالنشاط والعلم ، تُوفِّيَ عمر بن محمد النسفي في سَمَرْقَنْدَ ، ليلة الخميس
ثاني عشر جمادى الأولى ، سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ، الموافق 1142
من الميلاد ، وله من العمر ست وسبعون سنة².

¹ - النسفي (عمر بن محمد) - عبد العزيز الحاجي - الموسوعة العربية .

² - الأعلام - مرجع سابق .

● إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي:—

هو إسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الاشعث أبو القاسم بن أبي بكر السمرقندي المحدث ، الفقيه ، كثير الإسناد ، وكان محدث بغداد الأكثر صيتاً وشهرة ، وقد أملى في جامع المنصور زيادة على ثلاثمائة مجلس في الجمعات بعد الصلاة في البقعة المنسوبة إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل .

● مولده ونشأته:—

رحل أبوه من سمرقند إلى دمشق حيث ولد إسماعيل ونشأ بها ، وقال إسماعيل بن أحمد السمرقندي عن مولده : ولدت يوم الجمعة وقت الصلاة ، الرابع من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وأربعمائة من الهجرة بدمشق¹ ، وقد أخذ علومه الأولي علي علماء عصره في دمشق ، وسمع بها أبا بكر الخطيب ، وأبا الحسن بن أبي الحديد ، وأبا نصر ابن طلاب ، وعبد العزيز الكتاني ، وعبد الدائم القطان ، وأبا العباس بن قبيس وغيرهم² ، ثم خرج إلى بغداد عام تسع وستين وأربعمائة من الهجرة ، فاستوطنها إلى أن مات بها ، وأدرك بها إسناداً حسناً ، وسمع بها أبا الحسين بن النقور ، وأبا منصور بن غالب العطار وأبا القاسم بن البصري ، وجماعة سواهم من أصحاب المخلص فمن دونهم .

كان إسماعيل بن أحمد السمرقندي ، مُكثرًا ، ثقة ، صاحب نسخ وأصول ، وكان يقول : أنا أبو هريرة في ابن النقور ، أي لكثرة ملازمته له وسماعه منه ، فقلّ جزء قرئ على ابن النقور إلا وقد سمعه منه مرارًا ، وبقي إلى أن خلت بغداد ، وصار محدثها كثرة وإسنادا حتى صار يطلب العوض على التسميع بعد رغبته إلى أصحاب الحديث في السماع ، وحرصه على إسماع ما عنده³.

¹ - الأنساب - عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاتي - تقديم وتعليق : عبد الله عمر البارودي - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت .

² - بغية الطلب في تاريخ حلب - مرجع سابق .

³ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

أملى السمرقندي في جامع المنصور زيادة على ثلاثمائة مجلس في الجُمعات بعد الصلاة في البقعة المنسوبة الى عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وكان يعمل في بيع الكتب كمهنة له يعتاش منها ، فقد روي أنه باع مرة صحيح البخاري ، وصحيح مسلم في مجلدة لطيفة بخط أبي عبد الله الصوري الحافظ بعشرين ديناراً ، وقال : وقعت على هذه المجلدة بغيراط لأنني اشتريتها وكتاب آخر معها بدينار وقيراط ، فبعت ذلك الكتاب بدينار وبقيت هذه المجلدة بغيراط .

قدم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي دمشق سنة نيف وثمانين زائراً لبیت المقدس فزارها وسمع بها جماعة ، وسمع بدمشق نصر بن إبراهيم المقدسي ، وحدّث بدمشق في دار أبي الحسن بن أبي الحديد ، فسمع منه أبو الحسن بن أبي الحديد ، وأبو محمد بن صابر ، ثم رجع الى بغداد¹.

وقال أبو هاشم بن الفضل العباسي الصالحي — قراءت عليه بحلب وأنا أسمع — قال : أخبرنا الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني قال : إسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث السمرقندي بن أبي بكر المقرئ ، كان يسكن باب المراتب الشريفة بعد أن سكن خرابة الزينبيين ، شيخ كبير ثقة ، حافظ متقن ، سمع الكثير بنفسه ، ونسخ بخطه ، وجمع الشيوخ وسمع منهم ، وصارت أصول البغداديين من أكثرها له نقل وحمل عنه الكثير ، واشتهر بالرواية والذكاء ، وجودة السماع الى من يقرأ عليه .

● شيوخه :-

سمع بدمشق : أبا بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب الحافظ ، وأبا الحسن أحمد بن عبد الواحد بن أبي الحديد السلمي ، وأبا الحسن عبد الدائم بن الحسن الهلالي ، وأبا محمد عبد العزيز بن أحمد الكتاني الحافظ ، وأبا نصر الحسين بن محمد بن أحمد بن طلاب الخطيب ، وأبا محمد عبد الله بن إبراهيم بن كبيبة النجار ، وأبا العباس أحمد بن منصور الغساني المالكي ، وأبا نصر بن طلاب ، وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم كبيبة ، وأبا العباس أحمد بن منصور بن قبيس ، وأبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي² .

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

² - بغية الطلب في تاريخ حلب - مرجع سابق .

وسمع ببيت المقدس : أبا القاسم مكي بن عبد السلام المقدسي الرميلى الحافظ ، وأبا سعد حمد بن علي بن حميد بن محمد بن صدقة الرهاوي ، وأبا بكر محمد بن أحمد الطوسي المقرئ .

وسمع ببغداد : أبا محمد عبد الله بن محمد بن هزار مرد الخطيب الصريفي ، وأبا الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن النقور البزاز ، وأبا القاسم عبد الله بن الحسن الخلال وأبا القاسم عبد العزيز بن علي الأغاطي ، وأبا منصور عبد الباقي بن محمد بن غالب العطار ، وأبا القاسم علي بن أحمد بن محمد بن البصري ، وأبا نصر محمد بن محمد بن علي الزيني ، وأبو القاسم اسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي ، وأبا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التيمي ، وخلقاً يطول ذكرهم .

وتفرّد بالرواية عن جماعة من الشاميين ، فسمع منهم الكثير ، وقرأ عليهم الكتب الكبار والأجزاء المنثورة ، وما فاته من الإسناد العالي والنازل شيء ببغداد إلا وسمعه وأكثر عن أبي الحسين بن النقور ، وكان يلزمه حتى أنه كان يقول : سمعت جزء يحيى بن معين عن ابن النقور اثنا عشر نوبة ، أو ثلاثة عشر نوبة ، الشك مني¹ .

● تلاميذه :-

روى عن إسماعيل بن محمد بن عمر السمرقندي : أبو شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي ، وأبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني ، وأبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الحافظ الدمشقي ، والحافظ أبو محمد عبد الخالق بن أسد بن ثابت الدمشقي ، وجماعة غيرهم ، وأبو حفص عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد البغدادي

● روايته للحديث :-

قال أبو حفص عمر بن محمد بن طبرزد - قراءة عليه بحلب - قال : حدثنا أبو القاسم اسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي قال : حدثني عبد الله بن محمد الصريفي قال : حدثنا عمر بن إبراهيم الكتاني ، وأبو القاسم عبيد الله بن محمد ابن اسحاق بن حبابه - تلقينا - كل واحد مفردا قالوا : حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ، وقال : حدثنا اسماعيل بن أحمد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد بن النقور البزاز قال : أخبرنا عبيد الله بن محمد بن حبابه قال : حدثني عبد الله بن محمد

¹ - نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

البغوي قال : حدثنا طالوت بن عباد قال : حدثنا فضال بن خير قال : سمعت أبا أمامة الباهلي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " اكفلوا (اضمنوا) لي بست أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، غضوا أبصاركم وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم " .

وقال ابن طبرزد : حدثنا اسماعيل بن أحمد السمرقندي قال : حدثنا الشيخ أبو محمد عبد الله الصريفي قال : حدثنا أبو حفص عمر بن إبراهيم الكتاني المقرئ قال : حدثنا أبو سعيد الحسن بن علي العدوي البصري قال : حدثنا خراش بن عبد الله قال : سمعت أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : " الصوم جنة " .

قال أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي : أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور¹ قال : قرأت على أبي القاسم اسماعيل ابن أحمد بن السمرقندي بباب المراتب عن أبي أحمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي قال : أنشدنا أبو بكر محمد بن عمر العنبري :

سل الركب عن ليل الثوية من سرى	أمامهم يحدو به وبهم حادي
ومن أذهل الحيّ الحلول بذى الغضا	وقد مر مجتازا على يمنة الوادي
أشمس أضاعت من خلال سحابة	أم الرشا البادي من السجف البادي
وو الله ما أبكي لنفسي وإنما	بكائي لأرواح رهائن أجساد
غدا البين في الغادين يسبي قلوبهم	وراح فما راحوا مع الرائح الغادي

قال أبو القاسم اسماعيل بن أبي بكر السمرقندي مذاكرة : ما بقي في الدنيا من يروي معجم أبي الحسين بن جميع غيرى ، ولا بدمشق أيضاً ، ولا عن أبي الحسن عبد الدائم بن الحسن الهلالي ، ثم أنشد :

وأعجب ما في الأمر أن عشت بعدهم على أنهم ما خلفوا في من بطش

ثم قال : وهذا البيت من قطعة أنشدنا إياها أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي للوزير أبي القاسم المغربي يقول فيها :

¹ - الأساب - مرجع سابق .

وما ظبية إدما تحنو على طلا
غدت فارتعت ثم انتنت لرضاعه
فطافت بذاك القاع ولهى فصادفت
بأوجع مني يوم ظلت أنامل
وأجمالهم تحدى وقد خيل الوى
وأعجب ما في الأمر أن عشت بعدهم
● منزلته ومكانته :-

قال أبو سعد : سمعت أبا القاسم إسماعيل بن أحمد السمرقندي يقول مذاكرة : رأيت النبي ﷺ كأنه مريض ، فدخلت وكنت أقبل أخص رجليه ، وأمر وجهي عليهما فحكيت لأبي بكر بن الخاضبة رحمه الله ، فقال لي : أبشر يا أبا القاسم بطول البقاء وانتشار الرواية عنك لأحاديث النبي ﷺ ، فإن تقبيل رجله اتباع أثره وأما مرض النبي ﷺ ، فيحدث وهن في الاسلام ، فما أتى على هذا الحديث إلا قليلا حتى وصل الخبر أن الأفرنج استولت على بيت المقدس .

وقال أبو سعد : سمعت أبا العلاء الحسن بن أحمد العطار المقرئ بهمذان يقول : ما أعدل بأبي القاسم بن السمرقندي أحدا من شيوخ خراسان والعراق .
قال أبو سعد : وسمعت من أثق به أن شيخنا أبا شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي كان يقول : أبو القاسم بن السمرقندي أستاذ خراسان كله والعراق .

● وفاته :-

توفي أبو القاسم اسماعيل بن أحمد السمرقندي ليلة الثلاثاء ، ودفن ضحي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة ست وثلاثين وخمسمائة من الهجرة ، بباب حرب في مقابر الشهداء ، وصلي عليه بجامع القصر ، والمدرسة النظامية ، وعند قنطرة باب حرب¹.

¹ - الأسباب - مرجع سابق .

وروي إسماعيل بن سليمان بن عبد الجيار بن أيداش بدمشق ، قال أخبرنا الحافظ أبو محمد عبد الخالق بن أسد بن ثابت قال : توفي أبو القاسم إسماعيل بن أحمد السمرقندي في ذي القعدة سنة ست وثلاثين وخمسمائة من الهجرة ، في بغداد .

● أبو القاسم الزمخشري :-

هو إمام الأئمة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري برع في الآداب ، وصنف التصانيف ، له العديد من المؤلفات في التفسير والحديث واللغة والنحو والعروض والأدب¹.

● مولده ونشأته :-

وُلد أبو القاسم الزمخشري في " زَمَخْشَر " ، إحدى قرى خوارزم ، يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة 467 هـ ، الموافق 1074 م ، كان الزمخشري كثير الترحال بين المدن والأصهار ، فقد رحل إلى بغداد ، وسمع من نصر بن البطر وغيره ، وحج وجاور ، وتخرج به أئمة .

واتجه إلى مكة مشوقاً راجياً الصفح من ربّه سبحانه على ما فرط منه ، معتزماً الإقامة بها لكن هذه الإقامة إلى جوار بيت الله لم تدم طويلاً ، فعاوده الحنين إلى وطنه ، فعاد إليه إلا أنه سرعان ما عاوده الحنين والشوق إلى مكة ، فعزم على الرحيل مرة إليها مرة أخرى ، وفي منطلقه إليها عرج على الشام².

ذكر التاج الكندي أنه رآه على باب الإمام أبي منصور بن الجواليقي ، وقال الكمال الأنباري لما قدم الزمخشري للحجّ ، أتاه شيخنا أبو السعادات بن الشجري مهناً بقدمه ، وقال : كانت مُسَاعَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ أَطِيبَ الْخَبَرِ حَتَّى التَّقَيْنَا فَلَا وَاللّهِ مَا سَمِعْتُ ، أَذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَيْتُ بِصَرِيٍّ وَأَتَى عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَنْطِقِ الزَّمَخْشَرِيُّ حَتَّى فَرَّغَ أَبُو السَّعَادَاتِ ، فَتَصَاغَرَ لَهُ ، وَعَظَّمَهُ ، وَقَالَ : إِنْ زِيدَ الْخَيْلُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا زَيْدُ كُلْ رَجُلٍ وَصِفْ لِي وَجَدْتُهُ دُونَ الصِّفَةِ إِلَّا أَنْتَ ، فَإِنَّكَ فَوْقَ مَا وَصِفْتَ . وكذلك الشريف ودعا له وأثنى عليه³.

¹ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - إسماعيل بن محمد أمين البغدادي - دار إحياء التراث العربي 2010

- بيروت

² - الزمخشري - د . أحمد الحوفي - مجلة دعوة الحق - العدد 130 - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الرباط .

³ - تاريخ يعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي - تحقيق : عبد الرضا مهنا - منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - الطبعة الأولى 1993 - بيروت

ورغم إسهاماته العلمية الكبيرة لم يصل " الزمخشري " كغيره إلى المكانة التي كانت تنبغي له ، فالقصيدة التي كتبها إلى الوزير نظام الملك يصور فيها ضيق نفسه ، وبرمه بعلمه وفضله وكفايته ، التي لم تبوئه المكان الرفيع الذي يستحقه¹.
اتصف الزمخشري بعدة صفات تؤهله لأن يكون عالماً متواضعاً حذقاً ووسطياً ، منها عزة نفسه ، والموازنة بين الطموح والقناعة ، وتدينه ، وتواضعه ، وحبه للعرب والعروبة ، وقوته على مخالفه ، وعزوبته ، وهذا ما جعل تفسيره " الكشاف " يتصف بالاعتدال ، وكذلك اتصاف المعتزلة بالعدل ، وحرية العباد ، والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

● اعتزاله :-

كان الزمخشري معتزلياً في الأصول " العقيدة " ، شافعيّاً في الفروع " الفقه " ، وكان يجاهر بمذهبه " الاعتزال " ، ويدونه في كتبه ، ويصرّح به في مجالسه .
وكان إذا قصد صاحباً له استأذن عليه في الدخول ويقول لمن يأخذ له الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب ، وقد بذل الزمخشري مجهوداً كبيراً في تفسيره في سبيل تفسير الآيات القرآنية على مقتضى مذهب الاعتزال وأصوله الخمسة، وهي : التوحيد والعدل والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر²
ويذكر المؤرخون وأهل التراجم ، ومنهم ياقوت الحموي ، أنّ شيخه أبا مضر الضبيّ كان له أثر كبير في ترسيخ مذهب المعتزلة في عقيدته ، وأبو مضر هو أول من أدخل عقيدة الاعتزال على أهل خوارزم . وممن أثر في غرس الاعتزال فيه أيضاً شيخه في التفسير أبو السعد الجشمي³.

● فصاحته الأدبية :-

اشتهر الزمخشري في عصره ، ومدحه الشعراء والأدباء ، وطلب العلماء أن يعطيهم الإجازة في رواية كتبه .

¹ - الزمخشري - مرجع سابق .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

³ - الوافي بالوفيات - مرجع سابق .

ومن لطيف ذلك أن الحافظ أبا بكر الطاهر السلفي ، كتب إليه من الإسكندرية يستجيزه وكان " الزمخشري " مجاوراً بمكة ، فكتب إليه جواباً طويلاً يقول في مطلعته : " ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السَّهْمِ " نجم صغير " مع مصابيح السماء . والجهام الصُّفْرُ والرَّهَامُ " المطر الخفيف " مع الغواصي " المطر الغزير " الغامرة للقيعان والآكام والسَّكَيْتُ المخلف مع خيل السباق ، والبُغَاثُ " طائر صغير " مع الطير العنَّاق . . وما التلقيب بالعلامة ، إلا شبه الرقم بالعلامة . .

والعلم مدينة أحد بابيها الدراية والثاني الرواية ، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة ، ظلي فيها أقلص من ظلِّ حصاة ، أما الرواية فحديثه الميلاد ، قريبة الإسناد لم تستند إلى علماء تحرير ولا إلى أعلام مشاهير ، وأما الدراية فتد لا يبلغ أفواها وبرض " الماء القليل " ما يبيل شفاهاً . . ولا يغرنكم قول فلان وفلان في . .

و عدد قومًا من الشعراء والأدباء " ؛ فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه . . "

ويظهر في هذا المقطع جزالة ألفاظ الزمخشري ورقى لغته ، كما يظهر مدى تواضعه وبعده عن الاعتداد بالنفس¹.

ذكر التاج الكندي أنه رأى الزمخشري على باب الإمام " أبي منصور بن الجواليقي " وقال " الكمال الأتباري " لما قدم " الزمخشري " للحج ، أتاه شيخنا " أبو السعادات بن الشجري " مهنئاً بقدومه ، قائلاً :

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ أَطِيبَ الْخَبْرِ
حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَيْ بَصَرِي

ترك الزمخشري أثراً كبيراً في ميدان النحو ، واللغة ، والشعر ، والبلاغة ، والنقد وسبقه إلى تقسيم البلاغة على بيان ومعان وبديع ، ويرجع ذلك إلي أن هذه الفنون البلاغية تتصف بالمرونة ، وهو ما أكسب " الزمخشري " القدرة على الجدل والتعبير

¹ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مرجع سابق .

عما يختلج داخل نفسه ، وغيرته على الإسلام ، وآثاره النفيسة ، التي تسمو على آثار مَنْ عاصروه من العلماء أو شافهوه من الأدباء .

● إنتاجه العلمي :-

ليس من شك في أن هناك صعوبة كبيرة في إحصاء وذكر جميع مؤلفات الزمخشري فما لم يطبع هنا قد طبع هناك ، وما لم يتداول في بلد ، تداول في بلد آخر ، فعلي سبيل المثال أن كتاب " شقائق النعمان في حقائق النعمان " لم يعرف في مصر ، فليس معنى هذا أنه لم يعرف في العراق أو الحجاز فهو في مناقب أبي حنيفة ، وغير معقول ألا يعرف أهل الحجاز مناقب هذا الإمام الأكبر ، ولا أهل العراق كذلك ، وقد يطبع الكتاب طبعة واحدة بنسخ قليلة ، وتنفذ هذه النسخ في وقت قصير ، ويكاد يقضي على الكتاب ثم يستبين أن هذه النسخ نقلت جميعها أو أكثرها إلى بلد آخر يحرص على اقتناء هذا الكتاب ، أو يجب أن يستأثر به كما فعل بكتاب "عجب العجب في شرح لامية العرب" للزمخشري ، فقد عثر علي نسخة مطبوعة بالقسطنطينية ، وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة مرة أخرى ، ولكن لا يعرف في أي عهد ، وفي أي مطبعة ، وهذا ما يدل علي عدم المعرفة الكاملة بكل مؤلفات " الزمخشري " أو صعوبة الوقوف عند كل كتاب والتعريف به ، أو عدم الحصول عليه¹.

وعدم المعرفة أو صعوبة إحصاء جميع مؤلفات الزمخشري ، لا يقلل من إنتاجه العلمي ولا يقلل من شأنه كإمام كبير في الحديث ، والتفسير ، والنحو ، والبلاغة ، والعروض واللغة ، والأدب ، فهو صاحب تأليف عظيمة في كل ذلك ، بلغ مجموعها سبعة وأربعين كتاباً ، ورغم أنه كان فارسياً ، حيث كانت لغة الدولة هي اللغة الفارسية التاجيكية إلي جانب اللغة " الأوزبكية " التركية ، وقد كانت اللغة التاجيكية هي اللغة المنتشرة في أوزبكستان وقيرغيزستان ، إلا أن الزمخشري كان يفضل اللغة العربية ، وألفَ فيها تأليف غنية ، ورغم أن بعض أعماله كانت باللغة الفارسية التاجيكية ، إلا أنه كان من

¹ - الزمخشري - مرجع سابق .

المؤمنين بتفوق اللغة العربية ومن المعارضين للشعوبية¹، ومن أعماله التي وصلت إلينا.

في اللغة : أساس البلاغة ، وهو معجم لغوي ، جمع فيه المفردات ومعانيها الحقيقية والمجازية، وكثير من النصوص البليغة التي وردت فيها .

المستقصى في الأمثال .

مقدمة الأدب ، وهو قاموس من العربية للفارسية .

القسطاس في علم العروض .

كتاب " النصائح " .

في النحو : المفصل ، والأنموذج ، والمفرد المؤلف .

في الحديث : مشتبّه أسامي الرواة ، والفائق في غريب الحديث .

في التفسير : تفسير "الكشاف" المشهور .

في الفقه : الرائض في علم الفرائض ، و " المنهاج " في الأصول ، و " ضالة الناشد

في الزهد : أطواق الذهب في المواعظ ، وكتاب النصائح ، و " ربيع الأبرار " .

في الجغرافيا : كتاب الأمكنة والجمال والمياه . وغير ذلك من الكتب القيمة².

● تفسير الكشاف :-

تفسير الكشاف هو أشهر ما كتبه الزمخشري ، عن "حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" .

وعادة ما يقرن تفسير الكشاف بكتابين هما : "الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من

الاعتزال" لابن المنير الإسكندري ، وهو رد علمي على بعض المسائل الخلافية بين أهل

السنة والمعتزلة ، وكتاب " الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف " لابن حجر

العسقلاني ، وهو تخريج لما ورد في الكشاف من أحاديث وآثار³.

¹ - دائرة المعارف البريطانية

² - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - شمس الدين ابن خلكان - تحقيق : د . احسان عباس - دار صادر 1972 -

بيروت .

³ - تفسير الكشاف - أبو القاسم الزمخشري - دار المعرفة - بيروت .

ويروي أنه عندما بدأ في كتابة "الكشاف" كتب استفتاح الخطبة " الحمد لله الذي خلق القراءان " ، ف قيل له : " متى تركتَهُ على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحدٌ فيه " ، فغيّره وقال : " الحمد لله الذي جعل القراءان " ، وجعل عندهم — أي عند المعتزلة — في مثل هذا الموضع بمعنى خَلَقَ ؛ ورؤيَ في بعض نسخ الكشاف : " الذي أنزل القراءان " ، وهذا إصلاحُ الناس وتغييرهم لا إصلاحُ المصنّف !¹. فالكشاف موسوعة في التفسير ، حافلة بموضوعات كثيرة في النحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات وما يتصل بها من تعليل وتمحيص وتدليل².

● أساتذته :—

تتلمذ الزمخشري علي مجموعة من أجل علماء عصره ، في مقدمتهم : محمود بن جرير الأصفهاني ، فريد عصره ، ووحيد دهره في علم اللغة والنحو ، يضرب به المثل في أنواع الفضائل ، كذلك سمع الحديث عن شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي ومن أبي البطر ، وأخذ الأدب عن أبي علي الحسن بن المظفر النيسابوري ، ورحل إلى بخاري ليستزيد من مناهل علمائها ، واجتمع في بغداد بالفقيه الحنفي الدامغاني وبالشريف ابن الشجري وزار أبا منصور بن الجواليقي ، وقرأ عليه بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيرًا لها وقرأ في مكة كتاب سيبويه .

● تلاميذه :—

نزل أبو القاسم الزمخشري بالعراق وخراسان ، وغيرهما ، وما دخل بلدًا إلا واجتمعوا عليه ، وتتلمذوا له ، وكان علامةً نسابةً ، جاور العرب في البادية مدةً حتى هبت على كلامه رياحُ البادية.

روى عنه بالإجازة أبو طاهر السلفي ، وزينب بنت الشعري وروى عنه إسماعيل بن عبد الله الخوارزمي ، و أبو سعد أحمد بن محمود الشاشي وغيرهما³.

¹ - وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - مرجع سابق .

² - الزمخشري - مرجع سابق .

³ - الأنساب - مرجع سابق .

● أشعاره :- كتب الزمخشري الشعر ، وأبدع فيه ، ومن أشهر أشعاره هذه الأبيات :

سهرى لتنقيح العلوم ألد لي من وصل غانية وطول عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة أشهى وأحلى من مدامة ساقى
وصرير أقالمي عبي أوراقها أحلى من الدوكاء والعشاق

(نغمان في الموسيقى)

وَأَلَذُّ مَنْ نَقَرَ الْفَتَاةَ لَدِفْهَا نَقَرِي لِأَنْفِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
أَبَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبَيْتَهُ نَوْمًا وَتَبَغَيْ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَاقَتِي؟؟

وهي تدل على أنه كان عزيز النفس ، محباً للعلم ، مقبلاً على شأنه ، ومن شعره وهو يرثي أستاذه مضر النحوي¹:

وَقَائِلَةٌ مَا هَذِهِ الدَّرَرُ الَّتِي تَسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمَاطِينَ سِمَاطِينَ
فَقُلْتُ هُوَ الدَّرُّ الَّذِي قَدْ حَشَا بِهِ أَبُو مُضَرٍّ أَذْنِي تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِي

وقال أيضاً :

أَلَا قُلْ لِسُعْدَى مَا لَنَا فِيكَ مِنْ وَطَرٍ وَمَا تَطْبِينَا النُّجْلُ مِنْ أَعْيَتِنِ الْبَقَرِ
فَاتَّأَافَتَصَرْنَا بِالَّذِينَ ضَايَقَتْ عْيُونُهُمْ وَاللَّهُ يَجْزِي مَنْ أَقْتَصَرَ
مَلِيحٌ وَلَكِنْ عِنْدَهُ كُلُّ جَفْوَةٍ وَلَمْ أَرْ فِي الدُّنْيَا صَفَاءً بِلَا كَدَرٍ
وَلَمْ أُنْسَ إِذْ غَاظَلْتُهُ فُتْرَبَ رَوْضَةٍ إِلَى جَنْبِ حَوْضٍ فِيهِ لِلْمَاءِ مُنْهَدَرٌ
فَقُلْتُ لَهُ جَنِّي بِوَرْدٍ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ بِهِ وَرْدَ الْخُدُودِ وَمَا شَعَرُ
فَقَالَ انْتَظِرْنِي رَجْعَ طَرْفٍ أَجِيءُ بِهِ فَقُلْتُ لَهُ هَيْهَاتَ مَا فِي مُنْتَظَرٍ
فَقَالَ وَلَا وَرْدٍ سِوَى الْخَدِّ حَاضِرٍ فَقُلْتُ لَهُ إِنِّي قَنَعْتُ بِمَا حَاضِرُ

● وفاته :-

بعد رجوعه من مكة، سقطت رجل القاسم الزمخشري من الثلج، فكان يمشي على جاون خشب حتي توفي ليلة عرفة سنة 538 هـ، الموافق 1143 م، في " الجرجانية " إحدى قري خوارزم².

¹ - الأساب - مرجع سابق .

² - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

● علاء الدين السمرقندي :-

هو الإمام علاء الدين محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي ، أبو منصور ، يكنى بأبي بكر ، وقد يكنى بأبي منصور والغالب الأول¹ ، وهو شيخٌ ، كبيرٌ ، فاضلٌ ، جليلٌ القدر ، فقيهٌ ، أصوليٌ ، صاحب كتاب " ميزان الأصول في نتائج العقول "2.

● مولده ونشأته :-

لا يُعرف الكثير عن مولده ونشأته ، فرغم الاعتراف بجلالته وعلمه ، لم يحظ بالدراسة الكافية ، ولكن الوارد أنه ولد في سمرقند ، ونشأ بها ، ونسب إليها ، وتلقي تعليمه بها . زوّج علاء الدين السمرقندي ابنته فاطمة لعلاء الدين الكاساني ، وفي ذلك ما يدل على أخلاق السمرقندي ، فقد أثر لابنته العلم على الإمارة ، ورجل كهذا شأنه لابد أن يكون على جانب كبير جداً من النفس العالية والإيمان العميق والتعلق الشديد بالعلم .

وكما ورد أن ابنته فاطمة الفقيهة العلامة زوجة علاء الدين أبي بكر صاحب البدائع وكانت تفقّهت على أبيها ، وحفظت تحفته ، وكان زوجها يخطيء فنزده إلى الصواب وكانت الرقعة تأتي بالواقعة كي يفتي فيها ، فكانت تخرج بالفتوى موقعاً عليها منه ومن ابنته ، ثم بعد زواج ابنته من علاء الدين الكاساني كانت تخرج موقعاً عليها من الثلاثة ما يدل على تواضع العلماء وعدم الاستئثار بالفتوى وتقدير أمانتها ، وأبلغ دليل على ذلك مشاركة الشيخ ابنته وتلميذه معه في الفتوى ، كما تميز علاء الدين السمرقندي باحترامه وإجلاله للماتريدي³.

كان علاء الدين الكاساني قد تفقّه على علاء الدين السمرقندي المنعوت ، وقرأ عليه معظم تصانيفه ، مثل التحفة في الفقه وغيرها من كتب الأصول ، وزوّجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة العالمة ، وكانت حفظت التحفة تصنيف والدها ، وطلبها جماعة من ملوك بلاد الروم فامتنع والدها ، ولزم الكاساني والدها ، واشتغل عليه ، وبرع في علمي

¹ - تاج التراجم في طبقات الحنفية - مرجع سابق .

² - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مرجع سابق .

³ - مقدمة ميزان الأصول في نتائج العقول - علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي - تحقيق : د . محمد زكي عبدالبر -

إدارة إحياء التراث الإسلامي - الطبعة الأولى 1984 - الدوحة .

الأصول والفروع وصنف البدائع ، وهو شرح التحفة ، وعرضه على شيخه فازداد به فرحاً ، وزوّجه ابنته ، وجعل مهرها منه ذلك ، فقال الفقهاء في عصره " شرح تحفته وزوّجه ابنته " .

● شيوخه :-

تلقى علاء الدين السمرقندي العلم على اثنين من مشاهير العلماء ، أولهما هو صدر الإسلام أبو اليسر البزدوي ، الذي أخذ العلم عن إسماعيل بن عبد الصادق ، عن أبي محمد عبد الكريم بن موسى بن عيسى البزدوي ، عن أبي منصور الماتريدي ، عن أحمد ابن إسحاق أبي بكر الجوزجاني ، عن موسى بن سليمان أبي سليمان الجوزجاني ، عن محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة . كما أخذ أبو اليسر العلم عن أبي يعقوب يوسف السيار ، عن أبي إسحاق الحاكم النوقدي عن همدواني ، عن أبي بكر الأعمش وأبي بكر الإسكاف والصفار ، عن محمد بن سلمة ، وكان من زملاء علاء الدين السمرقندي في تلقي العلم علي شيخه أبو اليسر البزدوي ، ابن أستاذه أبو المعالي أحمد ، وابن أستاذه الحسن بن فخر الإسلام علي البزدوي صاحب كتاب الأصول المشهور ، ونجم الدين النسفي¹ .

وأما أستاذه الثاني فهو أبو المعين ميمون المكحولي النسفي ، الذي أخذ العلم عن أبيه مكحول أبي المعين النسفي صاحب كتاب الشعاع ، عن أبيه أبي مطيع مكحول النسفي ، صاحب اللؤلؤيات في الزهد ، عن أبي بكر الجوزجاني ، عن أبي سليمان الجوزجاني ، عن محمد بن الحسن ، وكان من زملاء علاء الدين السمرقندي في تلقي العلم علي شيخه أبي المعين النسفي ، أحمد ، ابن أستاذه أبي اليسر البزدوي .

● تلاميذه :-

تتلمذ علي علاء الدين السمرقندي العديد من العلماء والشيوخ ، أشهرهم وأكبرهم هو الإمام أبو بكر الكاساني ، الذي شرح كتاب شيخه في الفقه الحنفي " تحفة الفقهاء " وسمى الشرح باسم " بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع " ، وهو من أكبر مراجع الفقه الحنفي المعتمدة ، كما تفقّهت عليه ابنته فاطمة زوجة " صاحب البدائع " التي حفظت "

¹ - مقدمة ميزان الأصول في نتائج العقول - مرجع سابق .

تحفته " ، وكذلك محمد بن الحسين بن ناصر بن عبدالعزيز ضياء الدين البندنجي أستاذ صاحب الهداية الذي أجاز لصاحب الهداية جميع مسموعاته مشافهة بمرور عام 545 هـ .
● مؤلفاته : —

تحفة الفقهاء : وهو كتاب في علم أصول الفقه ، وقد رتبّه المؤلف على أربعة فصول
الأول : في بيان الأحكام .
والثاني : في بيان ما تُعرف به الأحكام .
والثالث : التعارض بين الأدلة .
والرابع : أهلية الأحكام .
شرح كتاب التأويلات للماتريدي .
مختلف الرواية .

ميزان الأصول في نتائج العقول " المطول والمختصر " .
شرح الجامع الكبير .

كما يوجد في مكتبة الأزهر كتاب منسوب إليه باسم " شرح منظومة النسفي " .
على أن أشهر كتبه هي " التحفة " ، وبها يعرف فيقال : صاحب " تحفة الفقهاء " ، ثم
" ميزان الأصول " .

كتاب ميزان الأصول في نتائج العقول :

مخطوط " ميزان الأصول في نتائج العقول " الأصل منها ، هو المخطوط رقم 719
بمكتبة مراد مله باسطنبول ، وهو المخطوط رقم 97 بمكتبة رواق الأروام بالجامع
الأزهر الشريف وهو المخطوط رقم 778 أصول فقه بدار الكتب المصرية بالقاهرة
ويقول علاء الدين السمرقندي في مقدمته :

اعلم أن علم أصول الفقه والأحكام فرع لعلم أصول الكلام ، والفرع ما تفرع من أصله ، وما
لم يتفرع منه فليس من نسله ، فكان من الضرورة أن يقع التصنيف في هذا الباب على اعتقاد
مصنف الكتاب .

وأكثر التصنيفات في أصول الفقه لأهل الاعتزال المخالفين لنا في الأصول ولأهل الحديث
المخالفين لنا في الفروع ، والاعتماد على تصنيفهم إما أن يفضي إلى الخطأ في الأصل ، وإما إلى

الغلط في الفرع ، والتجافي عن الأمرين واجب في العقل والشرع . وتصانيف أصحابنا رحمهم الله في هذا النوع قسمان :

قسمٌ وقعَ في غاية الإحكام والإتقان ، لصدوره من جمع الفروع والأصول ، وتبحر في علوم المشروع والمعقول . مثل الكتاب الموسوم بـ " مآخذ الشرائع " والموسوم بكتاب " الجدل " للشيخ الإمام الزاهد رئيس أهل السنة : أبي منصور الماتريدي السمرقندي رحمه الله ونحوهما من تصنيف أستاذه وأصحابه رحمهم الله .

وقسمٌ وقعَ في نهاية التحقيق والمعاني وحسن الترتيب والمباني ، لصدوره من تصدى لاستخراج الفروع من ظواهر المسموع .

غير أنهم لما لم يتمهروا في دقائق الأصول ، في قضايا العقول ، أفضى رأيهم إلى رأي المخالفين في بعض الفصول .

ثم هُجِرَ القسم الأول : إما لتوحش الألفاظ والمعاني ، وإما لقصور المهمم والتواني . واشتهر القسم الآخر لميل الفقهاء إلى الفقه الخض ، وإن وقع في البعض شوب المخالفة والنقض . وكلا أن يكون ذلك منهم عن قصد واعتقاد ، فظن السوء في أمثالهم إثم وعناد - لكن إصابة التفرع بدون إحكام الأصل ، والأمن عن الزلل ، خارج عن العقل .

يتميز كتاب " ميزان الأصول في نتائج العقول " بالتقسيم والترتيب والاختصار غير المخل ووضوح العبارة والإلمام بالأقوال المختلفة وبيان حجة كل قول في الغالب كما ذكر صاحبه في المقدمة ، بأن صاحبه كان فقيهاً ، ولم يقتصر على دراسة الأصول بل جمع بين الاثنين .

ولاشك أن هذه ميزة تضاف إلى ما تقدم ، ولم يكن صاحبه من أهل الاعتزال ولا من أهل الكلام ، وإن ألم بما عند الفريقين بل كان من أهل السنة وأهل الفقه .

وقد عبر عن ذلك هو نفسه في مقدمة كتابه ، وقد كتب علاء الدين السمرقندي " المختصر " بعد " المبسوط " كما يذكر في مقدمة الكتاب " المختصر " وهذا يطمئن إلى إلمام صاحب الكتاب بكل تفاصيل المادة¹.

¹ - مقدمة ميزان الأصول في نتائج العقول - مرجع سابق .

يبدأ علاء الدين السمرقندي كتاب " مختصر ميزان الأصول في نتائج العقول " ، بتعريفه للعلم فيقول : اعلم أن العلم المحدث نوعان : ضروري ، واستدلالي ، فالضروري : ما حصل في العالم بإحداث الله تعالى وتخليقه ، من غير أن يكون للعالم فيه فعل الكسب والاختيار ولا قدرة التحصيل والترك ، والاستدلالي : ما حصل في العالم بإحداث الله تعالى وتخليقه ، وللعالم به فعل الكسب والاختيار وقدرة التحصيل أو الترك .

والفعل المحدث ينقسم إلى نوعين : ضروري واختياري ، فالضروري ما حصل في الذات القائم به بإحداث الله تعالى وتخليقه ، من غير أن يكون للذات فيه فعل الكسب والاختيار ، ولا قدرة التحصيل والترك ، نحو حركة المرتعش وسكون اليد الشلاء وغيرهما ، والفعل الاختياري ما حصل في الذات القائم به ، بإحداث الله تعالى وتخليقه أيضاً ، لكن للذات فيه فعل الكسب والاختيار ، وله قدرة التحصيل أو الترك ، كالذهاب والحجى والقيام والقعود .

كما ينقسم العلم الضروري أنواع ثلاثة : العلم الحاصل بالحواس الخمس ، والعلم الحاصل بالأخبار المتواترة ، نحو العلم بالبلدان النائية والملوك الماضية ، والعلم الحاصل ببدائه العقول ، من غير تأمل ونظر في الأصول ، كعلم الإنسان بوجود نفسه ، أما العلم الاستدلالي فنوعان : عقلي وسمعي : فالعقلي ما يعرف بمجرد العقل ، بالتأمل والنظر في المحسوسات والبدائيه ، من غير واسطة الدليل السمعي ، كالعلم بحدوث العالم وثبوت الصانع وقدمه وتوحيده ، ونحو ذلك ، والسمعي ما يعرف بالنظر العقلي في المسموعات ، ولا يعرف بالعقل وحده بدون واسطة السمع كالعلم بالحلل والحرام ، وسائر ما شرع الله تعالى من الأحكام ، فالعلم العقلي يوجب العلم قطعاً و يقيناً ، وهو يسمى " علم الكلام " ، و " علم التوحيد " ، و " علم أصول الدين " في عرف لسان الفقهاء والمتكلمين .

وأما العلم السمعي فنوعان : أحدهما : ثابت بطريق القطع واليقين ، وهو ما ثبت بالنص المفسر من الكتاب ، والخبر المتواتر والمشهور ، والإجماع ، والثاني : ثابت بطريق الظاهر ، بناء على غالب الرأي وأكبر الظن . وهو ما ثبت بظواهر الكتاب والسنة المتواترة ، وما ثبت بخبر الواحد والقياس الشرعي .

وهذا النوع بقسميه يسمى " علم الشرائع والأحكام " ، ويسمى " علم الفقه " في عرف الفقهاء وأهل الكلام ، وإن كان اسم الفقه لغة وحقيقة لا اختصاص له بهذا النوع من

العلم ، بل هو اسم للوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به علم يحتاج فيه إلى النظر والاستدلال مطلقاً ، كعلم النحو واللغة والطب وغيرها ، فيقال " فلان فقيه في النحو والطب واللغة " إذا كان قادراً على الاستنباط والاستخراج في ذلك ، وكذا الدلائل السمعية التي تعلق بها هذا العلم يسمى " أصول الفقه " في عرف الشرع ، وكذلك الكتاب الذي يذكر فيه تقسيم هذه الأحكام ووجوه تعلقها بهذه الأصول وكيفية استخراج المعاني المسماة بالفقه من الأصول ، يسمى " أصول الفقه " في عرف الفقهاء .

● مكانته عند العلماء :-

قال اللكنوي : شيخ فاضل جليل القدر .
وكان الكاساني يذكر شيخه في تصانيفه واصفاً إياه بقوله : أُسْتَاذِي الشَّيْخِ الْأَجَلِّ الزَّاهِدِ عَلَاءِ الدِّينِ رَئِيسِ أَهْلِ السُّنَّةِ مُحَمَّدَ بْنِ أَحْمَدَ السَّمَرْقَنْدِيِّ¹ .

● وفاته :-

قيل إن الإمام علاء الدين السمرقندي كانت وفاته في حدود عام 540 هـ / 1145 م ، كما قدر ذلك الإمام السمعاني ، وقيل بأن وفاته كانت فيما بعد ذلك .

¹ - الطبقات السنية في تراجم الحنفية - تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي - دار الرفاعي - القاهرة .

• عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسْفِي:—

هو عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسْفِي ، أبو البركات ، حافظ الدين ، الإمام المفسر المتكلم، الأصول ، من فقهاء الحنفية ، أحد الزُّهاد المتأخرين والعلماء العاملين .

• مولده ونشأته:—

اكتفت كتب التراجم بذكر اسمه وكنيته ولقبه ومؤلفاته، إلا أن البعض ذكر أنه وُلِدَ 630 هـ الموافق عام 1232 م¹، وقد نشأ في أسرة علم وتقي وصلاح ، فكان أبوه الإمام الكبير حميد الملة والدين " أحمد بن محمود النسفي " ² صالحاً متعلماً ، ولا يعرف عن نشأته الكثير ، نظراً للفقر الشديد في المصادر التاريخية نتيجة الاضطرابات والفتن التي عاشها العالم الإسلامي في ذلك الوقت بسبب غزو التتار، الذين أحرقوا الكتب والمكتبات والمساجد ودور العلم ، حتي أصبحت بخاري أثراً بعد عين .

وينتسب عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسْفِي إلى نَسَف بفتح النون والسين — ببلاد السند وهي من بلاد ما وراء النهر ، وتعرف اليوم باسم " قرشي " أي القصر سماها العرب النهرين جيحون في القرون الوسطى " نسف " والفرس " نخشب " ، لها قرى كثيرة والغالب على أرضها الخصب³ ، وهي مدينة لها أربعة أبواب ، تقع على مدرج بخاري وبلخ ، ذكرها أبو تمام حبيب بن أوس في قصيدة يقولها للمعتصم :

تهاب الروم في معاقلها والترك تخشاك من وراء نسف

وقد نشأ الإمام النَّسْفِي في بخاري وتعلم في مدارسها، وخاصة المدرسة المقتدائية "بكلاباد"، وكان له أيضا بها دور كبير في نشر العلم⁴، وكان واسع العلم، كثير المهابة رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث وعلومه، ليس له نظير في زمانه وكان يتعصب للصوفية الموحدة، وعزَّر ابن أبي حجلة لكلامه في ابن الفارض، وكان للنَّسْفِي

¹ - الموسوعة العربية الميسرة - أشرف محمد شفيق غريال - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

² - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - شيخ الإسلام أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني - دار الجيل - بيروت .

³ - منهج الإمام النسفي في القراءات وأثرها في تفسيره - سحر محمد مهدي كردية - رسالة ماجستير الجامعة الإسلامية 2001 - غزة .

⁴ - الاعتماد شرح العمدة - عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي - مخطوط مصور عن دار الكتب والوثائق القومية - رقم " 5755 /88118 " - القاهرة .

رحلات في طلب العلم ، تحدث عنها بقوله: " رأيت المصلين ببخارى وغيرها من بلاد الإسلام، وكان من بين تلك الرحلات العلمية رحلته إلى بغداد عام 710 هـ¹

● شيوخه :-

أخذ عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي العلم عن أئمة العلماء في زمانه الذين عُرفوا بالورع والعلم والتقوى، منهم : شمس الأئمة الكردي: هو أستاذ الأئمة ، والموفود عليه من الآفاق محمد بن عبد الستار ابن محمد العمادي الكردي الحنفي البراتقيني ، ولد سنة 559 هـ ، وتوفي ببخارى في محرم سنة 642 هـ ، ودفن عند الإمام عبد الله بن محمد بن يعقوب الحارثي ، قرأ بخوارزم على برهان الدين ناصر بن عبد السيد المطرزي مؤلف " شرح المقامات " وتفقّه بسمرقند على شيخ الإسلام برهان الدين علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني وسمع منه ، وتفقّه ببخارى على العلامة بدر الدين عمر بن عبد الكريم الورسكي ، وأبي المحاسن حسن بن منصور قاضي خان ، وجماعة ورحلوا إليه إلى بخارى منهم : ابن أخيه العلامة محمد بن محمود الفقيهي والشيخ سيف الدين الباخرزي ، وتفقّه عليه خلق كثير منهم الإمام أبو البركات النسفي وخواهر زادة ، وفخر الدين المايمرغي خواهر زادة : هو العلامة بدر الدين محمود بن عبد الكريم الكردي المعروف بخواهر زادة وهو ابن أخت شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الكردي وقد تربى عند خاله تفقه على يديه الإمام النسفي ، وقد أشار إليه النسفي في كتابه " المستصفي في المستوفى شرح النافع في فروع الفقه الحنفي " في مسألة اعتبار الرأس من الحلقوم إلى فوق ، وقال : " وهذا وجه حسن واستدلال لطيف لم أسمع من أحد سواه " .

حميد الدين الضرير البخاري : علي بن محمد بن علي الإمام حميد الدين الرامشي البخاري الضرير الحنفي ، الفقيه المتوفى سنة 666 هـ ، من تأليفه : شرح أصول البزدوي وشرح الجامع الكبير للشيباني في الفروع .

¹ - شرح العلامة معين الدين الهروي المعروف بملا مكسين - على كثر الدقائق - المطبعة الحسينية المصرية - القاهرة .

العتابي: أحمد بن محمد بن عمر العتابي زاهد الدين أبو نصر البخاري الحنفي المتوفى سنة 586 هـ ، ومن تصانيفه : تفسير القرآن ، وجوامع الفقه ويعرف بالفتاوى العتابية¹.

● تلاميذه :-

سمع من النسفي وتلمذ على يديه العديد من خيار العلماء ، نذكر منهم اثنين تيسر لنا معرفتهم من خلال كتب التراجم وهما :

الإمام السغناقي: هو الحسين بن علي بن حجاج بن علي السغناقي بكسر السين وسكون الغين المعجمة، حسام الدين الفقيه الحنفي، نزيل حلب والمتوفى 711هـ من تصانيفه: التسديد في شرح التمهيد، والكافي في شرح أصول البزدوي، وقد سمع من النسفي وأخذ عنه.
ابن الساعاتي: أحمد بن علي بن ثعلب بن أبي الضياء البعلبكي ، البغدادي الأصل والمنشأ من كبار فقهاء الحنفية يعرف بالساعاتي لكون أبيه عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية توفي سنة 694 هـ ، ومن تصانيفه : بديع النظام الجامع بين كتابي البزدوي والأحكام ، والدر المنضود في الرد على ابن كمونة فيلسوف اليهود².

● آثاره العلمية ومؤلفاته :-

ترك الإمام النسفي - رحمه الله - إلى جانب تفسيره آثاراً عظيمة في شتى العلوم الدينية ، وتراثاً علمياً نال شهرة واسعة ، انتفع بها علماء المسلمين جيلاً بعد جيل ، كما كتب مصنفات عديدة منها :

أولاً : مصنفاته في العقيدة :

عمدة العقائد : يقع في حوالي ست وثلاثين صفحة ، جمع فيه النسفي عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة ، قال في أوله : " جمعت في هذا المختصر عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة قدس الله أرواحهم إجابة للسائلين وصونها لهم عن عقائد .
له عدة شروحات³ ، منها :

¹ - الدر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - مرجع سابق .

² - الجواهر المضية في طبقات الحنفية - مرجع سابق .

³ - التفسير والمفسرون - مرجع سابق .

شرح النسفي وسماه الاعتماد .

شرح شمس الدين محمد بن إبراهيم التكساري ، الذي توفي عام 901هـ .
 شرح جمال الدين محمود بن أحمد القنوي ، الذي توفي عام 770هـ ، وأسماه " الزبدة
 شرح أحمد بن أغوز دانشمند الإقشهدي الحنفي ، وأسماه " الانتقاد في شرح عمدة
 الاعتماد " وهو من أعيان المائة الثامنة ، وقد تحدّث فيه النسفي عن أدلة وجود الله
 تعالى ومسائل القضاء والقدر والإيمان والإسلام والشفاعة وغير ذلك ¹.

الاعتماد شرح العمدة : وهو مصنف يقع في حوالي خمس وعشرين ومائتي صفحة
 انتهى من تأليفه النسفي سنة ثمان وتسعين وستمائة ، كما ذكرى ذلك ، قصد منه النسفي
 شرح المعضلات والمشكلات التي جاءت في العمدة وتبسيطها للقارئ كما جاء في
 أولها : " لما رأيت الهمم مائلة إلى العمدة التي صنفتها في شأن أهل السنة
 والجماعة وهي وإن كانت مشحونة بالروايات غير خالية عن الدراسات فهي مفتقرة
 إلى شرح موضح للمشكلات مبين للمعضلات ، أردت أن أجمع كتاباً فيه شرح
 مسائلها وبسط دلائلها بتوفيق خالق العباد مسمى بالاعتماد في الاعتقاد . والله كاف
 من توكل عليه معين من فوض أموره إليه وهو حسبي ونعم المعين "

ثانياً: مصنفاته في الفقه والأصول :

منار الأنوار : في أصول الفقه وهو جامع مختصر نافع ، للمصنف شرح سماه بكشف
 الأسرار ، وشرحه عدد من العلماء منهم سعد الدين الدهلوي وسماه إفاضة الأنوار في
 إضاءة أصول المنارات 891هـ وناصر الدين القونوي ، الذي توفي عام 764هـ ، وله
 مختصره المسمى بقدس الأسرار في اختصار المنار .

كشف الأسرار شرح المصنف على المنار : وهو كتاب في أصول الفقه اختصره
 النسفي من أصول الفقه لفخر الإسلام وشمس الأئمة السرخسي مراعيًا ترتيبه إلا ما
 دعت الضرورة إليه ، ولم يكن هذا المصنف مقتصرًا على أصول الفقه ، بل أورد فيه
 النسفي مسائل متنوعة في العقائد بسميها في بعض الأحيان بالمترقات ، كمسألة
 الرؤية عند أهل السنة ، ومسألة الصلاح والأصلح ونفيهما ومسألة صاحب الكبيرة

¹ - فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام د . غالب بن علي عواجي دار النشر والتوزيع القاهرة .

والصفات إلى غير ذلك، وكثيرا ما يضيف النسفي فيه من آرائه الخاصة مصرحا بذلك إلا أنه لا يخرج في ذلك عن آراء الماتريديّة والأحناف¹.

" كنز الدقائق " ، في فروع الحنفية ، وهو مختصر في فروع الفقه الحنفي ، لخص فيه كتاب الوافي بذكر ما عم وقوعه ، حاويا مسائل الفتاوى والواقعات ، وجعل علامة الحاء لأبي حنيفة ، والسين لأبي يوسف ، والميم لمحمد ، والزاي لزفر ، والفاء للشافعي ، والكاف لمالك ، واعتنى به العلماء والفقهاء فأكثرُوا عليه الشروح منها : شرح الإمام فخر الدين أبي محمد عثمان بن علي الزيلعي ، وسماه "تبيين الحقائق لما فيه ما اکتنز من الدقائق" والعلامة زين العابدين بن نجيم المصري " المتوفي عام 921 هـ " ، وأسماه " البحر الرائق في شرح كنز الدقائق " ، وصل فيه إلى آخر كتاب الدعوى ونظمه ابن الفصيح أحمد بن علي الهمداني ، وأسماه " مستحسن الطرائق " وغيرها الكثير².

الوافي في فروع الفقه الحنفي : وهو كتاب مقبول معتبر أوله لمن من على عباده بإرسال رسله ، قال فيه النسفي : " ما كان يخطر ببالي إبان فراغي أن أضع كتاباً جامعاً لمسائل الجامعين والزيادات حاويا لما في المختصر ونظم الخلافات مشتملاً على بعض مسائل الفتاوى والواقعات ، فألفته وأتممته في أسرع وقت ممكن وسميته " الوافي " .

الكافي في شرح الوافي : وهو شرح لكتاب الوافي يقول النسفي في مقدمته : " لما فرغت من المختصر المسمى بالوافي أردت أن أشرحه شرحاً أوسمه بالكافي على وجه يكون مغنياً عن المطولات وحاوياً لوجوه الاستدلالات ، موضحاً لما أم في الهداية من النكات وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " ³.

¹ - الفرق الإسلامية الكلامية - د . عبد الفتاح المغربي - مكتبة وهبة - القاهرة .

² - الموسوعة العربية - " النسفي (عبد الله بن أحمد) - محمد يوسف الشرجي .

³ - أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي - د . مساعد مسلم آل جعفر - مؤسسة الرسالة

المصفي شرح منظومة عمر النسفي في الخلافات : قال النسفي : " لما فرغت من جمع شرح النافع وإملائه وهو المستصفي من المستوفى سألتني بعض إخواني أن أجمع للمنظومة شرحاً مشتملاً على الدقائق فشرحتها وسميته المصفي " المستوفى في الفروع : أشار إليه النسفي في قوله : " لما فرغت من جمع شرح النافع وإملائه وهو المستصفي من المستوفى "

شرح الهداية في الفروع : وهو كتاب لشيخ الإسلام برهان الدين علي بن أبي المرغيناني الحنفي المتوفى عام 593هـ ، شرحه النسفي وفي طبقات تقي الدين من خط ابن الشحنة أنه لا يعرف له شرح على الهداية وقيل أنه دخل بغداد وشرح الهداية عام 700هـ .

كتاب فضائل الأعمال : أشار إليه حاجي خليفة في كشف الظنون .
أما عن آثاره في علم القراءات فلم تعثر الباحثة على أي مصنف له في ذلك ، بل إن العلماء لم يصنفوه ضمن القراء¹.

مدارك التنزيل وحقائق التأويل : والذي اشتهر باسم " تفسير النسفي " ، وهو كتاب وسط في التأويلات ، وأهم ما يميزه أنه غير طويل ممل ولا قصير مخل ، ورغم أنه يصنف ضمن كتب التفسير بالرأي إلا أنه لم يغفل جانب التفسير بالمأثور ، فكثيراً ما كان صاحبه يفسر القرآن بالقرآن ، وبالسنة المطهرة ولكن عنايته بذلك ليست كثيرة وبأقوال الصحابة ما يوضح المعاني ويبين الأحكام المتعلقة بالآية ، وكان يهتم بذكر أسباب النزول ، والتابعين العدول ، ويورد في ذلك الصحيح والضعيف ، وهو جامع لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات ، حافل بأقوال أهل السنة والجماعة ، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة ، اختصره النسفي من تفسير " الكشاف " للزمخشري ، غير أنه ترك ما فيه من الاعتزال ، وضمنه ما اشتمل عليه من النكات البلاغية ، والمحسنات البديعية ، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية ، وأورد فيه ما أورده الزمخشري في تفسيره ، من الأسئلة والأجوبة ، لكن لا على طريقة قوله " فإن قلت : قلت ، بل جعل ذلك في الغالب كلاماً مدرجاً في ضمن

¹ - المبسوط - شمس الدين السرخي - دار الفكر - بيروت

شرحه للآية ، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب " الكشاف " من ذكره للأحاديث الموضوعية في فضائل السور ، واختصره كذلك من تفسير البيضاوي¹ ، وقد اختصر الشيخ " زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن أبي بكر بن العيني ، وزاد فيه .

● اعتماد الاعتقاد :-

المنار في أصول الفقه : وهو متن جامع مختصر ، وهو من بين كتبه المبسطة والمختصرة أكثرها تتالفاً وأقربها تداولاً ، وهو مع صغر حجمه ، ووجازة نظمه بحر محيط بدرر الحقائق ، وكنز أودع فيه نقود الدقائق ، ومع هذا الاختصار لا يخلو من نوع تعقيد ، وحشو وتطويل ، فحرره الكافي في مختصره " بسمت الوصول " وأحسن تحريره ورتبه على أبلغ نظام وترتيب ، بزيادة التوضيح والتتقيح .

المنار في أصول الدين : اعتنى بشأنه العلماء فشرحه بالقول سعد الدين أبو الفضائل الدهلوي وسماه : " إفاضة الأنوار في إضاءة أصول المنار " .

المستقصى في شرح المنظومة : وهي منظومة أبي حفص النسفي .

المنافع : وشرح فيه النافع².

أمّا بالنسبة للأحاديث الواردة في فضائل السور ، فنجد أن الإمام النسفي لم يذكر إلا أحاديث قليلة أكثرها صحيح وبعضها حسن وقليل منها ضعيف متروك³ ، واستعرض فيه كثيراً من القراءات القرآنية المتواترة والشاذة والموضوعية ، مع التوجيه لها والترجيح بينها ، وتعرض النسفي للكلام في بعض المسائل الفقهية ، ويذكر آراء الفقهاء في المسألة الواحدة وكان يرجح أحياناً ، ويستعرض الآراء بدون ترجيح أحياناً أخرى ، وكذلك يتعرض النسفي للكلام في أصول الفقه ، فهو يرى أن الإجماع حجة لا يجوز مخالفتها ، وأن القياس حجة أيضاً ، كما كان يقول بجواز الاجتهاد ويدعو لذلك ، أمّا الروايات الإسرائيلية فكان يعتمد عدم ذكر بعض الروايات

¹ - الطبقات السنية في تراجم الحنفية - تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري - تحقيق عبد الفتاح الحلو - دار

الرفاعي 1989 - الرياض

² - الاعتماد في الاعتقاد المسمى بشرح العمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة - أبي البركات النسفي - دراسة وتحقيق

الدكتور عبدالله محمد عبدالله إسماعيل - المكتبة الأزهرية للتراث 2012 - القاهرة .

³ - البحر الرائق في شرح كثر الدقائق - الشيخ زين الدين الشهير بابن نجيم - دار الكتب العربية الكبرى - بيروت .

الإسرائيلية أحياناً لما فيها من خرافات وتعارض واختلاف بلا ثمرة ولا فائدة خصوصاً ما ورد من روايات في قصص الأنبياء وأقوالهم¹ ، ويتعمد ذكر بعض الروايات أحياناً أخرى ليبين أنها خرافات وإسرائيليات يهدف أصحابها من وضعها تشكيك المسلمين في أمر دينهم ولكنه في الكثير الغالب يذكر الروايات الإسرائيلية ولا يعقب عليها بما يفيد بطلانها وردّها أما في جانب العقيدة فقد بذل الإمام النسفي جهداً مشكوراً في تقرير مذهب أهل السنة ونصرته ، وعرض مذاهب من خالفهم من الفرق الضالة والرد عليها²

● وفاته :-

قيل إنه توفي ليلة الجمعة من شهر ربيع الأول سنة 711 هـ الموافق 1310 م ، في بلدة إيذج من كور ، أصفهان ودفن فيها³ ، وهي مدينة خرج منها الكثير من العلماء منهم أبو إسحق إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفي ، الذي جمع السنة والتفسير .

¹ - مقارنة المذاهب في الفقه - الشيخ محمود شلتوت ، الشيخ محمد علي السابيس - محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر - القاهرة .

² - الفقه الإسلامي وأدلته - د . وهبة الزحيلي - دار الفكر - بيروت .

³ - الاعتماد شرح العمدة - مرجع سابق .

● بهاء الدين نقشبند:—

محمد بهاء الدين بن محمد الأوسي البخاري الشهير باسم " شاه نقشبنديّة " ، من كبار العلماء الصوفية ، شيخ الطريقة النقشبندية والتي أخذت اسمها من اسمه ، ومتبعي طريقته سموا بالنقشبندية ، والنقشبند من حيث المعني تنقسم إلي قسمين : الأول : " النقش " وهو فعل يحمل نفس المعني العربي الذي يدل علي فعل النقش علي الحجر أو الجدران أو القماش .

والثاني : " البند " ، وهي كلمة تعني الحبل أو الوتر في اللغات التركيبية والكردية والفارسية ، لذلك يقصد بالنقشبند : نقش اسم الجلالة " الله " علي حبال وأوتار القلب وشغافه .

● مولده ونشأته :—

ولد بهاء الدين نقشبند في شهر المحرم سنة 717 هـ ، الموافق سنة 1317 م ، في قرية " قصر عارفان " ، التي تبعد حوالي 4 أميال عن بخارى ، مسقط رأس الإمام البخاري بعد أن تلقى علومه الشرعية في القرية ، كان جده يريد تربيته تربية صوفية فزوجه وعمره 18 عامًا ، وأخذه في نفس السنة إلى " سماس " لخدمة العارف الكبير الشيخ محمد السماسي ، حيث صحب بهاء الدين نقشبند وهو في الثامنة عشر من عمره الشيخ محمد باباي سماسي ، فأخذ عن شيخه السكينة والخشوع والتضرع¹ ، وبعد وفاة " سماسي " سنة 755 هـ ، صحب الشيخ الأمير كلال خليفة الشيخ سماسي في سمرقند الذي اعتني به ورعاه ورباه أفضل تربية ، وتعلم الذكر والفكر والسلوك الصوفي وتربية القلب وتركبة النفس ، وبعد إتمام التحصيل علي يد الأمير كلال ، الذي قال عنه نقشبند : من كان له مرشد كبير مثل أمير كلال الذي قال لي : إني أعطيتك كل ما أملك وأخرجتك من القالب البشري ، وهذه إشارة إلى مقام البقاء بعد الفناء ، فإنه يستطيع بعد ذلك شق طريقه والله سبحانه قادر على أن يأمر روحانية رجل صالح لتربية الآخرين²

¹ -نفحات الانس من حضرات القدس - الملا نور الدين عبد الرحمن الجامي - دار الكتب العلمية 2003 - بيروت

² - أسرار التوحيد في مقامات الشيخ ابي سعيد - محمد بن المنذر بن أبي سعيد أبي الخير - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة .

وبدأ نقشبند بعد ذلك في زيارة الصالحين والإقامة معهم والاستفادة من أحوالهم ، فقد قضى سبع سنوات مع الشيخ عارف الديك كراني أحد خلفاء كلال ، وقضى اثنا عشر عامًا مع الشيخ التركي خليل آتا فكان عاشقا للعبودية والسلوك ، وخلال هذه الفترة حجَّ بيت الله الحرام ثلاث مرات، وقد كثرت أسفاره حيث سافر إلي هرات واحتفي به الملط معز الدين ، وسافر إلي سمرقند ، وسمنان ومشهد (طوس) ، وكيش ، ثم أقام في مرو وبخاري ، ثم عاد إلي بلدته قصر عارفان ليستقر فيها ، فانتشر صيت إرشاده إلي كل المدن والأمصار ، وقصدته الناس من كافة الأقطار ، وأصبح يبيت من العلوم والأسرار¹.

• مؤلفاته :-

الرسالة القدسية .

الاوراد البهية .

الورد الصغير .

الاوراد البهائية ، ولها شروح وتفصيلات لمعاني ما جاء فيها .

رسالة الوارادت ، وتوجد نسخة منها في أيا صوفيا .

كتاب " دليل العاشقين " .

رسالة الحياة² ، وهي نصائح وتوجيهات للمريدين والأتباع .

• مشايخ الطريقة :-

من أشهر مشايخ الطريقة النقشبندية ، الشيخ عبد الخالق الغجدواني ، المتوفى سنة 575 هـ ، ومن تُنسب إليه الطريقة ، الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند المتوفى سنة 791 هـ / 1389 م ، والشيخ أحمد الفاروقي السرهندي ، المتوفى سنة 1034 هـ ، ومن أشهر مشايخ الطريقة المتأخرين الشيخ محمد عثمان سراج الدين الثاني، المتوفى سنة 1417 هـ

¹ - المكتوبات الربانية - أحمد بن عبد الأحد السرهندي - دار الكتب العلمية 2004 - بيروت .

² - رشحات عين الحياة - فخر الدين علي كاشفي المشتهر بالمولى الكاشفي الهري - ترجمة : محمد مراد بن عبد الله القزاني - المكتبة الإسلامية - ديار بكر .

● الطريقة النقشبندية:ـ

رجال الطريقة النقشبندية هم من الذين يتخذون الدين طريقاً للحياة والقرب من الله ، وهم يمارسون طرُقاً في التوحيد ، ولا يمكن الوصول عند النقشبندية إلى الله إلا بالخلوة أقلها ثلاثة أيام ، وأكملها أربعون يوماً ، أمّا أهم شروط هذه الخلوة فهي "استئذان الشيخ وطلب الدعاء منه ، والعزلة وتعود السهر والجوع والذكر، وألا يسند ظهره إلى الجدار، وأن يكون متيقظاً لأعدائه الأربعة ؛ " الشيطان والنفس والهوى والدنيا " وأن يغلق الباب ، وهو من أهم شروط الخلوة .

نشأت الطريقة النقشبندية في القرن الثامن الهجري على يد محمد بهاء الدين شاه نقشبند، وكانت الطريقة تُنسب من قبل إلى عبد الخالق الغجدواني ، وقد سُميت بالطريقة " المجددية " أو " الفاروقية " نسبةً إلى الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي وأيضاً الخالدية أيضاً نسبةً إلى خالد نقشبند الملقب بالطيار ذي الجناحين¹ ، كما كانت تسمى بالطريقة " الصديقية " نسبةً إلى أبي بكر الصديق ، ثم سميت " الطيفورية " نسبةً إلى أبي يزيد البسطامي واسمه " طيفور " .

والطريقة النقشبندية هي واحدة من أكبر الطوائف الصوفية ، هي الطريقة الوحيدة التي تدّعي تتبع السلسلة الروحية المباشرة مع نبي الإسلام محمد ﷺ من خلال أبو بكر الصديق وبذلك تكون تلك الطريقة مرتبطة بطريق غير مباشر بسيدنا علي ابن أبي طالب عن طريق الإمام جعفر الصادق .

مرّت النقشبندية بمراحل كثيرة عبر تطورها التاريخي ، وثمة علاقات ربطتها بغيرها من الطرق الصوفية، وكذلك التيارات الروحية التي انتشرت في البلاد الإسلامية²، ومن الممكن أن نطلق على المرحلة الأولى في تاريخ النقشبندية مرحلة النشأة والتطور أو

¹ - البهجة السنية في آداب الطريقة العلية الخالدية النقشبندية - محمد بن عبد الله الخاني الخالدي النقشبندي - مكتبة الحقيقة 1862 - أنقرة

² - النقشبندية ، نشأتها وتطورها لدي الترك - د . بديعه محمد عبد العال - الدار الثقافية للنشر 2009 الطبعة الأولى - القاهرة

اليسوية والنقشبندية¹، فثمة علاقة وثيقة بين الطريقتين ليس من حيث الطقوس والمراسم فحسب بل العقائد والأوراد والأذكار .
 فثمة مراحل تاريخية مرت بها النقشبندية ، تميزت كل منها بميزة خاصة ، وصبغت بصبغة خاصة .

وتتميز كل مرحلة عن غيرها من المراحل التي مرت بها عبر تاريخها ، فقد مرت النقشبندية بثلاث مراحل رئيسية علي النحو التالي :

أولاً : النقشبندية واليسوية:—

يُعدُّ أول مَنْ أسس الـيسوية هو أحمد يسوي المتوفى عام 1167 م ، ونهج نهجاً صوفياً ذاع بين الأتراك ، وكان لطريقته الصوفية مكانةً في نفوس الشعب التركي في الفترة المبكرة من دخولهم في دين الله ، حيث كان للأتراك فضل كبير في انتشار الطريقة الـيسوية² ، كما سعي أحمد يسوي لنشر الإسلام عن طريق الترويج لتعاليم طريقته الصوفية ، كما أثرت الـيسوية تأثيراً عميقاً في النقشبندية ، التي ازدهرت أولاً في آسيا الوسطى ، ثم الأناضول ، وترجع صلة شيوخ النقشبندية بالشيخ أحمد يسوي حيث نال الشيخ بهاء الدين نقشبند الفيض على يد كل من الشيخ " قاسم " ، والشيخ خليل آتا اللذان يعدان من شيوخ الـيسوية ، وبعد شاه نقشبند انتشرت النقشبندية بين أتراك تركستان ، وضيقَت ساحة نفوذ الـيسوية التي كان لها الانتشار قبلها هناك .

بعدما أُسندت النقشبندية إلى الشيخ بهاء الدين نقشبند الذي نسبت له وتسمت باسمه حمل لواءها بعد أن حصل على العلم الصوفي على يد كبار شيوخ الـيسوية ، وراح ينشر تعاليم طريقته ، ويمكن القول إنَّ الـيسوية ظهرت في زي جديد ، لأنها اندمجت في النقشبندية ، حيث انتشرت النقشبندية وذاع صيتها بين شعوب التركية والفارسية في ربوع بلاد ما وراء النهر ، ومن ثم انحسر نفوذ الـيسوية³.

¹ - عند أتباع الطريقة النقشبندية يكون ذكر الله تعالى خفياً ، معللين ذلك بأن (الله في قلوبنا وأيدينا في العمل) ، أما أتباع الطريقة الـيسوية فيذكرون الله تعالى جهراً .

² - تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب - نجم الدين أمين مسعود عبد الله كردي - دار القلم العربي .

³ - الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة - عبد الرحمن عبد الخالق - دار الحرمين 1989 - القاهرة

يوجد تقارب بين أحمد يسوي وأفكار النقشبندية ، فكلتا الطريقتين لهما نفس المنهج الصوفي لاتحادهما في الطقوس والعقائد والمراسم الصوفية ، وهذا دليل قوي على اتحادهما في المصدر، فقد راجت النقشبندية من في بلاد ما وراء النهر، ثم انتقلت إلى خراسان وخوارزم ، وزاد نشاط شيوخها خلال القرنين السابع والثامن الهجريين في وسط آسيا، وأولت سلالة الأمير " تيمور " الطريقة النقشبندية بالغ الأهمية في هذين القرنين¹، وكذلك فعل كل الأمراء إبان حكم الشيبانيين في القرن السادس عشر الميلادي حيث عاشوا في كنف شيوخ النقشبندية وأصبحوا مريدين لهم وبذلك وصلت النقشبندية إلى ذروة مجدها في بلاد ما وراء النهر².

ترفض النقشبندية أصحاب الأفكار الثورية وتمنع اندماجهم معها ، وتؤكد دائماً أنها لا تكفر أحداً ، وأن الحكام الذين لا يحكمون شرع الله تعالى يوجه لهم النصيح والحق دون تكفيرهم ، إلا إذا تركوا شرع الله تعالى استخفافاً واستهزاءً ، أو أنكروا شيئاً ممّا علّم من الدين بالضرورة .

ورغم ما عرف عن الصوفية والمتصوفين بشكل عام من انشغال عن الأمور العامة في المجتمعات التي يعيشون فيها ، حيث يعتقدون في ضرورة الزهد والورع والتفرغ للعبادة والبعد عن الخلافات الدنيوية البالية ، ولعب أدواراً سياسية والقضايا العامة ، إلا أن للطريقة النقشبندية دوراً سياسياً واجتماعياً واضحاً في معظم المجتمعات التي انتشرت فيها ووجدت فيها بكثافة³، حيث انشغلت في المراحل التاريخية المختلفة بمقاومة الأعداء الخارجيين كالبوذيين والقياصرة والسوفيت ، لكنها لم تخض في أي فترة تاريخية حرباً على المستوى المحلي بينها وبين غيرها من الفرق والمذاهب الإسلامية .

¹ - رشحات عين الحياة - مرجع سابق .

² - الحدائق الوردية في اجلاء النقشبندية - عبد المجيد بن محمد بن محمد الخاني الشافعي - دار البيروني - بيروت

³ - النقشبندية . . طريقة صوفية تلبس عباءة السياسة - محمد عبده حسنين ، هدي جاسم - صحيفة الشرق الأوسط -

● مراتب النفس عند النقشبندية :-

للنفس سبع مراتب في عند النقشبندية، حسب تأثرها بالمجاهدات ، وهي :

أولاً : النفس الأمّارة : تميل للشهوات وترغب في اللذات وتجذب القلب لأسفل ، وهي منبع للشر ، والأخلاق الذميمة كالحقد والحرص والحسد والغضب والبخل .

ثانياً : النفس اللوامة : تنورت بنور القلب ، فهي تارة تقتترف المعاصي ، ثم تتقدم وتلوم نفسها ، وهي منبع الندامة لأنها منبع الهوى وتتصف بالحرص .

ثالثاً : النفس المطمئنة : تخلت عن صفاتها الذميمة ووصلت للكمالات ، انتقل صاحبها من التلويين إلى التمكين ، يخاطب الناس عن بعد لتعلقه بالحق تعالى .

رابعاً : النفس الملهمة : ألهمها الله تعالى العلم والتواضع والقناعة والسخاء ، وهي منبع الصبر والتحمل والشكر .

خامساً : النفس الراضية : رضيت عن الله وتحقق فيها قوله تعالى : " رضي الله عنهم ورضوا عنه " ، وشأنها في هذا التسليم والتلذذ بالحيرة .

سادساً : النفس المرضية : رضي الله تعالى عنها ويبدو فيها أثر رضاه ، وهي منبع الكرامة والإخلاص والذكر ، ويقال إن السالك في هذه المرتبة يضع الخطوة الأولى في معرفة الله تعالى ويظهر فيها تجلى الأفعال .

سابعاً : النفس الكاملة : صارت للكمالات طبعاً وسجية ، ولا زالت ترتقي في الكمال وتؤمر بالرجوع للعباد لإرشادهم وتكميلهم ومقامها مقام تجليات الأسماء والصفات حالها البقاء بالله تسير بالله إلى الله وترجع من الله إلى الله ليس لها من مؤي سواه تستقي علومها منه تعالى¹ .

● أصول التصوف :-

أولاً : التوحيد ونبذ الشرك : فقد كان أئمة الصوفية على التوحيد الخالص من شوائب الشرك ، لا يلقفون إلا إلى الله تعالى ، ولا يرجون أحداً سواه ، ولا يهتفون إلا باسمه ولا يستعينون إلا به تبارك وتعالى ، وهم بذلك سائرون على الطريق الذي شرعه ربنا

¹ - النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الترك - مرجع سابق .

تبارك وتعالى ، وخطّه النبي ﷺ¹ ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة كما قال سبحانه ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾² ، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾³ ، ولم يُعرف عن سلف الصوفية استغاثة بميت أو غائب ، ولي أو غيره ، ولا ذبح للأولياء ولا الطواف بقبورهم ، ولا طلب المدد والعون من أمواتهم .

ويعتقد المتصوفة بأن اختلاف الناس كلهم يرجع إلى ثلاثة أصول ، فكل واحد منها ضد فمن سقط عنه وقع في ضده وهي ، التوحيد وضده الشرك ، والسنة وضدها البدعة والطاعة وضدها المعصية⁴ ؛ ولذلك فالتوحيد هو إفراد الموحّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته ، وأنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، بنفي الأضداد ، والأنداد ، والأشباه ، بلا تشبيه ، ولا تكيف ، ولا تصوير ، ولا تمثيل⁵ ﴿ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لِيَخْلُصَ لَهُمْ مِنْهُ شَاءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾⁶ .

ثانياً : التعبد : حيث يقوم التصوف على أساس الزهد في الدنيا والتجافي عنها والابتعاد عن شهواتها ، والتخلي للتعبد والتنسك ، وإصلاح السرائر ، وأن لا يكون للعبد مقصود سوى الله تعالى ، فالتصوف هو الأخذ بالحقائق ، واليأس ممّا في أيدي الخلق⁷ ، والتخلي

1 - الاستقامة - أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس - تحقيق د . محمد رشاد سالم - جامعة الإمام محمد بن سعود 1983 - الرياض .

2 - سورة البينة ، آية : 5 "

3 - سورة غافر ، آية : 65 "

4 - الاعتصام - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي - تحقيق د . محمد بن عبد الله الشقيّر دار ابن الجوزي - الدمام

5 - الرسالة القشيرية - عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري - تحقيق د . عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف - دار المعارف - القاهرة .

6 - الشورى : 11 "

7 - " عوارف المعارف " ملحق بكتاب " إحياء علوم الدين " - شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله البكري السهروردي - دار المعارف - القاهرة .

عن الدنيا، وعزوف النفس عنها ، وترك الأوطان ولزوم الأسفار، ومنع النفس حظوظها وصفاء المعاملات ، وصفوة الأسرار، وانشرّاح الصدور¹.

فالتصوف كما يراه الصوفية في عمومها هو السير في طريق الزهد والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها ، وأخذ النفس بأسلوب التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة ورد حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي ويقوى فيه الجانب النفسي والروحي ، فهو إخضاع جيد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعياً إلى تحقيق الكمال النفسي وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها، وهو ما يُعَبِّرون عنه بمعرفة الحقيقة².

ثالثاً : العلم : من أصول سلف الصوفية اهتمامهم بالعلم ، ووصية الأتباع به ، ومن لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث لا يُقْتَدَى به في هذا الأمر؛ لأنَّ العلم مُقَيَّدٌ بالكتاب والسنة³ ولذلك يعتقد المتصوفة بأن ذهاب الإسلام من أربعة :

أولها : لا يعلمون بما يعلمون .

والثاني : يعملون بما لا يعلمون .

والثالث : لا يتعلمون ما لا يعلمون .

والرابع : يمنعون الناس من التعلم .

هذا وتشبه النقشبندية إلى حد كبير الطريقة البكتاشية ، التي ضمّت في بنيتها عدداً من الطرق الصوفية التي كانت على عهدها⁴ ، أمّا النقشبندية فهي طريقة لها واقع خاص حيث تعتبر طريقة صوفية تندمج كل حين مع طريقة أخرى مناظرة لها ، وتعتقد في ضرورة وجود مريد تتخطى مشاعره للوصول إلى الحقائق الإلهية ، والسبيل الوحيد

¹ - التعرف لمذهب أهل التصوف - أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسين الكلاباذي - تحقيق محمود أمين النواوي - المكتبة الأزهرية للتراث 1992 - القاهرة .

² - التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة - إبراهيم هلال - دار النهضة العربية 1975 - القاهرة

³ - الرسالة القشيرية - مرجع سابق .

⁴ - جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأوصافهم وأصول كل طريق ومهمات المريد وشروط الشيخ وكلمات الصوفية واصطلاحاتهم وأنواع التصوف - أحمد ضياء الدين الكمشقالي النقشبندي المجددي الخالدي - مطبعة الجمالية 1910 - القاهرة .

لنجاح في هذا الطريق هو العبادة التي تبدأ بتنفيذ الأعمال والتكاليف الإسلامية بما يتناسب والشريعة الإسلامية¹ ، ثم يليها مرحلة الانغلاق على النفس وفيها يعبر الإنسان عن ذاته بإحساسه العميق الذي يتحقق له بانغلاقه على ذاته وهو ما يؤدي إلى إيقاظ الحب الخالص الذي يجعله يصل إلى الله تعالى، والانغلاق على النفس يحقق للمريد ثلاث مراحل في رقيه الروحي .

الأولية : ارتقاء في قلب المريد .

والثانية : معرفة النفس .

والثالثة : إدراك حقيقة النفس والوصول إلى الله تعالى² .

وتؤكد النقشبندية على ما يعرف بالذكر الخفي، والتركيز على أن يكون الذكر بالقلب وعنده ما يسمى بالورد الخفي بعد صلاة الفجر، ومن ثم أصبح الذكر الأساسي الأول الذي سارت عليه اليسوية والنقشبندية من بعدها ، حيث أن العلم في نظر الصوفية ليس الذي يتلقاه المرء في المدرسة بل هو إلهام رباني ومعرفة ذوقية يتلقاها السالك بعدما يرتقي بنفسه ويخلصها من أدرانها ، وتسمو روحه وتشرق في قلبه هذه المعرفة إلهاماً ونوراً من عند الله تعالى³.

هذا وقد ذاع صيتُ الطريقة النقشبندية منذ القرن الخامس حتي القرن التاسع الهجري وارتبط تاريخها بتاريخ الأسر التي حكمت بلاد ما وراء النهر، ودام رواجها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد فيما وراء بحر الخزر " قزوين " وشمال وغرب القوقاز كما انتشرت في داغستان والشيشان وأذربيجان ، وانضم إليها عليّة القوم من التجار والقادة العسكريين والمفكرين والشعراء الذين كانت لهم شهرة من أمثال الشاعر " علي شير نوائي " ، و " عبد الرحمن الجامي " وغيرهم ، كما جذبت

¹ - المواهب السمرديّة في مناقب النقشبندية - محمد أمين فتح زاده الكردي الأربلي النقشبندي - مطبعة السعادة 1911 -

² - طبقات الصوفية - محمد بن الحسين بن محمد أبو عبد الرحمن الأزدي السلمي - مكتبة الخاتجي 1997 - القاهرة .

³ - الرحمة الهابطة في تحقيق الرابطة - حسين الدوسري النقشبندي - بهامش : المكتوبات الشريفة المرسوم بالدرر المكنونات النفيسة - دار الكتب العلمية - بيروت .

النقشبندية عامة الشعب بأعداد لا تحصى؛ لأنها لم تكن لتعرف التعصب، بل اتسمت بالتسامح والزهد المطلق¹.

كما تبنت الطريقة النقشبندية الجهاد ومحاربة البوذية، ثم تحول جهادها إلى محاربة الروس في منطقة آسيا الوسطى، ومن ثم كان انتشارها عنصراً أساسياً في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، ولها دورها الفعال المؤثر في مناطق نفوذها في داغستان وشرق أذربيجان²، وقد ساعد التزام مريديها بالقيم والتقاليد والمثل القويمة التي صانت التعاليم الإسلامية من الزيف والتشوية، وهذا بدوره أفضى إلى انتشارها في المناطق الشرقية والجنوبية في آسيا الوسطى ووادي فرغانة ومناطق القيرغيز ومنطقة خوارزم والقارقالباق.

كان الشيخ " عبد الله الإلهي " ، الذي اشتهر باسم ملا إلهي أول من قام بنشر الطريقة النقشبندية في الدولة العثمانية خلال الفترة ما بين عام 1481 وعام 1512 م ، وألف ما بين الطريقة النقشبندية والملاوية وعاش في عهد السلطان العثماني بايزيد الثاني ابن السلطان " محمد الفاتح " ³ ، وكان الشيخ " عبد الله الإلهي " قد نشأ في قرية " سيمو " إحدى قرى الأناضول، وارتحل إلى اسطنبول والتي هاجر منها بعدما تلقى قسطاً كبيراً من العلم إلى خراسان، حيث أتمّ تحصيله للعلم على يد الشيخ عائل الطوسي، ثم مضى إلى سمرقند وأكمل سلوك الطريق الصوفي على يد عبيد الله أحرار ثم ذهب إلى بخارى ونهل من علم بهاء الدين نقشبند ثم عاود أدراجه إلى اسطنبول ، وعمل بالتدريس في مدرسة واردار بينجه سي التي أمر بإنشائها غازي أفرانوس زاده في سالونيك، وعاونه خليفته حسيني أمير أحمد بخاري في تدريس العلوم الدينية آنذاك وبذلاً ما في وسعهما من جهد لنشر الطريقة النقشبندية ، وقد توفي عبد الله الإلهي في بلدة واردار عام

¹ - تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب - محمد أمين فتح زاده الكردي الأربلي النقشبدي - دار إحياء التراث العربي - بيروت

² - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية - شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية 1984 - بيروت .

³ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني - دار الكتاب .

896هـ ، كما توفي أمير أحمد بخاري عام 922هـ في اسطنبول ، ودفن في التكية التي تقع في الجهة الغربية من جامع الفاتح .

وجاء بعدهما حيدر بابا، وبذل جهوده لنشر النقشبندية في عهد السلطان سليمان القانوني وشيّد التكية النقشبندية مدينة أماسيا عام 1404 / 1405 م ، وسميت بتكية محمود شلبي وكان أول شيخ لها ركن الدين محمود البخاري ، أحد خلفاء شاه نقشبند كما شيّد تكية أخرى بمدينة آق سراى في وسط الأناضول بالقرب من قونيا ، وقد أولى الخلفاء العثمانيون أتباع النقشبندية أبلغ اهتمام حينما كانوا يعيشون بعيداً عن مناطق حكمهم، فقاموا بدعوة كبار شيوخهم من أمثال نور الدين عبد الرحمن الجامي وعبيد الله أحرار الذين كانوا تحت الرعاية الكاملة للتيموريين في سمرقند وهرات ليعاونوهم ضد التهديد الشيعي من جانب الإيرانيين والحد من نشر عقائدهم بين الأتراك أهل السنة¹.

يرجع أول أثر من آثار النقشبندية في مدينة اسطنبول إلى الجهود التي بذلها عبد الله الإلهي وخلفاؤه الخمسة الذين جاءوا في إثره وهم : " أحمد البخاري ، عابد شلبي لطف الله الأسكوبي، بدر الدين بابا ، مصلح الدين الطويل ، حيث استطاع مصلح الدين الطويل أن يقنع أبي يزيد بن السلطان محمد الفاتح بالانتساب للطريقة ، ومن ثم عرف باسم الصوفي أبي يزيد الولي²، وبذل عابد شلبي كل ما في وسعه من جهد للتأليف بين النقشبندية والملاوية ، إلا أن ترسيخ دعائم النقشبندية في اسطنبول خلال تلك المرحلة إنما تحقق بجهود أحمد البخاري الذي يعد من أبرز خلفاء عبد الله الإلهي والذي كان رفيقاً له في رحلته إلى سمرقند وانخرطاً معاً في سلك النقشبندية ، وقد أخضعه عبيد الله أحرار لأوامر " عبد الله الإلهي " عندما كلفهما بنشر الطريقة في اسطنبول، وعندما عزم عبد الله الإلهي الرحيل إلى المناطق الغربية من الدولة العثمانية لنشر الطريقة النقشبندية ويروج لها ، استخلفه في اسطنبول وأسند له رعاية الطريقة ، ومن ثم ظهرت

¹ - المكتوبات الشريفة الموسوم بـ " الدرر المكنونات النفيسة - " أحمد الفاروقي السرهندي - دار الكتب العلمية - بيروت .

² - شفاء العليل - عبد الله الدهلوي النقشبندي - ترجمة القول الجميل - إسلامي أكاديمي - لاهور

النقشبندية بزي جديد عرفت تحت لوائه باسم " مجدديّة " وعمّت شهرتها أرجاء اسطنبول على يد " مراد بن علي بن داود الأوزبكي " أحد خلفاء معصوم الفاروقي ورغم إعاقته في قدميه، إلا إنه طاف أهم العواصم الإسلامية ووافته المنية عام 1720م .

• المرحلة الثالثة : النقشبندية الخالدية :-

حسب تطورها التاريخي، تنسب النقشبندية في هذه المرحلة إلى خالد البغدادي ، الذي يتصل إلى عثمان بن عفان نسباً ، وإلى الإمام علي بن أبي طالب حسبا ، وقد ولد البغدادي في قرية " قه داغ " من أعمال السليمانية عام 1192 م ، وكان من أبرز علماء عصره سيد عبد الكريم برزنجي في مدينة السليمانية ، ومحمد الكذيري في الشام واشتهر كل منهما بمؤلفاته في علوم التفسير والحديث ، وقرض الشعر¹ ، أسند مصطفى الكردي القادري في دمشق خلافة الطريقة القادرية إليه في العراق ، وارتحل خالد البغدادي من العراق إلى الهند عام 1225هـ ، إبان الاحتلال الإنجليزي للهند، ولما قابل عبد الله الدهلوي شيخ الطريقة النقشبندية في الهند ، أشرقت شمس المعرفة في قلبه وعرفت تلك المرحلة في تاريخ الطريقة باسم " النقشبندية الخالدية " نسبة له ، وكان لها الازدهار حتى بلغت أوج تطورها ، وقد أرسى " البغدادي " معالم الطريقة النقشبندية الخالدية بعدما أشرق العلم المعنوي في قلبه ، وهو علم الصوفية الذي يتلقاه الصوفي عن طريق الإلهام بعد تصفيه القلب مما سوى الله ، وأجاز له عبد الله الدهلوي مشيخة الطريقة ، وإقامة طقوس الطريقة النقشبندية الخالدية .

قضى " البغدادي " في خلوته عشرة شهور، هجر عاداته وحظوظ نفسه ، وسعى سعياً حثيثاً على مداومة ذكر الله الذي زين فؤاده ، وأتم سلوكه الطريق الروحي على يد كبار الشيوخ ، ونال رعايتهم وقبولهم إياه ، وعلا ذكره لديهم² ، وجاء بنهج جديد للنقشبندية حيث نشر روح الزهد والتقوى بفضل طريقته، فقلت أحداث السرقة والنهب والقتل وساد

¹ - تلبيس إبليس - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي - تحقيق د . السيد الجميلي - دار الكتاب العربي 1994 - بيروت .

² - نور الهداية والعرفان في سر الرابطة والتوجه وختم الخواجكان - محمد أسعد صاحب زاده النقشبندي الخالدي العثماني - المطبعة العلمية 1893 .

الهدوء والأمان في المنطقة الكردية في العراق ، واختفت الجرائم بتأثير خالد البغدادي وطريقته النقشبندية الخالدية بسبب من الطاعة المطلقة التي أظهرتها جماهير النقشبندية له ولخلفائه ، ويرجع ذلك إلى تركيزهم على نمط خاص لهم من الذكر يعرف باسم " رابطة الشيخ " ، الذي كان له أثره العميق في تهدئة الأعصاب وقتل نوازع الشر والعدوان في النفس البشرية ، وما كان من شيخ يهتم بتطبيق ذكر الرابطة إلا وارتفع شأنه وذاع صيته ودامت المشيخة في أسرته تتوارثها جيلا بعد جيل كالأرواسيين وأتباعهم¹.

• مناطق الانتشار :-

أهمية الطريقة النقشبندية ترجع ليس فقط إلى جذورها العميقة ، بل إلى كثرة مريديها وأتباعها الذين يترادون حتى وقتنا هذا²، حيث تنتشر هذه الطريقة في جميع أنحاء العالم إلا أن مركزها الأساسي يقع في القارة الآسيوية ، فهي منتشرة في بلاد الشام والعراق وتركيا وكردستان وشمال القوقاز ، إضافة إلى الصين وبعض جمهوريات آسيا الوسطى .

وتعود أسباب هذا الانتشار إلى قدرة هذه الطريقة على التأقلم والتغير حسبما تقتضي الظروف السياسية والاجتماعية ، كما أنها تتأقلم لغوياً حسب الموقع الجغرافي الذي توجد فيه؛ ففي آسيا الوسطى تتعامل بالفارسية الشائعة ، خاصة في طاجيكستان ، وفي القوقاز تتعامل باللغات الثلاث المعروفة ، الفارسية والتركية والعربية ، وعكس معظم الحركات الدينية، ولا ترتبط النقشبندية بمركز معين فهي تطبق اللامركزية التي تسمح بقيام خلايا حرة في كل دولة أو حتى إقليم ، وإن اشتركت في الشعائر والطقوس³.

وتنتشر الطريقة النقشبندية في كثير من الدول ، وكانت الطريقة مقصورة في الانتشار علي بخارى وما جاورها لكونها المدينة التي عاش فيها مؤسسها نقشبند ، ثم انتشرت

¹ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة - إشراف د . مائع بن حماد الجهني - دار الندوة

العالمية للطباعة والنشر والتوزيع 1999 - الرياض

² - الأتوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية - عبد المجيد بن محمد الخاني النقشبندي تحقيق - د . محمد محمد الرخاوي - مطبعة السعادة - القاهرة .

³ - النقشبندية . . طريقة صوفية تلبس عباءة السياسة - مرجع سابق .

في بلاد الشام بعد ذلك عن طريق الشيخ **خالد النقشبندي** ، بعد أن تلقى الطريقة من الشيخ **عبد الله الدهلوي**¹ كما تنتشر الطريقة النقشبندية في أماكن كثيرة خصوصاً في بلاد القوقاز وآسيا الوسطى التي تعتبر مهد الطريقة ، وشبه القارة الهندية ، حيث إن سادات الطريقة النقشبندية من تلك البلاد ، كما تنتشر الطريقة في معظم البلاد العربية خصوصاً في بلاد الشام والأناضول والعراق .

تمكنت النقشبندية من الوصول إلى تركستان الشرقية غرب الصين اليوم ، وتغلّبت على ما قبلها من موروّثات صوفية ، وصارت الطريقة الأكثر تأثيراً بين مسلمي الإيغور ولعبت في هذا الإقليم الدور الذي لعبته في القوقاز حينما حملت همّ الدفاع عن استقلال الإقليم ضد الطمع الاستعماري ، وهو ما جعلها منذ القرن التاسع عشر في نظر السلطات الصينية حركة إسلامية سياسية استوجبت القمع ، فتم اعتقال شيوخها وقتل شيخ الطريقة النقشبندية "**يعقوب بك خواجه**" عام 1878 .

وتعد الطريقة النقشبندية أكبر الطرق الصوفية من حيث عدد المنتسبين إليها ، وتتخذ من جامع **إسكندر باشا** بحي **محمد الفاتح** في مدينة إسطنبول المركز الرئيسي لها ، ورغم أنها تنقسم إلى عدة جماعات ، أهمها جماعة **إسكندر باشا** وكان يتزعمها **محمود أسعد جوسشان** ، وهناك جماعات أخرى التي لا تختلف كثيراً عن بعضها مثل : **جماعة إسماعيل أغا** ، **جماعة يحيالي** ، **جماعة أران كوي** ، **جماعة أوقاف المرادي** ، ولا توجد اختلافات جوهرية بين هذه الجماعات ، إنما تختلف في بعض التفاصيل الخاضعة لاجتهاد كل شيخ من شيوخها ، وقد أسهمت جماعة **إسكندر باشا** في تأسيس حزب الإنقاذ الوطني عام 1972 ، الذي أشرف على تأسيسه رئيس الوزراء التركي الأسبق **نجم الدين أربكان** ، كما أن رئيس حزب الفضيلة الذي تأسس بعد حظر حزب الرفاه عام 1997 برئاسة **محمد رجائي قوطان** له صلة قوية بالطريقة النقشبندية²

وفي الشام تعتبر الزوايا النقشبندية المعروفة بالأوزبكية من المعالم البارزة في مدينة القدس في فلسطين ، ويقال إن الذي بناها مؤسس الطريقة بهاء الدين نقشبند فوق أرض

¹ - البهجة السنية في آداب الطريقة العلية الخالدية النقشبندية - مرجع سابق .

² - النقشبندية . . طريقة صوفية تلبس عباءة السياسة - مرجع سابق .

اشتراها لإيواء الغرباء القادمين من بخارى وآسيا الوسطى ، في حين أن هناك في لبنان الآلاف من مريدي النقشبندية موزعون على جميع المناطق اللبنانية ، وتنسب إليهم أيضا فرقة الأحباش المعروفة ،

أمّا في كردستان العراق فيعتبر ضياء الدين خالد حسين المعروف باسم مولانا خالد نقشبند هو مؤسس الطريقة النقشبندية بداية من عام 1808م ، واستطاعت هذه الطريقة أن تفرض نفسها في كردستان بعد صراع مع أتباع الطريقة القادرية "نسبة إلى عبد القادر الجيلاني" ، وخلال فترة الاحتلال الأمريكي للعراق ظهرت جماعة صوفية مقاتلة انخرطت في العمل المقاوم للوجود الأميركي عبر كيان سمي نفسه جيش رجال الطريقة النقشبندية .

● وفاته :-

دخل بهاء الدين نقشبند خلوته بعد مرضه، وأخذ مريديه يتوافدون عليه ويلازمونَه فكان يوصي كلا منهم بما يناسبه ، وتوفي بهاء الدين نقشبند ليلة الإثنين الثالث من ربيع الأول سنة 791 هـ الموافق لعام 1389 م ، عن عمر ناهز أربع وسبعون عامًا ودفن في بستانه¹.

¹ - المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية - مرجع سابق .

• العلاء البخاري:—

هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد البخاري العجمي ، الحنفي المعروف بلقب علاء الدين البخاري ، والعلاء البخاري¹، وإن كان يشتهر باللقب الثاني أكثر من الأول ، ويكنى أبا عبد الله ، برع في أصول الفقه وأصول الدين واللغة العربية والمنطق والجدل والمعاني والبيان والبدیع وغيرها من من فروع العلم² مولده.

• مولده ونشأته:—

اتفقت المصادر علي أن العلاء البخاري ولد عام تسع وسبعين وسبعمئة ، وقيل في حدود عام سبعين وسبعمئة ، ورغم أنه ولد في بخاري ، إلا أنه لم يستوطن مكاناً واحداً ، وإنما رحل إلي بلاد كثيرة ، واستوطن في أماكن متفرقة مدداً متفاوتة³.
رحل أولاً إلي الهند وأقام في مدينة كلبرجا، وأطال المقام فيها ، ثم رحل إلي مكة وسكنها مدة ، وتوجه بعد ذلك إلي الديار المصرية واستوطن فيها سنين عديدة ، وكانت مقامته في القاهرة ، ثم خرج منها إلي دمياط ليسافر منها ، وذلك بعد المشادة التي وقعت بينه وبين القاضي البساطي حول تكفير ابن عربي ، ثم عاد إلي القاهرة بعد أن ذهب إليه بعض تلامذته ، منهم الركان الأبناسي ، والقاياتي ، وأقنعه بالعودة ، فجلس في القاهرة إلي شهر رجب عام 831 هـ ، ثم توجه إلي الشام فسار إليها بعد أن سألته السلطان في الإقامة بمصر فلم يقبل وسكن الصالحية في دمشق ، ثم اختار في آخر أيامه مدينة المزة لصحة هوائها ، حيث وافته المنية فيها .

لم تذكر المصادر شيئاً عن أسرة العلاء البخاري التي نشأ فيها ، ولكنه تفقه علي أبيه وعمه العلاء عبد الرحمن ، مما يدل علي أنه نشأ في اشرة لها نسب مع العلم والدين حيث اتسمت حياته منذ صغره بالرحلات العلمية الكثيرة المتنوعة ، فقد رحل إلي بلاد

¹ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - مرجع سابق .

² - معجم المؤلفين - عمر بن رضا كحالة الدمشقي - مؤسسة الرسالة 1993 - بيروت .

³ - مقدمة كتاب فاضحة الملحدین وناصحة الموحدين - علاء الدين أبي عبد الله البخاري - تحقيق : محمد بن إبراهيم العوضي - كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

متعددة ، حيث تفقه في بخاري في مرحلة الشباب ، وقد تميز منذ بداية طلب العلم بالجد والحرص علي لقاء اهل العلم .

كان الجهد في طلب العلم والتحصيل ، إضافة إلي حادثة سنة قد ساعده علي تلقي المعارف وحفظها ، إلي جانب الاهتمام الكبير الذي أولاه والده إياه ، فتعلم علي أبيه وعمه وكانا من علماء عصرهما ، وكان هذا الاهتمام سبباً في أنه تقدم في الفقه والأصولين " أصول الدين والفقه " ، واللغة العربية والمنطق والجدل والمعاني ، والبيان والبدیع وغيرها ، كما أنه برع في المنقول والمعقول والمفهوم والمنظور ، واكن له حظ وافر في الأدبيات إلي درجة أنه مهر فيها ، وهذا التبحر والتوسع في العلوم لم يستكثر كبار العلماء أن يقرؤا أنه صار إمام عصره ونادرة زمانه .

تنقل العلاء البخاري لنشر العلم ، وكانت أولي تلك الرحلات إلي الهند وأقام في مدينة كلبرجا ، ومكث فيها مدة يدرس ويفيد الطلاب ونشر العلم¹ ، وكان ممن قرأ عليه ملكها وترقى عنده إلي الغاية لما قرع عنده من علمه وزهده وورعه ، ثم قدم مكة المكرمة فجاور بها وأقرأ بها وانتفع به فيها غالب أعيانها ، ثم توجه إلي مصر وقطن القاهرة سنين كثيرة ، وتصدي للإقراء والتدريس ، وقرأ عليه غالب علماء عصره من كل مذهب ، وانتفع الجميع بعلمه .

رحل في عام 831 هـ إلي الشام واستوطن دمشق وتخرج عليه الفضلاء ، وفي أواخر رمضان 837 هـ انتقل إلي منطقة المزة في دمشق حيث انتهى به المقام فيها إلي أن وافته المنية ، وكان آخر من أخذ عنه العلم فيها الإمام محمد بن محمد بن علي العوفي الأفاقي المزي .

● مذهبه :-

يعد العلاء البخاري من أشهر علماء القرن التاسع الهجري ، وفي هذه الحقبة الزمنية كان المذهب الأشعري قد طبق في العالم الإسلامي ، وأصبح هذه المذهب المعتمد والمُفتي به واتخذ منهجاً دراسياً في المساجد ودور العلم ، وكان المذهب الأشعري في

¹ - مقدمة كتاب فاضحة الملحدین وناصحة الموحدين - مرجع سابق .

آخر مراحل تطوره ، أي المرحلة التي اعتمدت فيها كتابات الرازي والإيجي والتفتازاني والشريف الجرجاني ، وهي المصادر التي حررت فيها مسائل المذهب .
تأثر العلاء البخاري ببيئته العلمية تأثراً بالغاً، حيث كانت البيئة التي نشأ فيها تراجع كفة العلوم العقلية علي العلوم النقلية¹ ، كما أنه كان من أبرز تلاميذ التفتازاني الذي انتهت إليه رئاسة المذهب الأشعري ، وقد صار العلاء البخاري علي خطي شيخه ولذلك فقد انطلق في رسالته " فاضحة الملحدون وناصحة الموحدين " من منهج المتكلمين الأشاعرة في تقرير كثير من المسائل التي تناولها بالبحث ، ومنها :
موافقته للمتكلمين في مسألة إثبات وجود الله من أنها قضية استدلالية ، والأصل أنها قضية فطرية².

اعتبار آيات الصفات من المتشابهات المخالفة من حيث الظاهر للمحكمات ، وهذا يمثل بؤرة مذهب الأشاعرة ، وجعله العقل أصلاً للنقل ، كما تقرر كتب علم الكلام³.
نزعته الصوفية البارزة في كتاب " فاضحة الملحدون وناصحة الموحدين " تبين أنه ينطلق من مدرسة الغزالي في التصوف ، بما يعني أن أبي العلاء ينتمي إلي أهل الكلام تماماً مثل القشيري والغزالي .

● شيوخه :-

تفقه أبو العلاء البخاري ، وأخذ العلم عن أبيه وخاله العلاء عبد الرحمن ، والعديد من العلماء الآخرين⁴.

ويعتبر عمر بن عبد الله ، سعد الدين التفتازاني أجل شيوخه ، وهو من أعلام القرن الثامن الهجري ، فقد ولد عام 712 هـ ، في تفتازان إحدى قري نسا ، وقد أخذ العلم عن أكابر علماء عصره كالعضد الإيجي وطبقته ، وفاق في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والتفسير والكلام ، وذاع صيته واشتهر ذكره⁵ ، ورحل إليه

¹ - إحياء علوم الدين - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي - دار المعرفة - بيروت .

² - الفتوحات المكية - محيي الدين بن عربي - تحقيق : أحمد شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت .

³ - مدارج السالكين - بن قيم الجوزية - تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي - دار الكتاب العربي 2003 - بيروت .

⁴ - معجم المؤلفين - مرجع سابق .

⁵ - طبقات الصوفية - مرجع سابق .

طلاب العلم ، وشرح في التصنيف وهو في عمر ست عشرة سنة ، ومن كتبه " تهذيب المنطق " ، " شرح رسالة الشمسية " ، " شرح العقائد النسفية " ، " الطول " في البلاغة " حاشية علي شرح العضد علي مختصر بن الحاجب " في الأصول ، " التلويح في كشف غوامض التنقيح " .

• تلاميذه :-

أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم ، شهاب الدين ، المعروف باسم عرب شاه .

محمد بن عبد الله بن خليل بن أحمد بن علي بن حسن الشمس البلاطيسي الدمشقي .

محمد بن عثمان بن عبد الرحيم الأنصاري الحموي المعروف بابن البارزي .

محمد بن علي بن يعقوب بن محمد لاشمس ابو عبد الله القاياني .

محمد بن أحمد بن إبراهيم بن هشام الأنصاري المعروف بالجلال الخلي .

إبراهيم بن محمد بن زيادة البرهان الأتكاوي .

إبراهيم بن حجاج بن محرز بن مالك البرهان أبو اسحاق الأبناس .

محمد بن أحمد بن عمر بن ميمون حميد الدين أبو المعالي .

قاسم بن قطلوبغا الزين أبو العدل السودوني .

محمود بن عمر بن منصور أفضل الدين بن السراج القرمي .

محمد بن عبد الأحد بن علي الشمس العجمي .

أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن رشيد شهاب الديني الشهرزوري .

علي بن محمد العللاء أبو الحسن القابوني الدمشقي .

علي بن أحمد بن إسماعيل العللاء أبو الفتوح القلقشندي .

أحمد بن عبد لارحن بن عبد الله بن يوسف بن هشام .

إبراهيم بن علي بن إسماعيل أبو الفتوح القلقشندي .

إبراهيم بن خليل برهان الدين الأنصاري .

إبراهيم بن خضر بن أحمد برهان العثماني .

أحمد بن عبد الله بن داود الشهاب أبو العباس المقدسي .

أحمد بن عثمان بن محمد الشهاب الريشي .

- أحمد بن عبد الواحد بن أحمد الشهاب أبو العباس .
 عبد الرحمن بن أحمد بن محمود بن موسى الزين المقدسي .
 عبد الرحمن بن عنبر بن أحمد العثماني البوتيجي .
 عبد الرازق الشرواني .
 عبد العزيز بن يوسف بن عبد الغفار التونسي .
 عبد الوهاب بن عمر بن الحسين بن علي الحسين الدمشقي .
 علي بن أحمد المصري .
 علي بن أحمد بن عثمان بن المناوي .
 علي بن محمد بن أقبرس العلاء .
 عمر بن أحمد بن محمد السراج بن الشمس بن الصدر البليسي .
 عمر بن قديد الركن أبو حفص بن الأمير سيف الدين القلمطائي .
 عمر بن عيسى بن أبي بكر السراج .
 محمد بن عثمان بن علي الشمس الدمشقي .
 محمد بن علي بن محمد قاسم الشمس .
 محمد بن علي بن عثمان الشمس البدشي .
 محمد بن محمد بن قوام الدين الرومي .
 محمد بن عبد اللطيف بن اسحاق أبو البقاء الأموي .
 محمود بن عبيد الله بن الجلال بن التاج الأردبيلي الشرواني¹ .

● مكانته بين العلماء :-

نال العلاء البخاري مكانة كبيرة ، فأثني عليه كثير من العلماء الذين عرفوه ، وقدروه قدره وأنزلوه منزلته ، سواء كانوا من تلاميذه الذين جالسوه وعرفوه عن قرب ، أو من أفاضل المؤرخين الذين عاصروه ووقفوا علي أخباره وآثاره ، فاطلعوا علي ما يدل علي علمه وأخلاقه وعبادته وزهده وصدقته في النصيحة ، ومنهم :

¹ - مقدمة كتاب فاضحة الملحد وناصحة الموحدين - مرجع سابق .

الحافظ بن حجر : اجتهد في الأخذ عن العلماء حتي برع في المعقول والمنقول والمفهوم والمنظور واللغة العربية ، وصار إمام عصره لما عرف عنه من العلم والورع والزهد ن وعدم قبوله العطاء من السلطان وغيره .

ابن عرب شاه : شيعي الإمام الكامل المكمل الفاضل ، فريد الدهر ، وحيد العصر علامة الوري ، أستاذ الدنيا علاء الدين ، شيخ المحققين والمدققين ، قطب الزمان مرشد الدوران أبو عبد الله بن محمد البخاري .

أبو المحاسن : شيخ الإسلام ، علامة الوجود ، قرأ عليه غالب علماء عصرنا من كل مذهب ، وانتفع الجميع بعلمه وجاهه وماله ، ولم يخلف بعده مثله ، لأنه كان جمع من العلم والعمل مع الورع والزهد والعبادة والتحري في مأكله ومشربه من الشبهة¹ .

ابن إياس : كان عالماً فاضلاً ، معظماً عند الملوك وسائر الناس .

الشمس السخاوي : قرأ عليه ملك الهند وترقي عنده لما وقر عنده من علمه وزهده وورعه ، وعظمه الأكابر في مصر فمن دونهم ، بحيث كان إذا اجتمع معه القاة يكونون عن يمينه ويساره كالسلطان² .

● مؤلفاته :-

رغم رسوخ قدم العلاء البخاري في العلوم الشرعية والعقلية واللغوية ، إلا أنه لم يكن من العلماء المعروفين بالتصنيف كما هو الحال عند كثير من علماء عصره ممن هم دون رتبته في العلم والمعرفة ، وتذكر المصادر أن له ثلاث رسائل هي :

فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين .

نزوة النظر في كشف حقيقة الإنشاء والخبر .

الملجمة للمجسمة³ .

¹ - مدارج السالكين - مرجع سابق .

² - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - شمس الدين أبو الخير بن محمد السخاوي - دار الجيل 1992 - بيروت .

³ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مرجع سابق .

● وفاته :-

توفي العلاء البخاري في صبيحة يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وأربعين وثمانين مائة بالمنزة في دمشق ودفن بها ، وقيل أنه توفي في الثاني من شهر رمضان ، وقيل في الخامس من رمضان ، والأرجح هو الثالث والعشرين من رمضان؛ لأن مصدره الشريف تاج الدين عبد الوهاب الدمشقي ، وهو أحد تلاميذه ومن مواطني دمشق محل وفاة العلاء البخاري¹.

¹ - مقدمة كتاب فاضحة الملحدون وناصحة الموحدين - مرجع سابق .

الفصل الثاني
تراجم العلوم التطبيقية والآداب

• الخوارزمي:—

هو أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي ، يكنى بأبو جعفر ، من أوائل علماء الرياضيات المسلمين، حيث أسهمت أعماله بدور كبير في تقدم الرياضيات في عصره¹ اتصل بالخليفة العباسي المأمون وعمل في بيت الحكمة في بغداد وكسب ثقة الخليفة ، إذ ولاه المأمون بيت الحكمة² ، وقد أبدع في الرياضيات والفلك .

يعرف منها ما عرفه المصريون القدماء ، والاعريق ، والفرس ، والبابليون³. فكان أول من ألف في الجبر ، وأول من استعمل كلمة جبر للعلم المعروف بهذا الاسم ولكتابه في الجبر قيمة علمية تاريخية ، اعتمد عليه علماء العرب في دراساتهم للجبر ومنه عرف الغربيون هذا العلم .

• مولده ونشأته:—

عاش العالم الرياضي محمد بن موسى الخوارزمي في القرن الثالث الهجري ، ولم يتفق أحدٌ من مؤرخي العلم ورواة الأخبار والسير ، علي تاريخ ميلاده⁴ ، إلا أن بعض الآراء ترجح أنه وُلد في خوارزم عام 164 هـ / 781 م ، ثم انتقلت عائلته من خوارزم إلي بغداد وأضاف الطبري في تاريخه علي اسمه لقب القطرلي ، حيث رود اسمه في تاريخ الطبري محمد بن موسى الخوارزمي القطرلي ، نسبة إلى قرية " قُطْرُبُل " من ضواحي بغداد، وجاء في بعض الموسوعات العلمية ، كالموسوعة البريطانية " نسخة الطلاب " ، و " موسوعة مايكروسوفت انكارتا ، وموسوعة جامعة كولومبيا وغيرها على أنه عالم عربي ، استنادًا إلي أنه كتب معظم مؤلفاته باللغة العربية ، في حين تشير بعض المراجع الأخرى إلى كونه فارسيًا ، وفي الإصدار العام للموسوعة البريطانية جاء ذكره علي أنه عالم مسلم من دون تحديد قوميته ، لكن نسبته إلي خوارزم وشهرته بهذا النسب تظل الشاهد الأكبر علي قوميته الخوارزمية الأوزبكستانية المعاصرة .

¹ - نوابغ المسلمين في العلم والمعرفة - محمد حسن أبو دينا - دار المعارف - القاهرة .

² - العالم الإسلامي في العصر العباسي - أحمد حسن محمود - دار الفكر العربي 1966 - القاهرة

³ - الخوارزمي أبو الرياضيات - سليمان فياض - مركز الأهرام للترجمة والنشر - الطبعة الأولى 1988 - القاهرة .

⁴ - الخوارزمي أبو الرياضيات - مرجع سابق .

اشتهر ولمع في عصر الدولة العباسية ، جمهرة من العلماء البارزين في العلوم الرياضية وذاع صيتهم في أصقاع الأرض حتي أخذت عنهم أوروبا علمهم وبنيت عليه نهضتها بعد استغراقها لعدة قرون في ظلمات الجهل والتخلف ، خلال فترة القرون الوسطي، وفي مقدمة هؤلاء العلماء محمد بن موسى الخوارزمي ، الذي عاش في بغداد بعد أن وصل إليها من خوارزم فيما بين عام 164 ، وعام 235 هجرية ، الموافق عام 780 وعام 850 م¹.

بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد ، تولى من بعده ابنه المأمون الذي كان محباً للعلم ومؤمناً بدور العقل في صنع التقدم والحضارة ، فاختار الخوارزمي أميناً لخزانة الكتب بقصر الخلافة في بغداد ، فزاد الخوارزمي مكتبة الخليفة تنظيمًا ، وفهرسة ، وزودها بنسخ من المراجع الأمهات ، في الرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والفلك² وشارك " الخوارزمي " علماء المأمون في أعمال المرصد الفلكي الذي أقامه المأمون ببغداد لمعرفة محيط الأرض، ومساحتها وتقدير خطوط الطول والعرض، بصورة أكثر دقة مما عرفه بطليموس . ووضع حصاد هذا الجهد في كتابه " الربع المعمور " ، أو " صورة الأرض وما فيها من المدن والجزائر والأنهار " ، وأضاف إليها ما عرفه العالم اليوناني " بطليموس القلوذي " في كتابه " جغرافيا " ، وزاد الخوارزمي كتابه بجداول فلكية لحركة الكواكب في الفضاء الرحيب³.

في مكتبة قصر المأمون ، عكف " الخوارزمي " علي كتاب هندي ضخ في الفلك اسمه " السدهانت " ، متأملاً في جداوله الفلكية التي تحدد حركة الكواكب في الفضاء وأنجز الخوارزمي مختصراً مبسطاً وواضحاً لهذا الكتاب أسماه " السند هند الصغير " لينشر به معارف علم الفلك الهندية ، وعدل جداوله وفق ما تقرضه دراسته للرياضيات عن مسارات الكواكب في الأفلاك⁴.

¹ - تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي - خليل إبراهيم السامرائي ، وآخرون - مديرية دار الكتب والطباعة والنشر - الطبعة الثانية 1988 - الموصل .

² - الخوارزمي أبو الرياضيات - مرجع سابق .

³ - العصر العباسي الأول - عبد العزيز الدوري - دار الطليعة - الطبعة الثالثة 1997 - بيروت .

⁴ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

• إنتاجه العلمي:-

أنجز الخوارزمي معظم أعماله وأبحاثه خلال الفترة ما بين عام 813 ، وعام 833 م فبعد الفتح الإسلامي لبلاد فارس ، أصبحت بغداد مركزاً للدراسات العلمية والتجارية وأتى إليها العديد من التجار والعلماء من مناطق بعيدة مثل الصين والهند ، كما فعل الخوارزمي الذي جاء من خوارزم إلى بغداد ، وهو باحث في بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون حيث درس العلوم والرياضيات، والتي تضمنت ترجمة المخطوطات اليونانية والسنسكريتية العلمية¹.

وقد برز إنتاج الخوارزمي العلمي في علوم كثيرة أشهرها الجبر والحساب والفلك والجغرافيا ، وعلم رسم الخرائط ، وإليه يرجع الفضل في تعريف الناس بالأرقام الهندية ووضع بحوث الحساب بشكل علمي لم يسبق إليه . كما ألف في التاريخ والجغرافيا والموسيقى².

قام الخوارزمي بعدة تحسينات مهمة لنظرية وبناء المزولات ، التي ورثها من الحضارة الهندية والإغريقية ، وعمل جداول لهذه الآلات التي اختصرت الوقت اللازم لإجراء حسابات معينة ، وكانت مزولته عالمية ، فقد كان يمكن ملاحظتها من أي مكان على الأرض، ومنذ ذلك الحين ، وضعت المزولات في كثير من الأحيان في المساجد لتحديد وقت الصلاة .

أما " مربع الظل " ، فهي أداة اخترعها أيضا الخوارزمي في القرن التاسع في بغداد واستُخدمت لتحديد الارتفاع الخطي للجسم ، بالاشتراك مع العضادة لملاحظات الزاوي اخترع الخوارزمي أيضاً أول أداة ربعية وأداة قياس الارتفاع في بغداد في القرن التاسع الميلادي ، كما اخترع أيضاً أداة الربع المجيب الذي كانت تستخدم للحسابات الفلكية³ واخترع أول الربع الحراري لتحديد دائرة عرض ، في بغداد ، ثم مركز تطوير

¹ - الخوارزمي أبو الرياضيات - مرجع سابق .

² - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - د . عبد الحليم منتصر - دار المعارف - الطبعة التاسعة 1996 - القاهرة

³ - نوابغ المسلمين - د . مصطفى وهبة - مكتبة جزيرة الورد - المنصورة .

الربيعيات ، وكان يستخدم لتحديد الوقت " خاصة أوقات الصلاة " من خلال مراقبة الشمس أو النجوم وكانت أداة الربعية أداة عالمية، وهي أداة رياضية مبتكرة اخترعها الخوارزمي في القرن التاسع وعرفت فيما بعد باسم " الربعية القديمة " في أوروبا في القرن الثالث عشر، ويمكن استخدامها في أي دائرة عرض على الأرض وفي أي وقت من السنة لتحديد الوقت بالساعة من الارتفاع عن الشمس¹، وكان هذا الاختراع ثاني أكثر أداة فلكية تستخدم على نطاق واسع خلال القرون الوسطى بعد الأسطرلاب .

وأحد استخداماتها الرئيسية في العالم الإسلامي هو تحديد أوقات الصلاة .

عمل الخوارزمي علي إدخال الأرقام العربية على أساس نظام الترقيم الهندي العربي المطور في الرياضيات الهندية ، إلى العالم الغربي، وقد عالج موضوعات الجبر مستقلة عن نظرية الأعداد وموضوعات الحساب أيضاً ، كما أدخل الصفرَ إلى الأعداد لتكون الأعداد الطبيعية .

يعتبر الجبر هو النص التأسيسي للجبر الحديث ، فهو يقدم بياناً شاملاً لحل المعادلات متعددة الحدود حتى الدرجة الثانية ، وعرض طرق أساسية " للحد " و " التوازن " في إشارة إلى نقل المصطلحات المطروحة إلى الطرف الآخر من المعادلة ، أي إلغاء المصطلحات المتماثلة على طرفي المعادلة ، وقد عملت طريقة الخوارزمي في حل المعادلات التربيعية الخطية في البداية علي خفض المعادلة س لواحدة من ست نماذج قياسية (حيث b و c أرقام إيجابية صحيحة) هي :

$$(1) \text{ ترابيع تساوي الجذور } (x^2 = a) .$$

$$(2) \text{ ترابيع تساوي عدد } (c = x^2) .$$

$$(3) \text{ جذور تساوي عدد } (c = x) .$$

$$(4) \text{ ترابيع وجذور تساوي عدد } (c = x^2 + x) .$$

$$(5) \text{ ترابيع وعدد تساوي جذور } (x^2 = c + x) .$$

$$(6) \text{ جذور ورقم تساوي ترابيع } (x^2 = c + x) .$$

ويتم قسمة معامل التربيع باستخدام عمليتين هما الجبر والمقابلة :

¹ - موسوعة علماء العرب والمسلمين - د . محمد فارس - دار الأرقم بن أبي الأرقم - القاهرة .

الجبر : هو عملية إزالة الوحدات والجذور والتربيعات السلبية من المعادلة ، وذلك بإضافة نفس الكمية إلى كل جانب . فعلى سبيل المثال ، $2x = 40 - x$ تخفض إلى 5 $2x = 40 + x$.

المقابلة : هي عملية جلب كميات من نفس النوع لنفس الجانب من المعادلة . فعلى سبيل المثال ، $2x + 5 = 14$ تخفض إلى $2x + 9 = x$ ، وقد دخلت على إثر ذلك كلمات مثل الجبر **Algebra** ، والصفر **Zero** إلى اللغات اللاتينية¹.

صحَّ الخوارزميُّ نظرية بطليموس المبالغة عن البحر الأبيض المتوسط " من جزر الكناري إلى السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط " ؛ حيث حدد بطليموس 63 درجة من خط الطول ، في حين أن الخوارزمي حدد حوالي 50 درجة من خط الطول كما وصف الخوارزمي المحيط الأطلسي والمحيط الهندي كأجسام مفتوحة من الماء وليس بحار مغلقة بالساحل كما قال بطليموس² ، وبالتالي حدد الخوارزمي خط الطول الرئيسي للعالم القديم على الشاطئ الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، من خط 10 إلى خط 13 درجة إلى شرق الإسكندرية ، وكان خط الطول الرئيسي السابق قد حدده كلاوديوس بطليموس بخط 70 درجة إلى غرب بغداد ، وواصل معظم الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى استخدام خط الطول الرئيسي للخوارزمي .

• أهمية علم الرياضيات عند الخوارزمي :-

سأل الخليفة هارون الرشيد العالم الخوارزمي : لم بدأت دراستك للعلم ، بهذا العلم قبل سواه ؟ فقال " الخوارزمي " يا أمير المؤمنين إن رجل الدين لا يحق له أن يكون عالمًا حق العلم لفقه الشريعة ، قبل أن يدرس علوم الرياضيات ، فهو بحاجة إليها في فقه الفرائض " المورايت " وفي أحكام المعاملات الشرعية في البيع والشراء ، والرهن والوقف ، والإجارة ، والمزارعة ، والديون والتجارات ، وضرائب الخراج والعشور وغنائم الحروب .

¹ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - د . عبد الحليم منتصر - دار المعارف - الطبعة التاسعة 1996 - القاهرة

² - حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي - جلال مظهر - مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى 1974 - الرياض .

بل وفي أمور العبادات ، مثل مواقيت الصلاة ، ومقادير الأنصبة في موارد الزكاة¹.
 طور الخوارزمي في بيت الحكمة الفكر الرياضي وذلك بإيجاد نظم لتحليل كل من
 معادلات الدرجة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطرق جبرية وهندسية ، لذا يعتبر
 الجبر والمقابلة للخوارزمي هو أول محاولة منظمة لتطوير علم الجبر على أسس علمية
 منطقية² ، فالرياضيات التي ورثها علماء العرب والمسلمين عن اليونان تجعل حساب
 التقسيم الشرعي للتركات بين الورثة معقداً للغاية ، إن لم يكن مستحيلاً ، وهذا ما دفع
 الخوارزمي للبحث عن طريق أدق وأشمل وأكثر قابلية للتكيف ، فاستعمل علم الجبر
 وقد وجد الخوارزمي متسعاً من الوقت لكتابة علم الجبر الذي جعله مشهوراً حينما كان
 منهماك في الأعمال الفلكية في بغداد ، وقد أشار الخوارزمي في مقدمة كتابه " حساب
 الفلك والجبر والمقابلة " أن الخليفة المأمون هو الذي طلب منه أن يؤلف هذا الكتاب
 كي يسهل الانتفاع به في كل ما يحتاج إليه الناس³.

وقد شجعنا ما فضل الله به الإمام المأمون ، أمير المؤمنين من الخلافة التي حاز له
 إرثها ، وأكرمه بلباسها ، وحلاه بزينتها ، من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وأبنائهم
 وبسط كنفه لهم ، ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مشتبهاً وتسهيل ما كان مستوعراً
 على أني ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتاباً مختصراً ، حاصراً للطيف الحساب
 وجليله ، لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم ، وفي مقسماتهم
 وأحكامهم وتجاراتهم ، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأراضي وكري
 الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه ، مقدماً لحسن النية فيه ، راجياً لأن
 ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا منه نعم الله — تبارك وتعالى — وجليلاً لآله
 وجميل بلائه عندهم منزلته ، وبالله توفيق في هذا وفي غيره ، وعليه توكلت وهو رب
 العرش العظيم⁴.

¹ - الخوارزمي أبو الرياضيات - مرجع سابق .

² - العصر العباسي الأول - مرجع سابق .

³ - تاريخ البعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح البعقوبي - تحقيق : عبد الرضا مهنا - منشورات
 مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - الطبعة الأولى 1993 - بيروت .

⁴ - مقدمة كتاب " حساب الجبر والمقابلة " - أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي

وجد الخوارزمي في الأرقام الهندية عند إجراء العمليات الحسابية أماكن فارغة ، والتي تسمى " سونيا " ، أي " فراغ " ، فأدرك قيمة وضع " الصفر " في الأماكن الخالية فهو علي يمين الرقم يعمي قيمته العشرية ، أو المئوية ، أو الألفية . وعمل " الخوارزمي " علي تطوير الحساب في كتابه الذي جعل عنوانه " الحساب الهندي " اعترافاً بالحق لأهله ، حيث لعب " الصفر " دوراً لا وجود لعلم الحساب بدونه وبه وضع الأساس للنظام الحسابي العشري .

● مؤلفاته :-

ترك الخوارزمي العديد من المؤلفات في علوم مختلفة منها :

علم الجبر :-

كتاب " حساب الجبر والمقابلة " ، هو كتاب رياضي كتب عام 830 م ، وقد وضع الخوارزمي هذا الكتاب بعد ما وجد معارف الجبر الرياضية لا تزال ممزقة ومتفرقة في التراث العلمي الرياضي للهنود ، والمصريين ، واليونانيين ، لا يسر فيها ولا وضوح ولا سبيل إلي الاستفادة منها في المعاملات التجارية ، ومسح الأراضي ، والوصايا المالية الواجبة عند مفارقة الأغنياء للحياة الدنيا .

وتضمن الكتاب مصطلحات جديدة من بينها : الجذر ، والمال ، والمفرد ، والعدد ، وشمّل الكتاب أبواب عن الضرب ، والجمع ، والطرح ، والقسمة ، والمعادلات ، والمساحة ، ومسائل البيع والإيجارات ، والصرف للنقد ، والكيل والوزن ، ومساحات السطوح المستقيمة ومساحات الدوائر والمثلثات ، وحجوم الأشكال الهرمية والمخروطية ، والوصايا ، وتقسيم التركات ، وتوزيع الموارث بين الوارثين .

فجعل من معارف الجبر علماً جديداً لا عهد لأحد به من قبل¹.

ومصطلح الجبر مشتق من اسم إحدى العمليات الأساسية مع المعادلات التي وصفت في هذا الكتاب ، وقد تمت ترجمة الكتاب إلي اللاتينية بواسطة روبرت تشستر عام 1145 م

¹ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - مرجع سابق .

كما ترجمه أيضًا جيرارد أوف كريمونا ، وتوجد نسخة عربية فريدة محفوظة في أوكسفورد ترجمت عام 1831 بواسطة إف روزين .

وتوجد ترجمة لاتينية محفوظة في كامبريدج ، وقد نشر عدد من المؤلفين أيضا كتب ونصوص تحت اسم كتاب الجبر والمقابلة منهم : أبو حنيفة الدينوري ، أبو كامل شجاع بن أسلم ، عبد الحميد بن ترك ، سند بن علي ، سهل بن بشر ، شرف الدين الطوسي¹.

علم الحساب:-

كتاب " الفن الهندي في الحساب " وقد فقدت النسخة العربية الأصلية لهذا الكتاب ، لكن النسخة اللاتينية مازالت موجودة ، والتي تمت ترجمتها على الأرجح في القرن الثاني عشر بواسطة أديلارد أوف باث ، الذي ترجم أيضا الجداول الفلكية في عام 1126 وقد كانت المخطوطات اللاتينية بلا عنوان حتي القرن التاسع عشر ، وكان يشار إليها بأول كلمتين تبدأ بها ، ولذلك عرف الكتاب باسم " الفن الهندي في الحساب للخوارزمي " وهو الاسم الذي أطلقه بالداساري بونكومباني على العمل في عام 1857 ، وربما كان العنوان الأصلي للكتاب في نسخته العربية هو " كتاب الجمع والطرح ووفقا للحساب الهندي " .

علم الفلك :-

وضع الخوارزمي كتابين في الفلك ، أحدهما عن " الرخامة " (المزولة) التي كان الناس يعرفون بها المواقيت ، بانتقال ظل الشئ من مكانه في دائرة ، من شروق الشمس إلي غروبها ، أثناء دوران الأرض حول نفسها ، في مواجهة الشمس ، ويعرف الكتاب باسم " زيچ السند هند " هو عمل يتألف من حوالي 37 فصل حول الحسابات الفلكية وحسابات التقويم ، وقد تضمن 116 جدولاً متعلقاً بالتقويم ، والبيانات الفلكية والتنجيمية وكذلك جدول لقيم جيب الزاوية .

¹ - الأعلام - مرجع سابق .

ويعتبر هذا هو أول زيج من العديد من الزيجات العربية التي تستند على الأساليب الفلكية الهندية المعروفة باسم " السند هند " ¹ ، فقد احتوى العمل على جداول لحركات الشمس ، والقمر وخمسة كواكب معروفة في ذلك الوقت ، ومثل هذا العمل نقطة تحول في علم الفلك الإسلامي حتى الآن، فقد أعتمد علماء الفلك المسلمين قبل ذلك على منهج بحث أولي ، وهو ترجمة أعمال الآخرين ، وتعلم المعرفة المكتشفة بالفعل، لكن جاءت أعمال الخوارزمي بداية لطريقة غير تقليدية في الدراسة والحسابات .

فقدت النسخة العربية الأصلية التي كتبت عام 820 م ، ولكن أنقذ الفلكي الأسباني مسلمة ابن أحمد المجريطي (c. 1000) الترجمة اللاتينية ، التي كتبها إدلارد أوف باث في 26 يناير 1126، المخطوطات الأربع الناجية من الترجمة اللاتينية ، ولا تزال محفوظة في المكتبة العامة " في شارتر " ، ومكتبة " مازارين " في باريس ، ومكتبة " ناسيونال " في مدريد ، ومكتبة " بودليان " في أوكسفورد .

والكتاب الثاني هو " العمل بالاسطرلاب " ، وهو من أدوات الرصد الفلكية .

علم الجغرافيا:—

كتاب " صورة الأرض " ، وكتاب عن " ظهور الأرض " ، وهو نسخة منقحة وكاملة من كتاب " الجغرافيا " لكلاوديوس بطليموس ، الذي يتألف من قائمة مكونة من 2402 إحداث لمدن وغيرها من المعالم الجغرافية التالية للمقدمة العامة ، ولا يوجد سوى نسخة واحدة موجودة من كتاب " صورة الأرض " ، محفوظة في مكتبة " جامعة ستراسبورج والترجمة اللاتينية محفوظة في " المكتبة الوطنية الأسبانية " في مدريد ، العنوان الكامل للكتاب هو " مظهر الأرض ، ومدنها ، والجبال والبحار ، وجميع الجزر والأنهار ، كتبه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي ، وفقا لمقالة جغرافية كتبها الجغرافي بطليموس ذا كلاوديان " ² .

¹ - الوزراء والكتاب - محمد بن عيوس الجهشباري - تحقيق : مصطفى السقا ، وآخرون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى 1938 - القاهرة .

² - أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم - عبد الرحمن حميدة - دار الفكر - القاهرة .

يفتح الكتاب مع قائمة بخطوط العرض ودوائر الطول ، وذلك من أجل " مناطق الطقس أي في مناطق خطوط العرض ، في كل منطقة جوية ، بترتيب خطوط الطول ، وهذا النظام الممتاز يتيح لنا أن نستنتج الكثير من خطوط العرض وخطوط الطول ، حيث ان الوثيقة الوحيدة الموجودة حالياً بحالة سيئة جعلتها عملياً غير مقروءة .

لا تشمل النسخة العربية ولا نسخة الترجمة اللاتينية خريطة العالم نفسها ، ولكن تمكن هوبرت دانشت من إعادة بناء الخريطة المفقودة من قائمة الإحداثيات ، حيث قرأ دانشت خطوط العرض وخطوط الطول الساحلية من النقاط الواردة في المخطوطة ونقل النقاط على ورقة الرسم البياني ولها علاقة مع الخطوط المستقيمة ، والحصول على تقريب الساحل كما كان على الخريطة الأصلية ، ثم فعل الشيء نفسه بالنسبة للأنهار والمدن .

كتاب بعنوان " رسالة في استخراج تاريخ اليهود " ، للبحث عن التقويم العبري ، وقد وصف الخوارزمي في تلك الرسالة دورة ميتين التي تمتد لنحو 19 عامًا ، وقواعد تحديد أي يوم من الأسبوع سيكون اليوم الأول لشهر تشرين ؛ بحساب الفترة الفاصلة بين يوم العالم والعصر السلوقي ، ويعطي قواعد تحديد خط الطول المتوسط من الشمس والقمر باستخدام التقويم العبري ، ووجدت مواد مشابهة في أعمال البيروني وابن ميمون عثر علي العديد من المخطوطات العربية في برلين وإسطنبول وطشقند والقاهرة وباريس تحتوي على مواد أكيدة أو محتملة للخوارزمي ، وتتضمن مخطوطات إسطنبول ورقة عن الساعات الشمسية ، التي ورد ذكرها في كتاب الفهرس ، وكذلك أوراق أخرى ، واحدة منها عن تحديد اتجاه مكة المكرمة ، وأخري عن علم الفلك الكروي ، وتناول النصين اهتماماً بحساب مسافة عرض الصباح وهي " معرفة ساعة المشرق في كل بلد " ، و " معرفة السميت من قبل الارتفاع " ، كذلك ترك الخوارزمي كتاب " مفاتيح العلوم " .

• مكانة الخوارزمي في الغرب :-

انتشرت أعمال الخوارزمي في أوروبا خلال القرن الثاني عشر ، من خلال الترجمات اللاتينية ، التي كان لها تأثير كبير على تقدم الرياضيات في أوروبا¹. وقد اعترف العالم الغربي بانجازات الخوارزمي في الرياضيات ، وهذا ما أكد عليه أوكونر ، وروبرتسون في موقع أرشيف ماكنتوتز لتاريخ الرياضيات عندما كتبوا : ربما كانت أحد أهم التطورات التي قامت بها الرياضيات العربية قد بدأت في هذا الوقت بعمل الخوارزمي وهي بدايات الجبر ، ومن المهم فهم كيف كانت هذه الفكرة الجديدة مهمة فقد كانت خطوة ثورية بعيداً عن المفهوم اليوناني للرياضيات التي هي في جوهرها هندسة فالجبر كان نظرية موحدة تتيح الأعداد الكسرية والأعداد اللا كسرية والمقادير الهندسية وغيرها ، أن تتعامل على أنها " أجسام الجبرية " ، وأعطت الرياضيات ككل مسار جديد للتطور بمفهوم أوسع بكثير من الذي كان موجوداً من قبل وقدم وسيلة للتنمية في هذا الموضوع مستقبلاً ، كما سمحت أفكار الجبر بإدخال تطبيق الرياضيات على نفسها بطريقة لم تحدث من قبل .

كما كتب راشد ، وأنجيلا أرمسترونج : نص الخوارزمي يمكن أن ينظر إليه على أنه متميز ، ليس فقط من الرياضيات البابلية ، ولكن أيضاً من كتاب " آريثميتيكا " ديوفانتوس لأنها لم تعد حول سلسلة من المشاكل التي يجب حلها ، ولكنها كتابة تفسيرية تبدأ مع شروط بدائية فيها التركيبات يجب أن تعطي كل النماذج الممكنة للمعادلات والتي تشكل الموضوع الحقيقي للدراسة ، كما أن فكرة المعادلة ذاتها تظهر من البداية وأنها لا تظهر فقط في سياق حل مشكلة ، ولكنها تدعو على وجه التخصيص إلى تحديد فئة لا حصر لها من المشاكل².

ترجم جيرارد قرمونة كتاب " حساب الجبر والمقابلة " للخوارزمي إلى اللغة اللاتينية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وظل كتاب الخوارزمي في الجبر معروفاً في أوروبا باللغة اللاتينية ، ولكن في عام 1247هـ / 1831م عثر على نسخة

¹ - تطور الفكر العلمي عند المسلمين - د . محمد الصادق عفيفي - الهيئة المصرية العامة للكتاب 2010 - القاهرة .

² - ضحى الإسلام - أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة العاشرة 2000 - القاهرة .

باللغة العربية في مكتبة " بودلين " في اكسفورد في بريطانيا ، ونشرت بالحروف العربية في العام نفسه ليس فقط في أوروبا ولكن في العالم العربي والإسلامي¹ ، فلقد أوحى الخوارزمي بفكرة المحددة التي تعتبر من أهم موضوعات الجبر الحديث ، ثم قام العالم الياباني سيكي كاو الذي عاش خلال الفترة من عام 1642 إلى عام 1708م بتطويرها ، وليس كما يدعي علماء الغرب من أن " ويلهم ليبنز " الألماني الذي عاش خلال الفترة من عام 1646 إلى عام 1716م ، هو مبتكر المحددة ، ثم جاء بعد ذلك العالم الفرنسي " اوقستين لويس كوشي " الذي عاش خلال الفترة من عام 1789 إلى عام 1857م وعمم المحددة وطبقها على الحياة العلمية .

استعمل الخوارزمي طريقة البنائية لإيجاد جذر المعادلة بكل نجاح ، لذا فإن الخطأ بين موضوعين يعتبر من ابتكار الخوارزمي ، وهذه الطريقة أدت دوراً مهماً في التحليل العددي كما عرّف الخوارزمي الوحدة المستعملة في المساحات ، واستخدم " التكمير " أي المساحة سواء كانت سطحية أو حجمية ، كما تطرق إلى إيجاد مساحات بعض السطوح المستقيمة الأضلاع والأجسام ، والدائرة ، والقطعة ، والهرم الثلاثي والرباعي ، والمخروط ، والكرة ، واستعمل النسبة التقريبية وقيمتها " $ط = 22 \div 8$ " ² لذا فإن الخوارزمي قد أثرى علم الجبر باستعماله بعض الأفكار الجبرية لمعرفة المساحة كان الخوارزمي يعرف أن هناك حالات يستحيل فيها إيجاد قيمة للمجهول " الكميات التخيلية " وسماها الحالة المستحيلة ، وبقيت معروفة بهذا الاسم بين علماء الرياضيات حتى بدأ العالم السويسري " ليونارد أويلر " ، الذي عاش خلال الفترة ما بين عام 1707 إلى عام 1783م ، وعرف الكميات التخيلية بأنها الكمية التي إذا ضربت في نفسها كان الناتج مقداراً سالباً وأعطى كثيراً من الأمثلة على هذا³ ، ثم جاء العالم الألماني " كارل قاوس " ، الذي عاش خلال الفترة من عام 1777 إلى عام 1855م ، فركز على دراسة

¹ - أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم - مرجع سابق .

² - حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي - جلال مظهر - مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى 1974 - الرياض .

³ - نوابغ المسلمين - د . مصطفى وهبة - مكتبة جزيرة الورد - المنصورة .

الكميات التخيلية وخواصها وبلورها ، والتي أدت في النهاية إلى معرفة التحليل المركب الذي يعتبر من أهم العلوم الرياضية في العصر الحديث¹.

● وفاته :-

توفي أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي بعد سنة 232 هـ / 847 م ، وقيل توفي سنة 236 هـ / 850 م حيث لم تذكر المصادر تاريخاً محدداً لوفاته².

¹ - موسوعة نوابغ العرب والمسلمين في العلوم الرياضية - علي بن عبد الله الدفاع - مكتبة التوبة - الرياض .

² - تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي - خليل إبراهيم السامرائي ، وآخرون - مديرية دار الكتب والطباعة والنشر - الطبعة الثانية 1988 - الموصل .

• أحمد الفرغاني:-

هو أبو العباس حمد بن محمد بن كثير الفرغاني ، يعرف في الغرب باسم "الفرغانوس" Alfraganus ، أحد أشهر الفلكيين المسلمين في القرن التاسع الميلادي كما يُعدُّ من أعظم الفلكيين الذين عملوا مع المأمون وخلفائه ، وهو من معاصري الخوارزمي ، وبني موسى بن شاكر ، وسند بن علي¹.

ويعتبر أحمد الفرغاني من أعظم العلماء الذين قدموا إسهامًا كبيرًا لتطوير العلوم ، فقد كان تراثه القيم مرجعًا لعمل العلماء ومعاصريه ، وقد أكد علي ذلك أن كتابه " أسس علم الفلك " قد تمَّ ترجمته إلى اللغتين اللاتينية والعبرية في القرن الثاني عشر².

• مولده ونشأته :-

وُلِدَ في فرغانة في أوزبكستان عام 798 م ، تلقى الفرغاني علومه الأولية في موطنه حيث تشكلت معارفه كعالم ، وبعد فترة قصيرة انتقل إلى بغداد ، ليتلقى مزيدًا من العلم مع غيره من سائر العلماء³ ، وعاش فيها أيام الخليفة العباسي المأمون ، في القرن التاسع الميلادي في جامعة بغداد المعروفة آنذاك باسم " بيت الحكمة " ، حيث كان مركز العلوم الكبير " أكاديمية المأمون " ، والتي تأسست في البداية في مرو ، وبعدها انتقلت إلى بغداد ، ودعى إليها علماء من خوارزم ، وفرغانة ، وسغديان ، وشاش وفاراب ، وخراسان ، ليستمروا بأبحاثهم العلمية .

شارك الفرغاني في قصر الخليفة المأمون في عمليات رصد النجوم التي كانت تتم في مرصد بغداد ودمشق ، فقد أنشأ الخليفة المأمون في " أكاديمية المأمون " مرصدين فلكيين زودا بأحدث المعدات الفلكية في ذلك العصر⁴ ، وقام علماء الفلك في أكاديمية المأمون بقياس محيط الأرض ، وطول خط الزوال بالدرجات ، وقاموا برصد النجوم

¹ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - د . عبد الحليم منتصر - دار المعارف - الطبعة التاسعة 1996 - القاهرة

² - أحمد الفرغاني وتاريخه المشترك بين مصر وأوزبكستان - أناتولي يرشوف - صحيفة Uzbekistan Today - طشقند 4 ديسمبر 2008 .

³ - تطور الفكر العلمي عند المسلمين - د . محمد الصادق عفيفي - الهيئة المصرية العامة للكتاب 2010 - القاهرة .

⁴ - فحول علماء ما وراء النهر - مطبوعات جامعة طشقند الإسلامية 2005 - طشقند

في السماء ، ووضعوا زيحي "قوائم" ، وكتبوا مؤلفات علمية ، كما ساهم في تحديد خط الزوال بصحراء "سينجار" بشمال سوريا خلال عامي 832 ، 833 م .

● مؤلفاته :-

يعتبر أحمد الفرغاني من أوائل علماء الفلك الذين وضعوا نظرياتهم وأفكارهم العلمية في مؤلفات باللغة العربية ظلت لقرون عديدة المراجع الأساسية لعلم الفلك ، ومن أهم هذه المؤلفات :

كتاب "أسس علم الفلك" .

كتاب "سببية العلاقة بين المجالات السماوية" .

كتاب "الحركات الفلكية وملخص علوم النجوم" .

كتاب "العناصر الثلاثين" .

كتاب "مجالات نظرية الحسابات" .

كتاب "نظام الرياضيات الكبير في علم الفلك" : وهو شرح مختصر لعلم الفلك مبني على مؤلف العالم الإسكندراني "كلافديا بطليموس" ، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي ، وفي نهاية هذا الكتاب أورد الفرغاني قائمة تتضمن النقاط الجغرافية المعروفة ، وفق المناخات السبعة من الشرق إلى الغرب مع تبيان إحداثياتها¹.

كتاب "مقدمة الجغرافيا" .

كتاب "أسماء البلدان والمدن المشهورة على الأرض ، وظروفها البيئية" .

كتاب "جوامع علم النجوم والحركات السماوية" : وقد ترجمه "جيرار الكريموني" إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد ، كما ترجم إلى العبرية وكان له تأثير كبير على علم الفلك في أوروبا قبل "ريجيومونتانوس" Regiomontanus الرياضي الفلكي الذي برز في القرن الخامس عشر الميلادي .

وقد طبعت ونشرت ترجمات هذا الكتاب عدة مرات خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين .

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

كتاب "الجمع والتفريق" ¹.

كتاب "حركة الأجسام السماوية ومجموعة علوم النجوم" : والذي يعتبر من أهم مؤلفاته ، ويعرف هذا الكتاب كذلك باسم " مبادئ علوم النجوم " ، كما يعرف أيضاً باسم " عناصر علم النجوم " وهو مقسم إلى ثلاثين باباً يبين فيها جميع المسائل الأساسية لعلم النجوم بعبارات واضحة ولغة سهلة ، لذلك فقد تم ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية ونال شهرة واسعة ، واعتمد عليه كمرجع أساسي في دراسة علم النجوم في الجامعات الأوروبية لقرون عديدة .

كتاب " منم الاسطرلاب بواسطة الهندسة وعلم الحساب " : وقد أضاف إلى علم الهندسة نظريات جديدة حول أجهزة علم النجوم .

كتاب " استخدام الاسطرلاب " .

كتاب " تثبيت الوقت حيث القمر علي الأرض أو تحتها " .

كتاب " منم ساعة الشمس " .

كتاب " توضيح جدول الخوارزمي " ².

• إنتاجه العلمي :-

برع الفرغاني أيضاً في الرياضيات ونال بذلك حظوةً عند المأمون الذي أعجب به لعلمه وخلقه ونزاهته ، و قد أسند إليه إدارة مرصد الشماسية في بغداد والذي يعتبر أول مرصد في الإسلام ³.

ومن مهامه في ذلك المرصد ما طلبه منه الخليفة المأمون بشأن التحقق من قيمة محيط الكرة الأرضية والتي ذكرها اليونان في كتبهم وخرج مع أبناء موسى بن شاكر إلى صحراء سنجار ، وقد توصل إلى نتائج دقيقة في ذلك الشأن ، فعمل على تطوير آلة

¹ - موسوعة علماء العرب والمسلمين - د . محمد فارس - دار الأرقم بن أبي الأرقم - القاهرة .

² - فحول علماء ما وراء النهر - مرجع سابق .

³ - العالم الإسلامي في العصر العباسي - أحمد حسن محمود - دار الفكر العربي 1966 - القاهرة .

الإسطرلاب ، والذي استخدمه لقياس المسافات بين الكواكب ، وقد خرج بنتائج تختلف قليلاً عن نتائج اليوم¹.

كان الفرغاني عالماً في الفلك وأحكام النجوم ومهندساً .

ومن إسهاماته أنه حدد قدر الأرض بنحو 6500 ميل ، كما قدر أقطار الكواكب السيارة يقول **ألدو ميللي** : والمقاييس التي ذكرها أبو العباس الفرغاني لمسافات الكواكب وحجمها عمل بها كثيرون ، دون تغيير تقريباً، حتى الفلكي كوبر نيكوس وبذلك فقد كان لهذا العالم الفلكي المسلم تأثير كبير في نهضة علم الفلك في أوروبا ، وفي عام 861 م كلفه الخليفة المتوكل علي الله بالإشراف على بناء مقياس منسوب مياه نهر النيل في الفسطاط ، فأشرف عليه وأنجز بناءه وكتب اسمه عليه².

تقع مقالات الفرغاني في كتاب " تحركات القبة السماوية وعلم النجوم " في ثلاثين فصلاً تتضمن مقالات موسوعية عن المعارف الفلكية في ذلك العصر .

وانتشرت مقالاته في أوروبا بعد أن ترجمت من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، وترجمت خلال القرن الثالث عشر إلى اللغات الأوروبية الأخرى ، وطبعت مؤلفات الفرغاني بمجال علم الفلك للمرة الأولى عام 1493م ، وجرى استخدامها في أوروبا كمراجع موسوعية وكتب تعليمية على مدى سبعمائة عام .

توصل الفرغاني كعالم في مجال رصد الأجسام السماوية إلى الكثير من الإكتشافات العلمية .

وأثبت علمياً كروية الأرض ، ووضع تاريخ أطول يوم في السنة 22 يونيوه ، وأقصر يوم في السنة 23 ديسمبر .

كما اكتشف الفرغاني وجود بقع على الشمس وتنبأ بخسوف الشمس الذي حدث عام 832 م³.

¹ - تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي - خليل إبراهيم السامرائي ، وآخرون - مديرية دار الكتب والطباعة والنشر - الطبعة الثانية 1988 - الموصل .

² - دائرة المعارف الإسلامية - مرجع سابق .

³ - أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم - عبد الرحمن حميدة - دار الفكر - القاهرة .

وقضى الفرغاني السنوات الأخيرة من حياته في القاهرة . واشتغل بتصميم الأسطرلاب ، وهو آلة تستخدم لتحديد مواقع النجوم وقياس المسافة بينها . ووضع شروحاً رياضية واقترح إجراءات لتحسين هذه الآلة . ومن ثمرات أعماله في القاهرة كان تشييد مقياس النيل ، الذي شيد بإدارة الفرغاني عام 861 م لقياس مستوى المياه في نهر النيل¹ .

● مقياس النيل :-

يقع مقياس النيل في أقصى الطرف الجنوبي من جزيرة منيل الروضة النيلية بالقاهرة ، ويعتبر أقدم مبنى إسلامي شُيّد من الحجر في مصر ، وأقدم نماذج العمارة المائية الإسلامية في مصر والعالم العربي والإسلامي ، حيث يرجع تاريخ بنائه إلى عام 248هـ ، في عهد الخليفة العباسي المتوكل ، قبته على هيئة قلم رصاص ، وأعمدته تؤرخ لبداية الخط الكوفي المزهر ، وبئرته على شكل هرم مقلوب² .

كان مقياس النيل له أهمية كبيرة للحياة في مصر . فقد كان الإرتفاع الكبير لمياه نهر النيل يؤدي إلى إغراق الأراضي الزراعية ، ومن ثم يؤدي إلى انخفاض الإنتاج الزراعي إلى حد كبير في سنوات الفيضانات الكبيرة لمياه النهر . وقد أشارت مؤلفات المؤرخ اليوناني القديم " هيرودوت " ، إلى أنه عند فيضان نهر النيل ، لا تغرق الدلتا وحسب ، بل وتغرق الأراضي المحيطة بها ، حتى أن الانتقال من ضفة إلى أخرى كان يستغرق يومين .

ويتمتع مقياس الفرغاني للنيل بأهمية بالغة للتنبؤ بالفيضانات . وحتى اليوم بقيت هذه المنشأة من المواقع السياحية المهمة في القاهرة . كان المقياس يستخدم لقياس فيضان النيل ، وعلى أساسه يتم تحديد الضرائب في العام الزراعي المقبل ، ويعد مقياس النيل بالروضة من المنشآت المهمة التي ترجع إلي

¹ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - د . عبد الحليم منتصر - دار المعارف - الطبعة التاسعة 1996 - القاهرة

² - مقياس النيل أقدم نموذج للعمارة المائية الإسلامية في مصر - منى نور الدين - صحيفة الشرق الأوسط - 12 يوليو 2001 .

العصر العباسي، وقد عرف المصريون منذ أقدم العصور تشييد المقاييس في شتى أنحاء البلاد ليتعرفوا على ارتفاع النيل نظرًا لعلاقته الوثيقة بري الأرض وتحصيل الخراج .
ويتكون مقياس النيل من جزئين :

الجزء الأول : علوي يظهر فوق الأرض عبارة عن قبة تأخذ شكلًا مخروطيًا " قمة على هيئة القلم الرصاص " ذات طراز تركي ، وهذه القبة مزخرفة من الداخل بزخارف نباتية كالأزهار والأوراق النباتية بالألوان المختلفة ، وزخارف كتابية دعائية مذهبة باسم الخديوي عباس حلمي الأول الذي أقام هذه القبة ، وبالقبة مجموعة من النوافذ المصنوعة من الخشب الخراط تحدها إطارات مذهبة ، وفي الجانب الشمالي والشرقي كتابات أثرية بالخط الكوفي ، وفي الجانب الجنوبي والغربي نقوش ترجع إلى أيام أحمد بن طولون سنة 259 هـ عندما أصلحه وأنفق عليه ألف دينار¹.

الجزء الثاني : عبارة عن بئر المقياس وتوجد أسفل الجزء الأول تحت سطح الأرض يتم الوصول إليها عن طريق مجموعة من السلالم تبدأ من قمة البئر إلى القاع ، وتأخذ بئر المقياس من الداخل شكل المثلث المقلوب " هرمي " ، حيث ينقسم مسقطه إلى ثلاثة مستويات ، الأول مسقط دائري ، ثم يعلوه مسقط مربع طول ضلعه أكبر من محيط الدائرة " المستوى الأول " ، ثم المستوى الثالث ومسقطه مربع طول ضلعه أكبر من طول ضلع المربع الأول ، ويدل سُمك الجدران وتدرجه على أن العلماء المسلمين كانوا على علم ودراية تامة بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الأفقي للتربة كلما زاد العمق إلى أسفل ، وبهذه المستويات الثلاثة وبجدران بئر المقياس توجد مجموعة من النوافذ التي يدخل عن طريقها ماء نهر النيل إلى البئر ويقاس منسوبه عن طريق عامود المقياس وكلما كانت نسبة مياه النيل مرتفعة ، دخل الماء من النوافذ العلوية الموجودة ببئر المقياس وبلغ طول عامود القياس 12.5 مترًا ، وهو مقسم إلى عدة تدرجات تعطي في مجموعها دلالة على ارتفاع أو نقصان مياه النيل ، وهذه التدرجات تصل إلى 18 زراعًا وكل ذراع مقسم إلى 24 أصبعًا وذلك للحفاظ على قراءة صحيحة على عامود القياس والتي يتحدد على أثرها أهمية اقتصادية كبرى وهي معرفة مساحة الأراضي

¹ - نوابغ المسلمين - د . مصطفى وهبة - مكتبة جزيرة الورد - المنصورة .

الزراعية التي سوف يتم زراعتها وأنواع المحاصيل التي سوف تزرع وبالتالي حجم الخراج الناتج عن جباية الضرائب عن هذه المحاصيل وبالتالي تقدير المشروعات المستقبلية .

ترجع أهمية مقياس النيل وتميزه بين الآثار الإسلامية إلى الطريقة التي استخدمها المعماري في بنائه والتي دلت على براعته وتطبيقه للنظريات العلمية التي بنى عليها فكرة إنشائه¹، بحيث أضاف للمقياس عنصر الإبهار، حينما استطاع أن يبني جسم المقياس في ستة أشهر هي وقت التحريق عندما يقل مستوى مياه نهر النيل قبل الفيضان، فكان لزاماً عليه أن يبني في تلك الفترة القصيرة ، كما كان اختياره لموقع المقياس في الطرف الجنوبي من جزيرة الروضة أثراً في الحفاظ على جسم المقياس فهذا الموقع تقل فيه شدة التيارات في النهر، وبالرغم من أن المقياس مبني من الحجر حيث تشكل المياه مصدرًا خطراً على الأبنية الحجرية إلا أن المهندس استخدم مادة للزلزل تعمل على الحفاظ على الأحجار من التفكك والانهييار ، ولهذه الأسباب يقف الآن المقياس متحدياً كل العوامل التي قد تشكل عليه عنصراً من عناصر الخطورة كالزمن والمياه .

استخدم مهندس المقياس مجموعة من النظريات العلمية عندما شرع في بناء المقياس وبالتالي كان لها أثر في تصميمه المعماري والشكل النهائي الذي وصل إليه ، مما جعل مقياس النيل أدق مقياس يعطي قراءة صحيحة لمنسوب المياه في نهر النيل منذ أن عرفت مصر هذا النوع من المنشآت حيث وصلت نماذج منها تعود الى العصور الفرعونية والبطلمية² ، والنظريات العلمية المطبقة في عمارة المقياس فهي :

النظرية الأولى :-

نظرية ضغط السوائل والتي تنص على أن للسوائل ضغطاً يكون عالياً في أسفلها وقليلًا في أعلاها وعلى ذلك جاء اختيار موقع المقياس على رأس جزيرة الروضة بحيث تكون مساحة الكتلة البنائية للمقياس عند القاعدة أكثر اتساعاً منها عند القمة مما

¹ - نوابغ المسلمين في العلم والمعرفة - محمد حسن أبو دينا - دار المعارف - القاهرة

² - الأعلام - مرجع سابق .

يجعل قطاع المقياس يأخذ شكلاً شبه منحرف وكان الغرض من ذلك من وجهة نظر المهندس هو مقاومة جدران المقياس خاصة من أسفل لضغط ثقل المياه المحيطة بجسم المقياس في النيل .

النظرية الثانية :-

هي نظرية التواتر السطحي للسوائل ، لذلك عمل المهندس على وقف حركة المياه المندفعة إلى بئر المقياس ، لكي يعمل على ثبات سطح المياه في داخل البئر حتى تعطي قراءة صحيحة على عامود القياس ، واستخدم المهندس النوافذ الواقعة على جدار المقياس ودرج السلم الهابط إلى قاع البئر للوصول إلى هدفه وهو ثبات حركة المياه .

النظرية الثالثة :-

فهي نظرية الطفو والتي تنص على أن للسؤال مقاومة للأجسام التي توضع فيها وينطبق ذلك على عامود القياس الرخامي بوزنه الثقيل ، لذلك عمل المهندس على تثبيت هذا العمود على دكة من جذوع النخيل التي تمتاز بخاصية فليينية مع الرمل مما ساعد على الحفاظ على عامود القياس دون أن يميل أو ينكسر .

ولمقياس النيل أهمية كبرى من الناحية الأثرية فهو مبنى أصيل مازال يحتفظ بكل عناصره الأصلية ولم يتعرض لأي عوامل تقلل من قيمته الأثرية، وهو أقدم مبنى حجري بني في مصر خلال العصر الإسلامي، وأقدم مبنى يحوي كتابات بالخط الكوفي المزهر حيث يؤرخ علماء الآثار ظهور الكتابة الكوفية المزهرة على المباني بتلك الكتابات الموجودة بمقياس النيل، ومن ناحية العمارة الإسلامية هو أول مبنى استخدم فيه العقد المدبب والأعمدة المدمجة في الحوائط .

في عام 1998 احتفل المجتمع الدولي تحت إشراف اليونسكو بالذكرى 1200 للعالم الكبير أحمد الفرغاني ، الذي قدم إسهامات كبيرة لتطوير العلوم علي المستوى العالمي .

• وفاته :-

بعد أن أنشأ الفرغاني مقياس النيل بجزيرة الروضة بالقاهرة عام 861 م ، ظل بمصر وعاش فيها السنوات الأخيرة من عمره ، وتوفي بها عام 247 هـ / 861 م¹ ، و تقديرًا

¹ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - مرجع سابق .

للخدمة الجليلة التي أسداها أحمد بن كثير الفرغاني لمصر ، وتقديرًا لإسهاماته العلمية العظيمة للعالم أجمع ، أقامت محافظة القاهرة تمثالاً له شارك في تصميمه فنانون من أوزبكستان ومصر¹ ، حيث تم تدشين التمثال خلال زيارة رئيس أوزبكستان الراحل " إسلام كريموف " إلي مصر في أبريل 2007 ، حيث يجسد التمثال رمزاً للصدقة بين الشعبين في كل من مصر وأوزبكستان .

¹ - أحمد الفرغاني وتاريخه المشترك بين مصر وأوزبكستان - أناتولي يرشوف - صحيفة Uzbekistan Today - طشقند 4 ديسمبر 2008 .

• أبو علي البلعمي:—

هو أبو علي محمد بن أبي الفضل محمد بن عبيد الله ، مؤرخ ، وسياسي ، كان من أهم وزراء الدولة السامانية خلال القرن الرابع الهجري ، والده هو أبي الفضل محمد البلعمي الذي كان وزيراً لإسماعيل الساساني .

وكان أبو علي البلعمي وزيراً لعبد الملك بن نوح الساساني ، ومنصور بن نوح الساساني .

نسب لقب البلعمي لاثنتين من كبار رجال الإدارة والسياسة في الدولة السامانية التي سيطرت على بلاد ما وراء النهر وجزء من خراسان بين القرنين الثالث والرابع الهجريين / القرنين التاسع والعاشر الميلاديين .

الأول : أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي ، المتوفي عام 329 هـ / 940 م .

والثاني : ابنه أبو علي محمد بن أبي الفضل محمد بن عبيد الله ، المتوفي عام 363 هـ / 975 م .

ينسب السمعاني وياقوت الحموي الأسرة البلعمية إلى قبيلة تميم العربية ، ويرى السمعاني أن لقب البلعمي منسوب إلى " بلعم " ، وهي بلد في ديار الروم ورد إليها أحد أجداد أبي الفضل هو " رجاء بن معبد " في جيش مسلمة بن عبد الملك وأقام فيها فنسب أبنائه وحفدته إليها ، وينسب إلى قرية بلعمان الواقعة إلى جوار مدينة مرو في خراسان ، وكان قد بلغها أحد أجداد البلعمي مع جيش قتيبة بن مسلم الباهلي ، ويرجح الرأي الثاني أن أسرة البلعمي كانت تقيم في مرو .

• مولده ونشأته :—

لم يدون لأبي علي البلعمي تاريخ ميلاد ، أو معرفة العام الذي ولد فيه كغيره من الكثير من العلماء والشخصيات الرائدة خلال تلك الفترة الزمنية ، ولكن من معرفة تاريخ والده أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي ، نجد أن أبو علي البلعمي قد نشأ وترعرع في أسرة مهتمة بالعلم والثقافة والمعرفة ، فقد درس أبوه أبي الفضل البلعمي علومه الأولى في سمرقند على عدد من العلماء ، منهم الإمام محمد بن نصر المروزي الذي كان له أثر في

آرائه وكان لأبي الفضل ، كما يقول الإصطخري ، عدد من الدور هناك ، ثم انتقل بعد ذلك إلى سمرقند لمتابعة دراسته في علوم العربية والفقه والحديث¹.

انتقل أبو الفضل إلى بخاري، عاصمة السامانيين ، واتصل بالأسرة الحاكمة فيها منذ أيام الأمير إسماعيل بن أحمد ، الذي حكم خلال الفترة من عام 279 هـ / 892 م ، إلي عام 295 هـ / 907 م ، والذي كان ثالث أمراء الأسرة الحاكمة ، وغدا واحداً من رجال الحاشية الذين توكل إليهم بعض المهام بين الحين والآخر، وبدءاً من عام 308 هـ / 920 م اقترن اسمه بالنشاط الحربي للسامانيين².

فكان في عداد الجيش الذي أرسله الأمير نصر بن أحمد الساماني الذي حكم خلال الفترة من عام 301 هـ إلى عام 331 هـ إلى طوس في خراسان لقتال بعض العصاة .

وكان ثبات أبي الفضل في المعركة سبباً في تحولها من هزيمة إلى انتصار . وفي قدمه الثاني إلى خراسان بعد عامين كان واحداً من قواد الجيش، ظهرت حنكته السياسية ، إضافة إلى شجاعته في القتال عندما استولى على جرجان " جنوب شرقي بحر قزوين " وانتهت مراسلاته مع حاكم أستراباذ المجاورة إلى قبول صاحبها دفع إتاوة إلى الأمير نصر في مقابل بقاءه عليها .

أسهمت البيئة التي نشأ فيها أبو علي البلعمي علي تكوين شخصيته التي جمعت بين حب العلم والمعرفة والثقافة ، وبين السيادة وفنون الإدارة ، حيث تمكن من الاطلاع علي أحوال الدولة السامانية والدول الأخرى التي ارتبطت بعلاقات معها سواء كانت علاقات صداقة أو عداوة ، وكان لذلك تأثير في حياته حتي عندما عمل بالسياسة مقتدياً بأبيه أبي الفضل البلعمي ، إلا أنه كان متعلقاً بالعمل الأدبي والترجمة والكتابة التاريخية وهو ما عرف به أكثر مما عرف في مجال السياسة والإدارة .

شغل أبو علي محمد بن أبي الفضل منصب الوزير في عهد الأمير عبد الملك بن نوح الذي حكم خلال الفترة من عام 343 هـ / 954 م إلي عام 350 هـ / 961 م ، من الأسرة السامانية .

¹ - المسالك والممالك - مرجع سابق .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

وكان وصول أبي علي إلى الوزارة بعد وفاة أبيه بإحدى وعشرين سنة أي عام 350هـ — 961م¹.

وكان ذلك بتوصية من قائد الجيش ألب تكين .

ولم تنقض عشرة أشهر على استقرار أبي علي في منصبه حتى قضى الأمير عبد الملك نحبه فجأة عندما سقط عن ظهر جواده ، وتدخل قائد الجيش لينصب ابنًا صغيرًا للأمير عبد الملك بن نوح ، أميرًا على البلاد ، لم يدم عهده إلا يومًا واحدًا .

وقفت الأسرة السامانية ومعها قادة آخرون وفيهم أبو علي الوزير إلى جانب الأمير منصور، شقيق عبد الملك ، وانتهى الأمر بتثبيت منصور خلفًا لأخيه ، في شوال 350هـ / نوفمبر 961م ، فضمن أبو علي بذلك منصبه في الوزارة إلى حين وفاته ، ولكن الأمير منصورًا لم يلبث أن أشرك معه في هذا المنصب عام 351هـ / 962م وزيرًا سابقًا هو أبو جعفر العتبي إلا أن هذه المشاركة لم تدم طويلًا².

ويورد نظام الملك في مؤلفه " سياسة نامه " خبر مؤامرة دبرها لأبي علي في أول عهده بالوزارة من دعاهم نظام الملك بالقرامطة حين وشوا به إلى الأمير منصور فأمر بسجن أبي علي مصفدًا في ربح بخارى إلى أن توسط له ألب تكين ، وكان ما يزال ذا نفوذ قبل أن يغادر الإمارة إلى غزنة ، فأطلع الأمير منصورًا على حقيقة ما جرى فأخرج عن البلعمي وأعادته إلى منصبه ، وأطلق يده في القضاء على المتآمرين.

عُرف أبو علي بقوة الشكيمة ، وقد بدت عليه مخايلها في الأيام الأولى لتسلمه الوزارة حين رفض الوقوف إلى جانب القائد ألب تكين ، وهو الذي يدين له بمنصبه ، والتزم الجانب المعارض له³.

وتتأكد كفاية أبي علي الإدارية في أن استيزاره كان بعد استيزار ثلاثة سبقوه إلى شغل هذا المنصب في عهد الأمير عبد الملك .

¹ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى - فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد - ترجمة وتحقيق : أحمد السعيد سليمان - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1996 - القاهرة .

² - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

³ - تاريخ الحضارة الإسلامية - فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد - مؤسسة المعارف للطباعة والنشر 1983 - بيروت .

ولم يستطع أي من هؤلاء البقاء في المنصب أكثر من عامين ، وكان نصيبهم جميعاً العزل ، إما لعدم ثقة الأمير بهم ، وإما لعدم كفايتهم .
تتجلى مناقب أبي علي في الصفات التي أسبغها عليه شعراء عصره الذين كانوا على صلة به ، فوصفوه في قصائدهم بالحزم والكفاية والشجاعة والكرم ، فضلاً عما اتسمت به سيرته من التواضع .

وكانت له يد طويلة في الأمن الذي نعمت به بلاد ما وراء النهر طوال عهده في الوزارة حتى وفاته، وفي الحروب الناجحة التي خاضها السامانيون في خراسان في مواجهة العصاة من جهة، ومع البويهيين من جهة أخرى والتي انتهت إلى صلح عام 361هـ / 971 م .

● مؤلفاته :-

علي الرغم من انشغاله في الإدارة والعمل السياسي ، إلا أنه توافر لأبي علي البلعمي متسع من الوقت، لأن ينجز عملاً ثقافياً وعلمياً مهماً، إذ نقل من العربية إلى التاجيكية كتابي "جامع البيان في تأويل آي القرآن" ، و " تاريخ الرسل والملوك " لمحمد بن جرير الطبري .

وكانت ترجمة أبي علي لتاريخ الطبري أول كتاب في التاريخ باللغة الفارسية في العهود الإسلامية ، وقد اختصر البلعمي من كتاب " تراخي الرسل والملوك " ، وأضاف له من مصادر أخرى ، وخاصة فيما يتعلق بالعصور الأولى¹.

وقد أنجز البلعمي أعمال الترجمة تلك عام 352هـ / 963 م ، أي بعد اثنين وأربعين عاماً على وفاة الطبري .

وترجم المستشرق الفرنسي زوتنبرج عمل البلعمي إلى الفرنسية ، وبدأ بنشره في باريس في عام 1284هـ / 1867 م ، قبل أن تنتشر النسخة العربية من كتاب الطبري في لندن عام 1291 هـ / 1874 م .

فعرفت أوروبا مؤلف الطبري بنسخته التاجيكية قبل نشر النسخة العربية بمدة وجيزة .

¹ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مرجع سابق .

لم تفقد ترجمة البلعمي لكتاب الطبري أهميتها بعد صدور النص العربي، لأن البلعمي اعتمد نسخة مكتملة من الكتاب وردت فيها أخبار لم ترد في النسخة العربية، كما أضاف إليها معلومات من مصادر أخرى.

وكان هذا العمل أحد الأسباب في شهرة أبي علي البلعمي ، ولذلك يقول بروكلمان، إن البلعمي بهذه الترجمة يكون قد وضع حجر الأساس في علم التاريخ عند الفرس، وقد قدر لهذا العلم أن ينتهي إلي غايات بعيدة من النمو والإزدهار .

●وفاته :-

توفي أبو علي البلعمي عام 363هـ / 975 م¹، وقيل أنه توفي عام 996 م في مدينة بخاري .

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

• ابن سينا:—

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا¹، رائد من رواد الفكر الإنساني ، والمعلم الثالث للإنسانية بعد أرسطو، والفارابي، عاش في فترة تعتبر من أزهى عصور الحضارة العلمية الإسلامية ، درس الطبيعيات والإلهيات ، وقرأ كتب أرسطو وأفلاطون، واشتهر بالطب والفلسفة ، كما عني بالرياضيات والفلك ، فكان الطبيب الفيلسوف والرياضي الفلكي .

• مولده ونشأته :—

وُلِدَ ابن سينا عام 370 هـ الموافق 890 م ، في " أفشنة " ، قبل أن ينتقل مع والدته وأخيه إلى بخاري ، التي كان قد فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي ، سنة 90 هـ ، أما والده فهو من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخاري في أيام نوح بن منصور وعمل في وظيفة إدارية، وهي تقابل وظيفة الوالي أو مدير الإقليم ، في قرية يقال لها خرمثين من ضياع بخاري، وهي من أمهات القرى ، وبقرها قرية يقال لها (أفشنة) التي ولد بها ابن سينا . ومن ذلك يظهر أن والد ابن سينا عبد الله بن علي ، كان من الموظفين الكبار في عهد نوح بن منصور² وهو من أهل " بلخ "³ ، أما والدته فهي من قرية " خرمثين "⁴ التي تقع في بخارى ، ثم انتقلت وظيفة والده إلى بخاري ، قاعدة الدولة السامانية حتى يتيح لولديه فرصاً أكبر من العلم والتعليم .

بدأ نبوغ ابن سينا منذ صغره ، إذ قام وهو لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره بعلاج السلطان نوح بن منصور الساماني، وكانت هذه هي الفرصة الذهبية التي سمحت بالتحاقه ببلاد السلطان ووضعت مكتبته الخاصة تحت تصرف ابن سينا ، الذي كان متوقد الذكاء، امتاز بمواهبه الفذة ، وعبقريته الأهابة في تعلم القرآن الكريم والأدب

¹ - فحول علماء ماوراء النهر - مرجع سابق .

² - أبو القاسم نوح بن منصور، من أمراء الدولة السامانية، تولى الإمارة عن خراسان وما وراء النهر اثنتين وعشرين سنة

³ - بلخ : مدينة مشهورة من مدن خراسان ، وأكثرها ذكراً وخيراً ، وأوسعها غلة ، كما جاء تعريفها في معجم البلدان وهي اليوم شمال أفغانستان .

⁴ - خرميشن : بفتح أوله وتسكين ثانيه وهي من قرى بخارى (معجم البلدان) .

وهو ابن عشرينين وتعلم حساب الهند، واشتغل بالفقه وتردد على إسماعيل الزاهد حتى ألف طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به ، ثم ابتدأ كتاب " إيسافوجي " علي يد أستاذه النائلي .

بدأ ابن سينا يصنف الكتب وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وكان يعالج المرضي دون أجر¹، واكتسب شهرة واسعة تميز بها أهل زمانه ، حتي لقب بالشيخ الرئيس ، وهذا ما عكسه كتابيه " القانون في الطب " و" الشفاء "، اللذان تميزا بالسلسلة في العرض والأسلوب ، والوضوح في البيان ، مع الدقة العلمية التي تنتزع التقدير والاعجاب ، فكان ابن سينا يمثل عبقرية نادرة المثال ، وظاهرة فكرية ربما لا تجد من يساويه في ذكائه أو نشاطه الانتاجي².

قضي ابن سينا طفولته وأيام شبابه في بخاري ، وذلك في ظل حكم سلالة السامانيين الذين انتهي حكمهم علي أيدي سلالة القاراخانيين الذين استولوا علي بخاري عام 999م وكان ابن سينا في ذلك الحين قد أكمل دراسته للعديد من العلوم ، وقد شرع في تأليف رسائله العلمية³ في بخاري بدأ ابن سينا رحلة تلقي العلوم ، حيث حفظ القرآن الكريم بأكمله وعمره لم يتجاوز العاشرة ، ثم تلقى علوم الفقه والأدب والفلسفة والطب .

وقد درس على يد عالم بخاري المتخصص في علوم الفلسفة والمنطق أبي عبد الله النائلي⁴، فأحسن إليه والده واستضافه وطلب إليه أن يلحق ابنه شيئاً من علومه ، فما كان من هذا العالم إلا أن تفرغ لتلميذه ، وأخذ عليه دروساً من كتاب المدخل إلى علم المنطق المعروف باسم " إيساغوجي " .

وكان النائلي أشد ما يكون إعجاباً بتلميذه ابن سينا حين وجده يجيب عن الأسئلة المنطقية المحورية إجابات صائبة تكاد لا تخطر على بال معلمه . واستمر ابن سينا مع معلمه إلى أن غادر هذا المعلم بلدة بخاري .

¹ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - مرجع سابق .

² - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - مرجع سابق .

³ - فحول علماء ماوراء النهر - مرجع سابق .

⁴ - هو أبو عبد الله النائلي ، والنائلي : نسبة إلى نائلة ، ويقال : نائل ، مدينة بطبرستان

أحكم ابن سينا المنطق ، و كتاب إقليدس ، وانتقل إلى المجسطي ، قرأها جميعاً على نفسه ، وفهماها ، واستمر على طريقته يعلم نفسه ويتقنها ، ويقول : صارت أبواب العلوم تتفتح عليّ ، ثم رغبت في علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من الأمور الصعبة ، فلا جرم أني برّزت فيه في أقل مدة ، وتعهّدت المرضى ، فانفتح عليّ من أبواب المعالجات من التجربة ما لا يوصف .
ولقد كان ابن سينا متفائلاً في جميع مراحل حياته ، يعتقد أن العالم الذي نعيش فيه أحسن العوالم الممكنة وكان شديد الارتباط بموطنه الأصلي ، فهو لم يغادر موطنه رغم اضطراب حياته فيها¹.

بعد وفاة الأمير نوح أمير بخاري ، واحتراق مكتبتها ، هاجر ابن سينا إلى خوارزم حيث رحب به الأمير علي بن مأمون بقصره في الجرجانية ، الذي كان يحب العلم والعلماء ، ولذلك أنشأ مجمعاً علمياً في الجرجانية ، يضم صفوة العلماء في زمانه فواصل ابن سينا أبحاثه وقراءاته ، وكتابه الفكرية التي يوفق بها بين الفلسفة والدين وبين العلم والدين ، فألف كتب " الحكمة العروضية ، الحاصل والمحصول ، البر والإثم المختصر الأوسط المبدأ والميعاد " ، وكانت مؤلفات في الفقه ، وفي الفلسفة .

كما ألف كتاباً عن الأرصاد الكلية في الفلك ، جمع فيه معارفه الفلكية .
وبعد عشر سنوات قضاهما " ابن سينا في الجرجانية شرع في تأليف كتابه الشهير " القانون " في الطب².

لم يكتب ابن سينا الإنتاج الضخم من مؤلفاته التي بلغت ستاً وسبعين ومائتين ، في بلد واحد ، ولا في مدة متصلة ، ولا في دولة واحدة ، إذ كان يحرر رسائله الصغيرة أثناء رحلاته وأسفاره ، علي الرغم مما كان يحيط به من مشاكل ومشاكل ، وما يعتري حياته من متاعب ومصاعب³ ، حيث كان ابن سينا محباً للترحال لطلب العلم ، فبعد

¹ - تاريخ العرب من الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية - فصل الأحوال العربية قبيل الحروب الصليبية - عيسى الحسن - الطبعة الأولى 2008 - الأهلية للنشر والتوزيع - عمان .

² - ابن سينا أبو الطب البشري - سليمان فياض - مركز الأهرام للترجمة والنشر - الطبعة الأولى 1987 - القاهرة .

³ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - مرجع سابق .

حياته الأولى في بخاري ، وقدمه إلي خوارزم ، حيث مكث عشر سنوات ، تنقل بعدها بين البلاد ، قبل أن يرتحل إلى همدان ، والتي مكث بها تسع سنوات قبل أن يتوفى بها .

● فكره الفلسفي :-

يعتبر الفكر الفلسفي لأبي علي ابن سينا امتدادًا لفكر الفارابي ، حيث أخذ عنه فلسفته الطبيعية وفلسفته الإلهية ، أي تصوره للموجودات وتصوره للوجود وأخذ منه على الأخص نظرية الصدور وطور نظرية النفس وهو أكثر ما عني به ، حيث يدّعي مخالفوه أنه كان يقول بنفس المبادئ التي يدعون أن " الفارابي " من قبله نادى بها بأن العالم قديم أزلي وغير مخلوق ، وأن الله يعلم الكليات لا الجزئيات ، ونفى أن الأجسام تقوم مع الأرواح في يوم القيامة¹ .

تكمّن أهمية ابن سينا الفلسفية في نظريته في النفس وأفكاره في فلسفة النفس ، فمقدمات ابن سينا في النفس هي مقدمات أرسطية ، وتعريف " ابن سينا " للنفس هي أن النفس كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة أي من جهة ما يتولد (وهذا مبدأ القوة المولدة) ، ويربو (وهذا مبدأ القوة المنمية) ويتغذى (وهذا مبدأ القوة الغذائية) وذلك كله ما يسميه بالنفس النباتية² .

وهي كمال أول من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة وهذا ما يسميه بالنفس الحيوانية .

وهي كمال أول من جهة ما يدرك الكليات ويعقل بالاختيار الفكري وهذا ما يسميه النفس الإنسانية .

يقسم " ابن سينا " النفس إلي ثلاثة ، نباتية ، حيوانية ، إنسانية .

كمال أول : تعني مبدأ أول .

ذي حياة بالقوة : يعني لدينا جسم مستعد وطبيعي لتقبل الحياة .

مبادئ النفس النباتية : تنمو وتتوالد وتتغذى ولا يفعل النبات أكثر من ذلك .

¹ - علماء العرب وما أعطوه للحضارة - قدرتي حافظ طوقان - منشورات الفاخرية - الرياض .

² - الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل - علي نايف الشهود - منشورات الفاخرية - الرياض

مبادئ النفس الحيوانية : تدرك الجزئيات (مثلا يدرك أفعى أمامه ، إنساناً أمامه) ويتحرك بالإرادة أي فيه إرادة توجهه (مثلا الأسد بإرادته يمكن أن يقفز على إنسان ويبتله) .

مبادئ النفس الإنسانية : تدرك الكليات ، اختيار فكري ، أي الحرية الفكرية التي نتوجه لها للاختيار من بين بدائل مختلفة .

جاء تصور ابن سينا لأصل النفس من علاقة النفس بالبدن ، ومصير النفس ، فالمسألة غامضة عند ابن سينا ، ولكنه برهن على وجود النفس بأمرين : الأول : البرهان الطبيعي ، ويعتمد هذا البرهان على مبدأ الحركة والتي بدورها تنقسم إلى نوعين :

حركة قسرية : ناتجة عن دفعة خارجية تصيب جسماً فتتحركه .

حركة لا قسرية : وهذا ما عناه ابن سينا وهي أنواع مختلفة ، منها ما يحدث على مقتضى الطبيعة كسقوط حجر من الأعلى إلى الأسفل ، ومنها ما يحدث ضد مقتضى الطبيعة وهنا يكمن البرهان ، كالإنسان الذي يمشي على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه يدعو إلى السكون ، هذه الحركة المضادة للطبيعة ولقوانينها تستلزم محركاً خاصاً زائداً على عناصر الجسم المتحرك ألا وهي النفس .

الثاني : البرهان النفسي :-

ويقوم هذا البرهان على الأفعال الوجدانية والإدراك ، فالإنسان يمتاز عن الحيوان بأنه يتعجب ويضحك ويكي ، كما أنه من أهم خواصه : الكلام واستعمال الرموز والإشارات وإدراك المعاني المجردة واستخراج المجهول من المعلوم¹.

وهذه الأفعال والأحوال هي مما يختص به الإنسان ، وهي ليست راجعة للبدن ، بل هي قوة مستقلة كما قال ابن سينا شيء آخر لك ان تسميه النفس .

وهذا الجوهر الذي يتصرف في أجزاء بدنك هو فيك واحد وهو انت بالتدقيق .

يشير ابن سينا في قصيدته العينية " التي تنتهي أبياتها بحرف العين " إلى مجئ النفس فيقول أنها جاءت من محل أرفع ، أي من فوق وأنت رغما عنها وكارهة لذلك ، ثم

¹ - الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل - مرجع سابق .

تتصل بالبدن وهي كارهة لكنها بعد ذلك تألف وجودها بالبدن ، وتألف البدن لأنها نسبت عهودها السابقة كما يقول في قصيدته ، فهو يقول هبطت النفس من مكان رفيع كرهت وأنفت البدن ، ثم ألفتها واستأنسته ، ثم رجعت من حيث أتت وانتهت رحلتها وأنها قد هبطت لحكمة إلهية ، هبطت لا تعلم شيء لتعود عالمة بكل حقيقة ولكنها لم تعش في هذا الزمن إلا فترة .

• إنتاجه العلمي :-

يعتبر كتاب " القانون في الطب " من خير ما تفخر به الحضارة العلمية الإسلامية في هذا الفن ، وقد فضله العرب علي ما سبقه من مؤلفات ، لما وجدوا فيه من حسن التبويب والدقة العلمية ، مع ما تميز به من الإشارة إلي خبرة مؤلفه وتجاربه¹ ، وقد تناول فيه علوم وظائف الأعضاء ، وعلم الأمراض ، وعلم الصحة ، ومعالجة الأمراض ، وعلم الأدوية ، وقد ترجم كتابه " القانون " إلي اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية ، وطبع في أوروبا خمس عشرة مرة .

وكان العمدة في دراسة الطب في الجامعات الأوروبية حتي منتصف القرن السابع عشر².

يقع كتابه " الشفاء " في ثمانية وعشرين مجلدًا ، ويحتوي علي فصول في المنطق والطبيعات والفلسفة ، وقد ترجم كذلك إلي اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية ، وله مؤلفات ورسائل أخرى في الطب والفلسفة والموسيقى ، واللغات والإلهيات والنفس والمنطق والطبيعات والرياضيات والفلك ، والأرصاد والأجرام السماوية ، ومختصر إقليدس والأرثيماتيقي ، وقد ترجمت هذه المؤلفات إلي اللغة اللاتينية وسائر اللغات الأوروبية ، وبقيت عدة قرون مرجعًا لهذه الدراسات .

يقول ابن سينا في تكوين الجبال : الغالب أنها تكونت من طين لزج ، جف علي طول الزمان ، تحجرت في مدد لا تضبط ، فيشبه أن تكون هذه المعمورة كانت في سالف

¹ - التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة - أحمد فوزل باشا - دار المعارف 1993 - القاهرة .

² - الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة - شوقي أبو خليل - دار الفكر المعاصر 2007 - القاهرة .

الأيام غير معمورة¹ ، بل مغمورة في البحار ، فتحجرت ، في مدد لا تقي التاريخيات بحفظ أطرافها ، وكثيراً ما يوجد في الأحجار إذا كسرت أجزاء من الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها .

ويقول في الزلازل : حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته ، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ، ثم يحرك ما فوقه ، والجسم الذي يمكن أن يتحرك تحت الأرض .

تحرك الأرض ، وهو إما جسم بخاري دخاني قوي الاندفاع ، وإما جسم مائي سيال وإما جسم هوائي ، وإما جسم ناري ، وإما جسم أرضي ، والجسم الناري ، لا يكون ناراً صرفة وفي حكم الرياح المشتعلة².

ومن الدليل علي أن أكثر أسباب الزلزلة هو الرياح المحتقنة ، أن البلاد التي تكثر فيها الزلزلة ، إذا حفرت فيها آبار وقنوات كثيرة ، حتي كثرت مخالص الرياح متكاثفة وجهها ، أو مغمورة الوجه بماء يجري أو ماء غمر كثير ، لا يقدر الريح علي خرقه ومن منافع الزلازل تفتح مسام الأرضين ، وإشعار قلوب الناس رعب الله تعالى .

وتحدث ابن سينا عن سرعة الصوت وسرعة الضوء فقال : إن البصر يستبق السمع فإنه إذا اتفق أن قرع إنسان من بعد جسمًا علي جسم رأيت القرع ، قبل أن تسمع الصوت ، لأن الإبصار ليس له زمان ، والاستماع يحتاج إلي آن ، ويتأدي تموج الهواء الكائن إلي السمع ، وذلك في زمان .

وقال عن السحب : إنها تولد من الأبخرة الرطبة ، إذا تصعدت بتصعيد الحرارة فوافقت الطبقة الباردة من الهواء ، فجوهر السحاب بخاري متكاثف طاف في الهواء ، حيث الطل والصقيع والتلج والبرد والضباب ، فالبخار مادة السحاب والمطر والتلج والطل والجليد والصقيع والبرد ، وعليه تتراءى الهالة ، وقوس قزح والشمسيات والنيازك فالهالة دائرة بيضاء ، تامة أو ناقصة ، تري حول القمر وغيره إذا قام دونه سحاب لطيف لا يغطيه ، لأنه يكون رقيقاً ، فإذا وقع عليه شعاع القمر حدث من الشعاع ومنه

¹ - علماء العرب وما أعطوه للحضارة - مرجع سابق .

² - علماء العرب وما أعطوه للحضارة - مرجع سابق .

قطع مستدير ، وقد تكون الشمس هالة وأكثر ما تكون الهالة مع عدم الريح ، فذلك تكثر مع السحب الدواني والهالة الشمسية في الأكثر ، إنما تري إذا كانت الشمس بقرب من وسط السماء .

والبرق يري والرعد يسمع ولا يري ، فإن كان حدوثهما معاً رُئي البرق في آن وتأخر سماع الرعد ، لأن مدي البصر أبعد من مدي السمع .

فإن البرق يحس في الآن بلا زمان ، وأما السمع فيحتاج فيه إلي تموج الهواء او ما يقوم مقامه من أجسام صلبة أو سائلة . وقد أبطل " ابن الهيثم " نظرية السرعة الآتية للضوء التي نادي بها " ابن سينا " ، وأثبت بالتجربة أن للضوء زماناً وسرعة معينة .

تناول " ابن سينا " دراسة النباتات في كتابين ، الأول ما أسماه " الكتاب الثاني في الأدوية المفردة من كتاب القانون " قسم الجملة الأولى إلي ست مقالات في تعرف أمزجة الأدوية المفردة بالتجربة والقياس وقواها .

وقسم الجملة الثانية إلي عدة ألواح وقواعد .

وذكر في كل فصل النباتات التي تتخذ منها الأدوية ، وقليلاً من الحيوانات والمعادن التي تستخلص منها عقاير نافعة ، ونحا في ذكر هذه النباتات منهاجاً خاصاً، فكان يذكر الماهية وفيها يصف النبات وصفاً دقيقاً مقارناً هذا النبات بنظائره مورداً صفاته الأساسية من أصل أو جذر أو زهر أو ثمر أو ورق ، ناقلاً ما ذكره من تقدمه من العلماء من أمثال " ديقوريدس " أو " جالينوس " أو غيرهما ، ثم يذكر بعد ذلك الاختبار فالطبع والخواص .

لقد استقصى " ابن سينا " نسبة كبيرة من النباتات المعروفة آنئذ وأورد مزاجاً مختلفاً من هذه النباتات الشجرية والعشبية والزهرية والفطرية والطحلبية ، ذكر الأجناس المختلفة من النبات ، والأنواع المختلفة من الجنس الواحد ، وتكلم عن المتشابه وغير المتشابه¹.

¹ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء - أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة - الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001 - القاهرة

وافتن في ذكر ألوان الأزهار والثمار جافها وطريها ، والأوراق العريضة والضيقة كاملة الحافة أو مشرقتها ، ومن خير ما أورده ابن سينا الأسماء المختلفة لبعض النباتات من إغريقية وأسماء محلية ، كما فرق بين البستاني أو المنزرع والبري . وتكلم عن ظاهرة المساهة في الأشجار والنخيل وذلك بأن تحمل الشجرة سنة حملاً ثقيلاً وسنة حملاً خفيفاً ، أو تحمل سنة ولا تحمل أخرى ، وأشار إلي اختلاف الرائحة والطعم في النباتات ، وسبق كارل منتر الذي قام بأهمية التشخيص بوساطة العصارة في عام 1934 ، وقد اعتمد وصفه للنبات علي مصدرين الأول الطبيعية ، فيصف النبات غضاً طرياً ، ويتكلم عن طوله وغلظه وورقه وشوكه وزهره وثمره مما يتفق وعلم الشكل الحديث .

والثاني ما يباع جافاً عند العطارين ، من أخشاب أو قشور أو ثمار أو أزهار ، مما يتفق وعلم النبات الصيدلي .

أورد ابن سينا في كتاب " الشفاء " كثيراً من النظريات والآراء حول تولد النبات وذكره وأثناءه وقال إن النبات قد شارك الحيوان في الأفعال والانفعالات المتعلقة بالغذاء إيراداً علي البدن وتوزيعاً ، ويكون الغذاء علي سبيل جذب الأعضاء منها للقوة الطبيعية ليست عن شهوة جنسية ، وليس له من الغذاء إلا ما ينجذب إليه ، إلا عن إرادته كالأعضاء فليس هناك شهوة ، بالحرى إن لم يعط النبات شيئاً ، إذ كان لا سبيل له إلي الحرب عن ضار والطلب النافع ، فالتعرف في الغذاء يدل علي الحياة ، ولكنه لا يدل علي الإدراك والإرادة وتكلم عن الثمار والأشواك ، والنبات السيفي أو الساحلي والسبخي والرملي ، والمائي ، والجبلي ، كما تحدث عن التطعيم بمختلف وسائله وعن النباتات المستديمة الخضرة ، وتلك التي تسقط أوراقها في مواسم معينة .

أما الحيوان فقد عرض ابن سينا في دراساته له نماذج رائعة لوصف مختلف أنواع الحيوان والطيور ، ويقول : من الحيوانات المائية لحية وشطية ، ومنها طينية وصخرية والحيوانات المائية منها ذات ملاصق تلزمها كأصناف من الأصداف ، منها متبرئة أي متحررة الأجساد مثل السمك والضفادع .

والملاصقة منها ما لا تزال تلصق ولا تيرح ، مثل أصناف من الصدف والاسفنج ومنها ما يلصق .

كما تكلم ابن سينا عن العظام والغضاريف والأعصاب والشرابين والأوردة والأغشية والرباطات والحركة الإرادية والطبيعة ، وأسهب في التشريح المقارن بين الحيوانات المختلفة والطيور والأسماك ثم الأجهزة العضلية الهضمية والدورية والتناسلية والتنفسية وإن جولاته في وصف أنواع الحيوان من طير وأسماك وزواحف وثنديات وبرمائيات لمما يذكر له بمزيد من التقدير .

وفي حديثه عن المعادن تعرض ابن سينا لما كان يدعيه أصحاب الكيمياء في موضوع تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة .

وقال : إنه ليس في أيديهم أن يقلبوا الأنواع قلباً حقيقياً .

يعتبر ابن سينا أحد الثلاثة الذين يوضعون علي القمة بين الأطباء المسلمين وهم : أبو بكر الرازي ، وابن سينا ، والزهرابي ، وكانت مؤلفاتهم القديمة في الطب بمثابة المصباح الذي أوقدت منه أوروبا قناديلها في القرون الوسطي وظلت مؤلفاتهم تدرى في الجامعات الأوروبية حتي القرن السابع عشر ، ولم يكد " جوتنبرج " يخترع آلة الطباعة عام 1445 حتي طبعت بها الترجمة اللاتينية لكتبهم ، وأعيد طبعها عدة مرات وبعده لغات .

بحث ابن سينا في أمراض شتى أهمها السكتة الدماغية ، التهاب السحايا ، الشلل العضوي ، والشلل الناجم عن إصابة مركز في الدماغ ، وعدوى السل الرئوي ، وانتقال الأمراض التناسلية ، والشدوذ في تصرفات الإنسان والجهاز الهضمي .

وميز مخص الكلى من مخص المثانة وكيفية استخراج الحصاة منهما كما ميز التهاب البلورة (غشاء الرئة) والتهاب السحايا الحاد من التهاب السحايا الثانوي¹.

الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا والتي تسمى في الوقت الحالي " الاتكلستوما " قد أعاد العالم الإيطالي " دوبيني " عام 1838 ، أي بعد اكتشاف " ابن سينا " لها بتسعمائة سنة تقريباً ، ولقد أخذ جميع المؤلفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة

¹ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - مرجع سابق .

كما أخذت به مؤسسة " روكلفر " الأمريكية التي تعني بجمع كل ما كُتب عن هذا المرض ولذلك كتبت هذا ليطلع عليه الناس ، ويُضيفوا إلى اكتشافات " ابن سينا " العديدة هذا الاكتشاف العظيم لمرض هو أكثر الأمراض انتشاراً في العالم الآن .

كما تطرق " ابن سينا " إلى بعض أنواع الديدان الطفيلية التي تعيش بعيداً عن القناة الهضمية ، مثل : ديدان العين ، التي تُفضّل منطقة العين ، وديدان الفلاريا المسببة لداء الفيل ، الذي يقول عنه ابن سينا هو زيادة في القدم وسائر الرّجل على نحو ما يعرض في عروض الدوالي فيغلظ القدم ويكتفه¹.

كما أنه أول من وصف التهاب السحائي ، وأول من فرق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي ، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم ، مخالفاً بذلك ما استقرّ عليه أساطين الطب اليوناني القديم ، فضلاً عن أنه أول من فرق بين المغص المعوي والمغص الكلوي²، وكان ابن سينا صاحب الفضل في علاج القناة الدمعية بإدخال مسبار معقم فيها ، وهو أيضاً الذي أوصى بتغليف الحبوب التي يتعاطاها المريض ، وكشف في دقّة بالغة عن أعراض الحصاة المثانة السريرية ، بعد أن أشار إلى اختلافها عن أعراض الحصاة الكلوية ، حتي أنه يصعب في هذا العصر أن يُضيف أحد شيئاً جديداً إلى وصف " ابن سينا " لأعراض حصي المثانة السريرية³.

يشيد المختصون بابتكارات ابن سينا في الطب النسوي ، ووصفه الدقيق لحالات النواسير وحمي النفاس والعقم ، وتعليله الصحيح للذكورة والأنوثة في الجنين ، ونسبتها إلى الرجل دون المرأة ، وحالات الانسداد المهبلي والاسقاط والأورام الليفية وغيرها مما يدل علي ممارسته التشريح وعمليات التوليد ، كما كان له باع كبير في مجال

¹ - رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية - علي بن عبد الله الدفاع - دار الرسالة 1998 - القاهرة .

² - في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية - عامر النجار - دار الهداية للطبع والنشر والتوزيع 1986 - القاهرة .

³ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - مرجع سابق .

الأمراض التناسلية ؛ فوصف بدقة بعض أمراض النساء ؛ مثل : الإسقاط ، والأورام الليفية ، واليرقان¹.

وتحدّث عن الأمراض التي يمكن أن تُصيب النفساء ؛ مثل : النزيف ، واحتباس الدم وما قد يسبّبه من أورام وحميات حادّة ، وأشار إلى أن تَعَفُّن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة أو موت الجنين ، وهو ما لم يكن معروفاً من قبل².

كشف ابن سينا لأوّل مرّة طرق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدى والحصبّة وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو ، وقال : إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدّاً لا تُرى بالعين المجرّدة ، وهي التي تسبّب بعض الأمراض .

وهو ما أكّده " فان ليوتيهوك " في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرون من بعده ، بعد اختراع المجهر³.

ويُظهر " ابن سينا " براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة ؛ فقد ذكر عدّة طرق لإيقاف النزيف ؛ سواء بالربط ، أو إدخال الفتائل ، أو بالكي بالنار ، أو بدواء كاوٍ ، أو بضغط اللحم فوق العرق .

كما تحدّث عن كيفية التعامل مع السيّهام واستخراجها من الجروح ، وحذّر المعالجين من إصابة الشرايين أو الأعصاب عند إخراج السيّهام من الجروح ، كما نبّه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامّة بالتشريح⁴.

لقد اتسعت حياة ابن سينا القصيرة التي لم تتجاوز بضعا وخمسين سنة ، حيث أنتج موسوعات ضخمة متنوعة ، فاستحق عن جدارة العديد من الألقاب الدالة عليه ، فهو الشيخ الرئيس ، وهو المعلم الثالث للإنسانية ، وهو الفيلسوف العظيم ، والطبيب البارِع ويكفيه فخراً هذا الاجماع من عدد كبير من جهابذة العلم علي تفضيله وتقديره

¹ - اليرقان : حالة مرضية تمنع الصفراء من بلوغ المعنى بسهولة ، فتختلط بالدم فتصفر بسبب ذلك الأنسجة .

² - القاتون في الطب - الحسين بن علي ابن سينا أبو علي - دار الكتب العلمية 1999 - بيروت .

³ - التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة - أحمد فولد باشا - دار المعارف 1993 - القاهرة .

⁴ - الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات - محمود الحاج قاسم - الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة .

والاعتراف بفضل علي العلم وعلي الانسانية ، وقد توفي الشيخ بعد حياة حافلة سنة 428 هـ / 1026 م¹.

• أوائل ابن سينا :-

كان ابن سينا أول من حقن الإبر تحت الجلد ، وأول من استخدم التخدير لإجراء العمليات الجراحية² ، وأول من درس أمراض المعدة والأمعاء دراسة متعمقة ، وأول من فطن إلي تأثير أحوال النفس في الجهاز الهضمي ، وأول من فرق بين أسباب سلال الوجه وأول من وصف الديدان المعوية ، وأول من وصف الجهاز التنفسي ، والأمراض العصبية وأول من وضع الثلج علي الرأس .

كما كان أول من اكتشف في قسم الطبيعيات ، من كتابه " الشفاء " القانون الأول للحركة في علم " الديناميكا " قبل أن يتحدث اسحق نيوتن عن قوانين الحركة بخمسائة عام ، فالجسم عند ابن سينا يبقي في حالة سكون أو في حالة حركة منتظمة ، وفي خط مستقيم ما لم تجبره قوي خارجية علي تغيير حالته .

وفي الموسيقى ، كان ابن سينا أول من تحدث في كتابيه " الشفاء " ، و " النجاة " عن تأليف الأنغام ، وعن أزمنة الإيقاع ، وعن تقليل حدوث الأنغام الغليظة المنخفضة والأنغام الرفيعة العالية ، وكان أول من تحدث عن السلم الملون ، المكون من أنصاف نغمات متتالية ، وأول من تحدث عن الفواصل الموسيقية المتحدة .

لذلك كان العلماء يقولون : كان الطب معدوماً فأوجده " أبقراط " ، وكان ميتاً فأحياه " جالينوس " ، وكان مشتتاً فجمعه أبو بكر الرازي ، وكان ناقصاً " فأكمله ابن سينا³.

• مؤلفاته ومآثره :-

استطاع ابن سينا أن يضع مؤلفات علمية في مختلف ميادين الحياة مثل كتاب " الشفاء " في الفلسفة ، " القانون " في الطب ، وكتاب " النجاة " ، وكتاب " دانشنامه " في اللغة الفارسية .

¹ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - مرجع سابق .

² - الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات - محمود الحاج قاسم - الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة .

³ - ابن سينا أبو الطب البشري - مرجع سابق .

فقد كان ابن سينا فيلسوفاً من كبار فلاسفة ما وراء النهر وطبيباً من أكبر أطبائه .
إن أعظم تراث علمي له في ميدان الفلسفة هو كتاب " الشفاء " ، الذي يتألف من أربعة أقسام ويقع في اثنين وعشرين مجلداً ، ولكن كتاب " القانون " في الطب هو المؤلف الذي بفضلله ذاع صيت ابن سينا في العالم شرقاً وغرباً ، وأصبح بسببه واحداً من أعظم الأطباء¹ .

ألف ابن سينا مائتين وستة وسبعين مؤلفاً ، كلها كتبت باللغة العربية باستثناء بضع مؤلفات صغيرة كتبها باللغة الفارسية .

إلا أنه وللأسف فقدت أكثر هذه المؤلفات ولم تصل إلينا .

ويوجد حالياً ثمانية وستون مؤلفاً منتشرة بين مكتبات الشرق والغرب ، وقد صنف ابن سينا " العلوم والمؤلفات إلى أقسام مختلفة ، فالعلوم الآلية ، تشتمل على كتب المنطق وما يلحق بها من كتب اللغة والشعر والعلوم والطب ، والعلوم النظرية تشتمل على كتب العلم الكلي ، والعلم الإلهي ، والعلم الرياضي ، والطب النفسي ، والعلوم العملية وتشتمل على كتب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وتدبير المدينة ، والتشريع ، والعلوم الأصلية ، وتشمل الفلسفة ، ويمكن عرض مؤلفاته على النحو التالي :

في الفلسفة:—

كتاب " الإشارات والتنبيهات " ، وفي هذا الكتاب ذهب " ابن سينا " مذهب " أرسطو " وقربه قليلاً إلى الأديان ، وذهب مذهب الفلاسفة من أمثال " أبو نصر الفارابي " ، الذي كان يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني ، ويخصص بالمعاد الأرواح العالمة لا الجاهلة وأعاد تلك الفكرة " ابن سينا " ومما لا شك فيه أن صحبة " ابن سينا " لفلاسفة الباطنية " أبو عبد الله النائي " ، الذي تتلمذ علي يديه في الصغر ، قد أثرت في تفكير " ابن سينا " وهياته للدور الذي لعبه في تنشيط تيار الفلسفة .

فروع وتوابع:—

يعتبر ابن سينا الطب من توابع العلم الطبيعي ، والموسيقى وعلم الهيئة من فروع العلم الرياضي .

¹ - فحول علماء ماوراء النهر - مرجع سابق .

وفي مجال الطب يعتبر أشهر كتب " ابن سينا " الطبية هو كتاب " القانون في الطب " الذي ترجم وطبع عدة مرات ، والذي ظل يُدرس في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر¹ ، بالإضافة إلي عدة كتب أهمها : **كتاب الأدوية القلبية ، كتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية ، كتاب القولنج ، رسالة في سياسة البدن وفضائل الشرب ، رسالة في تشريح الأعضاء ، رسالة في الفصد ، رسالة في الأغذية والأدوية .**

أراجيز طبية : أرجوزة في التشريح ، أرجوزة المجربات في الطب ، الألفية الطبية المشهورة التي ترجمت وطبعت .

في الرياضيات : **مختصر إقليدس ، مختصر المجسطي ، مختصر علم الهيئة ، مختصر الارتماطيقى ، رسالة الزاوية** ، وهي رسالة في بيان علّة قيام الأرض في وسط السماء ، طبعت في مجموع " جامع البدائع " ، في القاهرة سنة 1917 .

في الطبيعيات وتوابعها : **رسالة في إبطال أحكام النجوم ، رسالة في الأجرام العلوية وأسباب البرق والرعد ، رسالة في الفضاء ، رسالة في النبات والحيوان .**

في الموسيقى : **مقالة جوامع علم الموسيقى ، مقالة في الموسيقى** ، ومقالات أخرى وإلّين سينا باع في الشعر العربي وله ديوان منشور .

وقد تُرجمت كتب " ابن سينا " في الطب إلى اللاتينية ومعظم لغات العالم ، وظلّت حوالي ستة قرون المرجع العالمي في الطب ، واستُخدمت كأساس للتعليم في جامعات فرنسا وإيطاليا جميعاً ، وظلّت تدرس في جامعة " مونبلييه " حتى أوائل القرن التاسع عشر .

● من أقوال ابن سينا :-

المستعد للشيء تكفيه أضعف أسبابه .

الوهم نصف الداء ، والاطمئنان نصف الدواء ، والصبر أول خطوات الشفاء .

احذروا البطننة ، فإن أكثر العلل إنما تتولد من فضول الطعام .

¹ - علماء العرب وما أعطوه للحضارة - مرجع سابق .

العقل البشري قوة من قوى النفس لا يستهان بها .

النفس كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة أي من جهة ما يتولد ويربو ويتغذى.

في لفظة إنسانية فإن ابن سينا لما نبغ في الطب قام بعلاج المرضى تأدياً وبالمجان ، لا تكسباً أو لجمع المال ؛ وذلك حباً للخير والاستفادة بالعلم ، وقد وافته فرصة عظيمة عندما نجح في علاج الأمير " نوح بن منصور " وهو في السابعة عشرة من عمره ذلك الأمر الذي عجز عنه مشاهير الأطباء ، فنال بذلك شهرة عظيمة ، كما جعل أمراء هذا البيت يُنعمون عليه ، ويفتحون له دور كتبهم ؛ ليعبّ منها علماً غزيراً لم يتوفر ولم يتحصّل لغيره وعمره لم يأت بعدُ الثامنة عشرة .

استطاع الشيخ الرئيس ابن سينا ، بفضل ما منّ به الله عليه من العقل والعلم وسعة الاطلاع والولع الشديد بالمعرفة ، أن يُقدم للإنسانية أعظم الخدمات والاكتشافات والابتكارات التي فاقت عصرها بالقياس إلى إمكانات ذلك العصر ومدى ما وصلت العلوم فيه آنذاك ، وبالأخصّ في جانب الطب ؛ فإليه يرجع الفضل في اكتشاف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن¹ ؛ إذ إنه أول من كشف عن طفيلة " الإنكلستوما " ، وسماها في كتابه " القانون في الطب " في الفصل الخامس الخاص بالديدان المعوية : الدودة المستديرة ، ووصفها بالتفصيل لأول مرة ، وتحدّث عن أعراض المرض الذي تسببه².

● مكانة ابن سينا عند العلماء :-

اشتهر ابن سينا بالطب والفلسفة واشتغل بهما ، وسماه الغربيون بأمير الأطباء ، وأبو الطب الحديث في العصور الوسطى ، حيث كان العالم الإسلامي يشهد قمة ازدهار حضارته العلمية والثقافية والفكرية ، في الوقت الذي كات فيه أوروبا تعيش عصورها المظلمة ، وقد ألّف 200 كتاب في مواضيع مختلفة ، العديد منها يركّز على الفلسفة والطب .

¹ - القانون في الطب - مرجع سابق .

² - التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة - مرجع سابق .

البروفسور جورج سارتون : ابن سينا أعظم علماء الإسلام ومن أشهر مشاهير العالميين .

إن فكر ابن سينا يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى .

السير ويليام أوسلر : كتاب " القانون " في الطب لابن سينا كان مثل القرآن الكريم الطبي لأطول فترة من الزمن .

يقول الدكتور خير الله في كتابه القيم " الطب العربي " : يصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئاً جديداً إلي وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية .

العالم أوبرفيك : ابن سينا كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره ، وكان من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق .

شكل ابن سينا مدرسة علمية وفلسفية مستقلة ، وقد تأثر بتلك المدرسة الكثير من العلماء والفلاسفة منهم : أبو الريحان البيروني ، عمر الخيام ، الإمام أبو حامد الغزالي ، ابن طفيل ، ابن رشد ، نصير الدين الطوسي ، ابن النفيس ، ألبرتوس ماجنوس ، توما الأكويني ، جاليلو جاليلي وليم هارفي ، رينيه ديكارت ، بازوخ سبيتوزا .

في أرجاء الأرض ، وعلي مدي ثمانية قرون ، انتشرت نصوص كتب ابن سينا بالعربية ، في مكتبات الدنيا ، وانتشرت معها ترجمات وشروح لها باللغات اللاتينية والعبرية ، والألمانية ، والانجليزية ، والروسية ، والفرنسية ، وظل كتابه " القانون " الذي تقترب كلماته من مليون كلمة ، وهو الكتاب العمد في دراسة الطب بالجامعات الأوروبية إلي القرن الميلادي السابع عشر .

وبسبب عبقريته ، والمكانة الذي حظي بها في حياته ، وبعد وفاته ، بعلمه ، وبحياته السياسية العاصفة ، تنازع جنسية ابن سينا كل من العرب ، والفرس ، والترك والتاجيك ، واحتفلوا جميعاً مع بداية العقد الثامن في القرن العشرين ، بالعيد الألف لمولده ، تكريماً لعطائه وذكراه¹ ، وأقامت أوزبكستان جامعة " ابن سينا للطب " في مدينة بخاري .

¹ - ابن سينا أبو الطب البشري - مرجع سابق .

• وفاته :-

أصاب جسد ابن سينا المرض واعتلّ ، حتى قيل إنه كان يمرض أسبوعاً ويشفى أسبوعاً ، وأكثرَ من تناول الأدوية ، ولكن مرضه اشتدّ ، وعلم أنه لا فائدة من العلاج فأهمل نفسه وقال : إن المدبر الذي في بديء عجز عن تدبير بدني ، فلا تنفعنّ المعالجة ، واغتسل وتاب ، وتصدق بما لديه من مال للفقراء ، وأعتق غلمانَه طلباً للمغفرة .

وبدأ بختم القرآن الكريم كل ثلاثة أيام .

توفي في يونيو 1037 م ، الموافق لشهر رمضان المبارك 428 هـ ، في سن الثامنة والخمسين من عمره ، ودفن في " همذان " ¹.

لما توفي كان يُعد أحد عباقرة الفلسفة في الإسلام ، وفي الطب وضع مصاف "جالينوس" حيث أطلق عليه لقب " جالينوس الإسلام " ، وبسبب شهرته الواسعة فقد تسابق للإحتفال بذكره عدة شعوب ، الأتراك هم أول من احتفلوا بذكراه ، عندما أقاموا عام 1937 مهرجاناً ضخماً بمناسبة مرور تسعمائة سنة على ولادته ، ثم هذا حذوهم العرب والفرس ، حيث أقيم مهرجاناً للاحتفال به في كل من بغداد عام 1952 ، وفي طهران 1954 ، وفي عام 1978 دعت منظمة الأمم المتحدة للعلوم والثقافة " اليونسكو " كلّ أعضائها للمشاركة في احتفال إحياء ذكرى مرور ألف عام على ميلاد " ابن سينا " وذلك اعترافاً بمساهماته في مجالي الطب والفلسفة ، وبالفعل فقد استجاب كل أعضاء المنظمة وشاركوا في الاحتفالات التي أقيمت عام 1980 في كل من طشقند ودمشق تحت رعاية اليونسكو .

¹ - تاريخ العرب من الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية - فصل الأحوال العربية قبيل الحروب الصليبية - عيسى الحسن - الطبعة الأولى 2008 - الأهلية للنشر والتوزيع - عمان .

• أبو الريحان البيروني:—

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيرُوني ، ثالث الثلاثة ، الذين ازدهرت بهم الحضارة الإسلامية في الحقبة من منتصف القرن الرابع إلي منتصف القرن الخامس الهجري¹ كان رَحَّالة وفيلسوفاً وفلكياً وجغرافياً وجيولوجياً وعالم رياضيات وصيدلياً ومؤرخاً ومترجماً لثقافات الهند ، وكان له أيضاً اهتمامات في مجال الكتابة الموسوعية². وصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتھا الثقافة الإسلامية ، وهو أول من قال إن الأرض تدور حول محورها ، وقد صنف كتباً تربو عن المائة والعشرين ، ولذلك سميت فوهة بركانية على سطح القمر باسمه إلى جانب 300 اسماً لامعاً تم اختيارهم لتسمية الفوهات البركانية على القمر ومنهم الخوارزمي وأرسطو وابن سينا ، وقد زار العواصم الإسلامية الكبرى ، وعاش في الهند زمناً طويلاً .

• مولده ونشأته :—

وُلِدَ في ضاحية " كاث " عاصمة إمارة خوارزم ، والتي كانت في عهده تابعة لسلالة السامانيين في الخامس من سبتمبر 973 م / 351 هـ ، وقد درس البيروني الرياضيات على يد العالم منصور بن عراق ، الذي عاش خلال الفترة من عام 970 إلي عام 1036³ وعاصر ابن سينا ، الذي عاش خلال الفترة من عام 980 إلي عام 1037 ، وابن مسكويه الذي عاش خلال الفترة من عام 932 إلي عام 1030 ، الفيلسوفين من مدينة الري الواقعة في محافظة طهران ، وتعلم اللغة اليونانية والسكسكريتية خلال رحلاته وكتب باللغة العربية والفارسية⁴.

رحل البيروني إلي " جرجان " وهو في سن الخامسة والعشرين من العمر في عام 376 هـ 999 م ، حيث التحق ببلاط السلطان أبو الحسن قابوس وشمجير شمس المعالي كان البيروني يتردد علي مكتبة بخاري العامة الضخمة التي كان الفيلسوف الإسلامي ابن

¹ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - مرجع .

² - العالم الإسلامي في العصر العباسي - أحمد حسن محمود - دار الفكر العربي 1966 - القاهرة .

³ - العصر العباسي الأول - عبد العزيز الدوري - دار الطليعة - الطبعة الثالثة 1997 - بيروت .

⁴ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

مسكوي "قيماً" مديراً¹ لها¹ وعلي مكتبة بخاري كان يتردد الطبيب الفيلسوف الشاب ابن سينا ، الذي لم يكن عمره يتجاوز الثمانية عشر عاماً، وكانت لابن سينا حظوة في البلاط الساماني ، منذ أن عالج قبل عامين السلطان "نوح بن منصور" من مرض شديد أصابه عجز أطبائه في بخاري عن علاجه².

• حياته العلمية:—

تعارف العالمان الشابان ابن سينا ، والبيروني ، وكان كل منهما قد سمع عن علم الآخر ، وأعان "ابن سينا" صديقه "البيروني" فقدمه إلي السلطان المنصور الثاني فأحسن المنصور لقاءه ، وحاوره ، فأعجب بمعرفته لأربع لغات ، وبعلمه في الرياضيات والفلك ، والنبات ، والطبيعة ، وأجري عليه راتباً شهرياً ، وضمه إلي مجلس علماء قصره³.

وبعد وفاة الأمير المنصور الثاني هاجر البيروني إلي جرجان ، حيث رحب الأمير شمس المعالي به ، وفي بلاط "جرجان" تعرف البيروني علي العالم أبو سهل المسيحي وأنجز كتاب "الآثار الباقية من الأمم الخالية" ، ومعه رسائل ثلاث عن الحساب العشري والرصد الفلكي ، والاسطرلاب الذي عرف من خلاله الفلكيون ارتفاع الكواكب والنجوم ، وفي نفس العام تمكن البيروني من رصد خسوفين للقمر⁴.

نشر البيروني أولى كتبه وهو "الآثار الباقية ، عن القرون الخالية" وحين عاد إلي موطنه ألحق بحاشية الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه الذي عهد إليه ببعض المهام السياسية نظراً لطلاقة لسانه، وعند سقوط الإمارة بيد محمود بن سبكتكين حاكم غزنة عام 407 هـ ، ألحقه بن سبكتكين مع طائفة من العلماء إلي بلاطه ونشر ثاني مؤلفاته الكبرى "تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مردولة" كما كتب مؤلفين آخرين كبيرين هما "القانون المسعودي" ، "التفهيم لأوائل صناعة التنجيم

¹ - العصر العباسي الأول - مرجع سابق .

² - تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي - خليل إبراهيم السامرائي ، وآخرون - مديرية دار الكتب والطباعة والنشر - الطبعة الثانية 1988 - الموصل .

³ - فتوح البلدان - مرجع سابق .

⁴ - الترغيب والترهيب - مرجع سابق .

كان بين البيروني وبين ابن سينا مراسلات ودراسات ، أثمرت أول كتبه المسمى " الآثار الباقية من القرون الخالية " نشره المستشرق الألماني سخاو ، وقد ذهب البيروني في حديثه إلي الهند ، وكانت قد دخلت في الإسلام وقتذاك بعد انتصار جيوش " الغزنوي " ، ودرس هناك العلوم اليونانية ، وأخذ ينهل من مناهل الثقافة والمعرفة الهندية ، وخرج علي الناس بكتابه الكبير في تاريخ الهند " ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مردولة " نشره أيضا المستشرق الألماني سخاو .

استقر البيروني في البلاط الغزنوي بعد عودته من الهند ، وأهدي السلطان المسعودي رسالة في علم الفلك وعنوانها " القانون المسعودي في الهيئة والنجوم " ¹ . وفي نفس السنة التي أخرج فيها هذه الرسالة الفلكية كتب رسالة أخرى في الهندسة والحساب والتنجيم وعنوانها " التفهيم لأوائل صناعة التنجيم " ، وله كتاب في المادة الطبية وعنوانه " كتاب الصيدلة " ، كما ألف كتابًا في الجواهر عنوانه " الجماهير في معرفة الجواهر " ، وله رسالة في المعادن ²

• إنتاجه العلمي والفكري :-

كتب البيروني العديد من المؤلفات في مسائل علمية وتاريخية وفلكية ، وله مساهمات في حساب المثلثات والدائرة وخطوط الطول والعرض ، ودوران الأرض والفرق بين سرعة الضوء وسرعة الصوت ، هذا بالإضافة إلى ما كتبه في تاريخ الهند ، اشتهر أيضًا بكتابه عن الصيدلة والأدوية ، وكتب في أواخر حياته كتابًا أسماه " الصيدلة في الطب " عن ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها .

لم يقصر همه في دراسة العلوم والتأليف فيها علي الفلك والرياضيات والطب ، بل تناول الأدب والتقاويم والتاريخ ، واختص في الفن الأخير ، بتدوين أخبار الأمم الشرقية عامة ، والأمة الهندية بصفة خاصة ، فقد استقصى حوادث الهند وأخبارها وأساطيرها ووصف عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وأزياءها في إفاضة عجيبة وأخذ بالأطراف ، ولهذا

¹ - الوزراء والكتاب - محمد بن عديس الجهشباري - تحقيق : مصطفى السقا ، وآخرون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى 1938 - القاهرة .

² - دراسات في العصور العباسية المتأخرة - عبد العزيز الدوري - مطبعة السريان 1945 - بغداد .

أجمع العلماء علي أن تأليفه في التاريخ من خير المراجع لاستطلاع أخبار الشعوب الشرقية وحوادثها وأساليب معيشتها¹.

ربما كان البيروني أول من أشار إلى وجود الجاذبية حين قال " إن الأجسام تسقط على الأرض بسبب قوى الجذب المتمركزة فيها " ، وهذا التعبير فتح الآفاق لنيوتن ليعطيه معنى أكثر شمولية بقوله : " كل جسم في الكون يؤثر بقوة جذب على جسم آخر ومقدار هذه القوة يتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسياً مع مربع المسافة بينهما "

وقد كتب البيروني معظم مؤلفاته باللغة العربية ، وكان بارعاً في الكتابة باللغة الفارسية أيضاً ، وفي دور الكتب الأوروبية جملة طيبة من مؤلفاته القيمة يرجع إليها المستشرقون في بحوثهم.

ويعتبر كتابه " القانون المسعودي " من أضخم مؤلفاته ، ويشمل 142 باباً ، وكانت دراساته في الفلك مبنية علي البحث والتجربة الشخصية ، التي توصل إليها بعمله المستمر وسياحاته المتواصلة ، ودأبه علي العمل بلا انقطاع .

وقد حصرت مؤلفات البيروني ما بين مطبوع ومخطوط ، وموجود ومفقود ، فبلغت نحو مائة وثمانين كتاباً ورسالة .

ويقول المستشرق سخاو : إنَّ البيروني من أضخم العقول التي ظهرت في العالم ، وإنه من أعظم علماء عصره ومن أعظم العلماء الكبار واسعي الأفق الذين يمتاز بهم العصر الذهبي للإسلام ، ويقول المستشرق الأمريكي أريو بوب : في أية قائمة تحتوي أسماء أكابر العلماء ، يجب أن يكون لاسم البيروني مكانه الرفيع ، ومن المستحيل أن يكتمل أيُّ بحث للرياضيات أو الفلك أو الجغرافيا أو علم الإنسان أو المعادن دون الإقرار بمساهمته في كل علم من تلك العلوم .

ولقد كان البيروني من أبرز العقول المفكرة في جميع العصور ، وكان يتميز بالصفات الجوهرية التي تخلق العالم ، فالبيروني بذلك مظهر من مظاهر الشمول وعدم التقيد بالزمن شأن العقول العظيمة ، فإنه لفي الإمكان تجميع عدد كبير من الاقتباسات من

¹ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - مرجع سابق .

مؤلفات البيروني ، كتبها منذ ألف سنة ، وهي تسبق كثيراً من المناهج والمواقف العقلية التي يفترض اليوم أنها حديثة .

كان البيروني يتميز بروحه العلمية وتسامحه وإخلاصه للحقيقة ، وفي رأيه أن مطالب الحياة تستلزم إيجاد فلسفة علمية ، تساعد الإنسان في تصريف الأمور وتمييز الخير من الشر والعدو من الصديق ، ومن رأيه أن العلم اليقيني لا يحصل من إحساسات يؤلف بينها العقل علي نمط منطقي ، ويرى في وحدة الاتجاه العلمي في العالمين الإسلامي والغربي اتحاداً للشرق والغرب ، وكأنما كان يدعو إلي إدراك وحدة الأصول الإنسانية والعلمية بين الشعوب في عالم واحد¹.

ويعتبر البيروني واضع أصول الرسم علي سطح الكرة ، وله بحوث في تصحيح أطوال البلدان بالكسوفات ثم بما فيها من مسافات ، وفي استخراج المسافة بين بلدين معلومي الطول والعرض ، والطريق الصناعي لمعرفة سمت القبلة وخواص المدارات واستخراج الأوتار والتجيب والتقوس ، والشكل والقطاع الكروي والنسب الواقعة بين جيوبه .

ومن رأي بعض العلماء أن البيروني سبق " نيوتن " بعدة قرون في معرفة أن الفترات المتساوية بين الزوايا لا تقابلها تغيرات متساوية في الجيوب ، وله كتاب في استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني فيها ، كما أن له كتب ورسائل في الطب والتاريخ والفلك والظواهر الجوية والآلات الفلكية والمذنبات .

ولقد أصدرت أكاديمية العلوم السوفيتية عام 1950 مجلداً بعنوان البيروني ، ونشر تحت إشراف المستشرق " تولستوف " بمناسبة مرور ألف سنة هجرية علي مولده .

كما صدر في الهند المجلد التذكاري للبيروني عام 1951 يحوي عشرات البحوث والمقالات عن البيروني ، وذلك احتفالاً بذكراه واعتراًفاً بفضل².

كشف " البيروني " للعلماء عن أن سرعة الضوء أكبر من سرعة الصوت ، وحدد لهم الفرق بدقة بالغة بين درجة حرارة الماء الساخن والماء البارد ، وعلل لتمدد المعادن

¹ - البيروني عالم الجغرافيا الفلكية - سليمان فياض - مركز الأهرام للترجمة والنشر - الطبعة الثانية 1992 - القاهرة .

² - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه - مرجع سابق .

بالحرارة وانكماشها بالبرودة ، وشرح للعالماء الكيفية التي تصعد بها مياه الفوارات " **العيون** " إلي أعلي ، إلي القلاع ورؤوس المنارات ، والكيفية التي تتجمع بها مياه الآبار بالرشح من الجوانب ، وبصورة موازية لمصادر المياه القريبة ، وكيفية حدوث الينابيع الطبيعية ، والآبار الصناعية " **الارتوازية** " باستخدام قوانين توازن السوائل . وعرض عليهم تطبيقات يمكن أن تستثمرها الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها¹ .

عمل **البيروني** علي تحديد الوزن النوعي لأثني عشرة مادة من المعادن ، بواسطة ورق له ميزاب مائل إلي أسفل ، والماء في مستوي الميزاب فإذا أُلقي بمعدن فيه فاض الماء من الميزاب ، في جفنة ، وبوزن الماء المنسكب ، يتحدد الوزن النوعي لهذا المعدن ، وكان من بين هذه المعادن : الذهب ، والزئبق ، والنحاس ، والنحاس الأصفر والحديد ، والقصدير ، والرصاص ، واللازورد ، والياقوت ، والزمرد والعقيق ، والكوارتز . وكان تحديده لوزن المعادن النوعي دقيقاً إلي درجة أنه لم تختلف عن وزنها الحديث في بعض منها ، إلا بضع درجات من مائة درجة . وكانت هذه المحاولة من البيروني هي الأساس لوزن العناصر في جدول مندليف في العصر الحديث .

كما عرض البيروني وصفه للجواهر والمعادن والفلزات ، وطرق استخراجها من المناجم ، وكيفية استخلاصها من بعضها البعض ، وكشف عن الخواص الطبيعية والكيميائية للفلزات .

قدم البيروني للسلطان المنصور كتابين ، الأول " **الجماهير في معرفة الجواهر** " والثاني " **النسب التي بين الفلزات والجواهر في الحجم** " (**الوزن النوعي**) فأمر السلطان بضمها إلي مكتبته ، ونسخها لعلماء بخاري ، وكافأ " **البيروني** " علي إنجازاته العلمية².

¹ - البيروني عالم الجغرافيا الفلكية - مرجع سابق .

² - المسالك والممالك - مرجع سابق .

وقال له : ظننتك عالم فلك مرة ، وعالم نبات مرة ، وها أنت تؤكد لنا أنك عالم طبيعيات ، فأبي عالم أنت يا أبا الريحان ؟
فقال له : العلم وحدة متصلة الحلقات يؤدي بعضها إلي بعض ، وكلها أساس لبعضها البعض .

ومن تبحر في علم توصل به إلي باقي العلوم .
والأساس فيها كلها هو الطريقة والمنهج ، بالمشاهدة ، والملاحظة ، والاستقراء والتجربة للتثبت من النتائج ، والتحفظ من الخطأ والصواب .

بعد أن أقام البيروني في " جرجان " سبع سنوات ، خرج منها بعد أن اضطربت أحوال البلاد إثر ثورة أطاحت بعرش الأمير " شمس المعالي " ، فشد رحاله إلي " الجرجانية " عاصمة الدولة الخوارزمية ، حيث رحب به الأمير المأمون وعهد إليه بمهام سياسية داخل خوارزم ، ورغم أن الأعمال السياسية شغلت " البيروني " عن إنجاز الكثير من أعماله العلمية ، إلا أنه استطاع أن يقيم ، حلقة رصد كبيرة ، أجري بها خمسة عشر رسداً لارتفاعات الشمس في أوقات الزوال ، وصنع كرة قطرها عشرة أذرع ، رسم عليها الحلول التي يراها لبعض المسائل الجغرافية ، ورسم عليها الأقاليم والبلدان والبحار ، وحدد عليها خطوط الطول والعرض ، فكان بهذا العمل أول من وضع أصول الرسم للخرائط علي سطح الأرض¹.

وبفضل طريقة ابتكرها البيروني ، عمل خريطة مستديرة للعالم ، ونقلها من صورة الأرض الكروية إلي الورق المسطح لأول مرة ، مستعيناً بالمعلومات التي حصل عليها نتيجة لانتشار الإسلام في أفريقيا وآسيا وغربي أوروبا .

ولم تكن تلك المعلومات معروفة علي عهد اليونان والرومان . كما ابتكر طريقة جديدة لعمل النماذج الجغرافية المجسمة ، وأنجز كتاب " التفهم لأوائل علم التنجيم " ، و " تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن " و " الكتاب في الاسطرلاب " .

وفي كتاب " القانون المسعودي " كتب البيروني عن أقاليم العالم السبعة ، وعن شعوب إقليم " بيكال " في سيبيريا الشرقية ، وعن الشعوب الاسكندنافية ، وعن الصناعات

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

المعدنية في أوروبا الشمالية ، وعن بحر التلج في الشمال الشرقي من أوروبا ، ووصف سلسلة الجبال المتصلة من جبال " الهيمالايا " بالهند إلى جبال الألب في أوروبا . وتحدث عن عمران الجهة المقابلة للعالم من الأرض " الأمريكتين " حالياً ، وقد أكدت رحلة " كولمبوس " بعد قرون صدق نبوءته¹.

شرح البيروني مع التعليل ، ظاهرة المد والجزر علي نهج يتسق مع أوجه القمر . وفسر تكوين السهول والجبال ، والقشرة الأرضية ، والثورات الجيولوجية التي تتتابها بالزلازل والبراكين والفيضانات ، فيصير البحر براً ، والبر بحراً ، وبرهن لأول مرة علي اتصال المحيط الهندي بالمحيط الأطلنطي ، وكان له الفضل الأول في معرفة جغرافية جنوب أفريقيا .

رافق البيروني السلطان محمود الغزنوي في حروبه بالهند منذ عام ألف وعشرين ميلادية ولمدة سبع سنين قام خلالها بثلاث عشرة رحلة² ، استطاع خلالها أن يحدد بالأرصاد خطوط العرض لإحدى عشرة مدينة هندية ، من بين خمس وستين مدينة زارها ، ونجح " البيروني " ، وهو مقيم بحصن " نندانا " ، أن يعرف قطر الأرض وطول محيطها ، مستعيناً بمسقط ظل لجبل ، بالحسابات الرياضية الهندسية ، وخرج " البيروني " من هذه الرحلات بحصاد من الكتب ، أهمها كتاب نقدي تاريخي عن حضارة الهند بعنوان " تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرنولة " وضم هذا الكتاب معلومات عن الهند كانت جديدة علي المسلمين في زمانه ، وظلت جديدة علي الثقافة الغربية الحديثة إلي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد ترجم هذا الكتاب منذ عصر النهضة الأوروبية الحديثة إلي عدد من اللغات الأوروبية واشتهر بين علماء الجغرافيا والتاريخ في أوروبا باسم " تاريخ الهند " .

نقل البيروني إلي العالم الأرقام الحسابية الغبارية من الهند إلي العرب ، وهذه الأرقام المستعملة الآن في بلاد الشمال الأفريقي ، ولم تعرف أوروبا هذه الأرقام عن العرب إلا بعد قرنين من وفاة البيروني ، وهي أرقام قائمة علي الزوايا الهندسية .

¹ - البيروني عالم الجغرافيا الفلكية - مرجع سابق .

² - ضحى الإسلام - أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة العاشرة 2000 - القاهرة .

بعد وفاة السلطان محمود الغزنوي عام 1030 م ، خلفه السلطان مسعود ، الذي كان محباً للعلم ، فأولي البيروني رعاية كبيرة ، فاستطاع إنجاز كتابه النفيس في علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا " القانون في علوم الهيئة والنجوم " ¹ ، سجل فيه مبادئ علم الفلك ، وعلم التواريخ الرياضي ².

الذي يبحث في تواريخ " تقاويم " الأمم المختلفة ، وكيفية تحويل بعضها إلي بعض . وفي هذا الكتاب برهن البيروني علي كروية الأرض ، وكروية النجوم والكواكب الثابتة والكواكب السيارة ، وعلي دوران الأرض حول الشمس ، ودوران القمر حول الأرض فسبق ببراهينه علماء الفلك الغربيين بنحو ستة قرون .

وكان أسبق علماء الفلك في العالم ، في اكتشاف الحركة المحورية للأرض حول نفسها علي محور مائل ، واكتشاف الحركة الدورية للأرض حول الشمس مرة في كل سنة . وقدم تصوراً لقوة الجاذبية الأرضية ، كان أحد براهينه علي دوران الأرض حول نفسها برهن البيروني في كتاب " القانون " علي أن للنجوم حركة حول محور فلك البروج . وحدد مواقع ألف وتسعة وعشرين نجماً ، ووضع كل نجم منها في مجموعته بدقة ، في خرائط فلكية للسموات، وساق توضيحاً هندسياً لحركة الكواكب ، وربط بين حركاتها وحركة الأرض حول الشمس ، ولمسار الأرض ³.

وقاس طول السنة ، وعرف فصولها ، والاعتدالين ، وعين أوقاتهما . ووضع البيروني قانونه الشهير باسمه ، لمعرفة قطر الأرض ، وطول محيطها في خط عرض " نندانا " بالهند ، علي بعد مائة كيلو متر من مدينة إسلام آباد . ولم يزد الفرق الذي حدده البيروني لنصف قطر الأرض بقانونه الأرضي عن أربعة عشر كيلو متراً إلا قليلاً .

وهو القانون الذي يعرفه طلاب المدارس الآن في دراستهم للجغرافيا .

¹ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - حسن إبراهيم حسن - دار إحياء التراث العربي - الطبعة السابعة 1966 - القاهرة .

² - تاريخ اليعقوبي - مرجع سابق .

³ - الوافي بالوفيات - مرجع سابق .

وضع البيروني طريقة رياضية جديدة ، لتحديد الجهات الأربع الأصلية ، أينما كان الإنسان علي الأرض ، في البر والبحر ، وشرح البيروني مع التعليل والرسوم كسوف الشمس وخسوف القمر ، وشفق ما بعد الغروب ، وأسباب ظهور الفجر قبل شروق الشمس واكتشف أن نقطة بُعد الشمس عن الأرض ، تتحرك درجة واحدة كل خمس وثلاثمائة سنة¹.

وتحدث البيروني في قانونه علي ما يزيد عن ستمائة بلد ومكان ، وصحح مواقعها علي خطوط الطول ، معتمداً علي وقت حدوث خسوف للقمر في مكان مجهول ، وآخر معلوم الطول ، وعلي وقت الزوال في كل بلد لتحديد خطوط العرض ، وعرف من الفروق في أوقات الخسوف والزوال المسافة بين البلدان ، كما تحدث عن هيئة الأرض وتضاريسها ، فوضع بذلك أساس علم الجيوديسيا " علم الأرض "².

قدم البيروني في قانونه جداول رياضية ، استعمل فيها النسب المثلثية ، وأوجد من المساحة أطوال أضلاع الأشكال الهندسية المنتظمة .

وكان أول من توصل من علماء الرياضيات إلي إيجاد النسبة التقريبية " ط " ، وعرف طريقة التقريب المتتابع التي يعرفها علماء الرياضيات في العصر الحالي . ونجح في استنباط قوانين رياضية جديدة من نظرية أرشميدس " القديمة عن الخط المنكسر "³.

يعترف سميث في كتابه " تاريخ الرياضيات " بأن البيروني كان ألمع علماء عصره في الرياضيات ، وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها ، في العلوم وكان يكتب كتبه مختصرة منقحة وبأسلوب مقنع وبراہین مادية .

وهو من الذين بحثوا في تقسيم الزاوية إلي ثلاثة أقسام متساوية وكان ملماً بحساب المثلثات ، وكتبه فيها تدل علي أنه عرف قانون تناسب الجيوب⁴ ، وقد عمل جداول

¹ - البيروني عالم الجغرافيا الفلكية - مرجع سابق .

² - الأعلام - مرجع سابق .

³ - البيروني عالم الجغرافيا الفلكية - مرجع سابق .

⁴ - نوابغ المسلمين في العلم والمعرفة - محمد حسن أبو دينا - دار المعارف - القاهرة .

رياضية للحبيب والظل . وكذلك برع البيروني في الطبيعة ولا سيما الميكانيكا والأيدروستاتيكا ، وله شروح في ضغط السوائل وتوازنها ، وصعود مياه الفورارات والعيون إلي أعلي ، وله نظرية في استخراج محيط الأرض وردت في كتابه " الاسطرلاب " واستعمل معادلة لحساب نصف قطر الأرض ، يسميها بعض العلماء الغربيين قاعدة البيروني :

$$\text{ف - جتان} \\ \left(\frac{\text{س}}{\text{1 - جتان}} \right)$$

في كتابه " الصيدلة " تناول " البيروني " البحث في المادة الطبية علي نسق مشابه لنسق الطبيب الروماني " ديوسقوريدس " طبيب الامبراطور " نيرون " في القرن الأول الميلادي وكان " ديوسقوريدس " قد سجل ستمائة نبات طبي ، فزادها " البيروني " إلي خمسة أضعاف .

وبفضل معرفة " البيروني " للغات ، والعادات والتقاليد ، ودراسته علي يد العالم اليوناني لعالم النبات ، صحح أسماء النباتات الطبية ، وصنفها علي حروف المعجم بأسمائها العربية ، ومرادفاتها في اللغات الأخرى ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، مستعيناً بمن يثق بهم من علماء النبات والأطباء ، وتحدث عن خصائصها الطبية ، ومن بين ما تحدث عنه : الشاي الصيني ، ونبات البنج الشديد السم ، وخواصه المسكنة ، ونبات متسلق يحمل لبياً أحمر ، هو نبات " ظل الليل المر - الحلو " ، المسكن لآلام الأذن والأسنان ، والفطريات الصالحة للأكل بعد طهيها ، وبدائل العقاقير النباتية .

عاش البيروني حياة علمية حافلة استمرت نحو خمسين عاماً ، أنجز خلالها ثمانية مؤلفات كبرى في علم الفلك ، وكتباً أخرى مفردة في : التنجيم ، والجغرافيا ، والصيدلة والتاريخ ، ومائة واحد عشر رسالة علمية في : الاسطرلاب ، وقياس الزمن ، والجيوديسيا والحساب ، والهندسة ، والمثلثات ، والأرصاء الجوية ، والمعادن والجواهر ، والتاريخ ، والدين

والفلسفة ، والعقائد . وستة عشر كتاباً في الأدب . ساق فيها أشعاراً ، وقصص أساطير للهنود والفرس¹ .

لم يعط البيروني كل هذا العطاء إلا بفضل منهجه العلمي المتقدم ، القائم علي البحث عن الحقائق العلمية ، بالمشاهدة ، والملاحظة ، والاستقراء ، والاستنباط للقوانين واختبار هذه القوانين قبل أن يمكن وضعها في نظرية ، وكذلك بفضل روح العالم المؤمن ، الذي يؤكد علي أن العلم له القدرة علي أن يصنع الوحدة الشاملة بين العقول لإزالة التنافر بين الناس ، وتقريب بعضهم إلي بعض .

وتقديرًا لفضل البيروني ، ومكانته العلمية ، فقد أنشئت في طشقند جامعة تحمل اسمه " جامعة البيروني " ، وأقام المتحف الجيولوجي بجامعة موسكو تمثالاً له ، بجوار تماثيل عمالقة الجيولوجيا العظام في العالم ، وأصدرت أكاديمية العلوم الروسية مجلدًا عن " البيروني " ، وأبحاثه ومؤلفاته ، وتقديرًا لفضل البيروني علي الهند أصدرت الهند عنه مجلدًا تذكاريًا باللغات الانجليزية والإيطالية والفرنسية والأوردية ، وضم أبحاث " البيروني " الباقية في كل علم ، ومعها ترجمة موجزة لحياته ، وكلمة عن مكانته ، وعن دوره في تاريخ العلم .

وتهتم بالعالم الكبير " البيروني " جامعات : ليننجراد ، برنستون برلين ، وتحقق أبحاثه التسعة عشر الباقية من كتبه ، وتبحث عن بقية كتبه المفقودة بين محفوظات المكتبات العامة والخاصة في أنحاء العالم .

● مؤلفاته :-

كان لمؤلفات البيروني اليد الطولى في صناعة أمجاد عصر النهضة والثورة الصناعية في العالم الغربي ؛ فقد حدّد بدقة خطوط الطول وخطوط العرض ، وناقش مسألة ما إذا كانت الأرض تدور حول محورها أم لا ، وسبق في ذلك جاليليو وكوبرنيكوس ، إضافةً إلى اكتشافاتٍ أخرى عديدة² .

¹ - البيروني عالم الجغرافيا الفلكية - مرجع سابق .

² - نوابغ المسلمين - د . مصطفى وهبة - مكتبة جزيرة الورد - المنصورة .

وقد ترك البيروني العديد من المؤلفات لم تقتصر علي العلوم البحتة والتطبيقية ، فالإلي جانب الثروة العلمية الكبيرة في الجغرافيا والفلك والرياضيات والهندسة ، ترك إبداعات شعرية وأدبية رائعة ، ومن هذه المؤلفات :

كتاب " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " ، ويعرف أيضاً باسم كتاب " الطائر الصيت " ، وهو أهم وأوسع كتاب في وصف عقائد الهندوكيين ، وشرائعهم وعاداتهم في زواجهم وأطعمتهم وأعيادهم ، ونظم حياتهم ، وخصائص لغتهم¹ .

في الجغرافيا :-

تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض ، وتحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن ، و الاستيعاب في سطح الكرة .

في التاريخ :-

تصحيح التواريخ ، الآثار الباقية عن القرون الخالية : وهو كتاب مفيد ألفه لشمس المعالي قابوس وبين فيه التواريخ التي يستعملها الأمم والاختلاف في الأصول التي هي مبادئها ويبرون بالباء والنون بلد بالسند كما في عيون الأنباء وقال السيوطي هو بالفارسية البراني سمي به لكونه قليل المقام بخوارزم وأهلها يسمون الغريب بهذا الاسم وهذا الكتاب تحقيق سخاو أيضاً .

في الفلك كان له مؤلفات عديدة ، مثل :-

الاستشهاد باختلاف الأرصاد : وقال أن أهل الرصد عجزوا عن ضبط أجزاء الدائرة العظمى بأجزاء الدائرة الصغرى فوضع ها التأليف لإثبات هذا المدعي ، واختصار كتاب بطليموس القلوزي ، والزيج المسعودي ، والاستيعاب لوجه الممكنة في صناعة الإسطرلاب وتعبير الميزان لتقدير الأزمان ، القانون المسعودي في الهيئة والنجوم : ألفه لمسعود بن محمود بن سبكتكين " محمود الغزنوي " في سنة إحدى وعشرين وأربعمئة هذا فيه بطليموس في المجسطى وهو من الكتب المبسطة في هذا الفن والإرشاد في أحكام النجوم .

¹ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - مرجع سابق .

في الرياضيات :-

أثرَ عن البيروني مؤلفاتٌ عدَّة ؛ كاستخراج الكعاب والأضلاع وما وراءه من مراتب الحساب ، وكتاب الأرقام كتاب استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني¹ في الأدب :

شرح ديوان أبي تمام ، ومختار الأشعار والآثار .

في الفيزياء :-

الجماهير في معرفة الجواهر : قام البيروني في هذا الكتاب بوصف الجواهر والفلزات وهو من أوائل من وضع وزن النوعي لبعض الفلزات والأحجار الكريمة وذكر أن الكثير من الجواهر الثمينة متشابهات في اللون وقد وصف الأحجار الكريمة مثل الياقوت واللؤلؤ والزمرد والألماس والفيروز والعقيق والمرجان والجست " الكوارتز " وغيرها من الأحجار الكريمة وذكر أيضا الفلزات مثل الزئبق والذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، و كتاب الأحجار .

وغير ذلك كان له مؤلفات عديدة في مثل : كتاب المقالات والآراء والديانات ، ومفتاح علم الهند ، وجوامع الموجود في خواطر الهندود ، و العجائب الطبيعية والغرائب الصناعية : تكلم فيه على العزائم والنيرنجيات والطلسمات بما يغرس به اليقين في قلوب العارفين ويزيل الشبه عن المرتابين² ، وكتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم : وهو علم يبحث عن التدرج من أعم الموضوعات إلى أخصها ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعم ولما كان أعم العلوم موضوعا العلم الإلهي جعل تقسيم العلوم من فروعه ويمكن التدرج فيه من الأخص إلى الأعم على عكس ما ذكر لكن الأول أسهل وأيسر وموضوع هذا العلم وغايته ظاهر ، التعليل بإحالة الوهم في معاني النظم ، تجريد الشعاعات والأنوار ، التنبيه في صناعة التموي ، الشموس الشافية .

¹ - موسوعة علماء العرب والمسلمين - د . محمد فارس - دار الأرقم بن أبي الأرقم - القاهرة .

² - حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي - جلال مظهر - مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى 1974 - الرياض .

وبهذه المؤلفات يكاد البيروني يكون قد أَلَّفَ في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة¹ .

● وفاته :-

تُوفي البيروني في مدينة غزنة المعروفة باسم كابول عاصمة أفغانستان حاليًا ، يوم الثلاثاء الثالث من رجب ، سنة أربعمائة وأربعين هجرية ، الثالث عشر من ديسمبر عام ألف وثمان وأربعين ميلادية² ، بعد عمر حافل ناهز تسعين عامًا ، وأطلق عليه المستشرقون تسمية بطليموس .

وكانت وفاته ختام حياة حافلة لرجل حكيم وعظيم ، وفي وفاته يحكي أبو الحسن علي ابن عيسى فيقول : دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه .

فقال لي : كيف قلتَ لي يوماً في حساب الجدّات الفاسدة ؟

فقلت له إشفافاً عليه : أفي هذه الحالة ؟

قال : يا هذا ، أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيراً من أن أخلّيها وأنا جاهل بها ؟

فأعدتُ ذلك عليه وحفظ ، وعلمني ما وعد ، وخرجت من عنده ، وأنا في الطريق فسمعت الصراخ عليه³ .

¹ - أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم - عبد الرحمن حميدة - دار الفكر - القاهرة .

² - البيروني عالم الجغرافيا الفلكية - مرجع سابق .

³ - تطور الفكر العلمي عند المسلمين - د . محمد الصادق عفيفي - الهيئة المصرية العامة للكتاب 2010 - القاهرة

• عبد القاهر الجرجاني:—

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، الإمام النحوي ، فقيه على مذهب الشافعي ، وأحد علماء الكلام على مذهب الأشاعرة ، أحد أهم مؤسسي علم البلاغة العربية ، كان ورعاً قانعاً ، عالماً ، ذا نسك ودين ، وغلبت عليه شهرة اللغوي النحوي .

• مولده ونشأته :—

وُلِدَ عبد القاهر الجرجاني عام 471هـ - هـ ، في جرجان لأسرة رقيقة الحال ، نشأ ولعاً بالعلم ، مُحِبّاً للثقافة ، فأقبل على الكتب ينهل منها ، وخاصة كتب النحو والأدب¹ ولأنه نشأ فقيراً في أسرة رقيقة الحال ، لم يجد فضل مال يُمكنه من أخذ العلم خارج مدينته جرجان ، على الرغم من ظهور ولعه المبكر بالعلم والنحو والأدب ، وقد عوّضه الله عن ذلك بعالمين كبيرين كانا يعيشان في جرجان هما : أبو الحسين بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي ، نزيل جرجان ، والقاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، قاضي جرجان من قبل صاحب بن عبّاد .

اشتهر شهرة كبيرة ، وذاع صيته ، ليصبح عالماً وأستاذاً ، فجاء إليه طلاب العلم من جميع البلاد يقرءون عليه كتبه ويأخذونها عنه ، وكان عبد القاهر يعتز بنفسه كثيراً ويكره النفاق ، ولا يذل نفسه من أجل المال ، ووصل عبد القاهر الجرجاني لمنزلة عالية من العلم ، ولكنه لم يُقدّر التقدير الذي يستحقه .

ما تركه عبد القاهر الجرجاني من آثار تُشير بأنّه قد أحاط علماً بما صنّفه السابقون عليه في علوم الدين والفلسفة والكلام والأدب واللغة ، وأدلى بدلوه فيما عرضوا له من قضايا ومشاكل ، بالإضافة إلى ما حُفِظ وُجِع له من شعره ، فيتّضح من آثاره وإحاطته بما كتب أبو عمرو بن العلاء ، والخليل ، ويونس ، والأخفش ، وسيبويه ، وابن قتيبة وأبو هلال العسكري ، وغيرهم² .

¹ - أنباه الرواة على أنباء النحاة - جمال الدين علي بن يوسف القفطي - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الكتب 1952 - القاهرة .

² - الجرجاني بلاغته ونقده - أحمد عبد القاهر مطلوب - وكالة المطبوعات 1973 - الكويت .

اشتهر عبدالقاهر بسعة الصدر ، وطول النفس في مناقشة معاصريه ؛ مما يثبت خلاف ما يرى البعض ، وكذلك في استطراداته في مصنفاته التقليدية ، وفي استقصاءاته في نظريته التجديدية ، يُضاف إلى ذلك ما يفهم مما قاله صراحةً من ولائه للعلم ، وبقائه على عهده ، فهو الصديق الذي لا يدخل في الوُدِّ ، والصاحب الذي لا يصحُّ عليه النكت والعدر .

على الرغم من ضيقه بعصره وأخلاق معاصريه ، إلا أنه انصرف إلى العلم حباً فيه وإخلاصاً ووفاء ، وكان تأثره بأستاذه ابن أخت أبي عليّ الفارسي شديداً ، وانتقل منه إعجابه بخاله وبمصنفاته ؛ فوعاها وترسم خطاها على نحو ما كانت منه .

● شيوخه :-

أخذ عبد القاهر الجرجاني العلم عن أبي الحسين محمد الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي ، كما أخذ الأدب على يد القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني ، وقرأ كتابه الوساطة بين المتبني وخصومه .

وكان الشيخ عبدالقاهر الجرجاني قد قرأ عليه واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره في كتبه تبخّخ به ، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه¹.

كما تتلمذ عبد القاهر الجرجاني على آثار الشيوخ والعلماء الذين أنجبته العربية ، فنحن نراه في كتبه ينقل عن سيويه والجاحظ وأبي علي الفارسي وابن قتيبة وقدامة بن جعفر والآمدي والقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري وعبد الرحمن بن عيسى الهمداني والمرزباني والزجاج .

● تلاميذه :-

تصدر عبد القاهر الجرجاني مجالس جرجان يفيد الراحلين إليه والوافدين عليه ، وقصده طلاب العلم من كل صوب ، ومن تلامذته المشهورين الواردين إلى العراق والمتصدرين ببغداد على بن زيد الفصيح ، قيل عنه : إنه النحوي الحاذق بما أخذ عن عبدالقاهر ، وأبو زكريا التبريزي ، والإمام أبو عامر الفضل بن إسماعيل التميمي

¹ - معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب - ياقوت الحموي - تحقيق : إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي

الجرجاني ، وأبو النصر أحمد بن محمد الشجري ، وهو من العلماء المبرزين في اللغة والنحو بعامة¹.

• منهجه العلمي:-

يعتبر عبد القاهر الجرجاني مؤسس علم البلاغة العربية ، أو أحد المؤسسين لهذا العلم وقد تبحر الجرجاني في علوم النحو واللغة والبلاغة ، ووضع " الرسالة الشافية في الإعجاز " لتأكيد عمله المنهجي في هذا الموضوع المهم ، وخالف رأي الكثيرين في الإعجاز ، حين زعموا أن إعجاز القرآن ، إنما هو " بالصرفة " ، أي أن الله صرف العرب عن مضاهاة القرآن ، فدفع هذه الفكرة بقوة وإصرار ، وألح على تبليان فسادها في مؤلفاته عن الإعجاز ، معتبراً أن إعجاز القرآن ليس " بالصرفة " ، وإنما هو في فصاحته وبلاغته.

يرى الجرجاني أن الفصاحة والبلاغة ، هما مصدر الإعجاز في القرآن ، لا عن طريق تخير الألفاظ ولا الموسيقى ولا الاستعارات وألوان المجاز ، وإنما عن طريق النظم ، إذ إن نظم القرآن وتأليفه ، ه مصدر الإعجاز فيه ، حيث يقول في ذلك : " فإذا بطل الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عدناه ، لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف "2.

يوضح الجرجاني العلاقة بين علم الدلالة كفرع من فروع علم اللغة ، وعلم البلاغة فإذا كانت البلاغة هي إصابة المعنى والقصد إلى الحجة مع الإيجاز ، فإن الدلالة تعني العلم الذي يدرس علاقة الرموز بالأشياء التي تنطبق عليها ، فاللغة في المقام الأول وسيلة يُعبّر بها كل قوم عن أغراضهم ومقاصدهم ، وعلم الدلالة يعتني في المقام الأول بالدلالة من خلال السياقات المختلفة ، وهذا يدخل فيه الحال والمقام ، وهو ما يتوافق مع تعريف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .

انتقد عبد القاهر الجرجاني النقاد الذين كانوا ينحازون إلى اللفظ ويقدمونه على المعنى وكان يحس بوعي نقدي أن ثنائية اللفظ والمعنى عند " ابن قتيبة " هي خطر على النقد والبلاغة ، فتقديم اللفظ ، قتل الفكر ، لأن الفصاحة ليست في اللفظة ، وإنما هي في

¹ - الجرجاني ، عبد القاهر - المكتبة الشاملة : <http://shamela.ws/index.php/author/36>

² - أنباه الرواة على أنباء النحاة - مرجع سابق .

العملية الفكرية التي تصنع تركيباً فصيحاً من الألفاظ ، ويوضح نظرية الصورة المجتمعة من اللفظ والمعنى ، ويشبهها بعملية الصياغة ، ويعتبر أن النظم والتأليف هما الإعجاز في الكلام ، والذي يحققه التفاوت .

أوضح الجرجاني المصطلح النقدي الذي أسماه الصورة في الكلام فقال : " واعلم أن قولنا الصورة ، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا " حيث يتحدث عن البينونة بين معنى ومعنى وصورة وصورة فيقول : " ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً ، وقلنا للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك " ، وإن التفاوت في الصور ، هو الطريق لإثبات الإعجاز¹ فإذا بلغ الأثر الأدبي درجة من التميز لا يلحقه فيها أي أثر آخر ، صح أن يسمى معجزاً ، وقد ابتعد عن التأكيد على الصورة الجمالية والخوض في العلاقة بينها وبين " الفاعل " لها أو القوة الفاعلة لها ، لأن الناقد يستكشف الجمال الفني ، وأن طبيعة إعجاز هذه الصورة الجمالية ، هي التي تتخذ دليلاً على الفاعل ، دون أن تقضي إلى التحدث عن مدى العلاقة بينها وبينه .

وللجرجاني رأيه في المعنى ومعنى المعنى ، وهو نظرياً يتصل بتفاوت الدلالات الناجم عن طريق الصياغة .

فالمعنى : هو المفهوم الظاهر في اللفظ ، أما معنى المعنى فمرحلة تتجاوز المعنى الظاهر ، إلى المستوى الفني في الكتابة والاستعارة ، وفي هذه المرحلة يكون التفاوت في الصورة والصياغة ، ومن ثم وضع كتاب " أسرار البلاغة " لدراسة معنى المعنى حيث درس التشبيه والتمثيل والاستعارة ، وألمح إلى أن " معنى المعنى " يقوم على مستويات متفاوتة في الدلالة والتأثير معاً ، وكانت له وقفته النقدية حين تحدث عن التناوب بين المكني والصريح وضرورة إعلاء شأن قوة التمثيل من الزاوية العقلية بغية الوصول إلى اللذة النفسية في تتبع صور الجمال .

¹ - البلاغة تطور وتاريخ - د . شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة .

• العلاقة بين اللغة والفكر :-

أدرك عبدالقاهر الجرجاني طبيعة العلاقة القائمة بين الفكر واللغة ، وأنَّ هذه العلاقة طبيعية بين الألفاظ ودلالاتها ، وبأنها قائمة كوجود الحياة في الأجسام الحيَّة ، ولتوضيح ذلك أعرَّج على الاتجاه القائل بالفصل بين الفكر واللغة ؛ فقد اعتبروا أنَّ العلاقة القائمة بين الفكر واللغة علاقة مباشرة ، قائمة بين الرمز وذات الشيء نفسه ، وأنَّ تركيب الكلام يجب أن يكون مُساوياً لما فيها من أسماء للجماد والحيوان ، وأصحاب هذا المذهب الفيلسوف العربي جابر بن حيان والفارابي ، وابن سيده ، وهو اتَّجاه متأثر إلى حدٍّ بعيد بما جاء به أفلاطون .

لم يفصل عبدالقاهر بين الفكر واللغة إلا فصلاً مظهرياً ، لإيمانه بمِثاق هذه الصلة بين هذه الروابط ، ويتضح ذلك بعد إعداد جملة من القول في النظم كي تتكشف له أسرارها ودقائقها ، فيقول الجرجاني : " ليس الغرض من توالي الكَلَم أن توالَتْ ألفاظُها في النطق ، بل أن تناسقتْ دلالاتُها ، وتلاقتْ معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل " ¹ ومن ثم تتضح العلاقة العضوية بين الفكر واللغة ، وعليه تتوقف درجة

نجاح التعبير اللغوي ودلالاته في إبداعه معنى معيناً ، وعليها تتوقف قوَّة ترابط الأفكار وترابط دلالاتها مع دلالات الكلمات الأخرى ، وقد تنبَّه إلى هذا الترابط ، فأشار إلى الإعراب والموسيقا اللفظية ، وجمال الصورة وحُسن الأسلوب ، والفكرة والرمز والتناسق والانسجام داخل جسم واحد ؛ حيث يصعب التخلّي عن أيِّ رابطٍ ، وإلاَّ ضَعُف التركيب ، وانتفى الإعجاز .

ويؤكد عبدالقاهر دائماً على شدَّة الارتباط بين الفكر واللغة ، وعدم إمكانية الفصل بينهما بفاصلٍ ، وأنَّ عملية التفكير بالمعاني سابقة لعملية التفكير باللفظ ، بقوله : واعلم أنَّ ممَّا هو أصلٌ في أن يدقَّ النظر ويغمض المسلك في توخّي المعاني التي عرفت أن تتحدّد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأوّل ² ، وأنَّ

¹ - عبد القاهر الجرجاني . أسرار البلاغة - محمد عبد المنعم خفاجي - دار الجيل 1991 - بيروت .

² - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم

يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحداً ، وأن تكون حالك فيها حال الباني ؛ يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك ، ومن دقيق ذلك وخفيّه أنّك ترى الناس إذا ذكروا قول الله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾¹ ، لم يزيدوا فيه .

يلتقي **عبدالقاهر** بمنهجه الفريد وفكره المستثير مع المفكرين الغربيين ، ولوحاته اللغوية الرائعة رغم اتساع بساط الزمن بينه وبينهم في حديثه عن العلاقة القائمة بين الفكر واللغة من أن لا كيان للغة إلا في ذهن الأفراد ، ولا وجود للأفكار دون كلمات ، ولا حياة للكلمات دون أفكار ، وبأنّ اللغة أساس الفكر ، وهي طريق الإنسان إلى إدراك الحياة ومعرفة الحقيقة ، بل إنها عنصر من العناصر المهمة في حياة الإنسانية جمعاء تُلازم الفرد في حياته ، وتمتدّ إلى الأعماق من كيانه ، وتبلغ إلى أخفى رغباته وخطراته .

وقد سبق **عبدالقاهر** هذه الأفكار بقوله : وإذا قد عرفت هذه الجملة فينبغي أن ننظر إلى هذه المعاني واحداً واحداً، وتعرف محصولها وحقائقها ، ولا يخفي على من له أدنى تمييز أن الأغراض التي تكون للناس في ذلك لا تُعرف من الألفاظ ، ولكن تكون المعاني ، المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلة على المقاصد والأغراض ، وأنا لو فرضنا أن تخلوا الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب ، فترى الرجل منهم يرى ويعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتبة إلا من بعد أن يفكر في المعاني ويرتبها في نفسه على ما أعلمناك .

إن تبهر **عبدالقاهر الجرجاني** في علوم النحو واللغة والبلاغة ، جعله يصب اهتمامه على مشاركة المتحدثين عن الإعجاز جهودهم في الوصول الى بعض الحقائق ، وقد وضع " الرسالة الشافية في الإعجاز " ، لتأكيد عمله المنهجي في هذا الموضوع الهام والذي كشف عنه حين قال : " هذه جمل من القول في بيان عجز العرب ، حين تحدوا إلى معارضة القرآن ، وإذعافهم وعلمهم ، أن الذي سمعوه فأتت للقوى البشرية ، ومتجاوز للذي

¹ - سورة مريم : آية 4 "

يتسع له ذرع المخلوقين ، وفيما يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم احوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم ، ويعلم الأدب جملة ، قد تحرّيت الايضاح والتبين ، وحدوت الكلام حذواً ، هو بعرف علماء العربية أشبه ، وفي طريقهم أذهب ، والى الأفهام جملة أقرب¹.

• نظرية "النظم" عند عبدالقاهر الجرجاني:-

مفهوم النظم عند عبدالقاهر الجرجاني ، يوضّحه بقوله : " اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضْع الذي يَتَضَيِّعُه " علم النحو " ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَتْ لك ، فلا تخل بشيء منها " ؛ فالنظم هو توخي معاني النحو ، فنظرية النظم هي التي يتحقّق بها وجه إعجاز القرآن الكريم ولذلك فهو يقدم تفسير لغوي موضوعي لوجوه هذه النظم التي بها يتحقّق الإعجاز .

ألحّ الجرجاني في نظرية النظم على الموامعة بين الاستقامة النحويّة والصحة الدلاليّة وذلك من خلال كشف فاعليّة النحو في توضيح النص وتفسيره واستخراج طاقاته من جهة وإتاحة أكبر قدر ممكن لتفسير المبادئ الدلاليّة معتمداً على القواعد النحويّة الصابطة للنظام اللغوي ، ولذلك فالذي يُميّز الجرجاني عن سابقيه أنّه قد تجاوز مستوى التنظير الذي وقّف عنده سابقوه ، وتعدّاه إلى مستوى التطبيق ؛ فقد ردّوا جميعاً إعجاز القرآن إلى فصاحته ، وهذا يتفقون عليه جميعاً²، إلا أن الاختلاف : لأي شيء يوصف بالبلاغة أو الفصاحة ؟

فإنّ الجرجاني يجعلها في المعاني والألفاظ إلا أن المعاني مقدّمة ، ويجعلها القاضي عبدالجبار في الألفاظ .

إنّ جوهر نظرية النظم الاعتزاليّة يكمن في كون المعاني لا يقع فيها تزايد ، وإنما يقع التزايد في الألفاظ التي تُعبّر عنها ، وهذا عكس النظرية الأشعرية التي تقول بأنّ الألفاظ لا يقع فيها تزايد ، وإنما يقع التزايد في المعاني التي تدلّ عليها ، ويربط عبد القاهر بين الصحة الداخلية والصحة الخارجية ، فقد تحدّث عن معنى البلاغة ، وأنّ الكلمة لا

¹ - الإعجاز القرآني في الرسالة الشافية لـ " عبد القاهر الجرجاني " - د . يوسلينا بنت محمد ، د . كوثر بنت عبد القادر

- جامعة العلوم الإسلامية - كوالالامبور .

² - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - مرجع سابق .

تُوصَف بالحسن ، ولا تستَوَلِي على هوى النفس ، وذلك من وظيفة البلاغة ، أو ما تتعت به الكلام الذي شأنه كذلك من لفظ البلاغة¹.

نظر إلى أقوال العلماء في معنى " الفصاحة ، والبلاغة ، والبيان ، والبراعة " وتفسيرها والمراد بها ، وكان كلامهم كالرمز والإيماء .

ولكنه يقول : ووجدتُ المعول على أنَّ هاهنا نظماً وترتيباً ، وتأليفاً وتركيباً ، وصياغة وتصويراً ، ونسجاً وتحبيراً وأنَّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها ، فإنَّ المفاضلة لا تقع للفظ من حيث هو مفرد قبل دخوله في التركيب على طريقةٍ مخصوصةٍ .

● مؤلفاته :-

ترك **عبد القاهر الجرجاني** أثراً مهماً في الشعر والأدب وعلوم القرآن ، والنحو والصرف ، وعلم الهيئة والفلك والفلسفة والفقه ، يزيد عددها عن الخمسين مؤلفاً ، ولعل أهم هذه الكتب:

— كتاب " التعريفات " —

وهو معجم يتضمن تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في الفنون والعلوم حتى عصره وهذا المعجم من أوائل المعاجم الاصطلاحية في التراث العربي ، وقد حدد فيه الجرجاني معاني المصطلحات تبعاً لمستخدميها وتبعاً للعلوم والفنون التي تستخدم فيها وجعل تلك المصطلحات مرتبة ترتيباً أبجدياً مستفيداً في ذلك من المعاجم اللغوية التي يسهل التعامل معها ، ويعد هذا المعجم من المعاجم المهمة ، وأشار المستشرقين لأهميته الدلالية والتاريخية .

— إعجاز القرآن :-

— الرسالة الشافية في الإعجاز :-

حققتها مع رسالتين أخريين للخطابي والرماني في نفس الكتاب كل من محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، وهي من أفضل ماكتب في الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة ، مؤيداً كلامه بالأدلة القاطعة ، والحجج الدامغة .

¹ - الجرجاني بلاغته ونقده - أحمد مطلوب - وكالة المطبوعات 1973 - الكويت .

- دلائل الإعجاز : في علوم البلاغة العربية
- أسرار البلاغة : في علوم البلاغة
- المغني : وهو شرح مبسوط للإيضاح يقع في ثلاثين مجلداً .
- المقتصد : وهو اختصار لشرح المغني¹ .
- التكملة
- رسالة في تقسيم العلوم
- خطب العلوم
- الجمل : وهو كتاب في تعريف الجملة في اللغة العربية وأقسامها وأنواعها .
- شرح كتاب الجعيني في علم الهيئة
- شرح الملخص في الهيئة للجعيني
- شرح التذكرة النصيرية : وهي رسالة نصير الدين الطوسي
- تحقيق الكليات
- وفي الشعر : المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبو تمام
- الإيجاز : وهو اختصار إيضاح أبي عليّ الفارسي .
- التذكرة
- المفتاح : في علم الصرف
- العوامل المائة
- النحو
- التلخيص
- العمدة : في علم الصرف
- شرح الفاتحة
- إعجاز القرآن الصغير
- إعجاز القرآن الكبير

¹ - الفكر اللغوي عند عبدالقاهر الجرجاني - أحمد محمود سعيد أبو دنيا - شبكة الألوكة :

— درج الدرر في تفسير الآي والسور

— لرسالة الشافية في الإعجاز: —

ألف عبد القاهر الجرجاني كتاب "دلائل الإعجاز" من أجل بيان وجه الإعجاز في القرآن فمادته الأولى هي القرآن ، وقد اعتمد على علمين جليلين ؛ وهما : سيبويه والجاحظ ، فهو لم ينتفع بهما في الجزئيات فحسب ، وإنما دخلاً عنده في صلب مادته التي ابتدأها واستخرجها ، فقد ذكر الجرجاني أن الخليل وسيبويه بلغا في فقه النحو مبلغاً لم يسبقهم إليه أحدٌ ، ولم يلحقهما فيه أحد ، وأنهما ذروة هذا العلم ، وقال أن الجاحظ بلغ في علم الشعر ومعرفة جوهره وطابعه ومعدنه مبلغ الشيخين في علم النحو وتفرّد الجاحظ في علم الشعر كتفرّد الشيخين في علم معاني النحو¹.

بدأ الجرجاني رسالته بذكر أنواع المعاني التي تحتاج إلى نوع معين من الألفاظ ، ولا تقف المعاني بإزاء اللفظة المفردة بل الألفاظ المنتظمة في عبارات ولا تنتهي عند هذا الحد بل لا بد من تأدية هذه المعاني بعد تلبسها بالألفاظ لتصل إلى عبارة قريبة إلى أذن السامع وقلبه ، فكان يشترط اختيار المعاني والألفاظ المناسبة ثم بعد ذلك ينتقل إلى العبارة المناسبة المؤثرة في السامع .

بدأ الجرجاني يجمع الأدلة حول فصاحة العرب الذين عاصروا الرسول ﷺ فهو لاء وصلوا إلى درجة من البلاغة لا يدانيها أحد من المتقدمين عليهم ولا من المتأخرين ويدعم رأيه بقول خالد بن صفوان " كيف نسابقهم ، وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم " .

ثم ينقل رأي الجاحظ، إذ يقول : نحن أبقاك الله إذا ادّعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة ، من القصيد ، والأرجاز الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك ، إلا في اليسير والشيء القليل².

أراد الجرجاني بهذه المقدمة الخلوص إلى أن عرب الجاهلية كانوا على مستوى رفيع يجعلهم أهلاً لنزول القرآن فيهم و أهلاً للتحدي الذي جاء في القرآن الكريم ليصل بنا

¹ - مداخل إعجاز القرآن - محمود محمد شاكر - مطبعة المدني 2002 - القاهرة

² - - الإعجاز القرآني في الرسالة الشافية لـ " عبد القاهر الجرجاني " - مرجع سابق .

إلى قضية الإعجاز القرآني ، والخلاف حولها : هل كان الإعجاز راجع إلى أن العرب كانوا قادرين على أن يأتيوا بمثل بلاغة القرآن الكريم ، لولا أن الله تعالى صرفهم عن معارضته ولو تركهم لما عجزوا عنها ؟

أم أنهم تجاهلوا كل النداءات القرآنية بالتحدي ، وأبدوا عدم الاكتراث ؟
 أم هو عجز حقيقي عن معارضة القرآن والإتيان بآية مثله ؟ .

حشد الجرجاني دلائل مختلفة تثبت عجز العرب عن المعارضة والتحدي وبدأ بدلائل الأحوال ، فضرب أمثلة مستمدة من واقع الحياة ، فرأى أن الناس من عاداتهم أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها¹ ، فقد يعلم خطيب أو شاعر أو كاتب أن كاتباً في الأقاليم البعيدة يقول خطبة فتدفعه

الحمية إلى معارضته ، وإظهار ما عنده من الفضل مهما بعدت المسافات فكيف و إن كان ذلك المدعي أمام أعينهم وبين ظهرائهم ، فذلك أدعى إلى المعارضة ، وإلى إظهار ما عنده من إبداع .

إن لغة الجرجاني وأسلوبه كانا قريبين إلى لغة وأساليب المناطق فقد اعتمد الترتيب في إيراد الحجج المقنعة، للوصول إلى النتائج ، وكان الجرجاني واضحاً في قضيته إذ بين الهدف المنشود من الرسالة في مطلعها ثم انطلق إلى مناقشة محاورها ، كما تعرض للحديث عن البلاغة بين الطبع والصناعة وبلاغة العرب والعجم وفرق بين بلاغة العرب قبل الإسلام وبلاغة المتأخرين من العرب في العصر العباسي وما بعده

عرض الجرجاني بعض القضايا النقدية لاسيما عند حديثه عن الموازنة بين الشعراء وطبقات الشعراء ، وأمدح بيت ، وأنسب بيت ، وتفاوت الشعراء في أقدراهم واشتمال كلامهم على البليغ وغير البليغ ، الصور الفنية في شعر الشعراء وأكد أن هذا التفاضل يجب أن يسند إلى النظم والتألف في الكلام لا للفظ فقط ، وكأنه يريد وضع قاعدة نقدية حديثة ، ومذهب الجرجاني هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لآيماننا هذه ، هو مذهب العالم السويسري دي سويسير ، لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات .

¹ - الجرجاني بلاغته ونقده - أحمد عبد القاهر مطلوب - وكالة المطبوعات 1973 - الكويت .

كتب الجرجاني رسالته الشافية في الإعجاز القرآني للرد على المعتزلة ورد شبهات كانت منتشرة في زمنه ونادى بالقول بنظرية النظم في مطلع رسالته ، ولم يدل على ذلك بآية من القرآن يشرح فيها مذهبه ، ويفهم خصومه ، وهو بذلك يفصل نظريته ويدافع عنها دفاعاً عنيفاً وكأنه رأى أن " الرسالة الشافية " لم ترو عطش الصادي فانطلق ليشرح نظريته في الكتابين " دلائل الإعجاز " ، و " أسرار البلاغة " ¹.

ويردُّ عبد القاهر الجرجاني في هذا الكتاب على المعتزلة ؛ لأنهم ردُّوا الفصاحة للفظ فقط دون المعنى ، وأنَّ المعاني عارية مطروحة في الطريق ، فمن ألْبَسَهَا لفظاً رائقاً كان أولى وأحقَّ بها ، ثم يستنكر على من فسَّر الفصاحة " بأنها خصوصية في نظم الكلم ، وضم بعضها إلى بعضٍ على طريقةٍ مخصوصة ، أو على وجوهٍ تَظْهَرُ بها الفائدة ، فهو يُصرِّح تارةً ويُلْمِحُ أخرى لأناسٍ قد سبقوه في الكلام عن وجه الإعجاز بفكرٍ وطريقةٍ لم يَرْضَ بها

وضع عبد القاهر كتاباً يُعين على الوصول إلى معاني الكلام ، وأنَّ البناء اللغوي الذي شغل به كتابه يتَّصف به ما وراء هذا من فقهٍ دقيقٍ للمعاني ² ، وأنَّ أصل هذا المنهج هو تحليل اللغة ؛ لغة الفكر والأدب والعلوم وكل ذلك ، وهذا يعني أنَّ كشف المعاني التي وراء المباني هي غاية الدرس ، فلا يجوز أن يشغل عنها ، والذين يَفْقَهُون عند تحليل المباني من غير أن يَصِلُوا إلى جوهر معاني النص من فكرٍ وعلومٍ لم يُحَقِّقُوا الغاية من هذا العلم

— كتاب " الجُمْل " —

أوضح الشريف الجرجاني في كتابه " الجُمْل " كل ما يتعلق بالجملة في اللغة العربية فقال : اعلم أن أصل الجملة على أربعة أوجه : اسمية ، وفعلية ، وظرفية ، وشرطية :
الاسمية : ما تتركب من المبتدأ والخبر ، مثل : " زَيْدٌ قَائِمٌ " .
الفعلية : ما تتركب من الفعل وفاعله ، مثل : " قَامَ زَيْدٌ " .
الظرفية : ما تتركب من الظرف والمظروف ، مثل : " عِنْدِي مَالٌ " .

¹ - الإعجاز القرآني في الرسالة الشافية لـ " عبد القاهر الجرجاني " - مرجع سابق .

² - دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق : محمود شاكر - مطبعة المدني 1992 - القاهرة .

الشرطية : ما تتركب من الشرط والجزاء ، نحو : " إِنْ تُكْرِمْنِي أُكْرِمُكَ " .

— وقال وصفة الجملة تسعة —

المبينة : ما تبين الكلام السابق المجمل ، مثل : " الْكَلِمَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِسْمٌ ، وَفِعْلٌ وَحَرْفٌ " .

المعللة : ما هي علة لما قبلها ، مثل : قوله (عليه السلام) : " لَا تَصُومُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبٍ وَبِعَالٍ " .

المعتضة : ما وقعت بين الكلامين بلا تعلق بينهما ، مثل : " قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ — رَحِمَهُ اللَّهُ — النَّيَّةُ فِي الْوُضُوءِ لَيْسَتْ بِشَرْطٍ " .

المستأنفة : ما تبيين سؤال السائل ، مثل : " لِمَ رَفَعْتَ زَيْدًا ؟ لِأَنَّهُ فَاعِلٌ " .

النتيجية : هي ما تتولد من الكلام السابق ، نحو : " الْجَزْمُ مُخْتَصٌ بِالْأَفْعَالِ وَالْخَفْضُ مُخْتَصٌ بِالْأَسْمَاءِ ، فَلَيْسَ بِالْأَفْعَالِ خَفْضٌ وَلَا فِي الْأَسْمَاءِ جَزْمٌ " .

الابتدائية : ما وقعت في أول الكلام ، مثل : «الْكَلِمَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ» .

المقطوعة : ما وقعت بلا ارتباط شيء تنشأ بالتعداد ، مثل : " الْبَابُ الثَّانِي فِي الْعَوَامِلِ اللَّفْظِيَّةِ الْقِيَاسِيَّةِ " .

الحالية : ما وقعت حالا مثلا : " جَاءَنِي زَيْدٌ وَأَبُوهُ رَاكِبٌ " .

المعطوفة : ما عطف على سابقة ، لها ونظائره كثيرة في العبارات العربية¹.

● وفاته —

توفي عبد القاهر الجرجاني عام 471 هـ / 1009 م²، لكن علمه مازال باقيا ، يغترف منه كل ظمآن إلى المعرفة ويهدي إلى السبيل الصحيح في بيان إعجاز القرآن الكريم .

¹ - كتاب شرح الجمل في النحو للشيخ عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني - خديجة محمد حسين باكستاني - رسالة

ماجستير - كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة

² - أنباه الرواة على أنباء النحاة - مرجع سابق .

• النظامي العروضي السمرقندي:—

هو أبو الحسن نجم الدين نظام الدين أحمد بن عمر بن علي السمرقندي ، المعروف بالعروضي السمرقندي ، أو نظامي عروضي ، من كبار علماء وأدباء عصره ، اشتهر بالعروضي لتضلعه في العروض ، أديب وكاتب وشاعر برز في القرن السادس الهجري .

• مولده ونشأته :—

لا توجد معلومات كثيرة متداولة عن حياة النظامي العروضي ، وكل ما يتم تداوله أنه وُلد قبل عام 500 للهجرة ، وكان على قيد الحياة حتى عام 550 للهجرة ، وذلك ما يتضح مما دونه الكاتب عن نفسه في كتابه " جهار مقالته " ، الذي ذكر فيه بعضاً من جوانب حياته والأحداث المهمة التي مرَّ بها؛ لذلك فإنه يرجح أن يكون قد وُلد في أواخر القرن الخامس الهجري في سمرقند ، وعاصر السلطان سنجر السلجوقي .

عمل النظامي العروضي لمدة 45 عامًا في خدمة السلالة التي كانت تحكم آنذاك والتي كانت معروفة باسم " آل شنسب " ، وكان أحد الشعراء الأربعة لهذه السلسلة الحاكمة . وقد أدرك الشاعر والعالم الكبير عمر الخيام في مدينة بلخ في عام 506 هـ ، وفي عام 510 هـ ، انخرط في خدمة الأمير المعزي وعرض شعره عليه ، وشجَّعه الأمير معزي على نظم الشعر ، كما زار في نفس العام قبرَ الشاعر الكبير الفردوسي في مدينة طوس.

كان النظامي العروضي مسلماً معتزلياً ، وهو ما يبدو من نعته الله سبحانه وتعالى وكيفية خلق المخلوقات الذي جاء في مقدمة منظومة " ويس ورامين " التي كانت السبب في شهرته ، كما تميز بكمال الفضل ، وجمال الفن ، وقمة الذوق بين شعراء زمانه وقد تجلَّى كل ذلك في نظمه لكتاب " ويس ورامين " ، كما يعتبر من الفصحاء البلغاء وتتجلى تلك الفصاحة من هذين البيتين :

أنت كالوردة تزدد سروراً واحمراراً أنا في الهم أزداد نحولاً واصفراراً
هل دعت والدتي أن أري لي كل ما أرجو عني في فرار

كان العروضي السمرقندي يسجل الحداث والوقائع بشكل أدبي أقرب ما يكون إلي المؤرخ فيقول في رسالة إلي أبي الريحان البيروني ، واصفاً السلطان أبي العباس مأمون خورزم شاه ، ووزيره أبو الحسين أحمد بن محمد السهلي قائلاً : " كان لأبي العباس مأمون خوارزم شاه وزير اسمه أبو الحسين أحمد بن محمد السهلي ، كان حلیم الطبع كريم النفس فاضلاً ، وكذلك كان خوارزمشاه حكيم الطبع صديقاً لأهل الفضل ، وبفضلهما اجتمع كثير من الحكماء وأهل الفضل في هذه الحضرة ، مثل أبي علي بن سينا ، وأبي سهل المسيحي ، وأبي الخير الخمار ، وأبي الريحان البيروني ، وأبي نصر عراق ، وكان هذا ابن أخي خوارزم شاه ، وكان يلي بطلميوس في علم الرياضيات وأنواعها .

● مؤلفاته :—

جهاز مقالة " أبي المقالات الأربع "

وبس ورامين

ديوان شعر

كتاب جهاز مقالة ، هو كتاب معروف ومشهور من كتب الأدب الفارسي ، اشتمل على حكايات ونوادير حول الكتاب والشعراء والفلكيين والاطباء ، والاسم الصلي للكتاب هو "مجمع النوادر"؛ لأنه اشتمل على أربع مقالات في فنون الكتابة الديوانية والشعر والفلك والطب ، فقد عرف باسم جهاز مقالة .

ألف النظامي العروضي كتاب جهاز مقالة فيما بين عام 551 هـ وحتى عام 552 هـ وكعادة الأدباء والعلماء في ذلك الوقت ، فقد ألفه باسم أحد أمراء آل شنسب ، وهو الأمير أبو الحسن حسام الدين علي ، وأشاد به ومدحه في ديباجة الكتاب وفي نهايته ويشتمل الكتاب على عدة فصول ذكر فيها المؤلف في بداية هذه الفصول الملوكية وذكر أن الملوكية تأتي من حيث الرتبة بعد النبوة ، وأن النبوة هي غاية مراتب الإنسان وتحدث في الفصول المختلفة من مقدمته عن مواضيع مهمة ، منها معرفة الكون أو مايسمى اليوم بعلم الكونيات ، وعن ترتيب الخلق وتسلسله ، وعن الحواس الظاهرة والباطنة للحيوان ، بما فيه الانسان وعن مراتب الحيوان¹.

¹ - مجمع النوادر - النظامي العروضي السمرقندي - ترجمة : د . عبد الوهاب عزام - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة .

جاء في نهاية مقدمة جهار مقاله ، أن الكاتب والشاعر والفلكي والطبيب ، يعتبرون من خواص الملك ، وأن الملك بحاجة الى هؤلاء الأشخاص ، لذلك هو ألف كتابه جهار مقالة " أي المقالات الأربع " حول هؤلاء الأشخاص الأربعة ، وقد ذكر حكايات كثيرة حول كل طبقة من هذه الطبقات ، وقد خصصت كل مقالة من مقالات هذا الكتاب الأربع وتضمن الكتاب مباحث حول الفن أو العلم الذي يختص بها كل من الكاتب والشاعر والفلكي والطبيب ، ويذكر بعد ذلك حكايات طريفة وممتعة ، وغالبًا واقعية وحقيقية ، وتعود قيمة هذا الكتاب في الغالب إلى الحكايات التي تضمنها والأوصاف التي اندرجت فيها ، فهي تبلغ درجة من الجمال والمهارة بحيث جعلت هذا الكتاب أحد روائع الأدب الفارسي .

ذكر النظامي العروضي مواضيع طريفة في هذا الكتاب مثل تأثير قصيدة رودكي الشهيرة التي يبدأها بقوله " بوي جوي موليان " ¹ ، تأثير هذه القصيدة على الأمير الساماني، وكيف أن العالم الشهير أبا علي ابن سينا ، عالج أحد الأمراء ، فذكر هذه القصة في كتابه، ويعتبر هذا الكتاب من حيث فخامة اللغة وفصاحتها ومن حيث سلاسة الكلام من بين الكتب الفارسية القديمة التي تعتبر من الطراز الاول .

حكى الشيخ الرئيس حجة الحق ، أبو علي ابن سينا ، أن طبيباً حضر مجلس أحد ملوك آل سامان ، وبلغ من الحظوة إليه درجة بحيث أنه كان يسمح له بدخول الحرم ليجس نبض المحارم والمختبرات .

وفي ذات يوم كان جالساً مع ملك في الحرم بحيث لم يكن بمقدور رجل الدخول . فطلب الملك طعاماً، فجاءت الجواري بالطعام .

ثم رفعت الجارية المسئولة عن المائدة الخوان عن رأسها ، وانحنى ، ووضعته أرضاً فأرادت أن تعتدل ولكنها لم تستطع .

وبقيت على هذه الحالة بسبب ريح غليظة حدثت في مفاصلها .
التفت الملك إلى الطبيب وأمر بمعالجتها في الحال ، ولم يكن هنالك من مجال لمعالجتها بالأدوية ، فلجأ إلى العلاج الروحي ، وأمر بإزاحة الخمار عن رأسها لينكشف شعر

¹ - موليان هو اسم نهر صغير في بخاري .

رأسها كي تشعر بالحياء ، وتقوم بحركة ، تخرج بها من تلك الحالة المستكرهة فشعرت بالحياء وارتفعت حرارة جوفها حتى خرجت تلك الريح من المفاصل، ووقفت معتدلة ومستقيمة ، وعادت سليمة .

ويروي النظامي العروضي قصة أخرى في كتابه جهار مقاله ، **فيقول** : كان هناك فيلسوف في عهد ملك شاه وبعض من عهد الملك **سنجر** في هرات ، وكان يسمى الأديب **إسماعيل** ، وكان رجلاً في غاية الفضل والكمال .

وكان يؤمن معيشتة من خلال مهنة الطب وكانت له الكثير من المعالجات النادرة . وفي ذات يوم كان ماراً بسوق القصّابين ، فرأى قصّاباً يسليخ خروفاً ، ويدخل يده في جوف الخروف بين الحين والآخر ويستخرج الشحم الحار منه ويأكله .

وعندما رأى الأديب **إسماعيل** ذلك ، قال لبقال كان واقفاً أمامه " إن حدث ومات هذا القصاب فأخبرني قبل أن يدفن " ، فقال البقال : سمعاً وطاعة .

وبعد أن مرّ على ذلك خمسة أو ستة أشهر ، شاع في صبيحة أحد الأيام أن القصاب الفلاني قد مات فجأة دون أي علة ومرض ، فأقام البقال العزاء عليه ، وحزن الناس عليه لأنه كان شاباً ، وكان له أولاد صغار ، ثم تذكر البقال ما أوصاه به الشيخ **إسماعيل** ، فأسرع لإخباره ، فتناول الشيخ **إسماعيل** عصاه وتوجه إلى بيت القصاب وأزاح الغطاء عن وجه الميت ، وجس نبضه ، وأمر أحد الحاضرين بضرب ظهر قدمه بالعصا ضرباً متواصلاً ، وبعد ساعة قال له : " هل يكفي ذلك ؟ " ، فبدأ بعلاج الكسطة ونهض الميت في اليوم الثالث ، وعاش لسنتين ، رغم أنه أصيب بالشلل ، فتعجب الناس من ذلك أشد العجب ، لأن الشيخ كان قد تنبأ بسكنته من قبل .

يتضمن كتاب **جهار مقالة** ، وقائع تاريخية ، سجلها النظامي العروضي واصفاً تلك الوقائع وصفاً تصويرياً دقيقاً ، فيقول عندما زحف السلطان محمود الغزنوي على خوارزم واستولى عليها عام 408 هـ / 1017 م ، وضمها إلى بقية ممتلكاته ، ثم أمر علماء خوارزم وحكماءها أن يعودوا معه إلى بلاطه في غزنة ، وكان من بينهم العالم أبو الريحان البيروني ، **فيقول** : إن السلطان محمود سأل البيروني ذات مرة : من أي أبواب قصره الأربعة سيخرج ؟ فكتب البيروني الإجابة في ورقة ، ووضعها تحت

البساط ، فأمر السلطان محمود بفتح باب خامس في جدار قصره وخرج منه ، وأمر بإحضار الورقة ، فإذا أبو الريحان قد كتب عليها : " إن الخروج لا يكون من أحد هذه الأبواب الأربعة ، بل سيفتح باب في الجدار الشرقي ، ومنه يكون الخروج " . فغضب السلطان وأمر بإلقائه من فوق سطح قصره ، ولولا أن البيروني سقط على شبكة معلقة في الطابق الأوسط للقي حتفه ، ثم سأله السلطان محمود : هل كنت تعلم ذلك أيضاً ؟ قال : نعم .

وأطلع السلطان على تقويم ذلك اليوم ، حيث وجده مكتوباً فيه : " إنه سيلقى بي من مكان عال ، ولكني أبلغ الأرض بسلام ، وأنهض معافى " . فلم يرق هذا الكلام للسلطان محمود أيضاً ، وازداد غضبه وقال : " احملوه إلى القلعة واحسبوه " ، فحسبوه في قلعة غزنين ، فلبث فيها ستة أشهر . وكان الوزير أحمد بن حسن الميمندي يترقب الفرصة ليتحدث عن أبي الريحان ، وذات مرة انتهز الفرصة .

فقال : " مسكين أبو الريحان ، فقد صدقت نبوعته في هذين الحكيمين ولكنه لقي القيد والسجن بدلاً من الخلعة والتشريف " .

فقال السلطان محمود : " إن حكميه كانا على خلاف رأيي ، والملوك كالأطفال الصغار ينبغي أن يكون الكلام وفق رأيهم ليكون للمتحدث نصيب منهم ، وكان من الخير له لو أخطأ ذلك اليوم في أحد حكميه ، مُرَّ غداً بإطلاق سراحه ، وبأن يُعطي حصاناً وعدة من ذهب وجبة ملكية وعمامة من القصب ، وألف دينار وغلماً وجارية " .

واعتذر له السلطان قائلاً : " يا أبا الريحان ، إذا أردت أن تكون سعيداً عندي فاجعل قولك وفق رأيي ، لا وفق سلطان علمك " ، فسار أبو الريحان على هذا .

أمّا منظومة " ويس ورامين " ، فهي بنيت على أساس قصة فارسية قديمة ترجع إلي تراث الفرس قبل الإسلام ، وكما يقول عنها أنها لا تشبه إلا بستان جميل ، ولكن لغتها بهلوية ولا يفهم معناها كل من قرأها ، وترجع قصة " ويس ورامين " إلي عهد الملك الساساني سابور بن أردشير ، وكان أحد الأبطال فيها " مويد " كان حاكماً على إقليم مرو من قبل الملك الساساني ، لكن الدراسات الحديثة التي تناولت هذه القصة تري أنها

ترجع إلي أواخر العصر الاشكاني ، أي قبل العصر الساساني ، لأن آثار التمدن في ذلك العصر ، وملوك الطوائف الذين حكموا خلاله ظاهرة في القصة .

● وفاته:—

توفي النظامي العروضي السمرقندي عام 560 هـ .

• الشريف الجرجاني:—

هو علي بن محمد بن علي الشريف الحسيني الجرجاني المعروف بسيد مير شريف فيلسوف وفلكي وعالم لغوي ، وموسيقي ، عاش في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وأوائل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

• مولده ونشأته:—

ولد الشريف الجرجاني في تاجو ، قرب أستراباد ، في 24 من شعبان 740 هـ / 2 من مارس 1339 م¹، ويُعرف باسم " السيد الشريف " لأنه من أولاد محمد بن زيد الداعي " المتوفى عام 287 هـ / 900 م " ، والذي يصل نسبه إلي سلالة النبي محمد ﷺ ، حيث يوجد بينه وبينه ثلاثة عشر جداً ، وقد تلقى العلم على شيوخ العربية ، واهتم اهتماماً خاصاً بتصنيف العلوم ، وكذلك بعلم الفلك .

كان من أهم العلماء الذين تأثر بهم الشريف الجرجاني في علم الفلك الجغميني ، وقطب الدين الشيرازي ، والطوسي ، وقد تناول رسائل هؤلاء العلماء بالشرح والتبسيط لإيمانه بأهمية هذه الرسائل ووجوب تداولها بين طلاب العلم ، وقد قدمه التفتازاني للشاه شجاع بن محمد بن مظفر ، فانتدبه للتدريس في شيراز عام 779 هـ / 1377 م ، وعندما استولى الأمير تيمور علي شيراز عام 789 هـ / 1387 م ، انتقل الجرجاني إلي سمرقند والتقي فيها التفتازاني مسعود بن عمر ، الذي عاش خلال الفترة من عام 712 إلي عام 791 هـ ، فأخذ عنه وقرأ عليه، وظل بها حتي توفي الأمير تيمور عام 807 هـ / 1404 م فعاد إلي شيراز إلي أن توفي بها .

تلقى مبادئ العلوم في مسقط رأسه ، ثم رحل قبل سنة 762 هـ — على أغلب الظن — إلى هراة حيث يقيم قطب الدين الرازي التحتاني ، ليقراً عليه كتابيه في المنطق " شرح الشمسية " ، و " شرح المطالع " فاعتذر له الشيخ بعد مدة لكبر سنّه وأوصاه بأن يذهب

¹ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع - محمد بن علي بن عبد الله الشوكاتي - دار المعرفة - بيروت .

إلى مصر حيث يقيم تلميذه مبارك شاه ، العلامة في علم المنطق ليقراً عليه¹. تمهل الشريف الجرجاني وأقام بهراة ، ثم سافر عام 770 هـ / 1368 م ، إلى قره مان ، وفيها قرأ علي محمد الفناري ، وسافر معه إلى مصر ، وفي طريقه إلى مصر مرّ ببلاد الأناضول ، وأخذ عن الشيخ جمال الدين الأقسرائي ، الذي سمع بصيته وثناء الناس عليه بأنه أنجح في التدريس منه في التأليف فلما بلغ أقسراي وجده قد توفي ، فواصل سيره إلى مصر مع الملا فناري تلميذ الأقسرائي ومكث بمصر قرابة عشر سنوات حيث تلقى العلوم العقلية عن مبارك شاه والعلوم النقلية عن أكمل الدين محمد بن محمود البابر تي ، وأقام بخانقاه الصوفية المسماة " سعيد السعداء " أربع سنين ، ثم خرج بعدها إلى بلاد الروم عام 776 هـ / 1374 م ، ثم لحق ببلاد العجم ودخل شيراز فأقامه شاه شجاع مدرساً فيها عام 779 هـ / 1377 م .

كان من زملائه في مصر الشيخ بدر الدين السيمائي ، والشاعر أحمد ي ، والطبيب حاجي باشا ، وفي تلك الأثناء ألّف حاشية على شرح مطالع الأنوار لقطب الدين الرازي. وبعد أن أكمل دراسته عاد إلى بلاده مروراً بمدينة بورصة ، مركز الدولة العثمانية في ذلك الزمان ، وبعد رجوعه إلى بلاده قدّمه في شيراز الشيخ الإمام سعد الدين التفتازاني إلى سلطان البلاد " شاه شجاع " فعينه مدرساً في مدرسة دار الشفاء ، وتصدى للإقراء والإفتاء إلى جانب التأليف لمدة عشر سنوات ، واشتهر ذكره كثيراً في بلاد العجم خاصة في العلوم العقلية ، وسافر إلى سمرقند بعد استيلاء الأمير تيمور علي شيراز وليث فيها ثمانية عشر عاماً رئيساً للمدرّسين .

جرت بينه وبين علماء ما وراء النهر وبخاصة التفتازاني نقاشات ومحاورات ، وزاد نجاحه فيها من مكانته لدى تيمورلنك والعلماء ، ولقي في سمرقند الشيخ الخوجة علاء الدين العطار البخاري وهو من خلفاء الشيخ الولي بهاء الدين نقشبند ، وقد أثار فيه هذا اللقاء ميلاً إلى التصوف فانتسب للطريقة النقشبندية ، ونشأت صداقة بينه وبين مولانا نظام الدين خاموش ، واشترك في مجالسه التصوفية .

¹ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي - دار مكتبة الحياة -

كان الشريف الجرجاني من العلماء القلائل الذين تركوا بصمات واضحة في عصورهم واستمر تأثيرهم فيما بعدهم ، لما أسهموا فيه من تقدم العلوم ، حيث صنف تأليفاً وشرحاً وتحشية في علوم شتى في المعقول والمنقول ، وعلى رأسها علم الكلام وعلوم العربية وفي الفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات ، وتاريخ المذاهب والفقه والحديث والتفسير والتصوف ، مما أهله للقب " العلامة " بجدارة¹.

وصفه أصحاب التراجم بأنه كان ذكياً مدققاً محققاً ، ذا بصيرة وفصاحة وبلاغة ماهراً في المناظرة ، وصارت مؤلفاته ولا سيما في اللغة العربية والفرائض وعلم الكلام هي المراجع المعتمدة للدرس في معاهد العلم جيلاً بعد جيل ، وصار هو المرجع المعتمد الموثوق بين العلماء .

كما تصدى للإقراء والفتيا وتخرج به أئمة عظام ، وكثر أتباعه وطلبته واشتهر ذكره وبعد صيته وكان سلطان العلماء العاملين ، ذا خلق وتواضع مع الفقراء ، وكانت لآرائه مكانة ممتازة وتأثيرات قوية في الحياة العلمية والفكرية للمدارس على مر العصور ومما يؤيد هذا أن علماء بلاد الأناضول وإيران وتركستان والهند ينتهي سند إجازة البعض منهم إلى الجرجاني ، والبعض الآخر إلى التفتازاني ، الأمر الذي يؤكد أن الجرجاني كانت له مكانة مهمة في تاريخ الفكر الإسلامي منذ القرن التاسع الهجري ومع أن أكثر تأليفه كانت شروحاً وحواشي فإن العلماء قد اهتموا بها اهتماماً بالغاً مثل اهتمامهم بالمتون الأصلية ، ويعد الشريف الجرجاني من اللغويين المنتسبين إلى مدرسة البصريين لتأثره بالزمخشري وجمال الدين بن الحاجب ، وقد لجأ في مؤلفاته إلى أسلوب بعيد عن السجع والمجاز والاستعارة .

● تلاميذه :-

تتلمذ علي الشريف الجرجاني عدد كبير من طلبة العلم ، نبغ العديد منهم واشتهر في مجاله ، من هؤلاء :

الرياضي الشهير قاضي زاده الرومي .

فتح الله الشرواني .

¹ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - مرجع سابق .

فخر الدين العجمي .

وأخذ عنه الأكابر وبالغوا في تعظيمه ولاسيما علماء العجم والروم فإنهم جعلوه هو والسعد التفتازاني حجة في علومهما ، ومصنفاته نافعة ، كثيرة المعاني واضحة الألفاظ قليلة التكلف والتعقيد¹.

• مكانته بين العلماء :-

حاز الشريف الجرجاني علي مكانة رفيعة بين علماء عصره ، وأثنوا عليه الكثير ومنهم:

قال أبو الفتح الطاووسي : شهرته تغنيني من ذكر نسبه ، وصيت مهارته في العلوم يكفيني في بيان حسبه .

كما اتفق عدد من العلماء علي وصفه بصفات واحدة فقالوا : فريد عصره ، ووحيد دهره ، سلطان العلماء ، ذو الخلق والتواضع مع الفقراء .

• مؤلفاته :-

ألف الجرجاني قرابة مائة مؤلف ، أغلبها حواشٍ وشروح وتعليقات في علوم المعقول والمنقول كعلم الكلام والتصوف والفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات والمناظرة والصرف والنحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه وأهمها :

معجم التعريفات : وهو قاموس شهير للمصطلحات وطبع مرات عدة ، منها طبعة القاهرة عام 1985 .

شرم المواقف

حاشية على شرم مختصر المنتهى

شرم الأسماء الحسنی

الأجوبة لأسئلة الإسكندر من ملوك تبريز

ألفية في المعمي والألغاز

وغيرها الكثير والكثير من الكتب والمؤلفات القيمة

رسالة في تقسيم العلوم

¹ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع - مرجع سابق .

خطب العلوم

شرح كتاب الجغميني في علم الهيئة

شرح الملخص في الهيئة للجغميني

شرح التذكرة النصيرية وهي رسالة نصير الدين الطوسي في علم الهيئة .

وتحقيق الكليات من قبيل التعريفات .

حاشية على المطول للتفتازاني في المعاني والبيان

رسالة في فن أصول الحديث

شرح السراجية في الفرائض

شرح المواقف العضدية في علم الكلام للإيجي .

حاشية على الكشاف إلى آية " إن الله لا يستحيي " .

— كتاب معجم التعريفات:—

كتاب التعريفات هو معجم يتضمن تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في الفنون والعلوم حتى عصره ، وهذا المعجم من أوائل المعاجم الاصطلاحية في التراث العربي وقد حدد فيه الجرجاني معاني المصطلحات تبعاً لمستخدميها وتبعاً للعلوم والفنون التي تستخدم فيها ، وجعل تلك المصطلحات مرتبة ترتيباً أبجدياً مستفيداً في ذلك من المعاجم اللغوية حتى يسهل التعامل معه لكافة طالبيه ، وهذا المعجم من المعاجم الهامة التي لا نستطيع الاستغناء عنها إلى الآن ، وقد أشاد به كافة المستشرقين لأهميته الدلالية والتاريخية .

يبدأ الشريف الجرجاني كتابه " معجم التعريفات " بحديث نبوي شريف يقول " إن من البيان لسحراً " ، ثم يقول " ألا لا آلاء إلا آلاء الإله " ، ثم يعرض مقدمة يقول فيها " الحمد لله حق حمده ، والصلاة والسلام علي خير خلقه ، محمد وآله .

وبعد : فهذه تعريفات جمعتها واصطلاحات أختها من كتب القوم ، ورتبتها علي حروف الهجاء ، من ألف والباء إلي الياء ، تسهيلاً تناولها للطالبيين ، وتيسيراً تعاطيها للراغبين ، والله الهادي ، وعليه اعتمادي في مبدئي وميعادي .

وقد جمع الشريف الجرجاني في كتاب التعريفات 1647 حداً من الحدود المستخرجة من علوم مختلفة ، حيث اشتمل على مصطلحات علم الكلام والفلسفة والمنطق والنحو والصرف والعروض والقافية والفقه والفرائض وأصول الفقه والحساب والمساحة وعلم البيان والبديع ، كما عرّف بالفرق الإسلامية والصفات الإلهية في إيجاز بالغ وتركيز شديد ، وأتى بهذه المصطلحات مرتبةً على حروف الهجاء ناظراً إلى أوائل الكلمات بدءاً من الألف والباء وانتهاً بالواو والياء ، وهو في ترتيبه الكلمات لا ينظر إلى الأصل الثلاثي ، إنما يأخذ الكلمة في وضعها المستعملة فيه ويضعها بحسب حرفها الأول مع مراعاة الثواني والثالث ، فكلمة " الإبداع " في باب الألف وكذلك الابتداء والابتداع والاتفاق والاتصال والإيمان والإيهام والاستطاعة¹ .

أما الكلمات : المترادف والمتشابه والمتخيلة ففي باب الميم ، والتعليل والتعقيد والتعيين والتعبير وضعت في باب التاء وهكذا ، فكتاب التعريفات استصفاً لكتب سبقتها واستخلاصاً مجهد لحدود وتعريفات مشتتة في كتب كثيرة ، لذلك قال في مقدمته : " فهذه تعريفات جمعتها ، واصطلاحات أخذتها من كتب القوم ورتبتها على حروف الهجاء من الألف والباء إلى الياء تسهيلاً لتناولها على الطالبين وتيسيراً لتعاطيها للراغبين " .

ورغم أن في ترتيبه شيء من الاضطراب ، كما أن بعض التعريفات التي أوردها يشوبها الغموض وتحتاج إلى تعليق وشرح ، إلا أن معظم الحدود والتعريفات التي قدمها تتسم بالدقة وخاصة تلك الحدود الخاصة بالعلوم الواضحة المعالم كعلم الكلام والنحو والعروض وما إليها ، وكأن ذلك الغموض إنما كان في التعريفات المقتبسة من كتب التصوف كتعريف الزيت والزمرد والسمر وسر السر والبارقة والمحو .

ويلاحظ في الكتاب التفاوت بين تعريف وآخر فبعض التعريفات لا تتجاوز سطراً وبعضها يشغل صفحة كاملة .

¹ - معجم التعريفات - علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني - تحقيق : محمد صديق المنشاوي - دار الفضيلة - القاهرة

يعتبر كتاب " التعريفات " معجم اصطلاحى شديد الإيجاز ، سهل المراجعة ، يلبي حاجة الباحث والمراجع ، ويقدم له كثيراً مما يحتاج إليه من التعريفات ، لكنه غير شامل والباحث المدقق المحقق يحتاج إلى جانب التعريفات إلى معاجم اصطلاحية أخرى أكثر جمعاً وأغزر شرحاً ، وقد طبع كتاب " التعريفات " طبعات عديدة .

— كتاب شرح السراجية :—

كتاب شرح السراجية للإمام سراج الملة والدين ، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرشيد السجاوندي ، وقد كان هذا الكتاب مقررأ من قبل مجلس الأزهر الأعلي علي طلبة السنة الخامسة الثانوية بالمعاهد الدينية الإسلامية ، وقد رتبه وعلق عليه ووضع تطبيقاته واختباراته عبد المتعال الصعيدي ، المدرس بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر ، ولذلك حفلت تلك الطبعة بالتطبيقات والاختبارات وكثرة التعليقات ، لا سيما ما يتعلق بقانون الميراث الجديد في مصر في ذلك الوقت ، وتذييلها بهذا القانون كونه متوافق مع أحكام الشريعة الإسلامية بشأن حدود الميراث .

يبدأ الشريف الجرجاني كتاب " شرح السراجية " بحديث نبوي شريف يقول " تعلموا الفرائض وعلموها للناس فإنها نصف العلم " ، ثم يشرح ذلك فيقول " فالفرائض جمع فريضة ، وهي ما قدر من السهام في الميراث ، وإنما جعل العلم بها نصف العلم ، إما لإختصاصها بإحدي حالي الإنسان وهي الممات ، دون سائر العلوم الدينية فإنها مختصة بالحياة ، وإما لإختصاصها بأحد سبي الملك " التملك " ، أعني الضروري دون الاختياري كالشراء وقبول الهبة والوصية وغيرها ، وإما للترغيب في تعلمها لكونها أموراً مهمة .

ثم يعرض بعد ذلك الحقوق المتعلقة بالتركة ، ومراتب الوراثة ، وموانع الإرث ومعرفة الفروض ومستحقها ، وعدد مستحقي الفروض ، وأحوال الأب في الميراث وأحوال الجد ، والأخ لأم ، والأخت لأم ، وأحوال زوج في الميراث ، وفي فصل النساء يتعرض لأحوال الزوجة أو الزوجات ، وأحوال بنات الصلب ، وأحوال بنات الإبن ، وأحوال الأخوات الشقيقات ، والأخوات لأب ، والأم والجدة والجندات .

وفي باب العصبات : يوضح معني العصبه ، وأقسام العصبه النسبية ، وأصناف العصبه بالنفس ، واصناف العصبه بالغير ، وأصناف العصبه مع الغير ، ومن ثم يعرض الكتاب لكل ما يتعلق بأمر الميراث ، وتوزيع التركات في جميع الحالات¹.

● وفاته :-

توفي الشريف الجرجاني عام 816 هـ / 1413 م².

¹ - شرح السراجية - السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني - تحقيق : عبد المتعال الصعيدي - مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح - القاهرة .

² - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - مرجع سابق .

● نجيب الدين السمرقندي :-

هو أبو حامد محمد بن علي بن عمر السمرقندي¹، المعروف باسم نجيب الدين الطبيب والصيدلي البارع المعروف، وصاحب كتاب الأسباب والعلامات، والذي نال شهرة بالشرح الذي وضعه له نفيس بن عوض الكرمانى ، وكذلك كتاب الأقرباذين علي ترتيب العلل ، أو الأقرباذين علي ترتيب الأسباب .

● مولده ونشأته :-

لم يُعرف الكثير عن حياة العالم نجيب الدين السمرقندي ، فقد تناولت كثيرٌ من كتب التراجم حياته العلمية الحافلة ، ولكنها لم تهتم كثيراً بمولده ونشأته ، ولكنه عاصر العالم الكبير فخر الدين الرازي عام 606 هـ ، كما أنه توفي في سن مبكرة رغم ما تركه من ميراث علمي كبير ، ظل لعدة قرون مرجعاً لعلماء الطب والصيدلة ، وعلماء التغذية² عاش في مدينة هراة ، والتي كانت من أمهات مدن خراسان ، وقد جاء وصفها في الشعر العربي :

لَوْ قِيلَ إِنَّ الْمَاءَ فِي الْهَرَاتِ يَعْدِلُ مَاءَ النَّيْلِ وَالْفَرَاتِ
لَمْ يَكْ ذَاكَ الْقَوْلُ بِالْبَعِيدِ فَكَمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ شَهِيدِ

نبغ نجيب الدين السمرقندي في مجال العلوم الطبية ؛ فكان من أشهر الأطباء في هذا المجال ، وتميز بثقافته الواسعة في مجال العلوم الطبية ، إلى جانب دقته وأمانته العلمية لهذا كانت مؤلفاته من المراجع الضرورية للباحثين وطلاب العلم طوال قرون عديدة ونذر " نجيب الدين السمرقندي " حياته للعلم والتعليم ، فانقطع في أواخر حياته للتأليف والتدريس لطلاب العلوم الطبية ، وكان الطلاب يأتون إليه من كل أنحاء الأرض ليتعلموا على يده ، ولهذا احتل السمرقندي مكانة مرموقة بين زملائه الأطباء بالإضافة إلى حكمته وعلمه وتكوينه العلمي .

كان نجيب الدين السمرقندي يعتقد بأفكار طبية جديدة لم يسبقه أحد إليها ، تلك الأفكار ساهمت بشكل كبير في تطور علم الطب ، ولذلك امتلأت المكتبات العربية والإسلامية

¹ - الأعلام - مرجع سابق .

² - الموسوعة العربية الميسرة - مجموعة من العلماء والباحثين - المكتبة العصرية - الطبعة الأولى 2010 - بيروت .

والعالمية بمؤلفاته ، التي أصبحت أساساً قوياً لازدهار الحضارة العربية والإسلامية منذ القرن السابع الهجري ، وكان ممّا قدّمه " نجيب الدين السمرقندي " في خدمة العلوم الطبية أنه كان يعتمد على التجربة العلمية ؛ حيث كانت موجّهة ومدرّسة بعمق ؛ لذلك صار من الأطباء الكبار في هذا المجال¹.

• مؤلفاته:—

قام **السمرقندي** ، برغم وفاته المبكرة بتأليف عدد مؤثّر من الدراسات الطبية التي تتعامل مع العقاقير والغذاء والسموم وأمراض العيون ، بالإضافة إلى العديد من الكتب عن الطب بوجه عام .

وقد أظهر **السمرقندي** درجة عالية من التقدم والاستقلالية في التفكير في علاجه للأمراض .

فقد وضع جانباً نظرية وجود أربعة أمزجة للجسم والتي تعود إلى الطب اليوناني وتبنى منهجاً للمعالجة أكثر واقعية ، وهو منهج تعامل مع الطب والعقاقير على نطاق أوسع وتجريبي أكثر .

وتبدأ الدراسة ببحث الخمسة عشر سبباً التي يمكن أن تجعل العلاج أكثر أو أقل فاعلية ثم تواصل بتقديم وصف تنظيمي للعلاجات البسيطة والمعقدة لمختلف أنواع الأمراض . وكل فصل من الفصول التسعة عشر مخصص لعلاج محدد ، بدايةً من الأشربة والأدوية السائلة وانتقالاً إلى وصف الاستخدام الطبي للعلاجات الموجودة في الطبيعة أو التي يمكن أن يعدها الطبيب .

كان أهمّ ما قدّمه **نجيب الدين السمرقندي** من خدمات جليلة في مجال العلوم الطبية كتاب الأسباب و العلامات في الطب ، وقيمة الكتاب في أنه يحتوي علي حصيلة خبرته ومشاهداته وتجاربه العلمية في مجال الطب ، بالإضافة إلى المعارف التي اقتبسها من كتاب **القانون في الطب** " الذي كتبه ابن سينا ، وكتاب **كامل الصناعة الطبية** الذي كتبه علي بن الأهوازي ، وكتاب **المعالجات البقرائية في الطب** الذي كتبه أحمد بن محمد الطبري ؛ لذلك جاءت أفكاره في هذا الكتاب مفيدة للباحثين في هذا المجال .

¹ - إبدال الأدوية - نجيب الدين محمد بن علي السمرقندي - دار الكتب المصرية - القاهرة .

ومما زاد في قيمة هذا الكتاب وشهرته ذلك الشرح الذي قام به برهان الدين نفيس بن عوض بن حكيم المتطبب الكرمانى ، وهو شرح لطيف ممزوج ، حققه وبرع في تحقيقه وشرحه ، وأوضح المطالب فوق ما يراد ، وفرغ من تأليفه بسمرقند في أواخر صفر سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأهداه إلى العالم والسلطان ميرزا أولوغ بك ، وقد أثني " حاجي خليفة " على شمول وإحاطة كتاب الأسباب والعلامات في الطب فيقول : " جمع العلل والأمراض الجزئية على سبيل الاستقصاء ؛ حتى لا يشذ منها علة مع أسبابها وعلاماتها وكل نوع بعلاج مجمل نقلاً من كتب الطب " .

وغير هذا الكتاب العَلم ألف نجيب السمرقندي مؤلفات أخرى منها :—
كتاب الأقرباذين على ترتيب العلل ، أو الأقرباذين على ترتيب الأسباب ، أو ما يطلق عليه الأقرباذين الكبير ، وقد طبع هذا الكتاب بعد أن حققه الدكتور جورج طعمه وصدر باللغات الثلاث : العربية ، والفرنسية ، والإنجليزية في مجلد واحد في مكتبة لبنان عام 1994م.

.تركيب الأدوية القلبية .

.كتاب تشريح العين .

.كتاب أغذية المرضى .

.أبدال الأدوية .

.رسالة في مداواة وجع المفاصل .

.الأقرباذين الصغير¹ .

— كتاب النجيبات : ويتكون من ستة أقسام رئيسية ؛ تبحث في أسباب الأمراض وعلاماتها والأدوية المفردة ، والأغذية والأشربة ، والأدوية المسهلة ، وأصول تركيب الأدوية ، وقد تُرجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية ، ونُشر مع النص العربي بمدينة فلادلفيا عاصمة ولاية بنسلفانيا الأمريكية عام 1387هـ / 1967 م ، ومن استقراء مؤلفات أبي حامد السمرقندي يتبين أنه قدّم الكثير من المعلومات الطبية لأطبائ العرب

¹ - الموسوعة العربية الميسرة - مرجع سابق .

والمسلمين الأوائل ، وهي المعلومات التي تناولها بالشرح والتعليق ، ولم يكتفِ بهذا الأمر بل عدّل وصحّح بعض الأمور .

● وفاته :-

توفي نجيب الدين السمرقندي عام 619هـ / 1222 م ، في هراة¹ ، عندما دخلها جنكيز خان وقتل الآلاف من العلماء في تلك الفترة ، بعد أن ترك ميراثاً علمياً كبيراً في مجال الطب كان ذخيرة كبيرة للعلماء من بعده .

¹ - الأعلام - مرجع سابق .

• قاضي زاده الرومي:—

هو موسى بن محمد بن القاضي محمود الرومي ، صلاح الدين المعروف باسم قاضي زاده موسى چلبی ، أحد أهم علماء الرياضيات والفلك والهيئة البارزين في القرن التاسع الهجري في زمن الدولة التيمورية ، اشتهر بالحكمة والفلسفة .

• مولده ونشأته:—

ولد صلاح الدين موسى بن محمد قاضي زاده الرومي، في بورصة بتركيا عام 1364م عُرف باسم " قاضي زاده "، أي " ابن القاضي " ، فقد كان أبوه وجده قاضيين ، ومن ثم فقد نشأ في أسرة عريقة بالعلم والمعرفة، وتعلم أسس العلوم على علماء عصره . درس قاضي زاده الرومي في سمرقند عند عالم الفلك الشهير تيمور مولاني أحمد . وكان معلماً للأمير ألوغ بك في علم الفلك مع الكاشي والقوشجي ، كما تعلم الهندسة من أستاذه علي شمس الدين منلا فناري ، وعمل في المرصد الفلكي في سمرقند ، وكان أحد مؤلفي قوائم الفلك السمرقندية " زيحي غورغاني"¹.

كان قاضي زاده زاهدا في حطام الدنيا، فقد كرث كل حياته من أجل العلم ، فكان من القلائل الذين يحملون روحاً علمياً صحيحاً، اشتغل للعلم لا لغيره ، لم ييغ منه مكسباً أو جاهاً، وبقدر زهده أفاضت عليه الدنيا بعطائها، فقد كرمه أولوغ بك ورفعته إلي مناصب هامة في مجال العلم ، حيث كان أولوغ بك يهتم كثيراً بالعلم والعماء ويجزل لهم العطاء

• حياته العلمية :—

سافر قاضي زاده إلي خراسان قبل أن يستقر في سمرقند للاتصال بكبار علماء الفلك والرياضيات، فقد لازم علي شمس الدين منلا فناري ، ودرس عليه الهندسة ، وقد مدح له أستاذه علماء خراسان وبلاد ما وراء النهر وذكر له الشيء الكثير عن تفوقهم في الهيئة والرياضيات مما أوجد رغبة عند قاضي زاده في الذهاب إلى تلك البلاد للاجتماع بعلمائها والاعتراف من فيض علمهم ونبوغهم .

¹ - عالم الفلك الشهير قاضي زاده الرومي - د . محمد البخاري .

شعر قاضي زادة أن أهله سيمانعون في سفره إلي خراسان وبلاد ما وراء النهر، ولذلك عوّل على تنفيذ عزمه مهما كلفه الأمر.

ويقال إن إحدى شقيقاته شعرت بذلك وخافت أن يقع أخوها تحت غوائل الحاجة والفاقة في بلاد الغرب فوضعت بعض مجوهراتها بين كتبه التي ستصحبه في السفر .

وفي أواخر القرن الثامن للهجرة اختفى قاضي زادة بغتة وإذا هو في طريقه إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر حيث درس على علمائها العلوم الرياضية وقد وصل فيها إلى درجة يحسده عليها معاصروه من فحول العلماء وكبار الحكماء¹ .

اتجه قاضي زاده في بداية رحلته إلي شیراز عام 811 هـ / 1408 م ، وفي خراسان درس مبادئ العلوم علي علماء زمانه ، واستقر بعد ذلك في سمرقند ، واشتهر بعلمي الرياضيات والفلك حتي صار من العلماء المعتمدين في عصره ، فعمد إليهِ الأمير أولوغ بك المساعدة في إنشاء مرصد سمرقند ، فعمل تحت إشراف جمشيد الكاشي عام 832 هـ / 1429 م ، وبعدما توفي الكاشاني قبل اتمامه لبناء المرصد ، تولي قاضي زاده عملية الإنشاء ، وبعد الانتهاء من المرصد أسندت له مهمة إدارته ، فكان يلقي فيه المحاضرات العامة، وكان اهتمامه منصباً علي صياغة القوانين الأساسية في علم الفلك بغض النظر عن التطبيق ، فقد لجأ إلي تبسيط بعض القوانين الفلكية بالبراهين لجعلها سهلة الفهم وميسورة لتلاميذه ، حيث تتلمذ علي يديه كبار علماء الرياضيات والفلك كان أشهرهم علي القوشجي .

اشتهر في سمرقند وذاع صيته ، واستدعاه أولوغ بك وقربه وأغدق عليه العطايا وعيّنهُ أستاذاً له . وكان سبباً رئيسياً في مواصلة أولوغ بك الدرس والبحث ، ولقد دفعته هذه الرغبة إلى تأسيس مدرسة عالية وعهد إلى قاضي زاده بإدارتها .

وقد بنيت المدرسة على شكل مربع في كل ضلع من أضلاعه قاعة للدرس عُيّن لها مدرس خاص .

وكان قاضي زاده يدرس للطلاب ومدرسي القاعات ويحاضرهم مجتمعين .

¹ - صلاح الدين موسي المعروف بقاضي زاده الرومي - قدرّي حافظ طوقان - مجلة الرسالة - العدد : 311 .

أثناء عمله بالمرصد اشتهر قاضي زاده بين معاصريه باحترامه للأساتذة وطلاب العلم وحفاظه علي كرامتهم ، بل كان لا يقبل أي اعتداء عليهم ، وكان يدعو إلي استقلال الأساتذة عن أي ضغوط من ولاة الأمر أو غيرهم ، ومما يُروى أن أولوغ بك عزل أحد المدرسين في المدرسة التي أسسها وعهد إلي قاضي زاده بإدارتها ، فاحتج قاضي زاده على ذلك وانقطع عن التدريس وإلقاء المحاضرات .

وعلم أولوغ بك بانقطاعه فذهب بنفسه لزيارته وسأله عن سبب الانقطاع ، فأجابه :-
كنا نظن أن مناصب التدريس من المناصب التي تحيطها هالة من التقديس لا يصيبها العزل وأنها فوق متناول الأشخاص ، ولما رأينا أن منصب التدريس تحت رحمة أصحاب السلطة وأولي الأمر وجدنا أن الكرامة نقضي علينا بالانقطاع احتجاجاً على انتهاك حرمت العلم والعبث بقداسته ، وإزاء ذلك لم يسع أولوغ بك إلا الاعتذار وإعادة المدرس المعزول وإعطاء وعد قاطع بعدم المساس بحرية الأساتذة والمعلمين¹.

وقد يكون ذلك موقف قاضي زاده من عزل أولوغ بك لأحد المدرسين لا يشكل أهمية كبيرة عند البعض ، ولكن في ظل حاجة قاضي زاده إلى الوظيفة ومعاشها ، وإلى سطوة الأمراء في تلك الأزمان ، وإلى الجراءة النادرة التي ظهر بها ، نرى أنه لا يقدم على ما أقدم عليه إلا من أنعم الله عليه بروح علمية صحيحة وبنقطة في النفس عظيمة ولولاهما لما وصل قاضي زاده إلى ما وصل إليه من مكانة رفيعة ومقام كبير عند العلماء وأصحاب الثقافة العالية .

ونتيجة للتعاون العلمي ، والعلاقات القوية التي جمعت بين قاضي زاده والأمير أولوغ بك فقد استطاع قاضي زاده تقدير النجوم ورصد حركتها ، ثم راقب بكل دقة ازدياد القمر ونقصانه ليلة بعد ليلة ، كما راقب ميل الشمس ، حيث كان أولوغ بك إلي جانب عمله في الإدارة والحكم ، فإنه كان عالم فلك ، واستطاع قاضي زاده أن يجمع في مرصد سمرقند مجموعة من كبار العلماء والحكماء وأصحاب العقول والأفكار المستتيرة لتدارس النظريات الجديدة وقد استتب براهين جديدة للمسائل الفلكية ، حتي استطاع بالتعاون مع زملائه في المرصد باصلاح الكثير من الأخطاء التي ظهرت في

¹ - صلاح الدين موسي المعروف بقاضي زاده الرومي - مرجع سابق .

الجدول الفلكية التي وضعها علماء اليونان ، وقد وضعت نتائج تلك الأبحاث الفلكية في زيج أولوغ بك ، المعروف باسم " الزيج الإليخاني " ، حيث أوضح فيها حركة كل الكواكب في أفلاكها ، ومعرفة تواريخ الأيام والشهور والتقويم المختلفة .

طورَ قاضي زاده الجداول المثلثية لجيب زاوية درجة واحدة " جا 1 " ، وإن كان جمشيد غياث الدين الكاشي قد سبقه في الفكرة ، إلا أن قاضي زاده كان أكثر دقة وحصل علي نتائج عليا ، وامتاز قاضي زاده على معاصريه بعدم اعتقاده بالتنجيم أو الأخذ به وكان لا يرى فيه علماً يستحق الاعتناء أو الدرس ، حيث خالف المنجمين ، وأوضح في كل مناسبة أن نظرياتهم خاطئة وكاذبة ، ولذلك كان له معارضون كثيرون ، كانت سبباً في تعرضه لبعض الاهانات والتجريح؛ لأنه لم يأخذ بأقوال المنجمين ، فتجروا عليه وقتلوه .

لقد عملت الأرصاد التي أجراها قاضي زاده علي زيادة قيمة الأزياج التي وضعت على أساسها . ولم يكن قاضي زاده من علماء الهيئة فحسب ، بل كان أيضاً من أكبر علماء الرياضيات في الشرق والغرب حيث درس عليه كثيرون ، وبرز بعض تلامذته في ميادين المعرفة ، وإلى هؤلاء يرجع الفضل في نشر العلم والعرفان في بعض الولايات العثمانية ، حيث أخذ عنه كثيرون ، وانتشر بعضهم في الولايات العثمانية ، ففتح الله الشيرواني الذي درس العلوم الشرعية علي الشريف الجرجاني والعلوم الرياضية علي قاضي زاده ، وذهب إلى قسطنطيني حيث اشتغل بالتدريس وكان ذلك في حكم مراد خان الثاني ، وكذلك علي القوشجي الذي دعي إلى زيارة اسطنبول ، وبقي فيها مدة يعمل على نشر العلم في عهد السلطان محمد الثاني .

● مؤلفاته :—

كان قاضي زاده من العلماء المهتمين بالقراءة والترجمة والتأليف ، وقد عكف علي التأليف في حقلي الرياضيات والفلك ، فترك مصنفات كثيرة أهمها : " البداية " لإقليدس تعليقه علي " شرح أشكال التأسيس والهنسة للسمرقندي " .

حيث يحتوي هذا الكتاب علي 35 شكلاً من كتاب اقليدس¹.

شرح التذكرة في الفلك ، لنصير الدين الطوسي .

فوائد الجمال في أصول الهندسة .

نتائج الأفكار في كشف الرموز و الاسرار ، وطبع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة عام

1889

شرح الملخص في الهيئة للجمعيني .

الرسالة الرياضية .

نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار ، وطبع بالمطبعة الكبرى الأميرية بالقاهرة .

تعليق على " المقترحات والأسس " للسمرقندي .

كتاب " شرح ملخص في الهيئة " وهو شرح لكتاب " الملخص في الهيئة " تأليف

محمود ابن محمود بن محمد بن عمر الخوارزمي وضعه بناء على طلب أولوغ بك .

رسالة في الجيب ، وهي رسالة ذات قيمة علمية تبحث في حساب جيب قوس ذي

درجة واحدة .

شرح " كتاب ملخص في الهندسة " تأليف محمود بن محمود الخوارزمي ، وقد عمل

الشرح بناء على رغبة أولوغ بك .

رسالة عربية في الحساب ، وقد ألفها في بورصه عام 784 هـ ، قبل ذهابه إلى بلاد ما

وراء النهر ولها شرحان .

مقالة في تحديد جيب الزاوية ذات الدرجة الواحدة .

مقالة في الجيب الرباعي .

مقالة في سمت القبلة .

مقالة في علم الفلك .

تعليق على " مصدر الفلسفة " للقرظيني².

¹ - أشكال التأسيس للسمرقندي لقاضي زاده الرومي - المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات - الدار التونسية للنشر 1984 - تونس .

² - عالم الفلك الشهير قاضي زاده الرومي - مرجع سابق .

● وفاته:—

تُوفي قاضي زاده الرومي في سمرقند نحو عام 840 هـ / 1436 م ، ودفن في أحد
أضرحة شاه زينده في سمرقند .

• علي شيرنوائي:—

هو الشاعر والمفكر البارز ، عميد الأدب التركي ، ورجل الدولة ، نظام الدين مير علي شير نوائي ، من أبرز أدباء عصر الإزدهار في تاريخ الثقافة والأدب واللغة كتب أشعاره بالاسم المستعار " نوائي " باللغة الجغتائية ، وهو رائد عصر الصحوة والنهضة الاجتماعية " اللغة الأوزبكية القديمة " ، ويعتبر من أكبر شخصيات الأدب الأوزبكي الذي يطلق عليه في الغرب الأدب الجغتائي . ولا توجد شخصية مماثلة له في أداب الشعوب التركية .

• مولده ونشأته:—

وُلد علي شير نوائي في مدينة هرات التابعة لخراسان في التاسع من فبراير عام 1441¹ وعاش نوائي في طفولته مع والده في مدينة هرات ، وتعلم فيها اللغة العربية والفارسية وحفظ القرآن الكريم ، ودرس علوم القرآن والحديث والأدب والتاريخ ، ودرس كذلك في المدرسة السلطانية مع ميرزا حسين باقره ، وفي هذه الفترة نشأت بين التلميذين علاقة وطيدة حتى أنهما تعاهدا على أن من يصير سلطاناً منهما يهتم بحال أخيه . بدأ نوائي بكتابة الشعر وهو في سن العاشرة من عمره ، وتجول خلال حياته في مختلف دول الشرق الإسلامي ، والتقى بالشخصيات الشهيرة في عصره ، وطور مهاراته الشعرية ، وخلال عامي 1464 ، 1465 م ، واشتهر بلقب " ذو اللسانين "؛ لأنه برع في كتابة الشعر باللغة التركية بلقب " نوائي " ، وكتابة الشعر باللغة الفارسية بلقب " فاني " ، وقد أعد المعجبون بأشعار " نوائي " أول مجموعة شعرية له " ديوان " ، وهو ما يدل علي أنه كان شاعراً ذا موهبة فذة ومعروفاً منذ ذلك الوقت . وفي عام 1469 م ، ونتيجة للحروب الداخلية التي دارت بين التيموريين ، اضطر " نوائي " للابتعاد عن موطنه في هرات .

• إنتاجه الأدبي:—

الشاعر نوائي قمة عالية في الأدب والشعر للشعوب التركية بعد يوسف خاين حاجب .

¹ - الأديب الأويغوري علي شير نوائي - د . عبدالرحمن جمال الكاشغري - موقع آسيا الوسطي :

http://asiaalwsta.com/chardetails_print.asp?CharId=12516

فهو فيلسوف احتل مملكة الشعر كما ذكره السلطان حسين بايقرا ، وكانت آثاره قد انتشرت بشكل كبير في كل مدن آسيا الوسطى والشرق الأدنى ، نسخاً وتحقيقاً وتعليقاً¹ .
اهتم نوائى باللغتين العربية والفارسية ، وترك أكثر من ثلاثين كتاباً من عمره البالغ ستين عاماً .

ولكن العالم الخوتي الملقب بالمعزى ذكر في كتابه " تواريخ الموسيقيين " أن نوائى ألف 63 كتاباً ، ولم يكتب أحد مثله في الشرق الإسلامي .

وخلال السنوات الممتدة من عام 1490م وحتى وفاته عام 1501م كتب علي شير نوائى مؤلفاته العاطفية والاجتماعية والفلسفية والعلمية ، ووصل حجم مؤلفاته إلى حد ضخم بلغت ستة من مؤلفاته الشعرية العظيمة نحو 60 ألف سطر شعري " ميسره ، وخلال السنوات الممتدة من عام 1483م وحتى عام 1485م كتب مؤلفه الشهير " خمسة " ، الذي ضم القصائد الشعرية الخمسة : " حيرة الأبرار ، فرهاد وشيرين ، ليلي ومجنون وسبعي سيار ، سد إسكندري " والتي وضع من خلالها أسساً لتقاليد وقيم عريقة² .

نظم شيرنوائى أشعاراً وفق نظام " المثنوي " المعروف ، في الأدب الفارسي .
ووضع مؤلفات بالتركية في التاريخ والأدب ، وترجم لغيره من الشعراء الأتراك .
وتعدّ كتاباته اليوم من الأدب التراثي في التركية الجغتائية .
كتب نوائى حوالي ثلاثين عملاً أدبياً باللغة الجغتائية ، بالإضافة لكتابات بالفارسية والعربية والهندية .

وقد جمع نوائى أروع أعماله في أربع دواوين تحتوي علي حوالي خمسين ألف بيت من الشعر ، وكل ديوان من هذه الدواوين يحكي عن فترة من عمر الإنسان ، وهذه الدواوين هي " غرائب الصغر ، نوادر الشباب ، بدائع الوسط ، وفوائد الكبر " .
لم يقتصر إنتاج شير نوائى على الشعر ، ولكنه كتب في موازين الشعر التركي ، فألف كتابه " ميزان الأوزان " ، كما كتب في السير ، حيث يعتبر كتابه " مجالس النفائس " مصدراً تاريخياً غنياً في سير أربعمئة وخمسين من أدياء وشعراء العصر التيموري .

¹ - الأديب الأويغوري علي شير نوائى - مرجع سابق .

² - الأديب الأويغوري علي شير نوائى - مرجع سابق .

كذلك كتب " نوائي " أعمالاً ملحمية منها : " حيرت الأبرار ، فرهاد وشيرين ، ليلي ومجنون ، سبعي سيار ، سد سكندري " عن الاسكندر المقدوني .

— كتاب " حكمتلي سوزلار " —

كتاب " حكمتلي سوزلار " أي " كلمات حكيمة " ، وهو عبارة عن حكم باللغة التركية الجغتائية كتبه علي شرنوائي تنويجاً لأعماله الأدبية ، حيث تمثل تلك الحكم خبرة الأمم وتجارب الشعوب في الحياة ، ومما جاء فيه —
أفد حياة أبيك بحياتك ، ورأسك يجب أن يكون ثمناً لخطئك على أمك ، فهما شمس وقمر حياتك ينيران دربك ليلاً ونهاراً .

الكرم والمرؤة والدا الوفاء والحياء .

رجل بلا وفاء رجل بلا حياء ، والرجل بلا حياء رجل بلا وفاء .

ينمو العلم شيئاً فشيئاً ، كما يتكون النهر من قطرة وراء قطرة .

اترك مصاحبة من كلامه بلا فائدة ، وارع سمعك لمن كان ذا فائدة .

إذا علمك أحد حرفاً واحداً ، فكيف تكافئه حتى لو أعطيته ألف صندوق من الجواهر لن توفيه حقه

حجر يستخدم لتعبيد الطريق ، أنفع للناس من جوهرة مكنونة في مخزن .

كل الناس فانون ، وأسعدهم هو من يخلد اسمه بالعمل الصالح .

الخير والشر لا يجتمعان ، كمن وضع أرجله في مركبين فالغرق نصيبه .

من أذل نفسه لكسب المال ، لن يعيد له هذا المال عزة نفسه .

إذا أرت العزة فقلل كلامك ، وإذا أردت الصحة فقلل طعامك .

حرام أن تصف إنساناً بأنه بشر ، إذا كان فعله وقلبه كالحجر .

من تلوم إذا لم ير الخفاش جمال الشمس والعشب والشجر ؟

أفعال الجاهل تزيد السيء سوءاً ، وعالج الشر بما هو عكسه .

رجل بلا همّة كروح بلا جسد .

هل يظل المرء صديقاً إذا رحل عنك بعد انتهاء مصلحته معك ؟

عندما يكون العدل أساس الملك ، يعم الخير أرجاء البلاد .

أحسن لكلامك الاختيار ، إذا أردت لنفسك الاعتبار .

لا تعمل العقول بطريقة واحدة ، فرمما خرج معنى واحدٌ بصيغتين مختلفتين .
حتى إذا كنت ملك الملوك ، تواضع للفقراء .
الطبيب الجاهل كالجلاد ، فالسم يقتل كما السيف الحاد .

وكان من أصدقاء شيرنوائي الشاعر عبد الرحمن جامي الذي توفي عام 898 هـ / 1493م وقد وضع كُتُبًا كثيرة في الفارسية والعربية ، تناولت النحو العربي والتفسير والتصوف والشعر ، وعاش في بلاط السلطان حسين بايقرا، وكذلك المؤرخان الفارسيان ميرخوند الذي توفي عام 903 هـ / 1497 م ، وحفيده خوندмир الذي توفي عام 924 هـ / 1518 م .

يعتبر الأويغور أول شعوب الأتراك الذين عرفوا الكتابة بين الشعوب التركية واستخدموا الأويغورية القديمة ، والأويغورية القارخانية ، والأويغورية الجغتائية وجعلوها لغة موحدة بين الشعوب التركية ، حيث تعرف اللغة الجغتائية التركية بين أبناء التركستانيين¹ في البلاد العربية باللغة " البخارية " ، وحيث أنه لا وجود للغة اسمها اللغة " البخارية " ، ولكن أُطلق عليها هذا الاسم لارتباطها بالتركستانيين ، ولذلك تسمى اللغة المحكية بينهم " البخارية " .

وقد انتقلت هذه اللغة معهم حيث هاجروا ، فالأوزبك يعرفون معناها ، ويفهمونها لكنهم يقرون بأنهم لا يتحدثون بهذه اللهجة القديمة نوعًا ما ، والتي تطورت وتفرعت إلى لغتين أوزبكية ، وأويغورية .

وقد كتب بالجغتائية عدد من أبناء الجيل الأول من المهاجرين التركستانيين ، فللشيخ " موسى تركستاني " كتاب " أولوغ تركستان فاجعه سي " يتكلم فيه عن ما حل بالتركستانيين إبَّان احتلال الشيوعيين لبلادهم ، وللشيخ " يعقوب يولداش خوجة " كتاب بعنوان " تيل يوروشي " أو " قواعد اللغة الايغورية " ² و كلاهما مكتوب بالأبجدية العربية .

¹ - ظهر مصطلح تركستان في أواخر القرن التاسع عشر ، أما البخاريون فهم الذين هاجروا من آسيا الوسطى خلال عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين ، وهم يتحدثون باللغتين الأوزبكية والتاجيكية .

² - اللغة الايغورية هي اللغة الأوزبكية القديمة .

وكانت الكتب الأدبية مثل " قوتادغوبيليك " ، وعتبة الحقائق " في عصر نوائي تتسخ بالأويغورية ، وكانت اللغة الأويغورية تستخدم كلغة حية بين العلماء والأدباء في هرات وسمرقند ، لذلك كانت الكتب التي ألفها نوائي بالتركية مكتوبةً بالأويغورية الجغتائية .

قد استفاد نوائي من أساتذة الأويغور في سمرقند وهرات مثل سديد الدين الكاشغري والشاعر سهيل ، والشاعر لطفی ، ومولانا السكاکی ، وعطائي ، لذلك لم ينس نوائي في إبداعاته الأدبية أن يعبرَ عن ثقافة وحضارة الشعوب التركية خاصة في كتابه " خمسة " .

ويصف نوائي وجهة نظره في الصوفية في كتابه " لسان الطير " متبعًا بذلك خطى العطار في كتابه " منطق الطير " ، كما ترجم " نفحات الأنس " للشاعر الصوفي نور الدين عبدالرحمن جامي من الفارسية إلى الجغتائية وأسماء نسائم المحبة ، كما نظم " نوائي " عن الصوفية أيضًا ديوان " بيش حيرت " ، وله بالفارسية حوالي ستة آلاف بيت من الشعر .

ومن أعمال " نوائي " اللغوية كتابه الهام " محاكمة اللغتين " ، يقارن فيه بين اللغتين التركية والفارسية ، حيث يفضل اللغة التركية على الفارسية لغناها ودقتها وسهولة تطويعها ، خلافاً عن الفارسية حسب رأيه .

امتد تأثير أسلوب نوائي من حدود الصين شرقاً ، حتى أقصى غرب الإمبراطورية العثمانية ومن أبرز من تأثر به بابر شاه ، حفيد الأمير تيمور ، ومؤسس الإمبراطورية التيمورية في الهند ، حيث يبدو تأثيره واضحاً في كتابه " بابر نامه " ، والذي يعتبر أول سيرة ذاتية لحاكم مسلم ، و يخوض الكاتب في سيرته في شتى أنواع المجالات الحياتية من الطبيعة ، والمجتمع ، والسياسة والاقتصاد .

كتب زهر الدين بابر في عصره عن شير نوائي : علي شير نوائي لم يكن له مثيل وقد كتب الأشعار باللغة التركية بدرجة لم يستطيع أحد أن يكتب كثيرا أو جيدا مثله .

وكتب المؤرخ محمد مرزا حيدر الذي عاش بعد نصف قرن من وفاة شير نوائي في كتابه " تاريخ رشیدی " : لم يكن هناك أحد ألف شعرا أكثر ولا أحسن باللغة التركية

منه ، فقد كان " نوائي " متخصصا في هذا المجال ، وأشعاره التركية لا تقل شهرة عن أشعار الشاعر عبدالرحمن جامي .

• حياته السياسية :-

بدأت مرحلة جديدة في حياة علي شير نوائي عندما أصبح حسين بايقرا التيموري حاكماً علي خراسان في عام 1469 م ، حيث شارك نوائي بنشاط كبير في الحياة السياسية لخراسان، وذلك عندما عينه صديقه القديم ، والحاكم الجديد حسين بايقره بمنصب حامل أختام الدولة " مهردار " ، وفي عام 1472م عينه وزيراً ، ومن خلال منصبه قدم نوائي مساعدات كبيرة لرجال الثقافة والأدب ومتقفي البلاد .

خلال ثمانينيات القرن الخامس عشر شيد " شير نوائي " على نفقته الخاصة العديد من المدارس في هرات وكثير من مناطق البلاد الأخرى ، بالإضافة إلي تشييد أربعين رباطاً " أماكن لتوقف المسافرين " ، وسبعة عشر مسجداً ، وعشر ملاجئ لإقامة الصوفيين " خانقاه " وتسع حمامات ، وتسع جسور ، وبالإضافة لذلك قام بأعمال كثيرة من أعمال الخير والنفع العام ، وكل هذه الأنشطة الإيجابية التي قام بها " شير نوائي " لصالح شعبه لم ترض المحيطين بالحاكم في القصر ، وسعوا لإفساد العلاقة القائمة بينه وبين " حسين بايقره " .

نتيجة لتلك المؤامرات التي تمت ضد شير نوائي ، قام حسين بايقره بإعفائه من مناصبه وأرسله كحاكم إلى أستر آباد في عام 1487م ، وبقي فيها لمدة عامين ، ولكن بعدها سمح حسين بايقره له بالعودة إلى هرات ، وعرض عليه منصب حكومي ، إلا أن شير نوائي رفض ذلك ، وبغض النظر عن رفضه ، فقد منحه حسين بايقره منصب المقرّب من حضرة السلطان " مقربي حضرت سلطاني " ، ومن خلال هذا المنصب تمتع " شير نوائي " بحق المشاركة في جميع أعمال الدولة .

مع توليه منصبه الجديد ، بدأت مرحلة جديدة في حياة الشاعر شير نوائي ، واهتم بالأعمال الإبداعية أكثر ، وقام خلال تلك المرحلة بكتابة أهم مؤلفاته ، وعاش وأبدع خلال سنوات عمره الأخيرة في ظل حكم التيموريين خلال الفترة ما بين عام 1370 إلي

عام 1506 م ، ولهذا امتازت مؤلفاته بالروح الإجتماعية ، وتشبعت بالمشاكل التي واجهها عصره .

● وفاته:—

توفى علي شير نوائي في الثالث من يناير عام 1501 ، في مدينة هرات عن عمر ناهز الستين عاماً¹، ومرور أكثر من خمسمائة عام علي وفاته ، مازال نوائي حيا في قلوب الشعراء والأدباء ، وكذلك شعب أوزبكستان ، حيث يقرأون أشعاره في مراسم الزفاف والكوميديا وغيرها .

¹ - الأديب الأويغوري علي شير نوائي - مرجع سابق .

• علاء الدين القوشجي:—

هو علاء الدين علي بن محمد القوشجي السمرقندي ، فلكي وعالم رياضيات ، وفقّيه حنفي¹، متكلم بارع ، اشتهر في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وكتب في الرياضيات والفلك والطب واللغة والعقائد وغيرها من الموضوعات .

• مولده ونشأته:—

وُلد علاء الدين القوشجي في سمرقند ، ولم تشر المصادر إلي تاريخ مولده أو العام الذي ولد فيه ، شأنه شأن كثير من العلماء في ذلك العصر ، حيث لم يكن هناك اهتمام بحياتهم الخاصة إلا بعد بزوغ نجمهم وشهرتهم في مجالاتهم العلمية ، وخاصة أن الدولة والأسرة لم يكونا أيضاً يهتمان بتسجيل المواليد في ذلك الوقت ، أخذ العلوم المختلفة من شيوخ مدينته سمرقند ، وقرأ الرياضيات والفلك وأجادهما على العالم قاضي زاده الرومي .

كان والده من وزراء الأمير أولوغ بك ملك بلاد ما وراء النهر ، وقد قرأ علاء الدين القوشجي الرياضيات والفلك علي قاضي زادة الرومي² ، ثم ذهب إلى كرمان فقراً على علمائها وصنّف فيها شرح التجريد للطوسي ، وعاد إلى سمرقند ، واعتذر للأمير أولوغ بك عن غيبته لتحصيل العلم ، وقدم للأمير هدية سفره ، وهي رسالة في حل إشكال القمر ، وهو إشكال عجز عن حله الأقدمون ، فقرأها على الأمير الذي أعجب بها . وكان أولوغ بك قد بني مرصدًا فيها ، ولم يكمله فأكمّله القوشجي ، وعمل في المرصد ضمن فريق العمل المكون من قاضي زاده الرومي ، وغيّث الدين الكاشي ، ومعين الدين الكاشي ، وعلي الرغم من حداثة سن القوشجي ، الذي كان أصغر أفراد الفريق العلمي سنًا، إلا أنه كان واحدًا من أبرز علماء المرصد³.

¹ - معجم المؤلفين - عمر بن رضا كحالة - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

² - الأعلام - مرجع سابق .

³ - أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية - زهير حميدان - منشورات وزارة الثقافة السورية

1995 - دمشق .

كان أولغ بك يثق بالقوشجي ثقة عظيمة ورأي فيه نموذجًا طيبًا للعالم الواعد ، فأرسله إلي الصين لكي يطلع علي علومهم الفلكية ويتفقه فيها ، وضبط قياس درجة من خط نصف النهار ومقدار مساحة الأرض ، وخاصة أن مرصد سمرقند كان يضم عددًا من العلماء الصينيين .

وقد انعكست ثقافة القوشجي وعلمه ومعارفه على مؤلفاته التي تنوعت موضوعاتها فقد كتب في الرياضيات والفلك والطب واللغة والعقائد وغيرها من الموضوعات .

أكمل القوشجي عمليات الرصد التي بدأها غياث الدين جمشيد الكاشي المتوفي عام 833 هـ ، وتابعها قاضي زاده الرومي ، واستمر القوشجي يعمل في المرصد إلى أن توج مع أساتذته الأمير أولغ بك وجمشيد الكاشي وقاضي زاده عمليات الرصد بإنهاء إعداد الزيج الجديد الذي يُعد من أحسن الزيجات وأقربها إلى الصحة ، كما وصفه طاش كبري زاده في " الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية " .

طبق معارفه العلمية على عمليات الرصد العملية في مرصد سمرقند ، تلك المؤسسة العلمية التي عمل بها مجموعة كبيرة من العلماء ، وتضمنت مكتبة غنية بالمؤلفات وبرعاية سخية ودعم علمي ومعنوي من الأمير العالم أولوغ بك ، الذي كان يسمى علي القوشجي " ولدي " ، ويقول إنه كان يأتّمنه على أسرارهِ ، وحدد أولوغ بك عمله في الرصد وامتدحه بقوله : " وبعد ذلك تحقق بعون الله وبفضل وكرم دائمين من عنده سبحانه إتمام هذا العمل الشاق المرهق " أي الرصد " وذلك من خلال الاستعانة بالابن البار علي بن محمد قوشجي ، الذي أحرز في إبان الحداثة ونضارة الشباب قصب السبق في ميدان العلم الواسع " ¹ .

بعد وفاة ميرزا أولوغ بك في عام 853 هـ ، لم يتفق القوشجي مع وريثه ، فاستأذن للحج ، وفي أثناء رحلته مرّ بمدينة تبريز ، فأكرمه سلطانها حسن الطويل ، وأرسله بمهمة صلح إلى السلطان العثماني محمد الفاتح الذي قدره وأكرمه ، فأثر القوشجي البقاء تحت حمايته بعد إتمام مهمته ، وعند عودته إلى السلطان محمد ، أهدى علاء الدين القوشجي ، السلطان رسالة في علم الحساب وسمّاها " الرسالة المحمدية في الحساب " ، ورافق القوشجي السلطان محمد الفاتح عندما ذهب إلى محاربة السلطان

¹ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مرجع سابق .

حسن الطويل ، ووضع القوشجي رسالة في علم الهيئة ، سماها " الفتحية " بمناسبة فتح العراق ، وعندما رجع السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينية أعطاه مدرسة آيا صوفيا ومنحه راتباً مجزياً له ولأولاده ، واستقر القوشجي في القسطنطينية إلى أن وافته المنية¹ وترجع شهرة القوشجي العلمية إلى ابتكاره حركة ترجمة نشطة وشاملة في البلاد العثمانية التي كانت في بداية عهدها ومجدها في ذلك الوقت ، مما أدى إلى إيجاد نهضة علمية عثمانية واسعة ونشطة.

• مؤلفاته :-

الرسالة " المحمدية في الحساب " ، وقد رتبها على قسمين :-
الأول : في علم الحساب وهي مشتملة على مقدمة وخمس مقالات ، كتبها للسلطان محمد الفاتح، وأهداها إليه حين وصوله إلى القسطنطينية رسولاً من أمير تبريز حسن الطويل ، ويصفها طاش كبري زاده في كتابه " مفتاح السعادة " بأنها من الكتب النافعة في علم حساب التخت والميل ، يستخدم القوشجي في الرسالة مصطلحات جديدة منها : المثبت والمنفي بدلاً من مصطلحي : الزائد والناقص ، وانتقلت تلك المصطلحات إلى بلاد أخرى².

شرح " تجريد الكلام للطوسي " ، المعروف باسم " الشرح الجديد " .

الرسالة الفتحية في الهيئة البسيطة .

رسالة في حلّ إشكال معدل القمر للمسير .

شرح " التحفة الشاهية في الهيئة " .

" فائدة في أشكال عطار " .

" شرح زيج أولغ بك " .

" مسرة القلوب في دفع القلوب " ، وهي في علم الفلك .

رسالة " الامتحان في علم البيان " ، وهي رسالة صغيرة في البلاغة .

¹ - الموسوعة العربية الميسرة - مرجع سابق .

² - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - مرجع سابق .

رسالة في " شر الاستعارة " .

رسالة في علم الصرف سماها " العقود الزواهر في نظم الجواهر " .

رسالة في " علم الهيئة " ، وقد رتبها على مقدمة وبابين وخاتمة .

حاشية على أوائل حواشي " الكشف " للزمخشري .

حاشية علي شرح السمرقندي : وهو حاشية علي " الرسالة العضدية " للسمرقندي¹

— شرح كتاب التجريد —

يتألف كتاب تجريد الكلام للطوسي المتوفي عام 672 هـ ، من ستة مقاصد —

الأول في الأمور العامة ، والثاني في الجواهر ، والثالث في إثبات الصانع وصفاته والرابع في النبوة ، والخامس في الإمامة ، والسادس في المعاد ، وهو كتاب مشهور . شرحه القوشجي شرحاً لطيفاً ممزوجاً ، ولخص فيه فوائد الأقدمين أحسن تلخيص وأضاف إليها نتائج فكره مع تحرير سهل سوده بكرمان وأهداه إلى السلطان أبي سعيد خان ، وقد اشتهر هذا الشرح بالشرح الجديد ، وقد وصفه حاجي خليفة ، وقد طبع الكتاب في أوربا عام 1274 هـ ، كما طبع في تبريز عام 1301 هـ² .

يقول علاء الدين القوشجي في مقدمة الكتاب : إن كتاب التجريد الذي صنّفه في هذا الفن المولى الأعظم ، والحبر المعظم ، قدوة العلماء الراسخين ، أسوة الحكماء المتألهين نصير الحق والملة الدين، محمد بن محمد الطوسي، تصنيف مخزون بالعجائب وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كان صغير الحجم، وجيز النظم، فهو كثير العلم عظيم الاسم ، جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام ، مقبول الأئمة العظام ، لم تظفر بمثله علماء الأعصار، ولم يأت بشبهه الفضلاء في القرون والأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأمهات، مشحون بتنبهات على مباحث هي المهمات ، مملو بجواهر كلّها كالفصوص، ويحتوي على كلمات يجري أكثرها مجرى النصوص ، متضمن لبيانات معجزة ، في عبارات موجزة ، وتلويحات رائقة لكلمات شائقة ، يفجر ينبوع

¹ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مرجع سابق .

² - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - مرجع سابق .

السلاسة من لفظه ، ولكن معانيه لها السحرة تسجد ، وهو في الاشتهار كالشمس في رائعة النهار ، تداولته أيدي النظر ، وسابقت في ميادينه جياذ الأفكار¹ ثم أشار علاء الدين القوشجي إلى أنّ شمس الحقّ والملة والدين محمد الأصفهاني قد شرّحه قبله ، فهو قدر طاقته حام حول مقاصده ، وبقدر وسعه جال في ميدان دلائله وشواهد ، وأنّ السيد الشريف الجرجاني علّق على ذلك الشرح حواشي تشتمل على تحقيقات رائقة ، ولكن مع ذلك كان كثيراً من مخفيات رموز ذلك الكتاب باقياً على حاله إلى آخر ما أفاده في مقدمة الكتاب .

ثمّ أهدى كتابه إلى سلطان عصره أبي سعيد الكوركاني ، ولهذا الشرح حواش من المحقّقين كالمحقّق الأردبيلي وغيره ، وهذا الكتاب أبسط كتاب في الكلام الأشعري بعد شرح المواقف ، وقد شرّحه ببسط واستيعاب ، وخالفه في مواضع لا توافق منهجه الأشعري ، ولكنه أنصف في موارد حيث شرح العبارة ولم يزد عليها بشيء².

كان علاء الدين علي بن محمد القوشجي عالماً بالرياضيات والفلك ، وكتب في علوم اللغة والعقائد والطب أيضاً ، ولكن مع الأسف معظم مؤلفاته لم تحقق وتدرس وتنتشر حتى اليوم على الرغم من انتشار مؤلفاته المخطوطة في المكتبات العالمية ، وقد أسهم مع طلابه في نشر العلم في أرجاء الامبراطورية الإسلامية³.

• وفاته:—

توفي علاء الدين القوشجي عام 879 هـ / 1474 م⁴ ، في الآستانة " اسطنبول " ودفن في جوار الصحابي أبي أيوب الأنصاري .

¹ - شرح القوشجي علي تجريد العقائد للطوسي " مبحث الإلهيات " - دراسة وتحقيق د . صابر عبده أبا زيد - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الاسكندرية .

² - شرح القوشجي علي تجريد العقائد للطوسي " مبحث الإلهيات " - مرجع سابق .

³ - أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية - مرجع سابق .

⁴ - الأعلام - مرجع سابق .

• عبد الرازق السمرقندي:—

هو كمال الدين عبد الرازق بن أسحاق السمرقندي ، مؤرخ ورحالة جغرافي ، ترك آثاراً أدبية وتاريخية ، أهمها " مطلع السعدين ومجمع البحرين " ، والذي كتبه خلال الفترة ما بين عام 872 ، وعام 875 .

• مولده ونشأته:—

وُلد والديه وعاشا بمدينة سمرقند ، ومنها حصل على لقبها " السمرقندي " ، أما كمال الدين عبد الرازق فقد وُلد في هراة ، عام 816 هـ / 1413 م ، لكنه نسب إلي سمرقند لانتماء والديه إليها ، ولإقامته الطويلة بها ، حيث كان يعمل والده في بلاط الأمير تيمور ، وابنه شاه رخ ، إماماً وقاضياً .

عمل عبد الرازق السمرقندي في بلاط شاه رخ كدبلوماسي وحاكم لإحدى المقاطعات كما عاش لفترة طويلة في هرات ، وشغل فيها مناصب مسئولة في قصر الحاكم ، وأدى مهام دبلوماسية كلف بها .

وخلال الأعوام الممتدة من عام 1442 م ، وحتى عام 1444 م ، سافر إلى جنوب الهند بصفة سفيراً .

وأثناء رحلته قام بتدوين مذكراته عن تلك الرحلة ، وبالنتيجة تحولت تلك المذكرات إلى أثر مكتوب قيم¹.

يحدث خلط في كثير من الأحيان في ترجمة عبد الرازق السمرقندي ، وبين محمد بن علي ابن عمر السمرقندي ، الذي توفي عام 619 هـ ، والمعروف باسم أبي حامد . الطبيب المعروف ، الذي ترك إنتاجاً علمياً كبيراً في مجال الطب والصيدلة، منها: — أغذية المرضى ، وكتاب الأقرباذين ، ورسالة مفيدة في مداواة ألم المفاصل .

جمع معلومات جغرافية عن الهند وسمرقند وكيلان ومصر والجزيرة العربية ، ثم تفرغ للكتابة عام 867 هـ ، فأنتهى من تأليف كتابه " مطلع السعدين ومجمع البحرين " عام 872 هـ الذي اكسبه شهرة كبيرة .

¹ - المؤرخ الشهير كمال الدين عبد الرازق بن جلال الدين بن اسحق السمرقندي - د . محمد البخاري
http://bukharimailru.blogspot.com/2014/07/blog-post_21.html

يذكر نفيس أحمد في كتابه " الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي " أن عبد الرزاق السمرقندي كان يحتل مكانة مرموقة بين مؤرخي ذلك العصر، فهو العالم الذي بلور الحياة الدبلوماسية في عصره، كما أن كتابه " مطلع السعدين ومجمع البحرين " من أهم المصادر الأصلية التي تمدنا بالمعلومات عن المعرفة الجغرافية في ذلك العصر . ولكن مما يؤسف له أن كتابه غير معروف كثيراً لدى الباحثين في العالم العربي والإسلامي، وقد نشر محمد شفيع الجزء الثاني من هذا الكتاب الثمين في مدينة لاهور في باكستان في ثلاثة أجزاء عام 1368 هـ¹.

• مؤلفاته:—

كتاب " مطلع السعدين ومجمع البحرين " .

كتاب " شرح الرسالة العضدية في معني الحروف والإشارات " .

يعتبر كتاب " مطلع السعدين ومجمع البحرين " والذي يتكون من مجلدين وثيقة تاريخية مهمة ، حيث تحدث عن تاريخ بلاد فارس ، وركز عبد الرزاق السمرقندي فيه علي تاريخ المغول والأمير تمور وشاه رخ ، فخرج الكتاب بصورة جميلة ، وصار من أهم المراجع في هذا المجال ، ويقف في مقدمة المراجع الأولية لتاريخ وجغرافية منطقة الشرق الأوسط ، ولكن مادته الجغرافية موزعة حسب الموضوعات التي كتب عنها المؤلف².

عمل ازدهار الدولة التيمورية علي ازدهار مختلف جوانب الحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية ، وقد ازدهر تبعاً لذلك فن كتابة التاريخ في العصرين المغولي والتيموري ازدهاراً كبيراً ، وأدى ذلك إلى ظهور عدد كبير من الكتب والموسوعات التاريخية ومن ضمن هذه الكتب كتاب " مطلع السعدين ومجمع البحرين "، حتى أن النقاد أطلقوا على هذه الفترة عصر تدوين التاريخ .

كتاب " مطلع السعدين ومجمع البحرين " عبارة عن مخطوطة ، كتبها " عبد الرزاق كمال الدين بن إسحاق السمرقندي ، حيث يقدم الكتاب رواية شبه رسمية للتاريخ

¹ - رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية - مرجع سابق .

² - رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية - مرجع سابق .

السياسي للخانات في أواخر عهد المغول والأنظمة السياسية التيمورية في القوقاز وإيران وخراسان وبلاد ما وراء النهر .

ويوثق المجلد الأول من المخطوطة الفترة من عام 1316 ، عندما وصل " أبو سعيد بهادر خان " ، آخر أكبر الخانات المغوليين ، للسلطة في بلاد فارس ، وحتى وفاة " الأمير تيمور " ، مؤسس الأسرة التيمورية ، في عام 1405 .
وتُعد هذه الفترة مركزية في تاريخ المنطقة باعتبارها فترة غنية بالتحويلات الاجتماعية والسياسية المهمة¹.

ويروي المجلد الأول من المخطوطة كيفية تفكك خانات المغول ، وتتأقُس الأنساب المغولية وغير المغولية من أجل السيادة ، وتأسيس النسب التيموري لنفسه على أنه الجماعة السياسية والاجتماعية المهيمنة .

وتتناول المخطوطة " الأمير تيمور " ووصوله إلى السلطة ، وأحفاده المباشرين .
وخلف " الأمير تيمور " ابنه " شاه رخ " ، حيث ازدهر " عبد الرزاق السمرقندي " في عهده حينما كان يعمل قانونياً في البلاط ومؤتمناً وسفيراً ، حيث أخذت البعثات الدبلوماسية " عبد الرزاق السمرقندي " إلى أماكن عدة في أوراسيا ، مثل كاليكوت " كوزيكودي " في جنوب غرب الهند في عام 1442 .

وقد وُصفت كذلك الشخصيات والأحداث الرئيسية الواردة في المجلد الأول من المخطوطة من عمل " عبد الرزاق السمرقندي " في نصوص معاصرة أخرى .
يروى المجلد الثاني من المخطوطة " عهد شاه رخ " وأحفاده ويُغطي تقلد السلطان " حسين بايقرا " عرش خراسان وأحداثاً أخرى كان " عبد الرزاق السمرقندي " شاهداً عليها .

وتُنتهي مقدمة الكتاب الوصفية على الله سبحانه وتعالى ، والنبى محمد ﷺ ، والخلفاء الراشدين الأربعة في الإسلام .

¹ - مطلع السعدين ومجمع البحرين لعبد الرزاق السمرقندي - ترجمة ودراسة : أحمد رياض عز العرب - رسالة ماجستير 1997 - كلية الآداب - جامعة سوهاج .

وتشرح أن " عبد الرزاق السمرقندي " كان يرغب طويلاً في كتابة عمل تاريخي لكنه مُنع من القيام بذلك بسبب عدم الاستقرار السياسي وغيره من المشكلات .
إلا أنه في إحدى السنوات في عيد النوروز " السنة الجديدة " شجعه صديقه القديم الشيخ " معز الدين حسين " على الانتهاء من كتابة نصّه .

وقد وُصِفَت الأحداث وفقاً لترتيب زمني باستخدام التقويم الهجري الإسلامي . كُتِبَت عناوين كل حدث وآيات من القرآن والقصائد جميعها بالحبر الأحمر .
وتبدأ الأحداث في العادة بإحدى العبارات التالية : " ذِكر " ، و " وقائع " ، و " إرسال " وقد رُقِمَت الصفحات إلا أن الأرقام لا تظهر على بعض الصفحات الأولى بسبب أضرار ناجمة عن بلل ؛ كذلك فإن الصحيفة رقم 11 مفقودة .

اتبع عبد الرزاق السمرقندي منهج التدوين حسب السنين ، وهذه الطريقة تتطلب من المؤرخ أن يتوقف عن سرد الأحداث إذا ما انتهت السنة التي يتحدث عنها ، كما أن المخطوطة تدل علي أن " السمرقندي " لم يكن مجرد عارض للأحداث التي يذكرها بل كان محللاً لهذه الأحداث ، وكان يذكر سبب وقوع الحدث ، وأن معظم ما ذكرته المصادر التاريخية العربية عن إيران في تلك الفترة يتفق مع ما ذكره " عبد الرزاق السمرقندي " ¹.

اعتمد عبد الرزاق السمرقندي في تصنيف كتابه لعي المعلومات الميدانية التي اكتسبها في رحلاته الكثيرة ، وأيضاً علي بعض مؤلفات العلماء في مجال التاريخ والجغرافيا ، وفي مقدمتها كتاب " زبدة التواريخ " لحافظ آبرو الجغرافي الفارسي المتوفي عام 833 هـ ²
استخدم عبد الرزاق السمرقندي أسلوباً في الكتابة يغلب عليه السجع والاستشهاد ببعض الأبيات الشعرية ، ولكن في غير تكلف ، فقد كان يحاول بكل جدية أن يسيطر علي مشاعر الباحث والقارئ لنتائجه ، حيث ابتعد عن الأسلوب العلمي الجاف ، وقد ضمن كتابه بعض الأفكار الجغرافية بأسلوب أدبي .

¹ - مطلع السعدين ومجمع البحرين لعبد الرزاق السمرقندي - مرجع سابق .

² - رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية - مرجع سابق .

كما استخدم علاقاته الشخصية القوية بالأمير شاه رخ الذي كان يحب مجالسة العلماء بأن طلب منه أن يزور بعض المدن التي يعيش فيها كثير من العلماء والمفكرين في العالم الإسلامي المنتور في ذلك الوقت ، ولذا عمل صداقات قوية مع كبار المفكرين في هذه البلدان ، فكان الاتصال وتبادل المعلومات الجغرافية والتاريخية والأدبية مستمراً بينهم ، وكان ذلك من الأسباب الرئيسية التي جذبت انتباه عبد الرازق السمرقندي للبحث والتنقيب والاستقصاء في إسهامات العلماء الأوائل في حقل الجغرافيا والتاريخ .

وقد دون عبد الرازق السمرقندي كل ما عني به من أحوال بلاده التاريخية والجغرافية والسياسية بأسلوب أدبي متناسق سهل ، فترك ميراثاً ثميناً عن العصر الذي عاش فيه¹

● وفاته :-

توفي عبد الرازق السمرقندي عام 887 هـ / 1482 م .

¹ - رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية - مرجع سابق .

الفصل الثالث

القادة وأحكام

● محمود الغزنوي:—

هو يمين الدولة عبد القاسم محمود بن سبكتكين ، القائد ، ورجل الدولة الملقب باسم سيف الدولة ، ويمين الدولة ، وأمين الملة ، والغازي ، وبطل الإسلام ، وفاتح الهند ومحطم الأصنام ، ويمين أمير المؤمنين ، ورغم ذلك عرف في التاريخ بالسلطان " محمود الغزنوي " ، والذي حكم الدولة الغزنوية في الفترة من عام 998 م إلى عام 1030 م في زمن الخلافة العباسية¹ ، فقد استطاع كقائد حربي وسياسي بارع إلي الارتقاء بالدولة الغزنوية والتوسع بها إلي أقصى اتساع لها داخل الهند حيث امتدت من بخاري وسمرقند إلي كوجرات وقنوج ، وشملت أفغانستان وخراسان وبلاد ما وراء النهر وسجستان وطبرستان وكشمير ، وشمال غرب الهند .

● مولده ونشأته:—

توجد روايتان حول اليوم الذي وُلِد فيه " محمود الغزنوي " ، الرواية الأولى تقول إنه وُلِد في الثاني من نوفمبر ، أما الرواية الثانية فتقول إنه وُلِد في الرابع عشر من نوفمبر بينما اتفقت الروايتان حول مولده في شهر نوفمبر عام 971 م ، في بلخ إحدى بلاد بخاري وكان والده " سبكتكين " قائداً عسكرياً ، أما أمه فكانت تنسب إلي أصل فارسي من منطقة " زابلستان " ²، تولى السلطان " محمود الغزنوي " الإدارة في سن مبكر ، حيث بدأ أعماله السياسية بإدارة منطقة " زمين دفر " خارج مدينة غزنة ، حيث استطاع الحاكم الساماني بالقضاء علي تمرد حاكم خراسان عام 994 م ، بمساعدة قوات " سبكتكين " والد السلطان محمود ، الأمر الذي جعل الحاكم الساماني منح " سبكتكين " لقب " ناصر الدين والدنيا " ولكن " سبكتكين " اختار لنفسه لقب " سيف الدولة " .

بعد وفاة " سبكتكين " نشأ خلاف كبير بين ابنه " اسماعيل " ، و " محمود " ، حيث أعلن " اسماعيل " حاكماً للدولة الغزنوية ، مستنداً علي وصية لوالده بذلك ، رغم أنه الأصغر من أخيه ، إضافة إلي قلة خبرته وحنكته السياسية والعسكرية ، الأمر الذي

¹ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

² - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - تحقيق : خليل شحادة - دار الفكر - الطبعة الثانية 1988 - بيروت .

جعل شقيقه " محمود " الذي كان متواجداً في نيسابور أن يعرض علي أخيه التنازل عن الحكم مقابل حكم خراسان وبلخ ، لكن " اسماعيل " رفض ذلك العرض ، فنشبت بينهما معركة حربية في مارس 998 م ، انتصر فيها " محمود الغزنوي " ، وتولي حكم الدولة الغزنوية ، بعد فرار أخيه ومقتله بعد ذلك بسبعة أشهر ، وتبدأ الدولة لغزنوية مرحلة جديدة حافلة مع بداية حكم السلطان " محمود الغزنوي " ، وتصل إلي أقصى اتساع لها¹.

اشتهر محمود الغزنوي بالحكمة والمعرفة وحبه للعلم ، فقد كان يهتم بالعلماء والأدباء ويقربهم منه ، لذلك ظهر في عهده العديد من العلماء والأدباء والشعراء الذي تركوا ميراثاً علمياً وأدبياً كبيراً منهم ، ابن سينا ، وأبو الريحان البيروني ، وأبو الفتح البُستي والعسجدي ، وأبو قاسم الفردوسي ، وأحمد بن الحسين البيهقي ، وأبو الحسن علي بن جلوغ الفرخي ، وأبو النجم أحمد بن قوص المنوچهري ، والعنصري ، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي ، وأبو منصور محمد بن أحمد الدقيقي ، وأبو زيد محمد بعن علي الرازي الغضائري، كما كان عادلاً بين رعيته ويحسن إليهم، وكان غيوراً علي دينه ويسعى إلي نشره، فأحب الجهاد كثيراً، وقضى أغلب عمره في الحروب والفتوحات .

ارتفعت الدولة الغزنوية إلي قمة القوة والتقدم في وقت قصير ، حيث اتصف محمود الغزنوي بحسن القيادة والإدارة ، إضافة إلي شجاعته وبطولاته العسكرية ، فقد استطاع السلطان محمود أن يقهر السامانيين وأن يغزو بلاد الهند ، حتى استطاع تكوين دولة وية مترامية الأطراف قبل وفاته عام 1030 م / 421 هـ ، وبعد وفاته بسبع سنين انتقل ملكه العريض إلي دولة السلاجقة ، إلا أن دولته التي أسسها لم يتم القضاء عليها فعلياً إلا في عام 582 هـ ، عندما استولى الغوريون علي آخر ممتلكاتها في الهند .

• غزو الهند:-

مع بداية حكمه ، عقد السلطان محمود الغزنوي معاهدة مع جيرانه الشماليين من القاراخانيين .

وبداً على إثر تلك المعاهدة في حروبه باتجاه الهند ، وقد قام بما يقرب من سبع عشرة معركة ضد الهنود في الفترة من عام 1001 م إلى عام 1027 م .

¹ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - مرجع سابق .

حيث كان الهدف الرئيسي لتلك الحروب هو وصول الإسلام إلى تلك البلاد ، وزيادة عدد الجيش الغزنوي ، وجمع الغنائم ، وكانت أولى حروبه في الهند في شهر قد سبتمبر عام ألف ميلادية ، وقد سيطر بعد تلك المعركة على عدة قلاع هندية ، ثم خرج في جيش مكون من 15 ألف جندي يمتطون ظهور الخيول ، حيث نشبت معركة بينه وبين جيبال ، الذي كان جيشه يعتد علي الفيلة في 27 نوفمبر 1001 م ، وانتصر فيها السلطان محمود الغزنوي وغنم فيها غنائم كثيرة كانت الفيلة من ضمنها ، ثم تواصلت معاركة في الهند فكانت المعركة الثالثة في ، منطقة بهتيا التي لم تدعمه في حملته الثانية ، حيث كانت تلك المنطقة تحت قيادة باجي راي ، وعندما هُزم باجي راي في تلك المعركة أصبحت تلك المنطقة في يد الغزنويين ، وفي عام 1006 كانت الحملة الرابعة للسلطان محمود الغزنوي ضد أبو الفاتح داود زعيم حركة الباطنية ، وقد استولي علي ملتان والبنجاب .

توقفت حملات محمود الغزنوي في الهند فترة من الزمن أثناء انشغاله بحروبه في الشمال مع القاراخانيين ، واستغل صوبحال والي ملتان انشغال السلطان محمود بحروبه في الشمال ، فارتد عن الإسلام وعاد إلي الهندوسية دينه القديم ، وقد علم محمود الغزنوي بهذا في يناير 1008 م ، وعلى الفور قام بحملته الخامسة إلى الهند وأعاد ملتان إلى حكمه مرة أخرى .

وكانت حملة محمود الغزنوي السادسة إلى الهند في 31 ديسمبر 1008م لإخضاع الرجا " أمير " الذين رفضوا الإسلام في أنحاء البنجاب .

وقد أتم هذه الحملة بالنصر في شهري أغسطس وسبتمبر 1009 م ، وأخضع المناطق الشمالية لسلطانه ، وقلت سيطرة الأمراء الهنود على ولاياتهم .

والحملة السابعة نحو الهند فكانت لتوقيع اتفاقية تجارية .

أما الحملة الثامنة للسلطان محمود فكانت في أكتوبر 1010 م ، وفي تلك المرة لم يواجه محمود الغزنوي أية صعوبات وضم ملتان تحت حكمه بشكل كامل ، أما حملته التاسعة فكانت إلى سلط رنجا في منطقة ناندانا.

حيث هزم الأمراء الذين لم يرغبوا في أن يكونوا تابعين له في ناندانا .

وعلى أصداء انتصارات محمود الغزنوي بدأ الدين الإسلامي ينتشر في شمال الهند¹. توجه محمود الغزنوي بحملاته في الهند إلى مدينة زان ور التي تبعد عن دلهي نحو 150 كيلو متراً شمالاً ، فقد كانت تلك المدينة مقدسة بالنسبة للهنود ، واستطاع دخولها خلال شهري أكتوبر ونوفمبر 1014 م ، ثم توجه في أواخر عام 1015 م ، نحو أجره التي كانت تعد من أهم المدن الهندية ، وأقواها عسكرياً نظراً لحصونها المنيعة ، وبعد عدد من المعارك ، ووصول نحو 20 ألف مقاتل من تركستان دعماً لجيشه ، استطاع دخول أجره عام 1018 م ، وفي عام 1021 م ، توجه نحو كشمير التي لم يستطع دخولها من قبل ، ولكنه بسبب البرد لاشديد لم يستطع اقتحام قلعة لوكهوت ، ثم توجه في عام 1022 م إلى قلعة قلين جار التي كان قد هزم أميرها من قبل ، ولكنه لم يدخل تحت طاعة محمود الغزنوي بشكل قاطع ، إلا أنه ربطها بالجزية ولم يستولى عليها ، وعاد إلى غزنة في شهر إبريل 1023 م .

كانت حملة محمود الغزنوي السادسة عشر من أهم الحملات التي عرفت في التاريخ حيث استطاع الاستيلاء علي صومنت بعد أن حاصرها في 8 أكتوبر 1026 م ، ثم كانت آخر حروب الغزنوي السبعة عشر في الهند عندما هاجمه الجاتيين أثناء عودته المضفرة من صومنت ، ولكنه قام بهزيمته ، وتوسع في تلك الحملة حتى وصل إلى نهر الجانج وأرسى أساس حكم الأتراك في الهند .

أراد السلطان محمود غزو بلاد المولتان ، ولكن نهر سيحون لم يسمح له بالعبور إلى المولتان ، فأرسل رسالة إلى أندبال ملك الهند التي كانت تقع بين الدولة الغزنوية والمولتان ، يطلب منه فيها الإذن بعبور بلاده إلى المولتان لكن أندبال لم يجبه ، فقرر أن يجمع بين الغزوتين ، وغزا السلطان محمود بلاد أندبال ولاحقه من بلد إلى بلد حتى وصل إلى حدود كشمير ، وعندما سمع أبو الفتوح بالأمر أدرك أنه لا يستطيع الوقوف في وجه محمود وقتاله ، فأرسل أمواله إلى سرنديب " جزيرة سريلانكا " ، ثم وصل السلطان محمود إلى المدينة ، فقاتله أهلها فحاصروهم حتى فتحوا له المدينة من تلقاء أنفسهم .

¹ - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - مرجع سابق .

• السيطرة على خوارزم:-

كان محمود الغزنوي يريد في كل فرصة متاحة له السيطرة على خوارزم ، وقد تحقق له ذلك في عام 1017 م ، من دون قتال وذلك عندما عقد معاهدة سلام مع حاكمها وأصبحت تابعة له، وقد قُرأت الخطبة باسم محمود الغزنوي هناك ، وقد أدى هذا إلى حدوث نزاعات بين قواد الجيش في خوارزم، ولهذا حدث تغير في عرش الحكم في 17 مارس 1017 م ، وقد خرج الكرخانيين للسيطرة على العرش ، إلا أن الغزنوي قام بهزيمة المتمردين في 3 يوليو 1017 م ، ودخل في طاعته جرجانج وأصبح حاكماً عليها مما اضطر الكرخانيين للقبول بهذا الوضع مجبرين .

قام محمد شهاب الدين الغوري بالخروج من طاعة الغزنويين بعد وفاة محمود بن سبكتكين الذي كان قد سيطر على تلك المنطقة الواقعة في ولاية غور من قبل . والتي يطلق عليها أحياناً **مَنْدِش** .

هذا الخروج جعل **محمود الغزنوي** يقوم بردعه ، وذلك خشية أن تكون بدابة لخروج غيره من سلطة الدولة الغزنوية ، وفي عام 1011 م ، قام محمود الغزنوي بحملة علي الغوري لإعادة المنطقة إلى حظيرة الدولة الغزنوية من جديد ، وعندما علم الغوريون بذلك تشتتوا في الجبال لعلهم بعدم قدرتهم على هزيمة الغزنوي ، وحتمية خسارتهم وبعدها بسنوات قام الغزنوي بعدة حملات للسيطرة عليها ، وفي عام 1020 أرسل ابنه مسعود للسيطرة على القلاع الباقية فيها ، ونجح في جعل تلك المنطقة تابعة لحكمه بشكل نهائي¹.

قام **محمود الغزنوي** بإرسال سفير إلى حاكم كارجيستان في عام 999، وطلب منه أن ينضم إلى الدولة الغزنوية.

وقد قبل حكم كارجيستان وقتها طلب الغزنوي، وقُرأت الخطبة باسمه، وعندما تغير هذا الوالي لم يعترف الوالي الجديد بقوة الغزنوي وتفوقه وعندما علم الغزنوي بهذا قام بإرسال قواد جيشه ووالي معه إلى كارجيستان ، وكنتيجة لتلك الحركة الناجحه أصبحت كارجيستان تحت سيادة الغزنوين بشكل نهائي وكامل في عام 1012 .

¹ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

وألقي القبض علي حاكم كارجيستان المتمرد ووضع في الأسر حتي توفي في السجن في عام 1016 م .

بعد أن استقرّ ملك خراسان للسلطان محمود ، وملك بلاد ما وراء النهر لإيلك خان تصالحا واستقرّت أمورهما، لكن إيلك الخان كتم كرهه للسلطان محمود حتى ذهب إلى المولتان حين أرسل جيشه بقيادة سباشي تكين، بينما اتجه أخوه جعفر تكين مع مجموعة من الأمراء إلى بلخ في عام 396 هـ ، وكان السلطان محمود قد وضع إرسال الجاذب حاكماً لحين عودته ، وأوصاه أن ينسحب إلى غزنة في حال هاجمه أحد الجيوش فذهب إلى غزنة حين وصل خبر جيوش إيلك الخان ، وحينها استولى سباشي تكين على هراة وأقام فيها وأرسل من يحتلّ نيسابور .

وكان السلطان محمود قد خرج من الهند وفي طريقه إلى خراسان ، وقد أنفق الكثير من الأموال على جيشه لتقويته ، كما جاء بعدد من المحاربين من القبائل التركية وسار إلى بلخ ، حيث يوجد فيها جعفر شقيق إيلك الخان ، واسترجعها ولكن جعفر هرب إلى ترمذ ، وبعد ذلك أرسل السلطان محمود جيشه إلى هراة ، فذهب سباشي إلى مرو لكي يعبر النهر هرباً من جيش السلطان محمود ، فقابلته التركمان الغزية فهزموهم وقتل منهم الكثير ، ثم سار إلى أبيورد ، وظلّ السلطان محمود يطاردهم حتى وصل سباشي إلى جرجان فأخرجه أهلها منها فعاد إلى خراسان وهناك ألقى السلطان محمود القبض على أخيه وأسره ولكنه هرب من الأسر .

أرسل إيلك خان أخاه جعفر إلى بلخ لكي يشغل السلطان محمود عن مطاردة سباشي لكن الغزنوي لم يكثر له وتابع مطاردته حتى هرب سباشي من خراسان ، وحينها عاد السلطان محمود إلى بلخ وقاتل جعفر وهزموه شرّاً هزيمة وسُلّمت خراسان إليه ورغم ذلك كان إيلك خان مصرّاً على الاستيلاء على خراسان ، ولذلك فقد راسل قدر خان بن بغراخان ملك الختن ، وقد كانت توجد قرابةً بينهما ، ثم جاء قدرخان إلى إيلك خان وعبرا معاً النهر إلى خراسان ، وقد وصل خبر هجومهما إلى السلطان محمود الغزنوي وهو في طخرستان فذهب على عجل قبل وصولهما إلى بلخ ، فبدأ يستعد للحرب وجمع الأتراك الغزية والخلج والهند والأفغانية والغزنوية وذهب وعسكر في

مكانٍ فسيحٍ جيّدٍ للحرب ، ووصل إيلك وقدرخان وتقاتلوا مع السلطان محمود حتى الليل واستمرّ القتال في اليوم التالي حتي انتصر محمود الغزنوي في المعركة وردّ إيلك خان وقدر خان وهزمهما شر هزيمة .

كان السلطان محمود قد صالح ملك قصدار على مبلغٍ من المال يدفعه ملكها إلى السلطان محمود كل فترة ، لكن عندما وجد ملك قصدار بلاده محصّنة توقف عن دفع المال ، بالإضافة إلى أنه كان قد تحالف مع إيلك خان فقرّر محمود الغزنوي الزحف نحوه ولكن قبل أن يذهب السلطان محمود إليه حدثت مشكلةٌ بينه وبين إيلك خان فانهار التحالف الذي كان بينهما ، فسار السلطان محمود إليه على الفور في عام 402 هـ وترك غزنة في جمادى الأول وأعلن أنه ذاهبٌ إلى هراة للتمويه لكنه غير طريقه بسرعةٍ باتجاه قصدار ، وحاصر السلطان محمود قصدار في الليل وطوّقها فاستسلم ملكها في الصباح عندما أدرك أن السلطان محمود قد وصل وحاصر بلاده ، وأخذ السلطان محمود منه ما تراكم عليه من المال لكنه تركه حاكماً على قصدار .

عندما فتح السلطان محمود فنوج " وهي ولايةٌ هندية " هرب ملكها رأي فنوج¹ وأرسل إليه بيّدا، الذي كان يعد من أعظم ملوك الهند ، والذي كان يحكم مملكة كجوراهة ليؤنّبه على تسليم بلاده للمسلمين والهرب منها ، ولكنهما سرعان ما اختلّفا ودخلا في معركةٍ قُتل فيها فنوج ومعظم جنوده ، ثم هزم بيّدا معظم الملوك الهنود الآخرين الذين فروا من السلطان محمود ووضعهم تحت رحمته ووعدهم بإعادة بلادهم إليهم ، فغضب السلطان محمودٌ وسار إلى بيّدا وهزمه وغنم منه وعاد إلى غزنة .

سار السلطان محمود بعد ذلك وعبر نهر كنك ، ثم تابع سيره ، وحينها وصلت إليه أخبارٌ عن ملكٍ هنديٍّ يسمّى تروجينال ، فسار إليه حتى التقيا على جانبي نهر من الأنهار فهزمه السلطان محمود ، فطلب الأمان ولكن الغزنوي لم يقبل بذلك إلا في حال أسلم تروجينال فهرب إلى بيّدا ، ولكن أثناء طريقه إلى هناك قتله بعض الهنود ممّن رافقوه ، وبعد ذلك أخذ الكثير من ملوك الهند يرسلون السلطان محمود ويُظهرون له الطاعة ، فتوجه السلطان محمودٌ بعد ذلك إلى مدينة باري وغزاها ، وأخذ مجدداً يبحث

¹ - رأي هو لقب يحمله الحاكم ، مثل سلطان ، أو أمير ، أو ملك .

عن بيدا ، الذي كان يشكل تهديداً له بين الحين والآخر ، فعثر عليه وتواجه معه في معركة كان بيدا قد استعد لها جيداً، حيث كان جيشه يتكون من 55 ألف فارس ، 185 ألف مقاتل ، 750 فيلاً ، والتقى الجيشان حتي الليل ، وفي صباح اليوم التالي وجد السلطان محمود أنّ جنود بيدا قد فروا في اتجاهات مختلفة وتفرقوا بعدما تركوا الأموال والأسلحة ، فغنمها السلطان محمود ثم سار إلى جنود بيدا الباقون فقتل معظمهم ، لكن بيدا نجا بعد أن فر هارباً مع مجموعة من جنوده .

• حروب السلطان محمود الغزنوي الخارجية:-

قام السامانيون باحتلال خراسان أثناء انشغال محمود الغزنوي بالحرب ضد أخيه إسماعيل على العرش عام 998 ، حيث أعلن منصور الثاني أنه لن يُعيد خراسان التي قام باحتلالها إلى السلطان محمود ، وعلى إثر هذا قام الغزنوي بالتوجه نحو نيسابور فقد كان الغزنوي لم تكن لديه الرغبة في مهاجمة والي خراسان بيكتوزون ، والذي أتى به منصور الثاني لمساعدته ومعه قوات فائقة ، ورضي بالإنظار لتفويت الفرصة على الكرخانيين الذين إقتربوا من بلاد ما وراء النهر ، وقد قام فائق ومعه بيتوزون بعزل منصور الثاني لعدم ثقتهم فيه ، وجلبوا مكانه عبد الملّيك بن نوح الذي كان في عُمر صغير وقتها ، فانتهر السلطان محمود الفرصة ، والتقى معهم في مواجهة انتهت بهزيمة الإتحاد الذي قام به بيكتوزون وفائق ومعهم أبو القاسم السيمجوري في 16 مايو 999 ، وسيطر على خراسان من جديد ، وعين أخوه نصر واليا عليها ، وقد استفاد الكرخانيون من وضع السامانيين الذين دب فيهم الضعف وقاموا بإسقاط الدولة السامانية وقد استفاد الغزنوي من ذلك ، حيث أصبحت الدولة الغزنوية مستقلة بشكل تام وسقطت تبعيتها لأي دولة أخرى¹.

كانت العلاقات بين الغزنويين والقاراخانيين ودية في عهد ناصر بن على ، وقد استمرت تلك العلاقات الودية بينهما حيث تزوج محمود الغزنوي من ابنة ناصر بن على في عام 1001 ، إلا أن تلك العلاقة لم تدم طويلاً بسبب رغبة ناصر بن على بالسيطرة على كل الأراضي المتبقية من السامانيين ، وقد قام ناصر بن على بإرسال

¹ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - مرجع سابق .

جيش إلى خراسان في الوقت الذي كان فيه الغزنوي يحارب في الهند ، وعندما علم الغزنوي بهذا قام لتدعيم جيشه بالخلابيين والأفغان ، وقام بإبعاد قوات ناصر بن على عن المدينة في شهري سبتمبر وأكتوبر عام 1006 ، إلا أن ناصر بن علي لم يتراجع ، وفي 5 يناير 1008 ، قام بالتقدم ما يقرب من 20 كيلو متر طوليا في بلخ والتقى الجيش القاراخاني بجيش الغزنويين ولم يستطع الكرخانيين مهاجمة الجيش الغزنوي بسبب وجود الفيلة أمامه ، وفقدوا قدرتهم على تبادل الهجوم والمواجهة ، وكان هذا آخر فرصة قام به القاراخانيين للسيطرة على خراسان .

حدثت نزاعات بين القاراخانيين على العرش ، فقد استولى أبو منصور أرسلان خان على العرش ، ولم يختار أن تسير الأمور بشكل جيد مع محمود الغزنوي، إلا أن يوسف قادر خان بدأ صراعاً جديداً على العرش ، وطلب المساعدة من الغزنوي . وبينما كان الغزنوي مشغولاً في حروبه بالهند ، رأى أبو منصور أن هذا الوقت مناسب للسيطرة على خراسان ، وكون جيشاً متحداً من القاراخانيين ، إلا أن الغزنوي قام بهزيمة هذ الجيش في عام 1020 وعاد مرة أخرى إلى الهند .

قام أبو منصور بالإنسحاب من السلطة ، وترك العرش للأمير يوسف قادر خان ، الذي طلب المساعدة من الغزنوي مرة أخرى لمواجهة أخوته ، ولكن تلك المرة قبل طلبه وتقابل مع المتنافسين على الحكم في سمرقند في مارس وإبريل عام 1025 ، وعقد بينهم إتفاقاً ، وعندما علم يوسف خان بهذا الاتفاق فرَّ هارباً ، ومن ثم تجنب الكراخانيين النزاعات المستمرة على العرش .

كان الأغوز عبارة عن مجموعة من التركمان ، يتكونون من أربعة آلاف خيمة وتابعين أرسلوا يابغو .

وقد طلبوا الإذن من السلطان محمود للعبور من خراسان بدلا من العبور من بلاد ما وراء النهر لأنهم يعانون من العبور من تلك المنطقة .

وقد فكر الغزنوي أنه يمكنه أن يستفيد من القوة العسكرية لتلك المجموعة ، فسمح لهم بالمرور من نهر جيحون على الرغم من مخالفة أرسلان جاذب والي طوس ، إلا أن الأغوز كانوا يُقعون المدن التي يمرون بها في ظروف اقتصادية صعبة .

وفي عام 1028 م ، ارتفعت نسبة شكوى السكان الأصليين منهم إلى السلطان محمود . وعلى فأرسل الغزنوي جاذب إلى الأغوز .

إلا أن أرسلان لم يستطع حل المشكلة ، وعند إتهامه بالفشل ، أوضح أن قوة الأغوز قد زادت وأنهم يتفوقون على جيش ولاية ، ودعى محمود الغزنوي بشخصه لمحاربتهم . وعلى الرغم من مرض محمود الغزنوي إلا أنه تحرك إلى طوس في 1028 م ، واتحد مع جيش جازب ، وأوقع الهزيمة بالأغوز .

وقد قُتل خلقٌ كثير من الأغوز في تلك المعركة ، أما الباقون فقد عاش جزء منهم في الجبال وهرب جزء آخر منهم إلى كرمان ، وتمت ملاحقة الأغوز في الداخل والخارج حتى موت السلطان محمود ليتم تنظيف البلاده منهم¹

كانت توجد بين الغزنويين والزياريين الذين حكموا طبرستان وهيركانيا علاقة جيدة حتي عام 1012 ، وذلك عندما تمرد الجيش وعزل قابوس بن وشكمير ، حيث خرج دارا شقيق الحاكم قابوس بن منوتشهر الملقب بفلک المعالي ضده ، وقد دعمه محمود الغزنوي وأعطاه الإذن باللجوء في بلده .

وعندما وصل قابوس خبر خروج أخيه دارا للذهاب إلى الغزنوي ، قام على الفور بإعلان أنه تابع للغزنوي ووعده بدفع 50 ألف دينار كل سنة كجزية ليتمكن من البقاء في الحكم .

وكان من آن لأخر يرسل الجنود إلى جيش السلطان محمود ، وقد ظن قابوس أن منطقته في خطر شديد بعدما سيطر الغزنوي على الري فقام بقطع طريق ذهاب الغزنوي ليجمي أراضيه ، فكان هذا التصرف الذي ظن قابوس أنه بإمكانه أن يُعيق حركة الغزنوي ، دفع في مقابله جزية قدرها 500 ألف دينار في عام 1029 م ، وبعدما مات قابوس جاء ابنه أنو شوروان خليفة له ، وطلب من الغزنويين الاعتراف به مقابل دفع جزية قدرها 500 ألف دينار .

أما عن العلاقة بين الغزنويين والبويهيين ، فقد كانت تلك العلاقات ودية حتي عام 1012 وذلك عندما بدأت النزاعات على العرش تتصاعد ، فلم يفوت الغزنوي تلك الفرصة

¹ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

خاصة بعدما طلب أبو الفوارس من محمود الغزنوي أن يساعده ليسيّطر على عرش البويهيين ، وقد وفر جواب السلطان محمود لهذا الطلب أن أعاده حاكم من جديد على كرمان ، وبعد فترة فسدت العلاقات بين أبو الفوارس الذي يسيطر على شيراز وقائد القوات الغزنوية أبو سعيد ، ومن ثم فقد سحب الغزنوي دعمه لأبو الفوارس ، الذي فر هارباً من الجيش الغزنوي في كرمان .

طلب حاكم الري الذي حصل على حكم البويهيين المساعدة من الغزنوي في عام 1028، إلا أنه لم يكن مطمئناً للجيش ، وقد قبل الغزنوي طلبه وأعاده إلى حكم الري مرة أخرى في عام 1029 م ، حيث كانت الري ضمن الدولة البويهية التي كان يحكمها مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، وقد كان حاكماً فاسداً ولم يستطع إدارة الدولة جيداً ولذلك فقد كانت أمه تتولّى هذا الأمر ، وعندما ماتت أمه بدأت تتدهور الأوضاع في الدولة ، حينها أخذ يرسل السلطان محمود ويخبره عن تدهور الأوضاع في الدولة ويستنجد به ، فأرسل السلطان محمود جيوشه إلى الري عام 420 هـ ، وحين وصل مجد الدولة إليهم قبضوا عليه وأخذوه أسيراً إلى غزنة بأوامر من السلطان محمود وعندما أُسر مجد الدولة سار السلطان محمود إلى الري ووصلها في ربيع الآخر عام 420 هـ ، وقد أخذ من أملاك مجد الدولة مليون درهم ومن الجواهر ما يساوي نصف مليون درهم

حين وصل السلطان محمود التقي مع مجد الدولة وقال له : أما قرأت شاهنامه " تاريخ الفرس " ، وتاريخ الطبري ؟

فقال : بلى .

فقال له السلطان محمود : ما حالك حال من قرأها ، أما لعبت الشطرنج ؟

فقال : بلى

فقال السلطان محمود : فهل رأيت شاهاً يدخل على شاه ؟

فقال : لا .

فقال السلطان محمود : فما حملك على أن سلمت نفسك إلى من هو أقوى منك ؟

سار إلى منوجهر بن قابوس ، والذي كان قد أفلت منه سابقاً ، واستمرّ يلاحقه من مكان إلى مكان حتى مات ، وحين وليَ ابنه أنوشروان ، وقد أخذ منه السلطان محمود جزيّة نصف مليون دينار وأصبح يخطب للسلطان محمود في معظم بلاد الجبل التي تمتد حتى أرمينيا ، ووضع ابنه مسعود حاكماً للرّيّ بينما توجه هو إلى أصفهان التي يحكمها علاء الدولة ، وفتحها ووضع لها حاكماً ، ثم ثار أهلها وقتلوا حاكمها ، فعاد إليها وأخمد الثورة ووضع عليها حاكماً جديداً ثم عاد إلى الرّيّ وأقام بها ¹.

كان الأفغان يعيشون في المنطقة الجبلية فيما بين غزنة ونهر السند ، وكانوا يقومون بغارت من آن لآخر ، ويضربون القوافل التي تمر بين خراسان والهند ، وفي عام 1019 م توجه محمود الغزنوي باتجاه شرق مدينة كابل إلى الأفغان وضمهم إلى دولته وتحولوا إلى الإسلام .

اعترف الخليفة العباسي أبو العباس أحمد القادر بالله بالسلطان محمود غازي كخليفة بينما لم يعترف به السامانيون ، وقد أرسل الخليفة العباسي العديد من الهدايا إلى السلطان محمود نظراً لجهوده في نشر الإسلام والغزوات التي قام بها في أراضي الهنود ، وقد منحه العديد من الألقاب المختلفة ، في نفس الوقت كانت العلاقات التي بين السلطان محمود والقاراخانيين قد فسدت عندما أراد السلطان محمود الغزنوي السيطرة علي سمرقند التابعة للغزنويين إلا أن العلاقات قد فسدت مرة أخرى خلال عامي 1023 م 1024 م ، عندما تشكك السلطان محمود في ولائهم إتباعهم للدولة الفاطمية ، وعلى الرغم من كل تلك الأحداث فقد أنشأ السلطان الغزنوي دولة سنيّة في مواجهة الشيعة والدولة البويهية ، وقام بصكّ النقود باسمه .

وأرسل الهدايا إلى عاصمة الخلافة في بغداد بعد الحروب التي كان ينتصر فيها .

• وفاته :-

توفي محمود الغزنوي " في 30 أبريل عام 1030 م ، وهو في التاسعة والخمسين من العمر² ، بعد أن أنهكتة الحروب والجهاد ، حيث أصابه المرض - يعتقد أنه مرض

¹ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - مرجع سابق .

² - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - مرجع سابق .

السل – في أواخر حياته ، فقام بتعيين نائب له في مدينة " بلخ " ، في 29 يناير عام 1030 وعاد هو إلي مدينة " غزنة " بناء علي نصائح الأطباء الذين نصحوه بأن يبتعد عن الضغوط الحربية والسياسية ، وكذلك لتمييز مدينة غزنه بالهدوء وطيب الهواء وتوفي بعد أن ترك الدولة الغزنوية وهي في قمة ازهارها وقوتها بفضل قوته وفتوحاته ولذلك ما لبث الدولة أن أصابها الضعف والتفكك من بعده .

• ألب أرسلان:—

هو أبو شجاع ألب أرسلان¹ محمد بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق التركماني ، رابع حكام السلاجقة ، لُقِبَ باسم سلطان الدولة ، بعد أن اتسع ملكه ، حيث وصلت حدود الدولة السلجوقية في عهده من أقصى بلاد ما وراء النهر إلي أقصى بلاد الشام ، تحت حكم الخلافة العباسية في بغداد ، كما كان يتصف بالسلطان العادل ، لعدله بين رعيته وتواضعة .

• مولده ونشأته :—

وُلِدَ ألب أرسلان في الخامس عشر من ديسمبر 1029 ، في أسرة سلجوقية تنتسب إلي قبيلة من قبائل الغز التركية ، والتي أخذت لقبها من اسم رئيسها سلجوق ، حيث استقر ترحالها في آسيا الوسطي، واتخذ سلجوق من مدينة بخاري مستقراً لقبيلته ، واعتنق الإسلام علي المذهب السني ، ثم عمل علي انتشار الإسلام بين السلاجقة².

تمكن طغرل حفيد سلجوق من الإستيلاء علي خراسان عام 1037 م ، واستمر في التقدم حتي بغداد مقر الخلافة العباسية فاعترف به الخليفة القائم ومنحه لقب ملك الشرق والغرب وفي مقابل ذلك ، ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ، ونصروا المذهب السني بعد أن أوشكت دولة الخلافة على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق ، والنفوذ الفاطمي في مصر والشام . فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً ، بعدما كانت الدولة البويهية مهيمنة علي بغداد والخليفة العباسي ، كما تصدي السلاجقة للخلافة الفاطمية ، وحاصروا تمدها خارج مصر .

خلال حكم طغرل بك المؤسس الأول لدولة السلاجقة ، تولي محمد جغري بك والد ألب أرسلان حكم إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وعندما توفي والده خلفه ابنه ألب أرسلان في حكم تلك البلاد ، وبعد وفاة طغرل بك عام 455 هـ / 1063 م ، تولي ابن أخيه ألب أرسلان حكم الدولة السلجوقية بشكل عام ، بعد أن كان أميراً علي إقليم

¹ - كلمة " ألب أرسلان " تعني الأسد الباسل في اللغة التركية ، وقد اكتسب هذا اللقب من مهاراته في القتال وانتصاراته الحربية .

² - البداية والنهاية - أبو الفداء الحافظ ابن كثير - تحقيق : أحمد جاد - دار الحديث - القاهرة .

خراسان وبلاد ما وراء النهر ، حيث كان يعاونه وزيره الذي كان يثق به دائماً أبو علي حسن بن علي بن اسحق الطوسي ، المعروف باسم نظام الملك ، الذي استطاع أن يفتح أجزاء كبيرة من آسيا الصغرى وأرمينيا وجورجيا ، بفضل علمه وخبرته السياسية والعسكرية .

• صفاته وأخلاقه:—

كان السلطان ألب أرسلان عادلاً يسير في الناس سيرة حسنة ، كريماً ، رحيم القلب شفوفاً على الرعية رقيقاً بالفقراء ، باراً بأهله وأصحابه ومماليكه ، كثير الدعاء بدوام النعم ، وكان يكثر الصدقة ، فيتصدق في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار ، كان حريصاً على إقامة العدل في رعاياه وحفظ أموالهم وأعراضهم¹.

كتب إليه بعض السعاة في شأن وزيره نظام الملك فاستدعاه وأعطاه الرسالة ثم قال له : إن كان هذا صحيحاً ، فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك ، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم .

كما كان شديد الحرص على حفظ مال الرعية فلقد بلغه يوماً أن أحد مماليكه قد أخذ إزاراً لأحد الناس ظلماً ، فأمر بصلبه فارتدع باقي المماليك عن الظلم .

كما كان كثيراً ما تُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم ، وأحكام الشريعة الإسلامية ، ولمّا اشتهر بين الملوك حسن سيرته ومحافظته على عهوده ، أذعنوا له بالطاعة وحضروا عنده من أقاصي بلاد ما وراء النهر إلى أقاصي الشام .

خلال معركة ملاذكرد ، وعندما علم بقود الروم التي تفوق جيشه ، خطب ألب أرسلان في جنوده قائلاً : إنني أقاتل محتسباً صابراً ، فإن سلمتُ فنعمة من الله عز وجل ، وإن كانت الشهادة فهذا كفني ، أكملوا معركتكم تحت قيادة لبني ملكشاه ، وعندما تقارب الجيشان ، لطيل ألب أرسلان من امبراطور الروم الهدنة ، فرفض ، فخطب في جنوده قائلاً : من أراد الإنصراف فلينصرف ، ما هاهنا سلطان يأمر وينهي ، ثم ربط ذيل فرسه بيده ، وفعل العسكر مثله ، ولبس البياض وقال : إن قتلت فهذا كفني .

بعد انتهاء المعركة بهزيمة الروم ، وأسر امبراطورهم ، طلب من أرسلان أن يفدي نفسه بالمال وأن يجعله نائبه ، فاشتراط علي ألب أرسلان أن يطلق سراح كل أسير

¹ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

مسلم في بلاد الروم ، وأن يرسل إليه جنود الروم في أي وقت يطلبها، وأن يفتدي الامبراطور نفسه يمليون ونصف المليون دينار ، وعقد البيزنطيين صلحاً مع السلاجقة لمدة خمسون عاماً، واعترفوا بسيطرة السلاجقة علي المناطق التي فتحوها من بلاد الروم

● **بداية حكمه:-**

ورث السلطان ألب أرسلان إمبراطورية واسعة الأرجاء تمتد من سهول تركستان إلى ضفاف نهر دجلة، ضفاف نهر دجلة ، ولم يكد ألب أرسلان يبدأ في ممارسة مهامه كسلطان لتلك البلاد المترامية الأطراف حتي واجهته خلافات كبيرة داخل الأسرة السلجوقية الحاكمة ، فقد ثار عليه عدد من أفراد أسرته عام 256 هـ / 1064 م ، الأمر الذي جعل ألب أرسلان يوجه طاقاته إلي محاربة الثائرين عليه وعلي حكمه ، فدخل في معارك انتصر فيها عليهم رغم أن جيشه لم يكن يتعدى اثني عشر ألف مقاتل ، في حين كان جيش عمه قتلмыш كان يتجاوز تسعين ألف مقاتل¹.

انشغل ألب أرسلان في القضاء على بعض الثورات الداخلية التي قام بها بعض حكام الأقاليم ، حيث ثار حاكم إقليم كرمان وغيره عليه ، وعانى ألب أرسلان أيضاً من غارات القبائل التركمانية التي تعيش على السلب والنهب . بعد ذلك استولى على الري عاصمة الدولة وأعلن نفسه سلطاناً. أحبط ألب أرسلان محاولة من عمه ببيغو للاستقلال بإقليم هراة عام 457 هـ / 1065 م ، وبعد سنوات نجح ألب أرسلان في المحافظة على ممتلكات دولته وتوسيع حدودها .

● **محاربة الفاطميين:-**

أغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب ، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي عام 414 هـ / 1023 م ، وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي عام 462 هـ / 1070 م .

ثم أرسل قائد السلاجقة " أتنسز بن أوق الخوارزمي " في حملة إلى جنوب الشام فأنتزع الرملة وبيت المقدس من يد الفاطميين ، ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر

¹ - أبطال ومواقف - أحمد فرح عقيلان - دار ابن حزم - القاهرة .

بوابة الدخول إلى مصر ، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي داخل بيت المقدس .

● معركة ملاذكرد:-

كانت الدولة البيزنطية تتكون بشكل أساسي من مدينة القسطنطينية " اسطنبول " حاليًا ومن إقليم أرمينيا ، بالإضافة إلى مناطق وحصون أخرى داخل أوروبا ، وصمدت تلك الامبراطورية القوية زمنًا طويلاً في وجه الفتح الإسلامي ، وخاضت حروبًا تحت شعار الحروب الصليبية ضد المسلمين ، كانت في معظمها سجالاً ، إلى أن جاء ألب أرسلان وتمكن من توحيد الإمارات الإسلامية المتناثرة حول الدولة البيزنطية ، واحتل معظم أراضي أرمينيا ، وأصبح العدو الأساسي والأول الذي يهدد الدولة البيزنطية.

كان ألب أرسلان امتدادًا لعمه طغرل في القدرة والقيادة ، فحافظ على ممتلكات دولته ووسع حدودها على حساب الأقاليم المسيحية للأرمن وبلاد الروم ، وتوجَّ جهوده في هذه الجبهة بانتصاره على الإمبراطور رومانوس جالينوس في معركة ملاذكرد في ذي القعدة 463 هـ / أغسطس 1071 م .

أخذ ألب أرسلان ينتقص الدولة البيزنطية من أطرافها ، حتى سيطر على أرمينيا وأصبحت أمامه دولة الرها سانحة للانقضاء عليها ، كما أخضع عمورية ، حتى أصبح على مقربة من قونيا في آسيا الصغرى ، فأخذت الدولة البيزنطية تتحضر لاستعادة أرمينيا وكل ما فقدته من أراضيها التي استولى عليها ألب أرسلان ، وقد انتهت الفرصة حين توفي الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر ، فتولت الملك بعده زوجته الإمبراطورة إيدوسيا وصية على ولدها الصغير ميخائيل السابع¹.

تزوجت الإمبراطورة البيزنطية القائد العام لقواتها رومانوس ديوجين ، وكان فارساً قوياً يفاخر البيزنطيون ببطولاته ، فلما رأى نفسه المتصرف في ملك الدولة البيزنطية عكف على تأسيس جيش قوي ، رفع شعار الصليب ، فضم المتعصبين والمتشددين وبلغ تعدادهم مائة ألف مقاتل ، إضافة إلى الحرس الجمهوري القوي الذي كان تدريبهم أعظم من غيرهم ، هذا بالإضافة إلى مرتزقة صليبيين من النورمان والفرنج وصقلية

¹ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

والترك ، المقيمين في جنوب روسيا والبشناق ، وعندما أصبح ، الجيش البيزنطي تام التجهيز ، توجه صوب أرمينيا بقيادة رومانوس نفسه زوج الإمبراطورة التي رفعتة إلى رتبة إمبراطور.

وضع رومانوس خطة تعتمد علي مفاجئة أرمينيا قبل أن يصل إليها ألب أرسلان ، الذي كان في الجنوب يخمد الفتن ، ولما بلغ ألب أرسلان هجوم رومانوس في اتجاه حصن ملاذ كرد وحصن خلّاط ، أسرع إلى أرمينيا ليواجه بجيشه الصغير تلك الجموع البيزنطية الهائلة بقيادة رومانوس ، وحاول ألب أرسلان دعوة جيشه وجمع أكبر عدد منهم ، لكنه وجد الوقت قصيراً ، فلم يتمكن من جمع أكثر من خمسة عشر ألف جندي سار بهم ليواجه مائة ألف مقاتل¹.

توجه ألب أرسلان وجنوده إلى الميدان فوجد بعضاً من جيش العدو تقدر بعشرة آلاف عند بلدة خلّاط يقودهم قائد روسي ؛ فالتقي الجيشان ، وانتصر ألب أرسلان ، وأسر القائد الروسي ، وقتل عدد كبير من البيزنطيين وخسروا الكثير من الغنائم التي جمعها السلاجقة وأرسلت إلى الخليفة في بغداد ، فكان فألاً مباركاً استبشر به المسلمون في مقدمة المعركة الحاسمة²، وعندما تقارب الجيشان ، أرسل السلطان ألب أرسلان إلى القائد رومانوس يطلب منه الصلح والمهادنة ، فرد رومانوس بأنه لا هدنة إلا بالري ، أي أنه لن يقبل هدنة إلا بعد أن يدمر عاصمة السلاجقة ، ويحتل كل أراضي الدولة العباسية ؛ فانزعج ألب أرسلان ، وزاده همٌّ شديد لعدم تكافؤ العدد ، فقال له الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك الحنفي : إنك تقاثل عن دين وقد وعد الله بنصره وأرجو أن يكون الله قد كتب لك بجيشك القليل شرف النصر ، فسير إلى العدو الكافر يوم الجمعة بعد الزوال والأئمة على منابرهم يدعون لجيشك بالنصر ، والله غالب على أمره³ وعند ظهيرة يوم الجمعة من صيف عام 463 هـ ، وبينما كان رومانوس ينزل بجيشه وادياً، انقض عليهم ألب أرسلان بعد صلاة الجمعة ، وألقى القوس والنشاب وحمل

¹ - أبطال ومواقف - مرجع سابق .

² - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

³ - هكذا ظهر جبل صلاح الدين - ماجد عرسان الكيلاني - الطبعة الثالثة 2002 - دار القلم - دبي .

السيف معلناً أن الأمر التحام وليس رماية ، فالتفّ البيزنطيون حول جيش ألب أرسلان الذي أصبح في وسط المعركة ، وكانت الفرصة مواتية لجيشه وسط الغبار لمقاتلة عدوهم كيف يشاؤون ، ودارت الدائرة على العدو ، فتناثر من قتلهم ما لا يحصى ولا يعد ، وجئ بالأسرى وإذا بمقاتل من جيش ألب أرسلان يسوق أمامه قائد البيزنطيين رومانوس .

وقف رومانوس صاغراً بين يدي ألب أرسلان فضربه القائد المسلم ثلاث مقارع .

وقال له : دعوناك إلى الهدنة فأبيت ، فأين الهدنة التي في الري ؟

ثم قال له : ما تظن أني فاعل بك ؟

فقال : كل سوء ، فقبل منه ألب أرسلان الفدية ، واشترط عليه أن يطلق أسرى المسلمين ؛ فقبل رومانوس ووقع بذلك ، وعندئذ أعطاه ألب أرسلان عشرة آلاف دينار وأطلق معه حاشيته فوصل إلى بيزنطة مهزوماً ، وهناك وجد أن الملك الصغير قد بلغ السن فتربع على العرش ، فأظهر رومانوس ابتهاجاً بابن زوجته وأخبره أنه وقع على فدية مليون ونصف المليون دينار ، فجمع الملك الجديد ما عنده ، فلم يتعدي المبلغ ثلاث مائة ألف دينار فأرسلها رومانوس إلى ألب أرسلان ، وأقسم له أنه لا يملك غيرها فقبلها ، وتسامح بالباقي ، وبعد تلك المعركة بعام مات ألب أرسلان ، وتولي الحكم من بعده ابنه ملكشاه ، ثم شاعت الأقدار أن تنشب الحروب الصليبية بعد تلك المعركة بنحو عشرين عاماً .

علي الرغم مما حققته معركة ملاذكرد من انتصارات ، وكسر لشوكة العدو الأول لهم ظل العرب إمارات متفرقة يحكم كل واحدة منها أتابك أو أمير ، إلى أن أقبلت حشود الصليبيين بعد ذلك بنحو عشرين عاماً ، فدخلوا الأراضي العربية والإسلامية واغتصبوا المسجد الأقصى ونهبوا البلاد وقتلوا العلماء ، وظل الحال كذلك مدة خمسين عاماً حين جاء عماد الدين زنكي وحرر إمارة الرها ، ومن بعده توالى الفتوحات وطرده الصليبيين¹.

¹ - هكذا ظهر جيل صلاح الدين - مرجع سابق .

• اهتماماته العلمية :-

شجع ألب أرسلان الآداب والعلوم ، ولذلك فقد ظهر في عهده شخصيات شهيرة في مختلف فروع العلم والمعرفة مثل الشاعر والفلكي عمر الخيام . كما أنشأ المجامع العلمية في بغداد وأشهرها المدرسة النظامية عام 1067 م ، التي تخرج منها عماد الدين الأصفهاني ، وبهاء الدين شداد ، اللذان خدما السلطان صلاح الدين الأيوبي ، والسعدي الشاعر الفارسي مؤلف بستان السعدي ، كما درس بها شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي ، وعبد الله بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وأبي حامد الغزالي رائد عصر الإصلاح الديني الذي مهد لجيل صلاح الدين الأيوبي ، وكان الوزير نظام الملك من أكثر الشخصيات تأثيراً أيام السلطان ألب أرسلان . فقد صاحب السلطان في معظم حروبه وفتوحاته ، وقد ألف نظام الملك كتاباً في فنون الحكم يعرف بإسم " سياست نامه " أي " سير الملوك " تحدث فيه عن تنظيم الحكم وعن ضرورة قيام العدل ، وتنظيم أمور الدولة والاستقطاع ، وتنظيم الإدارة والجيش وتاريخ العلاقة بين السلطة المركزية في عصر السلاجقة¹.

• وفاته :-

توفي ألب أرسلان في العاشر من ربيع الأول 465 هـ / 29 نوفمبر 1072 م ، حيث قتله أحد الثائرين عليه هو يوسف الخوارزمي ، ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه ، وخلفه في الحكم ابنه ملكشاه².

¹ - هكذا ظهر جيل صلاح الدين - مرجع سابق .

² - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

• علاء الدين محمد خوارزم شاه:—

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش خوارزم شاه بن ألب أرسلان ، بن خوارزم شاه أتسز بن الأمير محمد بن نوشتكين الخوارزمي ، والذي ينتهي نسبه إلى إيلتكين مملوك السلطان ألب أرسلان بن جغريك السلجوقي¹.

• مولده ونشأته:—

نشأ علاء الدين خوارزم شاه في بيت سلطاني ، فأبوه علاء الدين تكش خوارزم شاه كان سلطان بلاد ما وراء النهر ، لذلك فقد كان فاضلاً ، عالماً بالفقه والأصول ، مكرماً للعلماء يحب مناظرتهم ، ويتبرك بأهل الدين ، يروي عز الدين علي بن الأثير ، أن خادم الحجرة النبوية.

قال له : أتيتك فاعتقني " أي علاء الدين محمد " ، ومشى لي.

وقال : أنت تخدم حجرة النبي ﷺ ؟

قلت : نعم . فأخذ يدي وأمرها على وجهه ، وأعطاني جملة.

كانت أمه من بنات ملوك الترك ، وكانت تجيد الخط وتعلم ، وكان لها رأس صائب وحكمة ، لذلك فقد كان لها رأي إدارة أمور الدولة سواء في عهد زروجه أو في عهد ابنها علاء الدين خوارزم شاه .

حازت لقب " عصمة الدنيا والدين أولوغ ترکان سيدة نساء العالمين " ، ولها من الأموال والجواهر ما يقصر الوصف عنه .

بعد وفاة علاء الدين تكش في شهر رمضان عام 596 هـ في شهر ستانه بين نيسابور وخوارزم ، خلفه ابنه قطب ، ولقب بلقب أبيه علاء الدين محمد خوارزم شاه ، وأمر بحمل أبيه إلى خوارزم فحمل هناك ودفن فيها².

اتصف علاء الدين محمد بالصبر على التعب وإدمان السير غير متعم ولا متلذذ .

¹ - الدولة الخوارزمية والمغول - حافظ حمدي - دار الفكر العربي - القاهرة .

² - الدولة الخوارزمية والمغول - مرجع سابق -

فقد روي أنه كان يبقى أربعة أيام على ظهر فرسه لا ينزل إنما ينتقل من فرس إلى فرس ويطوي البلاد ويهجم المدينة في نفر يسير ، ثم يصبحه من عسكره عشرة آلاف ويمسيه عشرون ألفا ، وربما هجم البلد في مائة ، فيقضي الشغل قبل¹.

عاصر علاء الدين محمد حكام الدولة الغورية ، الأخوين غياث الدين وشهاب الدين وتوقعان أن علاء الدين الضعيف لا يقوى على مقاومتهم ، فأغاروا على مرو وسرخس وطوس ونيسابور وغيرها من الممتلكات الخوارزمية ، كما أرسلوا حكاما ساموا الرعايا الخوارزميين سوء العذاب ونهبوا أموالهم ، فاستاء علاء الدين من تصرفاتهم وصمم على إخراج الغوريين من المناطق التي استولوا عليها وساعدته الظروف المحيطة بالغوريين على تسهيل مهمته ، إذ توفي أحد الأخوين وهو غياث الدين عام 599هـ ، ولم يستطع أخوه شهاب الدين على الاحتفاظ بما في يده من ممتلكات الخوارزميين ، فاستعاد علاء الدين محمد أملاكه الخراسانية عام 600هـ ، فاشتد شهاب الدين في مقاومة علاء الدين محمد ، وقاد حملة إلى خوارزم في العام نفسه منتهزاً وجود علاء الدين محمد في خراسان ولكن حملته باءت بالفشل وذلك لاستغاثة علاء الدين محمد بقبائل الخطا فأتبقت على قوات شهاب الدين المرتدة وكادت ان تسحقها .

طلب عثمان خان حاكم سمرقند مساعدة علاء الدين محمد ، له على قتال الخطا الذي كانوا يغيرون على تركستان وبلاد ما وراء النهر فكتب إليه بقوله : إن الله أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال ، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل إليك ما نحمله إليهم ونذكر اسمك في الخطبة على السكة . وقد أجابه علاء الدين إلى ذلك ، فأولى أخاه لي شاه طبرستان فضلا عن جرجان وبعدها توجه الى قتال قبائل الخطا فالتقى الطرفان ودارت المعركة فيما بينهم وقتل الخطا الكثير من الجيش الخوارزمي ، ووقع علاء الدين محمد أسيراً في أيديهم إلا أنه

¹ - تاريخ فاتح العالم - عطا مالك الجويني - ترجمة : د . محمد التونجي - دار الملاح - الطبعة الأولى 1985 - دمشق .

خلص نفسه من الأسر ، وبعد التخلص من الأسر عاد بحملة كبيرة لمحاربتهم من جديد حتى تمكن من إزالة دولتهم.

لم يقف علاء الدين محمد عند هذا الحد في توسعته ، بل ظل يواصل سياسته في التوسع وضم ما يمكن الاستيلاء عليها من الأقاليم المجاورة ، فقد كان عدة جيشه في الديوان ثلاثمائة ألف فارس ، فتمكّن من الاستيلاء على كرمان ومكران وساحل المحيط الهندي والأقاليم الواقعة غرب نهر السند ، وبعد استيلائه على هذه الأقاليم صار الطريق مفتوحاً أمامه للاستيلاء على مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية فحاصرها حتى سقطت بيده عام 612 هـ ، ومن ثم أصبحت الدولة الخوارزمية في ذروة اتساعها على عهد علاء الدين محمد خوارم شاه ، فقد ضمت أربعة أقسام كبرى وكان للسلطان علاء الدين محمد له أربعة أولاد : جلال الدين الذي تولى الحكم بعده بعده ، وغيث الدين تترشاه ، وقطب الدين أزلاغ ، وركن الدين جورشاه يحيى ، فعمل علاء الدين علي تولية أبنائه علي تلك الأقسام علي النحو التالي :

القسم الشرقي : ويضم باميان والغزة والغور ، وكان هذا القسم يحكمه ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي .

القسم الشمالي : ويضم خوارزم وخراسان ومازندران ، وكان يحكمه ابنه وولي عهده قطب الدين أزلاغ شاه .

القسم الغربي : ويشمل العراق العجمي ، وكان يحكمه ابنه جوشايجي .

القسم الجنوبي : ويشمل كمران ومكران وكيش وكان يحكمه ابنه غياث الدين بيرشاه¹ اتسعت حدود الدولة الخوارزمية وبلغت أقصى اتساع لها في عهد محمد علاء الدين خوارزم شاه ، إذ امتدت من حدود العراق غرباً ، إلى حدود الهند شرقاً ، ومن سهل بحر قزوين وبحر آرال شمالاً ، إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوباً ، وكانت بموقعها الجغرافي وحدودها السياسية ، تسيطر على مفاتيح الطرق البرية للتجارة الآسيوية ، وأصبح سلطان علاء الدين لا يعلوه سلطان آخر في العالم الإسلامي .

¹ - الدولة الخوارزمية والمغول - مرجع سابق -

وهو الذي عظم من ملوك هذه الدولة شأنًا ، وكثرت جيوشه وأعوانه وشاع بين الملوك ذكره ، وعم الممالك نهيه وأمره¹ .

كما كان علاء الدين خوارزم شاه ، أعظم ملوك الدنيا واتسعت ممالكه شرقًا وغربًا وهابته الملوك ، حتى لم يبق إلا من دخل تحت طاعته وصار من عسكره² .

ولم تشأ الحوادث أن تمهل الدولة الخورازمية طويلاً ، فسرعان ما ظهر الخطر المغولي للعيان ، فلم يستطع علاء الدين أن ينصرف إلى شئون دولته الداخلية؛ لأنَّ الفترة التي تلت عودته من خارج بلاده كانت من القصر بحيث لم تسنح له الفرصة لإصلاح أحوال دولته الداخلية وتنظيمها ، ومواجهة قوة المغول الحربية ، فاجتاح المغول الدولة الخوارزمية واستولوا على أقاليمها ، وقلاعها واحدة بعد أخرى ، حتى أجهزوا على ذلك الملك العريض الذي كونه الخوارزميون ولم يمهلهم الوقت ليجنوا ثمار ما غرسوا .

مع حلول عام 1205 كان محمد قد غزا جميع أراضي بلاد فارس من الأتراك الساجقة وعندما غزا جميع الأراضي من نهر سيحون إلي الخليج العربي أعلن أنه الشاه " الملك " وطلب اعترافاً رسمياً به من الخليفة العباسي في بغداد ، وعندما رفض الخليفة الناصر طلبه ، أعلن علاء الدين محمد أحد النبلاء التابعين له خليفة واتجه بجيوشه إلى بغداد لعزل الخليفة الناصر .

وعند عبوره جبال زاجروس ، علق جيشه وسط عاصفة ثلجية ، فاضطر إلي الرجوع بجيشه مرة أخرى .

اصطدم علاء الدين كثيراً بالإيغوريين لفرض هيمنته علي إقليم خراسان ، إضافة إلي صدامه مع القراخانيين الغربيين الذين كانوا يسيطرون علي بلاد ما وراء النهر³ ، وقد استولى علاء الدين محمد خوارزم شاه على مدينة هرات عام 1204 م ، وفتح بلخ ومناطق جوزجان وطوخارستان وسيستان التابعة للغوريين عام 1206 ، كما استولي

¹ - نهاية الأرب في فنون الأدب - أحمد بن عبد الوهاب النويري - تحقيق : د . سعيد عاشور - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985 القاهرة .

² - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - يوسف بن تغري بردي أبو المحاسن - وزارة الثقافة والإرشاد بمصر - القاهرة .

³ - المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير - حربي سليمان - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980 - القاهرة .

علي مدينة سمرقند عام 1207 م ، قيل أن يستولي عليها القراخانيون عام 1208 ، والتي كانت تابعة لمملكة الخطا المغولية ، واستولي علي مدينة طبرستان عام 1210 م ، من الغوريين ، كما استولي علي بلاد ما وراء النهر من القراخانيين الغربيين ، واستمر في نشاطه التوسعي ، ففتح مدينة طشقند وفرغانة في خراسان الغربية ، وإقليمي مكران وبلوشستان اللذين كانا تابعين للغوريين ، وأصبح أتابكة أذربيجان تابعين له عام 1210 كما قضى علي القراخانيين الغربيين عام 1212 م ، بينما قضى علي الغوريين في عام 1215 م ، إضافة إلى المناطق المتبقية التابعة لهم .

بعد أن اطمأن جنكيزخان إلى استقرار الأمور في داخل دولته ، سار إلى البلاد الشمالية من بلاد الصين وتمكن من إخضاعها ، كما اتجه إلى الانتقام من أعدائه الذين فروا من وجهه تجاه الغرب ، ومن ثم اصطدم بالقوى الإسلامية ، ولاسيما الدولة الخوارزمية التي كانت قد وصلت إلى أقصى اتساع لها في عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه¹ . وقد تمكن جنكيزخان من تخريب أقاليم هذه الدولة والتكثير بسلطانها وجيوشها وسكانها في مدة لا تزيد على أربعة سنوات ، إذ بلغ حدودها عام 616 هـ / 1219 م ، وشرع في العودة إلى منغوليا عام 620 هـ / 1223 م ، ولم يكن من المؤكد أن ينتصر المغول على المسلمين ، وأن يحرزوا ما أحرزوه من نصر لولا ما كان يعانيه الشرق الإسلامي في ذلك الوقت من انحلال سياسي واضطراب اقتصادي وفوضى اجتماعية² .

في عام 1218 ، عبرت مجموعة صغيرة من المغول الحدود فجأة في مطاردتهم لقائد عسكري هارب من الأعداء ، وعند استعادة القائد الهارب بنجاح ، اتصل جنكيز خان بالسلطان علاء الدين محمد .

ومع غزوه مؤخراً لثلاثي الصين ، كان جنكيز يسعى لفتح علاقات تجارية بين الإمبراطوريتين المغولية والخوارزمية ، لكن بسبب ما سمعه السلطان علاء الدين محمد

¹ - المغول - السيد الباز العريني - دار النهضة العربية 1981 - بيروت .

² - العالم الإسلامي في العصر المغولي - بارتولد شبولر - ترجمة / خالد أسعد عيسى - دار حسان - الطبعة الأولى

1982 - دمشق .

من تقارير مبالغ فيها عن قدرات المغول ، فقد اعتقد أن هذه الدعوة لإقامة علاقات تجارية مجرد خدعة لغزو أراضي¹.

بعدما اشتد المرض على علاء الدين بالجزيرة ، خلع قطب الدين ازلاغ من ولاية العهد وفوضها للسلطان جلال الدين منكبرتي بحضور أخويه ازلاغ شاه وأق شاه وقال : إن كسر السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وهت قواعدها ، وتهدمت وهذا العدو قد تأكدت أسبابه ، وتثبتت بالممالك أضفاره ، وتعلقت أنيابه ، وليس يأخذ بثاري منه إلا ولدي منكبرتي ، وها أنا موليه ولاية العهد فعليكما بطاعته ، والانخراط في سلك تباعته وشد سيفه بيده في وسط جلال الدين ، ثم مات بعد ثلاث أيام ، ولما دفن السلطان بالجزيرة ركب جلال الدين البحر ومن معه من إخوانه ومعهم زهاء سبعين ألف جندي لقصد خوارزم².

عندما اقتربوا من خوارزم التقوهم أهلها بالدواب والأسلحة من أتباعهم ، إلا أنه حدثت فتنة بين الإخوة حيث إن جزءاً من الناس مالوا إلى ازلاغ شاه ، وعزموا على القبض على علاء الدين وقتله ، فعلم أحدُ المقربين له وهو اينانج خان بما دبّروه لجلال الدين ، فأشّار عليه بالهرب إلى خراسان ومعه ثلاثمائة فارس ، فعلم جنكيز خان بعودة جلال الدين إلى خراسان ، فوقع بينهما حربٌ شرسةٌ انتصرَ فيها أول الأمر إلا أنه سرعان ما انقلبت الأمور بعدما ظن جلال الدين أن المعركة قد انتهت إلا أن المغول انقضوا عليهم مرة أخرى وقتل كل من " ازلاغ شاه " ، و " أق شاه " ومنَ معهما ، وعاد المغول إلى جنكيز خان برأسيهما .

وبعدما نجا جلال الدين منكبرتي من المعركة مع جنكيز خان ، كان معه نحو أربعة آلاف فارس سار بهم إلى الهند ثم إلى كرمان وذلك في عام 622 هـ ، ثم إلى أصفهان حيث انتزع هذه المناطق من أخيه غياث الدين الذي كان مسئولاً عنها من والده ، أما المغول فقد انسحبوا بشكل مؤقت من بعض الأماكن التي احتلوها فاستقل فيها بعض

¹ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

² - الدولة الخوارزمية والمغول - مرجع سابق -

الحكام المحليين في خراسان ومازندان والري وبلاد الجبل واستطاع جلال الدين مكبرتي الاستيلاء عليها¹.

ولم تشأ الحوادث أن تهمل الدولة الخوارزمية طويلا ليحني حكامها ثمار انتصاراتهم العظيمة ، بل سرعان ما ظهر الخطر المغولي ، ولم يستطع علاء الدين محمد أن ينصرف إلى شئون دولته الداخلية ومجابهة المشاكل الكثيرة التي واجهته حتى تمكن المغول عام 617 هـ من اجتياح اقليم خوارزم ان يقوى على صدهم ، وقد فر أمامهم علاء الدين الى إحدى جزر بحر قزوين وهناك انتابه المرض فمات في نفس السنة تاركا بلاده لعدوه المغولي².

● وفاته :-

توفي علاء الدين محمد خوارزم شاه ، في إحدى جزر بحر قزوين عام سبع عشرة وستمائة هـ ، وكُفّن في عمامة لفرشه³ ، بعدما وصلت الدولة الخوارزمية في عهده أقصى اتساع لها ، حيث كان قد استولى على نحو أربعمئة مدينة .

¹ - إحصار من الشرق " جنكيزخان " د . ثروت عكاشة - دار الشروق - الطبعة الخامسة 1992 - القاهرة .

² - تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية - مرجع سابق .

³ - الدولة الخوارزمية والمغول - مرجع سابق .

• جلال الدين منكبرتي:-

جلال الدنيا والدين أبو المظفر منكبرتي، آخر سلاطين الدولة الخوارزمية ، تولى الحكم بعد أبيه السلطان محمد علاء الدين خوارزم شاه عام 490 هـ / 1220، بعد خسارته ملكه على يد المغول بقيادة جنكيز خان، ظل يحكم باسم الدولة السلجوقية ثلاثين عاماً حتي عام 521 هـ / 1231 م ، نجح خلالها في تثبيت سلطانه ، ومد نفوذه ، وتأسيس دولته وعُرف باسم خوارزم شاه ، أي أمير خوارزم ، والتصق به اللقب وعُرف به .

• مولده ونشأته:-

لم يرد الكثير في كتب السير عن مولد ونشأة السلطان جلال الدين منكبرتي ، فقد اهتمت معظم كتب التاريخ بحياة جلال الدين منذ أن عهد إليه والده علاء الدين خوارزم شاه بالحكم من بعده في حضور أبنيه الآخرين ، وخاصة أن ابنه الأكبر قطب الدين ازلاغ كان ولياً للعهد ، ومن ثم فكان هو الأقرب لتولي الحكم بعد أبيه ، لولا الوصية التي أوصي بها علاء الدين في حضور أبنائه الثلاثة¹.

لم يعيش من أسرة السلطان علاء الدين خوارزم شاه سوى ثلاثة من أبنائه نجوا من مذابح المغول بعد أن وقعت أمه في أسر المغول ، وقُتل نساؤه وأطفاله ، وبعدما اشتد به المرض خلع ابنه قطب الدين ازلاغ من ولاية العهد ، وفوضها لابنه الأصغر جلال الدين، بحضور أخويه ازلاغ شاه ، وآق شاه وقال : إن كسر السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وهنت قواعدها ، وتهدمت وهذا العدو قد تأكدت أسبابه ، وتثبتت بالممالك أظفاره ، وتعلقت أنيابه ، ولا يأخذ بئاري منه إلا ولدي جلال الدين ، وها أنا موليه ولاية العهد فعليكما بطاعته ، والانخراط في سلك تباعته ، وشد سيفه بيده في وسط جلال الدين ثم مات بعد ثلاث أيام في 13 شوال 617 هـ / 17 ديسمبر 1220 م².

¹ - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي - محمد بن أحمد النسوي - تحقيق حافظ أحمد حمدي - دار الفكر العربي - القاهرة

² - المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير - مرجع سابق .

• تولي جلال الدين الحكم:-

تولي جلال الدين حكم البلاد في ظروف صعبة وقاسية ، فقد اعتلي حكم البلاد التي تركها له والده والمغول يسيطرون على بلاد ما وراء النهر ، وهي التي تعد حاضرة دولته المتداعية ، وركب جلال الدين البحر ومن معه من إخوانه ومعهم زهاء سبعين ألف مقاتل وقصدوا خوارزم ، فلما قاربوها التقوهم بالدواب والأسلحة من أتباعهم إلا أنه حدثت فتنة بين الإخوة حيث إن بعضاً من الناس مالوا إلى ازلاغ شاه وعزموا على القبض على جلال الدين وقتله ، فعلم أحد المقربين له وهو اينانج خان بما دبروه إلى جلال الدين فأشار اليه بالهروب إلى خراسان ومعه ثلاثمائة فارس ، وقد أبلغوا جنكيز خان بعودة جلال الدين إلى خراسان وبعد ذلك حدثت بينهم وبين المغول حرباً شرسة انتصروا بها أول الامر ، إلا أنهم انكسروا في المعركة ظناً منهم أن المعركة قد انتهت ومن ثم قتل كل من ازلاغ شاه ، و اق شاه ومن معهما وعاد المغول إلى جنكيز خان برئسيهما¹.

بعد أن نجا جلال الدين من المعركة مع جنكيز خان ، كان معه نحو أربعة آلاف فارس سار بهم إلى الهند ثم إلى كرمان وذلك في عام 622 هـ ، ثم إلى أصفهان حيث انتزع هذه المناطق من أخيه غياث الدين الذي كان مسئولاً عنها من والده ، أما المغول فقد انسحبوا بشكل مؤقت من بعض الأماكن التي احتلوها فاستقل فيها بعض الحكام المحليين في خراسان ومازندان والري وبلاد الجبل وتبريز وبلاد الكرج " جورجيا " واستطاع جلال الدين مكبرتي الاستيلاء عليها وتثبيت سلطته .

بعد أن أجهز جنكيز خان علي بلاد ما وراء النهر والعراق وأذربيجان ، شرع في السيطرة علي خراسان ، حتي تتم له السيطرة على بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة ، فأعد لهذه المهمة جيشين عام 618 هـ / 1220 م ، عبر أحدهما نهر جيحون ، وقصد مدينة بلخ فاستسلمت صلحاً دون قتال ، وواصل المغول تقدمهم في بلاد خراسان فسقطت مدنها واحدة تلو الأخرى ، ثم حاصروا مدينة مرو حاضرة الدولة الخوارزمية التي كان سكانها يزيد عن سبعمئة ألف نسمة ، ثم ساروا إلى نيسابور فاستولوا عليها

¹ - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي - مرجع سابق .

وواصلوا زحفهم نحو طوس فأخذوها دون عناء ، ثم بسطوا سيطرتهم على هراة . أما الجيش الآخر فقد اتجه إلى خوارزم ، لكنه لقي مقاومة عنيدة ، وصمد أهل خوارزم خمسة أشهر دارت خلالها معارك عنيفة قُتل من الفريقين أعداد هائلة ، ولم يجد المغول بدا من طلب العون والمدد فأمدهم جنكيزخان بما يطلبون ؛ فمكّنهم ذلك من الاستيلاء على المدينة بعد جهد وعناء .

• بداية حكم جلال الدين :-

بدأ جلال الدين عهده كحاكم بأن اتخذ من غزنة قاعدة للجهاد الإسلامي ضد المغول وكان هو واليها من قبل في عهد أبيه السلطان محمد خوارزم شاه ، وكان أهلها يجلونه ويقدرونه ، واستطاع أن يكون بها جيشاً كبيراً بلغ سبعين ألف مقاتل من الفلول الهاربة من المغول ، وممن أخذتهم الغيرة على الإسلام وحب الجهاد من المتطوعين ، ونجح في أن يؤلّف بين قلوبهم ويوحد صفوفهم ، وجاءته الأموال من وجهاء المسلمين وحتى فقرائهم لإعداد تلك الجموع وتسليحها والانفاق عليها .

في تلك الأثناء كان المغول يتعقبون جلال الدين ؛ لكونه أقدر الخوارزميين على جمع الناس ضدهم وأكثرهم جرأة على الحرب والقتال ، حتى إذا بدأت طلائع الجيش المغولي تزحف نحو غزنة للاستيلاء عليها والقضاء على السلطان الجديد قبل أن تشتد شوكته ، فاجأها جلال الدين بهجوم خاطف في ربيع الأول 618 هـ / 1221 م ، لم تستطع قوات المغول الصمود أمامه ، وألحق بها هزيمة كبيرة قُتل فيها ألف رجل من جنود المغول¹ ، فكان لذلك أثر عظيم في نفسه استرد به ثقته وثبت أقدامه في الحكم ، وجعل له هبة بين شعبه ، وبين الحكام في الدول المجاورة ، وعندما التقى بقوات المغول الرئيسية التي أعقت طلائعها صمد لها في القتال وألحق بها هزيمة مدوية وولّى فرسانها الأدبار ، وظل جنود السلطان جلال الدين يتعقبونهم بالقتل والأسر .

وما كادت أنباء هذا النصر تصل إلى بعض المدن التي في أيدي المغول حتى عمها الفرح والبشر وظنت أن ساعة الخلاص قد اقتربت فثارت في وجه المغول ، وكانت

¹ - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي - مرجع سابق .

هراة واحدة من تلك المدن ، غير أن فرحها تحول إلى مأساة محزنة ؛ إذ قدم عليها جنكيزخان واستعاد سيطرته عليها وقتل الكثير من أهلها¹.

حاول السلطان جلال الدين أن يستثمر انتصاراته في توحيد قواته وإضافة جنود جدد إليه، وترتيب ولايات دولته أمام القوات المغولية التي تشكل الخطر الأكبر عليهم ، إلا أنهم تنازعوا فيما بينهم على الغنائم التي حصلوا عليها ، وعجز السلطان عن تدارك الانقسام الذي حدث في صفوف قواته، وترتب على ذلك أن انسحب أحد القادة بقسم كبير من الجيش الخوارزمي دون تقدير للمسئولية ، وغادر غزنة دون أن يستجيب لنداءات السلطان، ووجد نفسه في قوات لا تستطيع مقاومة إعصار المغول ؛ فانسحب بها إلى سهل يقع غربي نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة جنكيزخان إلى إقليم غزنة للانتقام من جلال الدين ، والثأر لهزيمة جيشه على يديه².

جمع جلال الدين بعضاً من السفن ليعبر بها نهر السند هو وجنوده إلى الهند لعله يجد فيها مأمنه ، ولكن بحارة السفن لاذوا بالفرار حين علموا بقدوم جنكيز خان تاركين السلطان وجنوده على الشاطئ ، فاضطروا إلى خوض معركة لم يستعدوا لها ودارت معركة غير متكافئة ثبت فيها جلال الدين لهجوم المغول وحمل بنفسه على الجيش المغولي كادت تزلزله ، ولكن ميسرة جيش جلال الدين لم تتحمل ضربات المغول القوية فانكشفت وتبددت ووقف السلطان على رأس 700 من رجاله يقاتلون في بسالة وثبات جحافل المغول ، ولكن دون جدوى³، واضطر أن يولي وجهه شطر النهر وقذف بنفسه في النهر وتبعه ما بقي من رجاله وعبروا النهر إلى الضفة الأخرى ، ووقع في الأسر ابن السلطان وكان طفلاً في الثامنة ، ولما عبر السلطان إلى الجهة الأخرى ، هم بعض جنود المغول بعبور النهر والحق بجلال الدين ، لكن جنكيزخان منعهم واكتفى بهذا النصر الذي أعاد للمغول هيبتهم ، وحقق لهم الاستيلاء على غزنة التي كانت خالية من الجند .

¹ - نهاية الأرب في فنون الأدب - مرجع سابق .

² - تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية - مرجع سابق .

³ - المغول - مرجع سابق .

اتجه جلال الدين إلى الهند مع الناجين من رجاله البالغ عددهم أربعة آلاف على هيئة مزرية بأئسة ، فقد كانوا حفاة عراة منهكين من التعب الجسدي ، والآثار النفسية السبئية لما وقع بهم ، وهاموا على وجوههم يبحثون عن مأوى لهم ، وقضى السلطان في الهند ثلاث سنوات جمع فيها قوة كبيرة من الجند الفارين من وجه المغول في الهند ، وانضم إليه كثير من القادة الخوارزميين الذين قدموا إليه ، وآلاف من المتطوعين الراغبين في الدفاع عن الإسلام ، ونجح في مهاجمة بعض الأقاليم الهندية الواقعة في حوض نهر السند وغنم منها غنائم كثيرة وأخضعها لسلطانه . غير أن ازدياد قوته واستفحال خطره جعل حكام السند يقفون في وجهه صفًا واحدًا ويطلبون منه مغادرة بلادهم ، ولم يكن يستطيع أن يحاربهم جميعًا فأثر السلامة وقرر العودة إلى أراضي دولته ؛ لأنه لم يكن طامعًا في بلاد الهند ، وكانت إقامته بها مؤقتة حتى يستعيد قوته وتواتيه الفرصة للانقضاض على المغول مرة أخرى¹.

بعد رجوع جنكيزخان عام 621 هـ / 1224 م ، إلى منغوليا ، انسحبت جيوشه من أقاليم الدولة الخوارزمية التي كانت تحتلها ؛ فانتهاز غياث الدين بن محمد خوارزم شاه أخو السلطان جلال الدين هذه الفرصة ، ونجح في استرداد أقاليم الدولة الخوارزمية ما عدا إقليم ما وراء النهر ، غير أنه لسوء سياسته كانت تلك الأقاليم يسودها الفوضى والاضطرابات ، فلما عزم السلطان جلال الدين على مغادرة الهند زين له قاداته انتزاع السلطة من يد أخيه غياث الدين ؛ لأنه الخليفة الشرعي لأبيه فاستجاب لرغبتهم وعبر نهر السند عام 622 / 1225 م ، وأسرع إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية الواقعة تحت سيطرة أخيه فاستولى على غزنة وكرمان ، ثم نجح بالحيلة في هزيمة أخيه واسترداد ما كان تحت يديه من المدن والأقاليم ، وتوافد عليه قواد الدولة الخوارزمية الذين كانوا تحت إمرة أخيه وأعلنوا تبعيتهم له ومبايعته سلطانا على الدولة الخوارزمية.

بعد أن استقر جلال الدين عمل جاهداً على إعادة الأمن وإصلاح ما خربه المغول وتجهيز جيش للوقوف على أهبة الاستعداد ، وامتد سلطانه على أقاليم خوارزم وغزنة

¹ - الدولة الخوارزمية والمغول - مرجع سابق .

وكرمان وفارس وخراسان ومازندران ، وانتهاز جلال الدين فرصة انشغال المغول باختيار خليفة للقائد جنكيزخان بعد وفاته عام 642 هـ / 1227 م ، واشتبك مع قوة من المغول قصدت الدولة الخوارزمية وتوغلت في أراضيها حتى أصبحت على مقربة من مدينة الري ونجح السلطان في إبادتها تمامًا ، ثم نشبت معركة أخرى قرب أصفهان عام 625 هـ / 1228 م ، بين المغول وقوات جلال الدين كان النصر فيها حليفه¹.

على الرغم من تحسن الأوضاع نسبياً لجلال الدين فإنها لم تكن كافية للصمود أمام المغول ؛ فالدولة كانت منهكة من أثر التخريب والدمار الذي ألحقه المغول بالبلاد والأحوال فيها مضطربة ، والصلات والروابط التي تعين على مواجهة المحن قد تقطعت بين شعوب تلك المنطقة ، وغلب على الناس إيثار السلامة بعد الأحوال التي شاهدها ، ونتيجة لكل ذلك لم ينجح جلال الدين في وقف الهجمة المغولية التي أرسلها " أوكتاي " خاقان المغول الجديد ، الذي أرسل جيشاً من 30 ألف مقاتل لشن حرب شاملة على جلال الدين ، فعبر نهر جيحون ووصل بسرعة إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية واستولى على الري وهمدان وما بينهما ، ووصل إلى أذربيجان عام 628 هـ / 1231 م ، ولم يستطع جلال الدين على لقائهم وفر من أمامهم وهم في إثره يطاردونه².

بعدما رحل جلال الدين إلى تبريز كان جنود المغول وراءه ، وأرغموه على التقهقر إلى سهل موقان المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين قبل أن يتمكن من جمع جيوشه وحاول أن يستجد بالخليفة العباسي وأمراء ديار بكر ولكنهم تقاعسوا عن نصرته وتركوه يلقي نهايته وحيداً دون معاون أو نصير ، فلما وصل إلى آمد في أعالي نهر دجلة لحق به المغول وهزموه شر هزيمة وقتلوا كثيراً من جنده واستولوا على ما معه من سلاح³.

¹ - تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية - مرجع سابق .

² - إحصار من الشرق " جنكيزخان " د . ثروت عكاشة - دار الشروق - الطبعة الخامسة 1992 - القاهرة .

³ - تاريخ فاتح العالم - عطا مالك الجويني - ترجمة : د . محمد التونجي - دار الملاح - الطبعة الأولى 1985 - دمشق

كان جلال الدين يفضل الاعتماد على ابن عمه وزوج أخته الأمير "ممدود" ، الذي كان يتخذه مستشاراً له في الأمور الحربية وقائداً شجاعاً من قواده في الحروب والمعارك الضارية ، فأشار عليه الأمير ممدود بالدخول في معركة مع المغول خارج غزنة ، وهي المدينة التي اتخذها جلال الدين قاعدة لحكمه ، وكانت تلك المعركة التي انتصر فيها جلال الدين انتصاراً عظيماً في بادئ الأمر ، ولكن سرعان ما تحول هذا الانتصار إلى نكبة كبرى حيث قام جنكيز خان بتجهيز جيش كبير وإعداده جيداً وأطلق عليه اسم جيش الانتقام تيمناً بالنصر والانتقام من جلال الدين ، وبالفعل التقى الجمعان عند أبواب كابل ، وكان قائد جيش جنكيز خان أحد أبنائه ، وقاتل جلال الدين وجيشه في تلك المعركة قتالاً ضارياً استمر ثلاثة أيام ، وكان جلال الدين قوياً ثابتاً حتى انتهت المعركة بالفعل بانتصاره هو وجيشه ، ولكن لم تدم فرحة جلال الدين كثيراً بهذا النصر إذ سرعان ما اختلف قواده علي توزيع الغنائم ، فقام سيف الدين بغراق أحد قواد جيش جلال الدين في تلك المعركة بالانفصال عن الجيش ومعه كتيبته التي تكونت من ثلاثين ألف جندي ورحل عن جلال الدين ، رغم محاولات جلال الدين لإرضائه بأي طريقة ولكنه صمم على الرحيل ، وعندما علمت فلول المغول بانسحاب سيف الدين بغراق من المعركة عادوا من جديد بعد أن كانوا قد فروا هاربين ، وانقضوا على جيش جلال الدين وأوقعوا بهم هزيمة قاسية في تلك المعركة ، وعاد الأمير ممدود ابن عم جلال الدين منها مصاباً إصابات بالغة مات على إثرها فور وصوله¹.

• علاقة السلطان جلال الدين بالدولة الأيوبية :-

بعد وفاة الملك العادل عام 615 هـ ، وقع خلاف بين أبنائه الثلاث " الكامل حاكم مصر والمعظم حاكم دمشق ، والأشرف موسى حاكم بلاد الجزيرة العربية وخلاط وميفارقين " وقد ازداد هذا الخلاف عندما اتفق الملك الكامل والملك الأشرف على أخيهما المعظم عيسى ، ولما علم المعظم بذلك أخذ يسعى للحصول على حليف يقف إلى جانبه ضد أخويه ، وعندما قدم المغول عام 628 هـ ، كان جلال الدين وحده في مواجهتهم. وقد أضعفته الحروب المتعددة فوجه دعوته لأمرأء وملوك الأطراف

¹ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مرجع سابق .

للقوف معه صفًا واحدًا بوجه الخطر ، قائلاً : إن جيشًا جرارًا من عساكر التتار كأنه النمل والشعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا ، فإذا ترك وشأنه فسوف لا تصمد أمامه القلاع والأمصار ، فإذا هُزمت وخلا مكاني من بينكم ، فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو . إذن أنا لكم بمثابة الأسد الإسكندر ، فليسارع كل منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود حتى إذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحدنا فترت قوتهم وفَت في عضدهم بينما يشجع جنودنا وتقوى قلوبهم ولكن لا يبدو أن نداء جلال الدين لقي آذانًا صاغية ، ولا يبدو أن الخليفة وملوك وأمراء الدويلات والأطراف كانوا يعتقدون أن المغول يمكن أن يصلوا إلى بلادهم ، فلا بأس إذ أن ينشغل منكبرتي بهم فيتخلصون من اعتداءاته المتكررة وينصرفون إلى مشاكلهم ومنافساتهم الداخلية .

لكن المغول داهموا الري وهمدان وعرجوا إلى أذربيجان فلم يتمكن جلال الدين من صددهم واضطرب جيشه نتيجة خلافات في داخله بين قادته ، وهرب منكبرتي أمام المغول فتعقبوه إلى مرواغته واحتلوها ثم أرسل الخليفة يبلغه مدي خطورة المغول على الخلافة¹ .

• حياته الاجتماعية :-

عاش جلال الدين حياة اجتماعية غير مستقرة منذ توليه العرش بعد وفاة أبيه ، حيث قام كان أبوه علاء الدين خوارزم شاه ، قد عمل علي إثارة المناوشات مع دولة المغول في أقصى الشرق ، الأمر الذي أدَّى إلي قيام المغول بعدة هجمات ضارية على عدد من المدن الخوارزمية بعد تولي جلال الدين الحكم ، فكان جلال الدين يخوض المعركة تلو الأخرى ، مرة ينتصر ومره أخري ينهزم ، حتى جاءت معركة كابل ، والتي مات على إثرها الأمير ممدود ابن عمه وزوج أخته " جهان خاتون " ، وبعد موته انتقلت الأرملة جهان خاتون بابنها الأمير محمود² للعيش مع عائشة خاتون زوجة جلال الدين في قصر واحد ، حيث كانت عائشة خاتون ، زوجة جلال الدين ، قد أنجبت في نفس

¹ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مرجع سابق .

² - الأمير محمود هو الأمير سيف الدين قطز ، الذي هزم المغول بعد ذلك في معركة عين جالوت .

التوقيت ابنتها جهاد ، المعروفة باسم " جلنار حب الرمان " التي تزوجت من الأمير سيف الدين قطز عندما صار سلطاناً علي مصر¹.

• وفاته:—

تُوفي السلطان جلال الدين منكبرتي في 15 شوال 628 هـ / 9 أكتوبر 1231 م ،² فبعد هزيمته في معركة آمد علي نهر دجلة ، لجأ إلى جبال كردستان بعد أن يئس المغول من تتبعه للقضاء عليه ، وظل بها حتى عثر عليه رجل كردي وأخبره أنه هو السلطان جلال الدين فأخذه الكردي إلى منزله ، وخرج ليدبر له بعض خيوله ليستعين بها السلطان في رجوعه إلى بلاده ، وبينما كان الكردي غائباً عن منزله أتى كردي آخر لزيارته فلما دخل المنزل رأى السلطان فعرفه ، وكان قد قتل أخاً له في إحدى غزواته فضربه بحرسته التي كانت في يده فنشبت بين أضلعه وسقط السلطان قتيلًا ، وبمقتله سقطت الدولة الخوارزمية أمام المغول الذين سيطروا على أراضيها ، وبدأت بعد ذلك مرحلة جديدة للغزو المغولي قادها هولاكو حفيد جنكيزخان فقضى على الخلافة العباسية في بغداد وسقطت في يديه مدن الشام في مقدمتها حلب ودمشق³.

بعدما قتل السلطان جلال الدين منكبرتي ، دخل جماعة على الملك الأشرف موسى⁴ فهنئوه بموته ، فقال : هتوني به وتفرحون ، سوف ترون غبه ، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام ، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج ، فكان كما قال الأشرف ، فقد كان جلال الدين منكبرتي آخر سلاطين الدولة الخوارزمية .

¹ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مرجع سابق .

² - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي - مرجع سابق .

³ - الدولة الخوارزمية والمغول - مرجع سابق .

⁴ - هو الملك الأشرف موسى شاه ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب ، توفي بدمشق سنة

635هـ / 1237م ودفن بقلعتها .

• ترکان خاتون:—

هي زوجة السلطان علاء الدين تكش خوارزم شاه بن ألب أرسلان ، ووالدة السلطان علاء الدين محمد الثاني بن خوارزم شاه ، وهي ابنة خان جنكش أحد ملوك الترك¹ كان لها تأثير كبير في سياسة الدولة الخوارزمية ، لما كانت تتمتع به من العلم ورجاحة العقل ، الذي يعود إلي نشأتها في بلاط الملوك والأمراء ، فقد كانت حسنة التدبير لشئون الدولة، وخاصة في عهد ابنها علاء الدين خوارزم شاه، الذي كان رجل حرب الدرجة الأولى، وكانت حروبه المستمرة تشغله عن إدارة الدولة ، فكانت ترکان خاتون صاحبة الكلمة المسموعة في الجهاز الإداري للدولة الخوارزمية².

• مولدها ونشأتها :—

لم تذكر المصادر الكثير من مولدها ، ولا نشأتها ، فمعظم المصادر تناولت حياة ترکان خاتون بعد زواجها من علاء الدين تكش ، ولم تتناول الكثير عن حياتها قبل ذلك . نشأت ترکان خاتون في بيت أحد ملوك الترك ، هو خان جنكش ، الذي ينتمي إلي قبيلة بياووت ، التي تكون مع غيرها من القبائل ما يعرف بقبائل قنقالي أوكانكالي ، التي يرجع أصلها إلي السهول الواقعة في شمال خوارزم وفي الشمال الشرقي من بحر قزوين ، وترجح بعض المصادر أن يكون ملك أبيها خان جنكش قد آل إليها قبل أن تتزوج من علاء الدين تكش ، نظراً لما تتمتع به في حياة زوجها، وفي عهد ابنها السلطان علاء خوارزم شاه .

حازت ترکان خاتون عند ارتفاع شأنها علي لقب " بخداوند جهان " ، أي "صاحبة العالم" كما لقبت أيضا باسم "غايرخان" ، فكانت ذات مهابة ورأي³، وإذا رفعت الظلمات إليها تحكم فيها بالعدل والإنصاف ، وكانت تنتصف للمظلوم من الظالم ، غير أنها كانت جسورة على القتل ، وكان لها خيرات ومسبلات في البلاد ، ولم يتوقف الأمر

¹ - تاريخ فاتح العالم عطاء ملك الجويني - نقله عن الفارسية : د . محمد التونجي - دار الملاح - الطبعة الأولى 1985 - دمشق .

² - الدولة الخوارزمية والمغول - مرجع سابق حافظ .

³ - تاريخ فاتح العالم عطاء ملك الجويني - مرجع سابق .

عند ذلك بل كانت قدوة لكل نساء البيت الخوارزمي ، فعندما كان السلطان جلال الدين منكبرتي فاراً من المغول ببلاد الهند ، سيطرت والدته فيما كان تحت ولايته وحصلت علي لقب " بخداوند جهان " ، أي " سيدة العالم " ، أسوة بوالدة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ترکان خاتون .

كانت دائرة نفوذ الملكة تتركز في ولاية خوارزم ، وكان معظم الجيش وقادته ورجال الدولة في هذه المنطقة إما من أتراك كانكالي أو من خواص الملكة وغلماها ، فقد كانت سياسة الدولة الخوارزمية نحو العناصر التركية خير مشجع لهذه العناصر على النزوح إلى أراضيها والاستيطان فيها ، فنزح إلى أراضي الدولة عدد كبير من رجال هذه القبائل التركية المرابطة على حدودها في الشمال ، ومنها قبائل كانكالي وخاصة بعد أن تزوج علاء الدين تكش خوارزم شاه من ترکان خاتون التي تنتسب إلى أحد فروع هذه القبائل ، وكان ارتباط علاء الدين تكش بتلك القبائل برباط المصاهرة خلق طبقة عسكرية قوية ساهمت في انتصاراته العسكرية ، وازدادت تلك العلاقة بعد تولي علاء الدين خوارزم ، فلم يستولي السلطان علي إقليم إلا وعين له حاكماً من تلك القبائل فعندما سيطر على مدينة هراة عام 605 هـ / 1208 م ، عين عليه خاله أمير حيث كان من أعيان أمراءه .

• دور ترکان خاتون في توطيد أركان الدولة الخوارزمية:-

بلغت الدولة الخوارزمية أوج عظمتها في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه وقد برز دور الملكة الأم " ترکان خاتون " في الحفاظ على دعائم هذه الدولة منذ اللحظة الأولى لعهد ابنها علاء الدين ، فإليها يرجع الفضل الأكبر في جلوس ابنها على عرش أبيه ، وساعدته في القضاء على الدولة الغورية " المنافس التقليدي للدولة الخوارزمية " ، ولذلك كان ابنها علاء الدين محمد يحرص على أن يستجيب لرغبات أمه لما كان لها من سلطان ونفوذ كبير بين رجال الدين ورجال الجيش، كما أنه كان يعتبر ذلك من بر الوالدين ، إضافة إلي أن أكثر أمراء الدولة كانوا من عشيرتها ، وبهم نازع الخطائية فانتزع الملك من أيديهم¹.

¹ - المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء - مرجع سابق .

كانت ترکان خاتون تتبع سياسة المصاهرة مع أعداء دولتها الأقوياء ، بهدف فتح صفحة صداقة وتعاون معهم بدل العداء ، فعندما أسر ابنها السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، الأتابك سعد بن زكي أمير فارس ، عفى عنه ليفرغ لغزو بغداد ، وتزوج الأتابك سعد بامرأة من أهل بيت ترکان خاتون ، علي أن يحمل كل عام إلى الخزانة السلطانية من بلاده ثلث الخراج ، وعاد الأتابك بالخلع والتشريفات إلى كرسي ملكه¹ أسهمت الملكة ترکان خاتون، بدور كبير في الصراع بين الخوارزميين ودولة الخطا حيث استطاعت بجهودها الدبلوماسية أن تخفف من حدة التوتر القائم بين الطرفين في البداية كما حافظت على تماسك الدولة الخوارزمية عندما أشيع أن ابنها قتل في حربه مع القراخانيين .

هذا فضلا عن مباركتها لغزو ابنها لبلاد الخطا ، عندما رأى في نفسه القدرة على هذا الغزو، وكان دافعها إلى ذلك توسيع رقعة نفوذها هي وابنها في الممالك الأخرى ، وقد كتب لها النجاح في ذلك بالقضاء على دولة الخطا².

بعد انتصار خوارزم شاه على الخطا ، صحبه عثمان أمير سمرقند إلى كركانج لعقد قرانه على ابنة محمد علاء خوارزم شاه وقد دامت الاحتفالات بعض الوقت ، وعندما أراد عثمان العودة إلى سمرقند أصرت ترکان خاتون وفقا لعادات الترك على أن يبقى العريس عاماً كاملاً بمنزل صهره فلم يملك إلا الإذعان ، ولما استأنف محمد خوارزم شاه في ربيع عام 1211م / 608هـ حملته على القراخاني وصل بمفرده إلى سمرقند وسرعان ما تبين له أن غياب الخان قد أثار خواطر الرعية وعداءهم له ، فلم يستطع السلطان إزاء هذا إلا أن يأمر بإرسال عثمان وزوجه الشابة إلى سمرقند ، فغادر عثمان خوارزم محاطاً بما يليق به من مظاهر التكريم تاركاً أخاه الأصغر بها، وعاد إلى عاصمته³.

¹ - تاريخ فاتح العالم عطاء ملك الجويني - مرجع سابق .

² - تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية - مرجع سابق .

³ - تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي - فاسيلي فلاديميروفيتش بارتولد - نقلة عن الروسية : صلاح الدين عثمان هاشم - المجلس الوطني للثقافة - الطبعة الأولى 1981 - الكويت .

وعندما عاد الأمير عثمان إلي سمرقند ، أرسل إلي ملك الخطا يدعوهُ إلي سمرقند ليسلمها إليه ويعود إلي طاعته ، وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديماً وحديثاً ، ومضى إلي القلعة ليقتل زوجته ابنه خوارزم شاه ، ولم تلبث الأخبار أن تواترت إلي علاء الدين محمد خوارزم شاه بأن عثمان يعامل ابنته معاملة غير كريمة وأنه يجاهر بتفضيل الأميرة القراخانية عليها ، بل إن ابنته أجبرت على القيام بخدمتها ، ووصل الخبر بأن أهل سمرقند قد هبوا بتحريض من عثمان وقتلوا أغلب الخوارزميين في المدينة عام 1212م / 609 هـ ، أما ابنة خوارزم شاه فقد اعتصمت بالقلعة وقبل عثمان بعد ممانعة شديدة أن يبقى على حياتها¹.

وصل الخبر إلي علاء الدين ، وغضب غضباً شديداً ، وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء ، فمنعته أمه عن ذلك تركان خاتون ، وقالت : إن هذا البلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض ، ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل ، فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه ، فأنتهى ورجع عن قراره² ، وأمر جنوده بالإستعداد إلي ما وراء النهر ونزل على سمرقند وأسروا أميرها وأحضره عند خوارزم شاه ، فأمر بقتله ، وقد اتسم موقف تركان خاتون من خروج صاحب سمرقند على السلطان خوارزم شاه بالحكمة والتعقل ، فهي فضلاً عن مباركتها لزواج الأمير عثمان من ابنة ابنها كي يظل تحالفهما قوياً ومتربطاً، منعت ابنها من الإقدام على عمل خطير هو قتل الأبرياء من السمرقنديين وغيرهم في إقليم خوارزم³.

مع منتصف القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري ، ظهرت أسرة من الوعاظ بمدينة بخاري توارثت لقب "صدر جهان" ، وكان من الطبيعي أن يؤدي اتساع نفوذهم في الشئون السياسية إلي صدام مع خانات سمرقند ، وكان الملقب بصدر جهان على عهد الدولة الخوارزمية صدر جهان برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز

¹ - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي - مرجع سابق .

² - طريق الحرير - إيرين فرانك - ترجمة : أحمد محمود - المجلس الأعلى للثقافة 1997 - القاهرة .

³ - مآثر الإنفاة في معالم الخلافة - أحمد بن عبد الله القلقشندي - تحقيق : عبد الستار أحمد فراج - حكومة الكويت - الطبعة الثانية 1985 - الكويت .

البخاري ، وكان رئيساً للحنفية ببخاري ، وكانت تركان خاتون وأتراك الكانكالي يرتكزون على جماعة رجال الدين في كل من خوارزم وما وراء النهر ، ولما كان السلطان علاء الدين خوارم شاه يعتبر نفوذ هذه الجماعة عقبة في طريقة ، فقد سعى لسلبهم قوتهم ونفوذهم ، وكانت هذه المسألة من العوامل الرئيسية للخلاف بينه وبين أمه لأنها كانت تؤيد الامتيازات التي يحصل عليها رجال الدين ، على الرغم من أن السلطان تكش خوارزم شاه كان فقيهاً على مذهب أبي حنيفة ، وكان ابنه علاء الدين خوارزم شاه فقيهاً حنفياً¹.

عمل خوارزم شاه على الإساءة إلى مشاعر أمه ومشاعر رجال الدين عندما أمر بقتل الشيخ مجد الدين بغدادي صدر جهان الذي كان من تلامذة الشيخ نجم الدين الكبرى مؤسس الطريقة الكبرى ، وكغيره من كبار مشايخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين فإن الشيخ نجم الدين كان ينتسب إلى المدرسة التي أسسها ببلاد ما وراء النهر الشيخ أبو يعقوب يوسف البرنجردي الهمداني " المتوفى عام 1140 م / 535 هـ " وكان الشيخ مجد الدين بغدادي يتمتع بالحصافة واللباقة ، وقد حدث أن كتب إليه الإمام شهاب الدين خيوي الذي كان يشغل آنذاك وظيفة الوكيل ببلاط خوارزم ، كتب إليه رسالة يعبر فيها عن أمله في أن يستطيع بمعاونة الشيخ " أن يجد مخرجاً من ظلمات الدنيا إلى نور الطاعة ، فكان رد الشيخ مجد الدين أن أفهم الوكيل أنه لا حرج عليه في خدمة السلطان وأنه بهذا قد نتاح له الفرصة لإعانة المظلومين وإغاثة الملهوفين فيبلغ بهذا سعادة دنياه وآخرته أكثر مما يبلغها بطريق الصوم والصلاة ، لكن حدث خلاف غير معلوم بين الشيخ وحكومة خوارزم ، وقتل صدر جهان عند رحيل تركان خاتون عن خوارزم ، وكان مقتل صدر جهان بأمر من السلطان خوارزم شاه، وعلى غير رضى من الملكة تركان خاتون ، من الأمور التي أدت إلى زيادة الخلاف بينهما ، وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على أحداث الخلاف الذي دبَّ بين خوارزم شاه والدولة العباسية².

¹ - تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي - مرجع سابق .

² - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - مرجع سابق .

كان إقليم خوارزم يمثل الجزء الرئيس في هذه الدولة الخوارزمية، حيث كان خاضعاً لسيطرة ترکان خاتون، وسيطرة الأتراك من قبيلتها المسماة بالقنقلی، وكان من الممكن أن يدافع هؤلاء عن إقليمهم ضد الأعداء المعتدين ، وأن يصمدوا أمامه ، لولا أن تقدم العمر قد استولى على تلك الملكة ، كما أن الضربة القاصمة التي أنزلها المغول بابنها علاء الدين خوارزم شاه ، كان لها أكبر الأثر في تسرب اليأس إلى نفسها ، بالإضافة إلى ما ثار من نزاع بين أبناء السلطان علاء الدين حول ولاية العرش ، كل ذلك سهل مهمة العدو في الاستيلاء على هذا الإقليم¹.

لقد كان اهتمام جنكيز خان ينصب على مطاردة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه واستئصال شأفته ، إلا أن الاستيلاء على عاصمة الخوارزميين والنيل من ترکان خاتون أم السلطان وسائر أمرائه ، كانت أموراً حتمية في نظر خان المغول .

فإذا كان جنكيزخان قد وضع في بؤرة اهتماماته أن يتعقب خوارزم شاه للخلاص منه فإنه لم يغفل أيضاً الاستيلاء على إقليم خوارزم خاصة عاصمته " الجرجانية " التي كانت في الوقت نفسه حاضرة الدولة الخوارزمية ، كذلك كان يحرص جنكيز خان على أسر ترکان خاتون والدة السلطان لعلمه بأهميتها في إدارة أمور الدولة الخوارزمية ولذلك كان يعتبر كل ذلك أمراً حتمياً للقضاء نهائياً على هذه الدولة².

عندما استولى جنكيزخان على أترار ، حضره بدر الدين العميد ، وكان ينوب بأترار عن الصفي الأقرع وزير السلطان ببلاد الترك ، واتفق بدر الدين العميد مع جنكيزخان على أن يزور رسائل على لسان الأمراء أقارب والدة السلطان إلى جنكيز خان .

يبدلون له الدخول في طاعته ، ويقولون : " إنا تسحبنا من بلاد الترك بعشائرنا ومن يلوذ بنا إلى السلطان ، رغبة في خدمة والدته ، فلما نصرناه على كافة ملوك الأرض ، وذلت له الجبابرة وخضعت له الرقاب فما هو الآن تغيرت نيته في حق والدته، عتوا منه وعقوقاً، وهي تأمرنا بخذلانه ، فنحن على انتظار وصولك واتباع أمرك . . . " وسلم جنكيز خان الرسائل إلى بعض خواصه ، وأمره أن يتوجه بها إلى السلطان ، ويظهر له أنه قد هرب من صاحبه

¹ - تاريخ فاتح العالم عطاء ملك الجويني - مرجع سابق .

² - الدولة الخوارزمية والمغول - مرجع سابق .

إليه ، ففعل ذلك ، فلما وصل إلى السلطان وقرأ الرسائل ، صدّق بما جاء بها ولم يشك في صحتها¹.

ونفرَ من هؤلاء الأمراء ، ونأى عنهم وبدد شملهم ، فلما فعل هذا بأقارب والدته تركان خاتون غضبت لذلك .

وعندما علم جنكيزخان بما حدث من خلاف بين الملك علاء الدين وأمرائه ، أرسل دانشمند الحاجب ، وهو من خواصه إلى تركان خاتون بخوارزم يقول : قد عرفت مقابلة ابنك حقوقك بالعقوق ، وهأنذا قد قصدته بمواطاة من أمرائه ، ولست بمتعرض إلى ما تحت يدك من البلاد ، فإن أردت ذلك بعثت إلى من يستوثق لك مني فتسلم لك خوارزم وخراسان وما تناخهما ما من قاطع جيحون.

غير أن تركان خاتون لم تطمئن إلى هذا الوعد ، ولم تستجب لهذه الدعوة ، بل غادرت إقليم خوارزم ، وكان سبب ذلك أن والدته خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ، ففارقت خوارزم².

• وفاتها :-

توفيت تركان خاتون في عام 630هـ / 1233 م ، وهي في الأسر لدي جنكيز خان في قره قورم³ .

بعد أن عبرَ السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه مياه نهر ترمذ هاربًا من المغول أرسل إلى خوارزم رسولاً ، يطلب من والدته وحريمه أن يتجهن نحو مازندران ويتحصن في القلاع . وانطلقت الأم تبعًا لوصية ابنها ، وأخذت معها خزائنها وأحفادها من الأطفال ، وباقي الحريم ، بينما تركت الجيوش والأعيان في خوارزم ، واستصحبت عمرخان بن صاحب يازر ، وكان محبوسًا بها لخبرته بالطرق المفضية إلى بلاده وعندما وصلت الملكة تركان خاتون إلى قلعة إيلال بماندران ، أمرت بتحسين القلعة

¹ - إحصار من الشرق " جنكيزخان " - مرجع سابق .

² - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

³ - تاريخ فاتح العالم عطاء ملك الجويني - مرجع سابق .

وسار المغول إلى مدينة الري فترامى إلى مسامعهم أن السلطان يقيم في هذا الجزء الغربي من الدولة ، وفي الطريق عثروا صدفة على ترکان خاتون والدة السلطان¹ . فاستولى المغول بقيادة القائدين شبي ، وسوبوتاي على القلعة ، بينما كانا يطاردان السلطان محمد علاء الدين خوارزم شاه . فظفروا بأمر السلطان خوارزم شاه ، ومعها خزائنه فأسروها عام 617 هـ / 1220 م ، وسيروا الجميع إلى جنكيزخان بسمرقند . وبعد أن أسر المغول الملكة ترکان خاتون أرسلوها ووزيرها نظام الملك وحریم خوارزم شاه وأبنائه الصغار إلى جنكيزخان الذي كان على مشارف الطالقان ، فأمر بقتل نظام الملك وأبناء خوارزم الصغار ، إلا أصغرهم " جي شاه " عام 618 هـ / 1221 م ، وأودع بنات خوارزم شاه وحریمه وأخواته مع ترکان خاتون في مكان واحد حتي وفاتها² .

¹ - تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية - مرجع سابق .

² - المغول في التاريخ - د . فؤاد عبد المعطي الصياد - دار النهضة العربية 1970 - بيروت .

• الأمير تيمور:-

الأمير تيمور بن طرغاي بهادور بن حجي أمين ، قائد أوزبكي عاش في القرن الرابع عشر ، وهو مؤسس الأسرة التيمورية في آسيا الوسطي ، وأول حكام العائلة التيمورية والتي استمر حكمها حتى عام 1506 م .

ويعرف في التاريخ باسم **تيمورلنك** ، إلي جانب العديد من الألقاب الأخرى منها **كورغان** ، **سلطان طوران** ، **صاحب قيران** ، **مؤسس الدولة التيمورية** ، وكان قائداً عسكرياً فذاً ، حيث يعني اسمه **تيمور** في اللغة الأوزبكية "**الحديد**" ، لذا فقد استطاع القيام بحملات توسعية كبيرة أدت إلي اغتنام مجتمعات بأكملها

وفي عام 1360م الموافق لعام 761هـ توفي والد تيمور، طرغاي بهادور ووري التراب بمدينة كيش وهو نفس العام الذي اجتاح به حاكم المغول توغلوق تيمور خان بن أغول خوجه بن دواخان بلاد ما وراء النهر على رأس جيش مؤلف من مائة ألف مقاتل .

• مولده ونشأته:-

ولد تيمور في قرية خواجه ايلجار إحدى قري ولاية كش ، المعروفة حالياً باسم شهر سبز أي المدينة الخضراء بالفارسية ، والتي تقع جنوبي سمرقند في أوزبكستان ، عام 737 هـ / 1336 م¹.

لم يكد يبلغ تيمور السابعة من عمره عندما غادر مسقط رأسه كيش في عام 1343 م / 743 هـ متوجهاً إلى قارشي مقر إقامة جده حجي أمين ، حيث قضى خمس سنوات تعلم خلالها في المدرسة وسط أبناء وجهاء المدينة ، الذين تميز بينهم ، وفي عام 1350 م / 750 هـ ، رافق والده في رحلة إلى سمرقند للمشاركة في المجلس المصغر لأمرأ القبايل التركية المشهورة في دولة ما وراء النهر التي تشكلت على أنقاض تشيغاتاي أولوس ، الذي أسسه جغاتاي ثاني أبناء جنكيز خان ، وانهار خلال أربعينات القرن الرابع عشر ، ليتولى قازاغان حكم الدولة آنذاك .

¹ - لمحات من الأسرة التيمورية - سعيد المغربي - مجلة الجالية - 7 يونيو 2011

وأثناء هذه الرحلة شاء القدر أن يلتقي تيمور بحفيد الأمير قازاغان ، حسين الذي كان المنافس العنيد للأمير تيمور على السلطة في ما وراء النهر لاحقاً .

وأما تيمور عام 1351 م / 751 هـ مع الرعاة التابعين لأبيه في جبال أورتشي¹ .
التقى الأمير تيمور في أبريل 1352 م / صفر 753 هـ ، بمدينة قارشى بمعلم أبيه الشهير الأمير قليال الذي شهد يوم ميلاده وأطلق عليه اسم تيمور ، وفي خريف عام 1355 م / 756 هـ ، تزوج الأمير تيمور من ابنة بيك ياككا باغ ، جاكو برلاس تورموش آغا التي أنجبت له ابنه البكر جهانجير ، وابنته أوجايجي .

بدأ الأمير تيمور حياته العسكرية مبكراً بالتحاقه في عام 1356 م / 757 هـ ، بخدمة حاكم ما وراء النهر آنذاك الأمير قازاغان الذي زوجه حفيدته أولجاي توركان آغا شقيقة الأمير حسين ، اعترافاً منه بالخدمات العسكرية الكبيرة التي قدمها له أثناء خدمته لديه .
وفي نفس العام ولد ابنه البكر جهانجير .

وابنه الثاني عمر شيخ من زوجته طولون آغا ، وكانت أولى تجارب الأمير تيمور في شئون الحكم وهو في سن الثانية والعشرين من عمره ، عندما عينه قازاغان عام 1358 م / 759 هـ ، حاكماً على مدينة شيبيرجان .

عاش تيمور أيام صباه بين أفراد قبيلته البرلاس الأوزبكية ، حيث يصل بقرابة بعيدة إلى آل البيت المغولي - ذرية جنكيز خان - وذلك من جهة الأم تيغينة موح ، وكان أبوه زعيماً لقبيلة البرلاس التركية ، حيث أُنقن تيمور فنون الحرب الشائعة عند القبائل الصحراوية من الصيد والفروسية ورمي السهام ، حتى غدا فارساً ماهراً ، متقناً لرمي السهام ، وقد فقد تيمور والديه صغيراً ، فقد توفي والده طرغاي بهادور ووري التراب بمدينة كيش عام 1360 م / 761 هـ ، وهو نفس العام الذي اجتاح به حاكم المغول توغلق تيمور خان بن أغول خوجه بن دواخان بلاد ما وراء النهر على رأس جيش مؤلف من مائة ألف مقاتل .

¹ - ملخص حياة الأمير تيمور مؤسس الدولة التيمورية د . محمد البخاري

http://bukharimailru.blogspot.com/2009/08/blog-post_6789.html

كان تيمور يسلك الجد مع القريب والبعيد ، ولا يحب المزاح ويحب الشطرنج وله فيها يد طولى ومهارة زائدة وزاد فيها جملاً وبغلاً ، وجعل رقعته عشرة في أحد عشر وكان ذا رأي صائب ومكائد في الحروب عجيبة ، وفراصة قل أن تخطيء ، عارفاً بالتواريخ لادمانه على سماعها ، ولا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سفراً وحضراً مغري بمن له معرفة بصناعة ، حاذقاً باللغات الفارسية والتركية والمغولية خاصة ويعتمد قواعد جنكيز خان ويجعلها أصلاً¹.

اتصف الأمير تيمور بالتدين والتصوف ، ويستمتع إلى رأي المتصوفة ، كما كان عالماً ومحباً للعلماء ، وقد وضع مجموعة من القوانين باسم "توكاز" ، وكتب ترجمة لحياته حاول فيها تبرير أعماله ، وقد نقلت مؤلفاته التي كتبها باللغة الجغتائية إلى الفارسية ثم إلى اللغات الأوروبية.

• أبناء وأحفاد الأمير تيمور :-

كان تعدد الزوجات سمة غالبية ورثها الأمير تيمور من المملكة المغولية ، التي كانت تهدف من وراء الزواج إلى زيادة الترابط والتواصل بين القبائل القوية ، ولذلك فقد اتخذ الأمير تيمور ثمانية زوجات له .

هن : تورموش آغا بنت جاكو برلاس ، أولى زوجاته .

أولجاي توركان آغا ، حفيدة الأمير قازا خان ، وشقيقة حسين ، توفيت عام 1366 م - 767 هـ .

تاغاي توركان آغا ، تومان آغا بنت الأمير موسى ، تزوجها عام 1378 م - 780 هـ - توكيل خانم " كيتشيك خانم " ، بنت خان مغولستان خضر حجي ، تزوجها عام 1397 م - 799 هـ .

دلشاد " بنت قمر الدين خان مغولستان ، توفيت عام 1383 م - 784 هـ .

ساراي ملك خانم ابنة سليل جنكيز خان ، قازان خان ، وقد سُحّ للأمير تيمور بعد ذلك الحصول على لقب كوراخان ، أي صهر الخان ، وقد حظيت ملك خانم بموقع الصدارة

¹ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - مرجع سابق .

بين حريم الأمير تيمور ، وحلصت بذلك علي لقب " بيبي خانم " ، أي أميرة الأميرات¹.

كما تزوج الأمير تيمور من أرملة حسين طولون آغا ، مينجيل بيك آغا ، وأنجب منها ميران شاه .

وقد أنجب الأمير تيمور سبعة أبناء ، أربعة من الذكور ، وثلاثة من الإناث ، هم : أوجايحي بنت الأمير تيمور من تورموش آغا ، بيحيم بنت الأمير تيمور من أوجاي توركان جهانجير بن الأمير تيمور من تورموش آغا ، سلطان بخت بنت الأمير تيمور من أوجاي توركان شاه رخ بن الأمير تيمور من تاغاي توركان آغا ، عمر شيخ بن الأمير تيمور من طولون آغا ميران شاه بن الأمير تيمور من مينجيل بيك آغا .

كما ترك الأمير تيمور قبل وفاته عدد من الأحفاد ، منهم من عهد إليه بتوليته حكم أجزاء من الدولة ، وخاصة أولاد أبنائه الذين توفوا في عهده ، ومن هؤلاء الأحفاد : أبو بكر بن ميران شاه ، إبراهيم سلطان بن شاه رخ ، إبراهيم سلطان بن ميران شاه ، بير محمد بن جهانجير ، بيحي سلطان بنت ميران شاه ، خليل سلطان بن شاه رخ ، خليل سلطان بن ميران شاه ، غياث الدين باي سنجر بن شاه رخ ، محمد سلطان بن جهانجير ، محمد طرقي " أولوغ بيك " بن شاه رخ ، سلطان حسين حفيد الأمير تيمور من ابنته أوجايحي سيورجاتيش بن ميران شاه .

● إعادة عهد جنكيز خان :-

بدأ الأمير تيمور في توسيع طموحاته بإعادة مجد الإمبراطورية المنغولية مرة أخرى خلال حكم جنكيز خان الذي كان له أثره الكبير على شخصية تيمور لنك ، فلقد كان يسعى لجذب الشرعية نحوه من خلال التقرب لعائلة جنكيز خان ، وهو ما دفعه للزواج باثنتين من حفيداته حتى يمكن ربط اسمه باسم هذا القائد العظيم .

بعدما توفي كازخان آخر إيلخانات تركستان عام 758 هـ / 1357 م ، قام تغلق تيمور صاحب كشغر بغزو بلاد ما وراء النهر وجعل ابنه إلياس خواجه قائداً للحملة وأرسل معه الأمير تيمور وزيراً ، ثم حدث أن ساءت العلاقة بين الرجلين ؛ ففر تيمور ، وانضم

¹ - ملخص حياة الأمير تيمور مؤسس الدولة التيمورية - مرجع سابق .

إلى الأمير حسين حفيد كازخان آخر إيلخانات تركستان ، وتقرب إليه ، ولا زال يترقى بعد ذلك من وظيفة إلى أخرى حتى عظم وصار من جملة الأمراء . وتزوج بأخت السلطان حسين .

نجح الاثنان في جمع جيش لمحاربة إلياس خواجه ، لكنهما لم ينجحا في تحقيق النصر وفرّا إلى خراسان ، وانضما إلى خدمة الملك معز الدين حسين كرت ، ولمّا علم الأمير تغلق تيمور بوجودهما بعث إلى معز الدين بتسليمهما له ، غير أن تيمور وصاحبه هربا إلى قندهار ، ومنها إلى سيستان ، فاحتال واليها وهاجمهما ، ثم عاود الاثنان جمع الأتباع والأنصار ، ونجحا في مهاجمة إلياس خواجه ، وتمكنا عام 766 هـ / 1364 م من السيطرة على بلاد ما وراء النهر ، ثم لم يلبث أن وقع الخلاف بين تيمورلنك وصهره فقتل تيمور زوجته (أخت السلطان) وانتصر على السلطان بالحيلة في معركة ضاغلا ودخل سمرقند في 12 رمضان 771 هـ / 1370 م ، وأعلن نفسه حاكماً عليها ، باعتباره من نسل جغتاي بن جنكيز خان ، وأنه يريد إعادة مجد دولة المغول ، وكون مجلس شورى من كبار الأمراء والعلماء .

قام تيمور بتنظيم جيش ضخم ، وبدأ يتطلع إلى بسط نفوذه ، فاتجه إلى خوارزم وغزاها أربع مرات خلال الفترة من عام 773 هـ / 1372 م ، إلى عام 781 هـ / 1379 م ، حتي نجح في المرة الأخيرة في الاستيلاء عليها وضمها إلى بلاده ، وفي أثناء هذه المدة نجح في السيطرة على صحراء القفجاق ، والتي تمتد بين نهر سيحون " سرداريا " وبحيرة خوارزم وبحر الخزر " بحر قزوين " .

بمرور الوقت ، أصبح الأمير تيمور قائدا عظيما على رأس جيش لا بأس به ، لا تنقصه العدة والعتاد كما لا ينقصه الطموح والعزيمة ، فلقد اتبع سياسة عسكرية قريبة للغاية من تكتيكات جنكيزخان ، فلقد تبنى هذه التكتيكات نفسها وعلى رأسها سرعة الحركة والتمويه والقدرة على المناورة بالخيـل ، كما احتفظ بالتكتيك الخاص بألوية

الرماة المتحركة التي كفلت له الغلبة على الساحة القتالية ، كذلك فقد اقتبس منه العنف الشديد في التعامل مع الأعداء¹.

عندما اضطربت أوضاع خراسان عام 782 هـ / 1380 م ، بعث ابنه ميران شاه ، وكان في الرابعة عشرة من عمره ، فنجح في السيطرة على إقليم خراسان كله ، وبحسبان وأفغانستان ثم اتجه في عام 787 هـ / 1385 م إلي مازندران ، فاستسلمت دون قتال ثم انطلقت جيوش تيمورلنك تفتح أذربيجان ، وتستولي على إقليم فارس ، وتُغيّر على أصفهان التي كانت قد ثارت على نوابه ، وبلغ عدد القتلى فيها سبعين ألفاً .

في عام 790 هـ / 1388 م ، هاجم توقتمش ملك بلاد القفجاق بلاد ما وراء النهر وحرص أهالي أذربيجان على الثورة ضد تيمورلنك ، وأعلنوا ولاءهم للقائد توقتمش ونتيجة لتفاقم هذه الأحداث توقف تيمورلنك عن التوسع ، واتجه إلى أذربيجان لقمع الثورة ، وما كاد يصلها حتى فرّ توقتمش ، ودخل تيمورلنك خوارزم ، وأمر تيمورلنك بإعادة تعميرها عام 793 هـ / 1391 م ، وعندما كرّر توقتمش هجومه مرة أخرى على بلاد ما وراء النهر في عام 791 هـ / 1389 م ، تعقبه تيمورلنك حتى أرض المغول وصحراء القفجاق وهزمه هزيمة منكرة .

بدأ تيمورلنك بتوسيع رقعة دولته على حساب دول الجوار ، فكان الصدام الأساسي مع دولة المغول الشمالية المعروفة باسم جولدن هورد كما دخل في سلسلة من المعارك مع القائد المغولي تختميش التي انتهت بمعركة ساراي عام 1395 م ، والتي هزم فيها الأخير شر هزيمة ، وكانت هذه الحروب مهمة للغاية ، لأن هدف تيمورلنك كان جذب خطوط التجارة من الشمال إلى دولته في الجنوب ، وهو ما تم له بالفعل ، فكان هذا عاملاً اقتصادياً مهماً لإثراء دولته وتقويتها بما يوفر له قوة إضافية على الساحة الدولية².

¹ - من التاريخ : تيمورلنك د . محمد عبد الستار البديري - صحيفة الشرق الأوسط - العدد 12685 - الأربعاء 14

شوال 1434 هـ / 21 أغسطس 2013 .

² - من التاريخ : تيمورلنك - مرجع سابق .

• فتوحات في مناطق من آسيا والقوقاز:—

عندما رجع تيمورلنك ظافراً من صحراء القفجاق عام 794 هـ / 1392 م ، وقد تخلص من توقتمش " ، وأتاب ابنه " ميران شاه " في حكم خراسان ، وحفيده بير محمد في حكم غزنه وكابل ، وتوجه إلي إيران في رمضان 794 هـ / أغسطس 1392 م ، لإخماد الثورات التي شَبَّت بها ، وظل هناك خمس سنوات مشغولاً بقمع تلك الثورات ، وقد سميت تلك الحروب باسم " حروب السنين الخمس " ، وبدأ حروبه بإخضاع جرجان و مازاندان ، ثم توجه إلي العراق ، فاستولي علي واسط والبصرة وبغداد والكوفة وغيرهم ، ثم واصل سيره نحو ديار بكر وأرمينيا والكرج " جورجيا " ، ثم أراد مهاجمة الشام عام 798 هـ ، فسمع بأن الملك المملوكي " الظاهر برقوق " قد خرج بجيش كبير من مصر فرجع إلى بلاده .

• فتح الهند:—

كان تيمورلنك قد بلغ الستين عاماً ، لكن هذا لم يوهن من عزيمته في مواصلة الغزو ولم يركن إلى الراحة والخلود إلى ما حققه من قوة ونفوذ ، والتمتع بمباهج الجاه والسلطة ، فلما سمع بموت فيروز شاه ملك الهند من غير ولد وحصول اضطرابات بعده ، استغل فترة الضعف هذه ، وعزم على غزو الهند متذرعاً بأن التغلقين يتساهلون مع الهندوس في أمر الإسلام ، وانقض بجيشه الجرار علي قوات محمود تغلق في 7 ربيع الآخر 801 هـ / 17 ديسمبر 1397 م ، وأنزل به هزيمة ساحقة ، واحتل دلهي عاصمة دولة آل تغلق ، وعاد تيمورلنك إلى سمرقند محملاً بغنائم وفيرة ، ومعه سبعون فيلاً تحمل الأحجار والرخام التي أحضرها من دلهي ليبني بها مسجداً في سمرقند ، وبينما هم في ذلك بلغ تيمور موت الملك الظاهر برقوق سلطان مصر ، وموت القاضي برهان الدين أحمد حاكم سيواس من بلاد الروم ، فرأى تيمور أنه بعد موتهما ظفر بمملكتيهما وعاد إلى بلاده فوراً تاركاً فوضى عظيمة .

• حملة السنوات السبع:—

لم يمكث تيمورلنك طويلاً في سمرقند بعد عودته الظافرة من الهند ، واستعد للخروج ومواصلة الغزو ، وانطلق في حملة كبيرة سُميت بحملة السنوات السبع ، من عام 802

هـ / 1399 م حتي عام 807 هـ / 1405 م لمعاقبة المماليك لمساعدتهم أحمد الجلائري خان بغداد في حربه ضد تيمور لنك، وتأديب السلطان العثماني بايزيد الأول سلطان الدولة العثمانية الذي كان يحكم شرق آسيا الوسطي¹، وقد سميت حملة السنوات السبع؛ لأنه أعطي رواتب سبع سنوات لجنوده قبل الخروج للحملة .

بدأ تيمور لنك غزواته باكتساح قره باغ الأذربيجانية ، ثم توجه إلى تفليس عاصمة الكرج "جورجيا" في جمادى الآخرة عام 802 هـ / 1399 م ، ثم استمر في فتوحاته نحو سيواس فوصلها في 5 محرم 803 هـ ، وواصل سيره نحو عنتاب ففتحها ، واتجه إلي حلب فسقطت بسبب رفض ممالك مصر مساعدة أهل الشام نتيجة صراعمهم على الحكم، واتجه بعد ذلك إلي حماه ثم السلمية ، ولم يكن حظهما بأحسن حال من حلب وواصل تيمور نحو دمشق التي بذل أهلها جهوداً مستميتة في الدفاع عن مدينتهم ، لكن ذلك لم يكن كافياً لمواجهة جيش جرار يقوده قائد محنك ، فاضطروا إلى تسليم دمشق وبعد أن أقام بها ثمانين يوماً رحل عنها مصطحباً أفضل علمائها وأمهر صناعاتها واتجه إلى طرابلس ، ثم إلي بعلبك، وماردين، ولم تسلم منه إلا حمص ، واتجه الأمير تيمور بعد ذلك إلى بغداد ، وكانت تحت حكم الدولة الجلائرية ، فهاجمها هجوماً شديداً ولم تستطع المدينة المقاومة فسقطت تحت وطأة الهجوم الكاسح في أيدي تيمور لنك .

ولم تُشبع هذه الانتصارات طموح تيمور لنك الجامح وشغفه بفتح البلاد والمدن ، فانطلق في عام 804 هـ / 1402 م نحو آسيا الصغرى فاقتحم سيواس، الأناضول ، واصطدم بالجيش العثماني بقيادة بايزيد الأول، وكان بايزيد قد استعد لملاقاة الغازي الجامح الذي تقدم بجيش جرار قوامه 300 ألف جندي ، وبعد أن استولى على سيواس والتقى بالجيش العثماني في معركة كبيرة عُرفت باسم معركة أنقرة في 19 ذي الحجة 804 هـ / 20 يوليو 1402 م، وانهزم بايزيد ووقع في الأسر هو وأحد أبنائه ، ولم يتحمل السلطان العثماني الأسر فمات في 15 شعبان 805 هـ / 10 مارس 1403 م في مدينة بورصة ، حيث كان تيمور لنك عائداً بأسراه إلي عاصمته سمرقند .

¹ - حقيقة تيمور لنك العظيم تظهر بالقرن الواحد والعشرين - محمد أمين شيخو - دار نور البشير - دمشق .

لم يستثمر تيمورلنك فرصة وجوده في الأناضول ، وتوسيع ملكه تجاه القسطنطينية التي كانت آنذاك في قبضة البيزنطيين ، ولكنه بعد انتصاره في معركة أنقرة ، قرر العودة مرة أخرى إلى سمرقند ، وتجهز لحملة عسكرية جديدة من أجل السيطرة على الصين تحقيقاً لهذا الحلم الذي داعب جنكيزخان ، ولكن لم يمهله القدر الفرصة لتحقيقه ، فقد توفي في الطريق في كازاخستان عام 1405 بعد خروج جيشه متوجهاً إلى الصين لينتهي حلم فتح الصين قبل أن تبدأ أحداثه .

لم تكن مصر هدفاً من أهداف تيمور لنك التوسعية، لأنه كان يهتم كثيراً بالاتجاه شمالاً صوب الدولة العثمانية الفتية التي كانت منهكة في الاستعداد لغزو القسطنطينية فأرسلت جيوشها حول المدينة وطوقتها بشكل سريع ، ولكن ظهور التتار عام 1402 م على حدود هضبة الأناضول أعطى للقسطنطينية عمراً إضافياً بلغ 51 عاماً ، حيث حول السلطان بيازيد اهتمامه تجاه الخطر المغولي ، فجمع جيشاً كبيراً واتجه به غرباً لملاقاة تيمورلنك في معركة أنقرة الشهيرة .

• النهضة العمرانية في الدولة التيمورية:—

اهتم الأمير تيمور ببناء عاصمة جديدة لدولته الصاعدة في مدينة سمرقند ، وقام بتشيد مدن جديدة وتطوير المدن القائمة ، وكان يقدر أصحاب الحرف اليدوية أو المعمارية أو العلمية ، فكان يأخذهم معه إلى عاصمته أو إلى المدن التي يريد تطويرها ، وهو ما كفل له مدناً عظيمة تتمتع بمساجد ومدارس غاية في الجمال وروعة العمارة .

عمل الأمير تيمور علي تطوير وتحديث عاصمة دولته ، حيث قام بتعزيز أسوار وأبراج المراقبة ، كما قام ببناء قصر كوك سراي " القصر الأزرق " من ثلاث طوابق وشيد حديقة وقصر دولت آباد ، تكريماً لعودته المضفرة من هندستان ، وبناء المسجد الجامع بيبي خانم ، كما شيد حديقة باغي جاها نامة " مرآة العالم "، وحديقة أخرى ضمن قصر تختا كراتشا، وكذلك بناء مدرسة محمد سلطان ، التي ضمت تسعة وعشرون حجرة وقاعتان للدراسة ، وإلى جانب المدرسة تم تشييد خانقاه " دار ضيافة " لاستقبال وإقامة كبار الضيوف ، كما شيدت زوجته ساراي ملك خانم مدرسة تحمل اسمها .

كما امتد التطوير إلى مختلف المدن الأخرى، فعمل علي تشييد أسوار بارتفاع أحد عشر

متراً حول مدينة كيش ، التي غير اسمها إلي " شهر سبز " ، وزودت هذه الأسوار بأبراج للمراقبة وبوابات ، وشيد ضريح " حضرة إمام " فوق قبر ابنه " جهانكير " وشيد فيها قصر آق سراي تكريماً لأمه تيغينه موح ، كما أعاد بناء مدينة بناقند الواقعة على ضفاف نهر سرداريا ، التي كان قد دمرها جينكيز خان أثناء حملاته على ما وراء النهر ، وأحاطها بالأسوار والأبراج ، وغير اسمها إلي " شاه روهي " تكريماً لابنه الأصغر شاه رخ

اهتم الأمير تيمور بالعلم ، وكان يظهر تقديره وإجلاله للعلماء ورجال الدين¹ ، فقد عمل علي تشييد ضريح " روح آباد " على قبر الشيخ برهان الدين صاغراجي ، الذي كان له دوراً هاماً في الحياة الدينية لما وراء النهر ، وشيد ضريح على قبر بوروندوك أحد قادته العسكريين ، في مقبرة شاه زنده بسمرقند ، كما شيد ضريح ضخم فوق قبر العالم الإسلامي والشاعر الكبير أحمد يسوي ، المتوفي عام 1166 م / 562 هـ ، في مدينة تركستان " كازاخستان " واستدعي لهذا الغرض أفضل المعماريين من فارس ، وأسند للمعماري شمس أبو الوهب الشيرازي الإشراف على بناء هذا الصرح المعماري .

أخذ تيمور من دمشق أهل الصنائع وكل ماهر في فن من الفنون ، من النساجين والخياطين والحجارين والنجارين والأقباعية والبيطرة والخيمية والنقاشين والقواسين والبلادارية ، كما أخذ جملة من العلماء والأعيان والنبلاء والأمراء والفقهاء وحفاظ القرآن والعبيد والنساء والصبيان والبنات².

لقد أسهم الأمير تيمور في النهضة الفنية التي تابعت ازدهارها في عهود أبنائه . فكان قد استقدم معه إلى بلاده ، في الحروب التي خاضها ، أعداداً كبيرة من أرباب الحرف والفنون والهندسة والعمارة ، من دمشق وبغداد وخوارزم ، وحملت جيوشه الحجارة والأعمدة والرخام من بقايا الأبنية التي هُدمت .

وتوضحت منذ ذلك الوقت خصائص المدرسة التيمورية في البناء ، التي تظهر في ضخامة الأبنية وارتفاعها لإظهار عظمة الدولة وتقاليده الأساليب الفارسية واقتباس

¹ - لمحات من الأسرة التيمورية - مرجع سابق .

² - حقيقة تيمور لك العظيم تظهر بالقرن الواحد والعشرين - مرجع سابق .

الزخارف الصينية ، وأخيراً في تقليد مخيمات الأتراك في بناء القصور واستخدام الألوان المتعددة الصارخة التي تستهوي عادة الشعوب البدوية في تزيين الأبنية من الداخل والخارج .

استطاع الأمير تيمور بخبرته السياسية وحمكته العسكرية أن يكون دولة قوية مترامية الأطراف، فقد اصطدم بأربع دول كبرى؛ هي : الدولة العثمانية في الأناضول والمملوكية في مصر والشام ، والمملكة المغولية في الشمال، ودولة الهند في الجنوب واستطاع أن يهزم هذه القوى جميعاً بفضل عبقريته العسكرية ، ولذلك كان من أشهر جملته تندره

على نفسه بقوله : إني أبتسم كلما تذكرت أن الله منح سيادة العالم لرجل أعرج مثلي ؟ ولكن مع ذلك ، فإن دولته لم تصمد كثيراً من بعده ، شأنها شأن الدولة المغولية لأسباب تتعلق في الأساس بالصراعات بين أبنائه وأحفاده .

لقد كان التنافس والصراع بين أبناء الأمير تيمور وأحفاده ، الذين بلغ عددهم سبعة وثلاثون علي السلطة من بعده ، جعل من تلك الدولة القوية مطمئناً لكل القوي التي كانت لا تجرؤ علي النيل من تلك الدولة في عهد الأمير تيمور .

لقد كان من بين هؤلاء الأبناء والأحفاد من هو جدير بالحكم والسلطة ، وكان منهم الضعيف الذي لا يملك من الخبرة علي إدارة ولاية من ولايات تلك الامبراطورية وكان الصراع علي السلطة ينتهي لصالح الأقوي منهم ، والذي كان يستمر في الحكم هو وأبنائه إلي أن تأتي قوة خارجية تطيح به ، وهو ما أدي في النهاية إلي نهاية الأسرة التيمورية التي استمرت 448 عاماً ، وذلك بسقوط الدولة التيمورية في الهند التي أسسها بآبور علي يد البريطانيين عام 1858 م / 1274 هـ .

● وفاته:—

تُوفي الأمير تيمور في السابع عشر من شعبان 807 هـ / الثامن عشر من فبراير 1405 م في مدينة " أوترار " في كازاخستان ، ونقل جثمانه إلي سمرقند حيث دفن هناك في ضريحه المعروف باسم كور أمير ، أي مقبرة الأمير ، إلي جوار حفيده محمد سلطان¹ .

¹ - حقيقة تيمور لك العظيم تظهر بالقرن الواحد والعشرين - مرجع سابق .

وكان قد أوصي بأن يدفن تحت أقدام أستاذه الشيخ سعيد بركه ، تقديرًا منه لأستاذه وفضله عليه ، ثم تحولت مقبرة الأمير إلي مقبرة للأسرة التيمورية ، حيث دفن بها أيضًا أبناء الأمير تيمور ميران شاه ، وشاه رخ ، وحفيده أولوغ بك .

كان الأمير تيمور عائدًا من حروبه وانتصاراته علي العثمانيين في الأناضول ، وأخذ يعدُّ العدة لغزو الصين في خريف عام 807 هـ / 1404 م ، رغم نصائح الأطباء له بعدم بذل الجهد إثر مرض ألمَّ به ، ولكنه خرج علي رأس جيشه الذي عاني كثيرًا من قسوة برودة الجو ، ولم تتحمل صحته البرد القارص ، فأصيب بالحمي التي لم تغادره إلا بعد أن فارقت روحه الحياة ، ورحل الأمير تيمور بعد أن دانت له البلاد من دلهي إلي دمشق ، ومن بحر آرال إلي العراق ، حيث كانت حدوده مع شبه الجزيرة العربية الشمالية .

• ميرزا أولوغ بك:—

هو ميرزا محمد طار غازي بن شاه رخ بن الأمير تيمور طور اغان ، المعروف في التاريخ باسم ميرزا أولوغ بك ، والتي تعني الأمير الكبير .

أحد أفراد الأسرة التيمورية الأكثر ثقافة عن جميع حكام هذه الأسرة ، وعلي الرغم من أن أولوغ بك تولي فترة قصيرة جدا من الحكم من عام 850 هـ إلي عام 853 هـ ، إلا أن خلال هذه الفترة القصيرة نسبيا حقق نهضة حضارية وثقافية عريقة من خلال آثاره العلمية التي أنشأها من مدارس ومرصد وقصور اتسمت بالطراز الإسلامي الفاخر والاهتمام بالعلم والعلماء ، كما كان من أكبر علماء الرياضيات والتنجيم ، وكان ذو مواهب متعددة ، وكان أولوغ بك محبا للعلوم والفنون؛ لذلك كان الوحيد بين التيموريين الذي ظل اسمه لقرون عديدة يُذكر مقرونا بالإجلال ، لما لديه من عمائر كثيرة وفنون في بخاري وسمرقند ، وكان علي علم دقيق بأقسام العلوم الرياضية وكان يقضي الشطر الأعظم من أوقاته في مرصده الذي شيده بسمرقند ، وقد تناولت الكتب أولغ بك بشكل أكثر من الناحية الثقافية لكونه لم يوفق سياسيا بالرغم من أنه عالم بارع اهتم بالعلوم واحياء التراث¹.

• المولد والنشأة:—

ولد مزار أولوغ بك في 22 مارس 1394 م، بمدينة السلطانية على الأراضي الأذربيجانية اليوم ، وهو الابن الأكبر للأمير معين شاه رخ التيموري ، ووالدته هي جوهر شادو الفارسية النبيلة المعروفة ، وفي الخامسة من عمره عاد أبوه فاتحا من الهند .

وقد اهتم جده الأمير تيمور بتربيته ونشأته وكان يصطحبه مع معسكره في فتوحاته وكان يوكل إليه وهو طفل استلام الرسائل من أيدي الرسل وتسليمها إلى جده .

زوجّه جدّه في سن العاشرة مع عدد من أبناء عمومته الذين تتراوح أعمارهم ما بين التاسعة إلى السابعة عشر في احتفال جماعي .

¹ - تاريخ الترك في آسيا الصغرى - ف . بارتولد - ترجمة : أحمد السعيد سليمان - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1996 - القاهرة .

وبعد وفاة الأمير تيمور العظيم ، الذي أسس دولة مترامية الأطراف ، ضمت إلى جانب آسيا الوسطى كل أراضي الشرقين الأدنى والأوسط من البحر الأبيض المتوسط وحتى شمال الهند، انتقلت أملاكه من بعده إلى ورثته ، وهم أبناؤه وأحفاده ، وانتقلت زعامة أسرة التيموريين إلى شاه رخ ابن تيمور لنك الذي اختار هيرات عاصمة لحكمه¹

حصل أولوغ بك على تعليم متميز بمقاييس تلك الأيام ، فأظهر منذ الصغر ميولاً كبيرة نحو العلوم والفنون، وخاصة الرياضيات وعلم الفلك والهندسة ، وأسهمت المكتبة الضخمة التي جمعها جده وأبيه في توسيع آفاقه الفكرية والعلمية ، وكان يمضى فيها الكثير من أوقاته، وقد تمتع بذاكرة رائعة ، وأتقن اللغات العربية والفارسية ، وتمكن جيداً من الشعر التركي " باللغة الأوزبكية القديمة " ، وأجاد النظريات والأساليب الأدبية وشارك في المناظرات الأدبية ، ومارس كتابة الشعر ، ودرس على أيدي أبرز العلماء المشهورين في بلاط الأمير تيمور ، وكان من بينهم : عالم الرياضيات والفلك كاظم زاده رومي ، الذي أطلع أولوغ بك وهو في سن التاسعة على بقايا المرصد الفلكي الشهير في ماراغ جنوب أذربيجان ، ويمكن أن يكون ذلك التصرف هو ما حدد خياره المستقبلي لعلم الفلك .

وجد أولوغ بك نفسه في العلم والأدب ، فأبدع في مجالات الرياضيات والفلك ، كما كانت له اهتماماته الشعرية والتاريخية .

وشارك ببعض الكتابات الأدبية مع بايسنقر وإبراهيم ، كما كان حافظاً للقرآن الكريم عن ظهر قلب .

وقد كان الصيد من اهتماماته ، فقد كان يحتفظ بقائمة بجميع الحيوانات التي اصطادها ويروى أنه فقد كتابه الذي دون فيه ما صاد ، فأعاد كتابة جميع ما كان فيه من ذاكرته ولما عثر عليه وجده مطابقاً لما كتبه سوى عدة كلمات مفقودة ، ويظهر هذا مدى قوة ذاكرته².

¹ - الثقافة العربية الإسلامية في العصرين المغولي والتيموري - شيرين عبد النعيم حسنين - ثقافتنا للدراسات والبحوث - المجلد الخامس - العدد الثامن عشر - 2008 - www.pdfactory.com .

² - سمرقند - فيتالي نومكين - ترجمة صلاح صلاح - منشورات المجمع الثقافي - الطبعة الاولى 1996 - القاهرة .

• حياته السياسية:-

علي الرغم من كل هذا التفوق العلمي ، لم يكن أولوغ بك موفقا في السياسة كبقية العلوم فبعد أن تسلم الحكم عان 850هـ / 1446م ، خلفا لأبيه ، تعرض لسلسلة محن حربية وسياسية ، ولم يستطع أولوغ بك أن يعيد النظر في الخطط التي وضعها الأمير تيمور في أواخر حياته ، ولم تتحقق له ، حتي أن نتيجة مشروعاته العسكرية وهو هجومه علي منغوليا عام 1425 كانت سلبية ، وفي نهاية حكمه كانت المناطق الخاضعة لحكمه أقل منها في بداية عهده¹، إذ اغتصبت منه المغول الولايات الواقعة شرقي سايرام ، واغتصب الأوزبك المناطق المجاورة لسيحون والواقعة في الجزء الأسفل من تركستان ، وفي ذلك الوقت عظمت قوة الأوزبك تحت حكم الخان أبي الخير ، وعلي أيدي أولاده وأحفاده كانت نهاية سلطنة التيموريين ، وقد استولي أبو الخير لمدة محدودة في شتاء عام 1430 م علي مدينة أوركانش ، وعلي القسم الشمالي من خوارزم وفي عام 1448 انقض أبو الخير علي ماوراء النهر بينما كان أولوغ بك يحاول عقب وفاة شاه رخ أن يدخل خراسان تحت حكمه وفي عام 1451 م أغار أبو الخير علي المناطق المجاورة لسمرقند ، ثم بدأ يتدخل في الحروب الداخلية التي وقعت بين التيموريين فيما وراء النهر ، فبمعاونته انتصر أبوسعيد (أحد خلفاء ميران شاه) علي عبدالله (أحد خلفاء شاه رخ وابن أخ أولوغ بك) ، وكان انتصار أبي سعيد كبيرا في آسيا الوسطي².

وكان أولوغ بك يجلب جده تيمور ويحافظ في نفس الوقت علي التقاليد العسكرية التركية المغولية ، وكان وطنياً تركيا تشهد علي هذا النقود التي سكها باسمه في سمرقند وهراة خلال العامين اللذين قضاها علي رأس ملك التيموريين " 1447 - 1446 م " قبل سنة 1447 كانت العملة تسك في سمرقند باسم شاه رخ ، مع أن سمرقند كانت فعلا تحت

¹ - تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ترجمة : نبيه أمين فارس - مكتبة الدكتور القطب محمد القطب طبلية - دار العلم للملايين - الطبعة الخامسة 1968 - دار العلم للملايين - بيروت .

² - تاريخ الحضارة الإسلامية - ف . بارتولد - ترجمة : حمزة طاهر - دار المعارف - الطبعة الرابعة 1966 - القاهرة .

حكم أولوغ بك ، ويوشك أولوغ بك أن يكون الوحيد بين التيموريين الذي نقش عملته باللغة التركية .

تسلم أولوغ بك إدارة ما وراء النهر عام 1406 م ، وبعد انتصاره على ميرزا عمر شيخ في 18 أبريل عام 1407م ضم إلى ملكه مازاندران ، ومن ثم ولاية خراسان ، وفي عام 1409م أعلن أولوغ بك أميراً علي سمرقند وهو في سن السادسة عشرة من عمره¹.

كان يظهر احتراماً كبيراً لوالده شاه رخ ، حيث أمر بضرب العملة في سمرقند باسم والده كنوع من تقدير جهوده في تربيته وبناء الدولة ، ولم يضع اسمه على العملة حتى بعد وفاة والده بسنة ، عام 1448م ، ولم يكن مهتماً بالسياسة فاستفاد من حكمة أبيه السياسية والإدارية لينكب علي الاهتمام بالعلم ، ولكن بعد وفاة أبيه شاه رخ في عام 1447م ، تولى أولوغ بك زعامة أسرة التيموريين ، لكن لم يستتب له الأمر ، ولم يكن احترام " أولوغ بك " لوالده حاجزاً أمام اتخاذ قرارات من غير موافقة والده ومن ذلك قراره غزو مغولستان ، ونجح في تلك الحملة عام 1414، لكن انتصاراته لم تدم حيث واجه الهزيمة بعد ذلك على يد جيش قبائل الأوزبك عام 1427 ، حيث توقفت فتوحاته عند ذلك حتى وفاة والده².

• اهتمامه بالعلم والثقافة:-

كان أولوغ بك يشغل بالعلم ويعلم الهيئة الخاصة ، وتشتهر كتب أولوغ بك وكتب خلفائه الأقربين في علم الهيئة بأنها آخر ماوصل إليه المسلمون في موضوعها ، فلم يقتنع بأن يكون هو نفسه عالماً في الهيئة ، بل اتخذ لنفسه من بين أصحابه تلميذاً وخلفاً هو علي قوشجي، وقد تعلق علي قوشجي بعلم الهيئة ، واشترك في إنشاء مرصد أولوغ بك وفي ترتيب جداول الزيج ، ونظم في عام 823هـ بمساعدة بعض علماء الرياضيات والهيئة مثل " صلاح الدين موسي " ، قاضي زاده الرومي ، وعلي القوشجي ، و

¹ - تاريخ الشعوب الإسلامية - مرجع سابق .

² - ايران ماضيها وحاضرها - دونالدونبر - ترجمة : عبد النعيم حسنين - دار الكتاب المصري - الطبعة الثانية 1985 - القاهرة .

غياث الدين جمشيد الكاشاني الزيج المعروف بالألعيكي الذي بني علي أصوله استخراج التقاويم حتي عهد قريب ، فضلا عن تشجيعه أهل الفضل والأدب والفن¹. وقد أنشأ أولوغ بك مدرستين في مدينتي بخاري وسمرقند وكتب علي أبوابهما " طلب العلم فريضة علي كل مسلم ومسلمة " ، وللبناء طابقان ، مع أربع قبة عظيمة ومنارة في كل ركن ، وكل غرفة مقسمة إلى قسمين لتحتوي طالبين ، وتبدو عظمة البناء في بقاء هذه المدرسة في حين اختفى كثير من مدارس ذلك الزمان . ولم يكن اهتمام أولوغ بك بالمدرسين أقل شأنًا من اهتمامه ببراعة البناء ، فاستقدم إليها أفضل علماء ذلك الزمان ، وأجرى معهم مقابلات شخصية بنفسه ليعين ستين من أبرع العلماء .

ومن ضمن من درس في تلك المدرسة الكاشي ، وقاضي زاده الرومي ، الذي كان معلم أولوغ بك وتولى إدارة مرصده الفلكي².

وقد بدأ العمل في هذه المدرسة عام 820 هـ / 1417 م ، وانتهى عام 823 هـ / 1420 م بأمر وإشراف أولوغ بك ، وكانت المدرسة مركزاً رئيسياً للعلوم ، فازدهرت فيها العلوم الدقيقة كالرياضيات ، وطغت علي مناهجها ولعل هذا ما يفسر صورة السماء المرصعة بالنجوم الرمزية الموجوده علي بابها .

ومن مميزات تلك المدرسة منهجها الذي يدرس فيها ، ففي وقت كانت أغلب المدارس يغلب عليها تدريس العلوم الدينية ، اهتمت مدرسة أولوغ بك بتدريس الطلاب منهجاً ذا توجه علمي تطبيقي ، وقط كان أول مدرس ألقى درساً في تلك المدرسة يوم الافتتاح هو مولانا " محمد خوفي " ³.

كان أولوغ بك شغوفاً بالكتب فأنشأ مكتبته الخاصة ، والتي قال عنها لتلميذه علي قوشجي " أحبها أكثر من أي شيء في هذا العالم " ، حيث احتوت مكتبته علي كتب نفيسة

¹ - تاريخ إيران بعد الاسلام " من بداية الدولة الطاهرية حتي نهاية الدولة القاجارية 205 - 820 هـ / 1343 - 1925 م - عباس أقبال - ترجمه محمد علاء الدين منصور دار الثقافة 1990 - القاهرة .

² - الثقافة العربية الإسلامية في العصرين المغولي والتيموري - شيرين عبد النعيم حسنين - ثقافتنا للدراسات والبحوث - المجلد الخامس - العدد الثامن عشر - 2008 - www.pdfactory.com .

³ - تاريخ الحضارة الإسلامية - مرجع سابق .

منها ستة كتب للخوارزمي جلبها " أولوغ بك " من بيت الحكمة في بغداد واثنًا عشر كتاباً لابن سينا ، وستة عشر كتاباً للفارابي ، وبعض كتب البيروني ، وبالذات كتاب القانون المسعودي ، والذي كان كتابه المفضل .

كما كانت تحوي كتباً لأبي الوفا ، و الفرغاني ، ونصير الدين الطوسي ، وقاضي زاده . واستقدم أولوغ بك مترجماً من الصين ليترجم له ثلاث كتب من الصينية عن الفلك وكذلك كان له مترجم من الهند ليترجم له الكتاب الهندي الفلكي المشهور سيندهانات ولكن المترجم توفي قبل أن يتم ترجمته .

وقد كان أولوغ بك يكافؤهم بالذهب ، مما يظهر عظيم اهتمامه بإسهامات علماء الفلك من شتى أصقاع الأرض¹.

• جهوده العلمية :-

بعد أن عينه والده والياً علي سمرقند حولها أولوغ بك إلى عاصمة للعلم والثقافة وأصبحت أحد المراكز العالمية للعلوم في القرون الوسطي ، فقد شيد أولوغ بك مدرسة علمية كاملة " جامعة بمقاييس هذا العصر " في النصف الأول من القرن الخامس عشر ميلادي ، كانت أول مجموعة معمارية في ريجستان ، جمعت أبرز علماء الفلك والرياضيات ، من بينهم : قاضي زاده رومي ، وعلي القوشي ، ليدرّسوا فيها ، وكان من بين تلامذته المعروفين الرياضي غيّاث الدين الكاشي ، وقد بني فيها محطة " مرصدًا " لمراقبة النجوم ، ووضع الجداول السلطانية التي تسمى بالفارسية " الزيج " والتي كانت دقيقة للغاية².

وبعد وفاة أولوغ بك سافر علي القوشي إلى تبريز ثم اسطنبول ، ومنها وصلت الجداول إلى أوروبا ، وفي تلك الأيام عاش في سمرقند المؤرخ " حافظي أبرو " ، الذي ألف فيها مؤلفه الشهير عن تاريخ آسيا الوسطى ، والطبيب الشهير " مولانا نيفيس " ، ومن الشعراء سراج الدين سمرقندي ، وساكاكي ، ولطفي ، وباداخشي ، وغيرهم ، وكانوا كلهم من أبرز شخصيات ذلك الزمان وآمنوا بقوة العقل الإنساني ، وقوة العلوم .

¹ - تطور الفكر العلمي عند المسلمين - محمد الصادق عفيفي - مكتبة الخاتجي 1977 - القاهرة .

² - الثقافة العربية الإسلامية في العصور المغولي والتيموري - مرجع سابق .

تمكن أولوغ بك وزملائه من العلماء من تصحيح وتدقيق موقع 992 نجم ، وأضافوا إليها 27 نجماً زيادة علي مذكره عبد الرحمن الصوفي في كتابه " النجوم الثابتة " وفي عام 1437 تمكن " ألوغ بك " من تدقيق طول المدة التي تلزم الشمس للرجوع إلى موقعها سنوياً أي مدة " الحركة الظاهرية للشمس " كما يلي :

$$365.2570370d = 365d \ 6h \ 10m \ 8s + s58$$

وقد تم التصحيح بإضافة 28 ثانية إلا من طرف " نيكولاس كوبرنيكوس " عام 1525 أي بعد 88 عاماً وهي النسبة التي وافقها أيضاً حساب ثابت بن قره . ونتيجة للدراسات المكثفة في المرصد تم تحديث المعلومات في الجداول الإلخانية والتي تم استنتاجها من مرصد مراغة ، وكانت تحوي قيماً لجيب وظل الزاوية " جا ، ظا " كما تم تحديث جداول " زيج سلطاني " والتي احتوت على قياسات فلكية وتحديد مواقع حوالي 1018 ، نجماً كما درس " أولوغ بك " حركة خمسة كواكب وخرج بنتائج مذهلة لا تبعد دقتها كثيراً عن دقة حسابات اليوم وذلك علي النحو التالي :

الكوكب	القيمة الحالية	قيمة حساب أولوغ بك	الفرق
زحل	12 يوم 13 دقيقة 36 ثانية	12 يوم 13 دقيقة 39 ثانية	3 ثوان
المشتري	30 يوم 20 دقيقة 31 ثانية	30 يوم 20 دقيقة 34 ثانية	5 ثوان
المريخ	191 يوم 17 دقيقة 10 ثوان	191 يوم 17 دقيقة 15 ثانية	5 ثوان
فينوس	224 يوم 17 دقيقة 30 ثانية	224 يوم 17 دقيقة 32 ثانية	ثانيتان
عطارد	53 يوم 43 دقيقة 3 ثوان	53 يوم 43 دقيقة 13 ثانية	عشر ثوان

أما عن إنجازاته في الرياضيات فهي موضحة في رسالة منه للكاشي ، وتظهر مقدرته على إجراء حسابات معقدة في ذهنه . وحساباته لجيب وظل الزاوية صحيحة إلى ما بعد ثمانية أرقام عشرية .

ويظهر ذلك علي النحو التالي :-

نتيجته في حساب جيب الزاوية ذات الدرجة الواحدة

$$\text{جا } 1^\circ = 0.017452406437283571$$

أما النتيجة الحديثة فهي

$$\text{جا } 1^\circ = 0.017452406437283512820$$

وفي هذه الحالة فإن نتيجته صحيحة إلى ما بعد ستة عشر رقماً عشرياً .

أما في حساب المثلثات فقد استخلص قيم جيب الزاوية وظل الزاوية لأول 45 درجة لكل دقيقة ، و ما بعد 45 درجة إلى 90 درجة لكل خمس دقائق ، حيث تتضح نتائجه في حساب ظل تمام الزاوية " ظلنا " لعدة زوايا مقارنة بالنتائج الحالية علي النحو التالي :-

الزاوية بالدرجة	القيمة الحالية	نتيجة حساب أولوغ بك	الفرق
20	0.342020143	0.342020142	0.000000001
23	0.390731129	0.390731128	0.000000001
26	0.438371147	0.438371147	لا يوجد فرق

أما إسهاماته في الهندسة والعمارة ، فقد شيد أولوغ بك بيت ضيافة المتصوفة " الخانقاه " ، والتي تميزت بأعلى قبة في العالم آنذاك ، و " مسجد أولوغ بك " المسمى بالمسجد " المقطع " ؛ وسمي بذلك الاسم ، لأنه مزخرف من الداخل بالخشب المقطع اللون على النمط الصيني ، كما شيد مسجد " شاه زنده " ، والقصر ذا الأربعين عموداً المعقودة بأبراج أربعة شاهقة ، والمزين بصف من عمد المرمر ، وابتنى قاعة العرش أو " الكرسي خانه " ، وشيد أيضاً " جيني خانه " ، ونقش حوائطه بالصور أحد الفنانين الصينيين البارعين الذين أعجب بهم .

• المرصد الفلكي في سمرقند :-

تركز شغف " أولوغ بيك " بعلم الفلك ، الذي شغل حياته وحياة معاصريه من علماء الفلك ، وكان من ثمرته بناء المرصد الفلكي في سمرقند ، حيث يعتبر العلماء والباحثون المرصد الفلكي بناءً فريداً في ذلك العصر ، ومن أجل تأمين المبنى من الهزات الأرضية اختير لبنائه موضع حجري على سفح تل كوخاك ، ووجهت الأداة الرئيسية

مقياس السدس نحو خط الأفق من الجنوب نحو الشمال ، وبالإضافة للأداة الرئيسية أضيفت للمرصد غيرها من الأدوات الفلكية¹.

بدأ العمل في المرصد الفلكي عام 1424م ، وانتهى من تشييده عام 1429م ، فكان مركزاً ملحقاً للبحث العلمي لمدرسته ، وقد كان أول مدير لهذا المرصد هو علي قوشجي والذي استمر في إدارته حتى وفاته ومن ثم تولاه بعد ذلك قاضي زاده الرومي .

كان إنشاء المرصد في اطار منظومة مؤسسات عامة ، منها خانقاه ومدرسة وقصر وقاعة العرش ومسجد كبير جدرانه وسقفه من الخشب المقطع ، وكلها كانت نماذج رائعة من فن العمارة الإسلامية في آسيا الوسطي ، وكان المرصد عبارة عن خطة وضعها نخبة من العلماء ، منهم " غياث الدين جمشيد " ، و " معين الدين القاشاني " وقام بقيادة العمل فيه عالم الفلك علي قوشجي ، وبإشرافه وضعت الجداول الفلكية " الزيج " عام 481هـ / 1437م² .

أمضي أولوغ بك معظم وقته في المرصد الفلكي ، وقد ساعد حجم مقياس السدس وتصميمه الناجح على تحديده معارف أولوغ بيك العلمية ومعارف زملائه حيث تمكنوا من الرصد الفلكي بدقة ، وبقيادة ومشاركة عالم الفلك الكبير أولوغ بيك وضعت أهم المؤلفات في المرصد " زيجي جوراغان " ، " قوائم أولوغ بيك للنجوم " ، وتضمن الكاتالوك مواقع 1018 نجماً ، حددت بدقة متناهية في المرصد الفلكي بسمرقند ، ولأول مرة بعد هيبارخوس.

واعتبر وضع الكاتالوك الفلكي إسهاماً كبيراً ضمن كنوز علوم الفلك العالمية وبالإضافة لذلك جرت في المرصد الفلكي أعمال لتحديد ميل مسير الشمس من خط الاستواء وطول السنة النجمية ؛ عن طريق حساب قيم جيب الدرجة الواحدة ، وهي ثابتة في العلوم الفلكية الهامة ، وتصل إلى المنازل العشرية الثامنة عشرة .

¹ - عجائب المقدور في نواب تيمور - شهاب الدين أحمد المعروف بابن عرب شاه - ترجمة : كبير الدين أحمد - مطابع

اوردوكايند 1882 كلكتة .

² - تاريخ الحضارة الإسلامية - مرجع سابق .

ودقق ألوغ بيك معلوماته أكثر من مرة وخرج بنتيجة مفادها أن أرقامه دقيقة ، وفي عام 1437م حدد طول السنة النجمية : 365 يوماً و6 ساعات و10 دقائق و8 ثواني ، وفسر لاحقاً أن الخطأ في القياس كان بـ 58 ثانية فقط ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن طول السنة النجمية تبلغ 31 مليون و558 ألف و150 ثانية ، فتصبح واضحة الدقة العالية التي توصلت إليها قياسات " ألوغ بيك " .

تم تدمير المرصد من قبل بعض المتشددین في عام 1449م ونسبت منذ ذلك الوقت حتى أعاد اكتشافها المؤرخ الروسي " فلاديمير فياتكين " عن طريق رسالة متبرع للمدرسة وفيها وصف موضعها .

وأثناء التتقيب عن المرصد وجد فياتكين أحد أهم الأدوات المستخدمة فيه وهو عبارة عن قوس كبير لتحديد منتصف النهار ، وهو عبارة عن أخدود عرضه متران ، محفور على ثلثة ويقع على أحد خطوط الطول .

أما اليوم فما تبقى من المرصد هو بوابة تقودك إلى ذلك الأخدود الذي استخدم كقاعدة لألة السدس ، والذي كان ارتفاعه حوالي 11 متراً أو ما يعادل ارتفاع مبنى بثلاث طوابق ، وتم وضعه تحت الأرض لحمايته من الزلازل .

أما أداة الرباعي لقياس الطول فقد كان الأكبر من نوعه في العالم في ذلك الوقت ، حيث كان نصف قطر دائرته حوالي 40.4 متراً .

أما نصف قطر قوس خط الطول فقد كان طبقاً لرواية أحد الفلكيين الأتراك حوالي 50 متراً ، وله ارتفاع يقارب ارتفاع قبة آيا صوفيا في اسطنبول .

واستخدم لرصد حركة الشمس والقمر وبقية الأجرام السماوية ، كما استخدم أدوات متطورة كالاسطرلاب والكرة المحلقة لتحديد وقت الزوال بارتفاع الشمس وموقعها من خط الطول¹.

● مؤلفاته:—

ترك أولوغ بك تراثاً علمياً كبيراً ، ويعتبر كتاب " زيجي جيدي جوراغانی " أو " جوراغانی القوائم الفلكية الجديدة " من أهم مؤلفات أولوغ بك العلمية ، وهي التي

¹ - تاريخ الحضارة الإسلامية - مرجع سابق .

انتهى من كتابتها في عام 1444م بعد ثلاثين عاماً من العمل الدؤوب في الرصد الفلكي ويظهر كتاب " أولوغ بك " أنه كان يؤثر العلوم ذات الأهمية العالمية علي الدراسات القومية ، وذلك لأن العلوم الأولى لا تتأثر باختلاف اللغة والدين ، وسرعان ما ترجم مرجع علم الفلك إلى اللغة اللاتينية إلى جانب المجسطي للعالم الإغريقي كلاوديوس بطليموس ، وكذلك " القوائم الفلكية " لملك قشتالة ألفونسو الخامس عشر التي كانت من المراجع العلمية لعلماء الفلك في كل المراصد الفلكية في أوروبا¹.

وقد تفوقت هذه القوائم على كل المنجزات المحققة في الشرق وفي أوروبا ، وفي القرن السابع عشر الميلادي فقط تمكن تايكو براهي من رصد كان أقرب بدقته من مقارنة الرصد الذي جرى في سمرقند ، وبعد ذلك تمكن من تجاوزه ، ولا غرابة أن " زيحي أولوغ بك " جذبت اهتمام علماء الفلك في الشرق وفي أوروبا علي حد سواء .

تتألف " زيحي أولوغ بك " من أربع أجزاء كبيرة ، حمل الجزء الأول منها اسم مشاهدات ، وتضمن طرق حساب السنوات ، المستخدمة عند مختلف الشعوب الشرقية وتضمن الجزء الثاني مسائل في علم الفلك التطبيقية ، و تضمن الجزء الثالث معلومات عن حركة المجرات المرئية من خلال نظام مركز الأرض في العالم ، وخصص الجزء الرابع لعلم النجوم وفق تصورات علماء القرون الوسطى .

وتضمن الكاتالوك 1018 نجمة رصدها أولوغ بك شكلت بوصلة لعلماء الفلك والتاريخ الذين يدرسون المدونات القديمة ، وتؤكد جداول أولوغ بك للنجوم صحة أطلس بطليموس للنجوم الذي ترجم في المجسطي .

وفي عام 1648م نشر في جامعة أكسفورد المؤلف الرئيسي ، الذي أنجزه أولوغ بك في مرصد سمرقند ، وأعدده للنشر جون جريوس (1602 - 1652 م) ، ولاحقاً صدرت مقتطفات من الكاتالوك في بريطانيا عدة مرات ، وبعد 17 عاماً من إصدار إكسفورد الأول ، قام العالم البريطاني " توماس هايد " (1636 - 1703 م) ، بإعداد وطباعة إصدار جديد لكاتالوك سمرقند باللغتين الفارسية واللاتينية ، وبعد مرور 25 عاماً على ما أصدره هايد في إكسفورد ، أجري عالم الفلك البولوني جيفيليا (1611 - 1687 م)

¹ - تاريخ الحضارة الإسلامية - مرجع سابق .

مقارنة بين قوائم أولوغ بك مع غيرها من المعلومات التي توفرت في كتالوكات ذلك الوقت : بطليموس ، وتايكو براهي ، وريتشيولي ، والأمير جاس ، وجاليلو ، وقد ضمت خزائن الكتب في أوروبا وآسيا عشرات النسخ المخطوطة لكتاب " زيجي " ، ومن ثم غدت قوائم أولوغ بك للنجوم الكلمة الأخيرة في علم الفلك في القرون الوسطى قبل اختراع التلسكوب ¹.

يشهد تراث أولوغ بك العلمي الغني على أنه كان ليس ابناً عظيماً للشعوب الإسلامية فقط بل وموهبة إبداعية قدمت إسهاماً قيماً لتطوير العلوم والحضارة الإنسانية ، ولهذا وبعد مرور عدة قرون وحتى الآن بقي اسم أولوغ بك رمزاً يوحد شعوب الشرق والغرب من أجل الأهداف النبيلة ، ويدرس تراث أولوغ بك العلمي والمعنوي في الوقت الراهن في أبرز المؤسسات التعليمية والمراكز العلمية في العالم .

وتخليداً لجهود أولوغ بك العلمية أطلق اسمه على الجامعة القومية في أوزبكستان ، وهو ما يشهد على المقدرات العلمية والتربوية العالية له ، وقد احتفل المجتمع الدولي في عام 1994 م بذكرى مرور 600 عام على ميلاد هذا العالم الكبير ، حيث جرت عدة أنشطة بمشاركة علماء ومتخصصين وشخصيات اجتماعية أجنبية ، كما نُظِّمَ في باريس عام 2009 مؤتمرًا علميًا دوليًا صادف الذكرى 615 لميلاد ميرزا أولوغ بك ، وشارك في أعمال المؤتمر أكثر من 130 عالم ومندوب من مختلف المنظمات الدولية ، وقد أثبت هذا المؤتمر مرة أخرى عظمة الاهتمام بتراث ميرزا أولوغ بك المعنوي والعلمي في العالم كله ، خاصة أنه في " كاتالوك نجوم السماء " الذي صدر في أوروبا في القرن السابع عشر الميلادي صورة رسمها " يان جيفيليه " جمعت رمزيًا بين علماء الفلك العظام في العالم الذين عاشوا في مختلف بلدان العالم وبمختلف العصور ، وبينهم صورة لابن الشعب الأوزبكي العالم العظيم " أولوغ بك " ، وقد أطلق العالم الألماني يوهان هينريك فون مادلر اسم " فوهة صدمية " علي سطح القمر باسم أولوغ بك عام 1830 للتذكير بإسهاماته العظيمة في علم الفلك وهندسة الفضاء .

¹ - تطور الفكر العلمي عند المسلمين - محمد الصادق عفيفي - مكتبة الخاتجي 1977 - القاهرة .

● وفاته :-

تقاتل ميرزا عبداللطيف مع أبيه ميرزا أولوغ بك عام 853 هـ في بلخ وكانت له الغلبة في الحرب التي جرت بينهما ، وسقط " أولوغ بك " أسيرا في يد ابنه ، وأمر عبداللطيف بقتله بيد أحد حراسه في العاشر من رمضان 853 هـ بعد حكم عامين ، وثمانية أشهر ، وكان عام قتل " أولوغ بك " هو عام التفتت التام لإمبراطورية الأمير تيمور ولم يكن لأحدهم قدرة علي إدارة دولة بهذا الاتساع¹.

¹ -تاريخ الحضارة الاسلامية - مرجع سابق .

• أبو سعيد بن محمد بن ميران شاه:—

هو أبو سعيد بن محمد بن ميران شاه بن الأمير تيمور¹ ، قائد عسكري في جيش ميرزا أولوغ بك، وحاكم بلاد ما وراء النهر وهرات وخراسان .

• مولده ونشأته :—

نشأ أبو سعيد بن محمد بن ميران شاه في بيت أميري ، ولقي رعاية طيبة في كنف ابن عمه ميرزا أولوغ بك ، الذي أشرف على تعليمه أفضل تعليم ، خاصة أن أولوغ بك كان شغوفا بالعلم ، ومحبا للعلماء ، ثم زوجه إحدى بناته² ، وهذا ما انعكس علي شخصية أبي سعيد ، فقد كان ملكا عاقلا عادلا صاحب رأي محبا للعلماء والفقراء مكرما لطلبة العلم ، واكتسب آداب السلطنة بخدمته لعمه ميرزا أولوغ بك .

كان أول عمل كُلف به أبو سعيد أن يكون ضابطا في الجيش ، واستطاع عن طريق ذلك أن يصل إلى عرش سمرقند ، وشغل أبو سعيد بعد وصوله إلى العرش بالتصدي لأحد خانات جغتاي الشرقية الذي كان يعمل على مد نفوذه إلى ما وراء النهر ، وهزمه عند مدينة طراز " المعروفة حاليا باسم أوليا آتا الحالية في جمهورية كازاخستان " وأخذ يتدخل بعد ذلك في المنازعات الداخلية بين أفراد البيت الجغتائي الحاكم هناك³ .

انتظر أبو سعيد حتى وفاة ابن عمه الآخر الأمير ظهير الدين بابر ، في عام 862 هـ / 1458 م ليلحق أملاكه بسلطته ، فدخل هرات وتوسع جنوبا عبر سجستان حتى ضفاف السند . ولم تصب سياسة أبي سعيد في إيران الغربية النجاح نفسه الذي أصابته مع المغول في شمال ما وراء النهر⁴ .

استقل أبو سعيد ببلاد ما وراء النهر وتركستان ، وقد حاول شاه جهان الاستيلاء علي هرات حيث وصلها في منتصف شعبان عام 862 هـ ، وبقي بها ما يقارب ستة أشهر فجمع أبو سعيد جيشه وخرج من بلخ لقتاله حتى وصل إلى مرغاب فتوسط البعض في

¹ - معجم البلدان - ياقوت بن عبد الله الحموي - دار الفكر - بيروت .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

³ - لمحات من الأسرة التيمورية - مرجع سابق .

⁴ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى - مرجع سابق .

الصلح بينهما وسلم شاه جهان خراسان إلى أبي سعيد ، ورجع إلى العراق و في أواسط جمادى الثانية عام 863 هـ .

اتفق ميرزا سنجر بن أحمد بن بابقرا بن عمر بن عمر شيخ مع ميرزا علاء الدولة وابنه إبراهيم ، بإعلان الحرب علي أبي سعيد ، ونشبت حرباً طاحنةً بينهما على حدود سرخس فقتل ميرزا سنجر ، وانهزم علاء الدولة وإبراهيم ، وفي عام 864 هـ توجه أبو سعيد إلى أستر آباد ، وكان السلطان حسين بابقرا مستقلاً بها ، فلم يستطع الصمود أمام قوات أبي سعيد وتراجع إلي العراق ، ودخلت خراسان وبدخشان وغزنة وكابل وسيستان ضمن دولة أبي سعيد .

اضطر أبو سعيد إلى السكوت عن أعمال القره قوينلو لتثبيت سلطتهم في أذربيجان والعراق وفارس وكرمان .

ولما تجرأ هؤلاء على اقتحام خراسان عام 862 هـ / 1458 م ، ودخل هرات ، وهو حديث العهد في حكم هذه المنطقة ، ردّهم عنها بعد ستة أشهر ، ولكنه وقف إلى جانبهم في صراعهم ضد أقربائهم والمنافسين لهم ، الشاة البيضاء " آق قوينلو " ، وتقدم لنجدتهم إلى أذربيجان ، ولكن زعيم " آق قوينلو " الشاه أوزون حسن قطع عليه طريق الرجعة من قره باغ وأسرّه ، ثم قتله عام 873 هـ / 1469 م ، وقضى بقتل أبي سعيد على آخر محاولات المحافظة على وحدة الامبراطورية التيمورية التي تحولت إلى إمارات صغيرة ، تحيط بها دول كبرى طامعة¹.

توزعت امبراطورية أبي سعيد علي أربعة من أبنائه العشرة ، أحمد في سمرقند وبخارى ، وعمر شيخ في فرغانة ، ومحمود في أستر آباد وهرات .

وحكم كل من هؤلاء بين عام 873 هـ / 1469 م ، وبين عام 899 هـ / 1494 م ، ثم أولوغ بك الثاني بين عام 873 هـ / 1469 م ، وعام 911 هـ / 1505م في كابل وغزنة .

ومكنت المنازعات الإقليمية بين الأخوين أحمد ، وعمر شيخ ، وأملاكهما شمال جيحون خانات مغول جغتاي الشرقية من التدخل بينهما ، وإلحاق أراضٍ من أملاك عمر شيخ بسلطتهم ، منها طشقند التي نقلوا إليها عاصمتهم ، وقد حال الخان المغولي محمود بن

¹ - تاريخ الترك في آسيا الصغرى - مرجع سابق .

يونس دون استيلاء أحمد على أملاك عمر شيخ في فرغانة بعد وفاته؛ لأنَّ أخت الخان كانت متزوجة من عمر شيخ ، ورزق منها بالأمير ظهير الدين محمد بابور ، مؤسس دولة المغول التيموريين العظام في الهند فيما بعد ، وظل الأخ الثالث أولوغ بك الثاني يحكم أملاكه حتى وفاته .

وكان محمود ، رابع الأخوة ، قد تشبث بحكم سمرقند بعد أن طرده من أملاكه في خراسان الأمير حسن بايقرا .

وكان حكمه لسمرقند قصيراً ، حيث بدأ عام 899 هـ ، وانتهى بوفاته في العام نفسه وخلفه في الحكم ابنه علي ، وقد طرده منها ابن عمه الأمير ظهير الدين محمد بابر ابن عمر شيخ عام 903 هـ / 1497 م ، لتسقط بعد سبع سنوات بيد الأوزبك¹.

قام أبو سعيد بن محمد بن ميران شاه بسك عملة خاصة به ، ولكنه لم ينقش عليها دعاية له ، أو اسمه ، إنما نقش عليها شعار تيمور ، وهو عبارة عن ثلاث حلقات صغيرة وذلك في خطوط للحفاظ على تقاليد التيموريين².

وتأتي أهمية أبي سعيد بن محمد بن ميران شاه في تاريخ الأسرة التيمورية باعتباره آخر الحكام الذين حافظوا علي وحدة الدولة التيمورية التي أسسها جده الأمير تيمور³ قبل أن تتفكك إلي دويلات ، ومن ثم صارت مطمعاً لحكام الدول المجاورة ، الذين انقضوا عليها واحدة تلو الأخرى ، فسقطت تلك الدويلات وانتهى حكم الأسرة التيمورية في بلاد ما وراء النهر وفارس وأفغانستان ، حتي استطاع حفيد أبي سعيد بن محمد بن ميران شاه ، الأمير ظهير الدين بابور بن محمد بن أبي سعيد بن ميران شاه ، إحياء عهد الأسرة التيمورية مرة أخرى في الهند عام 1525 م ، والتي بسقوطها انتهى حكم آخر سلالات السرة التيمورية .

● **وفاته :** توفي أبو سعيد بن محمد بن ميران شاه عام 873 هـ / 1469 م⁴.

¹ - سمرقند - مرجع سابق .

² - الثقافة العربية الإسلامية في العصرين المغولي والتيموري - مرجع سابق .

³ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى - مرجع سابق .

⁴ - لمحات من الأسرة التيمورية - مرجع سابق .

• شاه رخ:—

هو شاه رخ¹ الابن الرابع من أبناء الأمير تيمور ، بلغت الدولة التيمورية في عهده أزهى عصورها ، حيث بدأت تلك الإمبراطورية من بعده في الصُّراع ، إيذاناً بدخولها مرحلة الضَّعف والتَّفكُّك ، وقد حكم في عهد أبيه الأمير تيمور الجزء الشرقي من الدولة التيمورية .

• مولده ونشأته :—

وُلِدَ شاه رخ في سمرقند عام 850 هـ الموافق 1379 م ، وكان ترتيبه الرابع والأصغر لأبناء الأمير تيمور ، وكانت والدته محظية تاجيكية². وقد حكم شاه رخ بعد أبيه من 807 إلى 850 هـ / 1405 - 1447 م .

رافق أباه في حملاته على خراسان وغرب إيران والهند وبلاد الشام والأناضول، وعيَّنه والده حاكماً علي خراسان منذ سنة 799هـ/1397م، وجعل عاصمته هرات ، وخضع لشاه رخ بعد وفاة تيمور حكام سجستان ومازندران عام 809 هـ / 1406 م وضم إليه أملاك ابن أخيه بير محمد في غزنه وكابل ودخل سمرقند عام 811 هـ / 1409 م وألحقها بسلطته³.

يُعدّ شاه رخ أكثر حكام البيت التيموري أهمية ، حيث اعتبره معاصروه حاكماً شجاعاً ذا طبع معتدل يميل إلى السلم ، ولكنه لا يكره الحرب ، تغاضى ما استطاع عن آثار أعمال والده تيمور، فأهمّل العمل بشريعة " الياسا" التي وضعها جنكيزخان ، وما أضافه عليها تيمور، وعُرف باسم " التوزدكات "، وأمر بتطبيق الشريعة الإسلامية . بلغت الامبراطورية في عهده الطويل عصرًا ذهبيًا في المجالين الثقافي والفني فضلاً عن المجال السياسي .

¹ - يعني اسم " شاه رخ " حرفياً في اللغة الفارسية " وجه الملك " ، كما يطلق أيضاً ذلك الاسم في اللغة الفارسية علي قطعة " الطابية " المستخدمة في لعبة الشطرنج ، ويذكر أن والده الأمير " تيمور " كان يلعب الشطرنج عندما تلقى نبأ ميلاده ، فأطلق عليه في الحال اسم شاه رخ وتعني الملك والقلعة .

² - معجم البلدان - مرجع سابق .

³ - لمحات من الأسرة التيمورية - مرجع سابق .

وكانت وفاته إيذاناً بدخول الامبراطورية التيمورية عهداً آخر اشتدَّ فيه الصِّراع بين مختلف فروع آل تيمور¹.

حيث دمرت قبيلة الشاه السوداء التركمانية الامبراطورية الغربية عام 1410 م ، عندما استولت علي بغداد ، ونجح شاه رخ في تأمين فارس وبلاد ما وراء النهر من عام 1409 تقريباً.

شملت امبراطوريته الطرق التجارية الرئيسية بين الشرق والغرب ، ومنها طريق الحرير الأسطوري ، ولذلك أصبحت دولته من أغني الدول في ذلك الوقت² . وقد أدى تدمير المدن الفارسية الرئيسية إلى نقل المركز الثقافي للامبراطورية إلى سمرقند وهرات ، واختار شاه رخ أن تكون عاصمته في هرات بدلاً من سمرقند لتصبح منذ ذلك التاريخ مركزاً سياسياً للامبراطورية التيمورية ، ومقرّاً لإقامته خلفائه ، على الرغم من ذلك فقد استفادت جميع مدن الامبراطورية من ثراء وهبات بلاط شاه رخ والتي تمثلت في رعايته الكبيرة للفنون والعلوم .

لم يُتَح الصِّراع على السلطة للحكام التيموريين متابعة سياسة خارجية ، ثابتة ولكن شاه رخ الذي حكم لمدة طويلة ، عدل عن سياسة التشدد مع الصين التي انتهجها والده وأقلع عن فكرة غزو تلك البلاد ، وأوفد إلى الصين سفارتين عامي 811 هـ / 1408 م ، و 812 هـ / 1409 م ، واستقبل عام 815 هـ / 1412 م بعثة صينية ، حملت معها قبول الامبراطور الصيني ، من أسرة " مينغ " ، إقرار " شاه رخ " له بالتبعية باعتبار أن أسرة مينغ الحاكمة هي وارثة أسرة يوان التي كان قد أسسها الخان قوبيلاي بن تولوي بن جنكيز خان ، والتي كانت تدّعي الزعامة على باقي الدول المغولية وما انبثق عنها من ممالك ، وكان من نتائج هذه السياسة عودة العلاقات التجارية مع الصين إلى نشاطها السابق³.

¹ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

² - طريق الحرير - مرجع سابق .

³ - تاريخ الترك في آسيا الصغرى - مرجع سابق .

حاول شاه رخ أيضاً تجديد النفوذ التيموري في الدولة العثمانية الذي انبثق من معركة أنقرة ولذلك فقد تلقى من السلطان العثماني مراد الثاني ردّاً بالإقرار بالتبعية له على رسالة وجهها له شاه رخ عام 839 هـ / 1435 م يطلب منه فيها ذلك .

قامت أول علاقة بين " شاه رخ " ودولة المماليك في عهد السلطان برسباي ، وذلك عندما أرسل شاه رخ سفيراً له عام 834 هـ / 1429 م ، إلي سلطان مصر يطلب منه إرسال بعض مؤلفات العلماء المصريين ومنها " فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني " الذي يقع في ثلاثة عشر مجلداً ، وكذلك كتاب " تاريخ المقرئزي " ، كما طلب شاه رخ من سلطان مصر برسباي السماح له بكسوة الكعبة ، باعتباره شرف كبير له ولكل حاكم مسلم ، ولكي يحت السلطان " برسباي " علي تلبية طلبه قال إنه نذر أن يكسو الكعبة ، وقد عقد السلطان مجلساً بين يديه حضره القضاة الأربعة وطلب رأيهم فأجاب قاضي القضاة " بدر الدين محمود العيني الحنفي " بأن نذر الأمير شاه رخ لا ينعقد ولذلك رفض طلبه أن يكسو الكعبة ، ولكن أرسل له سلطان مصر الكتب التي طلبها¹.

وامتدت علاقات شاه رخ مع دولة المماليك حقبة طويلة من الزمن بين عام " 833 هـ / 1430 م ، وعام 848 هـ / 1444 م ، تبادل فيها الرسائل مع سلاطين المماليك .

وبعث بوفوده إلى القاهرة ، وطالب شاه رخ بأن يرسل له كتب دينية وتاريخية معينة ثم طمح إلى أن يرسل كسوة للكعبة ، ولما رفض السلطان برسباي طلبه أرسل إليه شاه رخ يطالبه بالإقرار بالتبعية له، على نحو ما كان أقرّ به السلطان فرج لوالده تيمور ولكن برسباي رفض ورد المبعوث التيموري خائباً .

وأخيراً انتهى الأمر بسماح السلطان جقمق عام 848 هـ / 1444 م لشاه رخ بإرسال كسوة للكعبة ، واستمر منذ ذلك الوقت قدوم الحجاج من المشرق إلى الحجاز وكان بعضهم يمر بالمدن الواقعة تحت النفوذ التركي².

تركزت الحياة الفكرية في هرات في عهد شاه رخ، وفي سمرقند في ظل ولده ألوغ بك

¹ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مرجع سابق .

² - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مرجع سابق -

وساعد على هذا النشاط أن كلا الحاكمين كان مثقفاً . فكان " شاه رخ " شاعراً وممارس ابنه البحث العلمي بنفسه ، فضلاً عن أن كلا منهما حكم مدة طويلة ، والتفت حولهما حاشية مثقفة نشيطة¹.

وبفضل أعمال شاه رخ تحولت المدينة مركزاً حضارياً وفكرياً للحضارة الفارسية الإسلامية في موقع متقدم في قلب آسيا .

فأسس فيها مكتبةً ، وأرسل يجمع لها الكتب ، وعاش في كنفه عددٌ من الشعراء والعلماء منهم الشاعر " سيدي أحمد بن ميرانشاه ، حفيد الأمير تيمور " الذي نظم له مصنفًا شعرياً بالفارسية دعاه " تعشق نامه " عام 829 هـ / 1426 م .

ومنهم المؤرخ حافظ أبرد الذي توفي عام 822 هـ / 1419 م ، والذي كتب بتشجيع من " شاه رخ " نفسه كتابه التاريخي الموسوعي " مجمع التواريخ " وكان من ندمائه شرف الدين علي يزدي الذي توفي عام 858 هـ / 1454 م مؤلف كتاب " ظفر نامه " الذي يعد أوسع مؤلف عن تاريخ الأمير تيمور .

استمر نشاط حركة البناء في عهد شاه رخ بإشراف زوجته جوهر شاد التي أمرت بإشراف المهندس قوام الدين الشيرازي ، ببناء مسجد على قبر الإمام علي الرضا في مدينة مشهد .

وزُيّنت جدران المسجد بزخارف الفسيفساء والقاشاني البراقة². وشيدت جوهر شاد مدرسة كبيرة وجامعاً ، بُني في كل زاوية من زواياه الأربع مئذنة . وأخيراً أقامت جوهر شاد مدفنًا لها في هرات .

• وفاته :-

تُوفي شاه رخ عام 893 هـ / 1447 م³.

¹ - الثقافة العربية الإسلامية في العصرين المغولي والتيموري - مرجع سابق .

² - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

³ - معجم البلدان - مرجع سابق .

• ظهور الدين محمد بابر :-

ظهر الدين محمد بابر بن عمر شيخ ميرزا ، الشاعر والكاتب الأوزبكي العظيم والمفكر ، والمؤرخ ، ورجل الدولة . مؤسس الدولة التيمورية في الهند ، وأحد أظهر الشخصيات التركية في القرن العاشر الهجري " السادس عشر الميلادي " ، سواء علي المستوي السياسي ، أو المستوي الأدبي ، ولا يختلف في هذا عن معاصريه من السلاطين الأتراك الكبار ، وهم السلطان بايزيد الثاني " المتوفي عام 804 هـ / 1402 م " والسلطان سليم الأول " المتوفي عام 927 هـ / 1520 م " ، والسلطان سليمان القانوني " المتوفي عام 974 هـ / 1566 م " ، والشاه اسماعيل الصفوي " المتوفي عام 931 هـ / 1524 م " ، والسلطان حسين بايقرا سلطان هراة التيموري " المتوفي عام 911 هـ / 1504 م " ¹ ، ولذلك يعد من كبار القادة والفاثحين في تاريخ الإسلام ، حيث نجح في إقامة دولة مترامية الأطراف بهمته العالية وروحه الطامحة وإصراره الدائب قبل أن يقيمها بسيفه وغزواته ، تعرض لمحن كثيرة وهو لا يزال صبياً فقابلها بثبات الأبطال وبقلب لم يعرف اليأس إليه طريقاً .

• المولد والنشأة :-

تعود جذور " ظهور الدين بابر " من ناحية أبيه إلى الأمير تيمور ، وبينهما خمسة أجداد ، الذي أقام دولة عظيمة امتدت من دلهي حتي دمشق ، ومن بحر آرال إلي الخليج الفارسي ، ولم تلبث هذه الدولة أن تفككت بعد وفاته بين أولاده ، حتى أفلح حفيده السلطان أبوسعيد ميرزا في أن ينشئ له دولة امتدت من السند إلى العراق وخلفه فيها أبناؤه العشرة ، واختص " عمر شيخ " - والد ظهور الدين بابر - بإقليم فرغانة بأقصى الشمال الشرقي من بلاد ما وراء النهر ، أما جذوره من ناحية أمه " قتلغ نغار خاتم " فيصل نسبه من خلال خمسة عشر جداً إلى جنكيز خان ² .

¹ - تاريخ بابر نامه - تصنيف: ظهور الدين محمد بابر - ترجمة : د. ماجدة مخلوف - دار الآفاق العربية 2014 - القاهرة

² - تاريخ الترك في آسيا الوسطى - مرجع سابق .

وُلِدَ **ظهير الدين محمد بابور** في شهر محرم عام 888 هـ / 14 فبراير 1483 في مدينة أنديجان ، في إمارة فرغانة بوادي فرغانة في أوزبكستان ، التي كان يحكمها والده عمر شيخ ميرزا .

وقد أطلق عليه شيخ عربي يدعي نصر الدين عبيد الله اسم **ظهير الدين محمد** ، بينما أطلق عليه من التراك اسم **بابور التزاماً** بالأعراف التركية ، وبذلك أصبح اسمه **ظهير الدين محمد بابور**¹، وعلي الرغم من أن بابور جاء من قبيلة " بارلاس " ذات الأصل المغولي ، فقد اكتسبت قبيلته ثقافة تركية وفارسية ، قبل أن يعتنقوا الدين الإسلامي والاستقرار في المنطقة المعروفة ببلاد ما وراء النهر .

وعلي الرغم من أن **ظهير الدين بابور** تزوج عشر زوجات ، إلا أنه لم يكن له سوي خمسة من الأبناء ، ثلاثة أولاد " **همايون ، كمران ميرزا ، عسكري ميرزا ، حنظل ميرزا** " ، وبناتان " **جالبدن بيجم ، فاخر نساء** " .

عرف عن **ظهير الدين بابور** سماحته وبغضه للتعصب الديني ، ونهج خلفاؤه في الهند هذه السياسة فمارس الهندوس طقوسهم الدينية في حرية تامة ودون تضيق إبان حكم الدولة المغولية ، وكان سمحاً مع رجاله الذين تخلوا عنه ، فعفا عنهم حين وفدوا عليه في الهند، وعلى الرغم من قصر المدة التي مكثها في الهند فقد اجتهد في إصلاح نظم الإدارة وبناء دولته ، فشق الطرق ، وحفر الترع والأنهار ، وأقام عدداً من البساتين وجلب لها صنوفاً من الثمار والنباتات لم تكن الهند تعرفها من قبل ، فقد كان يقود جنداً من مختلف الأجناس ، من مغول وترك وأفغان لكنه نجح في قيادتهم ، وقضى بعزيمته وحكمته على بواذر أي تذمر في مهده ؛ ولذا نجح فيما عجز عنه غيره في مواصلة الفتح في بلاد الهند

• صفاته وخبراته:-

كان بابور شديد التعلق والإعجاب بكبار الساسة ذوي القدرة على التدبير والتنظيم الذين كان بعضهم لا يزال يحيا حياة شبه بدوية ، والذين كانوا يتحاربون ويتنازعون في آسيا الوسطى على السلطة ، وعلى الاستفادة من أصحاب القطعان والفلاحين والصناع

¹ - تاريخ بابور نامه - مرجع سابق .

والتجار، واستغلال المنطقة التي كانت تتمتع بالثروة ، كمرّ للقوافل من الصين والهند والعراق وإليها¹، كانت حياة " بابور " وأعماله مبنيةً على العلاقات والعداوات العائلية والقبلية ، أكثر مما كانت مبنية على الروابط اللغوية والقومية ، وقد مهّد له انتماؤه العائلي وأصله ونسبه الطريق للدخول في دائرة العظماء والأمراء ، وكانت انتصاراته في غمرة الحوادث نتيجة لما يتمتع به من خصال حميدة ، كالاقتداء والفطنة والشجاعة واللباقة وحُسن التصرف والعطف والمحبة .

فضلاً عن ذلك كان للياقة أصدقائه والمقربين إليه وخبرتهم تأثيرٌ كبيرٌ في نجاحه ، فلقد كان " بابور " قائداً محتاطاً ، تعلّم الكثير من قادة الأوزبك الكبار ، واعتمد على دقة الانضباط وفنون الدفاع في الأرض المكشوفة ، واستخدام المتاريس والمدفعية وفنون الحصار المتنوعة ، وكان لذلك كلّ تأثيرٌ شديد في حملاته على الهند .

فقد علّمته التجارب الكثيرة أن يعمل على توحيد المجموعات الصغيرة التي اجتمعت حوله في كابول من التيموريين المنهزمين ، الذين كانت لهم طموحاتهم الشخصية ومن المغول الذين لم يكونوا أهلاً للثقة ، بل كانوا أقلّ إخلاصاً من التيموريين ، وفي النهاية أصبح بابر بعد ما حظي به من قوة وانتصارات قائداً بلا منازع².

• مسؤوليات مبكرة :-

كان عمر شيخ مرزا والد ظهير الدين محمد بابور ، حاكماً علي فرغانة ، وقد دخل في صراع مع جيرانه من المغول — وكانوا أصهاره ومع إخوته — من أجل توسيع سلطانه ومد نفوذه ، لكن يد الأجل بادرته قبل أن يحقق طموحاته ؛ حيث سقط من فوق حصن له قتيلاً وخلفه ابنه ظهير الدين على ملكه ، وكان صبياً صغيراً في الثانية عشرة من عمره .

تولى ظهير الدين حكم فرغانة عام 1499 م ، وورث عن أبيه خلافاته وصراعاته مع جيرانه ، ولم يكن لمثل هذا الصبي أن يتحمل تبعات إمارة يتربص بها جيرانها وحارب بابور في البداية كأبيه ، أقاربه للسيطرة على مدن آسيا الوسطى ومناطقها الخصبة في

¹ - شيباني نامه - محمد صالح - دار ميلبوراسنكي 1908 - سان بطرسبورغ .

² - حبيب السير - غياث الدين بن همام الدين خواندمير - دار حجرية 1857 - بومباي

ربيع الأول عام 903 هـ ، ولم تثمر المحاولات التي قام بها كلٌّ من عمّه الأكبر السلطان أحمد ميرزا حاكم سمرقند ، وخاله الأكبر السلطان محمود حاكم طشقند ، والتي كانت تهدف إلى حرمانه من تولّي منصب أبيه في فرغانة ، واستغلّ الصراع بين أبناء عمّه فاحتلّ سمرقند¹، لكنه اضطر بعد أربعة أشهر أن ينسحب منها لعدم وجود غنائم حرب ولإكتشاف مؤامرة في قاعدة جيشه في أنديجان ، وبُعَيْدَ ذلك عاد بابر واحتلّ أنديجان من جديد ، لكنّ المغول الذين كانوا تحت إمرة تنبل دعموا أخاه جهانكير واستعادوا المدينة ، وفي عام 905 هـ قسّم بابر إمارة فرغانة بينه وبين أخيه ، واختار زوجة له . وفي هذا العام أيضاً سبقه " شيباني خان " الأوزبكي واحتلّ سمرقند ، ولكن بعد عام واحد قام بابر بحملة مفاجئة واحتلها مرة أخرى ، لكنّ شيباني خان هزمه في معركة سربل في رمضان من عام 906 هـ ، وسدّ عليه طريق الإمداد ، واحتلّ سمرقند من جديد ، وكان بابر بعد فتح سمرقند قد تخلّى عن أنديجان لأخيه ، وقد استعان للمحافظة على أمنه الشخصي بأهله وأقاربه².

خلال تلك الأحداث اعترف أعمام بابر وأخواله خانات طشقند ومنغوليا الشمالية صاغرين به ، فوضعوا في البداية جيشاً بتصرّفه لمواجهة تنبل ، ومن ثم تحركوا لمساعدته بأنفسهم وقد طلب " تنبل " في المقابل مساعدة شيباني خان ، واستطاع في ذي الحجة عام 908 هـ أن يهزم الخانات في آرتشيان وأن يقتلهم ، فلجأ بابر لمدة عام تقريباً مع مجموعة صغيرة من المقرّبين إليه إلى منطقة بعيدة جداً ، ضيفاً على قبيلتي " سُخ " ، و " هُشيار " الصحراويّتين ، لكنه اضطر بسبب تقدّم " شيباني خان المطّرد أن يبحث عن مقرٍّ له بعيداً من المناطق الرئيسية التي كان الأوزبك يطمعون فيها³ ، وقد اتجه في محرّم عام 910 هـ نحو كابول التي كانت حتى عام 907 هـ تحت سلطة أحد أعمامه ، وفي تلك الأثناء كانت تحت حكم الأرغونيين ، وتمكن بمساعدة أخيه وبعد أن ضمّ إلى جيشه الفارّين من المناطق التي كانت تحت سلطة الأوزبك ، من فتح كابول

¹ - أحسن السير - ميرزا برخورداد التركماني .

² - امبراطور الهند ، بابر نامه، نسخة مصوّرة عن النصّ التركي- بابر التيموري - ط. بوريج- لندن 1905 - حيدر آباد

³ - همايون نامه " تاريخ همايون " - غل بدن بيغم - النص مع ترجمة بوريج 1902 - لندن .

ونجح في دفع القبائل الأفغانية لتأدية الخراج إليه ، وفي عام 911 هـ توجه إلى هراة تلبيةً لرغبة السلطان حسين ميرزا بايقرا ، الذي كان قد طلب إليه مساعدته في مواجهة الأوزبك¹.

تمكن شيباني خان بعد موت السلطان "بايقرا" وعدم جدارة أولاده من فتح قسم كبير من خراسان ، فعاد بابور تالياً خالي الوفاض من طريق هندوكش إلى كابول ، وفي عام 913 هـ استعاد قندهار من الأرغونيين ، لكنّ "شيباني خان" أسرع لمحاصرة هذه المدينة المفتوحة حديثاً ، وبدلاً من أن يعتمد بابر للدفاع ، توجه إلى الهند²، في هذه الأثناء نشبت الحرب بين شيباني خان والشاه إسماعيل الصفوي، والتي أسفرت عن هزيمة شيباني خان ثم قتله في الأول من رمضان عام 916 هـ في مرو .

عاد بابور في رجب عام 917 هـ واحتل سمرقند للمرة الثالثة ، لكنّ حكمه لم يستمر طويلاً فقد انهزم عام 918 هـ على أيدي الأوزبك ، ولم يتمكن من الاحتفاظ بسمرقند وحين انتصر الأوزبك في الثالث من رمضان عام 918 هـ في "عُجْدُون" على القائد الصفوي "نجم الثاني" ، تخلّى عنه "بابر" ، وانصرف عن فتح سمرقند ، وكان ذلك آخر مسعى له لاحتلال هذه المدينة التي كان يعشقها³، بعد عامين من الحياة المليئة بالمخاطر وعدم الاستقرار في منطقة قندوز ، عاد "بابر" إلى كابول التي أصبحت منذ تلك اللحظة منطلق حملاته المفعمة بالأمل شرقاً وجنوباً ، وقد انتهت محاولاته المتكررة لاستعادة قندهار من الأرغونيين في جمادى الآخرة عام 928 هـ بمفاوضات أسفرت عن استعادته السيطرة على تلك المدينة ، ومن ثم صبّ اهتمامه على الهند ، التي كانت معرفته بها قد بدأت إليها منذ عام 922 هـ من خلال بعض الحملات الخاطفة⁴.

تلقّى فاتح قندهار دعوة دولت خان لودي حاكم لاهور، و عالم خان عمّ إبراهيم لودي سلطان دهلي إلى الهند لمساعدتهما في مواجهة إبراهيم ، وفي حملته الثانية على الهند

¹ - تاريخ عالم آري عباسي - إسكندر المنشي - دار حجرية - طهران 1313هـ / 1896م - طهران

² - أكبر نامه "تاريخ أكبر" - أبو الفضل بن مبارك علامي - كلكتا 1877 .

³ - تاريخ فرشته - قاسم بن غلام علي فرشته .

⁴ - أحسن التواريخ - حسن روملو - دار سيدن 1931 - بارودا .

أطاح بابور بحكم دولت خان ، واستفاد بعد ذلك من نفوذ عالم خان لكسب دعم الأفغان وفي رجب عام 932 هـ ، هزم قوات إبراهيم لودي في موقعة باني بت واحتل دهلِي وأكّرة وتقدّم شرقاً حتى جَوْنَبور وغازي بور على نهر الجانج¹ ، وقد جعله انتصاره في خانوا ، وتغلّبه على راناسنغا ملكة تشيتور في جُمادى الأولى عام 933 هـ مطمئن البال من ناحية راجستان ، وبعد انتصاره في شعبان عام 935 هـ على الأفغان الشرقيين ، في المكان الذي يلتقي فيه نهر جوجرة بنهر الجانج ، وسّع نطاق حكمه في الهند حتى البنغال² ، لكن من حوله أداروا له دفة الأمور ، وساعدوه في حكم البلاد ، ولم تكد تمضي سنوات قلّائل حتى انقض على سمرقند وأخضعها لحكمه من أيدي أبناء عمومته واتخذها عاصمة لدولته ، كما كانت من قبل حاضرة لجده تيمورلنك .

جلس بابور على عرش تيمورلنك ثلاثة أشهر ، ثم انقض عليه جيرانه من الأمراء الأوزبك والشيبانيين ، ففقد سمرقند وجميع أملاكه ببلاد ما وراء النهر ، وأصبح شريداً طريداً يضرب في الأرض ويبحث عن مأوى ، لكنه وإن خسر ملكه وتخلّى عنه رجاله ، فإنه لم يتطرق اليأس إلى قلبه ، ولم يفقد الأمل ، فظل عاملاً وبعض عام في الصحاري والجبال حتى وافته الفرصة فانتزها بعد أن التقى بجموع من عشائر المغول والأتراك الفارة من وجه الأوزبك عند الجنوب الشرقي ببلاد ما وراء النهر ، فقادها واتجه بها إلى أرض كابول و غزنة ، وكان أحد أعمامه قد توفى حديثاً عنها ، فأقام هناك ، وتولى عرشها ، وظل نحو عشرين عاماً قبل أن يقدم على فتح الهند ، وإقامة دولة المغول فيها .

• التحالف مع الصفويين:-

انتعشت الآمال في نفس ظهير الدين بقيام الشاه إسماعيل الصفوي شاه الفرس بالقضاء علي الأوزبك ، وزعيمهم شيباني خان ، وانتزاع قسم كبير من أملاكه وأراضيه وتطلع إلى استرداد بلاد ما وراء النهر ، فأمدّه حليفه بفرق من جنده ليستعين بهم في تحقيق آماله وطموحاته ، وقد رحّب أهالي بخاري وسمرقند بأميرهم القديم واستقبلوه استقبالاً

¹ - تاريخ السند المعروف بتاريخ معصومي - محمد معصوم البكري - عمر بن محمد داود بوتّه ، بوتّا 1938 .

² - امبراطور الهند ، بابر نامه، نسخة مصوّرة عن النصّ التركي- بابر التيموري- ط . بوريج- ليند 1905 - حيدر آباد

حسناً ، ثم ما لبث أن تحول الترحيب إلى داء ومقاومة ، لإصرار جنود الشاه على إرغام أهالي البلاد على اعتناق المذهب الشيعي ، وارتكبوا في سبيل تحقيق ذلك مذابح رهيبة ، مما جعل الناس يتحالفون مع الأوزبك لطرده هؤلاء الغزاة ومعهم بابر نفسه الذي حاول أن يمنع قادة الفرس من ارتكاب جرائمهم المخزية ، لكن صوت نصحه ضاع أدراج الرياح

• التوجه إلى الهند:-

كانت الفوضى تعم بلاد الهند في عهد إبراهيم لودهي ، آخر حكام أسرة لودهي الأفغانية وبدأت مقاطعات الهند تتفصل عن الحكومة المركزية، فاستغل بابر الوضع ، فقام أولاً بعدة غزوات استطلاعية لهذه البلاد ، ثم تمكن في عام 932هـ / 1525 م ، من احتلال البنجاب ودخول عاصمته لاهور¹.

وتقدم من هناك شرقاً إلى مدينة "باني تبت" شمال دهلي "دهلي اليوم" حيث انتصر على إبراهيم لودهي ودخل عاصمته دهلي.

ثم تقدم إلى أغرة ، فاتخذها عاصمة له ، وتربع على عرشها وسط ترحيب السكان في 29 رجب من العام نفسه (12 أغسطس 1525 م) .

لم يستتب الأمر للأمير بابر في الهند ، فقد واجه ثورات أمراء المقاطعات ، وكان عليه أن يخوض بمساعدة ابنه همايون معارك كثيرة للقضاء عليها ، وكانت أهم هذه المعارك معركة خانواه التي واجه فيها الأمراء الهنادكة "الهنود غير المسلمين" ومن انضم إليهم من أمراء اللودهيين ، عند مشارف منطقة راجبوتانا المعقل الرئيسي للهنادكة عام 933 هـ / 1527 م ، وكان النصر فيها حليف "بابر" ، الذي ذاع صيته بعدها في بلاد الهند ، ورسخت أسس دولة السلاطين التيموريين².

لم يعد بابر يقاتل لتثبيت عرشه بعد معركة خانواه الفاصلة ، وإنما لتوسيع رقعة ملكه فعمد إلى انتزاع الحصون التي كان يعتصم بها بعض أمراء الهنادكة واحداً بعد آخر وكان أهمها حصن جنجري جنوب أغرة .

¹ - تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم - محمد محمود الساداتي - القاهرة 1959 .

² - المسلمون في الهند - أحمد بخش الهروي - ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي - الهيئة المصرية للكتاب 1995 - القاهرة

ثم ولّى وجهه شطر الشرق¹، وكان اللودهيون قد اجتمعوا حول "محمود أخي إبراهيم لودهي" في إقليم بهار في أقصى الشرق، وبعد سلسلة من المعارك استطاع "بابر" القضاء على قوة الأفغان فجاءوا إليه مستسلمين.

وعقد معاهدة مع حاكم البنغال تنص على عدم اعتداء أحدهما على الآخر، ولكن حاكم البنغال لم يلتزم بنود المعاهدة، وأخذ يؤوي عنده الأمراء اللودهيين، فكان ذلك سبباً للأمير بابر كي يزحف إلى البنغال ويلحقه بدولته، التي امتدت من كابل في الغرب إلى البنغال في الشرق، ومن سفوح الهيمالايا في الشمال إلى حصن جندي في الجنوب.

عاد بابر إلى عاصمته بعد هذه الحروب في عام 935 هـ / 1528 م، وبدأت صحته تتدهور، ولكنه لم يلبث أن خرج إلى لاهور وفي نيته أن يعبر السند إلى أرض كابل لدفع خطر الأوزبك الذي ظهر من جديد، ولكنه لم يستطع على متابعة الرحيل، فعاد إلى عاصمته، حيث اشتد عليه المرض وتوفي.

يُعد بابر من أقدر الحكام الذين تولوا العروش، لا في عصره فحسب وإنما في مختلف العصور.

ويظهر ذلك بالمقابلة بين مبدأ حياته السياسية فتىً مطروداً من ملكه في فرغانة وكونه مؤسس دولة عمرت بعده لأكثر من قرنين من الزمان، كان بابر كثير النشاط، سريع الحركة، خطيباً مفوهاً، يؤثر في عواطف جنده، فيندفعون بحماسة في المعارك لإدراك النصر على الرغم من قلة عددهم وكثرة أعدائهم، جمع في شخصه صفات التركي المقاتل إلى صفات المثقف الفارسي المتحضر، وكان يجيد كلتا اللغتين التركية والفارسية.

وجد بابر على رغم حروبه الكثيرة متسعاً من الوقت لتجميل عاصمته أغرة بالقصور والحمامات والحدائق والقنوات، ونظم البريد، وأولع بالتصوير وجمع عدداً من اللوحات التي رسمت في الهند قبل عهده، وكان بلاطه قبلة العلماء الكبار، ولعل من أشهرهم المؤرخ الفارسي محمد خاوند صاحب كتاب "حبيب السير"، وكانت له الكثير من الصفات التي عن أجداده التتار والمغول.

¹ - الشعوب الإسلامية - عبد العزيز سليمان نوار - دار النهضة العربية 1973 - بيروت.

• التوغل في شبه القارة الهندية:—

في الوقت الذي انشغل فيه ظهير الدين بآبوري بتنظيم أموره بدأ الأمراء الأفغان يضعون أيديهم في أيدي الأمراء الهندوس في الراجبوتانا ، يكونون جبهة واحدة لطرد بابر وقواته ، واقتضى الأمر تحركاً سريعاً لضرب هذا التحالف قبل استتفاحه ، وما كاد يستعد لذلك حتى فوجئ بشيوع روح التذمر تسري بين جنوده ، وبتسرب الملل إلى نفوسهم ، وبدعوا يطالبون بالعودة إلى بلادهم ، وشعر بآبوري أن آماله ستتبدد لو رضخ لهوى جنوده ، وأن طموحه العظيم سيصبح سراباً لو وافقهم على هواهم ؛ فبذل معهم محاولات جادة لثنيهم عن عزمهم وبث فيهم روح الجهاد والآمال العظيمة حتى أفلح في جعلهم يخضعون له¹.

وما كاد يتم له ذلك حتى أرسل ابنه همايون إلى المناطق الشرقية في أربعين ألفاً من الجند فاستولوا على قنوج ، واتجهوا إلى آكر فاستولوا عليها ، وتوغلوا حتى أشرفوا على حدود البنغال ، وبينما قوات همايون تحقق تلك الانتصارات ، كان خطر الأمراء الهنادكة لا يزال قائماً ، فأرسل بابر إلى ابنه يستدعيه على عجل لمواجهة التحالف الذي قام بين الهنادكة وأمراء الأفغان تحت زعامة راناسنكا سيد الراجبوتانا وأكبر أمراء الهنادكة ، وتجمع في هذا التحالف نحو مائة وعشرين ألفاً من الجند ومئات الأفيال².

التقى الطرفان في معركة فاصلة في " خانواه " وثبت المسلمون في الميدان ، وأبلىوا بلاءً حسناً ، واستعملوا البنادق والمدفعية ، حتى جاء نصر الله والفتح ، فانفرط عقد الهندوس وولوا الأدبار ، وبهذا النصر العظيم قضى على الخطر الهندوسي الذي ظل يهدد كيان الدولة الإسلامية بالهند منذ قيامها على يد السلطان " محمود الغزنوي " في نهاية القرن الرابع الهجري³ ، ولم يكتف " بابر " بهذا النصر، فخرج بقواته لمطاردة ثورات الأفغان حتى حدود البنغال ، وبذلك خضعت له الهندستان ، وأقام إمبراطورية المغول في الهند.

¹ - تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند - جمال الدين الشبالي - الإسكندرية 1967 .

² - تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية - أحمد محمود الساداتي - مكتبة نهضة الشرق 1970 - القاهرة .

³ - تاريخ الإسلام في الهند - عبد المنعم النمر - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر 1981 - بيروت .

• أعماله الأدبية: -

لم يكن ظهير الدين محمد بابور قائدًا عظيمًا وفاتحًا كبيرًا وحسب ، بل كان أديبًا موهوبًا وشاعراً نظم الشعر بالتركية والفارسية ، وترك ديواناً بالشعر التركي ، يعده بعض الباحثين ثاني اثنين في الشعر التركي في زمنه بعد الشاعر " أمير علي شيرنوائي" كما وضع كتاباً في علم العروض ، وتعدُّ سيرته التي اشتهرت باسم " بابور نامه" ، أعظم آثاره الأدبية ، كتبها بالتركية بأسلوب ينم على تمكن صاحبها من الثقافة الإسلامية وآداب العربية والفارسية ، وقد ضمنها ترجمة لحياته وعصره ، وذكر فيها ما قبله من أحداث وحروب ، واتسمت السيرة بالصدق مع النفس وغيره ، فلم ينكر فضيلة لعدو أو يخفي رذيلة لصديق ، ولم يذكر بابور متى بدأ بكتابتها ، وقد ضاع أصلها التركي ولكنها ترجمت إلى الفارسية وإلى بعض اللغات الأوروبية ، وتدل ترجمتها على قيمتها التاريخية فضلاً عن قيمتها الأدبية ويبرز الاتجاه الديني كثيراً في ابداع " ظهير الدين محمد بابور " ، الذي يستعمل كلمات وتعبيرات تدعو إلى الهداية والخير ، ويلجأ إلى صفات الأنبياء ، وإلى الأحداث المرتبطة بهم لإيصال أهدافه الأدبية¹.

ويتميز التراث الشعري للأمير بابور بالتنوع والثراء ، فقد تمَّ جمعُ أعماله الشعرية الغنائية في " ديوان كابول " عام 1519 ، ثم في " الديوان الهندي " خلال عامي 1529 و 1530 ، وكتب قصائده في أكثر من عشرة أنواع من فنون الشعر الغنائي الشرقي وتعكس قصائده سيرة حياته الذاتيه ، والبيئة المحيطة ، والأحداث التاريخية ، ويتمثل الأساس الشعري للأمير بابور في جوهر قصائد الغزل الغنائية ، وتتجسد براعة الشاعر في الطابع الأدبي الفريد ، ومهارته في استخدام أكثر الوسائل التعبيرية في اللغة التركية وكان " ظهير الدين محمد بابور " قد كتب جزءاً من مؤلفاته باللغتين العربية والفارسية ، إلا أن كتاب " المبين " قد كتبه باللغة الأوزبكية ، وهو نموذج ساطع للأدب الديني والفني الذي انعكس فيه علي نطاق واسع غني اللغة الأوزبكية وجمالها².

¹ - الأدب الأوزبكي الإسلامي - شاه رستم غياث شاه موساروف - جامعة الإمام محمد بن سعود 2004 - الرياض

² - الأدب الأوزبكي الإسلامي - مرجع سابق .

وتعكس قصائد بابور بصورة واقعية ، الأحداث التاريخية لعصره ، وسيرته الذاتية والبيئة المحيطة، والعلاقة بين البشر، والعقيدة ، والعادات والتقاليد ، والأخلاق الخاصة بذلك العصر، الأمر الذي جعل أشعار " بابور " هي سيرة ذاتية للشاعر تعرض المشاعر الدفينة بلغة شاعرية مؤثرة ، وتروي بحرفية المعاناة المنبثقة عن الصدام بواقع الحياة¹. يتمثل الأساس الشعري لبابور في جوهر قصائد الغزل الغنائية ، ويعد أحد الجوانب الابداعية الهامة ، التغني بالحب الأصل الإنساني الواقعي علي الأرض ، حيث تتناول قصائده الغزلية ورباعياته القضايا الخاصة بالعلاقات الانسانية مثل العشق ، والصدقة والسعي نحو الجمال الرائع ، ويتغني الشاعر بالعشق الأرضي باعتباره أرفع المثل الانسانية ، وفي مواصلته لتقاليد شيرنوائي ، منح اهتماماً كبيراً للشعر الشعبي ، وتضم مؤلفاته المعلومات القيمة حول أنواع الفنون الغنائية الشعبية والمواد الإثنوغرافية " العرقية " المهمة .

ومن بين أعماله العلمية ، تحتل مكانة خاصة في تطوير الأدب الشرقي أطروحته حول علم العروض " أطروحة حول العروض " خلاصة الدراسة الحرفية الدقيقة لقواعد القصائد الشعرية ، والتناول النقدي لما حققته ، واستطاع بابور إثراء نظرية العروض وتطوير تصنيف أنواعها ونماذجها ، وذلك من خلال الظواهر الجديدة المنبثقة والأوضاع والتعميمات .

وتحتل " أطروحة حول علم العروض " مكانة خاصة بين الأعمال العلمية للأمير "بابور" التي كتبها خلال الفترة ما بين عام 1523 ، إلي عام 1525 ، التي تناول فيها العروض الشرقية ، وقام " بابور " بإثراء نظرية العروض بالأوضاع والتعميمات الجديدة ، وتطوير تصنيف أنواعها ونماذجها ، وكان " بابور " قد سبق كتابة أطروحته حول علم العروض ، كتابة مؤلفه الفلسفي الديني " المبين " عام 1521 ، والذي ضم الأسس الخمسة للشريعة الإسلامية ، وفي العام نفسه وضع كتاباً حول خراج الضرائب " مبين الزكاة " ، ولم يتم العثور حتي الآن علي مؤلفاته العلمية " حرب إيشي " ، " فن الحرب " ، " موسيقي علمي " (علم الموسيقي) ، وقد وضع بابور علي أساس

¹ - امبراطور الهند ، بابر نامه - مرجع سابق .

الحروف العربية " خط بابوري " (كتابة بابور) ، والتي تناسب المخارج الصوتية التركية ، ونقل القرآن الكريم وبعض المؤلفات المنفصلة للأمير " بابور " نفسه بتلك الأحرف .

كرس " ظهير الدين بابور " كتاب " المبين " لولديه " همايون ، كمران " بهدف تعليمهما أسس الدين والعقيدة ، ولهذا علي الأرجح يقوم بسرد تعاليم الإسلام بالتفصيل وي طرح أفكاره بشكل مبسط وبلغة سهلة مستعملاً جملًا قصيرة ودقيقة، ولذلك تعمد " بابور الكتابة بهذا الشكل المبسط ، وقد صدر الجزء الأول فقط من هذا الكتاب " الاعتقادية " ، والذي يبدأ بتمجيد الله ورسوله، ثم يعرض أسباب كتابته لهذا الكتاب علي النحو التالي :

كي تعلم أنت ، يا بني السعيد

المرتبط بي بروحك وجسدك

هذه تعاليم مهمة جدًا

وإذا كنت لا تعرفها تعود بالضرر علي إيمانك

وقد فكرت بجمعها كلها

وطرحها شعراً

كي تتمكن من فهمها بسهولة

ومعرفتها من أولها إلي آخرها

وهذا سيؤخذ في الحسبان يوم الحساب

وسيحيب لي ولك

هذا الهدف الذي وضعته نصب عينيّ

وسأجتهد لجمع كل ما أعرف

من التعاليم الدينية

وأهدي هذا الكتاب إليك

قضايا الدنيا وهمومها لا تساوي شيئاً

فالعاقل يهتم بقضايا الدين

وسيصبح أقوى يوماً بعد يوم في العلم والدين
ليمنحك الله السعادة والثروة يا همايون
ولتأتلك الثروة والسلطة يا كمران
وكن جديراً بالمجد والإحترام

وقد أولي بآبوري اهتماماً خاصاً لترتيب وشكل مؤلفه ، حيث انتقى أسلوب المثنوي وكتبه علي وزن الخفيف ، كما أخذ بعين الاعتبار امكانيات هذا الأسلوب وتمكن من استغلالها؛ ولذلك يتم استيعاب وفهم المعارف الدينية ببساطة ، كما يمكن التعرف علي أسلوب المؤلف وأفكاره ومواقفه الفلسفية¹.

تشهد " بآبوري نامه " الشهيرة علي التاريخ المجيد للثيموريين ، والنضال من أجل إقامة الدولة العظمي " ، وتعرض بشكل مفصل أحداث أعوام 1494 - 1529 ، ويحتفظ معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم في جمهورية أوزبكستان ، بعشرات النماذج لمخطوطات " بآبوري نامه " ، وعلي أساس تلك النماذج قام " بورسو شمسبيوف " المتخصص في البآبوريات ، بعد مقارنته لبعض المخطوطات ، بنشر المؤلف العبقري للنص النقدي لها عام 1960 ، ولاحقاً قام بدوره العالم الياباني " إ . مانو " بأعداد النص النقدي لعمل " بآبوري نامه " 1994 ، كما قام " إ . إيلمينسكي " أيضاً بنشر نصوص " بآبوري نامه " عام 1847 ، و " بيفيرج " عام 1905 ، و " فترت " مقتطفات عام 1928 و " ب . شمسبيوف " عام 1960 .

وقد ترجم " بآبوري نامه " إلي اللغات الفارسية عام 1586 ، والهولندية عام 1705 الإنجليزية عام 1826 ، والفرنسية عام 1871 ، والتركية عام 1940 ، وكذلك الروسية في نفس العام ، وقد وصلت " بآبوري نامه " إلي العالم العربي بعد أن قامت الدكتوراة ماجدة مخلوف بترجمتها إلي اللغة العربية عام 2014 ، بعد عمل شاق استمر لما يقارب العشرين عاماً ، الأمر الذي يعد إضافة كبيرة للأدب العربي ، للتعرف علي أدب الأمير " بآبوري " ، ومعرفة تلك الفترة التاريخية الهامة في التاريخ الإسلامي ، التي تناولها ذلك العمل الأدبي الهام .

¹ - الأدب الأوزبكي الإسلامي - مرجع سابق .

واقْتباساً لموضوع "بابور نامه" وضعت روايات لعدد من المؤلفين الأجانب مثل "ف . أ . ستيل" في باريس عام 1940 ، و "ف . جرينارد" في باريس أيضاً عام 1930 و "ج . ليمبا" في نيويورك عام 1960 ، و "ف . جاسكوني" في نيويورك أيضاً عام 1980 ، و "مونيلا" ست روايات ، وغيرها ، كما كتب عنه القصائد العديد من الكتاب الأوزبك "آيبك" ، "ب . بايكابولوف" ، ورواية "ب . قديروف" ، وقصة "خ . سلطانوف" .

• وفاته:—

بعد أن انتصر بابور على الأفغان لم يمتد به الأجل فتوفي في 5 جمادي الأولى 937 هـ / 22 فبراير 1530 م ، وهو في الخمسين من عمره ، في أكرة بالهند ، وبعد ست سنوات من وفاته نقل جثمانه إلى حديقة كابول حيث دفن في مقبرته الحالية¹ ، بعد أن أسس الدولة المركزية للبابوريين في الهند .

التي دخلت في التاريخ العالمي تحت اسم "امبراطورية عظماء المغول" ، والتي ظلت قائمة حتي استيلاء الإنجليز علي الهند .

¹ - طبقات أكبري - نظام الدين أحمد - دار B. De 1931 - كلكتا .

• أبو الفضل البلعمي:—

هو أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي ، قائد عسكري ، وسياسي بارع ، شغل منصب الوزير في عهد الأمير نصر الساساني ، واشتهر بالبراعة في التراسل الحكمة في الإدارة ، كما كان لها اهتمامات كبيرة بالعمران ، والكتابات الأدبية .

• مولده ونشأته :—

لم تشر المصادر وكتابات التراجم إلي العام الذي وُلِدَ فيه أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي ، ولكنه نشأ في مرو ، ودرس فيها علومه الأولى على عدد من العلماء ، منهم الإمام محمد بن نصر المروزي الذي كان له أثر في آرائه .

وكان لأبي الفضل ، كما يقول الإصطخري ، عددٌ من الدور هناك ، ثم انتقل بعد ذلك إلى سمرقند لمتابعة دراسته في علوم العربية والفقه والحديث .

انتقل أبو الفضل إلى بخاري ، عاصمة السامانيين ، واتصل بالأسرة الحاكمة فيها منذ أيام الأمير إسماعيل بن أحمد ، الذي حكم خلال الفترة من عام 279 هـ / 892 م ، إلي عام 295 هـ / 907 م ، والذي كان ثالث أمراء الأسرة الحاكمة ، وغدا واحدًا من رجال الحاشية الذين توكل إليهم بعض مهام بين الحين والآخر، وبدءًا من عام 308 هـ / 920 م اقترن اسمه بالنشاط الحربي للسامانيين .

فكان في عداد الجيش الذي أرسله الأمير نصر بن أحمد الساماني الذي حكم خلال الفترة من عام 301 هـ إلي عام 331 هـ إلى طوس في خراسان لقتال بعض العصاة .

وكان ثبات أبي الفضل في المعركة سببًا في تحولها من هزيمة إلى انتصار.

وفي قدومه الثاني إلى خراسان كان واحدًا من قواد الجيش .

ظهرت حنكته السياسية ، إضافة إلى شجاعته في القتال عندما استولى على جرجان "

جنوب شرقي بحر قزوين " .

وانتهت مراسلاته مع حاكم استراباذ المجاورة إلى قبول صاحبها دفع إتاوة إلى الأمير نصر في مقابل بقاءه عليها .

نتيجة ما حققه أبو الفضل من نجاح عسكري وسياسي في خراسان أسند إليه الأمير

نصر منصب الوزارة عام 310 هـ / 922 م .

وكانت الإمارة السامانية في ذلك الوقت مضطربة الأحوال بسبب ثورة أحد أقرباء الأمير نصر عليه .

وظهرت حنكة أبي الفضل البلعمي مرة أخرى عام 318هـ / 930 م حين نشبت ثورة ثانية اشترك فيها ثلاثة من إخوة الأمير نصر مستغلين خروجه من العاصمة بخارى في رحلة إلى نيسابور ، إذ تمكن أبو الفضل ، بعد مراسلات ، من الإيقاع بين الثوار ، فقتل بعضهم بعضاً وانتهت ثورتهم بالإخفاق .

اشتهر الوزير أبو الفضل ببراعته في التراسل ، وقد استغل هذه المقدرة عام 321 هـ / 933 م في ثني حاكم الري مرداويج بن زيار عن غزو جرجان وإجباره على دفع مال لتبقى له الري ، إذ كتب إليه يقول: أنا أعلم أنك لا تستحسن كفر ما يفعله معك الأمير السعيد " يقصد الأمير نصر " وأنت إنما حملك على قصد جرجان وزيرك ، وأنا لا أرى لك مناصبة ملك يطيف به مائة ألف رجل من غلمانه ومواليه وموالي أبيه .

والصواب أنك تترك جرجان له وتبذل عن الري مالا تصالحه عليه .
اتصف أبو الفضل بالجد والحزم ، وعرف بهما في السياسة ، الأمر الذي جعل له مكانة كبيرة في الإمارة السامانية تتم على حس إنساني ورأفة بالرعية ، إذ كان يسعى إلى تخفيف ثورات الغضب التي عرف بها الأمير نصر ، فأفقه ألا يأمر بتنفيذ أي عقوبة شديدة إلا بعد مضي ثلاثة أيام من صدور مثل هذا الأمر ، ليكون باستطاعة الأمير أن يراجع نفسه بعد أن يهدأ غضبه .

وأفلح أبو الفضل في تعيين ثلاثة من الفضلاء ، انتقاهم من سبعين رجلاً بعد فحص وتمحيص دقيقين ، ليسند إليهم مهمة الشفاعة لدى الأمير. تعدت أعمال الوزير البلعمي إصلاح الإدارة إلى العمران ، فقد شيد في بخارى محلة وباباً في سورها يحملان اسم الشيخ أبي الفضل ، ولكن يبدو أن عودة أحد أقرباء الأمير نصر إلى الثورة عام 326هـ / 938 م ، بعد أن حصل له أبو الفضل على عفو من الأمير إثر ثورته الأولى عام 322هـ / 934 م ، قد دفعت الأمير نصر إلي الاستغناء عن خدمات وزيره غير مبال بما حاق بإدارة الدولة من خلل بعد تنحيته .

● مكانته عند المؤرخين:—

أثنى علي أبي الفضل كلُّ مَنْ أثنوا على ذكره ، ومدحه المؤرخون عند الكتابة عنه ، لما تميز به من خصال لم تتوفر في كثير من الرجال الذين عملوا بالسياسة وكانوا في مكانته ومنصبه في ذلك الزمان ، ومما جاء في أقوال المؤرخين :

قال فيه البيهقي إنه " من نوادر عصره علماً وفضلاً " .

وصفه ياقوت الحموي " بوزير آل سامان " ، وأورد له ، كما ذكر في معجم البلدان ، ترجمة في كتابه " أخبار الوزراء " الذي لم يصل إلينا¹ .

وصفه ابن الأثير بأنه " من عقلاء الرجال " ² .

قال عنه الذهبي إنه " الوزير الكامل الذي فاق أهل زمانه " وعده إماماً فقيهاً ونسب إليه آراء في مسائل الإيمان والعقائد³ .

قال ابن العماد الحنبلي " أحد رجال الدهر عقلاً وبلاغة " ⁴ .

رأى فيه بارتولد " رجلاً من ألمع رجال السياسة في الدولة السامانية ، وردّ الجوانب المشرقة في عهد الأمير نصر إلى جهود الوزير أبي الفضل البلعمي وجهود سلفه أبي عبد الله محمد ابن أحمد الجيهاني الذي شغل المنصب في الحقبة الأولى من حكم الأمير نصر⁵ .

● مؤلفاته:—

يُنسب إلى أبي الفضل البلعمي كتابان مفقودان هما " تلقيح البلاغة " ، و " كتاب المقالات " ⁶ .

● وفاته:— وفي أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي في عام 329 هـ / 940 م ، في بخاري ذلك بعد أن غادر الوزارة بنحو ثلاث سنوات⁷ .

¹ - معجم البلدان - مرجع سابق .

² - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

³ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

⁴ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مرجع سابق .

⁵ - تاريخ الحضارة الإسلامية - مرجع سابق .

⁶ - سير أعلام النبلاء - مرجع سابق .

⁷ - الكامل في التاريخ - مرجع سابق .

الفهرس

7.....	تقديم.....
9.....	مقدمة.....
13.....	الباب الأول : أوزبكستان مهد الحضارة الإسلامية.....
15.....	الفصل الأول : التاريخ والجغرافيا.....
17.....	الموقع.....
19.....	مظاهر السطح.....
23.....	المناخ.....
25.....	البيئة الطبيعية.....
27.....	الفصل الثاني : النشاط البشري.....
29.....	السكان.....
32.....	اللغة.....
35.....	الثقافة.....
43.....	البنية الاجتماعية.....
49.....	الاقتصاد.....
64.....	طريق الحرير.....
67.....	الفصل الثالث : منابع الحضارة.....
69.....	التاريخ.....
104.....	العرب في أوزبكستان.....
109.....	الفصل الرابع : مدن تاريخية.....
111.....	طشقند.....
116.....	بخاري.....
127.....	سمرقند.....
135.....	ترمز.....
137.....	خوارزم.....
142.....	نسف.....

- ♦ خوقند 147
- ♦ نمنجان 149
- ♦ اندجان 150
- ♦ شهرسيز 151
- ♦ الباب الثاني : اسهامات علماء أوزبكستان في الحضارة الإسلامية 153
- ♦ الفصل الأول : علماء الشريعة الإسلامية 155
- ♦ داود بن رشيد أبو الفضل الخوارزمي 157
- ♦ الدارمي السمرقندي 163
- ♦ الامام البخاري 171
- ♦ محمد بن عيسى الترمذي 191
- ♦ الحكيم الترمذي 202
- ♦ اسحق بن إبراهيم أبو يعقوب الشاشي 211
- ♦ أبو منصور الماتريدي 213
- ♦ الهيثم بن كليب أبو سعيد الشاشي 220
- ♦ نظام الدين الشاشي 225
- ♦ القفال الشاشي 230
- ♦ أبو الليث السمرقندي 239
- ♦ أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد البخاري 247
- ♦ القاضي أبو اليسر البزدوي 252
- ♦ محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي 257
- ♦ عمر بن محمد النسفي 260
- ♦ إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي 269
- ♦ أبو القاسم الزمخشري 275
- ♦ علاء الدين السمرقندي 282
- ♦ عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي 288
- ♦ بهاء الدين نقشبند 296
- ♦ العلاء البخاري 311

أوزبكستان ومنابع الحضارة الإسلامية 533

- ♦ الفصل الثاني : تراجم العلوم التطبيقية والآداب..... 319
- ♦ الخوارزمي..... 321
- ♦ أحمد الفرغاني..... 334
- ♦ أبو علي البلعمي..... 343
- ♦ ابن سينا..... 348
- ♦ أبو الريحان البيروني..... 366
- ♦ عبد القاهر الجرجاني..... 381
- ♦ النظامي العروضي السمرقندي..... 394
- ♦ الشريف الجرجاني..... 400
- ♦ نجيب الدين السمرقندي..... 408
- ♦ قاضي زاده الرومي..... 412
- ♦ علي شير نوائي..... 418
- ♦ علاء الدين القوشجي..... 425
- ♦ عبد الرازق السمرقندي..... 430
- ♦ الفصل الثالث : القادة والحكام..... 435
- ♦ محمود الغزنوي..... 437
- ♦ ألب أرسلان 450
- ♦ علاء الدين محمد خوارزم شاه..... 457
- ♦ جلال الدين منكبرتي..... 464
- ♦ ترکان خاتون 473
- ♦ الأمير تيمور..... 481
- ♦ ميرزا أولوغ بك..... 493
- ♦ أبو سعيد بن محمد بن میران شاه..... 506
- ♦ شاه رخ..... 509
- ♦ ظهير الدين محمد بابر..... 513
- ♦ أبو الفضل البلعمي 527